أسد حيدر

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

الجزء الثاني

من منشورات

مكتبة الصدر - طهران - شارع ناصر خسرو







أسد حيدر

الإمام الصادق والمذاهب الأربعة

المجلد الثاني

هوية الكتاب

الكتاب : الامام الصادق والمذاهب الاربعة

المؤلف : اسد حيدر

الطبعة : الطبعة الثالثة سنة ١٤١١ هجرية و ١٣٧٠ شمسية.

الكمية : ٤٠٠٠ نسخة

القطع : وزيري

عدد الصفحات المجلدات : ١٧٤٨

ليتوغراف : ابن سينا

المطبعة : افست خورشيد

الناشر : مكتبة الصدر بطهران، شارع ناصر خسرو

تلفون ٣٩٧٦٩٦

الإمام الصادق

والمذاهب الأربعة

تأليف

أسد حيدر

المجلد الثاني

الجزء الثالث - الجزء الرابع

وُفِّقَتْ ـ وَلِلّٰهِ الشُّكْرُ
لِإِعادَةِ طَبعَةِ الثّالِثَةِ هٰذا الكِتابِ
الإِمامُ الصّادِقُ وَالمَذاهِبُ الأَربَعَة
بِالأُفسِت ـ مَكتَبَةُ الصَّدرِ بِطَهران
لِصاحِبِها السَّيِّدِ كاظِم صَدرِ السّاداتِ
الدِّزفُولي

سنة ١٤١١ هجرية

شارع ناصرخسرو
تلفون : ٣٩٧٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الدين عند الله الإسلام

آل عمران /١٩

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه
وهو في الآخرة من الخاسرين»

آل عمران /٨٥

«اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا
من دونه أولياء قليلا ما تذكرون»

الأعراف / ٣

«ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن
حزب الله هم الغالبون»

المائدة / ٥٦



عَرضٌ وتمهيد



نوعية البحث :

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، أضعه بين يدي القراء .

وقد نهجت فيه منهجي الذي سرت عليه في الجزئين الأول والثاني ، مبتدئاً بذكر الإمام الصادق (ع) في بيان موجز عن تاريخ حياته ، ونشاط مدرسته ، وبعض تعاليمه . ولم أتوسع في البحث – كما يتطلبه الموضوع – إذ لا يمكن اعطاء شخصيته حقها من الإحاطة والبيان ، فإن ذلك أمر يشق على الباحث حصوله مهما أنفق من جهد في هذا السبيل ، وفي أي ناحية يسلك ليفرغ منها فراغاً تاماً يجد نفسه في البداية لا في النهاية ؛ لأن شمول البحث لجميع جوانب شخصية الإمام الصادق عليه السلام ومزاياه التي اتصف بها، وأعماله التي قام بها ، لإعلاء كلمة الإسلام وتوحيد صفوفها ، هو من الصعوبة بمكان . ولهذا التجأت إلى إفراد البحث في ذلك بجزء خاص به ، كما أن الفترة التاريخية التي عاشها الإمام عليه السلام كانت مليئة بأحداث تأثر بها مجتمعه الذي كان يتصل به ، ويرتبط بواقعه ، فكان يعالج تلك المشاكل بحنكة وتدبر ، عن بصيرة ومعرفة بعاقبة الأمور .

وكانت الظروف تقضي على رجال أهل البيت عليهم السلام أن يكونوا محور آمال الأمة؛ لأن الثورة قامت باسمهم، وقد ارتفعت هتافات الثوار بالدعوة لهم، وإسناد الحكم إليهم، وكان هو عليه السلام زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره ، وهو أعلم الناس بتلك الأمور ، وما يؤول إليه الأمر بين العباسيين والعلويين ، كما أنه درس تلك الأوضاع وعاش مع أحداث مختلفة ، ومشاكل متراكمة . فكان موقفه عليه السلام أحرج موقف يقفه زعيم ديني يحمل رسالة الإسلام ، ويريد تطبيق نظامه في عصر هبت فيه زوبعة الأهواء ، واختلفت الآراء ، وذهب الناس فيه مذاهب شتى ، وسلكوا طرقاً متباينة ، فالموقف إذاً يحتاج إلى قيادة حكيمة، وسياسة إسلامية مركزة، فكان موقفه عليه السلام موقف القائد المحنك، الذي يسير على هدى من دينه ، وبصيرة من أمره ، ولقد ظلم التاريخ مواقفه ، وألجم عن التصريح بأعماله وآثاره، ولو أفصح التاريخ عن جميع مآثره وجليل أعماله – ولم يكن محظوراً عليه ذلك – لاتسعت دائرة البحث عن إدراك

جوانب تاريخ حياته

ومن الحق هنا الاعتراف بالقصور عن إدراك شخصيته ومكانتها في تاريخ الإسلام ، وما لها من الأثر العظيم في التشريع الإسلامي . وليس ذلك ، لغموض يكتنف جوانب عظمته ، أو وجود زوائد في دراسة حياته ، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته وعلوّ مقامه بدون حق ، كل ذلك لم يكن ، وإنما اتساع دائرة معارفه ، وتعدد نواحي شخصيته ، وعظيم أثره في بعث الفكر الإسلامي ، وتدفق ينبوع آرائه . وجهاده المتواصل في سبيل توجيه الأمة بآثاره الخالدة وتعاليمه القيّمة . هو السبب في قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة بسهولة .

والتزمت أن أذكر في كل جزء إماماً واحداً من الأئمة الأربعة . فذكرت في الجزء الأول : الإمام أبا حنيفة ، وفي الثاني : الإمام مالكاً ، وفي هذا الجزء الإمام الشافعي ، مقتصراً على ذكر أنسابهم ومناقبهم ونشأتهم ونبوغهم ، وذكر شيوخهم وتلامذتهم ، دون استقصاء لآرائهم وفقههم . وفي الجزء الرابع يأتي ذكر الإمام أحمد بن حنبل . وفي بقية الأجزاء سنعرض إلى الموازنة والمقارنة بين المذاهب الإسلامية .

تفاوت المذاهب في الانتشار :

تكلمت فيما مضى عن أسباب نشأة المذاهب وانتشارها وكثرة عددها ، وقد اقتصرت على ذكر البعض منها ، مع بيان موجز عن حياة رؤسائها ومنزلتهم العلمية . وأشرت إلى أسباب اندراس تلك المذاهب وبقاء الأربعة منها : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي . وقد اتضح لنا أن للحكومات دخلاً في نصرة المذاهب وانتشارها ، فإذا كانت الحكومة قوية وأيدت مذهباً من المذاهب ، تبعه الناس بالتقليد ، وظل سائداً إلى أن تدول الدولة .

وانتشار المذاهب وعظيم الإقبال عليها لا يدل على قوتها الروحية ، وعواملها الذاتية . فقد رأينا أن قوة الدعاة وتدخّل السلطة أقوى عامل لنشر المذهب (فأيّ مذهب كان أصحابه مشهورين ، وأسند إليهم القضاء والإفتاء ، واشتهرت تصانيفهم في الناس ، ودرسوا درساً ظاهراً ، انتشر في أقطار الأرض ، ولم يزل ينشر كل حين . وأي مذهب كان أصحابه خاملين . ولم

يولّوا القضاء والإفتاء . ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين) (١) .

والمذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف بالقوة والانتشار . فقد رأينا المذهب الحنفي هو أكثر المذاهب انتشاراً . وأعظمها إقبالاً . لقوة انصاره وكثرة دعاته في البداية والنهاية . إذ كانت نواة شهرته من غرس أبي يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية . فهو ناشر المذهب أو مؤسسه – إن صح لنا أن نقول ذلك – وقد كان أبو يوسف وجيهاً في الدولة . مقبولا عند الخلفاء ، له منزلة لا يشاركه فيها أي أحد . فكان لا يولي قاضياً إلا من انتسب لمدرسة أبي حنيفة .

واستمر القضاة في نشر المذهب في جميع الأقطار . مستمدين قوتّهم من السلطة التنفيذية ، حتّى أصبح مذهب أبي حنيفة هو المذهب الرسمي للدولة .

ولما اعتنق الأتراك مذهب أبي حنيفة أثر ذلك في قوته وانتشاره في العصور المتأخرة ، وناهيك بما للأتراك من قوة في الدولة ، وقسوة في الحكم . واستبداد في الأمر ، وقد ناصروه بكل حول وقوة ، وكان انتصارهم لطمعهم في الخلافة . فإن السلطان سليماً طمع في الخلافة الإسلامية ، وهي لا تكون إلاّ في قريش باتفاق المذاهب الا الحنفي فإنه جوز أن يتولى الخلافة غير قرشي ، فحمل الناس على اعتناق هذا المذهب .

وقد رأينا انتصار العباسيين لمالك بن انس – بعد غضبهم عليه – فقد أمروا بقصر الفتوى عليه ، وأعلن ذلك بأمر الدولة . ونودي – غير مرة علناً – ألاّ يفتي الناس إلا مالك (٢) وأمروا عمالهم باستشارته في الأمر . وعدم القطع دونه ، فهذا المنصور يقول لمالك : إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة ، أو أحد عمال الحجاز . في ذاتك . أو ذات غيرك . أو سوء سيرة في الرعية ، فاكتب إليّ بذلك . أنزل بهم ما يستحقون . وقد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك ويطيعوك في كل ما تعهد إليهم . فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف توجر على ذلك . وأنت خليق أن تطاع ويسمع منك (٣) .

وكان مالك يأمر الحرس ليأخذوا شخصاً إلى السجن . ويأمر بإطلاقه حين

---

(١) حجة الله البالغة للدهلوي ج ١ ص ١٥١ .
(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٠٦ .
(٣) مالك للخولي ص ٣١٨ .

يرى ذلك . ويجلس مالك عند الوالي فيعرض عليه السجن فيقول له : اقطع هذا واضرب هذا مائة وهذا مائتين واصلب هذا الخ. (١) .

وعلى أي حال فإن مالك بن أنس قد لحظته الدولة وقربته ، إذ وجدت منه عوناً ومؤازرة ، فقربوه وأحسنوا إليه ، ورفعوا مجلسه ، ونشروا علمه ، وأجزلوا له العطاء ، وأصاب منهم ثروة طائلة ، ومع هذا فهم مدينون لمالك في مؤازرتهم ومعاونتهم والركون إليهم .

وكان انتشار مذهبه في الأندلس يرجع لفضل القضاة ، وقوة السلطة ، إذ حملوا الناس على اعتناق مذهبه بالسيف كما مر بيانه .

أما المذهب الشافعي فقد تعرضنا لذكره وعوامل انتشاره ، وستأتي زيادة بيان في ترجمته ، كما تعرضنا لانتشار مذهب الإمام أحمد ، وقد رأينا الإعراض عنه محسوساً . ولم يكن كغيره من المذاهب شهرة ، بل اقتصر انتشاره في بغداد أما في سائر الأقطار فكان قليلاً جداً ، حتى إن بعضهم لم يعدّه من المذاهب المعمول بها ، وذكر مكانه مذهب الظاهري .

ولما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية ، وأخذ المذهب يتضاءل شيئاً فشيئاً . أما في مصر فلم تكن له أي شهرة هناك ، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر ٣١٢ شيخاً من جميع المذاهب ، وعدد طلابه ٩٠٦٩ ، وكان من بينهم ٢٨ طالباً من الحنابلة . و ٣ شيوخ منهم فقط ، ولكنه ظهر في القرن الثامن عشر ميلادي في صورة قوية جديدة ، بظهور الوهابيين الذين يتبين في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية . وقد تطرفوا في ذلك إلى حد بعيد ، وسيأتي الكلام على ظهورهم وتعاليمهم عند كلامنا في مذهب أحمد بن حنبل .

نظرة في التعصب المذهبي :

وقد رأينا كيف تغلبت روح التعصب المذهبي الشديد ، كما تغلبت الفكرة القائلة بتحريم تقليد غير المذاهب الأربعة . وتطورت الدعوة إلى ذلك بصورة واسعة وأخذ نشاطها يزداد حتى جعل من قلد غير هذه المذاهب خارجاً عن الدين . فكان هناك نزاع واحتدام وتعصب حتى بين معتنقيها ، أدّى إلى معارك دامية ، واتهام البعض للبعض الآخر وتكفير قوم لآخرين ، حتى قال

(١) مالك للخولي ص ٣١٩ نقلا عن القاضي عياض في الترتيب ج ١ ص ٢٧ .

قائل الحنفية : لو كان لي الأمر لأخذت الجزية من الشافعية (١) .

وأصبح كلٌ يحتكر الإيمان بالله والتصديق بنبيه لأبناء مذهبه . وأن الجنة وقف عليهم ولا نصيب لأحد فيها معهم ، خلافاً لما جاء به النبي وخروجاً على تعاليم الإسلام حتى قال أحد الحنابلة : إنه من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم .

وقد اندفع المتطرفون من معتنقي المذاهب الأربعة لبذل جهدهم في جعل رئيس مذهبهم هو المؤسس لعلوم الإسلام ، والمرجع الأعلى للتشريع ، وأن العلم مقصور عليه ، والاجتهاد لا يلدُ إلا به . وقد استنفدوا كل امكانياتهم في تصويره بصورة لا تشبهها صورة (فهو ملك بصورة البشر) (٢) وتمسكوا بأقوال أئمتهم تمسكاً جعلهم يقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله (٣) فكان يقال لهم : قال رسول الله فيقولون : قال فلان (٤) — أي رئيس المذهب — ويأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم (٥) .

وعلى أي حال فإن تلك الاتجاهات التي سار عليها المتعصبون للمذاهب ، قد استولت على كثير من أتباعها ، وقد يكون ذلك نتيجة للظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية ، من تدخل عناصر خارجة عن الإسلام ، لتشويه سمعة المسلمين والإساءة إلى المجتمع ، من بث روح الفرقة وإثارة الشغب ، ومن المؤسف أن نجد البعض (قدمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم — أي أئمة المذاهب — مع الحديث الصحيح ، فإنهم يردون كلام النبي المعصوم — مع اعتقاد صحة سنده — لقول نقل عن إمامهم ، ويتعللون باحتمالات ضعيفة) (٦).

كما وقد دفعهم التعصب إلى أنهم (إذا وقفوا على آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة تخالف مذهبهم ، صاروا يؤولونها على غير تأويلها ، ويصرفونها عن ظاهرها إلى ما تقرر عندهم من المذاهب والمشارب ، وطفقوا يطعنون على من عمل بفحواها الظاهر ومبناها الباهر ، كأن الدين — عندهم — هو ما جاء عن آبائهم وأسلافهم دون ما جاء عن الله في كتابه ، أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم) (٧) .

---

(١) مرآة الزمان القسم ١ ج ٨ ص ٤٤ .
(٢) أبو حنيفة للسيد عفيفي المحامي ص ٦ .
(٣) همم ذوي الابصار ص ٥١ .
(٤) توالي التأسيس للحافظ ابن حجر ص ٧٦ .
(٥) الاعتصام للشاطبي ج ٣ ص ٢٥٩ .
(٦) الوحدة الاسلامية للسيد رشيد رضا ص ٤٥ .
(٧) الدين الخالص للسيد محمد صديق حسن ج ٣ ص ٢٦٣ .

ومهما يكن من الأمر فإن تلك الاتجاهات كانت من تدخل عناصر دخيلة في الإسلام ، بعيدة عن مبادئه ، وإلا كيف يصح أن يقدم مسلم تشعبت فيه روح الإسلام إلى هذه الأمور المخالفة للحق ، والتي يتبرأ منها الإسلام ، كما أن أئمة المذاهب هم أنفسهم لا يعرفون ذلك في أنفسهم .

ولو استنطقنا تاريخ حياة أولئك الأئمة ، لأجاب بالإنكار على ما يرتكبه المتعصبون من مخالفة الواقع ، وقد ألفوا كتباً تختص بمناقبهم ، وجمعوا فيها ما لا يقبله العقل ، ولا يرتضيه الذوق ، من أمور لا صلة لها بالواقع . كما قد تساهلوا في نقل كل ما سمعوا ، وأثبتوا كل ما وجدوا، من دون التفات إلى المؤاخذات .

ويجب علينا — إن أردنا دراسة شخصية أحد من أئمة المذاهب ، أو اعطاء صورة عنها — أن لا نقتصر على اقتفاء ما نقلته ألسنة المعجبين به . فإن العقل يشهد بوضع أكثرها ، وعدم ارتباطها بالحقيقة ، ولهذا كان البحث عن المذاهب أمراً شاقاً مجهداً ؛ لما يكتنف الموضوع من غموض وتعقيد ، ويحتاج إلى تأمل واستفراغ واسع ، لإعطاء النتيجة عند الوصول إلى الغرض المطلوب . وربما يبدو للبعض سهولة البحث في الموضوع . ولكن الحقيقة غير هذا ، بل هو موضوع شائك يحتاج إلى جهد وعناء .

والخلاصة : إن مشكلة التعصب للمذاهب الأربعة هي أعظم مشكلة حلّت في المجتمع الإسلامي ، أدت إلى اختلاف في الآراء ، وتشتت في الأهواء ، واضطراب حبل المودّة ، وتكدير صفو الأخوّة . وكان من وراء ذلك خطر عظيم ، وانحطاط فظيع ، وقد تنبّه المسلمون لدفع ذلك الخطر ، في اتخاذ الطرق الناجحة لإصلاح الوضع وجمع الكلمة ، وقد تجاوبت أصوات المصلحين بالدعوة إلى الوحدة ولكن ذهبت صرختهم في واد ونفختهم في رماد !! لأن المتعصبين للمذاهب قد سيطرت عليهم عوامل العاطفة ، فحالت بينهم وبين التفكير بسوء عاقبة ذلك الانقسام الذي أوجده المتعصبون ، وقد مر المجتمع الإسلامي — على أثر ذلك — بفترات مائجة بالفتن والفوضى والحوادث الدامية ، حتى تصدع كيان المجتمع الإسلامي ، وطغى تيار التعصب ، واستفحل خطر الانقسام وتلبدت سحب الفرقة في سماء المسلمين ، والتقوا على صعيد الحقد والخصومة ، وتحللوا من رابطة المودة والإخاء فكانت حوادث مؤسفة ، من إراقة دماء ، ونهب أموال ، وحرق دور ، وإعلان مسبة البعض للبعض الآخر أو تكفير فرقة لأخرى ، وجعلوا الدين وسيلة للتغلب ، وطريقاً لنجاح الخصومة

فوضعوا أحاديث . واختلقوا مناقب ووضعوا بذلك كتباً مليئة بأوهام وخرافات تتعلق بنصرة المذهب وإعلاء كلمته . وكان كبار الأمة وصلحاؤها يقفون موقف المناوأة والمعارضة لهذه الأوضاع ، ولكن السواد تغلبت عليه دعاية العناصر المتدخلة ، بمعاونة السياسة العمياء .

وعلى تطاول الأيام وامتداد التاريخ لا نعدم من مشاهدة تلك الخلافات ولا زال دعاة الفرقة ، وأعوان الاستبداد يسايرون ركب الإسلام عبر التاريخ لتحقيق أهدافهم ، ولكن جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة .



الإمام الصادق

المدرسة والمذهب والشيعة



مدرسته وطابعها :

كانت الفترة التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام ، فترة محنة تمر بها الأمة، فقد كان الحكم الأموي حكماً جائراً ؛ إذ ابتعدت السلطة عن أحكام الإسلام ، فكانت نهاية الحكم الأموي مثل بداية قيامه ؛ إذ صبغت بالدم نهايته كما كانت بدايته .

وقامت دولة بني العباس ، وهي تلبس لباس الدين ، وترفع شعار الدعوة لمناصرة آل محمد ، والانتقام من أعدائهم ، وهي تحاول أن تكسب ود المسلمين.

وبعد أن تكشفت سياسة بني العباس ، وزال القناع عن وجه حكمهم ، اعتبر الناس عهدهم امتداداً لحكم بني أمية الجائر .

فأصبح المسلمون في معترك عصيب .. تحركت في جوانحهم الثورة وتاقت نفوسهم لتحقيق الإصلاح ، وكان البيت العلوي هو محط آمال الأمة ، فساندهم رجال الدين ، وانضوى بعض الفقهاء تحت رايتهم .

وفي ذلك المعترك الرهيب برزت شخصية الإمام الصادق وهو يحمل للأمة مبادىء الإسلام ، وينشر تعاليمه ، ويرفع صوت الإنكار على الظلم ، ويدعو للإصلاح بكل جهد ، وشارك الأمة في محنتها إذ امتزجت مشاعره بمشاعر الأفراد ، وتوجهت إليه الأنظار ، وانضم إليه رجال الفكر ودعاة الإصلاح ؛ لأنه عليه السلام يعرف كيف يبدأ الدعوة ، وكيف يداوي النفوس من الأمراض الاجتماعية، فكانت دعوته سلمية ، تهدف لتنوير الرأي العام، والحض على التمسك بأحكام القرآن، وقد توسعت آفاق دعوته، كما انتشر دعاته من تلامذته في كل مكان ، فأصبحت مدرسته منهلاً لرجال الأمة ومصدراً لعلوم الإسلام .

وكان طابع مدرسة الإمام الصادق الذي طبعت عليه ، ومنهجها الذي اختصت به — من بين المدارس الاسلامية — هو استقلالها الروحي ، وعدم خضوعها لنظام السلطة ، ولم تفسح المجال لولاة الأمر ، بأن يتدخلوا في شؤونها ، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها ، لذلك لم يتسن لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة ، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة . ومن المستحيل ذلك — وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه — فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين ، ولا تركن إليهم ، كما لا تربطها وإياهم روابط

الألفة ، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام . وبهذا النهج الذي سارت عليه ، والطابع الذي اختصت به ، أصبحت عرضة للخطر . فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتد والعداء يتضخم ، فلا الدولة تستطيع التنازل لمنهج المدرسة فتكسب ودها وتسعد بمعاونتها ، ولا المدرسة في إمكانها أن تتنازل لإرادة الدولة ، فتؤازرها وتسير بخدمتها وتتعاون معهـا ، وكيف يكون ذلك ؟! وهي منذ نشأتها الأولى ترتبط بالثقلين كتاب الله وعترة رسوله ﷺ ، وهما متلازمان متكاتفان لن يفترقا في أداء واجبهما لإرشاد الأمّة وهدايتها . فالقرآن ينهى عن معاونة الظالمين والركون إليهم « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون » (١) .

مواقفه من ساسة عصره :

ومن الواضح أن مبدأ العدالة — وهو من أعظم مبادىء الشريعة الإسلامية — أصبح في عهد أولئك الولاة لا يعمل به . فهم جبابرة ظلمة ، لا يصلحون لمركز الولاية على المسلمين ، وليس لهم كفاءة على التحلي بصفات الخلافة ، ولا قدرة لهم على تنفيذ أحكام الإسلام ، فهم لا يصلحون للولاية ولا تجب طاعتهم بحال . وإنّ في مؤازرتهم والمعاونة معهم خروجاً عن أمر الله ، ومخالفة لكتابه . وبذلك لا تكون ملازمة بين العترة وبين الكتاب إن داهنوا الظلمة أو ركنوا إليهم .

فسياسة أهل البيت تقضي بحرمة معاونة الظالمين ، وعدم الركون إليهم . ومنهجهم في توجيه الأمة لا يتعدى حدود ما أمر الله به ، فهم والقرآن يسيرون جنباً إلى جنب في أداء الرسالة ومهمة التبليغ ، وهم أئمة للعدل وحماة للدين ، ودعاة للصلاح . وقد برهنوا على أعمالهم بما كانوا يتحلون به من مكارم الأخلاق ، وجميل الصفات ، وشدة محافظتهم على نواميس الشرع . وقد اتضح لنا من سيرتهم ما لا حاجة إلى إطالة البحث فيه .

وقد صح عن الإمام الصادق أنه قال لأصحابه : « ما أحب أن أعقد لهم — أي الظلمة — عقدة أو وكيت لهم وكاء ، ولا مدة بقلم . إن الظلمة وأعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد » .

وكان ينهى عن المرافعة إلى حكامهم ، ولا يرى لزوم ما يقضون به ، لأن

(١) سورة هود آية ١١٣ .

حكمهم غير نافذ ، كما كان يشتد على العلماء الذين يسيرون في ركاب الدولة ويأمر بالابتعاد عنهم حيث يقول : الفقهاء أُمناء الرسل ، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم (١) .

وقد حاول المنصور أن يستميل الإمام الصادق في عدة مرات ، ولكنها محاولة فاشلة فلم يزل يبتعد عنه ، ويعلن غضبه عليه ، ولا تأخذه في الحق لومة لائم . كما أعلن مقاطعته له فكتب المنصور إليه : لولا تغشانا كما تغشانا سائر الناس . فأجابه الإمام عليه السلام : ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه ، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها ، ولا تعدها نقمة فنعزيك بها فلم نغشاك ؟ !!

فكتب إليه المنصور ثانية : تصحبنا لتنصحنا . فأجابه الإمام : من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك .

وبهذا يتجلى موقف الإمام الصادق من حكام عصره ، وابتعاده عنهم ، وهو النهج الذي أمر أتباعه أن ينهجوه ، وقد أبدى ذلك في كثير من مواقفه وأعلن للأمة وجوب مقاطعة الظالمين وحرمة المعاونة معهم ليحد من نشاطهم في هضم حقوق الناس ، واستيلائهم على مقدراتهم ، واستبدادهم في الأمور وجورهم في الحكم .

وكانت محاولة المنصور لجلب شخصية الإمام إليه وطلب الاتصال به هي تضييق دائرة المقاطعة التي أعلنها الإمام الصادق، والتي سار عليها كثير من الناس.

وسيأتي مزيد بيان لمواقفه مع المنصور وإعلان غضبه عليه وقد عرف المنصور بالشدة والقسوة وعدم مبالاته في إراقة الدماء وكان يقتل على الظنة والتهمة ويحاسب من يتهمه بالإنكار عليه أشد المحاسبة ، ولا يلين في شيء من ذلك ، كما لا يتورع في ارتكاب ما حرّمه الله تعالى .

والمنصور على ما فيه من الظلم وسوء المعاملة للرعية ، كان يتمنى أن يكون في دولته مثل الحجاج بن يوسف ، ذلك السفاح المستهتر ، فكان يقول : والله لوددت أني وجدت مثل الحجاج بن يوسف ، حتى استكفيه أمري وأنزله أحد الحرمين (٢) .

ومعنى ذلك أنه كان يتمنى أن يقضي على أهم مصدر للتشريع الإسلامي ، فيضع السيف في حملة الحديث ورجال العلم ، ويملأ السجون من الصلحاء ،

---

(١) حلية الاولياء للحافظ ابي نعيم ج ٣ ص ١٩٤ .
(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٩٨ .

ويصبغ وجه الأرض من دماء الأبرياء . وقد أشرنا إلى طرف من أعمال المنصور وسوء سيرته ، وما كان يلقى الإمام الصادق منه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى (١) .

الصراع بين المدرسة والدولة :

وكانت مدرسة الإمام الصادق (ع) بعيدة عن التأثر بآراء الحكام ، الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء ، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية إلى جانب السلطة التنفيذية ، مما يؤدي إلى الفوضى الكاملة في الحكم عندما يستغلون الدّين ، ويتخذون من رجاله وسيلة لاشتغال الناس عن مؤاخذتهم ، ويدينون لهم بالطاعة الكاملة ويحل الإيمان بتقديسهم محل الإيمان بالله !! أما مدرسة الإمام الصادق عليه السلام فان الصراع بينها وبين الدولة كان على أشده، والعداء بالغاً نهايته ، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر ، ولكنها رغم ذلك صمدت لتلك الهجيمات التي توجهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود . وقد تحملت بطش الجبارين ، وعسف الظالمين ، فأدت رسالتها على أكمل وجه . وكان منها النتاج الصالح ، الذي يفيض على الامة خيراً وبركة ، ويطفح بالعلم والحكمة والعرفان ، وخرّجت عدداً وافراً من رجال العلم ، وحملة الحديث . ولم تكن كل تلك المعارضات من قبل ولاة الجور لتعوقها عن مواصلة كفاحها في الدعوة إلى الحق ، والخير والعدل والمساواة والأخوة الاسلامية العامة ، والمدنية الصحيحة والحضارة الراقية ، ومحاربة أهل الأهواء ، والبدع والضلالات ، ويتضح ذلك من تعاليم العترة الطاهرة — زعماء هذه المدرسة — وسيرتهم العادلة وشدة اهتمامهم بتوجيه الامة نحو دينهم الذي يتكفل لهم بالسعادة ، ويدعوهم إلى الاهداف الكريمة ، والغايات السامية ، والاغراض الشريفة ، والمثل العليا ، بتطبيق نظامه على جميع الطبقات .

نواة المدرسة وتاريخ نشأتها :

إن تاريخ نشأة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ، هو أسبق من جميع المدارس الاسلامية، إذ لم يكن الامام الصادق عليه السلام هو الواضع لحجرها

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ٢ .

الأساسي ، والغارس لبذرتها الاولى ، بل كان الواضع لحجرها والغارس لبذرتها هو الرسول الأعظم ﷺ . فقد وضع منهاجها ونظامها ، وحث الناس على الانتهاء إليها ، إذ قرن العترة بكتاب الله العزيز بقوله ﷺ : « إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً . » الحديث (١) كما صرح في كثير من تعاليمه بلزوم اتباع أهـل بيته والأخذ عنهم وانهم لسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، كما اشار النبي الأعظم إلى لزوم اتباعهم في كثير من احاديثه .

فالمدرسة كانت نشأتها في عهد صاحب الرسالة ، وكان رئيسها الأول هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهو أقضى الامة واعلمهم ، وهو نفس محمد ﷺ ، وكان ملازماً له في جميع أوقاته ، يأخذ عنه العلم ، ويتلقى التشريع العملي ، فهو صاحبه في سفره وحضره ، يقيم أنّى اقام ، ويرحل أنّى ارتحل. ورسول الله ﷺ هو معلم عليّ ومتولي تربيته ونشأته ، فكان عليه السلام باب علم مدينة الرسول وامينه على سره .

فكان له من الكفاءة والاستعداد ما جعله مرجعاً لاحكام الامة ، واماماً هادياً . وقد عوّل النبي عليه في جميع شؤونه لاتصافه بصفات الامامة ، وانكار ذلك مكابرة ومغالطة ، ولا حاجة بنا إلى اطالة البحث ورحم الله المتنبي إذ قال :

وتركت مدحي للوصي تعمداً ... اذ كان نوراً مستطيلاً كاملا
وإذا استطال الشيء قام بنفسه ... وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولما انتقل علي عليه السلام إلى جوار ربّه تزعّم الحركة العلمية وترأس المدرسة الإمام الحسن عليه السلام ، سبط الرسول وريحانته ، فكان عليه السلام محطاً لآمال الامة ، ومرجعاً لأحكامها . ولكن الظروف القاسية والحوادث المتتابعة في عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدم على الوجه المطلوب ، وسارت بخطى ثقيلة ، لأنها قابلت جور معاوية بكل ما لديها من قوّة في اعلان الغضب عليه ، وقد قابلها بقسوة لا تعرف الرحمة ، وشدة لا تعرف الهوادة ، حتى اريقت دماء بعض المنتمين إليها ، وهدمت دورهم . كل ذلك في سبيل الدعوة إلى الاصلاح .

وجاء دور الحسين بن علي عليه السلام وهو اعظم الادوار وأهمها. ومعاوية قد عظمت شوكته وامتدّ سلطانه ، وكثر بطشه وفتكه ، وتلاعب بالاحكام وحرّف الكلم عن مواضعه ، وأخذ يتتبع رجال الفكر وخيار الامة ، ويقتلهم تحت

---

(١) ان هذا الحديث الشريف لجدير ببسط القول في ما جمعه من مقاصد جليلة ، وامور يجب على كل مسلم ان يتدبرها ، وقد ألف علماؤنا في بيان مقاصده رسائل عديدة .

كل حجر ومدر . ومهّد الأمر لابنه يزيد ـ وهو الفاسق الذي لا يختلف اثنان في إجرامه وكفره ـ فاصبح خليفة للمسلمين ، واماماً يتربع على عرش الخلافة الإسلامية ، (وهو الفاسق المستهتر الذي أباح الخمر والزّنا وحط بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات ، وعقد حلقات الشرب في مجلس الحكم ، وألبس الكلاب والقرود جلاجل من ذهب ، ومئات من المسلمين صرعى الجوع والحرمان) (١) .

وأصبحت الامة الإسلامية في حالة سيئة ، لم يسهل احتمالها على نفوسهم . فعمّ التأثر جميع البلاد، حتى لم يجد الحسين عليه السلام طريقاً للسكوت . فنهض منتصراً للحق ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، حتى أريق في ذلك دمه ، واستبيح حرمه ، فكانت نهضته صرخة داوية ترددها الاجيال من بعده ، وتلقي عليهم دروس التضحية والتفاني في سبيل انقاذ الامة من براثن الظّلَمة ، وكانت منهجاً لثورات اصلاحية مرت عليها الأجيال من بعده ، اقتداءً به ، وعملاً بدروسه القيمة . فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً .

ومن بعده انتقلت رئاسة المدرسة لولده زين العابدين الامام علي بن الحسين عليه السلام ، وهو أورع أهل زمانه وأتقاهم ، وأعلم الامة . وقد اشتدت الرقابة عليه من قبل الامويين بصورة لا مجال لاحد أن يتظاهر بالانتماء لتلك المدرسة ، إلا من طريق المخاطرة والمغامرة . ومع هذه الشدة وتلك الرقابة فقد كان سيرها محسوساً وكفاحها متواصلاً وخرّجت عدداً وافراً من علماء الامة ، الذين أصبحوا مرجعاً للاحكام ومصدراً للاحاديث .

وهكذا كان عهد ولده الامام الباقر عليه السلام من بعده في أول الأمر ، ولكن ما ان دب الضعف في جسم الدولة الأموية ، حتى بعث النشاط في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، فقام الامام الباقر بواجبه ، ونشر معالم الاسلام وأحيا مآثر السنّة ، فكانت حلقة درسه في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومسجد مكة «ابن ماحل» هي اعظم حلقات الدروس . ولما جاء عصر الإمام الصادق وكان أزهر العصور ، اتسع فيه نطاق الحركة العلمية ونشأت المدارس الاسلامية ، وكان في كل بلد عالم يرجع إليه ، وكانت مدرسة الإمام الصادق في المدينة جامعة اسلامية كبرى ، تشد إليها الرحال ، وترسل إليها البعثات من سائر الاقطار الإسلامية لانتهال العلم إذ وجدوا عنده ضالتهم المنشودة وغايتهم المطلوبة ، ولم يحفظ التاريخ لنا

(١) الثائر الاول في الإسلام لمحمد عبد الباقي ص ٧٩ .

انه سئل عن شيء فاجاب: بلا أدري، او أن مناظراً أفحمه، بل كان هو المتفوق في كل علم ، والمحلق في كل مناظرة ، واشتهر عنه انه كان يقول : سلوني قبل أن تفقدوني فانه لا يحدثكم أحد بمثل حديثي (١) .

وكيف لا يكون كذلك؟ وهو وارث علم جده أمير المؤمنين عليه السلام الذي اشتهر عنه هذا القول ، ولم يستطع أحد ان يقول ذلك إلا أفحم ، وعلي هو باب مدينة علم الرسول لقوله صلى الله عليه وآله : انا مدينة العلم وعلي بابها .

فالإمام الصادق يروي عن أبيه الباقر ، عن أبيه زين العابدين ، عن الحسين بن علي ، عن علي بن أبي طالب عليهم السلام . وهذا الاسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية . وهو أصح الاسانيد واقواها (٢) .

صمود مذهبه أمام الحكام :

ومهما يكن من أمر ، فان ما يبدو لنا بوضوح : أنّ ذلك الانفصال وعدم التأثر بآراء الحكام هو الذي أوجد تلك المرونة في المذهب الجعفري ، لانه يستقي من ينبوع لم يكدر صفوه التعليم الاستعماري بما فرضه على العلم والعلماء، ولمّا كان غلق باب الاجتهاد هو من مقترحات الدولة وتشريع السياسة ، فلم يلتزم المذهب الجعفري به ، ولم يخضع لذلك النظام الجائر الذي يفضي مؤداه إلى الجمود الفكري وتحجير العقل ، ورد نعمة انعم الله بها على هذه الأمة (٣) .

ومن الواضح ان عدم الالتزام بما تفرضه الدولة ، هو خروج عن الطاعة وذلك يستوجب العقاب والمقاومة . وقد عُرف معتنقو مذهب أهل البيت (ع) بانهم لا يرون لزوم طاعة اولئك الحكام الذين تربعوا على عرش الخلافة بدون حق ، فلم يؤازروهم ، ولم يتعاونوا معهم اقتداءً بأئمتهم واتباعاً لأوامر الرسول ، في مقاطعة الظلمة ، وحرمة المعاونة معهم .

وان الطبقة الحاكمة تعد من لا يؤازرها ويتعاون معها خصماً يجب القضاء عليه ، لأن عدم التعاون مع الدولة هو عدم الاعتراف بأهليتها للحكم ، وانتقاد لسيرتها .

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٥٧ .

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري ص ٥٥ .

(٣) سيأتي الكلام حول الاجتهاد والتقليد ، وقد تقدم في الجزء الأول نقل آراء بعض العلماء ورؤساء المذاهب في لزوم فتح باب الاجتهاد .

لذلك اتجهت قوة الدولة لمعارضة مذهب أهل البيت (ع) واتّهام منتحليه بسوء العقيدة ، والخروج عن الاسلام ، فسلكوا في تحقيق ذلك تلك الطرق الخداعة ، واسندوا إلى الشيعة ما ليس من عقائدهم ، واوعزوا إلى الوعّـاظ في المساجد ، والقصاص في الطرقات ، وإلى العلماء المرتزقة الذين يطلبون ود السلطان طلباً لمنفعة ، واستدراراً لنعمة ، وحيازة لصلة الملوك ليقوموا بكل ما يأمرونهم من مخالفة الحق، باتّهام الشيعة: بأنهم يكفّرون جميع الصحابة (والعياذ بالله) وانهم لا يعملون بالقرآن . . والزموهم بان يذكروا ذلك محفوفاً بشواهد يتقبلها السذج وعوام الناس ، حتى تمكنت في نفوسهم ، ولهجت بها ألسنتهم ، كأنها حقيقة لا تقبل أي جدل ونقاش ، وبدون تفكير وتدبر انتشرت في ذلك المجتمع السائر في ركاب الدولة فكرة بغض الشيعة، وانّى لذلك المجتمع أن يظفر بالتفكير الحر وتحكيم العقل ، وقد فرضت السلطة عليهم تلك الافتعالات بقوة قاهرة ، لا يستطيعون لها دفعاً ولا يجدون عن الاذعان لها سبيلاً ، والناس مع القوة عند ضعف الايمان ، ولكن الحق لا بد أن يظهر مهما طال الزمن وادلهمت الخطوب .

وعلى أي حال فليس من العسير أن يقف المتتبع على بواعث تلك الافتعالات التي أوجدتها عوامل السياسة ، وقوة الارهاب ، وسلطة الاستبداد ، التي شوهت الحقيقة ، وغيرت مجرى الواقع ، وإن الوقوف امام ذلك التيار أمر لا يتحمله إلا رجال الفكر وحاملو ثقل العقيدة الإسلامية .

وصفوة القول أن المذهب الجعفري قد انتشر على وجه البسيطة ، ولم تقف أمامه تلك المحاولات التي بذلها رجال السلطة وأعوانهم في محوه والوقوف أمام انتشاره ، ولم تقض عليه كما قضت على بقية المذاهب التي لا يروقها انتشارها ، كما لم تقف امامه تلك المجازر والفظائع السود التي يقوم بها خصومه .

وما دمنا بصدد البحث عن مدرسة الإمام الصادق (ع) فلا بد لنا من التنبيه على امور ثلاثة :

التنبيه الأول : التابعون والإمام الصادق :

قد يبدو للبعض ان الإمام الصادق (ع) حضر عند أحد من التابعين ، أو روى عنه ، ومنشأ هذا أنّ بعض من ترجم للامام الصادق ذكر انه روى عن نافع وعطاء وعروة بن الزبير والزهري .

وهذا القول لا يثبته التتبع ، وهو بعيد عن الصواب ، بل هي كلمات يلوكها من يرسل القول على عواهنه ، ويعطي الآراء جزافاً ، وينقل الأقوال بدون تثبت وتمحيص ، فاننا لم نجد في حديثه أنه اسند عن أي واحد من الناس سوى آبائه الطاهرين عليهم السلام فاذا أراد أن يسند فسلسلة حديثه هكذا : حدثني أبي الباقر ، قال : حدثني أبي زين العابدين ، قال : حدثني أبي الحسين ، قال : حدثني أبي علي بن أبي طالب ، قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله . وهو أصح الاسانيد عند علماء الحديث كما تقدم ، وهو الترياق المجرب كما سماه بعض العلماء . وربما أرسل حديثه بدون اسناد ولكنه أعطى قاعدة مشهورة بقوله : حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث أبيه وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب وحديث علي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله .

كما اننا بعد البحث والتتبع لم نجد في كتب الرجال من يذكره في عداد من حضر على هؤلاء ، نعم الا الخزرجي ذكره في من أخذ عن عطاء ، وهو كما قلنا بعيد عن الصواب ، على ان بعض هؤلاء قد كان يحضر عند الامام الباقر كمحمد ابن المنكدر ، والزهري ، فلا يتصور أن الصادق كان يحضر على احد في عهد أبيه الباقر ، إذ لم يكن هناك نقص فيحاول اكماله على أيدي هؤلاء ، وبعد وفاة أبيه ، فقد استقل بالفتوى وتزعم المدرسة ، وانتشر ذكره ، واصبح هو المتفرد بالزعامة .

وأما قولهم : انه حضر عند عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢ هـ وسمع منه فهذا من الغرابة بمكان ، لأن عروة لا تخفى حاله على الامام الصادق عليه السلام وما كان يتصف به من الشذوذ ، وعدم الاستقامة بتقربه إلى الأمويين ، وهو من الوضاع الذين اتخذهم معاوية يستعين بهم على مهماته في وضع الاحاديث الكاذبة.

قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي : إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين ، على رواية اخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله ، فاختلقوا ما ارضاه . منهم أبو هريرة ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة ابن الزبير (١) .

فمن كانت هذه حاله كيف يصح أن ينسب إلى الصادق الرواية عنه ؟ وكذا الزهري فقد كان من اعوان الأمويين والمتصلين بخدمتهم والمؤازرين لهم ، وكان

---

(١) شرح النهج ج ١ ص ١٥٨ .

قطب رحىً أداروا به مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليه إلى بلاياهم ، وسلّماً إلى ضلالهم ، داعياً إلى غيهم ، سالكاً سبيلهم ، يدخلون الشك به على العلماء ، ويقتادون به قلوب الجهال . كما جاء في رسالة الإمام زين العابدين (ع) إليه يرشده بها لطريق الحق والصواب .

ومن كانت هذه صفته ، فهو مسلوب العدالة ، ولا يوثق بحديثه ، فكيف يكون مصدراً لحديث أهل البيت ؟ ولعل الذي اوقع صاحب هذا القول — وهو رواية الصادق عن الزهري — انه اشتبه عندما رأى في عداد تلامذة الزهري رجلاً يسمى بجعفر ، فتوهم انه الصادق كما سبق مثل هذا الاشتباه لكثير من المؤرخين ، اذ نسبوا الشهرة بالزجر ، والفال ، والتنجيم ، لجعفر بن محمد الصادق . ولم يفرقوا بينه وبين جعفر بن محمد الفلكي ، المعروف بأبي معشر البلخي ، فانه كان مشهوراً في الزجر ، والفال ، والتنجيم ، وكان عصره مقارباً لعصر الامام الصادق ، ونقل الناس أخباره في ذلك ، ولا يستبعد ان اعداء جعفر بن محمد اشاعوا ذلك ، للحط من كرامته وبخس حقه من العلم ، والنيل من مكانته الرفيعة ، وقد ردد هذا القول كثير من الكتّاب بدون وقوف على حقيقة الأمر .

قال ابن كثير : ان الذي نسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر ، والفال ، واختلاج الاعضاء ، إنما هو منسوب إلى جعفر بن محمد ابي معشر الفلكي ، وليس بالصادق ، وإنما يغلطون (١) .

قلت بل اكثرهم كان يتعمد ذلك ، ولا شيء هناك الا عوامل السياسة ، ولا اذهب بك بعيداً في الاستدلال على ذلك ، أو ارجع بك إلى تلك العصور التي سيطرت عوامل السياسة على عقول ابنائها ، فاعمتها عن الحق ، وأبعدتها عن الصواب ، ولكني اسلك بك اقرب الطرق في اقرب العصور — عصر النور أو القرن العشرين — هذا الدكتور أحمد أمين يقع في هذا الغلط ، او يتغافل عن الحقيقة ! يقول في فجر الإسلام : في هذا العصر كان العلم — ولا سيما الديني — يدرس في المساجد ، يجلس الاستاذ في المسجد ، وحوله الآخذون عنه ، على شكل حلقة ، وتكبر الحلقة وتصغر تبعاً لقدر الاستاذ . إلى أن يقول : وكذلك كان يفعل جعفر الصادق في المدينة — أي انه يجلس ويجلس الآخذون حوله حلقة — قالوا : وكان يشتغل بالكيمياء والزجر والفال (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ١١ ص ٥١ .
(٢) فجر الإسلام ص ١٦٥ .

ولا يخفى على القارىء اللبيب سرعة انتقال الاستاذ أحمد امين لنقل ذلك القول وايراد ذلك الغلط ، وما يقصده في ذلك ، كما لا تخفى نزعته العدائية للشيعة ، فلا يروقه أن يذكر حلقة درس رئيس مذهبهم في المسجد ، واعطاء ما يلزم لها من النقل التاريخي ، إن كان مؤرخاً منصفاً ، ولكنه يثقل عليه ذلك .

وخلاصة القول : ان الامام الصادق لم يرو عن أحد من التابعين ، ولم يحضر حلقة درس أي واحد منهم ، اما في حياة ابيه ، فقد كان في غنى عن ذلك ، واما من بعده فانه اصبح المبرز في كل فن ، والمرجع الاعلى في الاحكام ، وكانت حلقة درسه تضم رجال العلم من رؤساء المذاهب وغيرهم ، كسفيان الثوري ، وشعبة بن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ، ومالك بن انس ، وابي حنيفة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وأيوب السجستاني ، وعبد الملك بن جريج وغيرهم . فليس من المعقول أن يكون – رئيس مدرسة تضم امثال هؤلاء – يحضر درس من هو أقل درجة منه ، بل اقل درجة من كثير من تلامذته . وإن امثال هذه الاقوال إنما تقال لمجرد المبالغة في التقدير والتوثيق في حق من يريدون رفع مقامه ، وليس بمستطاع لأي أحد أن يأتينا برواية للامام الصادق في سندها أحد أولئك القوم .

التنبيه الثاني : تلامذة الإمام ومركزية الكوفة :

إذا أردنا ان نرسل نظرة احصاء لتلامذة الإمام الصادق عليه‌السلام من حيث البلدان النائية اللاتي ينتسبون إليها فسنجد الكوفيين اكثرهم عدداً ! ! ! وعلى وجه التقريب : يكون عددهم قد يتجاوز الالف . وعكسها الشام فان عدد تلامذته المنتسبين إليها لا يتجاوز العشرة ! ! ! واسباب ذلك ربما تعود للنزعة التي يتصف بها كل من البلدين . فالكوفة كانت تناصر أهل البيت (ع) وتتشيع لهم ، والشام على عكس ذلك . وبهذا أصبحت الكوفة محل اهتمام الخلفاء الذين يجعلون من أهل البيت خصوماً ويعتقدون بأن لا يستقر امر الخلافة ما لم يتخذوا لها التدابير للقضاء على نشاطهم العلمي والسياسي : لذلك نجد الدولة الأموية تهتم بأمر الكوفة وتحاول اخضاعها بالقوة عندما تعين ولاة لا رحمة في قلوبهم ، ولا وازع دين يردعهم عن الفتك واراقة الدماء كالحجاج ، وزياد ، وعبيد الله بن زياد ، وخالد القسري . وكذا العباسيون اتخذوها مركزاً للخلافة ، لتكون تحت مراقبة الخليفة مباشرة .. هذا من جهة .

ومن جهة أخرى : ان الكوفة كانت مركزاً تجارياً وصناعياً ملحوظاً في حياة المجتمع الاسلامي في القرن الأول الهجري ، وازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية ، وهي ما سمّوها عمل الوشي والخز . وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً في الاقطار الإسلامية (١) وكانت محاطة بقرى كثيرة وفيها من غير المسلمين عدد كبير ، كالنصرانية في الحيرة وغيرها ، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عُرفوا بحمراء الديلم (٢) .

وقد كثرت الهجرة إلى الكوفة من ذوي العقائد المتباينة ، واختلطوا بمجتمع الكوفة وكان أكثر هؤلاء يترقبون الفرص للفتك بالمسلمين ، انتصاراً لدياناتهم التي قضى عليها الإسلام .

ثم زخرت الكوفة بالموالي ، فكان لهم أثر محسوس في تطور الحياة الاجتماعية وبهذا أصبحت الكوفة تموج بعناصر مختلفة ، لا تتحد في الرأي ، ولا تتفق في الاتجاه ، وهذا الاختلاط يوجد اضطراباً ، وعدم الاستقامة في الامور ، وكان له أثر واضح في اخلاق أهل الكوفة ، قد لحظه حذيفة بن اليمان من قبل فبينه في خطاب له قائلاً : « يا معشر أهل الكوفة ، انكم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس ، فغيرتم بذلك زمان عمر وعثمان ، ثم تغيرتم وفشت فيكم خلالٌ اربع : بخل ، وخبٌ (٣) ، وغدر ، وضيق ، لم تكن فيكم واحدة منهن ، فنظرت في ذلك فاذا ذلك في مولديكم ، فعلمت من اين يأتي ، فاذا الخب من قبل النمط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق من قبل الاهواز»(٤) .

وحين اتسع نطاق الحركة العلمية كانت الكوفة مركزاً هاماً لمختلف العلوم ، وقد ظهر علم الكلام ، وكثر الجدل حول العقائد ، وأهمها البحث عن الامامة . وقد ازداد نشاط ذوي العقائد الفاسدة ، والآراء الشاذة ، فاظهروها على سبيل النقاش العلمي ، فكانت تلك الآراء تأخذ مفعولها في المجتمع ، ويتناقلها الناس ومصدرها الكوفة ، وهي شيعية فتنسب تلك المقالة إلى الشيعة . وكانت السياسة تؤيد ذلك بغضاً للشيعة ووسيلة للقضاء عليهم ، وقد اتبع المؤرخون للفرق تلك الخطة ، فنسبوا للشيعة فرقاً كثيرة من ذوي المقالات الفاسدة بدون انصاف

---

(١) الاغاني ج ٢ ص ١٧٣ .
(٢) البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٨٩ .
(٣) الخب بفتح الخاء المعجمة : الغدر والخداع والغش .
(٤) حركات الشيعة المتطرفين نقلا عن ابن مسكويه تجارب الامم ص ٤٣٥ ليدن .

او تعقل ، وما ساقهم إلى ذلك إلا الجهل بعقائد الشيعة ، أو البغض لهم اتباعاً لأسيادهم ومجاراة للظروف .

ولا أطيل الحديث — والحديث شجون — حول تلك الدعاية الكاذبة ، في نشر الآراء الشاذة ، والعقائد الفاسدة ، التي يبثها اعداء الاسلام ليتقبلها ضعفاء النفوس ، والمصابون في تفكيرهم ، فينسبونها للشيعة ولا ربط لها بعقائد الشيعة ، الا أنّ الكوفة كانت مصدراً لها والكوفة شيعية ، وقد تعمد اولئك النفر أن يعلنوا سب الصحابة ليكون ذلك طريقاً لمؤاخذة شيعة آل محمد ، الذين تأدبوا بآدابهم واتبعوا اوامرهم، كما أن موجة الغلو قد ظهرت في الكوفة دون غيرها من البلدان ، وكان القصد من ذلك ما قلناه وهو أن اعداء آل محمد ارادوا الوقيعة في أتباعهم فأشاعوا الغلو في بلد يعرف اهله بالتشيع لهم والانتساب اليهم .

وقد عالج أهل البيت تلك المشكلة الخطيرة . وعرفوا تلك الدوافع التي دعت هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة ، واتضحت لهم غايات خصومهم ، الذين يريدون أن يوقعوا بهم المكروه ، فأعلنوا البراءة منهم ، وجاهروا في لعنهم ، وأمروا شيعتهم بالابتعاد عنهم ، واليك بعض النصوص في ذلك :

روى هشام بن الحكم : أنه سمع أبا عبد الله الصادق يقول · كان المغيرة يتعمد الكذب علي أبي ، ويأخذ كتب أصحابه ويدس فيها الكفر والزندقة ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى اصحابه ، ويأمرهم أن يبثوها في الشيعة فكل ما كان في كتب أبي من الغلو فذلك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم .

ويظهر لنا ان حركة المغيرة كانت حركة يهودية ضد الإسلام ، كما أشار الإمام الصادق في قوله :

لعن الله المغيرة بن سعيد ، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة ، إن المغيرة كذب على أبي الخ (١) .

التنبيه الثالث : مدرسة الإمام ومعنى التشيع :

إننا اذ نُعبر عن المدرسة ، فانما المقصود بذلك هو تعاليم المذهب وانتشاره ، لأن مذهب أهل البيت ينسب للإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) لما اشتهر به من العلم وكثرة التعاليم في تلك الفترة ، وهي بين شيخوخة الدولة الأموية

---

(١) منهج المقال ص ٣٤٠ .

وطفولة الدولة العباسية ، وإلا فمذهب الشيعة هو مذهب أهل البيت ، وعنهم يأخذون الأحكام ، لأنهم أصدق الناس في الحديث ، وأشدهم محافظة على أداء رسالة التبليغ ، واتباعاً لأمر النبي ﷺ ، اذ قرنهم بالكتاب العزيز الدال بكل صراحة على وجوب اتباع اهل البيت والتمسك بهم ، فانه نجاة من الضلالة . وهذا هو التشيع بمعناه الجلي ، ونص عليه أهل اللغة .

يقول الحافظ الازهري: الشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي ويوالونهم (١).

وقال في القاموس : وشيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته حتى صار اسماً خاصاً لهم (٢) .

وقال في التاج : إذا قيل فلان من الشيعة عرف أنه منهم ، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم — وأصل ذلك من المشايعة والمطاوعة (٣) .

وقال الجوهري : شيعة الرجل أتباعه وانصاره، يقال: شايعه ويقال والاه (٤) .

ويقول ابن منظور الافريقي : وأصل الشيعة الفرقة من الناس ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد ، وقد غلب هذا الاسم على من يتولى علياً واهل بيته « رضوان الله عليهم اجمعين » حتى صار اسماً خاصاً، فاذا قيل فلان من الشيعة عرف أنه منهم (٥) .

وبهذا القول نفسه قال ابن الاثير في النهاية ج ٢ ص ٢٤٦ وكذا في صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٣٦ ومجمع البحرين في مادة شيع وغيرها من معاجم اللغة .

وقال أبو حاتم الرازي: «ان أول اسم ظهر في الإسلام هو الشيعة ، وكان هذا لقب اربعة من الصحابة هم : ابو ذر ، وسلمان ، وعمار ، والمقداد ، حتى آن أوان صفين فاشتهر بين موالي علي رضي الله عنه » (٦) .

وقال ابن النديم : لما خالف طلحة والزبير على علي (ع) وأبيا إلا الطلب بدم عثمان ، وقصدهما علي (ع) ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه سمي من اتبعه على ذلك الشيعة ، فكان يقول : شيعي . . .

ولسنا الآن بصدد الاحاطة بتعريف الشيعة ، أو تعيين الزمن الذي نشأت

---

(١) لسان العرب ج ص ٥٥ .
(٢) القاموس ج ٣ ص ٤٧ .
(٣) تاج العروس ج ٥ ص ٤٠٥ .
(٤) الصحاح ج ١ ص ٦٣ .
(٥) لسان العرب ج ١٠ ص ٥٥ .
(٦) روضات الجنات ص ٨٨ .

به ، ولا نريد ان نطيل الكلام في نقل الاختلاف في سبق هذا الاسم أو تأخره ، اذ من الثابت ان هذا الاسم كان على عهد النبي ﷺ .

ومما يؤسف له أن بعض ذوي الفهم المعكوس قد حملوا اسم الشيعة على غير معناه ، وشرقوا في ذلك وغربوا ، وقد اضطربت اقوالهم وخرجوا عن حدود العلم في تجاوز الحد ، وارتكبوا اموراً لا تليق بمن يتزيا بالعلم ، إذ هي تدل على نقص في الادراك ، وخلل في التفكير ! وقد ساهم المستشرقون في هذه الافتعالات ووسعوا دائرة الطعن على الشيعة ، وتبعهم بعض كتاب العصر الحاضر ، بدون التفات إلى نوايا أولئك القوم الذين يحاولون تشويه تاريخ الإسلام .

ومما تجدر الاشارة إليه : هو أن البعض يتعمد استعمال هذا الاسم على عمومه وحيث كان اسم التشيع يدل على الاتباع فقد اطاق المؤرخون اسم الشيعة على انصار العباسيين واتباعهم ، فيقولون : شيعة المنصور او شيعة الرشيد مثلا ، ويذكرون لهم كثيراً من الحوادث وأهم هذه الفرقة هم الشيعة الراوندية وهم شيعة المنصور الدوانيقي الذين غلوا في حبه بل عبدوه من دون الله.

ومن الغريب أن بعض كتاب العصر الحاضر عندما ذكر فرق الشيعة وبين عقائدهم التي خبط فيها خبط عشواء جعل الراوندية من شيعة آل محمد وهذا نص قوله :

الراوندية فرقة من غلاة الشيعة ناهضت العلويين في أيام العباسيين ، وذهبت إلى أن احق الناس بالامامة هو (العباس بن عبد المطلب) لأنه عم النبي ، ثم يأتي من بعد العباس ابناؤه ، إلى أن يقول: وقد غلت الراوندية او فريق منهم (بل كلهم) فعبدوا ابا جعفر المنصور وطاروا قائلين (انت انت) أي انت الله (١) .

ولا ندري كيف يتفق هذا مع عقائد الامامية (سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم) .

وليس من الصعب الوقوف على كثير من شذوذ الكتاب الذين دونوا اسماء الفرق والحقوا بفرق الشيعة من ليس منهم عندما نعرف عقائد الشيعة الامامية ولكن الاغراض والاهواء قد انحرفت بكثير ممن كتب عن الشيعة .

---

(١) الدكتور عادل العوّا – الكلام والفلسفة ص ٣١



أخطاء وأكاذيب



المؤلفون والشيعة :

رأينا أن أكثر من كتب حول الشيعة . قد استندوا لأقوال اقوام عاشوا في عصور احتدام النزغات ، واشتداد عواصف الطائفية ، وايقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين : من حنفية وشافعية وحنبلية وأشعرية ومعتزلة . . . مما أدى إلى ارتباك حبل الأمن ، وحل عرى المودّة ، وهدم صروح الوحدة .

تلك امور كانت نتائجها وخيمة يتألم لها قلب كل مسلم ، لما اصاب المسلمين من الانحطاط والتأخر . وانتهى ذلك النزاع إلى حالة مؤسفة ، عندما تحول إلى عقيدة ومبادىء ، واستمد كل قوته من امور وهمية لامساس لها بالدين ، فهم في جانب ، وهو في جانب آخر « ان الدين عند الله الإسلام » والإسلام يدعو إلى كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة ، وبث روح الأخوة ، لتتم سعادة البشر في اتباع أوامره والوقوف عند زواجره .

نعم انهم كتبوا عن الشيعة بدون تثبت ، واستندوا لأقوال قوم دعاهم حب الشغب وخدمة السلطة إلى اختراع تلك الاتهامات . وقد تقوّل اكثر المقلدين لهم ، والناقلين عنهم فزادوا في الطين بلة .

ولقد ساروا تحت ظلام الأوهام ، ولا يعرفون الا ما قيل ، ولا يقولون أي شيء ، تقليداً للسلف وخضوعاً للعاطفة .

وكنا نأمل من جيلنا الحاضر وأبناء عصر النور ، أن لا تميل بهم نزعة الهوى ، ولا تخفف العاطفة وزنهم ، ولا يلجؤوننا إلى نشر تلك الفضائح ، واخراج تلك الدفائن ، ونحن بأمس الحاجة إلى اتجاه واحد ، واتحاد كامل ، لإيجاد قوة إسلامية متكاتفة ، تقف أمام تيار الالحاد الجارف ، ورد هجمات خصوم الإسلام ، والوقوف أمام عدوانهم الغاشم ، وتحرير الامة الإسلامية من قيود الاستعباد ، ورفع كابوس الاستعمار ، برفع لواء كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأناشيدنا : « إنما المؤمنون أخوة ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وقد يكون في هذا الكلام صدمة لمن لا يرتضي التفاهم بين المسلمين لازالة سوء التفاهم ، لانا وجدناهم لا يعيشون إلا في ظلمة الفتن ومن وراء حجب التمويه والاكاذيب ، فهم مع الباطل فلا يروق لهم اظهار كلمة الحق لثقلها

على بعض النفوس ! ! لكننا نرى أنه من الخير استمرارنا بهذه الصراحة ، لأنا نفضل مواجهة الحقيقة بأقصى ما يمكننا من ذلك ، لإظهار الحق واتباعه ، والحق أحق أن يتبع .

مع أحمد أمين في كتبه :

إذاً فليس من الحق قول أحمد أمين : « والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ، ونصرانية ، وزردشتية ، وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده ، والخروج على مملكته . الى أن يقول : فاليهودية ظهرت في التشيع في القول بالرجعة وقال الشيعة ان النار محرمة على الشيعي إلا قليلا ، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات . . . الخ (١) .

نعم ليس من الحق ان يتقوّل على الشيعة بهذا ، أو يقلد ما كتبه المستشرقون وهم الذين دعاهم حب الشغب لاثارة الطائفية بين المسلمين . وفي الواقع ان الرجل اتبع آراء الغربيين ، الذين يكتبون عن الإسلام بداعي الحقد والوقيعة في أهله وهو في هذا المورد — بالأخص — قد اتبع المستشرق (ولهوسن) حيث يقول : ان العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية . واتبع ايضاً قول المستشرق (دوزي) : ان العقيدة الشيعية أساسها فارسي ، فالعرب تدين بالحرية ، والفرس يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده علي بن أبي طالب فمن أخذ الخلافة منه — كأبي بكر وعمر وعثمان والامويين — فقد اغتصبها من مستحقها . وقد اعتاد الفرس ان ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى الهي . فنظروا النظر نفسه إلى علي وذريته وقالوا : «ان طاعة الامام أول واجب ، وان اطاعته اطاعة الله » (٢) .

وهذا هو مضمون عبارة أحمد امين بتصرف وزيادة . ونحن الآن لا نريد ان نتعرض لجميع ما كتبه أحمد امين عن الشيعة وأئمتهم من سادات أهل البيت وسلالة النبي .

نعم لا نريد ان نذكر جميع اقواله وتقولاته ، ولا نقف طويلاً في رده

(١) فجر الإسلام ص ٢٧٦ .
(٢) فجر الإسلام ص ٢٧٧ .

ولكن شيئاً واحداً نريد ان نقوله هو : إن احمد أمين كاتب له شهرة فائقة ، وآثار خالدة . ولكن مما يؤسف له ان الرجل لم يكن واقعياً بل كان ينقاد للعواطف بسرعة ، ويخضع للنزعات ويستسلم للشكوك التي تموج في صدره . فهو يجهل نفسه امام الواقع ويفقد الجرأة الأدبية — عندما تتجلى الحقيقة أمامه . ويتضح ذلك من مؤلفاته ومقالاته !

إن أحمد أمين أديب كاتب ، ولكن لم تكن له خبرة في علم الرجال ، ولا إلمام في علم الحديث . وله اخطاء في التاريخ فكان اللازم عليه ان يتجنب الخوض في امور ليست من اختصاصه ، ليدفع بذلك نقصاً جرّه إلى نفسه ، وعيباً لصقه بها . وهو فيما يذهب إليه — في كثير من الاراء — يبرهن على نقص في إدراكه ودراسته .

أخطاء القصيمي :

ولا نريد ان نتعرض للقصيمي (١) في صراعه ، فهو مصروع لشدة داء (الهستريا) ومدفوع بحركة لاشعورية فلا حاجة إلى التعرض له ولأمثاله ، ممن أبتلي بداء الشغب ، وحب التفرقة بين المسلمين ، خدمة للاستعمار واستدراراً لصلته ، وطلباً لنائله ، نعم لا نريد أن نتعرض لخرافاته وسفاسفه ، وأخطائه واكاذيبه ، فقلما يترفع عن مناقشته . من اوقف نفسه لخدمة اعداء الإسلام .

ولكنا نود ان ننبه لشيء واحد من اخطائه واكاذيبه وهو قوله في ج ٢ ص ٣٨ : استفتى أحد الشيعة اماماً من ائمتهم ولا ادري أهو الصادق ام غيره ؟ في مسألة من المسائل فأفتاه فيها ، ثم جاءه من قابل واستفتاه في المسألة نفسها فأفتاه بخلاف ما أفتاه عام أول ، ولم يكن بينهما أحد حينما أفتاه بالمرتين ، فشك ذلك المستفتي في إمامته وخرج من مذهب الشيعة وقال : ان كان الإمام إنما أفتاني تقية فليس معنا من يتقي في المرتين ، وقد كنت مخلصاً لهم عاملا فيما يقولون ؛ وان كان مأتى هذا هو الغلط والنسيان فالأئمة ليسوا معصومين إذن . والشيعة تدعي لهم العصمة ، ففارقهم وانحاز إلى غير مذهبهم . وهذه الرواية مذكورة في كتب القوم .

لا اريد ان أسائل القصيمي عن الكتب التي ذكرت فيها هذه الحادثة .

---

(١) هو الشيخ عبد الله القصيمي ، ومؤلف كتاب « الصراع بين الوثنية والإسلام » .

ولا الزمه بان يبين لنا اسم الرجل السائل أو الإمام المسؤول ، فالقصيمي جوابه — كنقله — كذب وافتعال بيّن . فاذا كذب في النقل يكذب في الجواب . ودائرة الكذب غير محدودة ، تمتد إلى حيث لانهاية . واني قد القيت القصيمي وكتابه في (سلة المهملات) (١) فلا أحب التعرض لهفواته ، إلا بهذه فقط لأنه أراد أن ينال من كرامة الإمام الصادق (ع) باسناد هذه لحكاية له على وجه الترديد ، وقد اشتبه عليه الأمر في ذلك . أو هو يتعمد ارتكاب الخطأ . وان هذه القضية نقلها على غير وجهها فانها لم تكن في كتب الشيعة ولم يكن المسؤول هو الإمام الصادق بل غيره من أئمة المذاهب وإليك نصها :

جاء رجل من أهل المشرق إلى أبي حنيفة بكتاب منه بمكة عام أول . فعرضه عليه مما كان يسأل (وفي نسخة سئل عنه) فرجع أبو حنيفة عن ذلك كله . فوضع الرجل التراب على رأسه ثم قال : يا معشر الناس أتيت هذا الرجل عاما أولا فأفتاني بهذا الكتاب ، فاهرقت به الدماء ، وانكحت به الفروج ، فرجع عنه هذا العام . قال ابن قتيبة : حدثني سهل بن محمد : قال حدثنا المختار بن عمر : ان الرجل قال له — أي لابي حنيفة — : كيف هذا ؟ قال : رأياً رأيته فرأيت العام غيره قال : فتؤمنني أن لا ترى من قابل شيئاً آخر . قال أبو حنيفة : لا أدري كيف يكون ذلك . فقال له الرجل : لكنني أدري أن عليك لعنة الله . انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٢ — ٦٣ المطبوع بمطبعة كردستان بمصر الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦ هـ .

هذه هي الحكاية التي أخطأ القصيمي في نسبتها للامام الصادق أو غيره من الأئمة مع تصرف فيها منه . ولا أستبعد أن الرجل لا يفرق بين أن يكون أبو حنيفة إماماً للحنفية أو للشيعة ، لأن كتابه لم يتركز على قواعد علمية ، ولا على نقل صحيح . بل هو هوس وتهريج ، وتقوّل بالباطل . فلا نود مناقشة رجل يحور الوقائع ، ويغير النص ، ويتعمد الكذب ، ولا عتب عليه فهو إنسان أفلت من عقال التعقل ، وخرج على الموازين ، وحارب الإسلام بدافع الطمع بما في ايدي اعدائه من صهاينة وملاحدة ، لهذا نعرض عن الاستمرار في بيان اباطيله وأضاليله ، وها نحن نلقيه في سلة المهملات .

---

(١) هو عنوان موضوع يأتي في هذا الكتاب ان شاء الله .

مع ابن عبد ربه :

ومن الخطأ الإصغاء لأخطاء ابن عبد ربّه — فيما ينقله في ذم الشيعة — من الأمور التي يتبين لذي العين الباصرة أنها باطلة ، أملاها التعصب والتشاحن المذهبي . وهي من وضع اقوام تقربوا للدولة ، بوضع خرافات لمسوا رغبتهم في نشرها ، ولم يلتفتوا إلى أي مؤاخذة أو نقص . وخذ مثلا لذلك ما نقله عن مالك بن معاوية (١) أنه قال لي الشعبي — وذكرنا الرافضة — : يا مالك إني درست الاهواء كلها فلم أرَ قوماً أحمق من الرافضة ثم قال : احذرك الأهواء المضلة شرها الرافضة ، فانها يهود هذه الامة ، يبغضون الاسلام ، كما يبغض اليهود النصرانية ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولارهبة من الله ولكن مقتاً بأهل الإسلام ، وبغياً عليهم . إلى أن يقول : قالت اليهود لا يكون الملك إلا في آل داود وقالت الرافضة : لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب ، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة ، واليهود لا ترى الطلاق شيئاً ، وكذلك الرافضة. إلى أن قال: واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرافضة ، إلى آخر ما نقله من هذه الاسطورة ، وما فيها من الامور التي تضحك الثكلى . كما ان مثل هذا لا يصدر عن رجل مثل الشعبي (٢) المعروف بالعلم فيجهل امثال هذه الأمور ، ويصدر عنه ما يكذبه الوجدان . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى : ان وفاة الشعبي كانت سنة ١٠٢ هـ وظهور اسم الرافضة سنة ١٢١ هـ — ١٢٢ هـ كما يقولون . وقبل هذا التاريخ لم يعرف احد هذا الاسم وقالوا : إن زيد بن علي سمّاهم بذلك ، عندما خرج بالكوفة سنة ١٢١ هـ ولم يذهب أحد إلى سبق هذا الاسم واشتهاره قبل هذا التاريخ ، مع ان الناقل وهو مالك بن معاوية لم يعرف وليس له ذكر في كتب الرجال قط ، ولكن هذا من اختراع ابن عبد ربه ، أو لقّنه بها بعض القصاصين ، الذين استخدمتهم السلطة لمحاربة مذهب أهل البيت ولا استبعد أن هذه التسمية ونسبتها لزيد من اختراعات الاصمعي ومجونه ، فهو راوي قصة الشيعة مع زيد في حربه بالكوفة (٣) وقضية زيد مشهورة وثبوت الشيعة معه في حربه أمر لا ينكر ،

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٩ .
(٢) هو عامر بن شراحبيل ، ولد في خلافة عمر بن الخطاب ، وتوفى سنة ١٠٣هـ. روى عن علي وابن مسعود وعمر ولم يسمع منهم ، وعن أبي هريرة وعائشة ، وهو من رجال الصحاح الستة .
(٣) تاج العروس ج ٥ ص ٣٤ .

ولكنها حيلة سياسية استعملها الامويون لتفرقة بعض الناس عنه. وليت الامر يقف عند هذا الحد ولكنهم توسعوا في الكذب ، حتّى استخدموا ألسنة الشياطين . وإليك مثالاً من ذلك :

أحلام ابن العماد :

نقل أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (١) عن الأعمش — بلا سند — أنه قال : خرجت في ليلة مقمرة اريد المسجد ، فاذا انا بشيء عارضني فاقشعر منه جسدي ، وقلت أمن الجن أم من الانس ؟ فقال من الجن . فقلت أمؤمن ام كافر ؟ فقال : بل مؤمن . فقلت : هل فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء ؟ قال : نعم . ثم قال : وقع بيني وبين عفريت من الجن اختلاف في ابي بكر وعمر ، فقال العفريت : انهما ظلما علياً واعتديا عليه . فقلت : بمن ترضى حكماً ؟ فقال : بابليس . فاتيناه فقصصنا عليه القصة فضحك ، ثم قال : هؤلاء من شيعتي وانصاري ، وأهل مودتي ، ثم قال : ألا أحدثك بحديث؟ قلنا: بلى. قال : اعلمكم أني عبدت الله تعالى في السماء الدنيا ألف عام فسُميت فيها العابد ، وعبدت الله في الثانية ألف عام فسُميت فيها الزاهد وعبدت الله في الثالثة ألف عام فسميت فيها الراغب ثم رُفعت إلى الرابعة ، فرأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون لمحبي أبي بكر وعمر ، ثم رُفعت إلى الخامسة فرأيت فيها سبعين ألف ملك يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر . انتهى .

هذه هي اسطورة ابن العماد ينقلها للطعن في الشيعة واظهار فضل أبي بكر وعمر ، نقدمها ليتضح للقارىء مدى الشوط الذي لعبه الجهل في عقول الناس ، حتّى استخدموا الشياطين في اكاذيبهم « ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد (٢) » « وقل ربي أعوذ بك من همزات الشياطين واعوذ بك ربي ان يحضرون (٣) » .

---

(١) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٥ .
(٢) سورة الحج آية ٥ .
(٣) سورة المؤمنون آية ٩٧ .

اسطورة ابن سبأ :

ومن الاساطير التي أخذت مفعولها في المجتمع ، وتأثر بها أهله تأثراً جعلهم يرسلونها ارسال المسلمات ، هي اسطورة عبد الله بن سبأ . تلك الشخصية الموهومة التي لا وجود لها في التأريخ ، وإنما هي أحاديث خرافة وضعها القصاصون وأرباب السمر والمجون . في اواسط الدولتين الاموية والعباسية إذ بلغ الترف والنعيم اقصاه ، وكلما اتسع العيش وتوفرت دواعي اللهو اتسع المجال للوضع ، وراجت سوق الخيـــال ، ونسج القصص والأمثـــال ، كي تأنس بها ربات الحجال . والترف والنعمة (١) » .

ولقد اندفع اعداء الشيعة في القرون المتوسطة إلى جعل اسطورة عبد الله ابن سبأ ذات شأن في تأريخ الإسلام ، وأسندوا إليه أموراً يأباها البحث المبرأ من الهوى ، ويقفر عندها العقل السليم ، فقد اخترعوا له افعالا ومواقف ، واسندوا إليه قصصاً ووقائع ، والبسوه ابراد العظمة ، وادعوا له الشجاعة والبسالة ؛ فهو الذي أثار حرب الجمل ، وهيـّأ جيش مصر لحرب عثمان ، وأقام في الكوفة يثير الفتنة على عثمان وعماله ، ويسير في انحاء الاقطار الاسلامية بسرعة البرق ليوقد الفتنة ، ويعود للمدينة فيؤلب الناس على عثمان ، وتأثر به كثير من كبار الصحابة . إلى آخر ما هنالك من الامور العجيبة التي حفـّت بها شخصية عبد الله بن سبأ ! !

وقد نص كثير من القدماء المحققين على نفي وجود شخصية عبد الله ابن سبأ ، وانها أسطورة وضعها اعداء الشيعة (٢) . . . وكذلك ذهب جماعة من المتأخرين إلى نفيها (٣) وللمستشرقين آراء كثيرة في ذلك : يقول برنار ولويس : « وينسب كثير من المؤرخين المسلمين بداءات التشيع الثوري إلى رجل اسمه عبد الله بن سبأ وهو يهودي يماني ، غاصر علياً وكان يدعو إلى تأليهه ، فأمر علي بحرقه لما دعا إليه ، ومن هنا قيل إن اصل التشيع مأخوذ من اليهودية . ولكن البحث الحديث قد اظهر ان هذا استباق للحوادث وانه صورة مثل بها الماضي وتخيلها الرواة في القرن الثاني الهجري من احوالهم وافكارهم السائدة » .

فهو يذهب بهذا إلى أن فكرة عبد الله بن سبأ من تخيل الرواة نظراً

---

(١) اصل الشيعة واصولها ص ٨٤ .

(٢) عبد الله بن سبأ للاستاذ السيد مرتضى العسكري فهو خير كتاب في هذا الموضوع ، فقد تتبع فيه اصل وضع هذه الاسطورة .

(٣) الفتنة الكبرى لطه حسين ج ١ ص وخطط الشام لمحمد كرد علي ج ٦ ص ٢٥١ — ٢٥٦ .

للأفكار السائدة، والاحوال التي كانوا عليها في انتحال القصص والخرافات (١) وأظهر فلهاوزن ، وفريد لندر بعد دراسة نقدية : ان المؤامرات والدعوة المنسوبتين إلى عبد الله بن سبأ من اختلاق المؤرخين . وقال كايتاني : « ان مؤامرة مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم ، لا يمكن ان يتصورها العالم العربي عام ٣٥ هـ بنظامه القبلي القائم على سلطان الابوة ، وانها تعكس العصر العباسي الأول بجلاء » .

والغرض ان امثال هذه الاساطير واختراع تلك الخرافات لا تخفى على من اعطاها نظرة صادقة ، ووقف وقفة متريث يريد أن يعرف الواقع ، ويصل إلى معرفة البواعث التي أدت إلى وضعها من قبل سلف مخدوع يسير وراء توجيهات الدولة . وقد تبعهم كثير من ابناء الجيل الحاضر وضربوا على وترهم لتصبح تلك الامور الخرافية قواعد ثابتة الاصول وما هي في عرف الحق الا : (٢) كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . وسيأتي في الجزء السادس من هذا الكتاب بحث مستفيض عن هذه الاسطورة .

وصفوة القول ان الإتهامات التي وجهت للشيعة ، إنما تعود لاسباب سياسية ، قد اتخذها الحكام وسيلة للقضاء عليهم ، ومحو مذهبهم الذي اصبح عبئاً ثقيلا على كاهل الدولة ، وشبحاً مخيفاً يقض مضاجعهم ، لأنه يتصل بأهل البيت ، وهم اعداء للباطل وحرب على الظالمين .

وقد اتضح اعلانهم الانفصال عن دولة لا تحترم الحقوق ، وتسير بالأمة على غير هدى ، حتى عُرف المنتمون لهم بذلك اتباعاً لهم واقتداءً بهم .

قال الانباري : كتبت إلى أبي الحسن الرضا (ع) اربع عشرة (مرة) استأذنه في عمل السلطان فلما كان آخر كتاب كتبته : اني أخاف على خيط عنقي وان السلطان يقول : انك رافضي ، ولسنا نشك في انك تركت العمل للسلطان للترفض . فكتب إليّ أبو الحسن : اني قد فهمت كتبك ، وما ذكرت من الخوف على نفسك ، فان كنت تعلم أنك إذا وُليت عملت فى عملك بما أمر به رسول الله (ص) إلى آخر الكتاب (٣) .

فيظهر جلياً ان عدم معاونة الدولة والعمل لها آنذاك ، يوقع الانسان

---

(١) اصول الاسماعيلية ص ٨٦ – ٨٧
(٢) سورة إبراهيم ٢٦ – ٢٧ .
(٣) فروع الكافي في باب عمل السلطان .

بتهمة التشيع ، الذي هو من اعظم الذنوب في ذلك العصر ؛ لأنهم — أي الشيعة — معارضون لذلك النظام ! ! وناهيك ما يلقى المعارضون لحكام الجور من مقاومة وتنكيل .

فانتشار مذهب أهل البيت يعتبر في الواقع اتساعاً للمعارضة ، لذلك اجتهد حكام الجور في معارضته والتنكيل بأهله ، ولكنه استطاع ان يصمد لتلك الاعاصير الجائحة ، ويتخطى تلك العقبات الهائلة ، فانتشر على وجه البسيطة ، فكان عدد المنتمين اليه مائة مليون أو يزيدون .

وجدير بمن يريد دراسة المذهب الجعفري أن يزن اقوال بعض علماء الرجال الذين ساروا في ركاب الدولة ، ونفخوا ببوقها — عندما يترجمون لعلماء الشيعة — فيقولون مثلا : فلان صدوق إلا أنه مبتدع أو أنه سيء المذهب ، أو زائغ عن الحق . كما قال الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب : انه صدوق إلا انه مبتدع ، فلنا صدقه وعليه بدعته . إلى آخر ما هنالك من أقوال هي بعيدة عن الصواب . وإذا أردنا ان نسائلهم عن بدعتهم فلا شيء هناك إلا مخالفة ما شرعته السياسة لا ما شرعه الاسلام ؟ !

نقول هذا ونحن نأسف الأسف الشديد على ذوي التفكير من ابناء العصر أن يعوّلوا على أقوال قوم جرفهم تيار التعصب ، فكان فهمهم للمذهب الجعفري فهماً عاطفياً ! ! لذلك نرى أكثر من كتب عن تأريخ التشريع الإسلامي وبيان المذاهب فيه ، قد أهمل ذكر جعفر بن محمد الصادق . ولئن دل إهمالهم له على شيء فانما يدل على اعتزازهم بتلك النعرات الطائفية ، وتلوث وجدانهم بالرواسب التي ورثوها من السلف المخدوع ليضعوها في طريق وحدة المسلمين في الوقت الذي يكونون فيه في أمس الحاجة إلى ازالة ما خلفته تلك العصور المظلمة ، من عقبات تحول بينهم وبين التفاهم والوحدة ، وما أحوجهم اليها اليوم لمقابلة أعداء الاسلام الذين يكيدون له بكل مالديهم من حول وقوة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

«ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر»
«ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم»
وانتم لا تعلمون»

(سورة البقرة — ٢٣٢)



الإمام الصادق

أصحابه وحملة فقهه



مؤهلات الإمام الصادق ومكانته :

انتشر ذكر مدرسة الإمام الصادق (ع) في جميع الاقطار الإسلامية ، فاصبحت جامعة اسلامية كبرى تقصدها وفود الامصار ، حتى كان عدد المنتمين إليها أربعة آلاف كلهم من حمله الحديث .

ولم يُعرف لأحد من أئمة المذاهب من التلاميذ مثل ما عُرف للإمام الصادق ، مع تباعد اقطارهم . فكان تلاميذه ، من العراق ، ومصر وخراسان ، وحمص ، والشام ، وحضرموت وغيرها .

ومما يستلفت النظر أن أكثر تلاميذه كانوا من الكوفة والمدينة . لانتشار التشيع في الاولى ونشأته في الثانية .

وان هذا العدد وهو ٤٠٠٠ طالباً في مدرسته لم يكن هائلا – كما قد يبدوا للبعض – وهو قليل بالنسبة لذلك العصر من حيث اتساع نطاق الحركة العلمية واتجاه الناس لإحياء ما درس من السنن . ولأن الإمام الصادق (ع) هو سيد أهل البيت في عصره ووارث علم جده ، وكان لأهل البيت نشاط علمي فلا غرابة ان اتجهت إليه الامة الاسلامية تنتهل من ينبوع علمه ، فضلا عن انه قد اتصف بجميع الصفات التي تؤهله لأن يتزعم الحركة العلمية في عصر نهضتها ، وقد « نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان » (١) « وروى حديثه خلق لا يحصون » (٢)

وكانت له (نواح كثيرة يعذب فيها القول ، وتفيض في شأنها المعاني والدراسات ، ومن ابرز ذلك : انه عليه السلام كان – بشخصيته وعلمه – موضع احترام وتقدير وحب ، من أهل الايمان والعلم في عصره ، لا فرق بين الخاصة والعامة ، ولا بين من يتبعونه ويعتقدون بنصية امامته ، ومن يتبعون المذاهب الاخرى . كلهم عرفوه إماماً جليلا ، وكلهم عرفوه عالماً قوياً وكلهم عرفوه صادقاً إذا حدث ، ومنصفاً إذا فكر ، لا هدف له إلا الحق ، ولذلك لقب بالصادق ، وهي نفحة من نفحات جده الأعظم رسول الله (ص) حيث كان ملقباً بالصادق) (٣) .

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٢٠ .

(٢) الخلاصة للخزرجي ص ٥٤ .

(٣) من كلمة عن دار التقريب بمصر .

ولا نستغرب قول من يعترف بعدم استطاعته لاحصاء تلامذته ، ورواة حديثه . وقد نقلنا من أوثق المصادر بعضاً منهم من سائر الناس ، دون خواصه ، وسنواصل نشر الآخرين منهم .

وعلى أي حال فان الناشرين لفقه الإمام جعفر بن محمد خلق كثير . ولكن فقهه الذي اراد الله تعالى أن يكون خالداً مع الزمن ، وهو المتبع عند الشيعة ، والمرجع في أهم الاحكام ، انحصر تلقيه عن جماعة اختصوا بالإمام الصادق وواصلوا دراستهم عنده ، وكانوا من العدالة والوثاقة على منزلة تجعلهم أهلا لقبول ما يروى عنهم من فقهه ، الذي ينبع فيضه من بحار آبائه ، الذين هدى الله بهم الأمة ، وأوجب محبتهم على الخاصة والعامة .

وقد أشرنا فيما سبق إلى ان عدداً من تلامذته ، وهم أربعمائة قد الّفوا في فقهه والرواية عنه اربعمائة كتاباً ، وهي : اصول الفقه للمذهب الجعفري المعروفة بالاصول الابعمائة . وقد جُمعت هذه الكتب في الكتب الاربعة وهي : الكافي ، والاستبصار ، والتهذيب ، وما لا يحضره الفقيه .

وكان الإمام الصادق ينظر إلى اصحابه على قدر كفايتهم الموهوبة كل على حسب استعداده وكفايته ، فاختص بجماعة منهم فكانوا خير معين على حل المشاكل التي تحل بالمجتمع ، والتي يهتم بها الإمام الصادق اشد الإهتمام . فهم يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم ، وتحت اشرافه يكون قيامهم بها ، فهو المصدر الأول والمنتهى الاخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من اصحابه .

وكانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية ، وفي محاربة أهل الإلحاد والزندقة ، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة ، والفرق الشاذة ، ومقابلة الظلمة في شدة الانكار عليهم ، وتوجيه الانتقاد اليهم . بطرق مختلفة .

وكان (ع) يشيد بذكر خلّص أصحابه ، ويظهر للناس كفايتهم . وحيث كان ترد عليه الوفود من سائر البلاد الإسلامية للاستفادة مرة ، وللمناظرة أخرى . فقد جعل لكل واحد من اصحابه وظيفة خاصة يقوم بها عندما يعوّل في الجواب عليه ، اظهاراً لفضله وعلو منزلته .

فجعل أبان ابن تغلب للفقه ، وأمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس . ووكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن ، وزرارة بن أعين للمناظرة في الفقه ، ومؤمن الطاق للمساجلة في الكلام ، والطيار للمناظرة في الاستطاعة وغيرها ، وهشام بن الحكم للمناظرة في الامامة والعقائد . وكان منهم

جماعة يتجولون في الامصار وامدهم بالاموال للتجارة والقصد من ذلك أن يمتزجوا بالمجتمع . لتوجيه الناس والدعوة إلى مذهب أهل البيت (ع) .

وهكذا كان يوجه اصحابه ويجعل لكل واحد جهة ، وعلى كل واحد اداء رسالة خاصة . ولا يسعنا — ونحن بهذه العجالة — أن ندرس حياة أولئك العظماء الذين وقفوا إلى جانب أهل البيت ، واتبعوا الحق أينما سارت ركائبه . فكانوا اعلاماً يهتدى بهم ، وعلماء يرجع اليهم في اهم المسائل العلمية ، مع خطورة الموقف ، وعظيم المراقبة من قبل السلطة ، ومعارضة اعوانها لهم ، وقد وقفوا بصلابة الايمان ، ونفاذ البصيرية ، يتحدون كل مقابلة ، واجتازوا كل الصعاب التي تعترضهم ؛ ليصلوا إلى الهدف الذي عاهدوا الله على الوصول اليه ، وان دراسة حياتهم دراسة مستفيظة أمر ليس بالهين ادراكه ولهذا فقد اكتفينا بالاشارة للبعض بإلمامة موجزة وعرض قليل ؛ اتماماً للغرض ووفاء بالوعد . وقد ألف علماؤنا كتباً مطولة في تراجمهم ودراسة حياتهم .

وقد رأينا لزاماً أن نتكلم عن هشام بن الحكم بصورة واسعة بالنسبة لغيره ، لا بالنسبة لدراسة حياته ، لنعرف بذلك منهجه في تفكيره وبيان عقيدته . ونقف على بواعث الإتهام له بتلك العقائد الفاسدة ، عسانا نوفق لكشف تلك الحجب التي غطت وجه الحقيقة في معرفة هشام ودراسة شخصيته .



أبان بن تغلب



نسبه وأقوال العلماء فيه :

أبان بن تغلب بن رباح (١) ، أبو سعيد البكري الجريري المتوفى سنة ١٤١هـ كان جليل القدر ، عظيم المنزلة ، لقي الإمام زين العابدين ، والباقر والصادق ، وكانت له حلقة في المسجد .

وقال ياقوت الحموي : كان قارءاً لغوياً فقيهاً إمامياً ، ثقة عظيم المنزلة ، جليل القدر ، روى عن علي بن الحسين ، وأبي عبد الله عليهم السلام ، وسمع من العرب وصنف غريب القرآن وغيره .

وقال الذهبي : أبان بن تغلب شيعي جلد صدوق ، لكنه مبتدع ، فلنا صدقه وعليه بدعته . وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين . روى عنه موسى بن عقبة وشعبة وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة .

وقال ابن عدي : له نسخ عامتها مستقيمة ، إذا روى عنه ثقة ، وهو من أهل الصدق في الرواية وإن كان مذهبه مذهب الشيعة ، وهو في الرواية صالح لا بأس به .

وقال الحاكم : كان قاص الشيعة وهو ثقة ، ومدحه ابن عيينه بالفصاحة .

وقال أبو نعيم في تاريخه : مات سنة ١٤٠ هـ وكان غاية من الغايات .

وقال العقيلي : سمعت أبا عبد الله يذكر عنه عقلا وادباً وصحة حديث ، إلا انه كان غالياً في التشيع .

وقال ابن سعد : كان ثقة . وذكره ابن حبان في الثقات .

وقال الازدي : كان غالياً في التشيع وما أعلم به في الحديث بأساً .

خرّج حديثه مسلم في صحيحه ، والترمذي ، وأبو داود ، والنسائي وابن ماجة . وهو ممن اجمعوا على قبول روايته وصدقه ، واعترفوا بعلو منزلته ، فلا يضر قول من زاغ عن الحق في طعنه – في أبان – كابراهيم

---

(١) ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ج١ ص٩٣، وطبقات ابن سعد ج٦ص٢٥٠ وفهرست ابن النديم ص ٣٠٨ ، ومعجم الادباء ج ١ ص ١١٧ ، وبغية الوعاة ص ١٧٦ ، وميزان الاعتدال ج ١ ص ٤ ، وخلاصة تذهيب الكمال ص ١٣ ، وشذرات الذهب ج ١ ص ٢١٠، وطبقات القراء لشمس الدين الجزري ج ١ ص ٨٦ ، ومرآة الجنان ح ١ ص ٢٩٣ ، ومنهج المقال والخلاصة وفهرست الشيخ الطوسي وغيرها .

الجوزجاني (١) حيث يقول : أبان زائغ مذموم المذهب مجاهر .

قال ابن حجر : واما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين ، فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل علي (ع) على عثمان ، وأن علياً كان مصيباً في حروبه وان مخالفه مخطيء ، وربما اعتقد بعضهم ان علياً افضل الخلق بعد رسول الله ، وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقاً مجتهداً فلا ترد روايته .

وعلى أي حال فلا يهمنا قول الجوزجاني ، ولا نود ان نخوض في بحث يقصينا عن الغاية ، ونكتفي بأن نحيل القارىء المنصف المتجرد عن نزعة الهوى إلى مراجعة تاريخ حياة الجوزجاني ، ويقف هناك وقفة قصيرة فيعرف نزعة الرجل التي اتصف بها ، فهو خارجي يرى رأي الحرورية (٢) وكان شديد الميل على علي عليه‌السلام يذهب مذهب أهل الشام الذين تغذت أدمغتهم بأباطيل معاوية واضاليله ، حتى سلك الناس طرقاً ملتوية وزاغوا عن الحق اتباعاً لمن لا يروق له قول الحق !

وقد اتصف الجوزجاني ايضاً بانه حريزي المذهب ، أي يذهب مذهب «حريز بن عثمان» المعروف بالعداء لعلي بن أبي طالب (ع) ، فقد كان حريز (٣) اموي النزعة شامي النشأة يحمل على عليّ ، وقيل : انه يسبه .

ومن الغريب انهم يصفون من عرف ببغض علي (ع) بالصلابة في السنّة كما وصفوا عليّ بن الجهم والجوزجاني .

ولا ادري أي سنة هذه التي يتصف بها مبغض علي (ع) ؟ ! أجل اين قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله : «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» وهذا الحديث خرّجه الحفاظ من طرق متعددة ، ورواه مسلم ، والنسائي ، وابن عبد البر . والطبري ، وغيرهم .

وقد كان اصحاب النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله يعرفون ايمان الرجل بحبه لعلي ، ونفاقه ببغضه له ، متخذين من هذا الحديث قاعدة مطردة .

وكيف كان فان بدعة أبان التي وصفه بها الجوزجاني والذهبي هي موالاته لعلي ، وصلابة الجوزجاني في السنة هي بغضه لعلي ، والحكم في هذا للقارىء المنصف.

---

(١) هو إبراهيم بن يعقوب السعدي المتوفى سنة ٢٥٦ هـ سكن دمشق ، كان من المتحاملين على اهل البيت ويتجاهر بنصب العداء لهم .

(٢) تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٨١ — ١٨٣ .

(٣) حريز بن عثمان الرحبي المتوفى سنة ١٦٣ هـ من رجال البخاري الاربعة ، وكان معروفاً بالنصب . ويقول : لا احب علياً لأنه قتل آبائي . وحكى الناس عنه ايضاً سوء الاعتقاد وفساد المذهب ، ولكن البخاري خرج حديثه ووثقه ، كما وثقه احمد بن حنبل . ترجمته في تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢٦٥ — ٢٧٠ والخلاصة ص ٦٤ وغيرهما .

علمه وشيوخه :

وكان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت باتقاد الذهن ، ووفور العقل ، وبعد الغور ، والاختصاص بعلوم القرآن ، وهو أوّل من ألّف في ذلك . وكان فقيهاً يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه ، وإذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي ﷺ فيحدث الناس . وله علم باختلاف الأقوال ، وقد شهد له معاصروه بالفضل والتفوق . ويكفيه — شهادة في التقدم — أن الإمام الباقر والإمام الصادق أمراه أن يحدث الناس في مسجد النبي ﷺ وكلٌّ يقول له : اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فاني احب أن يُرى في شيعتي مثلك .

وأخذ أبان علمي الفقه والتفسير عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فقد حضر عند الإمام زين العابدين ، ومن بعده عند الإمام الباقر ، ثم عند الإمام الصادق فهؤلاء شيوخه واساتذته ، وهو من كبار اصحابهم والثقات في رواياتهم .

وقد عد علماء الرجال من جملة اساتذة أبان جماعة منهم :

الحكم بن عتيبة الكندي المتوفى سنة ١١٥ هـ وهو من رجال الصحاح الستة ، ومن حملة الحديث وأعلام الأمة .

وفضيل بن عمرو الفُقَيمي أبو النظر الكوفي المتوفى سنة ١١٠ هـ خرّج حديثه مسلم والأربعة .

وأبو اسحاق عمرو بن عبد الله الهمداني السبيعي ، المتوفى سنة ١٢٧ هـ وهو أحد أعلام التابعين ، ومن رجال الصحاح الستة .

تلامذته :

وروى الحديث عنه خلق كثير منهم :

موسى بن عقبة الأسدي المتوفى سنة ١٤١ هـ من رجال الصحاح الستة ، وثقه ابن معين ، واحمد ، وأبو حاتم . وقال مالك : عليكم بمغازي موسى ابن عقبة . وقد صنف فيها وأجاد .

وشعبة بن الحجاج تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

وحماد بن زيد بن درهم الأزدي أبو إسماعيل الأزرق البصري الحافظ المتوفى سنة ١٩٧ هـ عن احدى وثمانين سنة . قال ابن مهدي : مارأيت أحفظ

،

منه ولا أعلم بالسنّة ولا أفقه بالبصرة منه . وقال احمد : هومن أئمة المسلمين .

وسفيان بن عيينة تقدمت ترجمته في الجزء الأول .

ومحمد بن خازم التميمي أبو معاوية الضرير المتوفى سنة ١٩٥ هـ خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة ، وروى عنه أحمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه ، وابن المديني وابن معين . وكان أحفظ الناس لحديث الأعمش .

وعبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي المتوفى سنة ١٨١ هـ أحد الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة . قال ابن المبارك : كتبت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف ، وثّقه جماعة .

هؤلاء الذين ذكرهم ابن حجر في « تهذيب التهذيب » والخزرجي في « خلاصة تذهيب الكمال » وغيرهما . وهذه عادة علماء الرجال أن يذكروا من تلامذة الشخص بعضاً ويتركوا آخرين . ويعبّرون عن ذلك بقولهم : وجماعة ، وآخرين ، وخلق كثير .

ونظراً لمنزلة أبان العلمية ومكانته في الفقه ، وكثرة الآخذين عنه — لا بد وأن يكون له عدد كثير من التلاميذ ، وحيث لا يمكننا إحصاؤهم فنعوّل في ذلك بالرجوع إلى « جامع الرواة » فقد ذكر عدداً وافراً ممن روى عن أبان ، وأشار إلى موضع الرواية عنه في كتب الأصحاب .

مكانته وكفايته العلمية :

وصفوة القول : أن أبان بن تغلب شخصية إسلامية ، قد أهمل التاريخ أكثر مآثره ، وبخسه أكثر علماء الرجال حقه ، ولم يعطوه ما يستحقه من البيان . والأسباب غير مجهولة ، فإن تدوين التاريخ جاء في عصور قد اشتدت فيها النعرة الطائفية ، فأسرع أكثر الكتاب والمؤرخين إلى مجاراة الدولة ، والخضوع لأوامر السلطة . وإن أبان من أعيان الشيعة ، والشيعة — كما لا يخفى — هم الحزب المعارض لسلطان الجور ، وحكام الاستبداد .

وكيف نرجو من أولئك المؤرخين أن يعطوا رجال الشيعة حقهم من البيان مع بخسهم حق عترة الرسول وأئمة الهدى ؟ ! فإنهم يتحرّجون عن ذكر ما لهم من المآثر ، وما خصهم الله به من الفضائل ، فتراهم عند ترجمة أي واحد من الأئمة يستعملون الإيجاز المخل .

لقد عاش أبان بن تغلب مدة من الزمن وهو ملازم لأهل البيت عليهم السلام يأخذ

عنهم ، حتى أنه كان يحفظ عن الإمام الصادق ثلاثين ألف حديث (١) .

وكان الإمام الصادق يرشد إليه في أخذ الأحكام ، ورواية الحديث .

قال سليم بن أبي حبّة : « كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فلما أردت أن أفارقه ودعته وقلت : أحب أن تزوّدني . فقال : أنت أبان بن تغلب فإنه قد سمع مني حديثاً كثيراً ، فما روى لك فاروه عني » .

ومما يدل على إحاطة أبان وتفوقه في الحديث أنه كان يجلس في مسجد النبي فيجيء إليه الناس ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال ، ثم يذكر قول أهل البيت ويسوق أدلته ومناقشته ، لأنه يرى أن الحق مع أهل البيت وأن قولهم الفصل .

يحدثنا عبد الرحمن بن الحجاج قال : كنا في مجلس أبان فجاءه شاب فقال : يا أبا سعيد أخبرني كم شهد علي بن أبي طالب من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ؟ فقال له أبان : كأنك تريد أن تعرف فضل علي بن أبي طالب ومن تبعه من أصحاب رسول الله ؟ فقال الرجل : هو ذاك .

فقال أبان : والله ما عرفنا فضلهم — أي الصحابة — إلا باتباعهم إياه — يعني علياً — فقال أبو البلاد : « عض ببظر أم رجل من الشيعة في أقصى الأرض وأدناها يموت أبان لا تدخل مصيبته عليه » .

فقال أبان : يا أبا البلاد تدري من الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذوا بقول علي عليه السلام ، وإذا اختلف الناس عن علي أخذوا بقول جعفر بن محمد عليه السلام .

وقال أبان : مررت بقوم يعيبون عليّ رواية جعفر بن محمد فقلت : كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلا قال : قال رسول الله ؟

مؤلفاته :

١ — غريب القرآن وهو أول تأليف في ذلك ، فصار أساساً لعلم اللغة وقد ذكر شواهده من الشعر ، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي فجمع من كتاب أبان ، وكتاب محمد بن السائب الكلبي ، وأبي ورق عطية بن الحرث فجعلهما كتاباً واحداً ، وبين فيه ما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه فتارة يجيء كتاب أبان مفرداً وتارة مشتركاً .

---

(١) منهج المقال ص ٨٦ .

٢ — كتاب الفضائل .
٣ — كتاب معاني القرآن .
٤ — كتاب القراءات .
٥ — كتاب الأصول في الرواية على مذهب الشيعة ، ذكره ابن النديم في الفهرست .

وله مناظرات ومجادلات وقراءة للقرآن مفردة مقررة عند القراء .

قال محمد بن موسى : ما رأيت أقرأ منه قط . وقال محمد بن إبراهيم الشافعي : كان أبان مقدماً في كل فن من العلم : في القرآن ، والفقه ، والحديث والأدب واللغة .

وعلى أي حال فقد كان أبان من رجال الأمة المبرزين في العلم ومن حملة فقه آل محمد وحفظ عن الإمام الصادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث ، وكان لعظم منزلته إذا دخل المدينة تفوضت إليه الحلق وأخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله(١)

ولقد كان من المقرر المضيُّ في دراسة مشاهير الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام وحملة فقهه بنفس الأسلوب الذي سرت عليه في دراسة حياة «أبان» من ذكر الشيوخ والتلاميذ والأقوال فيه مع مراعاة الاختصار .

لكني تبينت جلياً عدم استطاعتي استيفاء هذا الغرض . فالتجأت إلى حذف كثير مما أعددته من الدراسات لهذا الجزء ، وفضلت الاقتصار على دراسة حياة أبان بن تغلب ، ومؤمن الطاق ، وهشام بن الحكم كما هو المقرر في الأصل، واكتفيت في دراسة حياة الآخرين بالاختصار مرة وبالإشارة أخرى .

أبان بن عثمان :

أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي (٢) المتوفى سنة ٢٠٠ هـ .

كان من أهل الكوفة ، وكان يسكنها تارة ويسكن البصرة أخرى . وقد أخذ عنه من أهل البصرة : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو عبدالله محمد بن المثنى ، وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي ، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار

---

(١) قاموس الرجال ج ١ ص ٧٤ .

(٢) معجم الادباء ج ١ ص ١٠٨ — ١٠٩ ، ولسان الميزان ج ١ ص ٢٤ ، وبغية الوعاة ص ١٧٧ ، وفهرست الشيخ الطوسي ص ١٨ ، ومنهج المقال ص ١٦ ، وجامع الرواة ج ١ ص ١٢ — ١٥ ، وغيرها من كتب الرجال والأدب .

الشعراء والنسب والأيام . روى عن أبي عبدالله ، وأبي الحسن موسى بن جعفر ، وما عرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ ، والمبعث ، والمغازي ، والوفاة ، والسقيفة والردة .

ولأبان أصل يرويه الشيخ الطوسي عن عدة من الأصحاب .

وكان أبان من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم ، والإقرار لهم بالفقه ، وهم : جميل بن دراج ، وعبدالله بن مسكان ، وعبدالله ابن بكير ، وحماد بن عيسى ، وحماد بن عثمان ، وأبان بن عثمان .

وقد روى عن أبان خلق كثير ، منهم الحسن بن علي الوشا ، وعلى بن الحكم الكوفي ، وفضالة بن أيوب ، والحسن بن سعيد ، وصفوان بن يحيى وعيسى الفراء ، وجعفر بن سماعة وغيرهم .

وكان هو أيضاً يروي عن جماعة من أصحاب الإمام ، كزرارة ، والفضيل بن يسار ، وعبد الرحمن بن أبي عبدالله وغيرهم كما هو موجود في كتب الحديث .

بريد العجلي :

وبريد بن معاوية العجلي (١) أبو القاسم الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ هـ .

كان من أصحاب الإمام الباقر ، وولده الإمام الصادق . وهو من حمله الحديث ورجال الفقه، وله منزلة عند أهل البيت (ع) من الوثاقة وعلو القدر . وورد مدحه في روايات صحيحة ، كما أجمعت الشيعة على تصحيح ما صحّ عنه . والذي يظهر أن له منزلة سامية في نشر حديث أهل البيت ، لذلك نجد الخصوم قد وضعوا أحاديث في ذمه ليحطوا من قدره ، ويصرفوا الناس عنه ، ولكنها لم تقف في طريقه ، أو تعرقل سيره المتواصل في نشر المذهب ، وبث الأحكام . وهو من الستة الذين عرفوا بأنهم أفقه الناس وهم : زرارة بن أعين ، ومعروف بن خربوذ ، وبريد العجلي ، وأبو بصير الأسدي ، والفضيل ابن يسار ، ومحمد بن مسلم الطائفي وأفقه الستة زرارة .

وقال الإمام الصادق : زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد العجلي والأحول أحب الناس إليّ احياءً وأمواتاً .

---

(١) منهج للاسترابادي ص ٦٦ ، وجامع الرواة ج ١ ص ١١٧ — ١١٩ ، والإمام الصادق للمظفر ص ١٤٧ — ١٤٨ ، وغيرها كتنقيح المقال للمامقاني ، ورجال أبي علي ، ورجال الشيخ محمد طه نجف .

روى الحديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق وروى عنه داود بن يزيد ابن فرقد ، والحكم واسماعيل ابنا حبيب . والقاسم بن عروة ومنصور بن يونس ، وعبد الله بن المغيرة ، وخلق كثير .

وكان بريد من المؤلفين في عصر الإمام الصادق . له كتاب يرويه عنه علي ابن عقبة بن خالد الأسدي . وقد تقدم ذكر بريد في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، في جملة أصحاب الإمام الباقر عليه‌السلام فلا حاجة إلى إطالة البحث .

كما تقدمت هناك ترجمة بكير بن أعين ، ومحمد بن مسلم ، وزرارة بن أعين ، وجابر الجعفي ، وعبد الملك بن أعين ، وأبي حمزة الثمالي ، وحمران ابن أعين ، وكلهم من الثقات وحملة فقه الإمام الباقر وولده الإمام الصادق عليه‌السلام. وإن التعرض لدراسة حياتهم أمر يقصينا عن الموضوع ، لاتساع دائرة البحث فنكتفي بما ذكرناه عنهم من الإشارة هناك .

جميل بن دراج :

وجميل بن دراج بن عبد الله أبو علي النخعي (١) مولاهم الكوفي ، من أصحاب الإمام الصادق عليه‌السلام وولده أبي الحسن موسى عليه‌السلام وكان ثقة. وهو من الستة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصح عنهم . توفي في أيام الإمام الرضا عليه‌السلام وكان كثير الحديث ، فقيهاً ، زاهداً ، متعبداً ، له مؤلفات ، منها كتاب اشترك هو ومحمد بن حمران فيه . وله كتاب اشترك هو ومرازم بن حكيم فيه ، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن الحسين بن عبيد الله .

روى عنه الحديث خلق كثير كالحسن بن محبوب ، وصالح بن عقبة . وعبدالله بن جبلة ، وأبو مالك الحضرمي ومحمد بن عمرو وغيرهم .

وكان لجميل أخ يقال له نوح بن دراج ، وكان قاضياً في الدولة العباسية وقد اشتدت الملامة عليه من قبل أصحاب الإمام الصادق لأن القضاء من قبل الدولة يعد مؤازرة لهم ، وكان نوح من رواة حديث الإمام الصادق ، ولكنه اعتذر أنه لم يتول القضاء حتى سأل أخاه جميلا .

---

(١) فهرست الشيخ الطوسي ص ٤٤ ، وجامع الرواة ج ١ ص ١٦٥ ، ومنهج المقال ص ٧٨ وغيرها .

جميل بن صالح :

وجميل بن صالح الأسدي الكوفي . من أصحاب الإمام الصادق وولده موسى عليه‌السلام. ثقة له أصل، روى عنه جماعة كالحسن بن محبوب وسعد بن عبد الله وعمار بن موسى الساباطي ومحمد بن عمر وغيرهم .

حماد بن عثمان :

وحماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي المتوفى سنة ١٩٠ هـ .

هو من الستة الذين أقرّت الطائفة لهم وتصحيح ما يصح عنهم . روى حماد عن الإمام الصادق وولده موسى الكاظم ، وعن جماعة من أصحابهما (ع) .

وروى عنه جماعة منهم محمد بن الوليد ، وعلي بن مهزيار ، وصفوان بن يحيى وغيرهم .

حماد بن عيسى :

وحماد بن عيسى بن عبيدة الجهني (١) الواسطي ثم البصري ، غريق الجحفة المتوفى سنة ٣٠٨هـ من أصحاب الإمام الصادق والكاظم عليهما‌السلام وهو من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم .

حبيب بن ثابت :

وحبيب بن ثابت الكاهلي (٢) مولاهم أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة ١٢٢ هـ من التابعين ومن رجال الصحاح الستة . روى عن زين العابدين والإمام الباقر وولده الصادق، وعنه مسعر والثوري وشعبة وأبو بكر النهشلي وخلق كثير. وثقه العجلي وأبو زرعة وخلق كثير قال ابن معين : له نحو مائتي حديث .

---

(١) خلاصة تذهيب الكمال ص ٧٨ ، وجامع الرواة ج ١ ص ٢٧٣ ، ومنهج المقال ص ١٢٢

(٢) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٨٧ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٢٦٨ ، والخلاصة للخزرجي وغيرها .

حمزة بن الطيار :

وحمزة بن محمد الطيار كان من رجال الفقه والمتفوقين في علم الكلام وله مناظرات مع خصوم أهل البيت ، كما دلت على ذلك آثاره ووردت من أحاديث أهل البيت في مدحه . منها ما رواه أبان الأحمر عن الطيار قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : بلغني أنك كرهت مناظرة الناس وكرهت الخصومة . فقال : أما كلام مثلك فلا يكره . من إذا طار أحسن أن يقع ، وإن وقع أحسن أن يطير ، فمن كان هكذا فلا نكره كلامه . إلى غير ذلك من الأحاديث التي تركناها للاختصار . كما تركنا ذكر جماعة منهم داود بن فرقد ، وحميد بن المثنى العجلي ، وداود الرقي ، وزيد الشحام ، وسدير الصيرفي ، وعبد الرحمن البجلي ، وداود بن يزيد الكوفي العطار ، وداود بن كثير ، وروح بن عبد عبد الرحيم الكوفي ، وعبدالله بن أبي يعفور الكوفي ، وعبد الله بن شريك ، وعبدالله بن مسكان ، والعلاء بن رزين ، وعمر بن حنظلة ، وشعيب العقرقوفي والمعلا بن خنيس .

وكل هؤلاء قد أعددنا لهم ترجمة وافية ، ولكن ضيق المجال حال بيننا وبين نشرها .

ومما يلزم التنبيه عليه : أن أكثر من دوّن في مناقب أئمة المذاهب قد نسبوا إلى أئمتهم من المشايخ والتلاميذ ما لا يتصل بالواقع ، ولا أصل لتلك النسبة ، إذ التتبع ينفي ذلك ، فمثلا نجد عدد تلاميذ أبي حنيفة من الكثرة بمكان ، ولكن الواقع أن تلاميذه الذين سمعوا منه وحضروا عنده لا يتجاوز عددهم أكثر من ستة وثلاثين .

أما المشايخ فإنهم يخطئون كثيراً فيهم . وقد تقدم في الجزء الأول من هذا الكتاب تكذيب دعوى سماع أبي حنيفة من الصحابة بما لا حاجة إلى إعادته ، وهذا كثير عندهم في نسبة مشايخ أو تلاميذ للشخص بدون تثبت . فمثلا انهم يقولون : إن محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني صاحب أبي حنيفة ومدون فقهه ، قد سمع من عمرو بن دينار . وهذا غير صحيح لأن عمرو بن دينار قد توفي سنة ١١٥ هـ وكانت ولادة محمد بن الحسن سنة ١٢٩ هـ فكيف يصح سماعه من عمرو بن دينار الذي توفي قبل ولادته بأربعة عشر عاماً ؟

وحذراً من وقوع هذا الاشتباه نؤكد : أن العدد الذي بيناه في تلامذة الإمام الصادق عليه السلام هو أربعة آلاف أو يزيدون . هذا العدد لم يكن فيه شيء

من الإدعاء أو خروج عن حدود الواقع ، وإنما هو نتائج تتبع وتمحيص وتحمل مشقة وعناء . ونستطيع أن نقول : إن عددهم كان أكثر من هذا . وبهذه المناسبة أود أن أنبه على شيء له أثر في الموضوع وهو : أن الشيخ الخالصي ذكر في حديثه عن الإمام الصادق عليه السلام كما جاء في سلسلة أشعة من حياة الصادق عليه السلام الحلقة الأولى ص ٣٤ ، أن محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة كان من جملة تلامذة الإمام الصادق عليه السلام . وهذا شيء ينفرد به الشيخ الخالصي ! إذ التتبع لا يؤيد ذلك . وكما قلنا : إننا لم نثبت في عداد تلامذة الإمام الصادق من لا تصح في حقه تلك النسبة ، ولا نريد أن نلقي الأشياء جزافاً ، دون تثبت ، فالتاريخ يحاسبنا على ذلك . والذي أعتقده أن الأمر اشتبه على الشيخ ، وذلك أن عبدالله بن الحسن الشيباني ، أخو محمد بن الحسن الشيباني ، كان من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ورواة حديثه .



مؤمن الطاق

محمد بن علي بن النعمان



نسبه وأقوال العلماء فيه :

محمد بن علي بن النعمان البجلي الكوفي (١) أبو جعفر ، مولاهم الأحول ، الملقب بمؤمن الطاق . وهو من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، ولقبه خصومه — شيطان الطاق — ويقال : إن أول من لقبه شيطان الطاق أبو حنيفة ، لمناظرة جرت بين مؤمن الطاق والخوارج ، وكانت الغلبة له وأبو حنيفة حاضر فلقبه بذلك .

قال ابن أبي طي : إنه نسب إلى سوق في طاق المحامل بالكوفة ، كان يجلس للصرف بها ، فيقال : إنه اختصم مع آخر في درهم زيف فغلب . فقال أنا شيطان الطاق . والصحيح : أن هذه النسبة كانت من خصومه وأعدائه الذين تفوق عليهم بالمناظرة ، وأعجزهم عن المقابلة له ، فالتجأوا إلى لغة الانتقاص كما يأتي .

ولما بلغ هشام بن الحكم ذلك لقبه: مؤمن الطاق ، فعرف بذلك بين الطائفة.

وذكره المرزباني في شعراء الشيعة وأورد من شعره ما رواه عمارة بن حمزة وذلك : أن المنصور كان إذا ذكر مدح ابن قيس الرقيات المتوفى سنة ٨٥ هـ لعبد الملك بن مروان تغيظ منه وشق عليه .

فقال عمارة : يا أمير فيكم رجل من أهل الكوفة أجود مما قال قيس .

قال : ومن هو ؟ قال : مؤمن الطاق وأنشده :

يا من لقلب قد شفه الوجع يكاد مما عناه ينصدع
أمسى كئيباً معذباً كمداً تظل فيه الهموم تصطرع
عن ذكر آل النبي إذ قهروا واللون مني مع ذاك ملتمع
قالت قريش ونحن أسرته والناس ما عمروا لنا تبع
قالت قريش منا الرسول فما للناس في الملك دوننا طمع
قد علمت ذاك العريب فما تصلح إلا بنا وتجتمع

---

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ٣٠٠ ، وفهرست ابن النديم ص ٢٥٠ ، وتكملة الفهرست ص ٨ ، والملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١١٣ ، وجامع الرواة ج ١ ص ١٥٨ ، وضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، ومنهج المقال ص ٣١٠ ، وفهرست الشيخ الطوسي ص ١٢١ ، ولباب الانساب ج ٢ ص ٤٢٠ ، والكنى والالقاب ج ٢ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ وغيرها .

فإن يكونوا في القول قد صدقوا فقد أقروا ببعض ما صنعوا
لأن آل الرسول دونهمو أولى بها منهموا إذا اجتمعوا
وإنهم بالكتاب أعلمهم والقرب منه والسبق .قد جمعوا
ما راقب الله في نبيهم إذ بعده وصل أهله قطعوا (١)

ووصفه المرزباني بقوله : أبو جعفر محمد بن علي بن النعمان ، وإنما سمي بالطاق لأنه كان بطاق المحامل بالكوفة يعاني الصرف ، وكان من الفصحاء البلغاء ، ومن لا يطاول في النظر ، والجدال في الإمامة ، وكان حاضر الجواب . وذكر له عدة مناظرات مطولة ومختصرة ، وكانت له الغلبة فيها .

وقال ابن النديم في ترجمته : أبو جعفر محمد بن النعمان الأحول ، نزل طاق المحامل بالكوفة ، وتلقبه العامة بشيطان الطاق ، والخاصة تعرفه بمؤمن الطاق ، وشيعته — أي أصحابه — تسميه شاه الطاق أيضاً . وهو من أصحاب أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام . ولقد لقي زيد بن علي زين العابدين وناظره على إمامة أبي عبد الله ، ولقي علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام . وقيل : إنما سمي شيطان الطاق لأنه كان يتصرف ويشهد الدنانير فلاحاه قوم في دينار جرّبوه وبهرجه هو ، فأصاب وأخطأوا ، وألزمهم الحجة ، فقال : أنا شيطان الطاق . يعني طاق المحامل بالكوفة موضع دكانه ، فلزمه هذا اللقب . وكان حسن الاعتقاد والهدي ، حاذقاً في صناعة الكلام . سريع الخاطر والجواب . ثم ذكر مناظراته مع أبي حنيفة وستأتي .

قال أبو خالد الكاملي : رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة ، قد قطع أهل المدينة إزاره ، وهو دائب يجيبهم ويسألونه ، فدنوت منه وقلت : إن أبا عبدالله نهانا عن الكلام . فقال: أو أمرك أن تقول لي؟ فقلت : لا والله ولكنه أمرني أن لا أكلم أحداً . قال : فاذهب وأطعه فيما أمرك . فدخلت على أبي عبدالله عليه‌السلام فأخبرته بقصة صاحب الطاق، فتبسم أبو عبدالله عليه‌السلام وقال: يا أبا خالد إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير ، وأنت إن قصّوك لن تطير (٢) .

علمه ونبوغه :

وكان محمد بن علي بن النعمان كثير العلم ، متفوقاً في معارفه ، قوياً في

(١) المرزباني شعراء الشيعة ص ٨٦
(٢) الكنى والألقاب ج ٢ ص ٢٩٨ .

حجته ، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ . فهو عالم — بالفقه ، والكلام ، والحديث ، والشعر ، وكان قويّ العارضة ، سريع الجواب واضح الحجة .

اشتغل بالتجارة وانتقل بين أكثر المدن الإسلامية ، وعرف بتشيعه وإخلاصه لأهل البيت عليهم السلام ولقي من عنَت خصومهم والمناوئين لهم ما نغص عليه عيشه ، ولكن لم يحل ذلك بينه وبين الإعلان بمبدئه ، والجهر في دعوته .
وكان يتمتع بشخصية فذة، يعترف له الناس بالفضل والعلم ، والنبوغ والتفوق.

وقد كان عصره يقضي على المفكرين — من أمثاله — بكبت الشعور وكمّ الأفواه ، وتمويه الحقائق ، ولكنه لم يخضع لذلك الحكم الجائر ، فهو لا يزال يجهر بالحق ، ويعلن بفضل عليّ ، ويظهر تمسكه بأبنائه .

مناظراته واحتجاجه :

كان مؤمن الطاق يمتاز بقدرة فائقة على الجدل ، وقوة في التفكير ، ومهارة في الاستنباط . ويكاد المؤرخون يجمعون على تفوقه ، في سرعة الجواب وقوة العارضة . وإذا أردنا استقصاء مناظراته فالأمر يستلزم الإطالة ، ولكننا نكتفي بالبعض منها ، وهي كثيرة مبعثرة في بطون الكتب .

١ — اجتمع قوم من الخوارج وقوم من الشيعة بالكوفة عند أبي نعيم النخعي ، فقال أبو حدرة الخارجي : أن أبا بكر أفضل من علي وجميع الصحابة بأربع خصال : فهو ثان لرسول الله دفن في بيته ، وهو ثاني اثنين معه في الغار ، وهو ثاني اثنين صلى بالناس آخر صلاة قبض بعدها رسول الله ، وهو ثاني صدّيق من الأمة .

فردّ عليه شيطان الطاق — على حد تعبير الدكتور أحمد أمين — وقال : يا ابن أبي حدرة ، أتركَ النبي صلى الله عليه وسلم بيوته التي أضافها الله إليه ، ونهى الناس عن دخولها إلا بإذنه ، ميراثاً لأهله وولده ؟ أو تركها صدقة على جميع المسلمين ؟

فإن تركها ميراثاً لولده وأزواجه فقد ترك تسع زوجات ، فليس لعائشة إلا نصيب إحداهن ، أي لم يكن لها أن تدفن أبا بكر في بيته ونصيبها لا يسمح بذلك .

وإن تركها ميراثاً لجميع المسلمين فإنه لم يكن له نصيب من البيت إلا كما لكل رجل من المسلمين .

وأما قولك : إنه ثاني اثنين اذ هما في الغار ، فإن مكان علي في هذه الليلة على فراش النبي ﷺ ، وبذل مهجته دونه أفضل من مكان صاحبك في الغار .
وأما قولك : في صلاته بالناس ، فقد تقدم ليصلي بالناس في مرض رسول الله ﷺ ، فخرج النبي وتقدم فصلى بالناس وعزله عنها ، ولو كان قد صلى بأمره لما عزله من تلك الصلاة .

وأما تسميته بالصديق ، فهو شيء سماه الناس . إلى آخر المناظرة (١)

٢ ــ عن أبي مالك الأحمسي قال : خرج الضحاك الشادي بالكوفة فحكم وتسمى بإمرة المؤمنين ، ودعى الناس إلى نفسه .

فأتاه مؤمن الطاق ، فلما رأته الشراة وثبوا في وجهه فقال لهم : جانح ، فاتوا به صاحبهم ، فقال له مؤمن الطاق : أنا رجل على بصيرة من ديني فأحببت الدخول معكم .

فقال الضحاك لأصحابه : إن دخل هذا معكم نفعكم . ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحاك فقال : لـِم تبرأتم من علي بن أبي طالب ، واستحللتم قتله وقتاله ؟

قال الضحاك : لأنه حكم في دين الله .

قال مؤمن الطاق : وكل من حكم في دين الله استحللتم دمه وقتاله والبراءة منه ؟

قال : نعم .

قال : فأخبرني عن الدين الذي جئت أناظرك عليه ، لأدخل معك إن غلبت حجتي حجتك ، أو حجتك حجتي ، من يوقف المخطىء على خطأه ويحكم للمصيب بصوابه؟ فلا بدّ لنا من إنسان يحكم بيننا . فأشار الضحاك إلى رجل من أصحابه وقال : هذا الحكم بيننا ، فهو عالم بالدين .

قال مؤمن الطاق : وقد حكمت هذا في الدين الذي جئت أناظرك فيه ؟

قال : نعم . فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحاك فقال : إن صاحبكم قد حكم في دين الله فشأنكم به . فاختلف أصحابه واسكتوه ، وخرج مؤمن الطاق منتصراً .

٣ ــ كانت الخصومة بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة شديدة جداً ، لأنا نرى كثرة المناظرة بينهما ، وأهمها في الإمامة والتفضيل ، وبدون شك أن أبا حنيفة لم يكن معروفاً بعلم الكلام ، وليس له قوة على مقابلة من تفوّق به . وإن

---

(١) ضحى الإسلام للدكتور احمد امين ج ٣ ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ .

مؤمن الطاق كان معروفاً بعلم الكلام وقوة الحجة ، وسرعة الجواب ، وشدة العارضة . فهو دائماً يتفوق في مناظراته ، ويسمو في حجته .

قال ابن حجر : وقعت له — أي لمؤمن الطاق — مناظرة مع أبي حنيفة في شيء يتعلق بفضائل علي ، فقال أبو حنيفة كالمنكر عليه : عمّن رويت حديث رد الشمس لعلي ؟

فقال مؤمن الطاق : عمّن رويت أنت عنه يا سارية الجبل .

وقال أبو حنيفة له يوماً : ما تقول في المتعة ؟ قال : حلال . قال أبوحنيفة : أيسرّك أن تكون بناتك وأخواتك يُمتع بهن ؟

قال مؤمن الطاق : شيء أحله الله ، ولكن ما تقول أنت في النبيذ ؟ قال : حلال . قال مؤمن الطاق : أيسرك أن تكون بناتك وأخواتك نباذات « هن » ؟

ولما مات الإمام الصادق عليه السلام قال له أبو حنيفة: قد مات إمامك . قال : لكن إمامك من المنظرين . أولا يموت إلى يوم القيامة .

وفي لفظ الخطيب البغدادي : لما مات جعفر بن محمد التقى هو — أي مؤمن الطاق — وأبو حنيفة . فقال له أبو حنيفة : أما إمامك فقد مات ، فقال شيطان الطاق : أما إمامك فمن المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم (١) .

وقال الخطيب : كان أبو حنيفة يتهم شيطان الطاق بالرجعة ، وكان شيطان الطاق يتهم أبا حنيفة بالتناسخ . فخرج أبو حنيفة يوماً إلى السوق فاستقبله شيطان الطاق ومعه ثوب يريد بيعه ، فقال له أبو حنيفة : أتبيع هذا الثوب إلى رجوع علي ؟ فقال : إن أعطيتني كفيلا أن لا تمسخ قرداً بعتك . فبهت أبو حنيفة (٢) .

وله معه مناظرة في إبطال الطلاق الثلاث (٣) .

وقد ألف مؤمن الطاق كتاباً في مناظراته مع أبي حنيفة ، ولم نذكر هنا شيئاً من تلك المناظرات الكثيرة معه ، واقتصرنا منها على هذا القدر القليل . ولم يكن من رأيي التعرض لأمثال هذه المناظرات ، التي جرت بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة ، ولكني وقفت على بعض كتب الحنفية — التي دونت في مناقب إمامهم — فوجدتهم يذكرونها بصورة معكوسة ، فأحببت أن أنبه على هذا

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤١٠ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٠٩ ، وتكملة فهرست ابن النديم ص ٨ .
(٣) البحار ج ٤ ص ٢٧١ .

الخطأ ، لأن الذين ذكروا هذه المناظرات – على وجهها الصحيح – كانوا أقدم من هؤلاء المحرفين .

فهذا ابن النديم وهو من علماء القرن الرابع ، اذ كانت وفاته سنة ٣٨٥ هـ قد ذكرها في الفهرست . أما الذين نقلوها على العكس فهم المتأخرون ، كابن البزاز الكردري المتوفى سنة ٦٢٧ هـ . والخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨ هـ . وكذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ذكرها في تاريخه . ذكرها بصورتها الواقعية ولكن الحنفية جعلوا الغالب هو المغلوب ، وهذا شأن كتاب المناقب في كثير من القضايا والمتتبع يقف على أمور من التحريف والتحوير تبعث على العجب والاستغراب .

مؤلفاته :

وكيف كان فإن مؤمن الطاق من فرسان حلبة علم الكلام ومن أبطال الرجال الذين حملوا رسالة التشيع فتحملوا الأذى في جنب الله ، ووقف مواقفاً مشرفة في الدفاع عن آل محمد ﷺ . كما أنه ألف كتباً قيمة في شتى المواضيع الهامة وقد ذكر منها الشيخ الطوسي وابن النديم الكتب الآتية :

١ – كتاب الإمامة .
٢ – كتاب المعرفة .
٣ – كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول .
٤ – كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة .
٥ – كتاب إثبات الوصية .
٦ – كتاب افعل ، لا تفعل .
وله كتاب المناظرة مع أبي حنيفة .

وصية الإمام الصادق له :

للإمام الصادق عدة وصايا يوصي بها أصحابه بما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، وقد ذكرنا جملة منها في الجزء الثاني ، ونقتطف هنا فصولا من وصيته لمؤمن الطاق .

قال عليه السلام : يا ابن النعمان إياك والمراء فإنه يحبط عملك ، وإياك

والجدال فإنه يوبقك ، وإياك وكثرة الخصومات . فإنها تبعدك من الله . إن من كان قبلكم يتعلمون الصمت ، وأنتم تتعلمون الكلام . كان أحدهم إذا أراد التعبد يتعلم الصمت قبل ذلك .

إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء ، وصبر في دولة الباطل على الأذى ، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقاً ، وهم المؤمنون . إن أبغضكم إليّ المترئسون المشاؤون بالنمائم ، الحسدة لاخوانهم ، ليسوا مني ولا أنا منهم ، إنما أوليائي الذين سلموا لأمرنا ، واتبعوا آثارنا .

يا ابن النعمان إنّا أهل بيت لا يزال الشيطانُ يدخل فينا من ليس منا ولا من أهل ديننا ، فإذا رفعه ونظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذب علينا ، وكلما ذهب واحد جاء آخر .

يا ابن النعمان إن ردت أن يصفو لك ودُّ أخيك فلا تمازحنّه ، ولا تمارينّه ولا تباهينّه . ولا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك ، فإن الصديق قد يكون عدوك يوماً .

يا ابن النعمان ليست البلاغة بحدة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة .

يا ابن النعمان لا تطلب العلم لثلاث : لترائي به ، ولا لتباهي به ، ولا تماري . ولا تدعه لثلاث : رغبةً في الجهل ، وزهادةً في العلم ، واستحياءً من الناس (١) .

آراء ومناقشات :

زعم المتقولون على مؤمن الطاق : أنه كان من المشبهة ، وتنسب إليه فرقة يقال لهم شيطانية من مذهبهم التشبيه . وأنه كان يقول : إن الله تعالى إنما يعلم الأشياء إذا قدرها ، والتقدير عنده الإرادة ، وللإرادة فعل (٢) وأنه كان يذهب إلى أن الإله على صورة الإنسان ولا يسميه جسماً (٣) إلى غير ذلك من الأقوال التي نطق بها من لا يبالي بمؤاخذة ولا يدري ما يقول ؟ !

(١) تحف العقول ص ٣٠٧ – ٣١٢ .
(٢) لباب الانساب ج ٢ ص ٤٢ .
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٣١ ، وستأتي مناقشة هذه الاقوال في دراسة حياة هشام ابن الحكم .

انها لعمر الله فرية ، وتقوّل بالباطل ، ونحن لا نستغرب اتهام مؤمن الطاق بما يخالف عقيدته ، لأنه كان حرباً على ذوي الآراء الفاسدة . وقد أُعطي نصيباً وافراً من قوة العارضة وسرعة الجواب ، فكان يقيم الدليل على خصمه ، ويرغمه على الاعتراف بالخطأ .

ومن الواضح : أن تلك المناقشات التي كانت تدور في أندية الكوفة كان أكثرها يهدف إلى تشويش الأفكار ، والتلاعب بالعقول ، لوجود طائفة من الدخلاء كان غرضهم ذلك .

وكان مؤمن الطاق وبقية خواص الأئمة قد بذلوا جهدهم في مقاومة أولئك الخصوم ، الذين يريدون الفتك بالإسلام وأهله ، فكان أهون شيء عليهم أن ينسبوا لأولئك الصفوة ما يخالف عقائدهم ، والظروف تساعدهم على ذلك عندما أطلق الباطل من عقاله ، فدفع صاحبه إلى اتهام البريء وبراءة المتهم.

ويكفينا في براءته وعلو منزلته وحسن عقيدته ، ما ورد في مدحه والثناء عليه عن أئمة الهدى . وقد كان من أحب الناس إلى الإمام الصادق . فقد صح عنه أنه كان يقول : أربعة أحب الناس إليّ أحياءً وأمواتاً : بريد بن معاوية العجلي ، وزرارة بن أعين ، ومحمد بن مسلم ، وأبو جعفر الأحول .

فلا تضره تهجمات أولئك القوم الذين ألقوا مقاليد أمورهم للعاطفة ، فاتهموه بما هو بريء منه ، ورموه بما لا يليق بشأنه .

« ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً
فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً »

النساء — ١١٢



هشام بن الحكم

« يا هشام لا زلت مؤيداً بروح القدس »

الامام الصادق

« رحم الله هشاماً كان عبداً ناصحاً »

الامام الرضا

« لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف »

هارون الرشيد

نسبه ونشأته وأقوال العلماء فيه :

هشام بن الحكم الكندي (١) أبو محمد البغدادي المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

كانت نشأته بالكوفة وواسط ، ويدخل بغداد للتجارة ، ولكنه استقام بها بعد مدة من الزمن ، ونزل قصر وضاح بالكرخ من مدينة السلام ، وله دار بواسط . وكان يتجول للتجارة ينتقل من بلد إلى آخر وهو يرشد الناس ويدافع عن مذهب أهل البيت ويناظر الملحدين فيفحمهم ورجع الكثيرون إلى التوحيد تسليماً لقوة الحجة وخضوعاً للحق ، وهو من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ، ومن خواص ولده موسى الكاظم عليه السلام .

نشأ هشام بن الحكم بالكوفة ، وكانت الكوفة مصطرعاً للآراء ، وموطناً لاختلاف المذاهب التي استوطنتها ، وقوي بها انتشار علم الكلام ، وازدهرت أرجاؤها بحلقات العلم ورجال الفكر ، فكانت هناك خصومات وجدل ونزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة ، والآراء المتفرقة والفرق المتعددة . وقد اتخذ كل فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه ، ووسيلة لتأييد رأيه وتصحيح مذهبه .

وكان هشام بن الحكم من أبرز شخصيات ذلك العصر ، يمتاز بقوة شخصيته التي جعلته مطمحاً لأنظار علماء عصره ، لتفوقه ومهارته وشدة خصومته ، وقوة حجته . ويصف ابن النديم هشاماً بقوله :

هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة ، ممن فتق الكلام في الإمامة ، وهذب المذهب والنظر ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام ، حاضر الجواب . سئل هشام عن معاوية أشهد بدراً ؟ قال : نعم ، من ذاك الجانب — أي من جانب المشركين .

---

(١) فهرست بن النديم ص ٢٤٩ ، والتكملة ص ٧ ، والملل والنحل ج ١ ص ٣٠٨ ، ولسان الميزان ج ٦ ص ١٩٤ ، والمراجعات لشرف الدين ص ٣٠٠ — ٣٠١ ، والانتصار للخياط في عدة مواضع ، وضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٦٨ ، وعقد الفريد ج ١ ص ٣٦٠ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥٠ ، وحياة هشام بن الحكم للشيخ محمد الحسين المظفر (مخطوط) وجامع الرواة ج ٢ ص ٣١٣ ، ونهج المقال ص ٣٥٦ ، وحياة هشام للشيخ محمد صالح الشيخ راضي « مخطوط » وغيرها .

ويقول الشهرستاني : هشام بن الحكم صاحب غور (١) في الأصول لا يجوز أن يغفل عن الزاماته على المعتزلة ، فإن الرجل وراء ما يلزمه الخصم ، ودون ما يظهره من التشبيه .

وقال الزركلي : هشام بن الحكم فقيه ، متكلم ، مناظر ، من أكابر الإمامية ، ولد بالكوفة . فانقطع إلى يحيى بن خالد ، فكان القيم بمجالس كلامه (٢) .

ويقول الدكتور أحمد أمين : أما هشام بن الحكم فيظهر أنه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وكان من تلاميذ جعفر الصادق عليه السلام وكان جدلا قوي الحجة ، ناظر المعتزلة وناظروه ، ونقلت في كتب الأدب له مناظرات كثيرة ، تدل على حضور بديهته وقوة حجته ، إلى أن يقول : والجاحظ يشتد عليه في المناقشة ويغضب في نقده . وستأتي بقية الأقوال فيه .

صلته بالإمام الصادق :

اتصل هشام بمدرسة الإمام الصادق عليه السلام وأصبح من أبرز رجالها في الحكمة والدراية ، والعرفان ، والفقه ، والحديث . ويقال : إنه كان قبل اتصاله بالإمام يذهب إلى رأي جهم بن صفوان ، ولكنه تركه عندما اجتمع بالإمام الصادق عليه السلام في مدينة الوحي ، وقد اكتظ المجلس بوفود الأمصار وطلاب العلم ، فرأى من هيبة الإمام وروحانيته ، وسمع ما طرق سمعه من أجوبته لسائليه ، وحسن بيانه وعذوبة الفاظه ، ما أفقده الاعتزاز بنفسه ، وعرف عجزه عن مقابلته في مسائله .

وكان الإمام الصادق عليه السلام قد عرف هشاماً وسمع به من قبل، فاتجه إليه ليوجهه إلى الحق ، ويرشده إلى الهدى ، فألقى إليه سؤالا بما كان قد اختص

---

(١) غور كل شيء قعره ، وعمقه ، وصاحب غور هو من تعمق في علمه ، حتى وصل إلى حقيقته ، ومنه فلان بعيد الغور أي متعمق النظر وهو بحر لا يدرك غوره . انظر في التعليق الملل والنحل ج ١ ص ٣١١ .

(٢) الاعلام ج ٣ ص ١١٢٣ .

(٣) جهم بن صفوان إليه تنسب الفرقة الجهمية ، ظهرت بدعته بترمذ وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو ، آخر الدولة الاموية ، وافق المعتزلة في نفي الصفات الازلية وزاد عليهم : انه لا يجوز أن يوصف الباري بصفة يوصف بها خلقه لان ذلك يقتضي تشبيها ، فنفى كونه حياً عالماً، واثبت كونه فاعلا خالقاً لانه لا يوصف شيء بالفعل والخلق . إلى آخر اقواله في الملل والنحل ج ١ ص ١١٣ .

هشام به ، فلم يستطع الجواب عنه ، وعرف الحق فاتبعه « والحق أحق أن يتبع » .

وانقطع إلى الإمام الصادق عليه السلام فأصبح من خواصه ، ومن أبرز رجال مدرسته ، فكان من أشهر رجال العلم ، ومن أبطال الفلسفة ، يمثل في مواقفه البطولة والجرأة الأدبية ، يسير مع الحق أينما سارت ركائبه . وفاز بالتفوق على مناوئيه بواضح الحجة ، وساطع البرهان ، واستجاب الله دعوة الإمام الصادق فيه : « يا هشام لا زلت مؤيداً بروح القدس » .

كان هشام شديد الإخلاص ، قوي الإيمان ، راسخ العقيدة ، يدافع عن مذهب أهل البيت ، ويتشدد في مناقشته للخلافات المذهبية ، وتفنيد آراء المتكلمين من سائر الفرق الإسلامية الذين تأثروا بانتقال الفلسفة اليونانية . وكان يخرج منتصراً في جميع مواقفه ، لما عرف فيه من قوة الحجة وسعة التفكير ، وبذلك أصبح في خطر من قبل الدولة — كما هو شأن المفكرين وأهل الآراء الحرة من أمثاله — وقد عرف هشام بشدة مناظرته في الإمامة ، وانتصاره للعلويين ، وهم خصوم الدولة وأهل الحق الشرعي .

وقد خشي الرشيد من اتساع نشاط هشام ، وتفوقه على أكثر المفكرين من رجال عصره . فحاول الفتك به والقضاء عليه .

ولكن يحيى بن خالد البرمكي كان يدافع عن هشام ، ويلطف الجو ، لأنه كان مختصاً به ، حتى تغير قلبه على هشام لأسباب هناك ، فأعرض عن دفاعه . وجرى بحث الإمامة في مجلس البرمكي والرشيد يسمع من وراء الستر ، فاشتدت المناظرة وكانت الغلبة لهشام ، فغضب الرشيد وقال : إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف .

عصره :

كان عصر هشام من أزهر العصور في الكلام بجميع أصوله ، لكثرة الفرق . وجعل هاتيك الأصول الكلامية مبتنية على القواعد المنطقية . وكانت الرغبة ملحة في النظر والجدل ، فكانت المجالس تعقد للمناظرة ، وتشد الرحال للمدارسة والاحتجاج ، ولا سيما في الإمامة ، لأنها الأصل الذي يصحح للخليفة — بالشكل المعهود — أن يستولي به على العباد والبلاد باسم الشريعة ، ويصحح له أن يكون ولي الأمر الذي تجب طاعته على الأمة ، أو يمنعه عن التصرف في

مقدرات البلاد ، والقبض على رقاب العباد ، ويأبى له من أن يكون الحجة من الخالق إلى المخلوق .

فالملوك من أمية وبني العباس وقفوا سداً دون سيل الكلام في الإمامة لئلا يشيع رأي الشيعة فيها ، وألجموا الأفواه ، وحجروا العقول ومنعوا حرية القول ، وساروا بالناس سيرة إرهاب وتهديد .

فكان هشام بن الحكم واسطة القلادة في تلك الأندية ، يساجل في كل أصل ، فإن انتهت الخصومة إلى الإمامة ، أدلى بحجته ، مصرحاً إن أمن من العقاب ، وملوحاً إن خاف النكال .

لأن إثبات الإمامة في الأئمة الاثني عشر هدم لصروح إمامة الأوائل ، وثلٌ لعروش الأواخر (١) . وكان لمجلس يحيى البرمكي الذي يعقد في بغداد للمناظر أثر كبير في تنوير العقول ، ولا يعقد ذلك المجلس الا تحت إشراف هشام ورئاسته . ومن الحق أن نقول : إن هشاماً كان من مفاخر الأمة الاسلامية فقد جند نفسه لخدمة الحق ، ونشر مبادىء الإسلام ، وقد تصدى للرد على أعداء الدين ، ورفع الغشاوة من بعض العقول التي قد ركبها الشطط ، وغلبها الغرور .

ولما كان هشام قد عرف بالتفوق ، وقوة الحجة ، وسرعة الجواب ، واتقاد الذهن ، فقد أصبح ذكره حديث الأندية ، وقد تحامل عليه خصومه فنسبوه إلى ما لا يليق بشأنه ، ولا يتسق مع اعتقاده « لأن الرأي العام في ذلك العهد من أنصار الخلافة المعهودة ، ولا تصغي العامة للحجج إذا خالفت الرغبة » فتوجهوا إليه بتلك الطعون الشائنة ، والتي لا تمت بشيء من الحقيقة كما سنوافيك بجملة منها .

شيوخه وتلامذته :

أخذ هشام علم الفقه ، والحديث والتفسير ، وغيرها عن الإمام الصادق عليه السلام وكان ملازماً له منذ نشأته ، وروى عنه أحاديث كثيرة في مختلف الأحكام.

وكان الإمام الصادق يكرمه ويرفع من مقامه ، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن جماعة من الأصحاب .

---

(١) عن كتاب حياة هشام لشيخنا المظفر مخطوط .

ولما انتقل الإمام الصادق إلى جوار ربه ، أصبح هشام من خواص الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وروى الحديث وأخذ عنه علماً كثيراً .

أما تلامذته : فخلق كثير ، توجد رواياتهم عنه في كتب الفقه والحديث منهم : النضر بن سويد الصيرفي الكوفي من تلامذة الإمام الكاظم ، وكان من الثقات ، المشهورين بالعدالة وصحة الحديث .

ونشيط بن صالح العجلي مولاهم الكوفي ، عده الشيخ في رجاله من تلامذة الصادق والكاظم .

ويونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين ، كان من أصحاب الكاظم والرضا . وله مؤلفات كثيرة ، وكان ثقة عظيم المنزلة .

وغيرهم مما لا يتسع المجال لذكرهم .

مؤلفاته :

كانت لهشام بن الحكم مؤلفات في شتّى العلوم ، ذكر منها ابن النديم :

١ — كتاب الإمامة .
٢ — كتاب الدلالات على حدوث الأشياء .
٣ — كتاب الرد على الزنادقة .
٤ — كتاب الرد على أصحاب الاثنين .
٥ — كتاب الرد على هشام الجواليقي .
٦ — كتاب الرد على أصحاب الطبائع .
٧ — كتاب الشيخ والغلام .
٨ — كتاب التدبير .
٩ — كتاب الميزان .
١٠ — كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول .
١١ — كتاب اختلاف الناس في الإمامة .
١٢ — كتاب الوصية والرد على من أنكرها .
١٣ — كتاب في الجبر والقدر .
١٤ — كتاب الحكمين .
١٥ — كتاب الرد على المعتزلة في طلحة والزبير .
١٦ — كتاب القدر .
١٧ — كتاب الألفاظ .

أجوبته ومناظراته :

نشأ هشام تحت ظلال مدرسة أهل البيت ، وتغذى منها تعاليمه القيمة ، وثقافته العالية . وامتاز بقوة شخصيته التي جعلته محطاً لأنظار علماء عصره ، وقد تجرد لنصرة مذهب أهل البيت ، وناضل في الدفاع عنهم ، ولم تقعد به ملاقاة عنت أو تكبد أذىً . وكان يقصده الكثير من علماء عصره الذين عُرفوا بقوة المناظرة ليناظروه ويحاجوه في مختلف العلوم . وكان هو كذلك يتعرض لمناظرتهم ويقصد علماء الأمصار ورؤساء الحلقات العلمية للمناظرة ، طلباً لإظهار الحق ودفعاً للباطل .

ونظراً لما كان يمتاز به هشام من قوة العارضة ، وغزارة العلم ، وسرعة الجواب ، فقد ترأس مجلس المناظرة الذي كان يعقده يحيى بن خالد البرمكي مساء كل جمعة ببغداد ، وهو يضم جميع علماء الفرق ، ورؤساء الأديان ، وأهل الآراء ، فكانوا لا يخوضون في مسألة حتى يحضر هشام فيكون قوله الفصل ، وحكمه العدل . وكان الرشيد يحضر ذلك المجلس من وراء الستار — في بعض الأوقات — يستمع لتلك المناظرات ويصغي لتلك الأقوال . وأراد بعضهم أن يوقع الشر في قلب الرشيد على هشام ، فألقى إليه سؤالا في قضية مخاصمة العباس لعلي عليه السلام في ميراث النبي ، وهو لا يعلم بمكان الرشيد .

قال السائل : يا أبا محمد (وهي كنية هشام) أما علمت أن علياً نازع العباس إلى أبي بكر ؟

قال هشام : نعم .

قال السائل : فأيهما كان الظالم لصاحبه ؟ فتوقف هشام وقال في نفسه : إن قلت : العباس خفت الرشيد ، وإن قلت : علياً ناقضت قولي وعقيدتي .

ثم قال هشام : لم يكن فيهما ظالم .

فقال السائل : أفيختصم اثنان في أمر وهما محقان جميعاً ؟

قال هشام : نعم ، اختصم الملكان إلى داود وليس فيهما ظالم ، وإنما أرادا أن ينبهاه . كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه . فأمسك الرجل (١) ووقع الجواب عند الرشيد موقع القبول ومال قلبه لهشام .

وله كثير من أمثال هذا من الأجوبة المسكتة ، والكلمات التي كان يتفوق

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٦٠ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ، ١٥٠ وضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٦٨ .

بها على خصومه . قال ابن النديم بعد وصفه بقوة الحجة وسعة التفكير : وكان هشام يقول : ما رأيت مثل مخالفينا ؟ ! عمدوا إلى من ولاّه الله من سمائه فعزلوه (يعني علياً) وإلى من عزله الله من سمائه فولوه (يعني أبا بكر) . ويذكر قصة مبلغ سورة براءة ، ومرد أبي بكر ، وايراد علي عليه السلام بعد نزول جبرائيل عليه السلام قائلا لرسول الله صلى الله عليه وآله: لا يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك . فرد أبا بكر وأنفذ علياً عليه السلام (١) .

وعلى أي حال فإن لهشام بن الحكم أجوبة ومناظرات قد احتفظ التاريخ ببعضها ، وهي خير شاهد لقوة شخصيته في شتّى العلوم .

ولا يسعنا الآن بسط القول فيها ، بل نذكر نموذجاً منها ، وإليك ثبتاً في بعضها :

١ – مناظرته مع الاباضية .
٢ – « مع أحد البراهمة .
٣ – « في ضرورة احتياج الناس إلى حجة .
٤ – « مع جماعة من أهل الشام في مجالس متفرقة في أمور شتّى .
٥ – « في بيان أحقية علي بالخلافة دون غيره .
٦ – « في أفضلية علي عليه السلام على جميع الأمة وتفنيد الاستدلال بآية (ثاني اثنين) .
٧ – « في إثبات وجوب الموالاة لعلي عليه السلام .
٨ – « في لزوم طاعة الإمام الحق .
٩ – « مع أبي شاكر الديصاني .
١٠ – « مع الجاثليق .
١١ – « في نفي الجهة وعدم الاثنينية .
١٢ – « مع ابن أبي العوجاء .
١٣ – « مع أبي حنيفة في عدة مواطن .
١٤ – « مع ابراهيم بن يسار المعتزلي .
١٥ – « مع أبي الهذيل العلاف .

وغير ذلك كثير متفرق في الكتب التاريخية والأدبية .

(١) تكملة فهرست ابن النديم ص ٧ .

نموذج من مناظراته :

تصدى هشام لمناظرة أهل الكلام ، والرد على الملحدين و الزنادقة ، ويكاد المؤرخون يجمعون على تفوقه في المناظرة وسرعة الجواب وقوة العارضة ، وإليك نموذجاً من مناظراته :

١ ـ جاء إليه رجل ملحد فقال له : يا هشام أنا أقول بالاثنين وقد عرفت إنصافك ولست أخاف مشاغبتك .

فقام هشام ـ وهو مشغول بثوب ينشره ـ وقال : حفظك الله هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لا يستعين بصاحبه عليه ؟

قال : نعم .

قال هشام : فما ترجو من اثنين ؟ واحد خلق كل شيء أصح لك .

فقال الرجل : لم يكلمني أحد بهذا قبلك .

٢ ـ ودخل المؤبذ على هشام بن الحكم فقال له : يا هشام حول الدنيا شيء؟

قال : لا

قال المؤبذ : فإن أخرجت يدي منها ثم شيء يردها ؟

قال هشام : ليس ثم شيء يردك ولا شيء تخرج يدك فيه .

قال : فكيف أعرف هذا ؟

قال هشام : يا مؤبذ أنا وأنت على طرف الدنيا فقلت لك : يا مؤبذ ، إني لا أرى شيئاً .

فقلت لي : ولم لا ترى ؟ فقلت لك : ليس هاهنا ظلام يمنعني .

قلت لي : يا هشام إني لا أرى شيئاً . فقلت لك : ولم لا ترى ؟

قلت : ليس ضياء أنظر فيه .

فهل تكافأت الملتان في التناقض ؟

قال : نعم . قال هشام : فإن تكافأتا في التناقض لم تتكافآ في الإبطال ان ليس شيء . فأشار المؤبذ بيده : أن أصبت .

وعاد إليه المؤبذ فقال : هما في القوة سواء . قال : فجوهرهما واحد ؟

فقال المؤبذ لنفسه ـ ومن حضر يسمع ـ : إن قلت : إن جوهرهما واحد عادا في نعت واحد ، وإن قلت : مختلف اختلفا أيضاً في الهمم والارادات ولم يتفقا في الخلق ، فإن أراد هذا قصيراً أراد هذا طويلا .. ولما عجز عن

الجواب التفت إليه هشام فقال : كيف لا تسلم ! قال : هيهات ! (١) .

٣ – قال هشام لأبي الهذيل (٢) : إذا زعمت أن الحركة تُرى فلِم لا زعمت أنها تُلمس ؟

قال : لأنها ليست بجسم فيلمس ، لأن اللمس إنما يقع على الأجسام .

فقال له هشام : فقل إنها لا تُرى لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام .

فرجع أبو الهذيل سائلا : من أين قلت : إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره ؟

قال هشام : من قبل أنه يستحيل فعلي أنا ، ويستحيل أن يكون غيري ، لأن التغاير إنما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها ، فلما لم يكن فعلي قائماً بنفسه ، ولم يجز أن يكون فعلي أنا ، وجب أنه لا أنا ولا غيري . وعلة أخرى أنت قائل بها : زعمت يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ولا مباينة ، لأنها عندك مما لا يجوز عليه المماسة ولا المباينة ، فلذلك قلت أنا : إن الصفة ليست أنا ولا غيري ، وعلتي في أنها ليست أنا ولا غيري علتك في أنها لا تماس ولا تباين ، قال المسعودي : فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً (٣) .

ذكرنا هذه المناظرة لا بقصد أن نعطي صورة عن هشام بن الحكم فيها ، ولكنا نود أن ننبه على خيانة للنقل وجناية على التاريخ وتهجم على الحقائق بما ارتكبه ابن حجر العسقلاني فإنه ذكر(٤) ما هذا نصه: وقال المسعودي: قال أبو الحسن الحناط مات أبو الهذيل سنة ٢٢٧ هـ وتنازع أصحابه في مولده فقال قوم سنة إحدى وثلاثين وقال قوم : سنة أربع . وذكر (أي المسعودي) مناظرة بينه وبين هشام بن الحكم الرافضي ، وأن هشاماً غلبه أبو الهذيل فيها .

هذا وقد أوقفناك على نص عبارة المسعودي وأن هشاماً غلب أبا الهذيل ولم يرد جواباً . والحكم للقارىء المنصف .

٤ – اجتمع هشام في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤ وتناظرا في الإمامة ، وكان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة في سائر الاعصار ، وهشام يذهب إلى أنها نص من الله ورسوله على علي ابن أبي طالب عليه السلام ، وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين .

---

(١) عيون الأخبار ج ٥ ص ١٥٢ .

(٢) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول البصري ، ابو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ شيخ المعتزلة ومقدمهم ومقرر الطريقة والمناظر عليها ، اخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل ، وله آراء واقوال واليه تنسب الفرقة الهذيلية من المعتزلة .

(٣) مروج الذهب ج ٤ ص ٥٤ .

(٤) لسان الميزان ج ٥ ص ٢١٤ .

فقال هشام لعمرو بن عبيد : أليس قد جعل الله لك عينين ؟
قال : بلى .
قال : ولـمَ ؟
قال : لأَنظر بهما في ملكوت السموات والأرض فأعتبر .
قال : فلِـمَ جعل لك سمعاً ؟
قال : لأَسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي .
قال : فلـمَ جعل لك فماً ؟
قال : لأَذوق المطعوم ، وأجيب الداعي . ثم عدد الحواس كلها .
قال : ولم جعل لك قلباً ؟
قال : لتؤدي إليه الحواس ما أدركته ، فيميز بين مضارها ومنافعها .
قال هشام : فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواس إليه ؟
قال عمرو : لا .
قال : ولـمَ ؟
قال : لأَن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها .

فقال هشام : يا أبا مروان (كنية عمرو بن عبيد) إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ، ويترك هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه ؟ ! قال المسعودي : فتحير عمرو ولم يأت بفرق يعرف (١) .

مع هشام في اتهامه :

نضج علم الكلام في العصر العباسي الأول ، وانتشر الخلاف وكثر الجدل ، وكان النزاع يملأ حلقات العلم ، والمناظرات تقع في مجالس الخلفاء ، وفي المساجد ، وفي الشوارع .

وكان للمعتزلة نشاط في الحركة الكلامية ، فقد كانوا يبحثون عن أهم المسائل ويصطدمون مع خصومهم .

إلى جانب ذلك نراهم قد تعرضوا لمسائل تكاد تكون سوفسطائية مثل : الإله قادر على الظلم أو لا؟ هل الجنة مخلوقة اليوم أو لا ؟ هل قدرة الله تتعلق

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٥٥ ، والطبرسي ص ٢٠٠ وامالي المرتضى وغيرها .

بالمحال أو لا ؟ هل الكافر قادر على الإيمان والمؤمن قادر على الكفر ؟ إلى كثير من أمثال ذلك . مع اختلافهم في الإمامة والسياسة ، وكل هذه الآراء تكوّن جواً مضطرباً ونزاعاً علمياً ، وقد حصل ذلك في عصرهم وبعد عصرهم .

وكان هشام بن الحكم شديد الخصومة لهم ، قوي الحجة عليهم ، واسع الفكر . وله شهرة في علم الكلام ، لذلك ترأس مجلس المناظرة في بغداد ، وكان يقصد حلقات العلم فيمتحن رؤساءها بما يفحمهم فيه ، فكان انتصاره عليهم سبباً لاتهامه بما لا يليق بشأنه ، ولا صلة له بالواقع . وكان الجاحظ من أشد الناس عداءً لهشام، فنسب إليه تلك المفتريات هو والنظام ابراهيم بن يسار ، وجاء ابن قتيبة في (مختلف الحديث) فأرسلها إرسال المسلمات ، وكذلك الخياط المعتزلي كما جاء في كتاب « الانتصار » .

وليس من العسير علينا أن نستشف بواعث تلك الاتهامات الموجهة لهشام من قبل خصومه مع براءته من ذلك . ولا يصح لنا أن ننساق مع المندفعين بتيار الهوى والخاضعين للعاطفة ، الذين اتهموه بتلك التهم الشنيعة بدون التفات إلى الواقع ، أو استناد إلى مصدر وثيق .

لقد كان الحكم على هشام بتلك التهم صادراً عن طائفية بغيضة رغبة في تشويه الحقيقة ، أو اقتناع بما دبرته عوامل عصر هشام ، من الاعتداء على المفكرين من رجال الأمة ، وتطبيقه بوسائل عنيفة وحشية . ولم يخف على المتتبعين ما أحدثه ذلك التطور الفكري ، من وجود خلافات مذهبية وفوارق طائفية أدت إلى خصومة عنيفة ، خرجت عن حدود العلم والمنطق الصحيح ، بل عن حدود العقل والاتزان . وكان الموقف السياسي يدير كفة الخلاف ، ويؤيد حركة النزاع الطائفي من وراء الستار لغاية التفريق ، والوصول لأمور لا تحصل إلا بذلك ، طبقاً لقاعدة (فرّق تسد) وهي خطة سلكها الأمويون واتبعهم العباسيون ، فصارت مركباً لحكام الاستبداد وأمراء الجور . واتضح لنا مما سبق أن الموقف العدائي للشيعة قد تعدى حدود المنطق ، وبلغ إلى الهوس والتهريج ، والتقوّل بالباطل ، كل ذلك يرمي إلى تشويه الصورة الحقيقية ، وتنفير الناس عن عقائدهم التي لا تستطيع سياسة تلك العصور أن تتركها بدون معارضة ومقاومة ، وبالأخص فيما يتعلق بالإمام .

ولنقف عند هذا الحد من التعرض لتلك التقولات على الشيعة ونعود لبعض ما قيل عن هشام في اتهامه .

كما أننا لا نريد أن نستقصي ذلك ولا لنجهد أنفسنا في الرد على تلك

التقولات ، فالأمر أوضح من أن يدعونا إلى ذلك . فشخصية هشام لها مقومات واقعية ، نستمد اتجاهاتها من واقع تعاليم الدين الحنيف ولا يضره تقولات أعدائه وإليك بعضاً منها :

١ ـ يقول عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ في بيان مذاهب المشبهة : ومن هذا الصنف هشامية منتسبة إلى هشام بن الحكم الرافضي ، الذي شبه معبوده بالإنسان ، وزعم لأجل ذلك أنه سبعة أشبار بشبر نفسه وأنه جسم ذو حدّ ونهاية ، وأنه طويل ، عريض ، عميق ، وذو لون وطعم ورائحة وقد روي عنه أن معبوده كسبيكة الفضة المستديرة (١) .

هذا ما يقوله صاحب الفرق بين الفرق وهو عار عن الصحة ، بعيد عن الواقع ، لأن آثار هشام من كتب ومناظرات تدل بوضوح على إيمانه بالله ، فكتابه التوحيد وغيره من كتب الرد على الملحدين تتكفل صدق ما نقوله عنه . وكذب ما يقوله البغدادي ومن سار على نهجه الذي لا يعتمد على الحق ، ولا يركن إلى الصواب بل هو محض افتراء وتقوّل بالباطل ، ومجرد أوهام فاضت بها أحقاد المناوئين ، فراحوا يذكرون عن هشام وطائفته بما لا يمت إلى الواقع بصلة ، ونحن إذا أنعمنا النظر في أسباب هذه الحملات على هشام ، فإنا نجد مصدرها المعتزلة ، فإنهم خصومه لأنه كان شديداً عليهم ؛ مفنداً لآرائهم . وسنوضح موقف الجاحظ ـ وهو من كبار المعتزلة ـ من هذه المعركة ، وكيف صب جام غضبه على هشام بأسلوبه الساخر ، فكانت اتهامات هشام من صوغ الجاحظ وإنتاجه الأدبي .

٢ ـ ويقول محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ في كتابه التنبيه :

الفرقة الثانية عشر من الإمامية هم أصحاب هشام بن الحكم ، يعرفون بالهشامية ، وهم الرافضة الذين رُوي فيهم الخبر أنهم يرفضون الدين بحب علي (رضي الله عنه) فيما يزعمون ، وكذب أعداء الله وأعداء رسوله وأصحابه ، وإنما يحب علياً من يحب غيره . وهم أيضاً ملحدون لأن هشاماً كان ملحداً دهرياً ، ثم انتقل إلى الدهرية والمانوية ، ثم غلبه الإسلام فدخل في الإسلام كارهاً ، فكان قوله في الإسلام بالتشبيه والرفض . وأما قوله بالإمامة فلم نعلم أن أحداً نسب إلى علي عيباً مثل هشام ...

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٣٩ .

والله بحمده قد نزع عن علي وولده العيوب والأرجاس وطهرهم تطهيراً ، وما قصد هشام التشيع ولا محبة أهل البيت ، ولكن طلب بذلك هدم أركان الإسلام ، والتوحيد والنبوة . انتهى .

هكذا يقول الملطي . وإذا أردنا أن نسائل هذا الشيخ عن المصدر الذي استمد منه معلوماته عن هشام ، وعلى أي شيء اعتمد في كيل هذه الإتهامات ، وما الذي عرفه عن هشام فاستوجب أن ينسب إليه الإلحاد ؟ وهل نقل عن مصدر موثوق به . كل ذلك لم يكن ، وإنما يحتج بما نقل عن هشام في قوله بإمامة علي عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نص على إمامته ، وأن علياً أفضل الأمة . وإليك نص ما نقله الملطي عن هشام إذ يقول : فزعم هشام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نص على إمامة علي في حياته بقوله : من كنت مولاه فعلي مولاه . وبقوله : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ، وبقوله : أنا مدينة العلم وعلي بابها ، وبقوله : تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ، وأنه — أي علياً — وصي رسول الله وخليفته في ذريته ، وهو خليفته في أمته ، وأنه أفضل الأمة وأعلمهم ، ولا يجوز عليه السهو ولا الغفلة ولا العجز ، وأنه معصوم ، وأن الله عز وجل نصبه للخلق إماماً ولكن لا يهملهم ، وأن المنصوص على إمامته كالمنصوص على القبلة وسائر الفرائض ... الخ .

هذه هي المزاعم التي استنتج منها الشيخ الملطي مقاصد هشام من التشيع ، فهشام بن الحكم في نظر هذا الشيخ إنما كان عدواً للإسلام وأصبح ملحداً غير مؤمن ، لأنه يذهب إلى إمامة علي بالنص ، وأنه خليفة رسول الله في أمته .

ونحن لا نلوم هذا الشيخ على هذيانه وتمرده على الواقع ، ولكنا نلوم الرجل المثقف الذي يريد أن يخدم الأمه بنشر هده الفضائح (١) وإخراج هذه الجيف فلا نطيل الوقوف هنا فالزمن أثمن والوقت من ذهب . وعند الله تجتمع الخصوم .

٣ — وقال ابن حجر (٢) : هشام بن الحكم أبو محمد الشيباني من أهل الكوفة ، وكان من كبار الرافضة ومشاهيرهم ، وكان مجسماً يزعم أن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث . ذكر ذلك ابن حزم. بدون مستند ولا سند ، وإنما هذا مجرد تهجم على الأبرياء كما هو شأن ابن حزم .

---

(١) نشر هذا الكتاب عزة العطار مدير مكتبة نشر الثقافة الإسلامية في مصر وعلق عليه وحققه محمد زاهد الكوثري .

(٢) لسان الميزان ج ٦ ص ١٩٤ .

وعلى هذه اللغة وهذه اللهجة سار كل من تعصب على هشام . وقد ثبت بالتتبع أن هذه الجمل التي يسوقونها للانتقاص من هشام والحط من كرامته ، إنما هي من مفتعلات الجاحظ ومفترياته . لأنه كان شديد القسوة على من يخالفه. وقد عرف بالانتصار للمعتزلة ، وكان هشام حرباً عليهم ناظر علماءهم وانتصر عليهم.

والجاحظ معروف بأسلوبه التهكمي اللاذع ، الذي كان يتذرع به في كثير من مهماته ، فتراه عندما يأخذ بعض الأشخاص بالتصوير التهكمي فهو يقدم لك الصورة الدقيقة الرائعة ، التي تثير في نفسك كل ما يمكن من النفورة والبغض .

وهو إذ يتهجم على هشام يسلك سبيل السخرية والتهكم ، فيقول : إن هشاماً مجسم يدعي أن إلهه سبعة أشبار بشبر نفسه ، له طول وعرض وطوله مثل عرضه إلى آخر قوله في اتهام هشام . وهذا أمر لا يحتاج إلى تحمل مشقة في الرد ، لأن خصومة الجاحظ لهشام ولأمثاله أوضح من أن تخفى .

وحيث كان الجاحظ هو بطل الخصومة لهشام ، وهو مصدر تلك الاتهامات الباطلة فلا بد لكفة الميزان أن تحويه لتكشف نقصه مهما كان لاسمه صدى في ميدان الأدب ومكانة في رحابه .

الجاحظ في الميزان :

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني مولاهم المعروف بالجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠ هـ أو سنة ٢٥٥ هـ تلميذ النظام ، وهو من رؤساء المعتزلة ومتكلميهم ، وله شهرة عظيمة في أدبه ، كما أن له مؤلفات كثيرة في شتى العلوم والفنون ، اتصل بالحكام والأمراء والخلفاء ، وتقرب إليهم بتصنيف الكتب والرسائل ، وبها يتعصب لمذاهبهم ويعضد بها آراءهم وينقض بها آراء مخالفيهم ، طلباً لجوائزهم ونيلا لرفدهم .

ولا نريد البحث عن علمه ، ولكنا نريد أن نعرف : هل كان الجاحظ رائده الحق ؟ وضالته الحقيقة ينشد الوصول إليها عن طريق التثبت والتجربة والبرهان ؟ أم كان له غرض خاص يطلبه ويسعى لتحقيقه . ولو كان الجاحظ يهدف إلى غاية معينة ، ويلتزم فكرة ، يجند لها قلمه لا تبعد عن المتناقضات وسار في خط مستقيم ، فكم جاء بقول وأتى بعده بما يناقضه ، وكم أبدى فكرة وأتى بما ينفيها ، فهو متقلب الرأي ضعيف العقيدة .

ويتجلى لنا الأمر – إذا عرفنا منزلته وصدقه – عند ما نسائل عنه علماء الرجال ، ونصغي لما وصفوه به وما عرفوه عنه .

قال أبو جعفر الاسكافي ، وهو من كبار المعتزلة وعلمائهم :

إن الجاحظ ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب ، وهو من دعوى الباطل غير بعيد ، فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ، يقول الشيء وخلافه ، ويحسن القول وضده ، ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حد قائم (١) .

وقال ابن أبي داود : الجاحظ أثق بظرفه ولا أثق بدينه (٢) .

وقال الذهبي : كان الجاحظ من أهل البدع .

وقال ثعلب : الجاحظ ليس بثقة ولا مأمون ، كان كذاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس .

وقال أبو منصور في مقدمة تهذيب اللغة : وممن تكلم في اللغات بما حصره لسانه ، وروى عن الثقات ما ليس من كلامهم الجاحظ ، وكان قد أوتي بسطة في القول ، وبياناً عذباً في الخطاب ، ومجالا في الفنون ، غير أن أهل العلم ذبوه وعن الصدق دفعوه (٣) .

وحكى الخطيب عنه : أنه كان لا يصلي .

وقال الإسكندري: الجاحظ كان عثمانياً يتنصب يفضل عثمان على عليّ(٤)

وقال ابن قتيبة : الجاحظ وهو آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة استشارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يكبر ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار على أن يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج للعثمانية على الرافضة ، ومرةً للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل علياً « رضي الله عنه » ومرةً يؤخره ، ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوز في الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم إلى أن يقول : وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأضعفهم

---

(١) شرح النهج ج ٣ ص ٢٦٧ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٨ .
(٣) لسان الميزان ج ٤ ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .
(٤) تاريخ آداب اللغة ص ٨٤ .

الحديث ، وأنصرهم لباطل (١) .

هذه صورة عن الجاحظ نقدمها ليقف القارىء على أثر طعنه وتهجمه ، ورميه الأبرياء من الأمة بما ليس فيهم ، فهو غير مستقيم ولا حدّ لتقلبه وتلوّنه. فهو يختلق الاتّهامات ، ويبتدع الأقوال ، ويكذب في نقله .

إن الجاحظ موهوب في أدبه ، بارع في تهكمه وسخريته ، له قدرة على تصوير الأشياء التي يخترعها من نفسه ، ولا يهمه أن تتناقض أقواله وتضطرب آراؤه ، فتراه يؤلف في الأمور المتناقضة ، والأشياء المتفرقة .

نرى الجاحظ يميل مع الهوى ويساير الظروف ، فهو إذ يخالف الواقع ويعطي قياده لهواه — تراه في مورد آخر يرجع إلى الحقيقة ويعطيها حقها من البيان ، ويتبين لك تكلفه عند مخالفته للواقع ، وانحرافه عن الصواب ، وله رسائل عديدة متفرقة يستقصي فيها الحجج لنفسه ، ويؤيدها بالبراهين ، ويعضدها بالأدلة فيما يتصور من عقله ، وما يوحيه الهوى ، ويفرضه عليه تماجنه وعبثه .

ألّف الجاحظ رسائل في أمور متناقضة تشهد على عدم استقامته ، فهو ينتصر للعثمانية ، ويذهب إلى تأخير علي عليه السلام في الفضيلة، ويمدح معاوية بن أبي سفيان منتصراً له من علي عليه السلام وشيعته ، ويذكر إمامة آل مروان وبني أمية بما شاء له الهوى والعصبية والمجون ، ثم ينفلت من عقال هواه ويعود إلى رشده ، ويترك الأخذ بالآراء والأهواء ، فيؤلف رسالة في بني أمية ، ويصفهم بما يلزمه الواقع ، ويجعل معاوية ظالماً سفاكاً الدماء ، جائراً في الحكم ، مخالفاً لأحكام الإسلام .

ويكتب رسائل في تفضيل علي عليه السلام والانتصار له ، ويقدم الحجج ويقيم الأدلة والبراهين ، وهو يصرح : بأنه عاد إلى رشده ، وأفلت من عقال هواه وأخذ باليقين وترك الشك والظن ، وإليك نص رسالته التي ذهب بها إلى تفضيل علي على جميع الأمة . وقد ذكرها الاربلي في كشف الغمة .

رسالة الجاحظ في تفضيل علي عليه السلام :

قال : هذا كتاب من اعتزل الشك والظن ، والدعوى والأهواء ، وأخذ باليقين والثقة من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله ، وبإجماع الأمة بعد نبيها عليه

(١) مختلف الحديث لا بن قتيبة ص ٧١ — ٧٢ .

السلام مما يتضمنه الكتاب والسنة ، وترك القول بالآراء ، فإنها تخطىء وتصيب ، لأن الأمة أجمعت أن النبي ﷺ شاور أصحابه في الأسرى ببدر ، واتفق على قبول الفداء منهم فأنزل الله تعالى :

« ما كان لنبي أن يكون له » .

فقد بان لك : أن الرأي يخطىء ويصيب ولا يعطي اليقين ، وإنما الحجة لله ورسوله وما أجمعت عليه الأمة من كتاب الله وسنة نبيها . ونحن لم ندرك النبي ﷺ ولا أحداً من أصحابه الذين اختلفت الأمة في أحقهم ، فنعلم أيهم أولى ، ونكون معهم كما قال تعالى : « وكونوا مع الصادقين » ونعلم أيهم على الباطل فنتجنبهم ؟

وكما قال تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » حتى أدركنا العلم فطلبنا معرفة الدين وأهله ، وأهل الصدق والحق ، فوجدنا الناس مختلفين يبرأ بعضهم من بعض ، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان :

أحدهما ، قالوا : إن النبي ﷺ مات ولم يستخلف أحداً . وجعل ذلك إلى المسلمين يختارونه ، فاختاروا أبا بكر .

والآخرون ، قالوا : إن النبي ﷺ استخلف علياً ، فجعله إماماً للمسلمين بعده . وادعى كل فريق منهم الحق . فلما رأينا ذلك وقّفنا الفريقين لنبحث ونعلم المحق من المبطل ؟

فسألناهم جميعاً : هل للناس بدّ من وال يقيم أعيادهم ، ويجبي زكاتهم ، ويفرقها على مستحقيها ، ويقضي بينهم ، ويأخذ لضعيفهم من قويهم ويقيم حدودهم ؟

فقالوا : لا بد من ذلك .

فقلنا : هل لأحد يختار أحداً فيوليه ، بغير نظر من كتاب الله وسنة نبيّه ؟

فقالوا : لا يجوز ذلك إلا بالنظر .

فسألناهم جميعاً عن الإسلام الذي أمر الله به ؟

فقالوا : إنه الشهادتان ، والإقرار بما جاء من عند الله ، والصلاة ، والصوم ، والحج — بشرط الاستطاعة — والعمل بالقرآن يحل حلاله ويحرم حرامه .

فقبلنا ذلك منهم لإجماعهم .

ثم سألناهم جميعاً :

هل لله خيرة من خلقه ، اصطفاهم واختارهم ؟

فقالوا : نعم .
فقلنا : ما برهانكم ؟
فقالوا : قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم » .
فسألناهم : من الخيرة ؟
فقالوا : هم المتقون .
فقلنا : ما برهانكم ؟
فقالوا : قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
فقلنا : هل لله خيرة من المتقين ؟
قالوا : نعم ، المجاهدون بأموالهم بدليل قوله تعالى : (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) .
فقلنا : هل لله خيرة من المجاهدين ؟
قالوا جميعاً : نعم — السابقون من المهاجرين إلى الجهاد بدليل قوله تعالى : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) .
فقبلنا ذلك منهم لاجماعهم عليه ، وعلمنا أن خيرة الله من خلقه المجاهدون السابقون إلى الجهاد . ثم قلنا :
هل لله منهم خيرة ؟
قالوا : نعم . قلنا : من هم ؟
قالوا : أكثرهم عناء في الجهاد ، وطعناً وضرباً وقتلا في سبيل الله ، بدليل قوله تعالى : (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره) (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) .
فقبلنا منهم ذلك ، وعلمنا وعرفنا : أن خيرة الخيرة أكثرهم في الجهاد عناءً ، وأبذلهم لنفسه في طاعة الله ، وأقتلهم لعدوه .
فسألناهم عن هذين الرجلين — علي بن أبي طالب وأبي بكر — أيهما كان أكثر عناء في الحرب ، وأحسن بلاءً في سبيل الله ؟
فأجمع الفريقان على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان أكثر طعناً وضرباً وأشد قتالا ، وأذب عن دين الله ورسوله .
فثبت بما ذكرناه من إجماع الفريقين ، ودلالة الكتاب والسنة أن علياً أفضل .
وسألناهم — ثانياً — عن خيرته من المتقين ؟

فقالوا : هم الخاشعون ، بدليل قوله تعالى : « وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » . وقال تعالى : « أعدت للمتقين الذين يخشون ربهم » .

ثم سألناهم : من الخاشعون ؟

فقالوا : هم العلماء ، لقوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

ثم سألناهم جميعاً : من أعلم الناس ؟

قالوا أعلمهم بالقول ، وأهداهم إلى الحق ، وأحقهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى : (يحكم به ذوا عدل منكم) فجعل الحكومة لأهل العدل .

فقبلنا ذلك منهم ، وسألناهم عن أعلم الناس بالعدل من هو ؟

قالوا : أدلهم عليه .

قلنا : فمن أدل الناس عليه ؟

قالوا : أهداهم إلى الحق . وأحقهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي الا أن يهدى) فدل كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام والإجماع : أن أفضل الأمة بعد نبيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، لأنه إذا كان أكثرهم جهاداً كان أتقاهم ، وإذا كان أتقاهم كان أخشاهم ، وإذا كان أخشاهم كان أعلمهم ، وإذا كان أعلمهم كان أدل على العدل ، وإذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمة إلى الحق ، وإذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعاً ، وإن يكون حاكماً لا تابعاً ولا محكوماً .

وأجمعت الأمة – بعد نبيها ﷺ – أنه خلف كتاب الله تعالى ذكره وأمرهم بالرجوع إليه إذا نابهم أمر ، وإلى سنة نبيه ﷺ فيتدبرونهما ويستنبطوا منهما ما يزول به الاشتباه فإذا قرأ قارئهم : (وربك يخلق ما يشاء ويختار) فيقال له: اثبتها ، ثم يقرأ : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفي قراءة ابن مسعود – إن خيركم عند الله أتقاكم – (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب) .

فدلت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشون .

ثم يقرأ فإذا بلغ قوله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فيقال له : اقرأ حتى ننظر هل العلماء أفضل من غيرهم أم لا ؟ فإذا بلغ قوله تعالى : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) علم أن العلماء أفضل من غيرهم .

ثم يقال : اقرأ ، فإذا بلغ إلى قوله : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾.

قيل : قد دلت هذه الآية على أن الله قد اختار العلماء وفضلهم ورفعهم درجات ، وقد اجمعت الأمة على أن العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ الذين يؤخذ عنهم العلم كانوا أربعة : علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن العباس وابن مسعود ، وزيد بن ثابت .

وقالت طائفة : عمر ، فسألنا الأمة :

من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصلاة ؟

فقالوا : إن النبي ﷺ قال : يؤم القوم أقرؤهم . ثم أجمعوا على أن الأربعة كانوا أقرأ من عمر فسقط عمر ، ثم سألنا الأمة : أيّ هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب الله ، وأفقه لدينه فاختلفوا ، فأوقفناهم حتى نعلم . ثم سألناهم : أيهم أولى بالإمامة ؟

فأجمعوا على أن النبي ﷺ قال : الأئمة من قريش . فسقط ابن مسعود وزيد بن ثابت . وبقي علي بن أبي طالب وابن عباس ، فسألنا :

أيهما أولى بالإمامة ؟

فأجمعوا : على أن النبي قال : إذا كان عالمان فقيهان من قريش فأكبرهما سناً وأقدمهما هجرة . فسقط عبدالله بن العباس وبقي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فيكون أحق بالإمامة ، لما أجمعت عليه الأمة ولدلالة الكتاب والسنة عليه . انتهى .

ذكر هذه الرسالة (١) أبو الحسن علي بن السعيد فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الأربلي وقال : إنها نسخت عن مجموع للأمير أبي محمد الحسن بن عيسى المقتدر بالله .

وبهذا نكتفي عن الحديث حول الجاحظ ، كما أنا لا نود أن نتعرض لذكر ابن حزم وتشنيعه على هشام وقسوته في اتهامه ، ويكفينا في ابن حزم ما عرف عنه من التهجم على العلماء بدون استناد حتى قيل : لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان . إذ كل واحد منهما يفتك بالمسلمين ظلماً وعدواناً .

وقد تحامل ابن حزم على الشيعة بما لا يتقبله العقل ، ولا ندري من أي مصدر استقى ذلك . فلنترك مناقشته وعلى الله حسابه .

---

(١) كشف الغمة ص ١٢ — ١٣ .

عود على بدء :

إن دراسة حياة هشام والوقوف على آرائه وأقواله توقف القارىء النبيه على أسباب اتهامه بتلك التهم الشنيعة التي تناقض الحقيقة ، ولا تتفق مع عقيدته وإيمانه .

وقد أشرنا لبعض الأسباب التي دعت خصومه لرميه في ذلك ، وهناك شيء آخر وهو : أن هشاماً كان ذو شخصية قوية وفكر واسع ورأي صائب ، وهو صلب في إيمانه ، قوي في عقيدته ، لا يتنازل عنها لسلطان ، ولا يجاري الأغلبية الساحقة ، ولم ينهزم يوماً ما أمام مناظر ، أو يفلج في قول أو يغلب في حجاج ، وكانت المعركة الفكرية تدور حول الإمامة وما شاكلها ، وكان هشام يخالف في رأيه لسلطان عصره ، ويناظر على صحة قوله وصواب رأيه ، فهو مع أهل البيت يناضل عن حقهم ، ويحاجج في لزوم اتباعهم ، ولم يعبأ في مخالفة الأغلبية ، ولم يبال بالاضطهاد المنتظر بحق كل من يخالف رأي الدولة . وإن كان رأيها هو الرأي السائد والقول المتبع .

فلذلك تكونت حول شخصيته تلك المؤامرات والدسائس ، التي تتكيف بمزاج العصر وأوضاعه ؛ لأن أعظم سلاح يقاوم به من يخالف آراء ملوك ذلك العصر هو الاتهام بالبدعة ، والرمي بالإلحاد والزندقة .

ويكفي للاستدلال على براءة هشام من ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام : يا هشام لا زلت مؤيداً بروح القدس . وقوله : هذا ناصرنا بقلبه ولسانه .

وقوله : هشام رائد حقنا المؤيد لصدقنا ، والدافع لباطل أعدائنا ، من تبعه وتبع أمره تبعنا ، ومن خالفه فقد عادانا .

وقال علم الهدى : فكيف يتوهم عاقل — مع ما ذكرناه — على هشام هذا القول : بأن ربه سبعة أشبار بشبره ، وهل ادعاء ذلك عليه (رضوان الله عليه) مع اختصاصه المعلوم بالصادق ، وقربه منه وأخذه عنه الا قدح في أمر الصادق ، ونسبته للمشاركة في الاعتقاد الذي نحلوه هشاماً ، وإلا كيف لم يظهر عنه من النكير عليه ، والتبعيد له بما يستحقه المقدم على هذا الاعتقاد المنكر ، والمذهب الشنيع (١).

ووردت في حقه روايات مدح من بقية الأئمة عليهم السلام كقول الإمام

---

(١) الشافي ص ١٢ .

الرضا عليه السلام عندما سئل عن هشام: رحمه الله كان عبداً ناصحاً وأوذي من قبَل أصحابه حسداً منهم له .

وقال الإمام الجواد عليه السلام: هشام بن الحكم رحمه الله ما كان أذبّه عن هذه الناحية .

وصفوة القول : إن هشام بن الحكم كان عظيم المنزلة ، رفيع المكانة ثقة في الحديث ، مبرزاً في الفقه والتفسير وسائر العلوم والفنون .

والشيء الذي يلفت النظر ، هو وجود بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تنص على الطعن في عقيدة هشام ، وقد ذكرها الأصحاب في معرض النقد والرد ، إذ هي — بدون شك — مكذوبة لا صلة لها بالصحة .

فمن ذلك: ما أشاعوه عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال في هشام : إنه ضال مضل ، شرك في دم أبي الحسن الكاظم عليه السلام ولما شاعت هذه المقالة قدم جماعة من الشيعة إلى الإمام الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك القول ، وعن مبلغه من الصحة لكي يتبرأوا من هشام إن صح ذلك .

فتقدم إليه موسى بن المشرقي يسأله عن ذلك القول ، وهل يتولّون هشاماً أم يتبرأون منه ؟

فأجابه الإمام بلزوم موالاة هشام ، وقال له : تولوه ، إذا قلت لك فاعمل به ولا تريد أن تغالب به ، أخرج الآن فقل لهم — أي الشيعة — : قد أمرني بولاية هشام .

وقال عليه السلام رحمه الله — أي هشاماً — كان عبداً ناصحاً وأوذي من قبل أصحابه حسداً منهم له (١) .

ومنها : عن محمد بن زياد قال : سمعت يونس بن ظبيان يقول : دخلت على أبي عبدالله الصادق عليه السلام فقلتُ له: إن هشام بن الحكم يقول قولا عظيماً إلا أني أختصر لك منه حرفاً : يزعم أن الله جسم لأن الأشياء شيئان : جسم وفعل فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل ، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل .

فقال أبو عبدالله : ويله ، أما علم أن الجسم محدود متناه ، والقدرة محدودة متناهية ، فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان ، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً .

هكذا ادعى يونس بن ظبيان أنه سمع ذلك في حق هشام . ويونس ، هذا

---

(١) جامع الرواة ج ٢ ص ٢١٣ .

هو ممن يكيد لهشام ويبغضه ، لأن يونس من الغالين الذين شوهوا سمعة المذهب ، وهو من أصحاب أبي الخطاب . قال ابن الغضائري : يونس بن ظبيان كوفي غال كذاب ، وضاع للحديث . روى عن أبي عبدالله لا يلتفت إلى حديثه .

وقال النجاشي : إنه مولى ضعيف جداً لا يلتفت إلى ما رواه ، كل كتبه تخليط ، وقد ورد لعنه على لسان الأئمة .

وعلى أي حال ، فإن هشام بن الحكم من المعذبين في الله ، وهو أجل من أن تنسب إليه تلك الأمور ، وأعظم منزلة من كل ما يرمونه به ، فلا يلتفت إلى تلك الخرافات والأوهام والدسائس التي حيكت حول شخصيته .

هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد ؟ ! .

ولم يكف خصوم هشام صوغ تلك العبارات واختراع تلك الحكايات في ذمه والحط من كرامته ، حتى تجاوزوا الحدّ في ذلك ، ونسبوا تلك الآراء المفتعلة لمجموع الشيعة ، وهذا من الخطأ الفاحش .

ولو سلمنا جدلا أن هشام بن الحكم كان يعتقد بما نقل عنه (والعياذ بالله) فهل يصح لهم أن يجعلوا ذلك الرأي لمجموع الشيعة ، وأن تلك العقائد المكذوبة هي من عقائد الشيعة ؟ وهل يصح لهم مؤاخذة الكل بجريمة الجزء ؟ وهذا أمر لا يبرره منطق سليم ، لأن جميع الهيئات والطوائف في المجتمع الإنساني لا تخلو من أفراد يحطون من قدرها ويسيؤون إلى سمعتها ! !

وقد استساغوا ذلك في حق الشيعة بنسبة الآراء الفردية لمجموع الأمة ، وهذا كثير لا حصر له ولسنا بصدده الآن .

وكما قلنا : إذا سلمنا جدلا بصحة ما يقولونه في هشام (وليس لقولهم نصيب من الصحة) فهل يصح أن يجعل ذلك الرأي لمجموع الشيعة ؟

وقد سلك هذه الطريقة الملتوية وارتكب هذا الخطأ الفاحش جماعة من القدماء وبعض المتأخرين ولم يكتفوا بالافتراء على هشام بل جعلوا ذلك لمجموع الشيعة إفكاً وزوراً . وعلى سبيل المثال نذكر ما يقوله الخياط المعتزلي في كتابه الانتصار ، بعد أن ذكر تلك المفتريات عن هشام بن الحكم منتصراً لأشياخه ، ومقلداً للجاحظ في إفكه وبهتانه .

قال : الرافضة تعتقد أن ربها ذو هيئة وصورة ، يتحرك ويسكن ، ويزول

وينتقل ، وأنه غير عالم فعلم . إلى أن يقول : هذا توحيد الرافضة بأسرها إلا نفرٌ منهم يسيرٌ صحبوا المعتزلة واعتقدوا التوحيد ، فنفتهم الرافضة عنهم وتبرأوا منهم .

أما جملتهم ومشايخهم مثل هشام بن سالم ، وشيطان الطاق ، وعلي بن ميثم ، وهشام بن الحكم ، والسكاك ، فقولهم ما حكيتُ عنهم .

ثم يقول : الرافضة تقول : إن ربها جسم ذو هيئة وصورة ، يتحرك ويسكن ويزول وينتقل .

فهل على وجه الأرض رافضي إلا وهو يقول : إن الله صورة .

ويروي في ذلك الروايات ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم إلا من صحب المعتزلة منهم . إلى آخر أقواله وتقولاته في كتاب الانتصار في مواطن متعددة .

ولا أريد مناقشة هذا الافتراء والدس ، وهذه الأقوال التي لا ربط لها بالحقيقة ، ولا مساس لها بالواقع ، ولكن من الحق أن نؤاخذه بهذا الانحراف ، ونحاسبه على هذا الشذوذ في سلوك تلك الخطة الملتوية ، وقد سار على هذا كثير ممن كتب عن الشيعة بدون تفكير وتدبر ، وذكروا فرقاً للشيعة بأسماء من ينسبون إليهم رأياً فردياً ، وهو افتراء وتقول بالباطل .

ولئن صح هذا السلوك واستساغوا هذه اللغة فيصح للشيعة عندئذ هذا الاستعمال فيقيسوا مجموع الأمة بالفرد وينسبوا الآراء الفردية للجميع .

وقد اشتهر جماعة من علماء المذاهب الأخرى والمقدمين عندهم بشذوذ في الآراء وفساد في الاعتقاد وإليك منهم :

١ ــ شهاب الدين يحيى بن حبش ، فقد اشتهر عنه أنه كان زنديقاً ، وله عقيدة الانحلال والتعطيل ، وله أشياء منكرة ، وكان بارعاً في علم الكلام مناظراً محجاجاً (١) .

٢ ــ محمد بن جمال الباجريقي الشافعي المعروف بالشمس ، وقد عرف بالزندقة والإلحاد ، وله أتباع ينسبون إليه ، ويعكفون على ما كان يعكف عليه (٢).

٣ ــ الرفيع الجيلي الشافعي قاضي القضاة بدمشق المتوفى سنة ٦٤٢ هـ .

قال ابن شهبة في تاريخه : إنه كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزءاً بأمور الشريعة .

---

(١) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٩٠ ، ومرآة الجنات ج ٣ ص ٤٣٧ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ١٤ .

ويقول ابن العماد : إنه سار سيرة فاسدة . مع قلة دين وفساد عقيدة ، مع استعمال المنكرات وحضور صلاة الجمعة سكراناً (١) .

٤ ـ عبدالله بن محمد بن عبد الرزاق الحربوي بن الحوام الشافعي ، فإنه نسب الوزير رشيد الدولة إلى الربوبية بتقريضه تفسيره حتى قال شاعر وقته :

يا حزب إبليس ألا فابشروا　　إن فتى الحوام قد أسلما
وكان فيما قال في كفره　　إن رشيد الدين رب السما
وقال لي شيخ خبير به　　ما أسلم الشيخ بل استسلما (٢)

فهل يصح هنا أن نؤاخذ الأمة بهذا الرأي الفردي ، كما أخذوا الشيعة بما ينسب للحسن بن هاني الشاعر الأندلسي في مدحه للمعز بقوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

وقالوا : إن الشيعة بلغوا في الغلو درجة بعيدة ، ومثلوا له بقول الحسن بن هاني (٣) .

ومما يؤسف له أن هذا القول صدر من مثقف من أبناء عصر النور ، فما قولنا في أبناء العصور المظلمة . وهذا القول هو أحد الدواعي التي ألجأتنا إلى إعطاء هذه الصورة وإثبات هذا العرض .

٥ ـ محمد بن العلي أبو عبدالله الحكيم الترمذي الشافعي .

كان يفضل الأولياء على الأنبياء ، وقد ألف كتاباً في ذلك سماه ختم الولاية ، وقال : إن للأولياء خاتماً كما إن للأنبياء خاتماً ، وإنه يفضل الولاية على النبوة محتجاً بالحديث : « الأولياء يغبطهم النبيون والشهداء » . وقال : لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم (٤) .

٦ ـ الركن عبد السلام بن وهب بن عبد القادر الجيلاني الحنبلي المتوفى سنة ٦١١ هـ

كان داعية للانحلال وحكم بكفره ، وكان يخاطب النجوم ويقول لزحل: أيها الكوكب الدري المضيء المنير أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا . وله في حق المريخ من هذا الجنس (٥) .

٧ ـ صدقة بن الحسين البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٢٦٧ هـ .

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١٤ .
(٢) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٩٢ .
(٣) اثر التشيع في الادب العربي لمحمد سيد كيلاني ص ٨٩ .
(٤) طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٠ .
(٥) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٥ .

كان بارعاً في فقههم وأصولهم ، والمقدم في عصره عندهم ، مع سوء اعتقاده وفساد رأيه ، ورداءة مذهبه . قال ابن الجوزي في المنتظم : إنه يعترض على القدرة ، وأورد له من الشعر ما يدل على سوء معتقده . كقوله :

لا توطّنها فليست بمقام   واجتنبها فهي دار الانتقام
أتراها صنعة من صانع   أم تراها رمية من غير رام

وقد وضعوا فيه مناماً بعد موته عندما سئل عن حاله فقال : غفر لي بتميرات تصدقت بها على أرملة (١).

٨ — اسماعيل بن علي الملقب بفخر الدين الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٦١٦ هـ .

كان من المشهورين في علم الكلام ، قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقيس الطبيب النصراني ، وكان يتردد عليه إلى بيعة النصارى ، وصنف كتاباً سماه نواميس الأنبياء ، يُذكر أنهم كانوا حكماء ، كهرمس ، وأرسطاطاليس وكان متسامحاً في دينه متلاعباً به ، إلى آخر ما نقل عنه من الآراء الفاسدة ، والأمور القبيحة (٢) .

كان أحد العلماء العارفين بالمذهب ، ونسبت إليه أشياء قبيحة وآراء فاسدة (٣) .

٩ — ابراهيم الملقب بشمس الدين الحنبلي المتوفي سنة ٦١٠ هـ.

١٠ — ابراهيم بن يوسف أبو اسحاق الأوسي المالكي المتوفى سنة ٦١١ هـ المعروف بابن المرأة ، كان فقيهاً مالكياً غلب عليه علم الكلام . ذكره ابن حبان في زنادقة أهل الأندلس (٤) .

١١ — أبو معن النميري من كبار المعتزلة ، قال ابن قتيبة : ومن المشهور عنه أنه رأى قوماً يتعادون إلى الجمعة لخوفهم فوت الصلاة فقال : انظروا إلى البقر أنظروا إلى الحمُر . ثم قال لرجل من إخوانه : أنظر ما صنع هذا العربي بالناس ؟ (٥) .

١٢ — ومحمد اللوشي الغرناطي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ فقد نسب إلى الزندقة والإلحاد والانحلال ، والخروج عن الدين ، وانتقاص النبي ﷺ إلى غير ذلك مما اتصف به (٦) .

---

(١) لسان الميزان ج ٣ ص ١٨٦ .
(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤١ .
(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٠ .
(٤) لسان الميزان ج ١ ص ١٢٧ .
(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٨٣ .
(٦) شذرات الذهب ج ٦ ص ٤٦ .

وغير هؤلاء ممن يطول المقام ببسط القول فيهم ، كالشيخ نجم الدين بن خلكان (١) واسماعيل بن عبدالله الرعيني ، والفخر الرازي المؤرخ الكبير والمفسر الشهير (٢) وأبو حيان التوحيدي الشافعي وغيرهم ممن رمي بالإلحاد والزندقة وسوء العقيدة ونسبت إليه آراء فاسدة .

وإذا أردنا أن نتوسع في الموضوع ونرجع إلى أعيان المذاهب ومن عليهم مدار أحكامها فالأمر أفظع .

فهذا محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، وهو عماد المذهب الحنفي وقوامه ، وعليه مدار أحكامه ، لما قام به من التأليف ونشر المذهب ، وإذا صح التعبير فنقول : هو إمام المذهب الحنفي الثاني ، ومع هذا فقد رموه بالإرجاء وغيره ، كما حكي عن أحمد بن حنبل أنه قال فيه : إنه مرجىء .

وقد ردّ شريك القاضي شهادته ووقعت بينه وبين أبي يوسف منافرة ، فكان أبو يوسف يقول : محمد بن الحسن جهمي . إلى غير ذلك من الأقوال فيه (٣) ومن أعيان الحنفية : بشر بن غياث المريس المتوفى سنة ٢١٨ هـ فقد وصفوه : بأنه ضال مبتدع ، ونص أبو زرعة على زندقته ، وقال الأزدي : إنه على غير طريقة الإسلام . وإنه كان ينكر عذاب القبر وسؤال الملكين ، والصراط والميزان ، إلى آخر ما روي عنه من الأقوال المنكرة ، والآراء الفاسدة (٤) .

وكذلك محمد بن شجاع الثلجي المتوفي سنة ٢٦٧ هـ . من فقهاء الحنفية ، وله الرياسة في وقته ، وقد نسب إلى البدعة .

سئل عنه أحمد بن حنبل فقال : مبتدع صاحب هوى . وقال الساجي : إن محمد بن شجاع كان كذاباً ، احتال في إبطال حديث رسول الله ﷺ نصرةً لأبي حنيفة .

وقال ابن الجوزي : كان يضع الحديث في التشبيه وينسبه لأهل الحديث(٥)

هذا عرض تاريخي موجز لجماعة اتهموا بسوء الاعتقاد فتحملوا مسؤوليته دون غيرهم ، وبوسعنا أن نذكر من الشخصيات العظيمة التي نسبوا إليها آراء

---

(١) انظر مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١ .

(٣) وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٢٤ ، ولسان الميزان ج ٥ ص ١٢١ .

(٤) لسان الميزان ج ٢ ص ٣٠ ، والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٥٤ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٢٤ .

(٥) الفوائد البهية ص ١٧٢ .

فاسدة ومذاهب ذميمة ، كأبي الحسن الأشعري (١) إمام أهل السنة ، وشيخ الطريقة في الاعتقاد فقد وصفوه بالبدعة والضلالة ، وانه أنكر نبوة محمد ﷺ بعد موته ، كما أنكر عذاب الله للعصاة والكفار ، وأنه تعالى لا يجازي المطيعين على إيمانهم وطاعتهم . وكان يقول : بتكفير العوام (٢) إلى غير ذلك مما نسبوه له ، وما اتهموه فيه . وكذلك ابن تيمية وابن القيم الجوزية وتاج الدين السبكي وغيرهم .

اننا لا نستعمل تلك الطريقة الملتوية ، وذلك القياس المعكوس ، فلا نقيس الأمة بالفرد ، ولا نؤاخذ السليم بالسقيم ، بل نتثبت في الحكم على الشخصيات الإسلامية ، فلا نتسرع بقبول الاتهام ما لم يتضح الأمر ، لأننا قد عرفنا أثر ذلك التطور الذي حدث في البلاد الإسلامية ، فهو عامل من أخطر العوامل التي لعبت دورها في الحياة العقلية . في تلك العصور الماضية .

إلى جانب ذلك يلزمنا أن لا نهمل عوامل السياسة ، والتهالك على السيادة في تفريق صفوف الأمة ، وجعلها أحزاباً وفرقاً ! .

والغرض : أن قياس الأمة بالفرد من الأمور التي لا يقرها المنطق . وقد سلكوا في اتهام الشيعة طرقاً غير صحيحة ، وكالوا لهم الذم جزافاً ، بدون تمحيص وتدبر ، ولعبوا في التاريخ وخاضوا فيه بالباطل « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » ولا نريد أن نقابلهم بالمثل ولا نقيم معهم الحساب بل نتركهم ليوم الحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فهم مسؤولون أمام الله عن بذور التفرقة التي زرعوها في حقول التاريخ فاجتنت ثمرتها الأجيال ؛ فكان من أثر تسمم الثمرة أن يهاجمنا في كل آونة بعض من أبناء هذا العصر ممن أخذ التقليد بعنقه . فسيّره طوع إرادته ، وحرمه حرية التفكير . ولكنا لا نود مقابلته بل نمرّ على ما نقرأ له مرّ الكرام ، داعين الله له بالشفاء من الأمراض العقلية .

وصفوة القول : إن تلك العصور التي عظم فيها التطاحن قد كدرت صفو الأخوة ، وغيرت مجرى الواقع . والشيء الذي نود أن ننبّه عليه في ختام هذا العرض : هو أنه لما لم يكن الاتهام مبنياً على أساس وثيق ، وقاعدة بينة ، كثر

---

(١) ابو الحسن الاشعري . هو علي بن اسماعيل يرجع نسبه الى ابي موسى الاشعري ، توفي سنة ٣٢٤ هـ كان معتزلياً ويعد من كبارهم ومتكلميهم ، ثم رجع عن الاعتزال والف كتباً في العقائد ، فاصبح شيخ طريقة اغلب اهل السنة وعليه المدار في الاعتقاد .

(٢) طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٧٨ – ٢٨٥ .

الخلط والخبط ، ولم يفرقوا بين السليم والسقيم ، والمتهم والبريء . وإليك أمثلةً من ذلك :

١ – إن إسم الجعفرية أصبح علماً لأتباع جعفر بن محمد الصادق ، وبه يعرفون .

وتوجد هناك فرقتان من المعتزلة عرفتا بالجعفرية :

الاولى : اتباع جعفر بن حرب الثقفي المتوفى سنة ٢٢٤ هـ .

والثانية : أتباع جعفر بن مبشر الهمداني المتوفى سنة ٢٢٦ هـ ، وكلاهما من المعتزلة ولهما آراء وأقوال شاذة اشتهرت عنهما ، وتناقلها الناس ، وتبعهما على ذلك خلق عُرفوا بالجعفرية ، فجاء من لا يفرق بين الحق والباطل ولا يعرف إلا اتباع هواه ، فخلط هذين الفرقتين مع الفرقة الجعفرية الشيعية ، ونسب تلك الأقوال الشاذة إليهم بدون تفكير وتدبر ! !

٢ – قولهم في المفضل بن عمر إنه كان يلعب بالحمام ، وإنه من أصحاب أبي الخطاب ، مع العلم بأن المفضل هو أجل من ذلك ، ولكنهم لم يفرقوا بينه وبين المفضل بن عمر الصيرفي ، الذي كان من الخطابية ومن المخالفين لقواعد الإسلام ، فخلطوا بين هذا وذاك ولم يهتدوا للتفرقة ، ولعل أكثرهم يتعمد ذلك للوقيعة في المفضل ، لأنه شيعي من خواص الإمام الصادق .

٣ – إن من المعتزلة فرقة تعرف بالهشامية ، وهم أصحاب هشام بن عمر الفوطي ، وكان معاصراً لهشام بن الحكم ، وقد ذهب إلى أشياء منكرة .

وأنت عند مراجعتك لما اتهم به هشام من تلك الأمور المفتعلة تجد أكثرها من أقوال الفوطي ، لأنهم خلطوا في ذلك ، ولم يفرقوا بين هشام بن الحكم وبين هشام بن عمرو الفوطي ! !

وكثير من هذا الخبط والخلط ، مما يطول بنا الحديث عنه والحديث شجون.

ولنعد إلى الحديث عن هشام ومكانته ، ونرى من الخير أن نذكر هنا وصية الإمام موسى بن جعفر له فهي من غرر الوصايا ، وجوامع الكلم ، وعلى ضوئها نأخذ صورة عن منزلة هشام .

وقد اقتطفنا منها قليلا ، وهي طويلة .

وصية الإمام موسى له :

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام موصياً هشاماً :

يا هشام ، من أراد الغنى بلا مال ، وراحة القلب من الحسد ، والسلامة

في الدين ، فليتضرع إلى الله في مسألته بأن يكمل له عقله ، فمن عقل قنع بما يكفيه ، ومن قنع بما يكفيه استغنى ، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً .

يا هشام ، من صدق لسانه زكى عمله ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن برّه بإخوانه وأهله مُدّ في عمره .

يا هشام ، لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

يا هشام ، كما تركوا لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا .

يا هشام ، إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال : يجيب إذا سئل ، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام ، ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله . فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق .

يا هشام ، إن العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه ، ولا يعد مالا يقدر عليه ، ولا يرجو ما يعنّف برجائه ، ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه .

يا هشام ، رحم الله من استحيا من الله حق الحياء فحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وذكر الموت والبلى ، وعلم أن الجنة محفوفة بالمكاره ، والنار محفوفة بالشهوات .

يا هشام ، من كف نفسه عن أعراض الناس أقال الله عثرته يوم القيامة ، ومن كف غضبه عن الناس كف الله عنه غضبه يوم القيامة .

يا هشام ، تعلّم ، من العلم ما جهلت ، وعلّم الجاهل مما علمت . عظّم العالم لعلمه ، وصغر الجاهل لجهله ولا تطرده ولكن قرّبه وعلّمه .

يا هشام ، عليك بالرفق ، فإن الرفق يُمن ، والخرق شؤم ، إن الرفق والبر وحسن الخلق يعمر الديار ، ويزيد في الأعمار .

يا هشام ، إن مثل الدنيا مثل الحية مسّها ليّن ، وفي جوفها السم القاتل . يحذرها الرجال ذوو العقول ، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم .

يا هشام ، إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا ، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ، ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار ، لأن الله جعل التواضع آلة العقل ، وجعل التكبر آلة الجهل ، ألم تعلم أن من شمخ إلى السقف شجه ، ومن خفض رأسه استظل تحته وأكنّه ، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله ومن تواضع لله رفعه .

يا هشام ، إياك ومخالطة الناس والأنس بهم ، إلا أن تجد بهم عاقلا ومأموناً فآنس به ، واهرب من سائرهم كهربك من سباع الضارية . وينبغي للعاقل إذا عمل عملا أن يستحي من الله . وإذا مرّ بك أمران لا تدري أيهما خير وأصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فان كثير الصواب في مخالفة هواك .

يا هشام ، من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه . وما أوتي عبد هواك . علماً فازداد من الدنيا حباً إلا ازداد من الله بعداً ، وازداد الله عليه غضباً .

يا هشام ، إياك والطمع ، وعليك باليأس مما في أيدي الناس ، وأمت الطمع من المخلوقين فإن الطمع مفتاح للذل واختلاس العقل ، واختلاق المروءات وتدنيس العرض ، والذهاب بالعلم . وعليك بالاعتصام بربك والتوكل عليه ، وجاهد نفسك لتردّها عن هواها ، فإنه واجب عليك كجهاد عدوك .

قال هشام : قلت أي الأعداء أوجبهم مجاهدة ؟

قال عليه السلام: أقربهم إليك، وأعداهم لك ، وأضرهم بك ، وأعظمهم لك عداوة ، وأخفاهم لك شخصاً — مع دنوه منك ...

يا هشام ، من أكرمه الله بثلاث فقد لطف له : عقل يكفيه مؤنة هواه ، وعلم يكفيه مؤنة جهله ، وغنى يكفيه مخافة الفقر .

يا هشام ، احذر هذه الدنيا واحذر أهلها ، فإن الناس فيها على أربعة أصناف : رجل متردي معانق لهواه ، ومتعلم مقرىء كلما ازداد علماً ازداد كبراً يستعلي بقراءته وعلمه على من هو دونه ، وعابد جاهل يستصغر من هو دونه في عبادته ، يحب أن يعظم ويوقر ، وذو بصيرة ولا يقدر على القيام بما يعرفه فهو محزون مغموم بذلك ، فهو أمثل أهل زمانه وأوجبهم عقلا .

ثم ذكر عليه السلام العقل وجنده والجهل وجنده . وتركنا ذلك اختصاراً .

وخلاصة القول : إن هشام بن الحكم قد عز بولائه لأهل البيت ، وناظر جميع أهل الفرق في التوحيد والإمامة ، وضحّى براحته في سبيل مبدئه ، وبذل أقصى الجهد من أجل إصلاح العقيدة والقضاء على البدعة . وكان يستمد تعاليمه من ينبوع أهل بيت النبوة ، هداة الخلق ، وأئمة العدل . وقد لقي العنت من حساده ومنافسيه ، وكان عرضة للخطر من قبل سلطان عصره حتى أصبح مشرداً عن البلاد . وقد طلبه هارون الرشيد أشد الطلب حتى أدركه

الموت بالكوفة مختفياً ، وأوصى أن يحمل في جوف الليل ، ويدفن بالكناسة ، وتكتب رقعة على قبره : هذا قبر هشام بن الحكم ـ الذي طلبه أمير المؤمنين ـ مات حتف أنفه .

وبلغ هارون الرشيد ذلك فقال : الحمد لله الذي كفانا أمره . وكان هارون قد أخذ به خلقاً كثيراً من تلامذته وأصحابه ، ومنهم إخوانه . فأفرج عنهم بعد موته وأطلقهم .

لقد كان هشام من المفكرين المصلحين ، الذين خدموا الأمة بإخلاص النية وصدق العزيمة ورجاحة الرأي . وله القدح المعلى في نصرة مذهب أهل البيت وإنك عندما تتبع آثاره الخالدة تجده يلتفت إلى النوادر من الفروع . وإلى الغوامض من المسائل وله كلمات خالدة ذكرها العلماء في مختلف المواضيع : في التوحيد ، والنبوة والإمامة ، وقد ضاق المجال عن استقصائها .

وقد كانت لي رغبة شديدة في إحياء مآثره والإحاطة بدراسة شخصيته دراسة وافية غير أني لما وجدت شيخنا المظفر قد كتب رسالة كبيرة قيمة فيه . تركت الميدان لفارس الحلبة . فرحم الله هشاماً ، لقد أوذي في سبيل نصرة الحق ، وكان من (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (١) .

وهنا ينتهي حديثنا عن أصحاب الإمام الصادق ، تاركين كثيراً منهم طلباً للاختصار . وستأتي الاشارة إلى الأعيان منهم كهشام بن سالم الجواليقي ، وهشام بن الأحمر ، وهشام بن المثنى الرازي ، وغيرهم ، وبالله نستعين ومنه نستمد التوفيق

---

(١) الانعام ٨٢



الفرق الإسلامية
في عصر الإمام الصادق

تمهيد :

لعل خير ما يعكس لنا أهمية الدور الذي لعبته مدرسة الإمام الصادق عليه السلام والنشاط العلمي الذي قامت به في ذلك العصر ، واتساع نفوذها وكثرة روادها هو ما نجده في أنتماء رجال من أهل العلم إليها ، وحضورهم عنده لانتهال العلم ، وأخذ الأحكام ، فقد كانت مدرسته عليه السلام جامعة إسلامية ، يؤمها المسلمون من مختلف الطوائف ، وشتى الفرق ، فهي مدار الحركة الفكرية ، والمحور الذي تدور عليه آمال الموجهين وحملة الدعوة الإسلامية ، وقد أثرت تعاليمه عليه السلام في كثير من أولئك الرجال فاعتدلوا في آرائهم .

والإمام أبو حنيفة الذي عرف بكثرة القياس وطرح أكثر الأحاديث يكشف لنا أهمية هذه المدرسة وعظيم أثرها إذ يقول : (لولا السنتان لهلك النعمان) والسنتان هما اللتان حضر بهما عند الإمام الصادق وكان الإمام الصادق يشتد عليه ، في كثرة القياس ويناظره في ذلك ، وبهذا يتضح أن أبا حنيفة في أخذه أقوال الإمام الصادق ، واتباع أمره يعد نفسه في نجاة من الهلكة ، وربما يكون ذلك في تركه القياس ، وأخذه بالأحاديث الصحيحة .

ومهما يكن من أمر فقد حدثنا التاريخ عن أولئك الرجال الذين ينتمون لفرق مختلفة قد حضروا عند الإمام الصادق وناظرهم ، وفند كثيراً من آرائهم فلا بد لنا من التعرف على أهم تلك الفرق الإسلامية ، التي نشأت في عصره أو سبقته بدون إحاطة أر إسهاب في البيان .

الخوارج :

نشأت هذه الفرقة بصفين ، عندما طلب معاوية التحكيم من علي عليه السلام ، وهي خدعة حربية استعملها معاوية ودله عليها ابن العاص عندما أحس بالهزيمة ولمس الضعف في جيشه ، وعرف تفوق علي بحقه ، وإن الحق مع علي عليه السلام وقد انضم لجيشه رجال مخلصون قد رسخ الإيمان في قلوبهم .

أراد معاوية أن يوقع الشك ، ويحدث الفرقة في صفوف جيش علي عليه السلام وقد وقع ما أراد معاوية ، فقد نفرت طائفة لم يتركز الإيمان في قلوبهم ومرقوا

من الدين ، ولم يقبلوا تحكيم أحد في كتاب الله ورأوا أن التحكيم خطأ ، لأن حكم الله في الأمر واضح جلي ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق ؟ وليس يصح هذا الشك ، لأنهم وقتلاهم إنما حاربوا وهم مؤمنون .

هذه المعاني المختلجة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية : «لا حكم إلا لله » فسرت هذه الجملة سير البرق إلى من يعتنق هذا الرأي ، وتجاوبتها الأنحاء فأصبحت شعار هذه الطائفة (الخوارج) .

وعلى أي حال ، فقد تكونت هذه الفرقة من عناصر مختلفة ، وظهرت منهم مخالفة علي عليه السلام وتجرءوا على مقامه . ونسبوا إليه ما لا يليق بشأنه .

وقد نظموا أمورهم ، وقاموا بأمر لم يكن وليد وقته وإنما هو أمر مدبّر من ذي قبل ، فكانت حرب النهروان وقضى علي عليه السلام على زعمائهم .

واستمروا على اعتقادهم وحماسهم ، وكانوا يظنون أنهم أشد فرق المسلمين دفاعاً عنه ، وأظهروا غضبهم على كثير من الخلفاء ، واستعملوا ألفاظاً معسولة في الدعوة إلى مبادئهم ، وتظاهروا بالهدف إلى العدل والمساواة ، ولكنهم تلبسوا بالظلم إلى أبعد حد ، وأباحوا دماء جميع المسلمين ، وخضبوا البلاد الإسلامية بالدماء . وكانوا يتهورون في دعوتهم ، ويتشددون في عقيدتهم ، ويرون إباحة دماء المسلمين الذين يخالفون عقيدتهم ، فالمسلم المخالف لهم لا عصمة لدمه .

ومن طريف أخبارهم : أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم فيه . وقتلوا عبدالله بن خباب وفي عنقه مصحف ، وقالوا : إن الذي في عنقك يأمرنا أن نقتلك ، فقربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه وبقروا بطن زوجته .

وساوموا نصرانياً نخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن ، فقال لهم النصراني : ما أعجب هذا ؟

أتقتلون مثل عبدالله بن خباب ولا تقبلوا منا ثمن نخلة ؟ ! .

آراء الخوارج وفرقهم :

اتفق جمهور الخوارج على نظريتين :

١ – نظرية الخلافة : وهي أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح من

المسلمين ، ويستمر الخليفة ما قام بالعدل مبتعداً عن الزيغ والخطأ ، فإن حاد وجب عزله أو قتله .

٢ – إن العدل جزء من الإيمان ، وليس الإيمان الاعتقاد وحده ، فمن لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو عندهم كافر . ولم يفرقوا بين ذنب يرتكب عن قصد وسوء نية وخطأ في الرأي والاجتهاد يؤدي إلى مخالفة الصواب ، وبهذا كفروا جميع فرق المسلمين وأباحوا دماءهم .

والخوارج لا يرون أن يختص الخليفة ببيت من العرب ، فليست الخلافة في قريش عندهم ، وليست لعربي دون أعجمي ، والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة من غير قريش ليسهل عزله أو قتله .

وبهذا استمالوا العناصر غير العربية ، وجلبوا الموالي إليهم ، لأن آراء الخوارج من شأنها أن تجعل للموالي الحق في أن يكونوا خلفاء ، لذلك التحق بهم عدد كثير من الموالي ، ولولا تعصب بعض الخوارج عليهم لازداد عددهم ، لأن هذه الآراء تفسح المجال لتدخل الدخلاء في الإسلام ، ومع ذلك فقد تكونت فرقة منهم انضمت لفرقة الخوارج ، وهم اليزيدية اتباع يزيد بن أنيسة الخارجي ، وادّعوا أن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتاباً ينسخ الشريعة المحمدية . وكذلك تكونت فرقة الميمونية ، اتباع ميمون العجردي ؛ وأظهروا عقائد المجوس ، فكانوا يبيحون نكاح بنات الأولاد وبنات اولاد الأخوة ، وبنات أولاد الأخوات .

فرق الخوارج :

ذُكر للخوارج فرق كثيرة قاربت العشرين فرقة على حسب اختلافهم في الآراء ، وأهم فرقهم المشهورة :

الأزارقة :

وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وكان من أكبر فقهائهم . وقد كفّر جميع المسلمين . وقال : إنه لا يحل لأحد من أصحابه أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم إلى الصلاة ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزوجوا منهم ، ولا يتوارث الخارجي وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان ، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف . ودارهم دار حرب ، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم ، ولا تحل التقية ، واستحل الغدر بمن خالفه .

وأسقطوا الرجم عن الزاني إذ ليس له في القرآن ذكر ، كما أسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال ، مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء . وقالوا : يجوز أن يبعث الله نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته ، أو كان كافراً قبل البعثة .

وكان أصحاب نافع من أقوى فرق الخوارج وأكثرهم عدداً ، خرجوا من البصرة معه ، فتغلبوا على الأهواز وما وراءها من بلدان فارس وكرمان ، وقتلوا عمال تلك النواحي واشتدت شوكتهم ووقعت حروب بينهم وبين الدولة الأموية بما لا يسع المجال لذكرها .

النجدات :

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي . وهم الذين خالفوا نافعاً وانفردوا بتعاليم منها : إن المخطىء بعد أن يجتهد معذور ، وإن الدين أمران : معرفة الله ، ومعرفة رسوله ، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة ، ومن أدّاه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور . وأن من كذب كذبة صغيرة أو كبيرة أو نظر نظرة وأصرّ عليهما فهو مشرك . ومن شرب الخمر أو زنا أو سرق غير مصر على ذلك ، فهومسلم . ويوجبون قتل من خالفهم من المسلمين .

الأباضية :

وهم أتباع عبدالله بن أباض التميمي ، الذي خرج أيام مروان الحمار . آخر ملوك بني أمية ، ولا يزال أتباعه إلى اليوم في المغرب ، ولعلهم هم البقية من جميع فرق الخوارج الكثيرة . فقد انقرضت تلك الفرق ولم تبق منهم باقية الا الأباضية ، وهم على عقيدتهم في تكفير جميع المسلمين ، ويعتذرون عنهم بأنهم يذهبون إلى تكفيرهم لا على سبيل الشرك ، بل يرون أنهم كفار نعمة .

ومن جملة آرائهم : أن دماء مخالفيهم حرام في السرّ لا في العلانية ، ودارهم دار توحيد . وإنهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ، ويسمونهم كفاراً ، ولا يحل من غنائمهم في الحرب إلا الخيل والسلاح .

ولا يزال الأباضيون يؤلفون جماعات عديدة في أفريقية الشمالية ، ويوجد فريق آخر بزنجبار بأفريقية الشرقية . أما الوطن الأصلي للأباضيين الذين يهاجرون إلى أفريقية الشرقية فهو بلاد عُمان العربية .

وقد حاولوا في السنوات الأخيرة أن يستنهضوا همتهم ونشاطهم وأن يستعيدوا الشعور بكيانهم . وتقسم الأباضية ذاتها إلى ثلاثة شعب هي الحفصية ، والحارثية ، واليزيدية .

الصُفرية :

وهم أتباع زياد بن الأصفر ، وقولهم في الجملة كقول الازارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون ، لكنهم أقل تطرفاً منهم ، وأشد من غيرهم ؛ فلا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم ، والأزارقة يرون ذلك . واختلفوا في مرتكب الكبائر فلم يتفقوا على إشراكه ، فمنهم من يرى أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلا بالاسم الموضوع له ، وسماه الله به كالسارق والزاني ، وما ليس فيه حد فمرتكبه كافر .

ومن زعماء الصفرية : أبو هلال مرداس ، الذي خرج أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة ، على عبيد الله بن زياد .

ومنهم : عمران بن حطان ، وقد انتخبه الخوارج إماماً لهم ، وهو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي :

يا ضربة من منيب ما أراد بها — إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه — أوفى البرية عند الله ميزانا

وأجابه جماعة ، منهم عبد القادر البغدادي المتوفى ٤٢٩ هـ:

يا ضربة من كفور ما استفادبها — إلا الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه ديناً وألعن من — يرجو له أبداً عفواً وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم — أخفهم عند رب الناس ميزانا

وعمران بن حطان قد خرّج حديثه البخاري ووثقه ، وهذا من مزايا صحيحه وامتيازه .

العجاردة :

وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد ، وكانت العجاردة مفترقة عشرة فرق ، ثم افترقوا فرقاً كثيرة ، منها ما يتعلق بالقدر وقدرة العبد ، ومنها ما يتعلق بأطفال المخالفين . وقد فارقوا الأزارقة في عدم استحلال أموال مخالفيهم .

هذا جملة القول في أهم الخوارج . وقد بلغت فرقهم عشرين في العدد وكل فرقة تخالف الأخرى في تعاليمها وآرائها ، إلا أنهم اتفقوا على النظريتين

السابقتين . كما أجمعوا على تكفير علي ، وعثمان ، وأصحاب الجمل ، والحكمين ومن رضي بالتحكيم ، وصوّب الحكمين أو أحدهما ، واعترفوا بصحة خلافة الشيخين ، وبهذا قد اكتسبوا الرضا من أكثر من كتب عن الفرق ، فإنك تجد اللهجة خفيفة في التعبير عنهم ، وربما وصفوا زعماءهم بالزهد والصلاح .

فالخوارج — مع عظيم إجرامهم — لا يوصفون بما وصفوا به الشيعة ، فهم يكفرون علياً ، ولكن لا يعد هذا جرماً في نظر المتطرفين . فلم يعبروا عنهم كما يعبرون عن الشيعة بتلك العبارات القبيحة ، والألفاظ المستهجنة وهم يوالون علياً ويذهبون لأحقيته بالخلافة .

وبدون شك أن حركة الخوارج كانت من أكبر العوامل التي هددت المسلمين بأخطار شتّى ، وقد اتخذوا تكفير جميع فرق المسلمين وسيلة لنشاط دعوتهم ، لأن ارتكاب الجرائم — بمبرر — يميل إليه أهل الشغب والأهواء .

ولو لم يكن من مبدئهم وجوب الخروج على أئمة الجور لاستخدمتهم سياسة تلك العصور ، ولعززت جانبهم للفتك بمن يريدون الفتك به .

ولكن ذلك الاعتقاد — وهو وجوب الخروج — هو الذي أوجب أن تقاومهم السلطة ، فتدور رحى الحرب معهم مدة من الزمن ، وقد سجل التاريخ عنها حوادث كثيرة .

المعتزلة :

يطول بنا الحديث عن المعتزلة إن أردنا بيان فرقها ، وأسباب افتراقها وآرائها السياسية والدينية ، ونشاطها الفكري ، وحياتها العقلية . وقد اختلف في تاريخ نشأتها ، وتسميتها بهذا الاسم ، فهل كانت على عهد الصحابة أم على عهد الحسن البصري ، لاعتزال واصل بن عطاء حلقة درس الحسن ؟ إلى كثير من الأبحاث حول هذه الفرقة . ونحن نكتفي بإلمامة موجزة لبيان الغرض في ذلك :

الأكثر على أن الاعتزال نشأ في البصرة ، عندما اعتزل واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ ، حلقة درس الحسن البصري ، لمخالفته إياه في مسألة مرتكب الكبيرة ، فقال واصل : أنا أقول إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، أي أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار بفسقه .

فرق المعتزلة :

قال الخياط في كتاب الانتصار : ليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتّى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا كملت في الإنسان هذه الأصول الخمس فهو معتزلي .

وافترقت المعتزلة إلى فرق كثيرة ، منهم :

١ — الواصلية وهم أصحاب واصل بن عطاء .
٢ — الهذيلية وهم أصحاب أبي الهذيل العلاف .
٣ — النظامية « « النظام ابراهيم بن سيار .
٤ — الحائطية « « أحمد بن حائط .
٥ — البشرية « « بشر بن المعتمر .
٦ — المعمرية « « معمر بن عباد السلمي .
٧ — المزدارية « « عيسى ، المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار .
٨ — الثمامية « « ثمامة بن أشرف النمري .
٩ — الهشامية « « هشام بن عمر الفوطي .
١٠ — الجاحظية « « عمرو بن بحر الجاحظ .
١١ — الخياطية « « أبي الحسين الخياط .
١٢ — الجبائية « « أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي .

وغيرهم .

كما هو مذكور في كتب أهل المقالات والفرق ، وقد ذكروا لهم أقوالا شاذة وآراء فاسدة . وقد ألف الأشعري كتاباً في تكفير النظام .

ويتفق المعتزلة في الاعتقاد بأن الله تعالى قديم . والقدم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا : هو عالم لذاته . قادر لذاته ، حي لذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ومعاني قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم — الذي هو أخص الوصف — لشاركته في الالهية .

واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل . وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه ، فأينما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال.

واتفقوا على أن الإرادة ، والسمع ، والبصر ، ليست معاني قائمة بذاته .

واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله — خيرها وشرها — مستحق على

ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب منزه أن يضاف إليه شر وظلم .
واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد . وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً .

واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل ، ومعنى آخر وراء الثواب . وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، ويكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا النمط عدلا ووعيداً .

واتفقوا على أصول المعرفة وشكر النعمة واجبان قبل ورود السمع . والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل ، واعتناق الحسن واجب ، واجتناب القبيح واجب كذلك . وورود التكاليف ألطاف للباري تعالى ، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء امتحاناً واختباراً .

واختلفوا في الإمامة والقول فيها — نصاً واختباراً — كما هو بين في مقالاتهم وآراء فرقهم .

ولسنا هنا بصدد الاشتغال بتفصيل أقوالهم وآرائهم . وإن أهم غرض هو معرفتهم بموجز من القول ، لأن المعتزلة كونوا جواً فكرياً ، وبرعوا في علم الكلام ، وكانت الخصومة شديدة بينهم وبين رجال الشيعة ، الذين اشتهروا في هذا العلم ؛ كما أن النزاع بينهم وبين الأشاعرة والمجسمة بلغ إلى درجة الخروج عن حدود القول ، وتعدى إلى التهريج والاعتداء ، كما هو المذكور في تاريخ عصورهم .

المرجئة وفرقهم :

وهم الذين يبالغون في إثبات الوعد ، وهم عكس المعتزلة المبالغين في إثبات الوعيد ، فهم يرجون المغفرة والثواب لأهل المعاصي ، ويرجئون حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة ، فلا يحكمون عليهم بكفر ولا فسق ويقولون : إن الإيمان إنما هو التصديق بالقلب واللسان فحسب ، وإنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فالإيمان عندهم منفصل عن العمل . ومنهم من زعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب ؛ وإن أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية ، وعبد الصليب ، وأعلن التثليث في دار

الإسلام ، ومات على ذلك ، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله ، وهو ولي الله ، ومن أهل الجنة ، ذكر ذلك ابن حزم .

وكلمة الارجاء على مغنيين :

أحدهما : التأخير مثل قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه » أي أمهله وأخّره.

ثانيهما : إعطاء الرجاء ، أما إطلاق اسم — المرجئة — على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح . لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد ، وأما بالمعنى الثاني فظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

ولقد اضطربت الأقوال حول نشأة هذه الفرقة وبدء تكوينها ، ولم نستطع بهذه العجالة تحديد ذلك على وجه التحقيق .

ويقول النوبختي : ولما قتل علي عليه السلام بسيف ابن ملجم المرادي اتفقت بقية الناكثين والقاسطين وتبعة الدنيا على معاوية فسموا المرجئة، وزعموا أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان ، ويرجون لهم جميعاً المغفرة .

وفي الواقع أن هذه الفرقة سياسية ، ولكنها أخذت تخلط بالسياسة أصول الدين ، فهم أعوان الأمراء والمنضوون تحت لوائهم ، يؤيدون دولتهم مع ارتكابهم المحارم ، وانغماسهم بالجرائم .

وقد فسح هذا المبدأ للمفسدين والمستهترين طريق الوصول إلى غاياتهم بما يرضي نهمهم ، وقد اتخذوه ذريعة لمآثمهم ، ومبرراً لأعمالهم القبيحة ، وساتراً لأغراضهم الفاسدة .

وقد أيدوا — برأيهم هذا — خلفاء الدولة الأموية ، تأييداً عملياً ، فهم في الواقع قد فتحوا باب الجرأة على ارتكاب المحارم ، وأيدوا المجرمين ، ووازروا الظلمة ، وهوّنوا الخطب في العقاب والمؤاخذة .

وافترقت المرجئة إلى خمسة فرق — كل فرقة تضلل أختها — وهم :

(١) اليونسية — أصحاب يونس النميري .

(٢) العبيدية — أصحاب عبيد بن مهران الكوفي .

(٣) الغسانية — أصحاب غسان الكوفي ، وهو غير غسان بن أبان المحدث كما توهم بعضهم ، فإن غسان بن أبان يماني وهذا كوفي .

(٤) الثوبانية — أصحاب أبي ثوبان المرجيء .

(٥) التومنية — أصحاب أبي معاذ التومني .

ولكل فرقة أقوال وآراء ، ذكرها المؤلفون في الفرق ، ولا يتسع المجال بهذا العرض للتعرض لذكرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجبرية :

الجبر هو نفي الفعل عن العبد حقيقة ، وإضافته إلى الربّ حقيقة ، وزعمت هذه الفرقة : أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، وليس له مما ينسب إليه من الأفعال شيء ، فقوام هذا المذهب نفي الفعل عن العبد وإضـ إلى الرب تعالى .

وقد اختلفت الأقوال في نشأة هذه الفرقة ، ومن هو القائل بها أولا ؟ فقيل : إن أول من قام بهذه النحلة رجل يهودي ، وقيل الجعد بن درهم ، أخذها عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت بن أعصم اليهودي . فهي على هذا فكرة يهودية ، وقد ضل بها خلق كثير .

وبهذا المذهب لا يكون للإنسان كسب ولا إرادة ولا اختيار ولا تصرف ، فيما وهبه الله من نعمة العقل على حسبه ، فكيف يكون له مطمع في ثواب أو خوف من عقاب ؟

وقد انتشر هذا المبدأ ومبدأ المفوضة : وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين ، ورفعوا عنها قدرة الله وقضاءه ، عكس المجبرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى ، وأنه أجبر الناس على فعل المعاصي ، وأجبرهم على فعل الطاعات ، وأن أفعالهم في الحقيقة أفعاله ، فكان أثر هاتين الفكرتين سيئاً في المجتمع الإسلامي ، فتصدى الإمام الصادق عليه السلام لردّ هؤلاء ، وأعلن العقيدة الصحيحة والرأي السديد في التوسط بين الأمرين فقال عليه السلام :

(لا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين) وخلاصته : أن أفعالنا من جهة ، هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا ، ومن جهة أخرى ، هي مقدورة لله تعالى ، وداخلة في سلطانه ، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي ، لأن لنا القدرة على الاختيار فيما نفعل ، ولم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه ، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد .

واعتقاد الشيعة في ذلك وسط بين المذهبين ، كما بينه أئمة الهدى ، ودلت عليه كلمة الإمام الصادق المشهورة .

وبالجملة ، فإن عصر الإمام الصادق عليه السلام كان عصر مجادلات ونظر ، واتسعت فيه دائرة الخلاف ، وقد رأينا موقفه في مقابلتهم ، وردع أهل الآراء الفاسدة والعقائد المخالفة للاسلام . وقام خلّص أصحابه وأعيانهم بقسط وافر من ذلك النضال دون تعاليم الإسلام الصحيحة . وقد مرت بعض مناظراتهم كما احتفظ التاريخ بقليل منها .

وقبل أن نتخطى موضوع البحث عن الفرق ، يلزمنا ذكر ما يتصل بالبحث ، وتوضيح بعض الأمور التي لها صلة بالموضوع :

نسبة ابي حنيفة إلى المرجئة :

ذكر أصحاب المقالات : أن أبا حنيفة كان من المرجئة ، وحكى عنه غسان الكوفي الذي تنسب إليه الفرقة الغسانية : أنه كان على مذهبه ، ويعدّه من المرجئة ، لأن أبا حنيفة كان يذهب إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

قال وكيع : سمعت الثوري يقول : نحن المؤمنون ، وأهل القبلة عندنا مؤمنون في المناكحات ، والمواريث ، والصلاة ، والإقرار . ولنا ذنوب ولا ندري ما حالنا عند الله ؟ . قال وكيع : وقال أبو حنيفة : من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاك ، نحن المؤمنون هنا وعند الله حقاً . قال وكيع : ونحن نقول بقول سفيان . وقول أبي حنيفة عندنا جرأة .

وعلى هذا فإن أبا حنيفة كان يذهب إلى أن العمل ليس جزءاً من الإيمان . وخالفه كثير من الفقهاء والمحدثين ، الذين يرون أن العمل يدخل في تكوين الإيمان ، من حيث تأثيره فيه بالزيادة والنقصان ، وأبو حنيفة يرى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهو يعتبر أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحدٌ ، كما تنص على ذلك الرواية عنه أنه قال :

« إيمان أهل الأرض وأهل السماوات واحد ، وإيمان الأولين والآخرين والأنبياء واحد ، لأنا كلنا آمنا بالله وحده ، وصدقناه ، والفرائض كثيرة مختلفة ، وكذا الكفر واحد ، وصفات الكفار كثيرة وكلنا آمنا بما آمن به الرسل الخ ... » (١) .

ويروى عنه غير هذا ، كما حدث أبو اسحاق الفزاري أنه سمع أبا حنيفة يقول : إيمان أبي بكر الصديق وإيمان إبليس واحد ، قال إبليس : يا رب . وقال أبو بكر الصديق : يا رب .

قال أبو إسحاق: ومن كان من المرجئة ثم لم يقل هذا انكسر عليه قوله (٢). وكذلك يحكى عنه في مساواة إيمان آدم وإيمان إبليس .

---

(١) انظر مناقب ابي حنيفة لكردري ج ٢ ص ١٤١ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٧٣ .

ويقول محمد بن عمرو : سمعت أبا مسهر يقول : كان أبو حنيفة رأس المرجئة .

وقال عمر بن سعيد بن سالم : سمعت جدي يقول · قلت لأبي يوسف : أكان أبو حنيفة مرجئاً ؟ قال : نعم .

قلت : أكان جهمياً ؟ قال : نعم .

قلت : فأين أنت منه ؟

قال : إنما كان أبو حنيفة مدرساً . فما كان من قوله حسناً قبلناه وما كان قبيحاً تركناه . ومثله عن محمد بن سعيد عن أبيه (١) .

وكانت هذه التهمة وسيلة للتشنيع على أبي حنيفة ، وناله كثير من العلماء بالطعن وخالفوه في مسألة الإيمان . وقد جاء عن أبي حنيفة (٢) ما يبين الفرق بين مذهبه ومذهب المرجئة الذين أهملوا ناحية العمل بالطاعة ، وعدم ادخالها بالحساب .

تقولات حول فرق الشيعة

إن موضوع البحث عن الفرق وتعددها موضوع مضطرب شائك ، ولا يستطيع الكاتب أن يجزم بكل ما نقله أهل المقالات ، لأنهم قد أفرطوا إلى أبعد حد ، وتقبلوا كل نسبة على حسب مفهومها السطحي بدون تثبت وتأمل . وقد تعصب أكثرهم على من يخالف رأيه ، فينقل عنهم آراء على غير وجهها ولا يصح قول مخالف ما لم يؤيد بثبوته من غير طريقه . وإن هناك آراء فردية نسبوها لجماعة لا وجود لها ، وقد تعصب أكثر الكتاب في الموضوع ، فنقلوا المذاهب على خلاف الواقع ، وأكثرهم قد افتعل فرقاً خيالية كقولهم في عدّ فرق الشيعة : إن منهم الهشامية وهم فرقتان : فرقة تنسب إلى هشام بن الحكم والأخرى تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقي ، ونسبوا إليهما آراء خاطئة ، وأقوالاً كاذبة .

وكذلك جعلوا من فرق الشيعة فرقة الزرارية ، نسبة إلى زرارة بن أعين والشيطانية نسبة إلى شيطان الطاق ، وهو محمد بن النعمان المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق . وكل هذا من الأمور المرتجلة التي لا حقيقة لها ، وإنما هي افتعال

(١) المصدر السابق ص ٣٧٥ .
(٢) الفقه الاكبر ص ٩

وتقول بالباطل ، إذ الشيعة تستمد من مصدر واحد ، وتستقي من ينبوع أهل البيت .

وأوضح شيء من هذا الشذوذ هو إجماعهم على وجود فرقة السبائية المنسوبة لعبد الله بن سبأ ، تلك الشخصية الموهومة ، وقضيته أسطورة سياسية .

والشيء الذي يلزمنا التنبيه عليه : هو متابعة بعض المؤلفين لبعض ، فإن الشهرستاني قد كتب في الفرق ، معتمداً على عبد القاهر البغدادي ، والاسفرائيني كان تلميذ عبد القاهر وصهره ؛ وعبارتهما في التعبير واحدة . أما ابن حزم فذاك فارس ميدان التعصب والتقول على الشيعة .

قال الرازي في مناظرته مع أهل ما وراء النهر ، في المسألة العاشرة عند ذكره لكتاب الملل والنحل : إنه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه ، إلا أنه غير معتمد عليه ، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى بالفرق بين الفرق ، من تصانيف الأستاذ أبي منصور البغدادي ، وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين ، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الصحيح . ثم إن الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب فلهذا السبب وقع الخلل فيه .

وعلى أي حال ، فإن موضوع الفرق يحتاج إلى دقة في البحث وتأمل في سير الحوادث والتطور . وهو إلى الآن لم ينل دراسة عادلة ، وخوضاً دقيقاً وغربلة وتمحيصاً ، فإن حصر الفرق الإسلامية بهذا العدد غير وجيه ، والحديث الذي يشير إلى تعددها فيه مناقشة من حيث الدلالة والسند ، لاختلاف ألفاظه وإن كثرت طرقه . وعسى أن ينال هذا الموضوع دراسة دقيقة لإخراج الزوائد ، وإيضاح دسائس المغرضين ، وبيان خطأ المؤرخين في ذلك .

ومن الغريب أن ينفرد الدكتور أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام ، بعدّ القرامطة والزنج من فرق الشيعة ! بل لا غرابة في تجاوز الدكتور وتحديه للشيعة ، فقد برهن على تعصبه الشائن وتجاهله المعيب ، إذ هو كما يقول الشاعر :

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا   شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

ويؤلمني أن أقول : إن الدكتور يفقد توازنه عندما يتناول الشيعة بالبحث كما يتجرد عن جميع معلوماته ، ويتخلى عن تفكيره وإدراكه ، وكان بوسعه أن يدقق ويبحث كأديب أو مؤرخ ، ولكنه مقلد للمستشرقين الذين يتقولون على المسلمين ويثيرون الفتن ويفتعلون الأقاويل .

كما كان بوسعه أن يتثبت وأن يقارن بين عقائد الشيعة وعقائد القرامطة والزنوج ، إن وجد مصدراً يذكر ذلك .

حول فرق الغلاة :

تركنا البحث هنا عن فرق الغلاة ، اكتفاءً بما مرّ في الأجزاء السابقة ، وسيأتي في الجزء الرابع مزيد بيان . وقد ذكرنا هناك أن حركتهم كانت ضد الإسلام بصورة عامة ، وضد أهل البيت بصورة خاصة ، لأن انتحالهم حب أهل البيت يفتح لخصومهم طريق الوقيعة في أتباعهم ، وقد وقع ذلك بدون التفات إلى التباين بين تعاليم أهل البيت وبين ما يذهب إليه الغلاة .

وكما قلت سابقاً : إن الكوفة قد عرفت بالتشيع ، وهي تموج بعناصر مختلفة لكثرة المهاجرين إليها ، من المدن المجاورة لها والنائية عنها ، وذلك عند اتساع نشاط الحركة العلمية ، فكانت جماعة المتدخلين في الإسلام يبثون سمومهم في ذلك المجتمع ، وتناقل الناس مع مساعدة السلطة تلك الأخبار فتنسب للكوفة ، والكوفة شيعية .

وقد أعلن الإمام الصادق براءته منهم ، وجهر بلعنهم ، وقد دخل الكوفة عدة مرات ينشر تعاليم الإسلام الصحيحة ، ويظهر للملأ فساد عقائد الغلاة وواصل كفاحه في مقابلتهم حتى بادت جماعتهم بتلك السرعة ، وقبرها في مقرها الأخير ، ولم يبق لهم أثر إلا في بطون الكتب .

وأبت نفوس من يضربون على وتر سياسة تلك العصور ، ويترنحون بنغمات الهجاء والطعن على شيعة أهل البيت ، إلا أن يقيموا تلك الرمم البالية ، ويخرجوا تلك الجيف النتنة لتكون عاراً على الإسلام ، ومنظراً بشعاً ، يدل عليه من لا يود إظهار محاسنه للأجيال انتصاراً لدينهم ، وانتقاماً لأسلافهم « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار » .



الإمام الصَّادق
وصَايَاه وَحِكمه

تمهيد :

للإمام الصادق عليه السلام من التراث الفكري والفكر الخوالد ، والآراء والحكم والمواعظ مالا يحيط بها الإحصاء ، أو تنالها يد الحصر والتتبع إلا بجهد ومشقة . وهي على كثرتها قليلة بالنسبة إليه ، لما قام به من التوجيه والإرشاد والهداية في عصر ضلت به قافلة الأمة ، وحدا بالركب غير سائقة ، فقام عليه السلام بما يجب عليه أن يقوم به من الإرشاد والدعوة إلى الصلاح والإصلاح ، يلتمس كل ما يجد فيه طريقاً للوصول إلى الغاية التي ينشدها ، فهو حيث كان وأينما حل لا ينفك عن تأدية رسالته في الإرشاد إلى الهدى ، والدعوة إلى الحق ، ويحاول أن ينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته ، ويهذب نفوسهم من دنس الرذائل ويحملهم على اعتناق الفضائل ، ويود للمسلم أن يكون كما أراد الله له وجاء به النبي صلى الله عليه وآله .

فهو حريص على هداية الأمة ، يواصل جهاده في مكافحة الأوضاع الشاذة ، ويعلن آراءه ضد نظام ذلك الحكم الجائر . ولقد كان عليه السلام دوماً صوت إصلاح داوي ، وصرخة إرشاد عالية ، يدعو الناس إلى التمسك بمبادىء الإسلام وهدى القرآن ، وقد عرف أوضاع الأمة ، وما أصابها من تفكك وهوان ، ورأى أن الداء وراء تحكم النزعات في النفوس ، وأن الدواء هو التزام مبادىء وأحكام الدين ، وأن رسوخ العقيدة في القلوب قوة لأفراد الأمة ، ومنعة لكيان المجتمع من تحكم النزعات ، وانتشار الرذيلة ، كما أنها سلاح فاتك يرهب ولاة الجور ، فكان عليه السلام لا تفوته فرصة دون أن يدعو إلى اعتناق الفضائل ومحاربة الرذيلة ، ليصبح المجتمع متماسكاً يستطيع أن يوحد كلمته في مقابلة الظالمين ، الذين استبدوا بالحكم ، وابتعدوا عن الإسلام. وإن الثورة الدموية ضدهم لا تعود على المجتمع إلا بالضرر ، لأنهم أناس عرفوا بالقسوة وسوء الانتقام ، ولهم أعوان يشدون أزرهم ، وأنصار يدافعون دونهم ، فالإمام الصادق عليه السلام كان يهتم بإصلاح الوضع الداخلي . فكان يرسل وصاياه عامة شاملة ، وينطق بالحكمة عن إخلاص وصفاء نفس ، وحب للصالح العام ليعالج المشاكل الإجتماعية . وكان يدعو الناس إلى الورع عن محارم الله والخوف منه تعالى والامتثال لأوامره ، والشعور

بالمسؤولية أمام الله تعالى ، وجعل يوم الحساب ماثلا أمام أعينهم ، مع حثهم على التكسب وطلب الرزق كما كان يحث على العمل ويعمل بنفسه ، وينهي عن الكسل والبطالة . ويأمر بطلب الرزق كما أمر الله تعالى .

يحدثنا العلاء بن كامل : أنه جاء إلى الإمام الصادق عليه‌السلام فقال له : يا أبا عبدالله ادع الله أن يرزقني في دعة .

فقال عليه‌السلام : لا أدعو لك ، أطلب كما أمرك الله ورسوله .

وعلى أي حال فإن حكم الإمام ووصاياه « تشرق على وجه الزمان إلى آخر الزمان » وقد ذكرنا في الجزء الثاني طرفاً منها ، ونحن هنا نذكر بعض ما لم نذكره في ذلك الجزء من تلك الوصايا القيمة ، والحكم الخالدة ، سواء كانت عامة شاملة يرسلها إلى الأطراف النائية ، أم كانت وصايا خاصة لبعض الأفراد ، وهي كالأولى في عمومها وشمولها ، وإليك طرفاً من ذلك .

وصية عامة إلى جميع اصحابه :

صبّروا النفس على البلاء في الدنيا ، فإن تتابع البلاء فيها ، والشدة في طاعة الله وولايته ، وولاية من أمر بولايته ، خير عاقبة عند الله في الآخرة ، من ملك الدنيا وإن طال تتابع نعيمها ، وزهرتها وغضارة عيشها في معصية الله ، وولاية من نهى الله عن ولايته وطاعته ، فإن الله أمر بولاية الأئمة الذين سماهم في كتابه بقوله : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » ...

إن الله أتم لكم ما آتاكم من الخير . واعلموا أنه ليس من علم الله ولا من أمره أن يأخذ أحد من خلق في دينه بهوى ولا رأي ولا مقاييس ، قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كل شيء ، وجعل للقرآن وتعلم القرآن أهلاً ، لا يسع أهل علم القرآن — الذين آتاهم الله علمه — أن يأخذوا فيه بهوى ولا رأي ولا مقاييس ، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه وخصهم به ، ووضعه عندهم ، وكرامة من الله أكرمهم بها . وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الأمة بسؤالهم ...

أكثروا ذكر الله ما استطعتم في ساعة من ساعات الليل والنهار ، فإن الله تعالى أمر بكثرة الذكر له ، والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين .

واعلموا أن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير ، فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته ، فإن الله لا يدرك شيء من الخير عنده إلا بطاعته ، واجتناب محارمه .

واتبعوا آثار رسول الله وسنته فخذوا بها ، ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم فتضلوا ، فإن أضل الناس عندالله من اتبع هواه ورأيه بغير هدى من الله .

وأحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم ، فإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها .

وجاملوا الناس ولا تحملوهم على رقابكم ، وإياكم وسب أعداء الله — حيث يسمعونكم — فيسبوا الله عدواً بغير علم .

واعلموا أنه لن يؤمن عبد من عبيده حتى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه ، وصنع به على ما أحب وكره .

وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين كما أمر الله المؤمنين في كتابه من قبلكم .

وعليكم بحب المساكين المسلمين ، فإن من حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله ، والله له حاقر وماقت . وقد قال أبونا رسول الله ﷺ : « أمرني ربي بحب المساكين المسلمين منهم » .

واعلموا أنه من حقر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه حتى يمقته الناس ، والله له أشد مقتاً ، فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين المساكين منهم ، فإن لهم عليكم حقاً أن تحبوهم ، فإن الله أمر نبيه ﷺ بحبهم ، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله ، ومن مات على ذلك مات من الغاوين .

وإياكم والعظمة والكبر ، فإن الكبر رداء الله تعالى ، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة .

وإياكم أن يبغي بعضكم على بعض ، فإنها ليست من خصال الصالحين ، فإنه من بغى صيّر الله بغيه على نفسه ، وصارت نصرة الله لمن بُغي عليه ، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله .

وإياكم أن يحسد بعضكم بعضاً ، فإن الكفر أصله الحسد .

وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم ، فيدعو الله عليكم فيستجاب له فيكم ، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول : « إن دعوة المظلوم مستجابة » .

وليعن بعضكم بعضاً ، فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول : « إن معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام » .

وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول : « ليس لمسلم أن يعسر مسلماً ، ومن أنظر معسراً أظله الله يوم القيامة بظله ، يوم لا ظل إلا ظله » .

واعلموا أنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا من دون ذلك كلهم ، إلا طاعتهم له ، فجدوا في طاعة الله ، إن سركم أن تكونوا مؤمنين حقاً حقاً ، ولا قوة إلا بالله .

وإياكم ومعاصي الله أن تركبوها ، فإنه من انتهك معاصي الله فركبها ، فقد أبلغ في الإساءة إلى نفسه ، وليس بين الإحسان والإساءة منزلة ، فلأهل الإحسان عند ربهم الجنة ، ولأهل الإساءة عند ربهم النار ، فاعملوا بطاعة الله ، واجتنبوا معاصيه واعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا من دون ذلك ، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين فليطلب إلى الله أن يرضى عنه .

وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء مما حرم الله عليكم ، فإنه من انتهك ما حرم الله عليه ههنا ــ في الدنيا ــ حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها ، ولذّاتها وكرامتها الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين .

واعلموا أنه بئس الحظ الخطر لمن خاطر بترك طاعة الله ، وركب معصيته ، فاختار أن ينتهك محارم الله ، في لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها ، على خلود نعيم في الجنة ولذاتها ، وكرامة أهلها ، ويل لأولئك ، ما أخيب حظهم ، وأخسر كرّتهم وأسوأ حالهم عند ربهم يوم القيامة ، استجيروا الله أن يجيركم في مثالهم أبداً وأن يبتليكم بما ابتلاهم به ولا قوة لنا ولكم إلا به .

فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام ، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك ، وأن يجعل منقلبكم منقلب الصالحين ولا قوة إلا بالله ، والحمد لله رب العالمين (١) .

وصيته لعنوان البصري :

وعنوان هو شيخ بصري قدم المدينة لطلب العلم اتصل بمالك بن أنس ثم اتصل بالإمام الصادق ، فقال له الإمام : إذا أردت العلم فاطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية .

قال عنوان البصري : فقلت : ما حقيقة العبودية ؟

فقال الإمام الصادق : ثلاثة أشياء : أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله

(١) روضة الكافي ٣٩٧ ــ ٤٠٨ .

ملكاً لأن العبيد لا يكون لهم ملك ، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله ، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً ، وجملة اشتغاله هي فيما أمره الله به ونهاه عنه ، وإذا لم ير العبد فيما خوله الله ملكاً هان عليه الانفاق فيما أمره الله ، وإذا فرض تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا ، وإذا اشتغل بما أمره الله به ونهاه عنه لا يتفرغ إلى المراء والمباهاة مع الناس ، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا ، فلا يطلبها تفاخراً وتكاثراً ، ولا يطلب عند الناس عزاً وعلواً ، ولا يدع أيامه باطلة ، فهذا أول درجة المتقين ، قال الله تعالى : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

فقال عنوان : يا أبا عبد الله أوصني . فقال :

أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله ، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها : ثلاثة منها في رياضة النفس ، وثلاثة منها في الحلم ، وثلاثة منها في العلم ، فاحفظها وإياك والتهاون بها .

أما اللواتي في الرياضة : فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحمق والبله ، ولا تأكل إلا عند الجوع ، فإذا أكلت فكل حلالاً وسم الله تعالى ، واذكر حديث النبي ﷺ « ما ملأ آدمي وعاءً أشد شراً من بطنه ، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

وأما اللواتي في الحلم : فمن قال لك : إن قلت واحدة سمعت عشراً ، فقل له : إن قلت عشراً لم تسمع واحدة ، ومن شتمك فقل له : إن كنت صادقاً فيما تقوله فأسأل الله أن يغفر لي ، وإن كنت كاذباً فاسأل الله أن يغفر لك ، ومن وعدك بالخيانة فعده بالنصيحة والوفاء .

وأما اللواتي في العلم : فاسأل العلماء ما جهلت ، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة وإياك أن تعدل بذلك شيئاً ، وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلاً ، واهرب من الفتيا فرارك من الأسد ، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً (١) .

وصيته عليه السلام لعمرو بن سعيد :

قال عمرو بن سعيد بن هلال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : إني لا أكاد ألقاك إلا في السنين فأوصني بشيء آخذ به ، قال عليه السلام :

(١) الامام الصادق للمظفر ج ٢ ص ٥٨ — ٦١

أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ، والورع والاجتهاد ، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع معه ، وإياك أن تطمح نفسك إلى من فوقك ، وكفى بما قال عز وجل : « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » .

وقال عز وجل لرسوله : « ولا تمدَّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » .

فإن خفت شيئاً من ذلك فاذكر عيش رسول الله ﷺ فإنما كان قوته الشعير ، وحلواه التمر ، ووقوده السعف إذا وجده .

وإذا أُصبت بمصيبة فاذكر مصابك برسول الله ، فإن الخلق لم يصابوا بمثلـه قط .

وصيته للمفضل بن عمر :

قال عليه السلام : أوصيك ونفسي بتقوى الله وطاعته ، فإن من التقوى الطاعة والورع والتواضع لله ، والطمأنينة والاجتهاد والأخذ بأمره ، والنصيحة لرسله ، والمسارعة في مرضاته ، واجتناب ما نهى عنه ، فإن من يتق الله فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله ، وأصاب الخير كله في الدنيا والآخرة .

ومن أمر بتقوى الله فقد أفلح الموعظة ، جعلنا الله من المتقين برحمته .

وصيته لحمران بن أَعين :

قال عليه السلام : يا حمران أنظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من هو فوقك في المقدرة ، فإن ذلك أقنع لك بما قُسم لك ، وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربك .

واعلم : أن العمل الدائم القليل على اليقين ، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين .

واعلم : أن لا ورع أنفع من تجنب محارم الله ، والكف عن أذى المؤمنين واغتيابهم ، ولا عيش أهنأ من حسن الخلق ، ولا مال أنفع من القنوع باليسير المجزي ، ولا جهل أضر من العجب .

وهكذا كان الإمام الصادق عليه السلام يواصل أصحابه بوصاياه القيمة ، وتعاليمه التي تدل على شدة اهتمامه بتوجيه الدعوة إلى الرشاد وطريق الهدى .

وكان يرسل وصاياه العامة مع من يحضر عنده من أصحابه ، ويلزمهم أن يبلغوا من يلقونه من أصحابهم كقوله : أقرأوا من لقيتم من أصحابكم السلام ، وقولوا لهم : فلان بن فلان — يعني نفسه — يقرؤكم السلام ، إني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا ، فعليكم بالجد والاجتهاد .

وإذا صليتم الصبح وانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال ، فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه .

ويحدثنا زيد الشحام : قال: قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام : اقرأ من ترى أنه يطيعني منكم السلام ، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم ، والاجتهاد لله وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السجود وحسن الجوار ، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله .

أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط .

صلوا عشائركم ، واشهدوا جنائزهم ، وعودوا مرضاهم ، وأدّوا حقوقهم ، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدّى الأمانة ، وحسن خُلقه مع الناس وقيل هذا جعفري ، يسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور ، وقيل هذا أدب جعفر ، وإذا كان غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره .

ونقف عند هذا الحد من ذكر وصاياه التي كان يوجهها إلى أصحابه ، وقد ذكرنا بعضاً منها في الجزء الثاني ، ولكثرتها لا نستطيع حصرها في جزء واحد وسنواصل نشرها إن شاء الله تعالى في بقية الأجزاء .

حكمه :

* أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال : الرأفة ، والجود ، والعدل ، وليس يُحب للملوك أن يفرطوا (أي يقصروا) في ثلاث : في حفظ الثغور ، وتفقد المظالم ، واختيار الصالحين لأعمالهم .
* ثلاثة لا يعذر المرء فيها : مشاورة ناصح ، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس .
* احذر من الناس ثلاثة : الخائن ، والظلوم ، والنمام . لأنّ من خان لك خانك ، ومن ظلم لك سيظلمك ، ومن نمّ إليك سينم عليك .
* ثلاثة من تمسك بهن نال من الدنيا بغيته : من اعتصم بالله ، ورضي بقضاء الله ، وأحسن الظن بالله .

• كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب : أن يكون حاذقاً في عمله ، مؤدياً للأمانة فيه ، مستميلا لمن استعمله .

• إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء ، تعرضوا لدخول الوهن عليهم ، وشماتة الأعداء بهم ، وهي : ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيتشتت أمرهم ، والتواصل ليكون ذلك حادياً لهم على الإلفة ، والتعاون لتشملهم العزة .

• ثلاثة لا يصيبون إلا خيراً : أولو الصمت ، وتاركو الشر ، والمكثرون ذكر الله عز وجل . ورأس الحزم التواضع .

فقال له بعضهم : وما التواضع ؟ قال : أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تسلم على من لقيت ، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً .

• خذ من حسن الظن بطرف تروج به وتروح به قلبك .

• من ظهر غضبه ظهر كيده ، ومن قوي هواه ضعف عزمه ، ومن أنصف من نفسه رضي حكماً لغيره .

• العجب يكلم المحاسن ، والحسد للصديق من سقم المودة ، ولن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك .

• العز أن تذل للحق إذا ألزمك .

• من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع ، والمعارضة قبل أن يفهم ، والحكم بما لا يعلم .

• من أدب الأديب دفن أدبه .

• إن خير ما ورَّث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال ، فإن المال يذهب والأدب يبقى .

• لا تطعنوا في عيوب من أقبل إليكم بمودة ، ولا توقفوه على سيئة يخضع لها فإنها ليست من أخلاق رسول الله ﷺ ، ولا من أخلاق أوليائه .

ومن وصيته للمفضل بن عمر : أوصيك بست خصال تُبلغهن شيعتي . قال المفضل : وما هي يا سيدي ؟

قال عليه السلام أداء أمانة إلى من ائتمنك ، وأن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك. واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب ، وأن للأمور بغتات فكن على حذر ، وإياك ومرتقى جبل إذا كان المنحدر وعراً ، ولا تعدن أخاك ما ليس في يدك وفاؤه .

ومن حكمه :

العلم جُنّة . والصدق عز . والجهل ذل . وحسن الخلق مجلبة للمودة . والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس . والحزم مشكاة الظن . والله ولي من عرفه . والعاقل غفور والجاهل ختور . وإن شئت أن تكرم فلن . وإن شئت أن تهان فاخشن . ومن كرم أصله لان قلبه ، ومن خشن عنصره غلظ كبده . ومن فرّط تورّط . ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم . ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه .

* * *

ونكتفي بهذا الموجز من البيان لبعض وصايا الإمام الصادق وحكمه ، وسيأتي كثير منها في مطاوي البحث ، وإن استقصاءنا لها يستلزم وضع مؤلف كبير في ذلك ، لأنها تشتمل على أمور هامة ومواعظ نافعة تتناول كل نواحي الحياة ومشاكل عصره ، فإن الإمام الصادق عليه السلام كان يهتم بمصالح الأمة ، ويجهد في إصلاح ذلك الوضع الفاسد ، وقد بذل جهده في إيجاد قوة فعالة تتجه نحو الخير ليحيى المسلمون حياة طيبة ، ولا يحصل ذلك إلا في توثق العلاقات بينهم ، وإيجاد المحبة في قلب المسلم لأخيه المسلم في قمع غرائز الاثرة ، والابتعاد عن الرذائل واتباع « المثل العليا في الإسلام » .

وكان الإمام الصادق وحيد عصره في مختلف العلوم والفنون ، وظهرت في شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها، إذ هو رضيع ثدي الإيمان ، ووليد بيت الوحي ، ووارث علم النبي ، وحافظ لتراثه . وكانت الآمال تتركز حول شخصيته لذلك لم نجد مدرسة إسلامية تطاول مدرسته في الشهرة ، أو تماثلها في منهجها الذي سارت عليه . وقد انتشر مذهبه في أقطار الأرض — رغم تلك الحواجز التي وقفت في طريقه ، فهو بقوته القدسية قد ذلل المصاعب ، وصارع الحوادث وشق طريقه إلى التقدم .

ومهما تكن العوامل في صرف الناس عنه — فإنها لم تؤثر أثرها المطلوب . إذ العقيدة أكبر مؤثر في تكوين العقل الإنساني — رقياً وانحطاطاً — فإن الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم في المجتمع الإسلامي ، وقد منحهم النبي صلى الله عليه وآله صفة لا يشاركهم فيها أحد ، وهي الاقتران بالكتاب وعدم افتراقهما إلى آخر الزمن . فهم دعاة للخير وأئمة للهدى ، وسفن النجاة إذا طغت أمواج النفاق . وهم أكثر الناس زهداً في الحياة وفناء في الله .

وقد بذلوا نفوسهم الزكية لحفظ تعاليم الإسلام ، ولم تقف أمامهم مقاومة الأعداء . وتحملوا قسوة الطغاة وعنت الباغين ، وجور المستبدين ، انتصاراً للحق وثورة على الباطل . وامتازوا بقوة الإيمان وصدق النية ، واخلاص العمل في سبيل حفظ الإسلام ونشر تعاليمه واحياء مآثره ، وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

« فاين تذهبون وأنى تؤفكون ، والأعلام قائمة والآيات واضحة ، والمنار منصوبة ، فاين يتاه بكم بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزّمة الحق . وأعلام الدين ، وألسنة الصدق .

ويقول (ع) : انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى (١) .

ويقول الإمام الصادق (ع) :

نحن أصل كل خير ، ومن فروعنا كل بر . فمن البر — التوحيد ، والصيام وكظم الغيظ ، والعفو عن المسيء ، ورحمة الفقير ، وتعهد الجار ، والاقرار بالفضل لأهله .

وعدّونا أصل كل شر ، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة ، فمنهم الكذب ، والبخل ، والنميمة ، والقطيعة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم بغير حقه ، وتعدي الحدود التي أمر الله ، وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والزنا ، والسرقة وكل ما وافق ذلك من القبيح ، وكذب من زعم انه معنا وهو متعلق بفروع غيرنا .

وإلى هنا ينتهي بحثنا فيما شرعنا فيه حول مدرسة الإمام الصادق وحملة فقهه ، وبيان الفرق في عصره ، وبيان بعض تعاليمه من حكمه ووصاياه . وننتقل الآن مع القارىء الكريم ، إلى دراسة تتعلق بالمذاهب الأربعة . من حيث الالتزام بأخذ الأحكام الشرعية عن الأئمة الأربعة دون غيرهم ، ولا يصح العمل الا بذلك . فعلينا إذاً أن ندرس القضية ، ونقف على الأمر وهل كان هذا الالتزام أمراً شرعياً قرره الإسلام ؟ وهل أن باب الاجتهاد مغلق بعد الأئمة الأربعة ، ومتى كان هذا الالتزام ؟ وبأي تاريخ وقع ؟ وما هي أسبابه وعوامله ؟

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٥٢ .



المذاهب الأربعة
التزام وآراء

تمهيد :

إن أهم موضوع في تاريخ التشريع الإسلامي هو موضوع غلق باب الإجتهاد ، وادعاء استحالته لاحد غير أئمة المذاهب الأربعة : أبو حنيفة ومالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وأن تقليدهم لازم ، ولا يصح العمل إلا بما جاء عنهم ، وأن من المستحيل حصول ملكة الاجتهاد لاحد غيرهم حتى أن البعض يرى أن من يقلد غيرهم زنديق ، وان العمل لا يصح إلا بالأخذ عن واحد من هؤلاء الائمة ، فهم أعلم الامة وسادات الأئمة إلى غير ذلك من الإدعاءات .

وقد تقدم الكلام عن أسباب نشأة المذاهب و عوامل انتشارها ولايضاح ما لعله لم يتضح من هذا الموضوع ، نستعرض هنا لما يتعلق فيه من بيان تاريخ الالتزام ، بالأخذ عن الأئمة الأربعة ، وبيان العوامل التي أدت إلى الجمود الفكري ، فأغلق باب الاجتهاد في وجوه المسلمين ، وادعي استحالته بعد ذلك الزمن ، وأن من يدعي ذلك يوصم بالجهل ، ويؤاخذ بدعواه ، وربما رمي بالزندقة ، ومع ذلك فان البعض من أهل السنة يعارضون هذه الفكرة ، ويقفون أمام هذه الدعوة بشدة إن ساعدتهم الظروف على ذلك ، فهم يوافقون الشيعة في حرية الرأي ، وعدم القول بغلق باب الاجتهاد .

ولقد اثر هذا الالتزام بوحدة المسلمين ، ففرق كلمتهم ونشبت بين معتنقي المذهب حروب دموية ، نتيجة للخلافات المذهبية وادعاء كل فريق أن الحق له دون غيره ، وأن إمامه هو المنفرد بمنزلة العلم وأهلية الاتباع ، واندفعوا بكل وسيلة لرفع مقام رئيس المذهب إلى منزلة لا يدانيه فيها أحد ، وتحكم التعصب الطائفي ، وكثر الجدل ، وعظم الخلاف بين اتباع أئمة المذاهب «ودب التقليد في صدورهم دبيب النمل وهم لا يشعرون ، وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم» (١) .

وبلغ الأمر بهم في صوغ عبارات المدح والثناء إلى ما يقف العقل امامه موقف الرد والانكار ، كما ذهبوا إلى اعلمية هؤلاء الأئمة على جميع المسلمين ،

---

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٥٣ .

وانهم بلغوا درجة العصمة عن الخطأ ؛ وان الله لا يقبل عمل عامل الا من طريقهم وكلٌ يعتقد أفضلية إمامه على بقية الأئمة ، وان مذهبه هو الصواب .

إلى غير ذلك من التفريط والغلو ، مما لم يعرفه معاصرو أولئك ، ولم يجدوه هم في أنفسهم .

الالتزام بالمذاهب الأربعة :

تطورت الدعوة إلى المذاهب الأربعة وتكثرت العوامل لاتباعهم بصورة خاصة ، وقد ذكرنا في الجزء الأول أسباب نشأتها وعوامل انتشارها بما لا حاجة إلى اعادته .

والغرض : ان الالتزام بهذه المذاهب الأربعة كان بصورة تدريجية ، حتى أدى ذلك على مرور الزمن ، إلى أن ينحصر أخذ الأحكام عنها دون غيرها من المذاهب الإسلامية على كثرتها وانتشارها .

والشيء المحصل من جميع الاقوال أن الأخذ بها ولزوم التقليد كان في القرن الرابع ، أما الالتزام بها دون غيرها ووجوب أخذ اقوالهم وترك أقوال الآخرين وعدم السماح بالاجتهاد والاستنباط يرجع تاريخه إلى سنة ٦٤٥ هـ ، وذلك عندما رأت السلطة ان تحصر الأخذ عن المشايخ الأربعة : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، فأحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير ، وتقدم اليهم ان لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ، ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها ، بل يذكرون كلام المشايخ تأدباً معهم وتبركاً بهم ، وأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة ، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد الله الشرمساحي ، وقال : ليس لأصحابنا تعليقة ، فاما النقط من مسائل الخلاف فما أرتبه .

وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية ، وأقضى القضاة عبد الرحمن ابن اللمغاني مدرس الحنفية . فانهما قالا مامعناه : « ان المشايخ كانوا رجالا ونحن رجال . » ونحو ذلك من إبهام المساواة فانتهت صورة الحال ، فتقدم الخليفة أن يلتزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم فاجابوه بالسمع والطاعة (١)

وبذلك أصبح الالتزام بهذه المذاهب امراً رسمياً لا يمكن خلافه ، وقضي على غيرها من المذاهب المعمول بها في ذلك الوقت — على قلة اتباعها — كمذهب

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٢١٦ — ٢١٧

سفيان الثوري ، ومذهب داود بن علي الظاهري ، حتى أدت الحالة إلى محو الجميع ، وبقاء المذاهب الأربعة نظراً لما اظهرته السلطة من تهديد وتوعيد ، وترغيب وترهيب «ولم يبق لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة السابقة ، لأنها وجدت من الملوك والوزراء من يحمل الناس عليها ، وينشيء لها تلك المدارس ، ويحبس عليها تلك الاوقاف ، فلما طال العهد بها على الناس أخذوا يتعصبون لها وينكرون ما عداها من المذاهب السابقة» (١) .

التطرف بالتزام المذهب :

واتسع الخلاف وكثر الجدل ، وعظمت الفرقة ، وذهب كلٌ إلى تأييد مذهبه وصواب رأيه ، وابراز صورة إمام مذهبه في صفحة الوجود بإطار الغلو والعبقرية الإدعائية لا العبقرية الواقعية ، جهلا منهم بعاقبة الأمر واتباعاً لهوى سلطان لا يروق له اتحاد الامة .

وقد اندفع المتطرفون إلى أبعد حد من الشذوذ، ولم يصغوا لأهل الاعتدال والتوازن منهم ، ولم يجعلوا وزناً لأقوال أئمتهم ، وما هو مأثور عنهم : بانهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة التي يدعونها لهم فانهم بشر يخطئون ويصيبون ، وأن أقوالهم لا قيمة لها تجاه الاثر والنصوص النبوية ، كما يأتي بيانه . ولكنهم لم يسمعوا ذلك ووصفوهم بما تهوى انفسهم ، كما وصفوا أبا حنيفة بأنه : سراج الأمة ، وسيد الأئمة ، ومحيي السنة ، وأنه إذا تكلم خيـّل إليك أن ملكاً يلقنه ، وما كلـّم أحداً في باب من أبواب الفقه إلا ذل له ، وإذا أشكلت مسألة على أعلم الناس سهلها عليه . كما تجد ذلك في كتب مناقبه للمكي ، والكردري وغيرهما .

وانك لتدهش من تلك الألفاظ الفارغة ، التي لا تجد فيها سوى التهجم على الحقائق ، ومخالفة الحق والواقع ! ! ! إذ هي وليدة عصور متأخرة لا يعرفها معاصروه ، ولم يشهد له بذلك علماء عصره ، وقد كان أكثرهم ينكرون عليه ويردون فتاواه . منهم أيوب السجستاني ، وجرير بن حازم ، وهمام بن يحيى وحماد بن سلمة ، وأبو عوانة ، وعلي بن عاصم ، وسفيان الثوري ، وسفيان ابن عيينة ، ومالك بن أنس وغيرهم ، وكلماتهم في الرد عليه مشهورة مدونة (٢)

---

(١) ميدان الاجتهاد ص ١١ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ والانتقاء لابن عبد البر ، وجامع بيان العلم وفضله وغيرها .

وكان هو بنفسه لا يرى ذلك ، ويعترف بأنه يخطيء ويصيب ، كما يتضح ذلك من أقواله المدونة والمشهورة عنه (١) .

والشيء الذي يلفت النظر هو تكرارهم لكلمة تنسب إلى الشافعي ، وقد جعلوها من أعظم المؤيدات لاتباع مذهب أبي حنيفة وهي : أنه كان يقول : الناس عيال في الا على أبي حنيفة . مع أن المشهور غير هذا . والعبارة لم تصدر إلا من قبل دعاة هب ، إذ المعروف عن الشافعي أنه كان يقول : أبو حنيفة يضع أول المـ خطأً ثم يقيس الكتاب كله عليه .

ويقول : ما أشبه رأي أبي حنيفة إلا بخيط سحارة ، وهي شيء يلعب به الصبيان ، تمده هكذا فيجيء أصفر ، وتمده فيجييء أخضر .

ويقول : رأيت أبا حنيفة في النوم وعليه ثياب وسخة فقال : مالي ولك ؟ (٢) .

وكان الشافعي يفضل مالكاً على أبي حنيفة . واشتهرت مناظرته لمحمد بن الحسن الشيباني .

قال محمد بن عبد الحكم : سمعت الشافعي يقول : قال لي محمد بن الحسن : أيهما أعلم ، صاحبنا أو صاحبكم ؟ — يعني مالكاً وأبا حنيفة — قلت على الإنصاف ؟ قال : نعم . . قلت فانشدك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أو صاحبكم ؟ قال : صاحبكم — يعني مالكاً .

قلت فمن أعلم بالسنّة ، صاحبنا أو صاحبكم ؟ قال : اللهم صاحبكم .

قلت فانشدك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله ﷺ والمتقدمين ، صاحبنا أو صاحبكم ؟ قال : صاحبكم .

قال الشافعي : قلت فلم يبق الا القياس والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء ، فمن لم يعرف الأصول على أي شيء يقيس ؟ (٣)

هذه هي أقوال الشافعي في أبي حنيفة . وتدلنا بكل وضوح على بطلان ما نسبوه إليه : ان الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة .

وكذلك أقوال أحمد بن حنبل في مدح أبي حنيفة فان التتبع يرفع الوثوق بها ، وقد اشتهر عنه قوله :

---

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) آداب الشافعي لابي حاتم الرازي ص ١٧١ — ١٧٤

(٣) آداب الشافعي لابن ابي حاتم الرازي ص ١٥٩ — ١٦٠ ، ومناقب الفخر ص ١٠١ ومناقب مالك للسيوطي والزاوي ص ١٠ — ١٢ ، وحلية الاولياء ج ٦ ص ٣٢٩ وطبقات الفقهاء ص ٤٢ وغيرها .

إذا رأيت الرجل يتجنب أبا حنيفة ورأيه والنظر فيه ، ولا يطمئن إليه ولا إلى من يذهب مذهبه ، ويغلو ، ولا يتخذه اماما ، فارجوا خيره (١) .

وكان يشتد على أصحاب الرأي في استعمال الحيل فيقول : هذه الحيل التي وضعها هؤلاء — أبو حنيفة وأصحابه —عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها. أتوا الذي قيل لهم انه حرام ، فاحتالوا فيه حتى أحلوه .

وقال أيضاً : انهم يحتالون لنقض سنن رسول الله ﷺ (٢) .

وسئل أحمد عن مالك فقال : حديث صحيح ورأي ضعيف . وسئل عن أبي حنيفة فقال : رأي ضعيف وحديث ضعيف .

وما أكثر الشواهد التي تدل على خلاف ما يذهبون إليه ، من الافراط والاندفاع وراء العاطفة ، والتمسك بأشياء بعيدة عن الصواب . فقد كثر الجدل وعظم الخلاف « حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة ، نصرة لمذهبه ولقوله » (٣) .

ونقل الرازي عن أكبر شيوخه في تفسير قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » انه قال . قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعص مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب — يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا .

قال أبو شامة : (٤) وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين ، فكل صنف على ما رأى . وتعقب بعضهم بعضاً مستمدين من الاصلين الكتاب والسنة ، وترجيح الراجح أقوال السلف المختلفة بغير هدى ، ولم يزل الأمر على ما وصفت إلى أن استقرت المذاهب المدونة ثم اشتهرت المذاهب الأربعة وهجر غيرها ، فقصرت همم اتباعهم الا قليلا منهم فقلدوا بعد ما كان التقليد حراماً

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٤٧ .
(٢) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٣) ابو شامة في مختصر المؤمل ص ١٤ — ١٥ .
(٤) هو شهاب الدين ابو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المتولد في ٥٩٦ هـ المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .

لغير الرسل ، بل صارت أقوال أئمتهم بمنزلة الأصلين ـــ الكتاب والسنة ـــ وذلك معنى قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » فعدم المجتهدون وغلب المتقلدون ، وكثر التعصب وكفروا بالرسول حيث قال: «يبعث الله في كل مائة سنة من ينفي تحريف الغالين وانتحال المبطلين»، وحجروا على رب العالمين ، مثل اليهود ، أن لا يبعث بعد أئمتهم ولياً مجتهداً حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا أورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلافه يجتهدفي دفعه بكل سبيلمن التأويلات البعيدة نصرة لمذهبه ولقوله.. الخ.(١)

وهنا يستوقفني الفكر طويلا عندما أتأمل أقوال العلماء المبرزين ، الذين ينتسبون لأحد المذاهب ، وأنهم كيف كانوا يتشددون في النهي عن التقليد ومضاره ، وكيف كانوا يخالفون رئيس المذهب في اجتهادهم ، وانهم لم يعرفوا عن أئمة المذاهب ما يدعيه المتأخرون عنهم من المبالغات ، وذلك التشديد في وجوب تقليد إمام بعينه .

فكم الفرق بين الفريقين ؟ وإن الأمر ليبعث على الاستغراب ! وان المتتبع يقطع ببطلان ما يذهب إليه المتأخرون ، وانهم قد خالفوا أئمتهم ورؤساء مذاهبهم في اتباع تلك الأمور المبتدعة ، وتعصبهم لمذاهبهم بما لا يرضى به اولئك الأئمة الذين ادّعوا انهم لهم متبعون ، ووصفوهم بأقصى ما يتصور من المدح والثناء ، وجعلوا تقليدهم والرجوع لأقوالهم أمراً إلزامياً . ولا نعلم من اين جاء هذا الالتزام ، والأئمة انفسهم ينهون عن ذلك ؟ !

وبجلاء الأمر نضع صورة موجزة من أقوال أئمة المذاهب .

الإمام أبي حنيفة لا يلزم بالرجوع إليه :

إن أقوال أبي حنيفة وآثاره تدل على عدم الإلزام بالرجوع إليه ، وأخذ قوله دون غيره ، وان حكمه هو الصواب لا غير ، حتى أدى الأمر إلى أن يتعصب أكثر اتباعه في تقديم قوله على الآثار الصحيحة . وكيف ساغ لهم ذلك وهو ينهى عنه ؟ ! ! كما كان ينهى عن تقليده ، بما اشتهر عنه انه كان يقول : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » .

وقومه : لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي ان يفتي بكلامي . وفي رواية : حرام على من لا يعرف دليلي .

---

(١) مختصر المؤمل للرد الى الامر الاول ص ١٤ — ١٥ .

وكان يقول : هذا رأي النعمان بن ثابت – يعني نفسه – وهو أحسن ما رأيت فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب (١) .

وقيل لأبي حنيفة : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي بكتاب الله ، فقيل : إذا كان خبر الرسول ﷺ ؟ فقال : اتركوا قولي لقول رسول الله ﷺ . فقيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لقول الصحابة (٢) .

وقد اشتهر منع الفتوى بدون معرفة الدليل عن أكابر اصحاب أبي حنيفة .

قال عصام بن يوسف : كنت في مأتم فاجتمع فيه اربعة من أصحاب أبي حنيفة ، زفر بن الهذيل ، وأبو يوسف ، وعافية بن يزيد ، وآخر ، فكلهم اجمعوا على انه قال : لا يحل لأحد ان يفتي بقولنا ما لم يعلم من اين قلناه .

قال الشيخ صالح بن محمد العمري : إن هؤلاء الأئمة لا يبيحون لغيرهم أن يقلدهم بغير أن يعلموا دليل قولهم (٣) .

وقال أبو الليث السمرقندي : باب من يصلح للفتوى . قال الفقيه : لا ينبغي لأحد أن يفتي الا أن يعرف أقاويل العلماء – يعني أبا حنيفة وصاحبيه – ويعلم من اين قالوا ، ويعرف معاملات الناس ، فان عرف أقاويل العلماء ولم يعرف مذاهبهم ... الخ .

وقال أبو يوسف بمثل قول ابي حنيفة وهو قوله : حرام على من لم يعرف دليلنا أن يفتي بقولنا (٤) .

الإمام مالك ينهى عن التقليد :

وقد اشتهر عن مالك : انه كان ينهى عن التقليد والرجوع لقول أي أحد دون كتاب الله وسنة رسوله . ويعلن معارضته لمن كان يتعصب له ويدعي اعلميته على جميع الأمة .

ويتضح من مطاوي كلماته ان الحديث الذي ادّعوه في فضله ، وهو حديث عالم المدينة ، لم يكن يعرفه مالك ، وان كان معروفاً فلا يرى انطباقه عليه لوجود من هو أعلم منه ، والمأثور عن مالك في ذلك كثير ، كقوله :

---

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٥٢ – ١٥٣

(٢) الوحدة الاسلامية ص ٩٧ .

(٣) ايقاظ همم ذوي الابصار ص ٧٢ .

(٤) الدين الخالص ج ٤ ص ١٨٠

انما أنا بشر أخطيء وأصيب ، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه .

وكان مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة ، ويصرح في موطنه بأنه أدرك العمل على هذا ، وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا . ويقول في غير موضع إذا سئل عن شيء : ما رأيت أحداً أقتدي به يفعله (١) أي يفعل ذلك الشيء المسؤول عنه .

وروى محمد بن محمد بن سنه بسنده عن مالك أنه قال : انما انا بشر اخطيء واصيب ، فانظروا في رأيي ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل ما لم يوافق فاتركوه . وروى مثله عنه أحمد بن مروان المالكي (٢) .

وكان رأي مالك : ان من ترك قول أحد من الصحابة لقول تابعي أنه يستتاب . وقد صرح مالك بان من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي انه يستتاب . فكيف بمن ترك قول الله والرسول لقول من هو دون إبراهيم أو مثله (٣) وهذا على سبيل المثال لا التشخيص منه .

وقد اشتهر عن مالك كثرة قوله : لا أدري ، في كثير من المسائل وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها : لا أدري .

وسئل من العراق عن أربعين مسألة فما أجاب منها الا في خمس .

قال ابو مصعب : قال لنا المغيرة : تعالوا نجمع كل ما نريد ان نسأل عنه مالكاً . فمكثنا نجمع ذلك ، ووجه به المغيرة إليه ، وسأله الجواب ، فاجاب مالك في بعضه ، وكتب في الكثير منه لا أدري . (٤)

والروايات عنه في « لا أدري » و « لا أحسن » كثيرة ، حتى قيل لو شاء رجل ان يملأ صحيفة من قول مالك : « لا أدري » لفعل .

وقيل لمالك إذا قلت — انت — يا أبا عبد الله : لا أدري فمن يدري ؟ قال : ويحك ؟ أعرفتني ؟ ومن أنا ؟ وايش منزلتي حتى أدري مالا تدرون ؟ ثم أخذ يحتج وقال : قد ابتلي عمر بن الخطاب بهذه الأشياء فلم يجب فيها .

وقال عبد الله بن مسلمة : دخلت على مالك — انا ورجل آخر — فوجدناه يبكي ، فسلمت عليه ، فرد عليّ ثم سكت عني وهو يبكي ، فقلت : يا أبا

---

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ج ٢ ص ١٨٦ .
(٢) الدين الخالص ج ٤ ص ١٨٢
(٣) اعلام الموقعين لابن القيم .
(٤) الموافقات ج ٤ ص ٢٨٨ .

عبد الله ما الذي يبكيك ؟ فقال لي : يا ابن قعنب ابكي لله على ما فرط مني من هذا الرأي وهذه المسائل . وقد كان لي سعة فيما سبقت ، فقلنا له : ارجع عن ذلك ، فقال : وكيف لي بذلك وقد سارت به الركبان (١). وسأل رجل مالكاً عن مسألة ، وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المغرب فقال له : أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها .

قال : ومن يعلمها ؟ قال مالك : من علمه الله .

وسأله رجل عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب ، فقال : ما أدري ، ما ابتلينا بهذه المسألة ببلدنا ، ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود ، فلما كان من الغد جاء الرجل وقد حمل ثقله على بغله يقوده ، فقال : مسألتي . فقال مالك : ما أدري ما هي ؟

فقال الرجل : يا أبا عبد الله تركت خلفي من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك ، فقال مالك غير مستوحش : إذا رجعت إليهم فاخبرهم إني لا أحسن (٢) .

وهذا مما يدل على خطأ ذلك الاعتقاد الذي كونته عوامل غير مشروعة ، وأيدته ظروف خاصة ، لذلك انكر عليهم مالك ، إذ هو لم يعرف من نفسه ما قد عرفه عنه غيره ، وكذلك لم يكن يعرف المتصلون بمالك ، والذين عرفوا منزلته كما عرفه الناؤون عنه ، وأخذوا عنه صورة مكبرة رسمتها يد المبالغة والغلو فانكر مالك عليهم ما يدعونه فيه من العصمة والوصول إلى درجة الاحاطة بكل العلوم . واتسع الأمر بعد زمن مالك حتى أصبح قوله يقدم على الكتاب والسنة كما أشرنا لذلك .

الإمام الشافعي ينهى عن التقليد :

وكذلك الإمام الشافعي كان ينهى عن التقليد ، ويدعو إلى العلم من طريقه .

وقد روي عنه انه قال : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه افعى تلدغه ، وهو لا يدري . ذكره البيهقي .

وقال اسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره : اختصرت هذا من علم

---

(١) الوحدة الاسلامية ص ١٠٧ .

(٢) الموافقات لابي اسحاق الشاطبي ج ٤ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

الشافعي ومن معنى قوله : لأقرّبه على من اراده ، مع اعلامية نهيه — أي الشافعي — عن تقليده وتقليده غيره ، لينظر فيه لدينه ، ويحتاط فيه لنفسه (١) .

ومختصر المزني هذا قد اصبح للشافعية فيه اعتقاد وتمسك شديد ،. وامتلأت به البلدان ، حتى ان المرأة كانت إذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة من مختصر المزني (٢) .

وقال ابن حجر في توالي التأسيس : قد اشتهر عن الشافعي : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » . قال ابن القيم : هذا صريح في مدلوله ، وان مذهبه ما دل عليه الحديث لاقول له غيره ، ولا يجوز ان ينسب إليه ما خالف الحديث ، فيقال هذا مذهب الشافعي ، ولا يحل الافتاء بما خالف الحديث على انه مذهب الشافعي ، ولا الحكم به ، صرح بذلك جماعة من أئمة أتباعه .

وقد اعترف الشافعي بعدم احاطته بالأخبار الصحيحة ، كما روي عن أحمد ابن حنبل انه قال : قال الشافعي : انتم أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح فاعلمني حتى أذهب إليه (٣) ولذلك قال أبو ثور : ان الشافعي ما كان يعرف الحديث وإنما كنا نوقفه عليه ونكتبه .

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله (ص) وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، وأصّلت من أصل ، فيه عن رسول الله خلاف ما قلت ، فالقول ما قاله رسول الله (ص) وهو قولي ، وجعل يردد هذه الكلمات .

وقال أيضاً : أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله (ص) لم يكن ليدعها لقول أحد . وستأتي زيادة بيان لهذه الأقوال عند بحثنا عنه .

الإمام أحمد يحارب التقليد :

وكذلك الإمام أحمد بن حنبل فان المأثور عنه والمشهور من أقواله أنه كان يحارب التقليد ، ويحث الناس على طلب الحكم من دليله ، ويقول : كثرة التقليد عمى في البصيرة (٤) .

---

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٨١ .
(٢) مختصر المؤمل ص ٣٥ .
(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٢٧ ، وطبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٨٢ ، وآداب الشافعي لابن ابي حاتم ص ٩٥ ، وميزان الشعراني ج ١ ص ٢٦ ومجموعة الرسائل المنبرية ج ٣ ص ٩٩ .
(٤) جلاء العينين للالوسي ص ١٠٥ .

وقال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعي هو اتبع من مالك ؟ فقال أحمد : لا تقلد دينك هؤلاء ، ما جاء عن النبي وأصحابه فخذ به (١) .

وكان ينهى عن الكتابة عنه ويقول : لا تكتبوا عني ولا تقلدوني ، ولا تقلدوا فلاناً وفلاناً ، وخذوا من حيث أخذوا (٢) .

وقال أحمد أيضاً : لا تقلدني ، ولا تقلد مالكاً ، ولا الثوري ولا الأوزاعي ، وخذ من حيث أخذوا .

وقال : من قلة فقه الرجل ان يقلد دينه الرجال (٣) .

قال صاحب المنار : وقد كان هذا الإمام الجليل متأخراً قليلا عن « الأئمة الثلاثة » وان أدرك بعضهم وصحب أحدهم وكان قد رأى بوادر إلتزام تقليد الذين تكلموا في الاحكام وكتبوا فيها ، وعلم ان مالكاً « رحمه الله » قد ندم قبل موته إذ نقلت أقواله وفتاويه قبل موته ، ولذلك لم يدون مذهباً واقتصر على كتابة الحديث ، ولكن أصحابه جمعوا من أقواله وأجوبته وأعماله ما كان مجموعه مذهباً ، كما قال العلامة ابن القيم (٤) .

وقال سلمة بن المسيب : سمعت أحمد بن حنبل يقول : رأي الاوزاعي ورأي مالك ، ورأي أبي حنيفة كله رأي ، وهو عندي سواء وإنما الحجة في الآثار ! (٥) .

يقول السيد صديق حسن ، بعد نقله لاقوال أئمة المذاهب في النهي عن تقليدهم : فانهم – رضي الله عنهم – قد نهوا عن الرأي والتقليد ، وصرح بعضهم بأن الاستحسان بدعة ولكن مقلديهم باللسان دون الجنان ، لم يرضوا بهذا النهي وقالوا نحن مقلدوكم شئتم أو أبيتم – وهم والله يعلم – انهم كاذبون . (الدين الخالص ج ٤ ص ٣٧٣).

والشيء الذي نود التنبيه عليه هنا أن اتباع أحمد قد تمسكوا بتقليده والأخذ بأقواله ، بل جعلها بعضهم كأقوال النبي (ص) ، وهي بمثابات ما يروى عن النبي (ص) من الآثار (٦) .

---

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٨١
(٢) مختصر المؤمل لابي شامة ص ٣١ .
(٣) اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٨٢ .
(٤) الوحدة الاسلامية ص ١١٧ .
(٥) الايقاظ للفلاف ص ٢٨ .
(٦) طبقات الحنابلة لابن ابي يعلى ج ٢ ص ١٧٦ .

هذا ما اردنا ذكره في هذا العرض الموجز عن أئمة المذاهب ، ونحن لا نريد ان نحط من كرامة واحد منهم ، أو نتعصب عليه ، ولكني كما قلت سابقاً : إن من الحق والانصاف أن نعطي شخصية كل واحد من أئمة المذاهب حقها من الدراسة المتجردة عن التعصب والتحيز ، وأن لا ننقاد للعواطف ولننظر الواقع بعين تبصر الحقائق كما هي .

وبدون شك أن ذلك التعصب الطائفي قد أوجد مشاكل اجتماعية فرقت الكلمة وكدرت صفو الاخوة . وما احوج المسلمين إلى الالفة والاتحاد وهي دعوة رفع الأئمة بها أصواتهم وكانت تعاليمهم تحث على الوحدة والاتفاق . فالتعصب ينافي المبادىء الصحيحة ويدعو إلى الفرقة . ونحن بأمس الحاجة إلى التفاهم من طريق العلم والواقع .

ولا يتسنى لنا حصول الغرض إلا برفع تلك الزوائد التي أوجدتها عوامل التعصب ، وان لا نقيم وزناً لعوامل السياسة التي قضت على المسلمين باتساع شقة الخلاف ، فهي تساعد الضعيف ليقوى على مقابلة خصمه ، فاذا ما بلغ الغاية أو كاد سحبت يد المساعدة خلسة لتضمها للجانب الآخر ! ! ! وهكذا على ممر الزمن واختلاف العصور .

أسباب التعصب المذهبي وتطور الدعوة :

والغرض : ان التعصب قد شوّه وجه الحقيقة ، وقلب الأمور عن واقعها ، ولعل أسباب ذلك تعود إلى ما يلي :

١ — كان لتطور الدعوة إلى الإلتزام بالمذاهب الأربعة ، أثر في تحيز كل جانب إلى المذهب الذي يعتنقه ، مما يؤدي إلى الاندفاع بنوع من التعصب وراء طلب المؤيدات لذلك المذهب ، بدون التفات إلى مؤاخذة ، أو استناد لأمر ملموس . وكانت الظروف تساعد على تنمية تلك الاندفاعات ، إذ وجدت نشاطاً ساذجاً في المجتمع ، وقبولاً في العقول المتبلبلة فكالت المدح ها جزافاً ما شاءت بدون حساب .

٢ — ان التزاحم على مناصب الدولة من قضاء وتولي حسبة ، كان يؤدي إلى المجادلة والمناضلة والتحزب ، ولا يحصل من وراء ذلك إلا خلاف وتباعد ، وادّعاء كل الحق في جانبه ، وأن مذهبه هو المذهب الذي لا يقبل الله عملاً إلا به . وأن رئيس المذهب هو المتفرد بعلوم الإسلام لا غير ، لتكون له

الغلبة على غيره . وقد تزلفوا للأمراء والخلفاء طلباً للحصول على ذلك المنصب « ولذلك تجد الوطيس لم يُحم إلا بين الحنفية والشافعية ، لأن المناصب كانت محصورة فيهم » (١) .

٣ – مزاحمة المذهب الجعفري وانتشاره في المجتمع الإسلامي ، مع بذل الجهد من السلطات في معارضته ، والقضاء على المنتمين إليه مرة ، وبتشجيع غيره من المذاهب تارة أخرى ، مما يبعث معتنقيها على التفاني في التعصب لها ، والتحامل على هذا المذهب الذي فرض نفسه على المجتمع بدون مشجع مادي .

وقد افصح التاريخ عن كثير من ذلك مما لا حاجة لذكره الآن . ومن المناسب أن نختم هذا الفصل بما ذكره الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ، في جواب الأسئلة التالية الموجهة إليه من باريس ، من صديقه أحمد زكي بك وهي :

١ – متى أُقفل باب الاجتهاد ؟ وماذا ترتب على هذا الإقفال من المنافع والمضار ؟

الجواب : زعموا انه أُقفل بعد القرن الخامس ، ولكن كثيراً من العلماء اجتهدوا بعد ذلك ، فلم يكونوا يعملون إلا بما يقوم عندهم من الأدلة ، ولا يخلو زمن من هؤلاء ، كما صرح بذلك علماء الشافعية .

ولولا خوفهم من حكومات الجهل لبينوا للناس مفاسد التقليد الذي حرمه الله . ودعوهم إلى العمل بالدليل كما امر الله ، وقد علمت الحكومة العثمانية – منذ عهد قريب – بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد والعمل بالدليل ، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر بذلك .

ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعةً ما ، وأما مضاره فكثيرة وكلها ترجع إلى إهمال العقل وقطع طريق العلم ، والحرمان من استقلال الفكر . وقد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد فصاروا إلى ما نرى .

٢ – ما معنى قولهم أقفل باب الاجتهاد ؟

الجواب : معناه انه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد ، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل ، وإنما قال هذا القول بعض المقلدين ، لضعف ثقتهم بأنفسهم ، وسوء ظنهم بالناس . وزعمهم ان العقول دائماً في تدل وانحطاط ، وغلو في تعظيم السابقين .

---

(١) الوحدة الاسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص ٣٧ .

وقد رأيت أن تلك الشروط – أي شروط الاجتهاد – ليست بالأمر الذي يعز مثاله ، وتعلم ان سنة الله تعالى في الخلق الترقي إلا أن يعرض مانع ، كما يعرض لنمو الطفل مرض يرجعه القهقرى . كان آخر الاديان اكملها .

٣ – ما معنى هذه العبارة : قفل باب الاجتهاد ، عند العامة وعند أهل التحقيق ؟

الجواب – : العامة يقلدون آباءهم ورؤساءهم في قولهم : ان أهل السنة ينتمون إلى أربعة مذاهب من شذ عنها فقد شذ عن الإسلام . ولا يفهمون أكثر من هذا .

وأما المشتغلون بالعلم أو السياسة ، فالضعفاء المقلدون منهم يفهمون من الكلمة ما فسرناها به في جواب السؤال السابق ، ويحتجون على ذلك بأن الناس قد اجمعت كلمتهم على هذه المذاهب ، فلو أجيز للعلماء الاجتهاد لجاؤونا بمذاهب كثيرة ، تزيد الأمة تفريقاً ، وتذهب بها في طرق الفوضى .

والمحققون ، يعلمون أن منشأ هذا الحجر هو السياسة ، فالسلاطين والأمراء المستبدون لا يخافون إلا من العلم ، ولا علم إلا بالاجتهاد فقد نقل الحافظ ابن عبد البر وغيره الاجماع على ان المقلد ليس بعالم ، ونقله عنه ابن القيم في (اعلام الموقعين) وهو ظاهر ، إذ العالم بالشيء هو من يعرفه بدليله ، وإنما يعرف المقلد أن فلاناً قال كذا فهو ناقل لا عالم . وربما كانت آلة (الفوتغراف) خيراً منه .

* * *



آراء حول الاجتهاد والتقليد

حول الاجتهاد والتقليد :

أغلق باب الاجتهاد في وجوه المسلمين ، وأصبح الالتزام بالمذاهب الأربعة لازماً ، حتى جعلت أحكام الإسلام مقصورة على الأئمة الأربعة دون غيرهم ، لأن درجة الاجتهاد مستحيلة على أي أحد من علماء الأمة (كما يقولون) مع سهولة الوصول إليها . وقد اتضحت لنا الأسباب التي دعت إلى هذا الإلتزام وقد وقفنا على الأمور التي أدت إلى قفل باب الإجتهاد . ومعناه الضربة القاضية على حرية الفكر بل على الإسلام ، الذي جاء للناس كافة ليساير مختلف العصور والشعوب .

يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي : واني أستطيع ان أحكم بعد هذا بأن منع الإجتهاد قد حصل بطرق ظالمة ، وبوسائل القهر والاغراء بالمال ، ولا شك ان هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة — التي نقلدها اليوم — ابقي جمهور يقلدها أيضاً ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها ، فنحن إذاً في حل من التقيد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة ، وفي حل من العود إلى الإجتهاد في أحكام ديننا لأن منعه لم يكن إلا بطريق القهر ، والإسلام لا يرضى إلا بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين ، كما قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » (١) .

وقد ذكرنا فيما سبق عرضاً موجزاً لأقوال العلماء الاعلام من الامة في الإنكار على غلق باب الاجتهاد ، ومنع المسلمين من الإهتداء بهدى القرآن وصحيح الحديث ، والاقتصار على أقوال المذاهب الأربعة ، وليس من الصحيح الاعتقاد بأنهم أحاطوا باسرار القرآن وعلوم الحديث ، فدونوها في كتبهم أو لقنوها لتلامذتهم ، مع ان كلماتهم تدل على عدم بلوغهم تلك الدرجة من الكمال ؛ ولا ارتياب بانه لو فسخ في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجتهدين مجدين يستنبطون لكل قضية حكماً وكلما زاد تعمقهم زادوا فهماً وتدقيقاً .

إلى آخر ما تعرضنا لذكره من الآراء والأقوال في الانكار على غلق باب الإجتهاد ، ومنعه و (وهو سر تأخر المسلمين ، وهو الباب المرن الذي عندما

---

(١) ميدان الاجتهاد ص ١٤ .

فقل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم ، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير ويبدل . لاعتبارات سياسية .

وعلى أي حال فان هناك طائفة من العلماء يحاولون رفع ذلك الجمود الفكري وفتح باب الإجتهاد الذي دعت السياسة لإقفاله ولم يعرف هناك دليل شرعي يؤيد ما ذهب إليه المقلدون والقائلون بلزومه ، ووجوب الرجوع إلى المذاهب الأربعة دون غيرها من علماء الأمة .

وقد عقد ابن القيم فصلا طويلا في اعلام الموقعين استقصى فيه أدلة القائلين بذلك وابطالها بالأدلة القوية ، كما قد ألفت رسائل عديدة لهذا الغرض ، وكلها تدعو إلى التحرر من تلك القيود التي أخذت بأعناق العلماء ، وإذا رفع أحد منهم صوته بالدعوة إلى رفع تلك القيود أُلقي في غيابة السجن ، ولقي العذاب والتنكيل ، لأن السلطان كان مؤيداً لأهل التقليد ، لأنهم آلة السياسة وأعوان الرياسة ، فكان صوت المصلحين بينهم خافتاً ومقامهم خافياً .

وها نحن أولاء نلقي نظرة خاطفة حول الإجتهاد والتقليد ونقف على شروط الإجتهاد كما وقفنا على كلمات الأئمة من الدعوة إليه والنهي عن التقليد ونستطرد حجج القائلين به .

الاجتهاد :

الإجتهاد في اللغة : بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال ، ولا يستعمل الا فيما فيه كلفة، فيقال: اجتهد في حمل حجر الرحى، ولا يقال : اجتهد في حمل خردلة . ثم صار هذا اللفظ في عرف العلماء مخصوصاً ببذل الفقيه وسعه في طلب العلم باحكام الشريعة .

والاجتهاد التام : أن يُبذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب .

وقال في كشاف اصطلاحات الفنون : « الإجتهاد في اللغة استفراغ الوسع في تحصيل أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقة ، وفي اصطلاح الاصوليين : استفراغ الفقيه الوسع في تحصيل ظن بحكم شرعي . والمستفرغ وسعه في ذلك التحصيل يسمى مجتهداً بكسر الهاء . ثم ذكر بعد ذلك بحثاً في التعريف والقول بتجزي الإجتهاد – أي جواز كونه في بعض الأحكام دون بعض – وشروط المجتهد فقال : « للمجتهد شرطان :

١ – معرفة الباري تعالى وصفاته وتصديق النبي بمعجزاته ، وسائر ما يتوقف عليه علم الإيمان ، كل ذلك بأدلة اجمالية وان لم يقدر على التحقيق والتحصيل ، على ما هو دأب المتبحرين في علم الكلام .

٢ – ان يكون عالماً بمدارك الأحكام وأقسامها ، وطرق اثباتها ووجوه دلالتها ، وتفاصيل شرائطها ومراتبها ، وجهات ترجيحها عند تعارضها ، والتفصي عن الاعتراضات الواردة عليها فتحتاج إلى معرفة حال الرواة ، وطرق الجرح والتعديل ، واقسام النصوص المتعلقة بالاحكام ، وأنواع العلوم الأدبية من اللغة والصرف وغير ذلك ، هذا في حق المجتهد المطلق الذي يجتهد في الشرع » اهـ .

وجعل الشاطبي في الموافقات العمدة فيها : فهم العربية متناً وأسلوباً . ومعرفة مقاصد الشريعة ، وأجاز تقليد المجتهد لغيره في الفنون التي هي مبدأ الإجتهاد ، كأن يقلد المحدثين في كون هذا الحديث صحيحاً وهذا ضعيفاً ، من غير ان يعرف هو حال الرواة وطرق الجرح والتعديل .

التقليد :

التقليد : هو قبول قول بلا حجة . وليس من طرق العلم لا في الأصول ولا في الفروع ، إلا أنه لما كان الظن فى الفروع كافياً للعمل وفي الأصول غير كاف جاز في الفروع دون الأصول .

وقال قوم : إن طريق معرفة الحق التقليد ، وإن ذلك هو الواجب ، وان النظر والبحث حرام ! ! ! (١) .

قال الذين جوزوا التقليد أيضاً في الأصول : إن النظر لو كان واجباً لفعله الصحابة وأمروا به ، ولكنهم لم يفعلوا ، ولو فعلوا لنقل عنهم كما نقل النظر في الفروع .

ودليل الجمهور في منع التقليد في الأصول: انعقاد الإجماع على وجوب العلم بالله تعالى ، ولا يحصل ذلك بالتقليد لإمكان كذب المقلد ، إذ أن صدقه انما يعرف بالضرورة او النظر ، والأول منتف ، وإذا علم ارتفع التقليد .

---

(١) اصول الفقه لمحمد الخضري ص ٣٦٩ .

بين طائفتين :

ها نحن ذا بعد هذا البيان الموجز للإجتهاد والتقليد نقف بين طائفتين من المسلمين ، وكل واحدة تخالف الأخرى فيما تذهب إليه من حيث الإجتهاد والتقليد ، وانّ النزاع لا يزال يشتد ، كلما اتسع الفكر وانتشر العلم ورفعت القيود كانت كفة القائلين بالجواز أرجح .

وإن استقصاء حجج كل من الطرفين يستدعي الاطالة في الموضوع والخروج عن شرط الكتاب ، ولكنا نكتفي بالإشارة للبعض منها ، والإطلاع على التفصيل في الكتب المختصة بذلك . وانّ أكثرها فائدة واستقصاء هو كتاب « الدين الخالص » للسيد صديق حسن وكتاب « أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية » فليراجع من أراد الوقوف على ذلك .

حجة المقلدين :.

لقد سرت روح التقليد سرياناً عاماً بعد ان كان مريد الفقه يشتغل أولاً بدراسة الكتاب ، ورواية السنة ، اللذين هما أساس الاستنباط ، أما في هذا الدور — أي دور غلق باب الإجتهاد — فأصبح مريد الفقه يتلقى كتب إمام معين ، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دوّنه من الأحكام ، فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء . ومنهم من تعلو به همته فيؤلف كتاباً في أحكام إمامه . ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولاً يخالف ما أفتى به إمامه . كأن الحق كله نزل على لسان إمامه وقلبه ، حتى قال طليعة فقهاء الحنفية في هذا الدور ، أبو الحسن عبيد الله الكرخي : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤوّلة أو منسوخة . وكل حديث كذلك فهو مؤوّل أو منسوخ . وبمثل هذا أحكموا دونهم أرتاج باب الاختيار .

والتزم كل منهم مذهباً معيناً لا يتعداه . ويبذل كل ما أوتي من مقدرة في نصرة ذلك المذهب جملة وتفصيلاً . مع انه لا يخطر ببال هؤلاء الفحول ثبوت العصمة لأي إمام في اجتهاده ، وقد كان الأئمة انفسهم يعترفون بجواز الخطأ عليهم ، وأن تكون هناك سنة لم يطلعوا عليها (١) .

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٤٢٤ — ٤٢٦

وعلى هذا سارت قافلة الزمن ، ولم يكن هناك طريق لرفع ذلك التحجير . وإيقاف تسريات تلك الروح . ومن يحاول الإجتهاد والإتصال بالأدلة الشرعية يكون نصيبه النكال والتعذيب ، ويرمى بالبدعة والضلالة . وقد وقع ذلك لكثير من العلماء .

وعلى أي حال فقد احتج القائلون بلزوم التقليد بأمور :

١ – قوله تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

وبقوله تعالى : (أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم) وقالوا: إنّ أهل الذكر وأولي الأمر هم العلماء .

٢ – إن النبي (ص) أرشد إلى التقليد وسؤال من لا يعلم لمن يعلم ، فقال في حديث صاحب الشجة : ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العيّ السؤال (١) .

٣ – تصريح الشافعي بتقليده لعمر : في الضبع بعير ، أي كفارة قتل الضبع بعير ، انه قال : قلته تقليداً لعمر ، وفي مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب ، تقليداً لعثمان . وفي مسألة الجد مع الأخوة ، تقليداً لزيد . وعنه (أي عن زيد) قبلنا اكثر الفرائض . وهذا ابو حنيفة ليس معه في مسائل الابار الا تقليد من تقدمه من التابعين فيها . وهذا مالك لا يخرج عن عمل اهل المدينة .

وقال محمد بن الحسن الشيباني : يجوز للعالم ان يقلد من هو أعلم منه ، ولا يجوز له ان يقلد من هو مثله .

٤ – استدلوا بقول عمر : اني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر . وقال لأبي بكر : رأينا تبع لرأيك . إلى آخر ما أوردوه من الاحتجاج لذلك . وأنت ترى أن حججهم خارجة عن محل النزاع .

أما الآيات فهي عامة ، فما الدليل على تخصصها بالأربعة وأنه لا يجوز سؤال غيرهم ؟ وأن جميع ما ذكروه لا يصلح لاثبات المدعى . وقد أجاب عنه مانعو التقليد وفندوا ما ذهبوا اليه .

وقال ابو عمر : يقال لمن قال بالتقليد لم قلت به وخالفت السلف في ذلك فإنهم لم يقلدوا ؟

فان قال : قلت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله ، وسنة رسول الله ﷺ

---

(١) اخرجه ابو داود وابن ماجه عن جابر قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل اصحابه : هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا : ما نجد لك رخصة ، فاغتسل فات ، فلما قدمنا على رسول الله (ص) اخبر بذلك فقال : قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا ، الحديث .

لم أحصها ، والذي قلدته قد علم ذلك ، فقلدت من هو أعلم مني .

قيل له : أما العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب ، أو حكاية عن رسول الله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه ، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض ، فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض وكلهم عالم ؟ ولعل الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه .

فإن قال : قلدته لأني أعلم أنه على صواب .

قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو اجماع ؟

فإن قال : نعم . أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل .

وإن قال : قلدته لانه أعلم مني . قيل له فقلد كل من هو أعلم منك ، فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ، ولا تحصي من قلدته اذ علتك فيه أنه أعلم منك .

فإن قال : قلدته لأنه أعلم الناس .

قيل له : إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً ! ! إلى أن يقول : ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد (١) .

وعلى أي حال فان روح التقليد قد سرت وأشرب في قلوب المقلدين حب التعصب للمذهب الذي يتبعونه ، وحكموا بخلو الأرض من القائمين لله بحجة ، وقالوا : لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة .

فقالت طائفة : ليس لأحد ان يختار بعد أبي حنيفة ، وأبي يوسف ، وزفر بن الهذيل ، ومحمد بن الحسن الشيباني . والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وهذا قول كثير من الحنفية .

وقال بكر بن العلاء القشيري : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة .

وقال آخرون : ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي ، وسفيان الثوري ، ووكيع بن الجراح . وعبد الله بن المبارك .

وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي .

وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة ، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم ، ولم يحل لأحد بعدُ أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ

---

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ١٧٩ .

الأحكام منها ، ويقضي ويفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه ، فان وافقه حكم به وافتى به ، والا ردّه ولم يقبله .

وهذه أقوال – كما ترى – قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم ، وإبطال حججه ، والزهد في كتابه وسنة رسوله (١) .

وإن منهم من أقام رؤساء المذاهب مقام الانبياء (بل إن من اتباعهم من قدمهم عليهم عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح ، فانهم يردون كلام النبي المعصوم مع اعتقادهم صحة سنده ، لقول نقل عن امامهم ، ويتعللون باحتمالات ضعيفة كقولهم : يحتمل أن يكون الحديث نُسخ ، ويحتمل أنّ عند إمامنا حديثاً آخر يعارضه ! !

ولا شك أنّ هؤلاء المقلدين قد خرجوا بغلوهم في التقليد عن التقليد ، لأنهم لو قلدوا الأئمة في آدابهم وسيرتهم وتمسكهم بما صح عندهم من السنّة لما ردوا كلام المعصوم لكلام غير المعصوم ، الذي يجوز عليه الخطأ والجهل بالحكم ، وكانوا يأمرون بأن يُترك قولهم إذا خالف الحديث . بل تسلق هؤلاء الغالون – بمثل ذلك – إلى القرآن نفسه ، وهو المتواتر القطعي والإمام المبين .

وتجرأ بعضهم على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ دينه من الكتاب ، لأنه لا يفهمه ، وإنما يفهمه رجال الدين ، فيجب عليه أن يأخذ بكل ما قالوا وإن خالف الكتاب ، ولا يجوز له أن يأخذ بالكتاب إذا خالف ما قالوا ، بل لا يجوز لأحد أن يقول : هذا حلال وهذا حرام ، لأن الله قال كذا ، أو لأن رسول الله قال كذا ، بل لأن فلاناً الفقيه قال كذا ! ! ! (٢) .

وجملة القول انهم انقسموا إلى فئتين ، فئة ترى بقاء القديم على قدمه والمحافظة على إبقاء ما قرر في تلك العصور ، حتى عدوا محاولة الخروج عن ذلك ضلالاً وبدعة .

وفئة ترى وجوب حل تلك القيود وإطلاق حرية الفكر والرجوع إلى أصول استنباط الحكم ، وكلما طال الزمن اتسع نشاط هذا الرأي وكثر الانكار على من يقول بغلق باب الإجتهاد .

ذكروا يوماً في مجلس السيد جمال الدين الافغاني (٣) قولاً للقاضي

(١) اعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٥٦ – ٢٥٧

(٢) الوحدة الاسلامية ص ٤٥ – ٤٦

(٣) السيد جمال الدين بن صفتر او صفدر ولد سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م ، وتوفي يوم الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ م ١٣١٤ هـ بالاستانة ، وينتهي نسبه الى الحسين بن علي عليهما السلام ، وعشيرته قوية في الافغان ، وهم محل احترام وتقدير الأفغانيين ، ونشأ جمال الدين بينهم وسافر الى البلاد الاسلامية يدعو للاصلاح ، ولقي اذى كثيراً في سبيل ذلك .

عياض ، واتخذوه حجة ، واشتد تمسكهم بذلك القول حتى انزلوه منزلة الوحي ، بانه لا يأتيه الباطل لامن خلفه ولا من أمامه .

فقال جمال الدين : يا سبحان الله ان القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه وزمانه ، فهل يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة . ؟

وذكروا أن باب الإجتهاد مسدود لتعذر شروطه .

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال :

ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد باب الإجتهاد او أي امام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين ؟ ! وأن يهتدي بهدي القرآن ، وصحيح الحديث ، أو ان يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه ، ولا ينافي جوهر النص .

إن الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي يفهمهم ما يريد افهامهم ، وليفهموا منه ما يقوله لهم « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه » .

وقال : « انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وفي مكان آخر « انا جعلناه قرآناً عربياً لقوم يعقلون » .

فالقرآن ما انزل الا ليُفهم ، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتبديل معانيه . وفهم احكامه ، والمراد منها . (١)

وكان تلميذه الشيخ محمد عبده (٢) يدعو لفتح باب الإجتهاد ، وينكر الجمود على القديم ، ويدعو لحل تلك القيود ، وإطلاق حرية الفكر والرجوع الصحيح إلى قواعد الدين . وكان يناضل عن هذه الفئة بلسانه وقلمه ، واليك بيان وجة نظره في قوله :

(وارتفع صوتي في الدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه من ينابيعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من غلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم ،

(١ خاطرات جمال الدين للمخزومي ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) هو الشيخ محمد بن عبده خير الدين المتوفى ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ هـ ١٩٠٥ م كان حامل لواء نهضة العلم في مصر ، وهو تلميذ السيد جمال الدين الافغاني وله اثار قيمة وذكر جميل .

باعثاً على البحث في اسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أداب النفس واصلاح العمل . (١)

وقام السيد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده في المطالبة بفتح باب الإجتهاد ، وشدد النكير على من يذهب إلى غلقه ، في لزوم اتباع مذهب معين ، ومن أقواله : (ولا نعرف في ترك الإجتهاد منفعة ما ، واما مضاره فكثيرة ، وكلها ترجع إلى إهمال العقل ، وقطع طريق العلم ، والحرمان من استغلال الفكر ، وقد اهمل المسلمون كل علم بترك الإجتهاد ، فصاروا إلى ما نرى) (٢) .

وذكر« أنه لولا خوفهم — أي العلماء — من حكومات الجهل لبينوا مفاسد التقليد الذي حرمه الله ، ودعوا الناس إلى العمل بالدليل كما أمر الله ، وقد علمت الحكومة العثمانية منذ عهد قريب ، بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد ، والعمل بالدليل ، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر» (٣) .

ويقول الدكتور أحمد أمين : وقد أصيب المسلمون بحكمهم على انفسهم بالعجز وقولهم باقفال باب الإجتهاد ؛ لأن معناه أنه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد ، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل وإنما قال هذا القول بعض المقلدين لضعف ثقتهم بأنفسهم وسوء ظنهم بالناس وزعمهم عكس ما يقول أصحاب النشوء والارتقاء من دعواهم أن العقل دائماً في تدن وانحطاط ، وغلوهم في تعظيم السابقين . . . (٤) .

وقد تقدم في الجزء الأول بعض ما يتعلق بمسألة الإجتهاد والتقليد وذكرنا هناك آراء كل من الفريقين من العلماء المعاصرين وغيرهم .

التلفيق :

وهو الأخذ برأي إمـــام في مسألة ، والعدول عن رأيه إلى رأي غيره في مسألة أخرى . وقد وقع الخلاف في جوازه ومنعه .

---

(١) اعلام الاسلام ص ٩٩
(٢) الوحدة الاسلامية ص ١٣٧
(٣) نفس المصدر ص ٤٥ .
(٤) يوم الاسلام ص ١٨٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال الشاطبي : إنه ليس للمقلد أن يتخير في الخلاف ، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين ، فوردت كذلك على المقلد ، فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيراً فيهما ، كما يخير في خصال الكفارة ، فيتبع هواه وما يوافق غرضه . إلى أن يقول : وقد أدى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتي قريبه او صديقه بما لا يفتي به غيره من الاقوال ، اتباعاً لغرضه وشهوته ، أو لغرض ذلك القريب وذلك الصديق . ثم أورد قصصاً عن القضاة والمفتين الذين طلبوا الرخص في الفتوى ، نزولاً لرغبة السلطان أو الأصدقاء والأقارب ، كقصة قاضي قرطبة الذي قضى بما يرضي المخلوقين ، وقصة يحيى بن لبانة عندما عزل عن القضاء لسقوط عدالته ، ولكنه عاد إلى المنصب عندما أفتى الخليفة بما يرضيه (١) .

وأجاز ذلك آخرون . وقد نسبوا التخير في القولين ، وتتبع الرخص لأكثر أصحاب الشافعي . وقد منع الحنفية ذلك ولكنه واقع عندهم في أكثر الفتاوى . واستدل المجوزون : بما فعله أبو يوسف من التلفيق ، وذلك أنه لما صلى بالناس الجمعة فأخبر بوجود فارة في ماء الحمام الذي كان قد اغتسل منه للجمعة ، فقال : نأخذ بقول اخواننا من أهل المدينة : «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً» (٢).

وكان أبو يوسف ومحمد بن الحسن — وهما عماد المذهب الحنفي — يكبران في العيدين تكبير ابن عباس ، لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جده(٣)

قال الاستاذ السيد محمد رشيد رضا في تعليقته على قول الشاطبي في الاعتصام في الوجه الثامن من الوجوه التي جعلها لمعرفة الانحراف عن السنة والميل للبدعة ؛ « ومن فروع هذه البدعة أن بعضهم يستحل أن يجعل المرجح لأحد القولين في الفتوى ما يعطيه المستفتون من الدراهم ، فإذا جاء مستفتيان في مسألة واحدة فيها خلاف يطلب أحدهما الفتوى بالجواز أو الحل ، والآخر يطلب الفتوى بالمنع أو الحرمة ، يفتي من كان منهما أكثر بذلاً للمفتي ، فهو تارة يفتي بالحل وتارة يفتي بالحرمة ، والقاعدة في ذلك ما صرح به بعض الفقهاء في بعض الكتب التي تدرس في الأزهر : (نحن مع الدراهم قلةً وكثرةً) فإذا كان القولان المتناقضان صحيحين في المذهب ؛ جاز أن يكون السحت هو المرجح في الفتوى . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (٤) » اهـ .

(١) الموافقات ج ٤ ص ١٣٧ — ١٤١
(٢) القول السديد ص ٢٤ .
(٣) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٥٨ .
(٤) كتاب الاعتصام ج ٣ ص ٢٦٨ .

وقال الشيخ محمد عبد الله دراز شارح الموافقات : بل اخرجوا الامر عن كونه قانوناً شرعياً وعدوه متجراً ، حتى كتب بعض المؤلفين في الشافعية ما نصه : (نحن مع الدراهم كثرةً وقلةً) (١) .

نسبة المذهب إلى أبي حنيفة :

وقبل أن نترك الكلام حول الاجتهاد والتقليد لا بد لنا من الإشارة لأمور :

إن المذهب الحنفي لم يكن ينتسب لأبي حنيفة لأنه مرجع جميع أحكامه ومصدر فقهه ، ولكن تلك النسبة اصطلاحية . فإنا نجد أن المذهب قد تكوّن من مجموعة أقوال وآراء لأبي حنيفة ولأصحابه من بعده ، وان أصول المذهب مشتملة على أقوال أبي يوسف ، وأبي حنيفة ، ومحمد بن الحسن .

وكان أبو يوسف ومحمد بن الحسن يجتهد كل منهما ، وربما يتفق مع قول أبي حنيفة أو يخالفه ، كما أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن كانا يختلفان في كثير من المسائل ، على أنا نقطع بأن كثيراً من الحوادث والوقائع لم يكن لأبي حنيفة فيها رأي ، ولكن استنبطها المجتهدون المتأخرون عنه ، بل لم تكن فيها رواية عن أبي يوسف وغيره من الطبقة الأولى من مجتهدي المذهب ، فنسبت تلك المسائل التي استخرجها المتأخرون إلى المذهب باعتبار أن هؤلاء مجتهدون في المذهب فحسب ، وان كانت لهم ملكة الاستنباط والاستدلال والقوة على الاجتهاد .

ومن مجموع تلك الأقوال التي صدرت عن أبي حنيفة وأصحابه ، وما خرّجه المتأخرون تكوّن المذهب الحنفي . فأصبح المجموع ينسب لأبي حنيفة . والظاهر أن منعهم اجتهاد أي أحد ، والالتزام بقول إمام المذهب ، لا يعود لأبي حنيفة وحده ، وإنما هو لأبي حنيفة وأصحابه معاً .

طريق الاصول للمذاهب :

إن أصول الفقه للمذاهب قد اتفقت طريقتهم في الأصول في الجملة ، وإن أصولهم لم تكن كأصول المذهب الشافعي ، فهو يعد في الواقع أصلا لأصولهم وإن خالفوه في كثير منها .

---

(١) الموافقات ج ٤ ص ١٣٥ .

فالحنفية قد اتفقت طريقة استنباطهم في الجملة مع أصول الاستنباط عند الشافعي ، وكذلك المالكية اتحدت طريقتهم مع أكثر ما جاء في رسالة الشافعي ، والخلاف بينهم وبينه أكثر مما بينه وبين الحنفية ، وقد تجاوز الخلاف التفصيلات إلى بعض الأصول العامة ، فعمل أهل المدينة حجة عندهم . وقد شدد الشافعي في رده في مواضع كثيرة من كتاب الأم .

والحنابلة قد أخذوا بأصول الشافعي ، ولكنهم لم يتصوروا إجماعاً غير إجماع الصحابة ، وفي التحقيق أنهم وإن خالفوا الشافعي في ظاهر الأصل فإنهم لم يتعدوا عن روح الرأي عند الشافعي ، لأن الشافعي وإن اطلق حجية الإجماع فلم يفرضها في عصر ولا في أمر ، فالفرق في الإجماع بين الشافعي وأحمد ليس كبيراً ، وان كان في ظاهر القول لا يبدو صغيراً .

ومن هذا نرى المذاهب الأربعة تتلاقى أصولهم وتتقارب ينابيع استنباطهم ، ولا تتباعد وإن جاءت الفروع مختلفة اختلافاً كبيراً في بعض الأحيان (١) .

الشيعة والاجتهاد :

كان من المناسب ذكر شروط الاجتهاد عند الشيعة في هذا البحث ، ولكن رأينا تأخير ذلك لمحله ، عند ذكرنا لنهضة الشيعة العلمية ، وأنهم لم يخضعوا لنظام السلطة في غلق باب الاجتهاد ، إذ لم يكن تعليمهم يدخل تحت نظام الدولة ، ولم تخضع مدارسهم لذلك المنهج الذي سارت عليه أكثر المدارس الإسلامية ، بل ساروا على منهج أهل البيت في عدم مؤازرة الدولة (وباب الاجتهاد عندهم لم يغلق ، ولا زال مفتوحاً ، وهذا مما يفاخر به الشيعة سائر جماعات المسلمين اليوم) (٢) .

ومن الخطأ القول بأن الشيعة تقدم أقوال الأئمة على نص الكتاب وحديث الرسول ، كيف وإن أئمة أهل البيت هم حملة علم الكتاب وسنة رسوله ، فهم المبلغون لهما ، وهم أصدق الناس حديثاً وأتقاهم وأشدهم خوفاً من الله ، وأزهدهم في الحياة الدنيا .

وإن الغلو الذي يدعونه على الشيعة في أهل البيت ، انما هو دون الغلو المدّعى لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، من إعطاء أقوالهم وآرائهم منزلة

---

(١) الشافعي لابي زهرة ص ٣٣٠ .
(٢) الشافعي لابي زهرة ص ٢٣٤ .

تهجر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في جانبها . وسيتضح ذلك في بحث الفقه إن شاء الله .

الخلاصة :

إن تفرق المسلمين واختلافهم في المذاهب ، وتعصب كل لمذهبه والانتصار له قد ملأ جو العالم الإسلامي بفتن يتبع بعضها بعضاً ، وهذا التعصب والتحزب هو الذي حمل سيوف المسلمين بعضهم على بعص ، وحلل دماءهم وأموالهم وأعراضهم . وحرّف الكتاب والسنة ثم صيرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد .

ثم ترتب على هذا الافتراق تقويم كل لعمود الشقاق ، وصار كل منهم يعتز بمن مال إليه من الملوك على خصمه وعظمت المجادلة واشتدت المناضلة . وأسباب ذلك ترجع إلى التزلف للأمراء والخلفاء ، والتزاحم على منصب القضاء ، كما ذكر ذلك الغزالي وغيره ، وقد شدد النكير على من ينتقل من مذهب لآخر .

وحدث من وراء ذلك فتن ومشاغبات بين المذاهب ، كما حدث للسمعاني (١) عندما انتقل من مذهب النعمان إلى مذهب الشافعي ، فقامت الحرب على ساق واضطرمت بين الفريقين نيران فتنة كادت تملأ ما بين خراسان والعراق ، واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً ، وذلك في سنة ٤٦٨ هـ وأدى الأمر إلى غلق باب الجامع ، ورفعوا الأمر للسلطان فنفاه من مرو ولم يعد إليها إلا بعد مدة (٢) . وكثير أمثال السمعاني قد واجهوا مصائب عند تحولهم من مذهب إلى مذهب .

وأدى الخلاف بين المذاهب : بأن بعضهم يرمي بعضاً بالكفر ، كما صرح القشيري في كلامه للوزير عندما أراد حل مشكلة الخلاف بين الحنبلية والشافعية. وكان القشيري زعيم الشافعية فقال للوزير : أيّ صلح يكون بيننا ؟ إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دين او تنازع في ملك . فأما هؤلاء فإنهم

---

(١) هو منصور بن احمد التميمي ابو المظفر السمعاني المتوفى سنة ٤٨٩ هـ بمرو كان حنفي المذهب فنشر المذهب الشافعي مدعياً ان الله امره بذلك في الرؤيا اذ رأى رب العزة المقام فقال له : عد الينا ، فأوّل ذلك بانه أراد مذهب الشافعي .

(٢) طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٣ — ٢٥ .

يزعمون أنا كفار ، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كافر ، فأيّ صلح يكون بيننا ؟ (١) .

وذهب بعضهم إلى لزوم تعزير من انتقل من مذهب لمذهب ، وعدم قبول شهادته (كما اشتهر بين الحنفية ، من أن الحنفي إذا انتقل إلى مذهب الشافعي يعزر ، وإذا كان بالعكس يخلع ، وقيل لا تقبل شهادته) (٢) ومنعوا اقتداء بعض أهل المذاهب بالبعض الآخر ، إلى غير ذلك من الأمور التي هي بعيدة عن روح الإسلام ، ولا يقرّها أولئك الأئمة ، ولا يرضون بها . بل تجد الحنفي في كثير من البلاد لا يصلي خلف الشافعي . وكسر بعضهم سبابة مصل لرفعه إياها في التشهد لأن ذلك محرم عندهم ، كما ذهب إليه الكيداني وغيره من الحنفية ، واختلفوا في تزويج الحنفية بالشافعي ، لقول بعضهم : لا يصح ذلك لأنها تشك في إيمانها ، يعني أنّ الشافعية وغيرهم من الأشعرية يجوزون أن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله. وقال آخرون: يصح نكاحها — أي الشافعية — قياساً على الذميّة (٣) .

وبهذا الاختلاف وقع من الفتن بين المختلفين في الفروع وفي الأصول ما سوّد وجه التاريخ ، وكدر صفو الأخوة ، وذهب بجهود المصلحين أدراج الرياح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي الحقيقة إنّ مبعث ذلك إنما هو حب الرياسة والاثرة ، وشغب المتدخلين في صفوف المسلمين لإيقاد نار البغضاء والحقد ، ولو رجعنا إلى الواقع نجد ذلك الشذوذ والتطرف الذي ارتكبه المتعصبون بعيداً كل البعد عن الدين .

وبعد أن مرت تلك الأدوار وما فيها — وفي ذمة التأريخ ذلك — فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الوحدة والتفاهم ، لرفع تلك الأشواك التي غرست في طريق تفاهم المسلم مع أخيه ، لأنا في مشاكل أمام خصوم الإسلام لا يحلها إلا الاتحاد والرجوع إلى الأمر الأول ، واتباع أوامر الرسول وتعاليم القرآن ، وأخذ العلم من أهله ، وأن نعرف الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلاً فنتجنبه ، لنعيش عيش سعادة وهناء تحت ظلال الدين الحنيف .

وإلى الله نبتهل أن يجعل كلمة الإسلام هي العليا . وأن يجمع شمل المسلمين

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج ١ ص ٢٢ .
(٢) ايقاظ همم ذوي الابصار ص ٧٦ .
(٣) الوحدة الإسلامية ١٤٥ — ١٤٦ .

وينصرهم على خصومهم الذين يكيدون لهم ويسعون في تفريق كلمتهم ، وما النصر إلا من عند الله .

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ».



الإمام الشافعي



تمهيد :

مر بنا من قبل أن البحث عن حياة أئمة المذاهب الأربعة معقد يحتاج إلى مزيد من العناية ، لكثرة الحكايات والقصص التي لا تتسق مع الواقع ولا أثر لها في تمييز الطابع الذي طبع عليه ، لذلك نرى من الحق علينا أن نتناول دراسة حياة كل واحد منهم من طرقها المختلفة ، لكي يتسنى لنا الوقوف على الواقع بعد التمحيص والتثبت في جميع ما ورد بمختلف المصادر ، من أمور متباينة وأقوال متناقضة ، كان مبعثها اندفاع بعض معتنقي المذهب وراء العاطفة ، والخروج عن حدود الواقع ، إذ العاطفة تغلب على العقل فتعطله ، وتطغى على الواقع فتخفيه ، وتجعل الأمور الوهمية كحقائق لا تقبل النقاش والجدل ، وبذلك تضاعفت تلك الصعوبات التي تقف أمام الباحث ، وها نحن أمام البحث عن حياة الإمام الشافعي ، وقد وقفنا على كثير من الزوائد فأهملنا ذكرها ، وإن من الغريب أن يجمد بعض أساتذة العصر الحاضر على ما وقفوا عليه في دراسة حياة الإمام الشافعي بدون تمحيص ، وكان الواجب يقضي عليهم أن يتتبعوا الحقائق التاريخية ولا يقتنعوا بكل ما ورد ، واليك مثلا من ذلك :

الأستاذ علي فكري ، الأمين الأول لدار الكتب المصرية ، يحدثنا أن الشافعي سافر إلى العراق في حياة الإمام مالك ودخل الكوفة واجتمع بأبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وجرت بينهم مناظرات ومسائل ، ونزل في الكوفة ضيفاً على محمد بن الحسن ونسخ كتبه . ثم ذكر رحلته إلى بلاد فارس وما حولها من بلاد العجم ، ثم سافر إلى بلاد ربيعة ومضر وشمال العراق حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم — وهي الأناضول الآن — وعرج على حرّان وأقام فيها زمناً ، ثم سافر منها إلى فلسطين وأقام في الرملة في جنوب بيت المقدس . وقد استغرقت هذه السياحة حولين كاملين من سنة ١٧٢ هـ إلى سنة ١٧٤ ثم رجع إلى المدينة لرؤيا مالك . إلى آخر ما ذكره (١) .

وجميع ما ذكره لا أصل له ، والأستاذ عوّل على مخيلته أو على كتب لا يعتمد عليها . وكان بوسعه — وهو الأمين الأول لمكتبة عامة — أن يراجع ويبحث وينقب عن مصادر يستمد منها ما يكتب .

---

(١) أحسن القصص ج ٤ ص ٧٣ — ٨٧ .

كان بوسع الأستاذ أن يقف على الحقائق التاريخية ، وأن يعلم أن رحلة الشافعي كانت لبغداد لا للكوفة ، وذلك سنة ١٨٤ ﻫ وهي الرحلة الأولى ، وأن وفاة أبي يوسف كانت سنة ١٨٣ ﻫ ، أي قبل دخول الشافعي لبغداد بأكثر من سنة .

وكان بوسع الأستاذ أن يعرف وفاة الإمام مالك وهي سنة ١٧٩ ﻫ، وأن رحلة الشافعي سنة ١٨٤ ﻫ ، ليتضح له أن رحلة الشافعي كانت بعد وفاة مالك بخمس سنوات .

ولعله استند في بعض ما نقله إلى الرحلة التي وضعها عبد الله بن محمد البلوي ، وهي مكذوبة لا أصل لها ، كما نص على ذلك حفاظ الحديث ، كأبي نعيم ، والفخر الرازي ، وابن حجر وابن القيم وغيرهم . وكثيراً من الأمور التي تخالف الواقع أوردوها على علاتها في ترجمة الشافعي بدون تثبت وترو .

وعلى أي حال فإن من الحق أن نتناول دراسة حياة الإمام الشافعي من مختلف المصادر ، ولنا الحق في التنبيه إلى بعض ما يخالف الواقع خدمة للعلم وطلباً للحق ، والله هو المسدد للصواب .

نسبه ونشأته :

أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف .

ولد سنة ١٥٠ ﻫ نهار الجمعة آخر يوم من رجب وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة ، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال .

واختلفوا في محل ولادته فقيل بغزة ، أو عسقلان ، أو اليمن وهنا قول شاذ : أنه ولد بمكة ، وقد اجهد أصحاب المناقب أنفسهم بالجمع بين هذه الروايات ولا حاجة لذكرها هنا .

أما وفاته فكانت سنة ٢٠٤ ﻫ بمصر ، وحمل على الأعناق من فسطاط حتى دفن في مقبرة بني زهرة ، وتعرف بتربة ابن عبد الحكم وفيه يقول الشاعر :

أكرم به رجلاً ما مثله رجلٌ   مشارك لرسول الله في نسبه
أضحى بمصر دفيناً في مقطمها   نعم المقطم والمدفون في تربه (١)

---

(١) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص ٣ – ٥ وهامش الانتقاء لابن عبد البر ص ٦٦ والشافعي لمحمد ابو زهرة ص ١٥ .

والمطلب الذي ينتهي إليه الشافعي هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة ، وهم : المطلب وهاشم وعبد شمس جد الأمويين ونوفل . والمطلب هو الذي ربّى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جد النبي ﷺ .

فالشافعي بهذا السياق قرشي النسب ، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف . هذا ما عليه الأكثر .

وذهب بعضهم : أن الشافعي لم يكن قرشياً بالنسب بل كان قرشياً بالولاء . فهو مولى لهم وليس منهم ، لأن شافعاً جده كان مولى لأبي لهب ، فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع ، فطلب من عثمان ذلك ففعل ، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي من موالي قريش كما ذكر ذلك بعض المالكية والحنفية .

وأما أمّه فهي من الأزد وكنيتها أم حبيبة كما ذكر ذلك الساجي ، والأبري والبيهقي والخطيب والاردستاني وغيرهم .

وقيل : إنها أسدية ، مستدلين على ذلك بما روي عن الشافعي : أنه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ينزل عنده فأبى وقال : أنزل على أخوالي الأسديين فنزل عليهم (١) .

وقيل انها فاطمة بنت عبد الله ، أو عبيد بن الحسين بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، قال الرازي : وهذا القول شاذ رواه الحاكم ، وضعفه البيهقي ، وذهب المقري الى نفيه ، ولكن السبكي ذهب الى تأييده وليس له شاهد على ذلك .

وقيل أيضاً : إنها فاطمة بنت عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أو أنها بنت عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (٢) .

وعلى أي حال : إن الادعاء بكرامة قرشية علويّة مخالف لما عليه الإجماع وعلماء النسب ، ولكن ذلك حصب محض وادعاء يخالف ما جاء عن الشافعي في عدة روايات : أن أمه أزدية لا قرشية وانعقد الإجماع على ذلك .

أما أبوه ادريس فلم يفصح التاريخ عن شيء من حياته وسيرته ووفاته ، ولم يحتفظ إلا بالاسم فقط فليس له ترجمة في جميع الكتب التي ذكرت الشافعي ، ولا في غيرها من كتب الحديث والرجال والأدب .

وبذلك حرمنا معرفة كثير من الأمور التي نود أن نعرفها عن حياة ادريس والد هذا الإمام العظيم . وقد ذكر بعضهم أشياء مرتجلة لا صحة لها كقول هداية الله الحسيني : إن والد الشافعي سلمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجي

---

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) مناقب الرازي ٦ وطبقات السبكي ج ١ ص ١٠٠ — ٢٤٩ وتوالي التأسيس ص ٤٦ ، ومشارق الأنوار للعدوي ص ١٨١ وغيرها .

مفتي مكة . وهذا غير صحيح بالإجماع ، لأن جميع الروايات متضافرة على أن الشافعي نشأ يتيماً في حجر أمه ، وتولت تربيته عندما خشيت عليه الضيعة فأرسلته إلى مكة وهو ابن عشر سنين .

فالشافعي إذاً لم يترب في ظلال أبيه ولم يتول ذلك إلا أمه ، ولا نعلم أنه عرف أباه وحدث عنه ، كما لا نعلم هل ولد الشافعي في حياة أبيه أم أنه مات أبوه وهو حمل في بطن أمه ؟ وهل أن ادريس كان في مكة ورحل إلى اليمن . وما هي أسباب رحلته ؟ كل ذلك مجهول وفي ذمة التاريخ .

وجاء في مقدمة كتاب الام : أن والد الشافعي كان رجلاً حجازياً فقيراً خرج مهاجراً من مكة إلى الشام وأقام بـ « غزة » و « عسقلان » ببلاد فلسطين ، ثم مات بعد ولادة الشافعي بقليل .

ولكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخي ، وأياً كان فالروايات مختلفة والأقوال متفرقة في ولادته ومحلها ، وهجرته ووقتها وكذلك رحلاته المتعددة وتحصيله للعلم بأي زمن . فهل كان من صغر سنه أم بعد نشأته . وكذلك دخوله إلى مكة فقيل : إنه لما بلغ من العمر سنتين وأصبح قرة عين والدته ، فرأت أمه أن تحمله إلى مكة المكرمة ، صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في غزة فهاجرت به ، ونزلت بجوار الحرم بحي يقال له « شعب الخيف » ولما ترعرع أرسلته أمه إلى الكتاب وحفظ القرآن وعمره سبع سنوات . وقيل : إن الشافعي ولد بغزة وحمل إلى عسقلان ودخل مكة وهو ابن عشر .

طلبه العلم في مكة :

كان دخول الشافعي إلى مكة وهو صغير السن ، ولما ترعرع سلمته أمه إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم الكتابة ، وكان حريصاً على استماع الحديث ، وكان يكتب على الخزف مرة وعلى الجلود أخرى .

وخرج إلى البادية فلازم هذيلا ، وحفظ الأشعار وكان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم ، فرجع إلى مكة ينشد الأشعار ويذكر الآداب والأخبار ، وقد تأثر بالبداوة واكتسب من هذيل فصاحتهم ، كما يحدث عن نفسه (١) .

ويظهر أن مقامه في البادية كان أكثر من عشر سنين ، وفي إحدى الروايات أنه أقام عشرين سنة(٢) وفي أخرى سبع عشرة سنة ، كما حدث هو عن نفسه(٣)

(١) معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٨٥ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ – ٢٥٢ .
(٣) معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٨٥ .

وفي هذه المدة لم تكن له شهرة علمية ولم يتجه لطلب الفكر ولم يعرف به .
قال النووي : كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب ، ثم أخذ في الفقه ، ثم ذكر سبب ذلك (١) .

وقد صرح الشافعي بسبب اتجاهه لطلب الفقه فيما يروى عنه أنه قال بعد أن ذكر ابتداء تعلمه للقرآن والكتابة في مكة : ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب ، فمر بي رجل من الزبيريين من بني عمي ، فقال لي : يا أبا عبد الله عزّ علي أن لا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه (٢) . فهو لهذا الحد وطول ذاك الزمن لم يعرف الفقه ، وكان قول الزبيري سبباً لتوجيهه إلى طلب الفقه والحديث ، فقصد لمجالسة مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة المتوفى سنة ١٨٠ هـ وهو أول شيوخ الشافعي .

وروى النووي عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب ، ثم أخذ في الفقه؛ وكان سبب ذلك : أنه كان يسير يوماً وخلفه كاتب لابي فتمثل الشافعي ببيت شعر فقرعه الكاتب بسوطه ثم قال : مثلك يذهب بمروته !! أين أنت من الفقه ، فهزه ذلك فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجي (٣) .

والذي نستظهره من مجموع الروايات ، أن اتجاه الشافعي لطلب العلم كان في العقد الثالث من عمره ، وعلى رواية ابن كثير أن بقاءه في البادية عشرين سنة . فيكون طلبه للفقه في العقد الرابع ، أي بعد تجاوزه الثلاثين من عمره ، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجي قليلة جداً .

فما يروى عن الحميدي أنه قال : سمعت خالداً الزنجي وقد مر على الشافعي وهو يفتي ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، فقال : يا أبا عبدالله افت فقد آن لك أن تفتي ، فإنه لا أصل له ، نظراً لما بين أيدينا من الأدلة التاريخية المصرحة بأن الشافعي لم يعرف بالفقه إلا من بعد مدة طويلة ، مع أن الحميدي لم يدرك مثل هذا التاريخ . قال الخطيب البغدادي بعد نقل هذه الحكاية :

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ١ ص ٤٦ .
(٢) معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٨٤ وتهذيب الأسماء ج ١ ص ٤٦ والحلية ج ٩ ص ٧٠ .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٤٦ .

«وليس ذلك بمستقيم لأن الحميدي كان يصغر عن إدراك الشافعي وله تلك السن» (١) .

ومن الغريب إرسال ذلك إرسال المسلمات ، وقد جعلوا هذا النقل من المؤيدات لعلم الشافعي وعلو منزلته ، لأنه كان يفتي وهو ابن خمس عشرة سنة . وبعضهم يرجع إلى الوراء فيقول : إنه كان يفتي وهو ابن عشر سنين ! وكل ذلك غير صحيح لأن المشهور عن الشافعي أنه قدم مكة وهو ابن عشر سنين أو أكثر وتعلم القرآن فيها ، وانصرف إلى حفظ الأشعار ، ولازم هذيلا ، وكان مقامه في البادية أكثر من عشر سنين ، وقيل عشرين سنة ، وقيل سبع عشرة سنة كما تقدم بيانه .

ومهما يكن من أمر فإن الشافعي لم يعرف الفقه والحديث وهو في مكة ، ولكنه اتصل بعد ذلك بمالك بن أنس ، ورحل إلى المدينة لتعلم الفقه والحديث ، وواصل دراسته فكانت له تلك الشهرة بعد مدة طويلة .

قال ابن حجر : انتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك ، ورحل الشافعي إليه ولازمه ، وأخذ عنه ، وانتهت رياسة الفقه إلى ابي حنيفة ، فأخذ عن صاحبه محمد حملاً ليس فيها شيء الا وقد سمعه عليه . فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث .

وكان محمد يواسيه بالبر ويتعاهده بالاعطيات بخمسين ديناراً فما فوقها بين حين وآخر ، وبمحمد اكتمل بدر الشافعي ، وبه تخرج حتى أصبح له شأن في العلم ...

طلبه العلم في المدينة :

اتجه الشافعي لطلب الفقه ، وحضر على بعض علماء مكة كخالد الزنجي وسعيد بن سالم القداح ، واشتهر مالك بن أنس في المدينة وشاع ذكره ، فتاقت نفس الشافعي إلى الهجرة للمدينة طلباً للعلم والحضور عند مالك بن أنس ، فأخذ وصية من والي مكة إلى والي المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالك .

قال الشافعي : فأوصلت الكتاب إلى الوالي ، فلما أن قرأه قال : يا فتى إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٦٤ .
(٢) الانتقاء ص ٦٩ .

إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه ، فقلت : أصلح الله الأمير إن رأى يوجه إليه ليحضر . قال : هيهات ليت اني إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا .

قال : فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لكان كما قال . فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير : قولي لمولاك إني بالباب ، فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرؤك السلام ويقول : إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف . فقال قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة ، فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي فوضعته ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة ، فرفع إليه الوالي الكتاب (١) .

وهنا يحدثنا الشافعي عن انتقاد مالك له بحمله الكتاب من الوالي وتأثره من ذلك ، يقول الشافعي : إن مالكاً عندما قرأ الكتاب رمى به من يده ثم قال : سبحان الله أو صار علم رسول الله يؤخذ بالوسائل ؟ . فأجابه الشافعي معتذراً وأخبره بقصته .

اتصل الشافعي بمالك وأخذ عنه وقرأ الموطأ ، ولا نعرف بالضبط متى كان قدوم الشافعي إلى المدينة وحضوره عند مالك ، وكم كانت سنه يوم ذاك . والأخبار مضطربة مشوشة جداً لا نكاد نلمس الواقع منها ، فالحكايات الواردة عن الشافعي مختلفة . فمرة أنه اتجه لمالك بعد عودته من البادية ، وأخرى بعد وفاة خالد الزنجي .

وعلى أي حال : فالمحصل من مجموع الروايات أنه قدم على مالك وقد تجاوز عمره الثلاثين سنة . وما يرويه ابن حجر في مناقب الشافعي أنه حضر عند مالك وعمره ثلاث عشرة سنة هو خطأ بيّن ونقل بدون تثبت ، إذ لا خلاف بأن وروده على مالك كان بعد عودته من البادية ، وقد مكث فيها مدة تزيد على خمس عشرة سنة .

ومن المحقق أن ملازمته لمالك كانت أربع سنوات وتوفي مالك سنة ١٧٩ ﻫ فيكون عمر الشافعي ٢٩ سنة . وبقي الشافعي بعده في ضنك من العيش ، وبسبب ذلك كانت رحلته إلى اليمن مع واليها وليس له ما يستعين به من المال فرهن داره وأخذ ثمنها .

---

(١) معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٧٥ ومناقب الفخر الرازي ص ١٠ .

ولاية الإمام الشافعي :

نشأ الشافعي يتيماً في حجر أمه كما تقدم ، ولما اتصل بمالك اتسعت حاله بواسطته ، لأنه كان يرعاه ويقوم بشؤونه ، فلما توفي مالك سنة ١٧٩ هـ اشتد الأمر عليه وضاقت حالته ، فاتفق أن والي اليمن قدم المدينة فكلّمه بعض القرشيين في ان يصحبه . فأخذه ذلك الوالي معه واستعمله في اعمال كثيرة (١) فبقي في العمل خمس سنوات ، وبهذه المدة كان متجهاً للعمل والولاية ، وخمد ذلك النشاط الذي في نفسه نحو الاتجاه لطلب العلم ، لأنه مشغول في تدبير شؤون السلطان ومعاملة الناس إلى سنة ١٨٤ هـ وهي السنة التي قدم فيها لبغداد المرة الأولى بسبب المحنة واتّهامه بالميل للعلويين . وان مطرفاً كتب إلى الرشيد : ان اردت اليمن لا تفسد عليك فاخرج محمد بن إدريس فحمل إلى بغداد ، وقد جاء عن الشافعي : انه نقل من اليمن إلى ولاية نجران فأحسن السيرة هناك.

الإمام الشافعي في بغداد :

قدم الشافعي العراق ثلاث مرات ، الأولى سنة ١٨٤ هـ حمل من اليمن إلى بغداد بسبب اتّهامه بالميل للعلويين ، والثانية سنة ١٩٥ هـ بعد أن مات هرون الرشيد ، والثانية سنة ١٩٨ هـ .

اما الأولى : فكانت بسبب اتّهامه بالميل للعلويين ، أو أن عامل اليمن تغير عليه وثقل مقامه هناك ، لأن الشافعي كان يعارض ظلم ذلك الوالي وينبه الناس على مؤاخذته . وأن الشافعي أحسن إدارة العمل ونال ثناء الناس مما أوجب تغير قلب الوالي عليه ، واتّهامه بالميل للعلويين ، وذلك أعظم جرم تعاقب عليه الدولة ، وان كان هذا الاتّهام وتلك القضية اشبه شيء بالاساطير .

وعلى أي حال : فقد حمل الشافعي إلى بغداد بتهمة المخالفة للدولة والإنضمام لجانب العلويين . وتعرض بتلك التهمة إلى خطر شديد ، ولكنه دافع عن نفسه ، وتوسط له الفضل بن الربيع وتشفع له ، فنجا بعد ان قتل من كان معه . وسيأتي البحث عن أسباب التشيع وعن ميله للعلويين .

وإذا أردنا البحث عن محنة الشافعي وقدومه لبغداد ، وما قابل به الرشيد عند اجتماعه ، ومناظرته مع محمد بن الحسن الشيباني ، فالأمر يستدعي اطالة

(١) مناقب الفخر الرازي ص ١٠ .

البحث واتساع شقة المناقشة ، للمناقضات في تلك الرحلة المروية عن الشافعي . ففي بعضها : انه ناظر أبا يوسف (١) وهذا غير صحيح لأن وفاة أبي يوسف كانت سنة ١٨٢ هـ أي قبل ورود الشافعي بسنتين .

وفي بعضها : ان محمد بن الحسن انتصر للشافعي ، واخرى انه حرض الرشيد على قتله ووصفه بأنه يريد الخروج على الدولة ، وان الرشيد سأل ابا يوسف عن صدق هذه الدعوى فأيدها .

وهناك اختلاف في حمله إلى العراق ، هل كان من اليمن أم من مكة ؟ فابن عبد البر ، يروي بسند عن المزني عن الشافعي أنه قال : رفع إلى هارون الرشيد أن بمكة قوماً من قريش استدعوا رجلا علوياً كان باليمن ، فاجتمع إليه من قريش فتية جماعة ، يريدون ان يبايعوه ويقوموا به ، فأمر الرشيد يحيى ابن خالد بن برمك أن يكتب إلى عامله بمكة أن يبعث إليه ثلاثمائة رجل كلهم من قريش ، مغلولة ايديهم إلى أعناقهم . قال الشافعي : فأشخصت فيمن أشخص مغلولاً ، فلما وردنا العراق أتي بنا إلى دار يحيى بن خالد وقال لنا : يا معشر قريش قد رفع عليكم أمر كبير وعسى الله ان ينجيكم من البلاء ان كنتم قد بغي عليكم ، والذي أراه ان تقدموا من انفسكم رجلا يخاطب الرشيد عنكم وعن نفسه ، فقالوا كلهم: هذا الشافعي يخاطبه. ثم حكى عن نفسه دفاعه عنها وعنهم ، فكانت النتيجة أن عفى الرشيد عن الجميع وأمر لهم بجائزة (٢) .

وبصورة أخرى : انه حمل من الحجاز مع تسعة من العلويين فضُربت أعناقهم ، ونجا الشافعي واكرمه الرشيد .

وفي الحلية : ان السبب في حمله من اليمن : ان خارجياً خرج على هارون الرشيد ، فارسل الرشيد إليه جيشاً فقبض عليه وحمل إلى العراق ومعه الشافعي ، وأحضروا جميعاً وأمر بقتلهم فعرض الشافعي عليه قصته مع الخارجي وبين له نسبه ، وذكر كلاماً استحسنه الرشيد وطلب اعادته ، وقال له : كثر الله في أهل بيتي مثلك (٣) . وعفى عنه ، إلى آخر الاختلاف في الصور ، والزمان ، والأسباب .

ومهما يكن من أمر فان الغرض من اتساع هذا الحادث ، وإيراده

(١) الحلية ج ٩ ص ٨٥ .
(٢) الانتقاء ص ٩٦ .
(٣) الحلية ج ٩ ص ٨١ .

بصور مختلفة هو التعصب للشافعي ، ووصفه بعلو المنزلة واتساع العلم وقوة الحجة ، ونبوغه على القرشيين ، كما رأيت في الصورة المتقدمة ، بأن اولئك القرشيين الذين حملوا معه وكانوا ثلاثمائة رجل كأن الله سلب منهم كل موهبة الدفاع عن النفس ، وقوة الحجة ، وطلاقة اللسان ، وبلاغة البيان وهم أهله ، فليس لهم قابلية على الدفاع ، ولم يملكوا من الشجاعة والجرأة قليلا أو كثيراً لمقابلة الخصم ، وادلاء الحجة واظهار الحق ، فكانوا كجماد أو اشباح لا حراك فيها ، وانفرد الشافعي بالجرأة وقوة البيان وثبات القلب ، وهو شاب قد تجاوز الثلاثين من عمره ، وحاشا قريشاً ان يمثلوا موقفاً كهذا الموقف ولكن دائرة الاختراع واسعة ، والتقولات لاحد لها . وقد اعترف الشافعي نفسه بقصوره عن ادراك منزلة الطالبيين واحجامه عن الكلام بحضورهم كما يروى : أنه حضر الشافعي مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال : لا اتكلم في مجلس أجدهم احق بالكلام مني ، ولهم الرياسة والفضل (١) .

وقد وضع عبد الله بن محمد البلوي صورة لهذه الرحلة تتضمن أشياء كثيرة لا أصل لها (٢) وهي طويلة ، ذكر فيها دخول الشافعي على الرشيد مقيداً بالحديد ، وسؤال الرشيد له بمختلف العلوم والفنون ، وجواب الشافعي له ، ووعظه ، وبكاء الرشيد ومن حضر ، إلى آخر ما فيها من الأمور المكذوبة التي لاتمت بالواقع وقد نص ابن حجر (٣) وابن القيم الجوزية (٤) وغيرهما على وضعها .

وخلاصة القول : ان مجموع الروايات في محنة الشافعي وحمله لبغداد مضطربة كل الاضطراب ، وتشتمل على أشياء لا صحة لها ، كما تشتمل على ما لا يصح صدوره من الشافعي كما نقلوا عنه في جوابه للرشيد — عند الدفاع عن نفسه من تهمة المبايعة للعلويين — انه قال للرشيد : أأدع من يقول أني ابن عمه (يعني الرشيد) وأصير إلى من يقول اني عبده (يعني العلويين) ؟ . . .

ان هذا من التجني على الحقائق والتهجم على الواقع بان ينسب العلويين إلى اتخاذ المسلمين عبيداً ، وانهم يسيرون تحت طغيان الانانية التي لا توضح لهم الا طريق الاستعباد للناس ، والاستعلاء عليهم والاحتقار لهم ، وحاشاهم

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٩٥ .
(٢) الحلية ج ٩ ص ٨٥ — ٩١ ومناقب الفخر الرازي ص ٢٣ — ٢٧ .
(٣) مناقب الشافعي لابن حجر ص ٧١ .
(٤) مفتاح السعادة ص ٥٦٥.

من ذلك وهم ابعد ما يكون عن اتصافهم بما يخالفون ما طبعوا عليه ، من اتباع نظم الإسلام ، وان الناس عندهم سواسية لا يتفاضلون إلا بالاعمال الصالحة ، وهم لم يكونوا كغيرهم ممن ولي أمر المسلمين الذين لا يشعرون إلا بوجودهم الخاص ، ولا يفكرون إلا نحو ما يعود عليهم بالنجاح ، ولا يرون إلا مصلحة أنفسهم ، ولا يقيمون لمصالح الأمة وزناً .

كل هذا لم يكن له أثر عند العلويين ، وحاشاهم من ارتكاب ما يخالف نظام الإسلام واحكامه . وصدور مثل هذا القول من الشافعي تقوّل عليه بالباطل ، ولا يصح ذلك عنه . وقد صح عنه انه بايع ليحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى .

قال ابن العماد : قام يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى وبث دعاته في الأرض ، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقين ، وبايعه من العلماء محمد بن إدريس الشافعي ، وسليمان بن حرير (١) .

وفي هذه المحنة التي امتحن بها الشافعي كانَّ له أسوة بمن قبله من أئمة المذاهب ، فابو حنيفة قتل مسموماً بدعوى أنه لم يقبل القضاء ، ومالك بن أنس ضرب بالسياط لفتوى تخالف رأي السلطان ، وليس ببعيد أن مخترع هذه المحنة أراد مساواة الشافعي بمن قبله وبمن بعده ، فان أحمد ابن حنبل امتحن في مسألة خلق القرآن ، وكذلك قالوا أن الشافعي امتحن باتهامه بالمميل للعلويين وذكروها بصورة موسعة والفاظ مختلفة . وهي من تصرف كتاب المناقب والمنتصرين للمذهب .

الإمام الشافعي في مصر :

قدم الشافعي إلى مصر سنة ١٩٨ هـ ، ونزل بالفسطاط ضيفاً كريماً على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، فاكرم مثواه وآزره ، وكانت لمحمد ابن عبد الله مكانة في مصر ورياسة علمية ، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً ، وتأكدت بينه وبين الشافعي مودة وإخاء ، وقام في معاونة الشافعي ومؤازرته ونشر علمه . وكان قدوم الشافعي إلى مصر في صحبة الوالي من قبل المأمون ، وهو العباس بن موسى العباس ، فلقي هناك إقبالا من المالكية ، لأنه من أشهر تلامذة مالك بن أنس ، وكان يقول : هذا قول استاذنا (يعني مالكاً).

---

(١) شذرات الذهب ج ١ ص ٣٢٨ .

ولما استقل بآرائه ووضع الكتب في الرد على مالك تنكر له المالكية وعارضوه وارادوا إخراجه من مصر واتّهموه بالتشيع مرة ، وبمقاومة السلطة أخرى ، حتّى اغتالوه فمات بسبب ضربة على رأسه سنة ٢٠٤ هـ .

والذي يظهر أن الشافعي عاد إلى مكة وبقي مدة ، ثم رجع سنة ٢٠٠ هـ وفيها سطع نجمه وكثر اتباعه رغم تعصب الحنابلة عليه وايذائه .

* * *

الإمام الشافعي
حياته العلمية



مناقبه :

إن من الحق والإنصاف أن نعطي شخصية كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة حقها من الدراسة والعناية العلمية ، وأن نتناول سيرهم من غير تعصب وتحيز ، وننظر إلى ما كتب عنهم بعين تبصر الحقيقة ، وتبرز جوهر تلك الشخصيات التي أخذت محلها من التشريع الإسلامي .

ومهما يكن من أمر فان المؤثرات الاجتماعية والأحداث السياسية تشوه سير البحث ، ولا يستنتج الباحث منها الغاية المطلوبة ، إذ أن أكثرها مبالغات أوجدها التعصب الطائفي ، عندما كثر الجدل وعظم الخلاف بين أنصار المذاهب ، وخاصة المؤرخين والراوين ، الذين ساروا على ما تقتضيه ظروفهم المعاشية أو السياسية لا لما يقتضيه واقع الأئمة الملموس ، وقد وصفوهم بصفات بعيدة عن الحقيقة ، إذ جعلوهم في أعلى درجة من الكمال ، وارفع منزلة من العلم . بحيث يمتنع على أي مخلوق ان يصل إلى تلك المنزلة !

ولا حاجة بنا إلى اعادة النظر في تلك الأمور ، ولسنا نرغب أن نستقصي القول فيما أُدعي للشافعي من تلك المناقب الموضوعة ، نعم لا بد لنا من التعرض للاحاديث التي استدلوا بها على تقديم الشافعي على غيره ، وترجيح مذهبه على سواه ، في لزوم الأخذ به ، ووجوب اتباعه ، والاقتداء به ، وإلى القارىء طرفاً من تلك الأحاديث :

١ — من يرد هوان قريش أهانه الله .

٢ — من أحب قريشاً أحبه الله ، ومن أبغض قريشاً ابغضه الله .

٣ — إذا اجتمعت جماعات من قريش فالحق مع قريش ، وهي مع الحق .

٤ — إنما نحن وبنو المطلب هكذا — وشبك بين اصابعه .

٥ — أمان أهل الأرض من الإختلاف الموالاة لقريش .

٦ — هذا الأمر في قريش ، لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على منخريه .

٧ — الأئمة من قريش .

٨ — إن الله يبعث لهذه الأمة على كل مائة سنة من يجدد لها دينها .

وبهذه العمومات بنوا حصر الأخذ عن الشافعي ووجوب الرجوع إليه .

قال السبكي بعد إيراد هذه الأحاديث : والغرض الأعظم تبيين انه

(أي الشافعي) قرشي مطلبي ، وذلك أمر قطعي ، ومن أجله سقنا ما اوردناه من الأحاديث . ثم يمضي في الاستدلال على انحصار هذه الأحاديث وتخصيص عموماتها في الشافعي ، وهي حصر المبتدأ بالخبر (١) .

والواقع غير هذا ! فان هذه الأحاديث مع فرض صحتها هي عامة شاملة ، ولا سبيل إلى حصرها بالشافعي ، والاستدلال بها غير وجيه . وقد فرعوا على هذه الاحاديث اشياء كثيرة .

منها حرمة نسبة الخطأ للشافعي في مسألة ما ، لأن ذلك إهانة له ، وإهانة القرشي غير جائزة ، ومنها وجوب الحذر من معاندة الشافعي وبغضه وعداوته (٢) . ومنها لزوم تقديم الشافعي ، والابتداء بذكره لقول النبي (ص) « قدموا قريشاً وتعلموا من قريش » . إلى آخر ما هنالك من أمور اثبتوها في تقديم الشافعي على غيره .

وكان إمام الحرمين ، وابن السمعاني ، والكيا الهراسي ، وغيرهم يقولون لتلامذتهم : يجب عليكم التقيد بمذهب إمامكم الشافعي ، ولا عذر لكم عند الله تعالى في العدول عنه (٣) .

ومهما يكن من أمر فان هذه الأحاديث لا تنهض حجة على المطلوب ، وليس فيها ما يصلح لإثبات المدّعى . وقد أجاب عنها أصحاب المذاهب الأخرى بأجوبة كثيرة ، منها :

١ — ان المراد بحديث « قدموا قريشاً » انما هو في الخلافة لا العلم .

٢ — إن قوله : « تعلموا من قريش ولا تعلموها » فهذا الخبر لا أصل له . وكيف يُظن به — عليه الصلاة والسلام — ان يقول : اتركوا جهال قريش على جهلهم فلا تعلموها ، هذا محال .

ثم قالوا : ان الشافعي كان قرشياً ، ولم يكن له معلم من قريش وإنما أخذ علمه من غير قريش ، كمالك بن أنس ، ومحمد بن الحسن ، وخالد الزنجي ، وهؤلاء من غير قريش (٤) .

٣ — وقال ابن الجوزي : فأما قوله : قدموا قريشاً فقد قال إبراهيم الحربي : سئل أحمد بن حنبل عن ذلك ، فقال : يعني الخلافة .

---

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠١ .
(٢) مناقب الفخر ص ١٣٦ .
(٣) ميزان الشعراني ج ١ ص ٤٠ .
(٤) مناقب المكي ج ٢ ص ١٤٣ — ١٤٥ .

ويقول : فان قالوا (أي الشافعية) : ان الشافعي كان فصيحاً فمسلّم ، وذلك لا يعطي التقدم على غيره ، لأن التقدم بكثرة العلم . على أنه قد أخذ عليه كلمات فقالوا : قد قال : ماء مالح . وانما يقال ماء ملح .

وقال : إذا اشلا كلباً « يريد أغراه » وإنما الاشلاء عند العرب الاستدعاء.

وقال : ثوب يسوى كذا ، والعرب تقول يساوي . ثم ذكر ابن الجوزي أدلة ترجيح أحمد بن حنبل على الشافعي بالعلم (١) .

وصفوة القول : ان ادعاء الشافعية بالأحاديث ، في لزوم اتباع الشافعي لا يقرها المنطق الصحيح ، وان جميع حججهم لا تنهض في إثبات المدعى . على اننا نناقش في أصل لزوم الرجوع إلى مذهب معين ، وأنه أمر لا دليل عليه . وقد بينا ذلك في البحث السابق ، باشارة موجزة حول الإجتهاد والتقليد .

فإذا كان أصل الإلتزام لا أصل له فلا حاجة إلى هذا التكلف .

كما لا حاجة إلى ذكر كثير من المناقب التي اسندوها للشافعي وغيره ، من منامات وغيرها ، تدل بمؤداها على لزوم اتباعه والأخذ بمذهبه .

والخلاصة : أن اتباع كل إمام قد أحاطوا شخصية إمامهم بهالة من التقديس ، وسلكوا سبلاً مختلفة و طرقاً متعددة ، لاقامة الدليل على اعلمية إمامهم ، واولويته بالاتباع دون غيره ، فنشبت خلافات وظهرت ضغائن ومرت الأمة نتيجة ذلك بفترة محزنة ، توترت فيها العلاقات الإجتماعية ، وصبغت بالحدة والعنف .

ولقد كان الهدف الأول لاختراع تلك الأمور ونشرها هو إثبات اعلمية ذلك الإمام ، وأهليته للإتباع ، لينتشر المذهب ويكتب له النجاح .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتدت الحركة الادعائية هذه لترتكز على قاعدة قوية يكون لها أثرها في رسوخ المذهب وثبوته في القلوب ، وذلك ادعائهم بالبشائر النبوية فكل سلك جانباً من الإدعاء على صاحب الرسالة ، وقد ساهم القصاصون وأعوان السلطة بنشر تلك الأكاذيب .

شيوخه وتلامذته :

تلقى الشافعي الفقه والحديث على شيوخ من مكة ، والمدينة ، واليمن ، وبغداد ، وقد ذكر ابن حجر منهم عدداً يتجاوز الثمانين ، اما غيره فاقتصر

---

(١) مناقب احمد ص ٥٠٢ .

على المشهورين منهم . ونحن نشير اليهم هنا بترجمة قصيرة وهم تسعة عشر : خمسة من مكة ، وستة من المدينة ، واربعة من اليمن ، واربعة من العراق . وقد ترك الفخر الرازي ذكر محمد بن الحسن الشيباني تعصباً ، ولا مجال لتركه فان الشافعي قد اعترف بأخذه العلم عنه وانه حمل عنه علماً كثيراً ونمت مواهبه في ملازمته ، ويعد في الواقع من أشهر شيوخه ، بعد مالك بن أنس ، وأول شيخ تلقى الشافعي عنه العلم هو :

١ — مسلم بن خالد المخزومي ابو خالد المكي ، المعروف بالزنجي المتوفى سنة ١٨٠ هـ وهو من موالي مخزوم ، وهو أول شيوخ الشافعي ، وابتدأ بأخذ الفقه والحديث عنه ، ثم انتقل إلى المدينة وحضر عند مالك ، ولم يكن مسلم بن خالد ممن يعتمد عليه في الحديث ، فقد طعن عليه وضعفه كثير من الحفاظ ، كأبي داود ، وأبي حاتم ، والنسائي ، خرّج حديثه ابن ماجه وابو داود (١) .

٢ — سعيد بن سالم القداح ، أبو عثمان الخراساني ، ثم المكي المتوفى سنة ١٧١ هـ وكانت له حلقة مسلم بن خالد الزنجي ، بعد ان توفي مسلم ، وقد أخذ الشافعي عنه وروى حديثه ، وكان سعيد يرمى بالارجاء (أي أنه من المرجئة) .

٣ — داود بن عبد الرحمن العطار المتوفى سنة ١٧٥ هـ .

قال الشافعي : ما رأيت اورع منه ، ووثقه ابن معين .

ولم تكن ملازمة الشافعي له كغيره من شيوخه ، ولعل أخذه عنه كان قليلا .

٤ — سفيان بن عيينة بن أبي عمران المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، تقدمت ترجمته في هذا الكتاب في اسماء تلامذة الإمام الصادق ، وهو من رؤساء المذاهب البائدة .

٥ — مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، تقدمت ترجمته في الجزء الأول والثاني .

٦ — عبد الله بن نافع الصائغ ، مولى بني مخزوم المتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

٧ — يحيى بن حسان بن حيان ، البكري المصري المتوفى سنة ٢٠٨ هـ .

٨ — إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أبو اسحق المدني المتوفى سنة ١٨٤ هـ . وقد أكثر الشافعي من الرواية عنه . وهو عندهم ضعيف . وقد رموه بالكذب . وطعنوا على الشافعي بالأخذ عنه ، ولكن الشافعي كان يرى إبراهيم صدوقاً ، وإنما رُمي بالكذب لغايات هنالك ، وقد روى الربيع بن سليمان عن

---

(١) تهذيب التهذيب ، والخلاصة ص ٣٢١ وغيرهما .

الشافعي انه كان يقول: لئن ينحر إبراهيم من بعد أحب إليه من أن يكذب. وكان ثقة في الحديث.

وإبراهيم هذا كان من تلامذة الإمام الصادق وخريج مدرسته ، وكان يروي أحاديث أهل البيت (ع) ، وله مؤلف مبوّب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت ، وهو أستاذ الواقدي ، وكُتُب الواقدي أكثرها مأخوذة عنه . وحيث كان الشافعي يعتمد على كتبه ورواياته ، فكان مرة يصرح باسمه ومرة أخرى يورّي عنه فيقول : حدثني الثقة ، حدثني مَن لا اتهمه .

٩ — حماد بن أسامة الكوفي ، مولى بني هاشم المتوفى سنة ٢٠١ هـ .

١٠ — وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي ، أبو سفيان الكوفي المتوفى سنة ١٩٦ هـ .

١١ — إبراهيم بن سعد الأنصاري الزهري ، المتوفى سنة ١٨٣ هـ تقدمت ترجمته في تلامذة الإمام الصادق (ع) .

١٢ — محمد بن الحسن الشيباني القاضي ، تلميذ أبي حنيفة ، قال الشافعي : حملت عن محمد بن الحسن الشيباني حمل بختي (نوع من الابل ، ليس عليه الا سماعي وقال : كان محمد بن الحسن جيد المنزلة ، فاختلفت إليه فلزمته وكتبت كتبه . (١) ولذلك قالوا : ان محمد بن الحسن اغزر منه (أي من الشافعي) علماً وأخطر أثراً ، وان علم الشافعي راجع إليه ومأخوذ عنه .

١٣ — عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت البصري المتوفى سنة ١٩٤ هـ ، تقدمت ترجمته في هذا الكتاب في تلامذة الإمام الصادق .

١٤ — هشام بن يوسف أبو عبد الله قاضي صنعاء ، المتوفى سنة ١٩٧ هـ وهو من الأبناء ، سمع معمراً ، وابن جريح ، وأخذ عنه ابن المدايني ، توفي قبل عبد الرزاق بن همام (٢) .

١٥ — اسماعيل بن إبراهيم الأسدي القرشي . مولاه أبو بشر البصري المتوفى سنة ١٩٣ هـ ويعرف بابن عليّة . وهي أمه . مولاة لبني إسد بن خزيمة ولما ولي إسماعيل بن عليّه القضاء كتب إليه ابن المبارك :

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد اموال المساكين
تحتال للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين

(١) اداب الشافعي لابي حاتم ص ٢٣ — ٣٢ .
(٢) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ٦٧ .

فصرت مجنوناً بها بعد ما ... كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها ... في ترك ابواب السلاطين
ان قلت أكرهت فذا باطل ... زل حمار العلم في الطين (١)

تلامذته ورواة مذهبه :

نقل مذهب الشافعي عن طريقين : أحدهما تلامذته . والثاني كتبه .
أما رواة مذهبه فمنهم من العراق . ومنهم من مصر(٢). والعراقيون هم :

١ ـ خالد اليماني الكلبي ، أبو ثور البغدادي المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وقد تقدمت ترجمته في المذاهب البائدة، والحق ان عدّه في رواة مذهب الشافعي غير صحيح ، فان الرجل كان مجتهداً مطلقاً ، وله مذهب قد اعتنقه كثير من الناس ، واشتهر الأخذ به في القرن الثاني ، ولكنه اندرس ، شأنه شأن غيره من المذاهب التي لم تحظ بتشجيع فيكتب لها البقاء ، وله كثير من المسائل قد خالف فيها الشافعي ، وسيأتي بيانها .

٢ ـ الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وهو أثبت رواة المذهب القديم للشافعي ، وكان يذهب مذهب أهل العراق ، فتركه وتفقه للشافعي .

٣ ـ الحسن بن علي الكرابيسي تفقه أولاً على مذهب العراقيين ، ثم تفقه للشافعي وسمع منه ومن غيره وقد تجنب الناس روايته . لأن أحمد بن حنبل طعن عليه في سألة اللفظ ، لأنه كان يقول : لفظي بالقرآن مخلوق .

٤ ـ أحمد بن عبد العزيز البغدادي كان من كبار أصحاب الشافعي الملازمين له ببغداد ، ثم صار من أصحاب ابن داود وتبعه على رأيه ، وله مسائل خالف بها الشافعي .

٥ ـ أبو عبد الرحمن أحمد بن محمد بن يحيى الأشعري البصري ، كان يشبّه بالشافعي ويوصف به ، لأنه انتصر للمذهب ودافع عن أصحابه ، لمكانته من السلطان ، وعلو منزلته في الدولة ، فقد كان رفيع المنزلة عندهم ،

---

(١) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٢٧٨ .
(٢) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٠٤ ـ ١١٥ ، وتوالي التاسيس لابن حجر ص ٣٧ ـ ٤٣ ومناقب الشافعي للرازي ص ١٣ وطبقات الشافعية ج ١ ص ١٨٦ ـ ٢٩٩ .

له جاه عظيم . وقد أجهد نفسه في نصرة مذهب الشافعي وانتشاره ، حتى وصف بما اشرنا إليه .

٦ - أحمد بن محمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي ، (ستأتي ترجمة حياته) والشيء الذي نود الإشارة إليه هو أن الحنابلة يجعلون الشافعي تلميذ أحمد بن حنبل ، ويعدونه في عداد من أخذ عنه وتعلم منه ، ويستدلون بقول أبي حاتم : ان أحمد بن حنبل أكبر من الشافعي . تعلم الشافعي أشياء من معرفة الحديث من أحمد بن حنبل وكان الشافعي فقيهاً ، ولم تكن له معرفة بالحديث ، فربما قال لأحمد هذا الحديث محفوظ ؟ فإذا قال أحمد: نعم ، جعله اصلا وبنى عليه.

وقال إسحق بن حنبل : كان الشافعي يأتي أبا عبد الله أحمد بن حنبل عندنا ههنا عامة النهار يتذاكرون الفقه .

وقال أبو بكر الأثرم فيما كتبه إلى المروزي : واخبرت أن الشافعي له معرفة بالحديث مما تعلمه منه (أي من أحمد بن حنبل) .

وعن عبد الله بن أحمد قال : قال لنا الشافعي : انتم أعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني أن يكون كوفياً ، أو بصرياً ، أو شامياً ، حتى اذهب إليه إذا كان صحيحاً .

هكذا ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة (١) وقال ابن الجوزي : وممن حدث عن أحمد بن حنبل الشافعي ، وقد ذكره في عداد تلامذته . ولكن الشافعية جعلوا أحمد بن حنبل تلميذاً للشافعي .

٧ - داود بن علي الظاهري ، إمام أهل الظاهر ، أخذ عن الشافعي ، ولكنه لم يكن من رواة المذهب وناشريه ، بل كان له مذهب مستقل وله اتباع ، ولا زال مذهبه معمولاً به مدة من الزمن وكان من أشهر علماء المذهب ابن حزم صاحب كتاب المحلى .

المصريون :

وانتشر مذهب الشافعي في مصر أكثر من غيره ، لأن أصحاب الشافعي في مصر قاموا بنشر المذهب ، وتأليف الكتب ، وقد ساعدت الظروف على ذلك كما يأتي ، فكان للشافعي أصحاب من مصر لهم يد في نشر مذهبه ، وله تلامذة كثيرون ، كان أشهرهم :

---

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ – يوسف بن يعقوب البويطي أو يعقوب المصري المتوفى سنة ٢٣١ هـ في سجن بغداد ، لأنه لم يقل في مسألة خلق القرآن .

وكان البويطي من أكبر أصحاب الشافعي ، وناشري مذهبه ، وهو خليفته على حلقة درسه ، وكان الشافعي يحيل عليه في الفتيا إذا جاءته مسألة ، ويعد في الواقع من أكبر أنصار المذهب ودعاته ، فقد كان يدني الغرباء ويقربهم ، ويعرفهم فضل الشافعي وكتبه ، حتى كثر الطالبون لكتب الشافعي ، وكان يقول : كان الشافعي يأمر بذلك ، ويقول لي أصبر للغرباء . وغيرهم من التلاميذ حتى كثر اتباعه وقوي انتشار المذهب ، فحسده ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر وعاداه ، وبسبب ذلك أخرجه أيام المحنة في خلق القرآن ، وحمل مع من حمل من أهل مصر ، وحبس ببغداد ومات في السجن سنة ٢٣١ هـ .

٢ – إسماعيل بن يحيى المزني أبو إبراهيم المصري المتوفى سنة ٢٦٤ هـ ، كان من أكبر أنصار الشافعي وناشري مذهبه ، حتى قال الشافعي في حقه . المزني ناصر مذهبي . وقال أيضاً في وصفه : لو ناظر الشيطان لغلبه (١) .

وله في مذهب الشافعي كتب كثيرة ، منها : الجامع الكبير ، والجامع الصغير والمختصر ، والمنثور ، والمسائل المعتبرة ، والترغيب في العلم ، وكتاب الوثائق ، وكتاب نهاية الاختصار .

واشتهر كتاب المختصر بين الناس وامتلأت به البلدان ، وكان للناس فيه اعتقاد شديد حتى أن المرأة إذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة مختصر المزني (٢) وكان المزني من المجتهدين في المذهب وممن له حرية الاستنباط . وكان ممن ينهى عن التقليد والجمود كما جاء في مقدمة المختصر .

٣ – الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي المتوفى سنه ٢٧٠ هـ كان من موالي مراد ، ومؤذن جامع الفسطاط ، وهو راوي كتب الشافعي ، وثقوه في الحديث على غفلة فيه ، وتُقدم روايته على غيره ، فلو تعارض هو والمزني في رواية قدّم أصحاب الشافعي روايته على رواية المزني ، وقد رحل الناس إليه لتلقي كتب الشافعي ، وكان الشافعي يحبه حتى قال له : لو قدرت ان اطعمك العلم لأطعمتك إياه .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج ١ ص ٢٣٨ .
(٢) مختصر المؤمل لأبي شامة ص ٣٥ .

٤ – الربيع بن سليمان بن داود الجيزي ، أبو محمد الأزدي مولاهم المصري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، روى عن الشافعي أحاديثاً ، ولم يرو كتبه ، وكان ضعيفاً في الحديث .

ومن المصريين أيضاً : حرملة بن يحيى بن حرملة . أبو حفص المصري المتوفى سنة ٢٦٦ هـ صحب الشافعي وروى عنه كتباً لم يروها الربيع بن سليمان . ومنهم :

قحزم بن عبد الله بن قحزم ، أبو حنيفة القبطي المتوفي سنة ٢٧١ هـ صحب الشافعي وأخذ عنه وكتب كثيراً من كتبه ، وروى عنه عشرة أجزاء في السنن والاحكام .

يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفى سنة ٢٦٤ هـ وسمع الحديث من ابن عيينه وابن وهب ، وتفقه على الشافعي ، وانتهت إليه رياسة العلم المصري . وفيه يقول الشافعي : ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس بن عبد الأعلى .

محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ هـ . كان من أصحاب الشافعي ، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً . قال المزني : نظر إليه الشافعي فأتبعه بصره ، وقال : « وددت لو ان لي ولداً مثله وعني ألف دينار » . وقال أبو إسحاق الشيرازي : إنتهت إليه رياسة العلم بمصر . وكانت بينه وبين الشافعي مؤاخاة صادقة . ومودة صافية . ولما مرض الشافعي ، وأحس بدنو منيته ، وطلب إليه أصحابه أن يذكر من يخلفه في حلقته أشار إلى البويطي ، دون ابن عبد الحكم . وكان قد استشرف لها وأرادها . فأغضبه ذلك وترك مذهب الشافعي ، وانتصر لمذهب مالك . وأخذ يرد على الشافعي . فهو إذاً من تلامذة الشافعي ولم يكن من ناشري المذهب .

هؤلاء هم أشهر أصحاب الشافعي . الذين انتشر بهم علمه بما ألّفوا وصنفوا .

كتبه وآثاره :

يمتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب الأربعة بنسبة الكتب التي عرف انه صنفها بنفسه ، فكان عليها اعتماد المتمذهبين بمذهبه : كرسالة أدلة الاحكام ، وهي رسالة أصولية . وكتاب اختلاف الحديث . وكتاب المسند ، والامالي ، ومجمع الكافي ، وعيون المسائل . والبحر المحيط . وهذه الكتب الأربعة

تعرف بالقديم .

وإن من سبقه من الأئمة لم يظهر له مثلما ظهر للشافعي ، فمالك بن أنس له كتاب الموطأ فحسب ، وأبو حنيفة ليس له شيء من التأليف الا ما يقال من نسبة كتاب العالم والمتعلم وقد تقدم الخلاف في ذلك ، وسيأتي الكلام حول كتب الإمام أحمد .

أما أهم كتاب ينسب إلى الشافعي فهو كتاب « الأم » المطبوع في ستة مجلدات ، وهو المرجع لفقه الشافعي قديمه وجديده .

وأهم شيء نود الوقوف عليه في هذا البحث هو : هل الأم من تأليف الشافعي أو هو لغيره ونسب إليه ؟

كتاب الأُم :

لقد وقع الخلاف حول هذا الكتاب ، وكثر الجدل في نسبته للشافعي ، وأنه أكب على تأليفه بنفسه ، فبعضهم يذهب إلى ذلك . والبعض الآخر ينفي ذلك ، ويذهب إلى عدم نسبته للشافعي .

وإذا نحن أردنا أن نلحظ الكتاب في قراءة موضوعية نجد أننا كثيراً ما نصطدم بعبارات توجب التشكيك في صحة القول بان الشافعي هو مؤلف هذا الكتاب . ولعل من الخير أن نضع بين يدي قرائنا المحترمين ، بعضاً من الشواهد على ذلك :

منها — افتتاح كثير من فصوله بهذه العبارة :

« اخبرنا الربيع ، قال: قال الشافعي — كما ورد في مطلع الجزء الأول وكثير من فصول الكتاب ، وفي كتاب الحيض والاستحاضة في عدة موارد ، وفي ص ٥٨ قال : قال الربيع : قال الشافعي ، وهو الذي نقول به : ان أقل الحيض يوم وليلة . وأكثره خمسة عشر .

وفي كثير من فصول الكتاب ، يحكي الربيع بن سليمان أقوال الشافعي وآراءه كما في ص ٦٠ ج ١ وكذلك في ص ٦٧ و ٧٢ و ٧٣ إلى غير ذلك .

وإن المؤيدات لنفي دعوى تأليف الشافعي كثيرة لا تحصى ، ففي ص ٧٤ في باب الأذان قال الربيع : أخبرنا الشافعي قال : أخبرنا إبراهيم بن محمد (١)

---

(١) إبراهيم بن محمد بن ابي يحيى هو احد تلامذة الإمام الصادق (ع) ومن أكبر شيوخ الشافعي وقد اكثر الرواية عنه وستأتي ترجمته .

وغيره ، عن جعفر بن محمد (ع) إلى أن يقول قال الشافعي : وبهذا كله نأخذ .

ومن أهم المؤيدات ، أن الربيع كان ينص في بعض الموارد على سماعه من الشافعي، وفي بعضها انه لم يسمع ذلك منه. وورد في باب غسل الميت ص ٢٤٨ أخبرنا الربيع بن سليمان أنه قال : لم أسمع هذا الكتاب من الشافعي ، وإنما اقرأه على المعرفة .

وتقع في الكتاب عبارة : قيل للشافعي فأجاب بكذا . كما تكثر فيه عبارة : « سألت الشافعي بكذا فأجاب بكذا » كما في السؤال عن ولوغ الكلب في الإناء ج ٧ ص ٩٤ وغيره .

ويأتي أيضاً : قلت للشافعي كذا فأجابه بكذا . إلى آخر ما هنالك من الشواهد والتعليقات للربيع وللبويطي ، كما في ج ٥ ص ٥٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ . ١٨٣ أكبر دليل على ذلك .

ويجد المتتبع لفصول الكتاب ، صراحة في عدم تأليف الشافعي لهذا الكتاب : كما في باب الصلح ، والحوالة ، والوكالة ، والوليمة ، وإقرار الوارث وغيرها .

وعلى أي حال : فان للقول في عدم نسبة الكتاب للشافعي مجالا . وانه لم يؤلفه بنفسه ، ولا أكبّ على كتابته ، ولكن أقرب الاحتمالات : ان الكتاب هو مجموعة آرائه وأقواله دوّنها تلامذته ، كغيره من أئمة المذاهب ، مع زيادات في التخريج على أصول المذهب . وعلى الأقل فان القطع بعدم نسبة جميع الكتاب للشافعي لا مجال لانكاره ، فهو إما تأليف البويطي أو الربيع بن سليمان . وقد أيّد ذلك الغزالي في الاحياء ، وأبو طالب المكي في قوت القلوب .

قال أبو حامد الغزالي : كان الشافعي رحمه الله أخى محمد بن عبد الحكم ، وكان يقرّبه ويقبل عليه ويقول : ما يقيمني بمصر غيره. فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله فقال :

مرض الحبيب فعدته — فمرضت من حذري عليه
وأتى الحبيب يعودني — فبرأت من نظري إليه

وظن الناس من صدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومىء إليه ، فقال الشافعي سبحان الله ! أيُشك في هذا ! أبو يعقوب البويطي . فانكسر لها محمد ، ومال أصحابه إلى البويطي ، مع ان محمداً قد حمل عنه مذهبه كله .

لكن البويطي كان افضل وأقرب إلى الزهد . فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة ، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى .

فلما توفي ، إنقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه . ورجع إلى مذهب أبيه . ودرس كتب مالك . وآثر البويطي الزهد والخمول ، ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة ، واشتغل بالعبادة ، وصنّف كتاب الأم الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وانما صنفه البويطي ، ولكن لم يذكر نفسه فيه ، ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرّف (١) .

هذا هو النص الذي أورده الغزالي ، على نفي نسبة كتاب الأم للشافعي ، وإنما ألفه البويطي ، ثم نسبه الربيع بن سليمان إلى نفسه ، وزاد فيه وتصرف . والغزالي هو من أئمة الشافعية ، الذين عليهم المعوّل .

وقال أبو طالب المكي : ان البويطي هو الذي ألّف كتاب الأم وأعطاه الربيع ، وصار يُعرف به لأنه اعتزل الناس بالبويطة من سواد مصر ، وصنف كتاب الأم الذي ينسب الآن للربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما هو جمع البويطي لم يذكر نفسه فيه ، وأخرجه إلى الربيع فزاد فيه (٢) .

وهذا نص صريح في تأكيد المدّعى ، وقد مرّت العصور على نسبة الكتاب للشافعي ، وأنه أكب على تأليفه ، مع وجود هذه النصوص والشواهد التي يتجلى منها التشكيك في صحة هذه النسبة ، لمن يتتبع فصول الكتاب ، من وجود تلك العبارات الدالة بصراحة على نفي تلك النسبة كما قدمناه ، وكذلك في بقية الأبواب المسبوقة بعبارة « أخبرنا الربيع بن سليمان قال: أخبرنا الشافعي » ، كما في باب الصلح ، والحوالة ، والوكالة ، والوليمة وإقرار الوارث وغيرها .

وتسمية هذا الكتاب باسم الأم تسمية جديدة وأحياناً ما يرد ذكره في الكتاب ولعله من فعل الشراح (٣) .

وبهذه الامور اصبح التشكيك في نسبة الكتاب للشافعي ، بل جزم أكثرهم بأن الشافعي لم يؤلفه .

---

(١) الاحياء ج ٢ ص ١٩٠ .
(٢) قوت القلوب للمكي ج ٤ ص ١٣٥ .
(٣) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٥٥ .

الاختلاف حول كتاب الأُم :

وقد ثار الخلاف في مصر حول هذه المسألة ، وكثر الجدل فيها ، وهو : هل أن كتاب « الأم » ألفه الشافعي أو ألفه البويطي ؟

فمنهم . من ينفي تأليف الشافعي لهذا الكتاب ، وانه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي .

ومنهم ، من يرى ان الشافعي أملاه على تلامذته في حلقة درسه ، وقسم آخر يرى أن الشافعي أملى مسائل ، وكتب مسائل ، وتحدث بمسائل ، ثم ترك علمه ورسائله وأماليه وديعة في خزائن اصحابه وصدورهم بعد موته ، فجاء البويطي فصنف من ذلك كله كتاب الأم واعطاه الربيع ، فزاد فيه وتصرف . ولكل قول مرجحات ومؤيدات .

يقول الدكتور أحمد أمين : « فليس يستطيع أحد أن يقول أن ما بين دفتي الكتاب الذي بين أيدينا هو من تأليف الشافعي ، وانه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي . كما انه لا يستطيع أحد أن ينكر أن في « الأم » مذهب الشافعي بقوله وعبارته ، فالظاهر أنها أمال املاها الشافعي في حلقته ، وكتبها عنه تلاميذه ، وادخلوا عليها تعليقات من عندهم ، واختلفت رواياتهم بعض الاختلاف» (١) .

وقد كتب الدكتور زكي مبارك رسالة خاصة في هذه المسألة تحت عنوان : « إصلاح أشنع خطأ في تاريخ التشريع الإسلامي ، كتاب الأم لم يؤلفه الشافعي ، وانما ألفه البويطي وتصرف فيه الربيع بن سليمان » .

يقول في المقدمة : « وملك الدنيا بأسرها لا يساوي عندي تصحيح هذه الغلطة التي درج عليها الناس منذ أجيال ، وهي نسبة كتاب الأم إلى الشافعي رحمه الله ، مع ان الشافعي لم يؤلف ذلك الكتاب ، ولم يعرفه على الاطلاق لأنه ألف بعد وفاته بسنين» .

ويقول : ان الفرق عظيم بين كتاب يؤلفه الشافعي أو يمليه ويرويه عنه أصحابه ، وكتاب يؤلف بعد وفاته بسنين ، الفرق عظيم جداً بين هذين في التأليف والتصنيف ، إلا ان تكون الحقائق الأدبية في مصر مما يكال ويوضع في الأعدال .

ويستمر الأستاذ مبارك في مناقشته ، وبحثه حول الكتاب ، وهو المعروف

---

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٣١ .

بدقة البحث وسلامة الذوق. ويقيم الأدلة على ما يدعيه. من اثبات تأليف الكتاب للبويطي، لا للشافعي. ويصف لنا مهاجمة الناس له. وقيام المعركة حول إثارة هذه المسألة، وان المعركة تنتهي على أن الشافعي لم يعرف كتاب الأم بصورته ؛ وأنه لا مفرّ من الإعتراف بأثر أبي يعقوب البويطي، والربيع ابن سليمان في تأليف ذلك الكتاب.

ويقول : كتب الله لنا النصر في تلك الحرب الشعواء، واعترف خصومي بأن الشافعي لم يعرف كتاب الأم في حياته، اعترفوا في محادثات شخصية وتلفونية، وسألتهم أن يذيعوا ما اقتنعوا به فلم يفعلوا، لأن الاعتراف بالهزيمة يصعب على كثير من الناس.

ولكنهم لم يكونوا جميعاً في درجة واحدة من المكابرة، فقد تفرد الرجل الفاضل الأستاذ محمد عرفة — وكيل كلية الشريعة - بكلمة وقعت منه قضاءً وقدراً، في مقال نشره بالبلاغ في مساء السبت ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٢ ﻫ إذ قال : « إلا أنه يحتمل أن يكون الشافعي أملى كتابه الأم كتباً متفرقة ومسائل مجزأة، والذي جمعه وجعله كتاباً مستقلا ؛ وسماه بهذا الاسم هو الربيع ابن سليمان ؛ ونحن نرجح هذا الاحتمال ».

هذا كلام وكيل كلية الشريعة بالجامع الأزهر، فماذا ينتظر الناس من الفوز لرأي زكي مبارك، من أن يوافقه وكيل كلية الشريعة من حيث لا يحتسب.

ويختم الأستاذ زكي مبارك رسالته، التي نشرها حول إثارة هذا الموضوع فيقول :

وأظهر ما تكون عقبة التوحيد في الفقه الإسلامي. فقد رأينا كيف يتفق فقهاء الشافعية على اضافة مؤلفات أصحاب الشافعي إلى الشافعي، ومضوا على ذلك الرأي الموحد إلى اليوم. حتى رأينا من فقهاء عصرنا من يضجر ويحزن ويكتئب حين يسمع من يقول : ان للبويطي والربيع بن سليمان يداً في تأليف كتاب الأم، لأن في ذلك اشراكاً بالشافعي رحمه الله !

ولا ننسى ان من فقهاء الشافعية جماعة أنطقت الرسول عليه السلام بمدح الشافعي قبل ان يولد بزمان ؛ فزعمت انه قال : « عالم قريش يملأ طباق الأرض علما » وان المقصود بهذا الحديث محمد بن إدريس الشافعي. إلى أن يقول : لقد مرت أجيال والمسلمون يعتقدون أنه ليس لأحد بعد الأئمة الاربعة ان يجتهد في الشريعة الإسلامية. والخارج عن المذاهب الأربعة — وهو رأي الجمهور —

صاحب بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار !

ومن المؤسف ، أن تتغلغل هذه العقيدة في الجماهير الإسلامية . حتى نجد من يسأل عن مذهب رسول الله (ص) أشافعي هو أم مالكي ؟ ! وغفلة العوام فرع عن غفلة الخواص !

فان لم يكن ذلك كذلك — كما كانوا يعبرون — فلم يصرخ بعض الناس فيقول في جريدة يومية : أنه يعزّ عليه أن ينسب كتاب الأم إلى غير الشافعي ؟ مع أن في فحول المتقدمين من نسبه إلى البويطي والربيع ، مع أن الأدلة تظافرت على أنه ألف بعد وفاة الشافعي بسنين ؟

يقولون ، أن أصحاب الشافعي كانوا جميعاً عالة عليه ، ونحن نقول : لولا أصحاب الشافعي لكان مصيره مصير الليث بن سعد ، فقد كان من كبار الأئمة ، ولكن قعد عنه أصحابه فضاع . وفي عصرنا شاهد لذلك ، فلولا رشيد رضا لما كان محمد عبده ، وهل استطاع الشيخ محمد عبده أن يظفر بكلمة ثناء ! وهل جرى في الدنيا أنه الأستاذ الإمام وانه (لوثر) هذا الجيل ؟ لولا عناية رشيد رضا بطبع مؤلفاته وإذاعة ما وعى عنه من مختلف الأقوال .

إن التلميذ المخلص شريك أستاذه في الفضل ، فلا تغضوا من قيمة أصحاب الشافعي لتصح لكم في الشافعي عقيدة التوحيد ، فبعض التوحيد وثنية لو تعلمون . إنتهى . وفي الرسالة مباحث قيمة لم يتسع الوقت لاعطاء صورة عنها .

وبهذا ينتهي بحثنا حول شبهة كتاب الأم . ونسبته للشافعي . وللشافعي كتب أخرى في علوم مختلفة ، كالتفسير واللغة وغيرهما . كما أنهم نسبوا إليه معرفة كثير من العلوم ، والتحقيق لا يقر ذلك ، والتتبع لا يثبته . فمن ذلك :

إن بعض من درسوا الشافعي ينسبون إليه تعلم اليونانية ، معتمدين على ما نقله الرازي عن الشافعي : أنه عندما دخل على الرشيد بتلك التهمة ، سأله الرشيد عن علمه . فكان مما جاء في هذه المحاورة : قال الرشيد فكيف علمك بالطب ! قال الشافعي : أعرف ما قالت الروم . مثل ارسطاطاليس . وبقراط ، وجالينوس ، وقرقوريوس ، وأبو قليس ، بلغاتها وما نقله أطباء العرب ، وقنّنه فلاسفة الهند ، ونمقته علماء الفرس .

والقصة مكذوبة لا يعتمد عليها ؛ لاشتمالها على أمور متناقضة واشياء مكذوبة ، واوضح ما فيها من الكذب أن السؤال من الرشيد كان بمحضر أبي يوسف ، مع القطع بأن الشافعي دخل بغداد بعد وفاة أبي يوسف ، ولم يجتمع به قط . وكذلك تشتمل القصة على مناقشات فقهية تخالف مذهب

الشافعي ، قديمه وجديده (١) .

فليس من التحقيق العلمي التمسك بشيء مما جاء في هذه القصة ، لأن راويها كذاب وضّاع ، وهو محمد بن عبد الله البلوي ، وحاله أشهر من أن يذكر ، ولم نجد نسبة تعلمه للطب واللغة اليونانية إلا في هذه الرواية التي لا يعتمد عليها ، ونص على ذلك كثير من المحققين .

وليس لنا غرض في نفي ذلك عنه ، إلا الالتزام بشرط الدراسة من التعرض لكثير من الأمور التي هي بعيدة عن الواقع .

أما الكلام حول علم الأصول ، وهل كان الشافعي هو الواضع له ، أو أنه أول من ألف فيه ؟ ! فذلك ما يستدعي بيانه الإطالة في البحث لاستلزامه الرجوع إلى البحث عن تاريخ علم الاصول ونشأته ، وهو متأخر عن علم الفقه لأنه ميزان له ، فالفقه هو المادة التي توزن والمادة سابقة على الميزان .

وقد اشرنا في الجزء الثاني في فصل تدوين العلم : أن الإمام الباقر (ع) كان هو الواضع الأول لقواعده وأسسه ، وقد ألّف تلامذته رسائل في مسائله .

ومهما يكن من أمر فلا مجال إلى الاعتراف بوضع الشافعي لعلم الأصول ، ولا يمكن التمسك بما نقله البعض في ذلك ، لبعده عن الحقيقة ، وعدم مطابقته للواقع ، لانا نجد من كان قبل عصر الشافعي من علماء الإسلام مَن كان يستعمل في استنباطه للحكم كثيراً من القواعد الأصولية ، للوقوف على حقيقة الحكم الوارد من الشارع .

وكان لكل مذهب أصول وقواعد ، وقد ألّف أبو يوسف كتاباً في أصول الفقه ، كما أن قواعد أصول الفقه المالكي كانت سابقة على الشافعي . وقد ألف محمد بن الحسن الشيباني كتاباً اسماه أصول الفقه . وتدعي الحنفية أن أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة هو أبو يوسف (٢) .

وذكر ابن النديم كثيراً من كتب الأصول لمن هو أسبق في التأليف من الشافعي من معاصريه وغيرهم .

وقد تقدم القول بأن الإمام الباقر (ع) هو الذي وضع قواعد علم الأصول وفتح أبوابه ، وأول من صنف فيه هو هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٧٩ هـ صنف كتاب (الالفاظ ومباحثها) ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن

---

(١) وقد رد ابن القيم هذه الرواية ورفضها ابن حجر وابن كثير ونص الجميع على كذبها وقد اوردها الفخر الرازي بدون سند .

(٢) مناقب ابي حنيفة للمكي ج ١ ص ٢٤٥ .

مولى آل بقطين ، وهو مبحث تعارض الحديثين ، ومسائل التعادل والتراجيح .
وقد ذكر ابن النديم مؤلفات الشيعة في الأصول لمن هو اسبق من الشافعي ، وقد مر البحث في ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب . ونحن لا ننكر أن الشافعي له يد في علم الأصول ، وانه وسع الدائرة في بعض المسائل ، إلا أنه لم يكن واضعاً لهذا العلم بل هو مؤلف وله الرسالة المشهورة ، وقد تصدى أبو سهل النوبختي ، وهو من علماء الشيعة فنقضها وبين أخطاء الشافعي فيما كتب عن علم الأصول .

بين قديم وجديد :

تختلف أقوال الشافعي وفتاواه في كثير من الموارد ، وقد عرف عنه أنه عدل عن فتواه في العراق ، وعرفت بالمذهب القديم ، وهو الذي تحمّله عنه تلامذته في العراق وأخذوا عنه ، وحفظوا مسائله ، ودوّنوا كتبه كالزعفراني والكرابيسي وغيرهما . ومن كتب المذهب القديم المنسوبة للشافعي : الامالي ، ومجمع الكافي .

ولما دخل مصر رجع عما أفتاه في العراق ، وما دُوّن عنه ، حتى روى البويطي : ان الشافعي قال : لا اجعل في حل من روى عني كتابي البغدادي (١) هذا مع العلم بأن تلك الآراء والأقوال قد انتشرت وأخذها من تتلمذ عليه في بغداد ، ولا نعلم معنى هذا النهي ومؤداه – ان صح عنه – فهل كان الرجوع عنها لعدم مطابقتها للحق ؟ أم أن استعداده الاجتهادي كان قاصراً عن إدراك الواقع الذي أدركه في مصر ؟ !

وصفوة القول : أن ما تقدم يضع بين يدي الباحث حقيقة مذهبية طريفة هي تأثر ذهنية الفقيه بالمحيط الجغرافي ؛ وهذا ما لم يتّصل إليه التصور او الإدراك ، فالشافعي صاحب المذهب المعروف هو الذي تفرّد مذهبه بهذه الصبغة (صفة الجديد وصفة القديم) فمذهبه الجديد هو ما املاه في مصر ، وأخذ عنه تلامذته هناك ، والقديم هو مذهبه في بغداد ؛ وقد عدل عنه ونهى عن نقله ، ولكن تلامذته في بغداد لم يبلغهم نهيه وعدوله ، فدونوها وتناقلوها وانتشرت بينهم ، ولهذا تجد الأقوال عن الشافعي مختلفة . فيأتي في المسألة قولان او أكثر ، وقد يثبت رجوعه عن أحدها أولا يثبت ، فيبقى

---

(١) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص ٦٩

القولان ثابتين في المذهب منسوبين إليه ، كما جاء في كتاب الأم وغيره . وقد يعتبر هذا الإختلاف دليلاً على النقص في اجتهاد الشافعي لأن عدم الجزم دليل على نقص العلم .

ذكر الفخر الرازي في المسألة الحادية عشرة : أنهم — أي العلماء القائلين بنقص اجتهاد الشافعي — قالوا : انه — أي الشافعي — ما كان كاملا في الاجتهاد لأنه توقف في أكثر مسائل الفقه . وتساوت عنده الأدلة ، وذلك يدل على ضعف الرأي وقلة الفقه (١) .

واعتذر الرازي : بأن هذا يوجد عند أبي حنيفة أيضاً في مسألة الماء المستعمل في الوضوء ، فقد نقلوا عن ابي حنيفة ثلاث روايات :

١ — رواية محمد بن الحسن عن ابي حنيفة انه طاهر .

٢ — رواية أبي يوسف أنه نجس نجاسة خفيفة .

٣ — رواية الحسن انه نجس نجاسة غليظة ، ولهم من هذا الباب مسائل كثيرة ، فثبت أنّ هذا الاشكال مشترك من الجانبين (أي من الشافعي وأبي حنيفة في اختلاف الاقوال) .

وسنوقف القارىء الكريم على كثير من ذلك . وقد جعلوا قول الشافعي الجديد ناسخاً لقوله القديم ، كما انهم قد اكثروا من الاعتذار عن وجود هذا الإختلاف الذي جعله بعض العلماء نقصاً في اجتهاد الشافعي وإدراكه .

قال أبو منصور البغدادي : وليس الشافعي أجلّ من رسول الله (ص) حين سئل عن قذف الرجل امرأته ، حتى نزلت آية اللعان ، وقد روي أن المؤمن وقاف والمنافق وثاب .

وانت ترى ان هذا النوع من الدفاع عن الشافعي لا موجب له ، وهو تعصب محض وقياس مع الفارق ، فليس من الصحيح أن تقاس حوادث الشافعي بالنبي (ص) الذي كان يستمد تعاليمه من السماء ، وانه لا ينطق عن الهوى ، ان هو إلا وحي يوحى . على ان الشافعي قد أراحهم من هذا التكلف ، فإنه لم يدّع العصمة والكمال ، وقد دلت أقواله على خلاف ما يدعونه له ، من صفة الإنسان الكامل الذي لا يعتريه الخطأ والنسيان ، كما تقدم بيانه.

وحدث البويطي عن الشافعي انه قال : صنفت هذه الكتب فلم آل فيها الصواب ، فلا بد وان يوجد فيها ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، فما

(١) مناقب الشافعي للرازي ص ٦٨ .

وجدتم فيه ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فاني راجع عنه إلى كتاب الله وسنة رسوله .

وقال المزني : قرأت كتاب الرسالة على الشافعي ثمان مرات ، فما من مرة إلا وقد كان يقف على خطأ ، فقال لي الشافعي : أبى الله أن يكون كتاباً صحيحاً غير كتابه تعالى . فقول ابي منصور في نصرة الشافعي خطأ محض وجرأة على مقام الرسالة ، وليس بغريب على من انغمس في بحر التعصب للمذهب بأن تصدر منه أمثال هذه المخالفات ، فقد ترك قول النبي ﷺ لقول صاحب المذهب ، وقد مرّ أن بعضهم يسأل عن مذهب النبي ﷺ هل كان حنفياً أم شافعياً .

ولسنا الآن بصدد البحث عن هذا ، ولكن الغرض أن أقوال الشافعي قد اختلفت في كثير من المسائل ، فهو قد أفتى في بغداد بمسائل ، ثم أعرض عنها في مصر ، فسميت تلك الأقوال بالمذهب القديم .

وإن أقواله القديمة منشورة في أبواب الفقه المختلفة ، وأخذ العلماء يوازنون بينها ، واختلفت ترجيحاتهم وتصحيحاتهم فيها ، بل تناولوا ما رجحه الشافعي نفسه بالدراسة والفحص ، فكانوا يرجحون القول الآخر إذا وجدوا حديثاً صحيحاً ــ سيراً على قاعدة الشافعي التي سنها لنفسه : إذا صح الحديث فهو مذهبي .

قال البجرمي : الفتوى على ما في الجديد دون القديم ، وقد رجع الشافعي عنه ، وهذا كله قديم لم يعضده حديث ، فان اعتضد بحديث فهو مذهب الشافعي ، فقد صح عنه انه قال : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولي عرض الحائط .

ولكن بعض الشافعية تردد في الأخذ بالحديث ان عارض قول الشافعي ، لأنه عساه يكون منسوخاً في نظره او مؤولا ، أو صح عند غيره بطريق أقوى من طريقه ، وبعضهم إذا وجد حديثاً يخالف رأياً مأثوراً عن الشافعي يأخذ بالحديث الصحيح ، ويترك رأي الشافعي .

وقد افتى المتقدمون من فقهاء الشافعية بعدة مسائل في القديم ، وترجيحها على الجديد ، واختلفوا في عددها ، وحاولوا حصرها في عدد قليل أو أكثر وقد منع بعضهم الحصر . وحصرها بعضهم في إثنين وعشرين ، منها : عدم وجوب التباعد عن النجاسة في الماء الراكد الكثير ، والتثويب في

الأذان ، وعدم انتقاض الوضوء بمس المحارم ، وطهارة الماء الجاري ما لم يتغير ، وعدم الاكتفاء في الاستنجاء بالحجر إذا انتشر البول ، وتعجيل صلاة العشاء ، وعدم مضي وقت المغرب بمضي خمس ركعات ، وعدم قراءة السورة في الأخيرتين ، والمنفرد إذا أحرم الصلاة ثم انشأ القدوة (أي جواز ذلك) ، وكراهية تقليم اظافر الميت ، وعدم أعتبار النصاب في الركاز ، وشرط التحليل في الحج بعذر المرض ، وتحريم جلد الميتة بعد الدباغ . ولزوم الحد بوطء المحرم بملك اليمين ، وقبول شهادة فرعين على كل من الاصلين . إلى آخر ما ذكر .

وصفوة القول : ان اختلاف الشافعية في أقوال الشافعي المختلفة قد فتحت لهم أبواب الترجيح ، والتخريج ، والموازنة بين أقواله وتطبيقها على الأحاديث فما كان له شاهد من الحديث قُدم على ما لم يكن له شاهد ، واشترطوا لذلك شروطاً يأتي بيانها .

وهاتان الناحيتان (القديم والجديد) تظهران جلياً في كتاب الأم ، وفي اختلاف الشافعية المتأخرين ، إذ يذكرون للمسألة قولين ، ويقصدون القديم والجديد . وقد مر أن اتباع أئمة المذاهب يجعلون أقوالهم هي بمنزلة أقوال النبي ﷺ وربما ترك قوله ﷺ لقولهم .

وقد قيل في أسباب تحول الشافعي عن أقواله في بغداد : أن انتقاله من بغداد إلى مصر وتقلبه في عادات جديدة أثر ذلك في تبدل رأيه .

وغير بعيد أن الشافعي عندما كان في بغداد يرى نفسه تلميذاً لمالك بن أنس، وبعد ذهابه لمصر بقي مدة ينقل أقوال أستاذه ، ثم تحول إلى مرحلة النضوج الإجتهادي في تعمقه ودراسته ، فهجر ما قاله اولاً وانتقد أستاذه مالكاً ، ووضع الكتب في الرد عليه ، واعلن بحرمة العمل في قوله الأول ، ومنع من نقله عنه .

ولكن مدة بقائه بمصر لا تساعده على اكتساب تلك الملكة الاجتهادية ، وذلك الافق الواسع من العلم كما ينقل عنه .

الإمام الشافعي
آراؤه وأقواله



آراؤه في القرآن :

قيل أن الشافعي كان يرى أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ويقول : إن الله سبحانه وتعالى يقول : (وكلم الله موسى تكليما)

ومسألة خلق القرآن هي من أهم المشاكل التي حلّت بالجامعة الإسلامية . فقد أدت إلى أمور هامة في تاريخ الإسلام ، ونجم من ورائها تباعد وعداء ، واتهام بالكفر ، ورمي بالزندقة والالحاد . واثارة الفتن ، وايقاد نار البغضاء ، حتى عد من لم يقل بخلق القرآن خارجا عن الدين ويقتل .

وقد تطورت هذه المسألة بعد وفاة الشافعي ، وظهر الامتحان بها في سنة ٢١٨ هـ ففيها دعا المأمون المحدثين والقضاة إلى القول بخلق القرآن ، محتجاً على انه محدث ، وكل محدث مخلوق ، وهذا الرأي السائد عند كثير من علماء عصره . وكان معارضو هذا الرأي يقولون : ان القرآن كلام الله تعالى : القائم بذاته المقدسة ، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً .

وأخذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسهم وماتوا في السجن (١) .

وأجاب كثير منهم تقيةً . طمعاً في الوظائف ، وابقاء على النفس . ويتجاوز عدد الذين أجابوا أكثر من ستين عالماً كلهم من كبار المحدثين ، كيحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ . ومحمد بن سعد صاحب الطبقات المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وغير هؤلاء يأتي الكلام عليهم إن شاء الله تعالى .

ولقد تجاوز أكثر الفقهاء الحد في هذه المسألة ، فذهبوا إلى كفر من قال بخلق القرآن ، وبطلان نكاحه ، وأن امرأته قد بانت منه . فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، ولا يُدفن في مقابر المسلمين .

وقال : ان من وقف وقال : لا أقول ان القرآن مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر ، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ، لا يُجالس ولا يُكلم .

وكان أحمد بن حنبل لم يقبل توبة أحد ممن يقول بخلق القرآن ، بل كان

---

(١) منهم يوسف بن يحيى البويطي خليفة الشافعي في مصر ، مات في سجن بغداد سنة ٢٠٦ هـ ، ونعيم بن حماد الخزاعي ، مات في السجن سنة ٢٢٨ هـ ، وعبد الاعلى بن مسهر الغساني ، مات في سجن المأمون سنة ٢٠٨ هـ وغيرهم سيأتي بيانهم في الجزء الرابع ان شاء الله .

يرتب عليهم آثار الكفر وأحكامه ، فلم يشيع جنائزهم ، ولم يُصلّ على واحد منهم ، وحرم الكلام معهم .

ولقد أخذت هذه المسألة دُورها في ذلك العصر ، حتى أن امرأة جاءت إلى القاضي فقالت : طلقني فان زوجي يقول بخلق القرآن .

ثم اتسعت الحالة فخرجت عن اعتقاد البشر إلى الجن ، وانهم يقولون بذلك إلى آخر ما فيها من تطور وتأزم كما سيأتي في الجزء الرابع إن شاء الله .

والغرض ، إني أرى أن ما ينقل عن الشافعي من التشدد في هذه المسألة لا يخلو بعضه عن مبالغة ، فهو لا يخلو من زيادة – نسبة للظروف المتأخرة – إذ المسألة في عصر الشافعي لم تأخذ أثرها في المجتمع بذلك الشكل الذي يجعلنا نثق بصحة كل ما جاء عن الشافعي فيه ، مع انا لا نريد ان ندفع عن الشافعي ما كان يراه ، أو نقول بعدم صحة النقل عنه ، ولكنا نشك في تشدده في أمر من يقول بخلق القرآن ! . .

قال الربيع بن سليمان : سمعت الشافعي يقول : من حلف باسم من أسماء الله فحنث فعليه الكفارة ، لأن اسم الله غير مخلوق ، ومن حلف بالكعبة أو بالصفا والمروة فليس عليه كفارة . لأنه مخلوق وذاك غير مخلوق (١) .

وقال الربيع بن سليمان : حدثني من أثق به قال : كنت حاضراً في المجلس فقال حفص الفرد: القرآن مخلوق، فقال الشافعي: كفرت بالله العظيم.

وقال الربيع أيضاً : حضر عبد الله بن عبد الحكم ، ويوسف بن عمر ، وحفص الفرد ، وكان الشافعي يسميه حفص المنفرد ، فسأل حفص عبد الله بن عبد الحكم وقال : ما تقول في القرآن ؟ فأبى ان يجيبه ، ثم سأل يوسف بن عمر فلم يجبه ، وكلاهما أشار للشافعي ، فسأل الشافعي فاحتج عليه الشافعي ، وأقام الحجة عليه بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكفّر الشافعي حفصاً . قال الربيع : فلقيت حفصاً في المجلس فيما بعد فقال : أراد الشافعي قتلي (٢) .

رأيه في الرؤية :

قال الربيع : كنت يوماً عند الشافعي ، وجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله تعالى : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

(١) آداب الشافعي ص ١٩٥ .
(٢) آداب الشافعي ص ١٩٥ .

فكتب الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضا . قال الربيع : أو تدين بذلك ؟

قال والله لو لم يدن محمد بن إدريس : إنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا (١) .

وبهذا يتضح لنا رأي الشافعي : أن الرؤية محققة في الآخرة ، ولولا ذلك لما عبد الله في الدنيا .

وقد اختلف المسلمون في رؤية الله تعالى ، فذهب قوم إلى جوازها في الدنيا والآخرة . ومنعها آخرون في الدنيا ووقوعها في الآخرة، كما هو مذهب الشافعي .

وذهب أهل البيت (ع) وشيعتهم إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة ، وعدم امكانها لأنه تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) لأن الأبصار انما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعاً ، كالأجسام . والهيئات ، وعلل ذلك بأن الباصرة لا تكون في حيز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي ، ويمتنع اتصال شيء ما بذاته جل وعلا .

وللإمام ابي الحسن الهادي (ع) اسلوب آخر في تقرير هذا الوجه ، يوافق رأي الفلاسفة من أهل هذا العصر . أخرج الكليني في باب ابطال الرؤية، من كتاب التوحيد من أصول الكافي ، بسنده إلى أحمد بن إسحاق قال : كتبت إلى أبي الحسن الثالث اسأله عن الرؤية ؟ فكتب عليه السلام : لا تجوز الرؤية – عقلا – ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء (٢) ينفذ البصر ، فإذا انقطع الهواء عن الرائي أو المرئي لم تصح الرؤية .

قال سيدنا شرف الدين : أن العقل الذي عرفنا الله تعالى به يحكم مستقلا بامتناع رؤية الباري سبحانه ، سواء أكانت الرؤية بصرية ، أم قلبية ، أم خيالية ، أم وهمية ، لامتناع لوازمها بحكم العقل .

نعم ، ندرك بأبصارنا آيات الله في عجائب مخلوقاته (ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) .

وفي كل شيء له آية تـــدل على أنـه واحــد

---

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٣١

(٢) الهواء كنه المعنى الذي يعبر عنه فلاسفة اليوم بالأثير المتد عندهم من عين الرائي إلى المرئي .

وندرك ببصائرنا أنه هو الله ، الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم .

وعن الإمام الرضا (ع) أخرجه الكليني في أصول الكافي بسنده إلى صفوان بن يحيى قال : سألني أبو قرة المحدث أن أدخله على الإمام ابي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك ، فأذن لي ، فأدخلته عليه فسأله عن الحلال والحرام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد ، فقال أبو قرة : إنا روينا ان الله قسم الرؤية والكلام بين النبيين ، فقسم الكلام لموسى ، ولمحمد الرؤية .

فقال الإمام (ع) : فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الإنس والجن في انه لا تدركه الأبصار ، ولا يحيطون به علماً ، وليس كمثله شيء ؟ أليس هو محمد (ص) ؟ .

قال أبو قرة : بلى ،

قال (ع) : كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم : أنه جاء من عند الله ، وانه يدعوهم إلى الله بأمر الله ، ويقول لهم عن الله : انه لا تدركه الأبصار ، ولا يحيطون به علما ، وليس كمثله شيء ؟ ثم يقول لهم : أنا رأيت الله بعيني ، وأحطت به علماً ، وهو على صورة البشر . أما تستحون ؟ ! ما قدرت الزنادقة ان ترميه (ص) بهذا ، ان يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه ! . .

قال له أبو قرة : فانه تعالى يقول : « لقد رآه نزلة أخرى » .

فقال الإمام (ع) أن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى (ص) ، حيث قال تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » يقول : ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ، ثم أخبر بما رأى فقال : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » فآيات الله غير الله تعالى . وقد قال عزّ من قائل : « ولا يحيطون به علماً » فإذا رأته الأبصار فقد أحيط به علماً . قال أبو قرة : أفتكذّب الروايات ؟ .

قال الإمام : إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها ، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يحاط به علماً ، ولا تدركه الأبصار ، وليس كمثله شيء.

ودخل رجل من الخوارج على محمد الباقر (ع) فقال له : أي شيء تعبد فقال (ع) : الله .

قال الرجل : رأيته ؟

قال : بلى ، لم تره العيون بمشاهدة الابصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يعرف بالقياس ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يشبه بالناس، موصوف

بالآيات ، معروف بالدلالات ، ذلك الله لا إله الا هو .

ولا حاجة إلى الإسترسال بذكر الشواهد على خطأ هذه الفكرة بما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من تنزيه الله عزّ وجلّ عن إدراك البصر له وتحديده فهو لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان .

أما ما ورد عن الشافعي في هذا فهو يوافق اغلبية الجمهور ، وقد نقلوا عنه غير ذلك ، وأنه لا يرى هذا الرأي ، واتبع في نفي الرؤية لله تعالى استاذه مسلم ابن خالد الزنجي ، وإبراهيم الاسلمي ، وقد نقل ذلك الهمداني في طبقات المعتزلة . وان الشافعي لم يصرح بأن الرؤية تكون بالباصرة بل كان يطلق ذلك ويقول : ان الله يراه أولياؤه في الآخرة . والروايات عنه مضطربة ولكن أصحابه جعلوا رأيه الصحيح هو ما عليه أغلب بقية المذاهب من الرؤية والإدراك بالحواس .

رأيه في الصفات :

عن يونس بن عبد الأعلى المصري ، قال : سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما ينبغي ان يؤمن به : لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته ، لا يسمع أحداً ممن خلق الله قامت عليه الحجة : أن القرآن نزل به وصح عنه بقول النبي (ص) ، فما روي عنه العدل ، فان خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو والله كافر ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لايدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ونحو ذلك أخبار الله سبحانه وتعالى ، أتانا أنه سميع وأن له يدين ، بقوله : « بل يداه مبسوطتان » وان له يميناً بقوله : « والسماوات مطويات بيمينه » وأن له وجهاً ، بقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » وقوله : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وأن له قدماً ، بقول النبي ﷺ : (حتى يضع الرب فيها قدمه) يعني جهنم . وأنه يضحك من عبده المؤمن بقول النبي ﷺ — للذي قتل في سبيل الله — : انه لقي الله وهو يضحك إليه (١) وأنه يهبط كل ليلة إلى سماء الدنيا بخبر رسول الله ﷺ ، وانه ليس بأعور ، بقول النبي ﷺ — إذ ذكر الدجال — فقال : « أنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ، وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم ، كما يرون القمر ليلة

---

(١) طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن ابي يعلى ج ١ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

البدر » وأن له أصبعاً ، بقول النبي (ص) : « ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن عزّ وجلّ » .

فان هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه . ووصفه بها رسوله . مما لا تدرك حقيقته بالرؤية والفكر ، فلا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انهاء الخبر إليه بها . فإن كان الوارد بذلك خبراً يقوم في الفهم مقام المشاهدة في السماع ، وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه ، كما عاين وسمع من رسول الله (ص). ولكن يثبت هذه الصفات وينفي التشبيه ، كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره ، فقال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

رأيه في الامامة :

كان الشافعي يرى أن الامامة في قريش ، ولا يشترط البيعة . روى عنه تلميذه حرملة أنه قال : كل شيء غلب على الخلافة بالسيف ، واجتمع عليه الناس فهو خليفة . فالعبرة عنده في الخلافة بأمرين : كون المتصدي لها قرشياً ، واجتماع الناس عليه ، سواء أكان الإجتماع سابقاً على إقامته خليفة ، كما في حال الانتخاب والبيعة ، أم لاحقاً لتنصيبه نفسه خليفة ، كحال التغلب ، وهذا لا يسمى إجتماعاً .

ولم يشترط الهاشمية ، بل القرشية كافية . وكان يرى : أن علي بن أبي طالب هو الإمام الحق في عصره ، وأن معاوية وأصحابه كانوا الفئة الباغية ، ولذلك اتخذ في كتاب السير سنة علي (ع) في معاملة البغاة ، كما هو مدون ثابت في كتاب الأم وغيره من كتب الشافعية ، لذلك اتهم الشافعي بأنه رافضي . كما تقدم بيانه .

فهو لا يبالي بأن يظهر حب آل محمد . وإن اعترضت حواجز في طريق إظهار الحب ، كما شاءت السياسة بأن يرمى محب أهل البيت بكل تهمة ، ويكون عرضة للخطر . وقد أعلن الشافعي ذلك بقوله :

إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان اني رافضي

وكان يذكر علياً بكل إعجاب وتقدير ، وله أشعار في مدحه تأتي في محلها . وسئل يوماً عن علي (ع) فقال : ما أقول في رجل اخفت أولياؤه فضائله خوفاً ، واخفت أعداؤه حسداً ، وشاع له من هذين ما ملأ الخافقين .

وأخذ هذا المعنى السيد تاج الدين فقال :

لقد كتمت آثار آل محمد محبوهمو خوفاً واعداؤهم بغضا
فشاع لهم بين الفريقين نبذة بها ملأ الله السماوات والارضا

وحكى البيهقي في مناقب الشافعي : أنه قيل ان اناساً لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت ، فإذا أراد أحد أن يذكر شيئاً من ذلك قالوا تجاوزوا عن هذا فهو رافضي ، فأنشأ الشافعي يقول :

إذا في مجلس ذكروا علياً وسبطيه وفاطمة الزكيه
يقال تجاوزوا يا قوم هذا فهذا من حديث الرافضيه
برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطميه

وسيأتي في باب اتهامه بالتشيع زيادة بيان لهذا . هذا موجز البيان في رأيه في الإمامة . أما رأيه في الخلافة والخلفاء ، فكان يقول : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز ، اما الباقون في نظره فهم ملوك .

رأيه في علم الكلام :

المعروف عن الشافعي انه كان يبغض علم الكلام وينهى عنه ، حتى ذهب إلى عدم جعل كتب الكلام من كتب العلم ، كما حدث الربيع : أن الشافعي كان يقول : لو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام في تلك الوصية .

وكان يرى لزوم تعزير أهل الكلام ، وضربهم وإهانتهم ، وأن يطاف بهم في العشائر . واشتهر عنه انه كان يقول : إياكم والكلام . وكان يقول : ولئن يبتلي الله المرء بكل ما نهى عنه — ما عدا الشرك به — خير من أن ينظر في الكلام .

وهذا التشديد من الشافعي يدل على بغضه لعلم الكلام ، وعدم الرضا بتعلمه والنظر فيه . وهذا غريب جداً فان العصر الذي نشأ فيه الشافعي قد نضج فيه الكلام ، واتسع نشاط المتكلمين وأثاروا في المجتمع مسائل كثيرة وقد كثر النقاش والجدل ، وكان لا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل والبراهين الفلسفية ، لتقوية جانبه والرد على مخالفيه .

وكان لا بد من الانهزام أمام ذلك التيار . إذا لم يكن هناك استعداد وقابلية للمقابلة والرد عند خوض تلك المعارك التي دارت رحاها في عصره .

وقد علل الرازي نهي الشافعي عن علم الكلام وبغضه : بأن المعتزلة قد حرضوا الخلفاء على أذى العلماء ، وقد كانوا هم القوامين على هذا العلم ، وأن الفتن العظيمة وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض الناس في مسألة خلق القرآن ، وأهل البدع استعانوا بالسلطان وقهروا أهل الحق ، ولم يلتفتوا إلى دلائل المحقين ، وتلك الحكايات والواقعات مشهورة ، فلما عرف الشافعي ان البحث عن هذا العلم في ذلك الزمان ليس لطلب الحق ، وليس لله وفي الله ، بل لأجل الدنيا والسلطنة ، فلا جرم أنه تركه واعرض عنه وحرّم من اشتغل به .

وفي الواقع أن التعليل بعيد عن الواقع ، لأن تلك الأمور التي أشار إليها كانت بعد موت الشافعي ، وأن أكثر ما ذكره يحتاج إلى إثبات .

وعلى أي حال : فهل كان الشافعي مع نهيه عن علم الكلام على جهل به ؟ مع انا نرى له ما يدل أنه يتعاطاه ويناظر فيه ! ! ! .

وبهذا نكتفي عن بيان آرائه ، وسنعود لذلك إن شاء الله تعالى .

تنبيه :

لم أتعرض لذكر حديث (عالم قريش) الذي استندت إليه الشا [illegible] في البشارة بالشافعي ، لأني كنت مطمئناً من عدم صحة الاستدلال به — [illegible] ملنا بصحته — ، إذ لا مجال للمغالطة وتضييع الوقت في ذلك ، ولكني رأيت كثيراً من علماء الشافعية قد أخذ هذا الحديث بعين الاعتبار ، ورتب عليه نتائج تلزم بوجوب إتباع الشافعي .

يقول بعضهم : في هذا الحديث (أي حديث عالم قريش) علامة بينة ، إذا تأمله الناظر المميز علم أن المراد به رجل من قريش ظهر علمه ، وانتشر في البلاد ، وكُتب كما تكتب المصاحف ، ودرسه المشايخ والشبان في مجالسهم ، وأجروا أقاويله في مجالس الحكام والقراء ، وأهل الآثار وغيرهم . وهذه صفة لا نعلمها في أحد غير الشافعي ، فهو عالم قريش الأفضل (١) .

هكذا نظر هذا الإنسان لهذا الحديث ، فتلقنها من جاء بعده ، فانهم ينقلون هذه العبارة بالنص ، وليس كل إنسان مصيباً في رأيه ، فالنظر يصيب ويخطىء. وبدون شك أن هذا كان متأثراً بالبيئة التي يعيش فيها والمجتمع الذي يندمج فيه . ولا أريد أن اتحدث عن جميع فقرات هذه الكلمة التي أصبحت

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ١ ص ٥٢ .

كنهج متبع ولكني أريد أن اتساءل :

هل كانت قريش على درجة من الانحطاط والخمول والجهل ليكون الشافعي حامل لواء نهضتها ، ولسانها الناطق ، وعالمها الأوحد ؟

وهل بلغ الشافعي بعلمه تلك الدرجة التي لم ينالوها ، وعرف من غوامض العلوم ما لم يعرفوه ؟

وهل كان انتشار علمه عن نفسه لنفسه ، أو بمشجع من عوامل لو تهيأت لمن هو دونه لكان علمه منتشراً مقبولاً ؟

أما الجواب عن هذه الأسئلة فيسير لا عناء في الحصول عليه ، لأن التاريخ طافح بتكذيب تلك الادعاءات الكاذبة .

وحاشا قريشاً وهم اعلم الناس ومفخرة العرب ان تمر عليها قرون لا تعرف بالعلم ، ولم ينشر لها شيء ، إلا بعد ان بعث الشافعي فبعثها من رقدتها ! !

ونحن إذا أردنا أن نتصدى للرد ونتعرض للنقد نخرج عن موضوع البحث .

وإن هذا الفهم الذي فهمه ذلك الإنسان وتابعه مقلدوه . لم يكن فهم عقل وتفكير ، بل هو فهم تلقين من ناحية معينة ، والحقيقة شيء والعاطفة شيء آخر ، لأن العاطفة طاغية تسيطر على العقل فتطفيء شعلته ، وتطغى على الواقع فتضيعه ، وتحكم على الفكر بالجمود ، ولكن من أين يستطيع الوصول إلى الواقع مَن كبّلته قيود التقليد ، وأثقلته أوزار التعصب الممقوت ؟ ! !

أما الحديث الذي أشرنا إليه فهو : عن أبي هريرة عن النبي (ص) أنه قال: «اللهم أهد قريشاً فان عالمها يملأ طباق الأرض علماً» .

ومع التسليم بصحة هذا الحديث ، فان انطباقه على الشافعي بعيد جداً ، لوجود الكثير من علماء قريش ممن له أهلية الإتصاف بذلك ، ولكن أكثر علماء الحديث قد ذهبوا إلى وضع هذا الحديث ، وقد نص على ذلك ابن أبي الحوت في (أسنى المطالب) والاسفرائيني في سفر السعادة وغيرهما .

* * *



الإمام الشافعي

عصره ومذهبه وأخباره



عصر الإمام الشافعي وأحداثه .

يمتد عصر الشافعي من آخر خلافة المنصور المتوفى سنة ١٥٨ هـ ، إلى أول خلافة المأمون ، أي من سنة ١٥٠ هـ إلى سنة ٢٠٤ هـ ، وعلى هذا فقد أدرك الشافعي ثماني سنين من خلافة المنصور ، وخلافة المهدي المتوفى سنة ١٦٥ هـ وخلافة الهادي المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، وخلافة الرشيد المتوفى سنة ١٩٣ هـ ، والأمين المقتول سنة ١٩٨هـ . وستة سنين من خلافة المأمون .

ونحن إذا أردنا أن نلحظ أدوار الدولة العباسية ، نجد هذه الفترة من أزهر العصور وأهمها ، وإن كانت لا تخلو من حوادث هامة ، تهدد كيان الدول وتنغص عيش أربابها ، ولكن تلك الحوادث كانت هينة بالنسبة لقوة الدولة ، عندما استقر أمرها وتمكن سلطانها ، وازدهرت حياتها في امتداد نفوذها ، واتساع دائرتها . فهي تمتد من الأندلس إلى الممالك التي تصاقب الصين شرقاً .

وكانت المملكة الإسلامية واسعة الأطراف ، وقد أخذت المدن الإسلامية حضارتها في العلم ، والتجارة ، والصناعة ، ونشطت الحركة العلمية ، واقتبس العلماء من فلسفة اليونان .

كما نشطت حركة الترجمة ، وانتشر علم الكلام . وقد ساهم الخلفاء بتشجيع تلك الحركة . إلى آخر ما هنالك من عوامل امتياز ذلك العصر، من مظاهر فكرية وإجتماعية واقتصادية ، وفي ذلك العصر بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها ، عندما استطاعت أن ترغم خصومها على عدم المعارضة ، بوسائل البطش والإرهاب ، واستعمال أنواع ألوان التعذيب ، وكانت لا تعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف ، تحقيقاً لسيادتها .

ويكفي أن نستدل على ذلك بما ارتكبوه في معاملة العلويين وأنصارهم ، ومن كانوا يخشون معارضته لسيرتهم الملتوية ، وأعمالهم الشاذة ، عندما كبلوا الأمة بقيود جديدة من العبودية ، وسلبوا حرية المجتمع ، وتلاعبوا بالأموال ، وجعلوها وقفاً على أنفسهم ، ولا ينال منها إلا المتقربون منهم وعامة الناس منها محرومون ، وتفننوا بذاك الثراء الطائل في وجوه حياتهم ، في الشراب والطعام ، وغير ذلك من وسائل العيش . فكانت حياتهم مضرب المثل في الرغد والسرف والبذخ .

بذخ الدولة العباسية :

تدفقت الأموال على الدولة العباسية من جميع الأقطار ، وامتلأت خزائنها بما يجبيه العمال ، بمختلف الطرق وشتى الوسائل ، حتى أنهم كانوا يستولون على أموال الناس وأملاكهم بدون حق ، لأنهم لا يُحاسبون على ذلك من قبل الخليفة . كما حدث المسعودي : عن الرجلَ الهمداني الذي أراد والي همدان ان يغتصب ضيعته ، التي تساوي ألف ألف درهماً ، فامتنع . فكبّله بالحديد ، وحمله إلى المنصور ، فأودع في السجن أربعة أعوام لا يُسأل عنه ، ولا ينظر في أمره . (١)

كما أن المنصور نفسه كان يأخذ أموال العمال الذين يعزلهم ويجعلها في بيت خاص ، وأوصى بتسليمها إليهم بعد موته ، ولا نعرف أسباب المنع لها في حياته ! !

وقد جاء في وصيته لولده المهدي : وقد جمعت لك من الأموال ما ان انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات ، والذرية ومصلحة البعوث ، فاحتفظ بها ، فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما أظنك تفعل (٢) .

ولا نعلم مقدار هذه الثروة الطائلة ، والوفر الهائل الذي كنزه المنصور من أموال الأمة الإسلامية ، وأبناؤها يعانون الحرمان ، ويمنعون من حقهم في بيت مال المسلمين .

ولما ولي المهدي (٣) وكان عكس أبيه في السماحة والكرم ، فان المنصور كان أبخلهم ، وفرق المهدي من تلك الأموال التي جمعها المنصور في خزينة الدولة مائة ألف ألف ، وستين ألف درهما ، وأعطى شاعراً — مدحه — خمسين ألف ديناراً وأعطى لاعرابي — سقاه لبناً — خمسمائة ألف (٤) .

ودخل عليه مروان بن حفص ، فأنشده قصيدة يتعرض بها لآل علي (ع) منها :

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) الكامل ج ٦ ص ٦ .

(٣) المهدي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، المتوفى سنة ١٦٩ هـ وكان سبب موته انه خرج إلى الصيد فتبع وحشاً ، فدخل الوحش خربة وتبعته الكلاب وتبعها المهدي ، فدق ظهره في باب الخربة لشدة عدوه فمات لساعته ، وقيل أنه أكل طعاماً مسموماً ، وكانت مدة خلافته عشرة سنين واشهر .

(٤) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٦٧ .

هل تطمعون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتموا إبطالها

فلما سمعها المهدي تزاحف من صدر مصلاه ، وأخذه الفرح ، ثم قال له : كم هي ؟ قال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم (١) .

واندفع الشعراء بدافع الطمع يمدحون العباسيين ، ويضعون من العلويين طلباً للمادة وحباً للصلة ، طالما كان صرف الأموال بغير حساب ! !

ومضى عهد المهدي والهادي (٢) والأموال تتضخم ، وجاء دور الرشيد فكان عهده عهد رخاء وسعة إلى أبعد حد، وبالغ الرشيد في البذخ والترف، وتفنن في حياته حتى بلغ مبلغ الاسراف، وبلغت مظاهر الحياة عنده إلى غايتها، فكان في داره من الجواري والخصايا وخدمهن ، وخدم زوجته واخواته، أربعة آلاف جارية . وحضرن عنده يوماً فغنته المطربات منهن ، فطرب جداً وأمر بمال فنثر عليهن ، وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم (٣) .

وغناه مسكين المدني فأطربه ، فأمر له بأربعة آلاف دينار (٤) وأضحكه ابن مريم فاعطاه ألف دينار . وكانت زوجته زبيدة لا تستطيع ان تقوم لكثرة ما عليها من المجوهرات والحلل ، وقد سلكت في صرف الأموال طريقة الرشيد ، فكانت تستهين بالاموال ولا تحسب لها أي حساب .

خرج الرشيد منها يوماً يضحك فسئل عن ذلك فقال دخلت اليوم على هذه المرأة (يعني زبيدة) فأقلت عندها فما استيقظت إلا على صوت ذهب يصب ، وقالوا هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر ، فقالت زبيدة هبها لي يا ابن عم ، فقلت : هي لك ، فما خرجت من عندها حتى عربدت عليّ وقالت : أي خير رأيته منك (٥) .

وأهدت لأبي يوسف القاضي لأجل فتوى أفتاها توافق مرادها فكان

---

(١) الخطيب ج ١٣ ص ١٤٤ .
(٢) الهادي هو موسى بن محمد المهدي بن المنصور ابو محمد الهادي ، المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، كانت مدة خلافته سنة ، ويقال في سبب موته : ان امه الخيرزان هي التي تولت قتله بوسادة وضعتها عليه ، لأنه اراد قتل اخيه الرشيد وقيل غير ذلك . وكان موسى قاسي القلب جباراً ظالماً .
(٣) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٢٠ .
(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٩ .
(٥) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٩ .

فيها : حق فضة فيه حقان ، في كل حق لون من الطيب ، وجام ذهب فيه دراهم ، وجام فضة فيه دنانير ، وغلمان وتخوت من ثياب وحمار وبغل (١) .

واشترى الرشيد من مسلم بن عبد الله العراقي درة بسبعين ألف دينار واشترى فص ياقوت أحمر بثمانين ألف دينار وكان وزنه مثقالاً ونصفاً وكانت بيده سبحة فيها مائة حبة كل حبة اشتريت بمائة ألف دينار .

وهكذا كانت الأموال تنفق في البذخ والاسراف ، وتوزع بين طبقة خاصة من الناس ، ويتنعم بها أفراد قلائل وقد استغل الولاة هذه الفرصة ، فجمعوا الأموال الطائلة ، وادخروا العروض وبنوا الأملاك ، وقد ترك سليمان ابن جعفر العباسي ستين ألف ألف دينار مـا عدا المتاع والدواب (٢) وهكذا غيره من الولاة والأمراء ومن سار في ركاب الدولة من سائر الناس . على حين أن هناك آلافاً من المسلمين قد تلاطمت بهم أمواج العسرة ، ولعبت بهم عوامل الفقر المدقع ، لأن ثروة الأمة وأموال المسلمين أصبحت تحت تصرف الطبقة الحاكمة من نساء ورجال ، يتصرفون بها في لذاتهم بغير مانع ولا رادع ، وكانوا يتفننون في الملبس والمآكل ، فيجلبون لحوم الطيور ولو بعد مكانها ، فتأتيهم على البريد وينفقون على ذلك الأموال الطائلة ، ليتنعموا في المآكل (٣) كما وقد جلبت لهم الفواكه من أقصى البلدان . واتخذوا الأسرة الذهبية المرصعة بالجوهر والحصر المنسوجة بالذهب المكلّلة بالدر والياقوت (٤)

وكان شغف نسائهم بالتفنن في ألوان الزينة يبعث على العجب والاستغراب ، كما وانهن اتخذن من الاملاك ما كانت وارداته أكثر من ألف ألف وستمائة ألف دينار .

إلى جانب ذلك اتخاذهم مجالس الشرب والغناء ، واغداقهم في العطاء على المغنين ، حتى أن بعض المغنين الذي كان يغني لسيدة ، أورث ابناً له اربعين ألف ديناراً .

وقد جعل الرشيد للمغنين مراتب وطبقات . وكان الأمين لا ينقطع عن الشراب . ووجه إلى جميع البلدان في طلب المغنين ، وأجرى لهم الأرزاق وغناه أحد المغنين فاعطـاه أربعين ألف دينار .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٦٠ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٦٣ .
(٣) ثمار القلوب ج ١ ص ٤٢٨ .
(٤) ابن خلدون ج ٥ ص ١٠٦ .

كما وقد زاد نشاط الجواري لشغف الخلفاء بهن ، فكان لهن نفوذ في المملكة وسلطة على الأمر . وكانت لهارون الرشيد جارية تسمى (هيلانه) لها منزلة عنده . فلما ماتت رثاها بابيات من الشعر ، كما رثاها الشعراء تبعاً لرغبته فأجاز بعضهم اربعين ألف دينار (١) .

هذا في الوقت الذي نجد رجال الأمة وصلحاءها والأحرار من ابنائها يتجرعون غصص الحاجة ، وكان نصيب أكثرهم الخوف والتشريد ، وظلمة السجون والتعذيب والقتل . كما نجد ألوان العذاب تصب على رؤوس أهل الخراج من قبل عمال الدولة ، ويعاملونهم أسوأ معاملة وأقساها .

ولا يسعنا المضي في الموضوع بأكثر من هذا . والغرض الذي سقنا لأجله هذه الأمور ، هو إعطاء صورة عن بذخ ذلك العصر ، والإسراف الذي بلغ إلى أبعد حد ولم يقتصر ذلك على عصر الرشيد بل اندفع احفاده وأولاده إلى التبذير بصورة ربما تكون أوسع وأكبر .

فانا نجد الأمين قد اسرف إلى ابعد حد . وكان المعتصم (٢) لا يقل درجة عنه . فقد ترك ثروة طائلة كان منها ثمانية آلاف ألف ديناراً من الذهب ، وثمانية عشر ألف ألف درهماً ، ومن الخيل ثمانين ألف فرساً ، ومن الجمال والبغال مثل ذلك ، ومن المماليك ثمانية آلاف ، ومثلها من الجواري (٣) وكذلك المتوكل ، والواثق ، وقد كان المتوكل ينفق الأموال خاصة في مجالس الشرب ، وبناء القصور ، واتخاذ الجواري .

سكوت الدولة العباسية عن الملحدين :

وانه لمن المؤسف حقاً عدم انكار العلماء الذين نالوا رضا أولئك الملوك وسعدوا بقربهم ، وكيف ينتظر منهم الانكار وقد استخدموهم لمصالحهم الخاصة وأقاموا منهم ستاراً تُملى من ورائه إراداتهم ، واستعانوا بهم في فسح المجال لمؤاخذه الخصوم بالاتهام والانتقاص ، ولو انهم رفعوا أصواتهم بالانكار وانضموا لجانب المعارضين لهان الخطب واعتدل الأمر .

---

(١) تاريخ ابن كثير ص ١٦٥ .

(٢) هو أبو إسحاق محمد المتعصم بن هارون الرشيد ، وهو ثامن الخلفاء ، وكان أمياً لا يحسن القراءة ، وهو الذي اكثر من استخدام الترك ، وكان له من المماليك منهم عشرون ألفاً ، توفي في ربيع الأول سنة ٢٢٧ ﻫ .

(٣) انظر شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٣ ومرآة الجنان ج ٣ ص ٩٤ .

* * *

وصفوة القول أن الدولة العباسية قد سارت على طريقة لا تتفق مع نظام الإسلام ، مع أنهم قطعوا على أنفسهم عهوداً تبعث بؤداها على الإرتياح بتحقيق مطاليب الأمة ، وجعل نفوذهم السياسي يتمشى مع تعاليم الإسلام جنباً إلى جنب ، ولكن تلك العهود ذهبت مع الريح ، وكانت أقوالاً فارغة وادعاءات جوفاء .

والذي نود الإشارة إليه هو أن ذاك الوفر وتلك الثروة الطائلة كان أكثره يصرف في تشجيع معارضة العلويين ، والوقوف أمام نفوذهم ، فكانوا يجيزون الشعراء الذين ينالون من العلويين اموالاً طائلة .

هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والالحاد ، يتقدم إلى المهدي بأبيات منها :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الاعمام

فيجيزه بسبعين ألف درهم .

ويقف آخر وهو مروان بن أبي الجنوب ، فينشد هذه الابيات بين يدي الخليفة التي جاء فيها :

لكموا تراث محمد ... وبعدلكم تشقى الظلامة

إلى أن يقول :

ما للذين تنحلوا ... ميراثكم إلا الندامة

فيخلع عليه أربع خلع ، وينثر ثلاثة آلاف دينار ويأمر بالتقاطها ، ويعطى عشرة آلاف درهم ، ويعقد له على ولاية البحرين واليمامة (١) وكثير من أمثال هذا الشاعر من الذين دفعهم الطمع ، وساقهم الشيطان حباً في الصلة ورغبة في المال ، وارضاء للسلطة وإن غضب الله عليهم .

اضطهاد الدولة العباسية للعلويين :

أما العلويون فكانوا يلاقون أنواع العذاب ، ويتجرعون غصص الفاقة ، ويتحملون كل ذلك اعتزازاً بأنفسهم وحفظاً لكرامتهم ، ولم يخضعوا يوماً لينالوا من ذلك النعيم أو يهنأوا بذلك العيش . فكان نصيب زعمائهم القتل والسجن والتشريد ، وكانوا بين آونة وأخرى عرضة لصدور الأمر من عاصمة

---

(١) الكامل ج ٧ ص ٣٨ .

الملك بتسفيرهم من الأطراف وإليها ، ليكونوا تحت الرقابة وينالوا العقاب هناك ويصدر مرسوم من بغداد إلى مصر بأن لا يقبل علوي ضيعة ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط او إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من إتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، وإن كانت بين علوي وبين أحد من الناس خصومة ، فلا يقبل قول العلوي ، ويقبل قول خصمه بدون بينة (١)

وأمر الرشيد عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً ، وكانوا يعرصون على السلطات كل يوم فمن غاب منهم عوقب ، وكانت هذه الأوامر تصدر من المهدي والهادي قبله .

وما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً ويعرضون ، فغاب أحدهم عن العرض ، فطولب به الحسين صاحب (فخ) ويحيى بن عبد الله كافليه ، وأغلظ الوالي لهما فحلف يحيى أنه يأتيه به من ليلته ، او يدق عليه الباب يؤذنه به ، وذلك إشارة للخروج وإعلان الثورة التي كان من المقرر القيام بها أيام الموسم ، ولكن سوء معاملة الوالي اعجلهم على الخروج في تلك الليلة ، واقتحموا المسجد وأعلنوا الثورة ، وبايع الناس الحسين المعروف بصاحب فخ ولقبوه بالمرتضى .

الحسين صاحب فخ :

هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب(ع) . (٢)

كانت نهضته سنة ١٦٩ هـ ، وكان الحسين من رجال بني هاشم وساداتهم ، وكان ممن روى الحديث عن الإمام الصادق (ع) وله منزلة علمية ، وكانت أسباب نهضته : أنه لقي عنتاً من والي المدينة ، وهو عبد العزيز بن عبد الله من ذرية عمر بن الخطاب ، وكان العمري يسيء إلى الطالبيين وأفرط في التحامل عليهم ، وطالبهم بالعرض في كل يوم فكانوا يعرضون في المقصورة ، وأخذ كل واحد منهم بكفالة قرينه ونسيبه . واشتد العمري في أمر العرض وولّى على الطالبيين رجلا يعرف بعيسى الحائك، فحبسهم في المقصورة. إلى آخر ما كان يعاملهم به ذلك الرجل . فثار آل ابي طالب واجتمع اليهم ناس كثيرون . فتحصن منهم عاملها ، فكسروا السجون وأخرجوا من كان بها ،

(١) الولاة والقضاة للكندي ص ١٩٨

(٢) تاريخ هذا الحادث في مقاتل الطالبيين ص٢٨٨–٣٠٨ والفخري ص١٧٢ والطبري وابن كثير في حوادث سنة ١٦٩ .

وبويع الحسين بن علي بن الحسن (ع) وعظم شأنه ، وبقى الحسين واحداً وعشرين يوماً في المدينة وارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج ، فجهز إليه الهادي جيشاً فالتقوا بموضع يقال له (فخ) بين مكة والمدينة ، فقتل الحسين ومعه جماعة من العلويين (١) وحمـــل رأس الحسين إلى القـــائد العباسي ، حمله رجل خراساني وهو ينادي بالبشارة ، حتى القى الرأس بين يديه ، وهو مضروب على الجبهة والقفى فجمعت رؤوس القتلى فكانت مائة ونيفاً (٢) وافلت إدريس بن عبد الله فأتى مصر وعلى بريدها أفلح مولى صالح بن منصور ، فحمله إلى المغرب فبايعه الناس واسس هناك دولة (٣) .

حدث أبو القرناء قال : أرسلني موسى بن عيسى (قائد الجيش) فقال : اذهب إلى عسكر الحسين حتى تراه وتخبرني بكل ما رأيت . فذهبت فدرت : فما رأيت خللاً ولا فللاً ، ولا رأيت إلا مصلياً أو مبتهلا أو ناظراً في مصحف أو معداً لسلاح ، قال فجئت فقلت : ما أظن القوم إلا منصورين ، فقال : وكيف ؟

قال : فأخبرته . فضرب يداً على يد وبكى حتى ظننت أنه سينصرف ، ثم قال : هم والله أكرم خلق الله وأحق بما في أيدينا منا .

كان هذا الحادث من أهم الحوادث التي شغلت بال الدولة ، وأقضت مضاجع ذوي الأمر ، لأنها كانت في أهم مركز إسلامي وهو الحجاز . لذلك أسرع الهادي في مقاومة تلك الحركة خوفاً من إتساعها في البلاد الإسلامية .

وتتابعت ثورات العلويين غضباً للحق ، ومن أهمها — أيضاً — ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب في الديلم ، وقد قويت شوكته فاحتال الرشيد عليه باعطائه الأمان ، ونقضه بعد ذلك ، فسجنه وضيق عليه إلى أن مات في السجن ، ووجد جسده معلقاً قد سمرت يداه . ومضى العباسيون في سفك دماء العلويين ، وشردوهم في البلاد بدون رحمة ولاوازع ديني .

وعلى أي حال فقد كان مجتمع ذلك العصر يموج بعناصر مختلفة ، وكانت بغداد هي موطن الحكم وعاصمة المملكة ، وحاضرة العالم الإسلامي ، وقد قصدها كثير من علماء اليونان والفرس والهنود ، ونقلت كتب الفلسفة إلى

---

(١) الآداب السلطانية ١٧٢ وتاريخ ابن كثير ج ١ ص ١٥٧ والكامل ج ٦ ص ٢٦ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٥٧ .
(٣) نفس المصدر .

العربية . وظهر علم الكلام ونضج ، فكثرت حلقات الجدل والخصومات ، وظهرت آراء شاذة ، وعقائد فاسدة أثرت على عقول من لا تقوى نفوسهم على هضمها واحتمالها ، فكونت هناك فوضى فكرية واضطراباً وحيرة . ونشطت هنالك حركة المتدخلين في الإسلام ، لبثّ تلك الآراء التي يأملون من ورائها القضاء على العقيدة الإسلامية ، أو إثارة فتن بين المجتمع الإسلامي على الأقل .

وقد نبغ رجال من علماء المسلمين في علم الكلام ، وعُرفوا بقوة المناظرة والتفوق في الحجة ، وعقدت المجالس والحلقات للمناظرة دفاعاً عن المبادىء الصحيحة والعقائد الإسلامية ، وقابلوا تلك النزعات التي نشرت لواء الشك في عقائد ذلك المجتمع ، وكان النصر لمن قرّبهم الخلفاء وأدنوا مجالسهم وفتحوا لهم باب قصورهم ، أما الذين لم يكونوا كذلك فترد أقوالهم ولا يُصغى لما يدلون به من الحجاج ، وما يقيمونه من الادلة القوية ذوداً عن الإسلام وذباً عن حياضه .

وأستطيع أن أؤكد أن تلك الحركات الفكرية كانت لها صلة وثيقة بالسياسة ، وهي التي تدير كفتها لتلعب دورها من وراء الستار .

وكانت هذه الناحية وذلك التطور في الآراء والعقائد من أخطر العوامل التي نجم من ورائها تفكك في المجتمع ، وتكوين جماعات تختلف في الآراء ، وكلٌ يذهب إلى أن الحق في جانبه دون غيره .

الزندقة في عرف العباسيين :

وإن أهم المشاكل ذات الخطورة في ذلك العصر ، مشكلة ظهور الزنادقة وانتشارهم . وأهم من ذلك هو أن تشخيص الزنديق بطابعه الخاص ، الذي يكشف عن شخصيته ، لم يكن واضحاً عندما أصبح انطباق هذه اللفظة على معان مختلفة ، لأن الاتهام بالزندقة كان لأسباب سياسية ، عندما اتخذها الخلفاء وسيلة للقضاء على خصومهم ، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون من الاتهام بالزندقة سبيلا للكيد والوقيعة بنظرائهم الذين يحقدون عليهم . لذلك أصبح لفظ الزنديق لفظاً مشتركاً غامضاً ، فأطلق على معان مختلفة بعد أن كان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين ازليين للعالم : هما النور ، والظلمة ، وهذا المعنى هو المطلوب أولاً وبالذات ، ثم اتسع المعنى حتى أطلق على كل

صاحب بدعة وكل ملحد ، بل انتهى به الأمر أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، أو حتى من كان يحيى حياة المجون ! ! ! .

كان شريك بن عبد الله القاضي لا يرى الصلاة خلف المهدي ، فأحضره وتكلم معه ، فقال له المهدي في جملة كلامه : يا ابن الزانية ! فقال شريك : مه مه يا أمير المؤمنين ، فلقد كانت صوّامة قوامة .

فقال له المهدي : يا زنديق لأقتلنك ، فضحك شريك وقال : يا أمير المؤمنين ، ان للزنادقة علامات يعرفون بها : شربهم القهوات واتخاذهم القينات. فأطرق المهدي (١) .

فنرى ان المهدي كان يطلق كلمة زنديق على من لم يعترف بخلافته او عدالته ، وما أكثر الذين يذهبون لذلك من رجال الأمة وعلمائها ، كما ان شريكاً القاضي أطلق لفظ الزندقة على من كان يحيى حياة المجون . وان من أوضح الأمور إنطباق ذلك على المهدي نفسه ، فهو الشخص الوحيد الذي يمثل دور المجون والاستهتار ، فاطلق عليه شريك لفظ الزندقة بالتلميح .

وكذلك أطلق لفظ الزندقة على من يناقش أحاديث الصحابة أو يردها لعدم صحتها (٢) وكذلك أطلق لفظ الزندقة على المفكرين الذين يقفون أمام الحوادث التاريخية موقف تثبت ، لاستجلاء الواقع ومعرفة الحقيقة . فالأمر الذي يتعلق بالبحث حول بعض الصحابة وما صدر منهم قد اصبح محظوراً ، فلا يمكن إلا التسليم بصحة ما صدر منهم — وان خالف الشرع — لأن البحث عن ذلك أمر يستوجب الاتهام بالزندقة ، وليس وراء ذلك الا السيف . حتى أصبح ذلك من القواعد المقررة المعمول بها طبقاً لإرادة الدولة ، وتلك القاعدة هي : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد ﷺ فاعلم أنه زنديق . (٣)

يقول الدكتور أحمد أمين : « ان الاضطهاد والرّمي بالزندقة عنوان الشخصية . فالرجل ان كان ضعيف الهمة ، فائل الرأي ، أو ذا رأي ولكنه ملق يكلم كل انسان بما يحب فلم يضطهد ؛ وإذا كان يسير في العلم حسب رأي الأغلبية ويرى من النظريات والقواعد والتعاليم ما يراه الناس في عصره فلم يضطهد . انما يضطهد القوي في الرأي ، لا يتنزل عنه لسلطان أو أمير ،

(١) ابن كثير ج ١٠ ص ١٥٣ .
(٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧
(٣) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٩ .

المستقل الفكر يؤديه فكره إلى نتائج قد يخالف فيها أهل عصره جميعاً فلا يعبأ بمخالفتهم ولا يأبه لنقدهم . . . إذ ذاك يكون الاضطهاد وتكون الحرب العوان بين الآراء ، فيقف ذو الشخصية واتباعه القليلون في جانب ، وذوو الجاه والسلطان أحياناً في جانب آخر ، ويكون النضال وتكون الدسائس والمؤامرات ، وما شئت من صنوف القتال ؟ » .

فلهذه الأسباب كان العقاب على الزندقة لأقل شبهة ، وقد سجل التاريخ كثيراً من تلك الحوادث التي كان مبعثها الحقد والانتقام والتشفي .

وصفوة القول : أن تلك الحملة على الزنادقة لو تجردت عن تلك الزوائد لكان أثرها أكثر نفعاً لتطهير المجتمع الإسلامي من اولئك النفر الذين لعبوا دوراً هاماً في نشر الخرافات والاساطير ، والتحلل من قيود الشريعة الإسلامية ، عندما وجد أكثرهم طريقاً يسلكون فيه ، وكان منهم ذوو مكانة في الدولة : كمطيع بن أياس ، وابن المقفع ، وابن ابي العوجاء، وقد وضعوا حوادث واحاديث يقصدون بها افساد الرأي العام ؛ وعندما قدم ابن ابي العوجاء للقتل قال : (اما والله لئن قتلتموني لقد وضعت اربعة آلاف حديث أحرم فيه الحلال وأحل فيه الحرام ، والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم في في يوم فطركم) كما انهم وضعوا كثيراً من القصص في المحون والهزل ، وخلقوا شخصيات لا وجود لها ، واخترعوا حوادث لا واقع لها كما انهم ترجموا كتب الزنادقة ونشروها في المجتمع للتضليل والخداع وقد قام جماعة منهم — وعلى رأسهم سيف بن عمرو — بالدس الشائن في تاريخ الإسلام فحوروا وبدلوا واخترعوا ، وقد اشتهر كتاب الردة لسيف بن عمرو واصبح مصدراً لكثير من المؤرخين، وسيف هو رأس الزنادقة والكذابين كما نص عليه علماء الرجال واشتهر عنه ذلك .

وكيف كان فان وضعهم سيء واثرهم في المجتمع اسوأ وكما قلنا ان لفظ الزندقة او الاتهام بها لم يكن على واقعه كما يرام ، فقد اتهم ابرياء وقتل صلحاء تحت غبار هذه الحملة ، واطلقت هذه اللفظة على بعض من لم يصح أن يكون موضوعاً لمحمولها ولكن ذلك كان لاسباب سياسية أو اغراض انتقامية كما قدمنا .

وقد اعتمد عليها أكثر الباحثين فلم يكلفوا انفسهم بالبحث عن الحقائق لمعرفة الأسباب . والوقوف على العوامل التي دعت إلى اتهام الكثيرين من رجال الأمة وصلحائها بالزندقة ، والحكم عليهم بدون مبرر ، لان تلك اللفظة قد

اتسع معناها إلى حد لا يسمح بتحديده تحديداً دقيقاً . واصبح الزنديق الواقعي آمناً إن امنت السلطة سطوته .

وهذا ما حمل الكثيرين من الكتاب إلى إيجاد رابطة بين الزندقة وبين التحرر الفكري والنقد للأوضاع ، ذهولا منهم عن التوصل إلى الحقيقة ، وقصوراً عن الوصول إلى معرفة الأسباب ، التي جعلت الانتساب إلى التشيع دليلا على الزندقة ، وداعياً إلى الاتهام بها ، ولا شيء هناك إلا عدم ارتباط العقائد بالدولة ، وان انفصالهم الروحي وعدم امتزاجهم بالسلطان واعوانه لأكبر دليل على الاستهانة بتوجيه الأسباب التي توجب اتهامهم بذلك . وأهم شيء اتهامهم بسب الشيخين ، فان هذه التهمة هي فوق جريمة الإلحاد ، فان المتهم بالزندقة تقبل توبته ، اما المتهم بهذه التهمة فلا تقبل توبته ، ويحكم بكفره وإلحاده مع ايمانه بالله ورسوله واقامة الفرائض ، ولكن للسياسة حكم فوق ما يثبته الواقع ويقره الحق ، اذ هي عمياء لا تبصر ، ولهذه المشاكل كان ذلك العصر يموج بحوادث لها اهميتها في تاريخ الإسلام .

نشاط العلماء وتأييد الدولة :

وكان من أهم مظاهر ذلك العصر انصراف علماء الإسلام إلى دراسة العلوم المختلفة ، كما اتسعت حركة التأليف ، وزاد نشاط العلماء في تدوين علوم الإسلام ، ورتبوا أبواب الفقه وأنواع الحديث . وكان الخلفاء مع انغماسهم في الشهوات والترف وارتكابهم المحرمات ، يتظاهرون بخدمة العلماء ويتحلون بالنزعة الدينية ، وبهذا تمكنوا من استخدام رجال منهم وسيلة لتوطيد استبدادهم ، وذريعة لإخضاع العامة لهم ، وانهم ملزمون باطاعة السلطان اطاعة عمياء ، وان تصرفه لا يجوز الاعتراض عليه وان انحرف عن حدود طاعة الله ؛ وبهذا وقع تطور أوجد مشاكل خطيرة ، فكانت في ذلك العصر للفقهاء والمحدثين درجات عالية عند الخلفاء ، وقد كثر الجدل والنقاش في أهم المسائل الفقهية ، كما كثر في العقائد والمسائل الكلامية . كما وقد اشتدت قضية أهل الرأي وأهل الحديث ، واصبح لكل جانب انصار ، وهم يقيمون الحجج والبراهين على ما يذهبون إليه . إلى غير ذلك من مميزات ذلك العصر الذي نشأ فيه الشافعي .

كما وقد اثيرت هناك مسائل كثيرة تتعلق بالتوحيد وبالصفات . ورؤية

الله بالابصار ، وغيرها من المسائل ذات الأهمية في ذلك العصر . كالبحث حول الحديث وصحته ، والاجتماع وكيفية الاستدلال به . ولقد جاء عن الشافعي في كتاب الأم انه ناظر في كثير من هذه المسائل ، وقد كانت طريقة الشافعي في النقل عن كثير من المناظرات ، نقل الحجة عن لسان واحد بدون تعيين ، ولعل ذلك طريقة علمية للتوصل إلى إيضاح الأمر وبيانه .

الخلاصة :

والخلاصة ؛ أن العصر الذي نشأ فيه الشافعي كان ازهر العصور من جهة ، ومن جهة أخرى كان عصر مشاكل للامة عندما استبد ولاة الأمر بأمور المسلمين ، فاستأثروا بالاموال وتحكموا بالرقاب وخالفوا حدود الله مع ادعائهم — الاجوف — بالمحافظة عليها ، وقد تجاوزوا الحد في تعدي حدود الله ومخالفة احكامه حتى لقد استعملوا في معاملة الرعية أشد أنواع التعسف والجور ، الأمر الذي دعا رجال الاصلاح والمحافظين على نواميس الإسلام إلى متابعة الإنكار ورفع أصواتهم بالمؤاخذة ، فكان نصيبهم القتل والتشريد وظلمة السجون .

وقد أدى ذلك الظلم إلى عواقب وخيمة ، كان من ورائها عدم استقرار الأمر وضياع الحق ، وقد حاولنا ان نلمس موقف الشافعي وسط ذلك المعترك ، ومواجهته تلك الاوضاع الشاذة ، وهو ذلك الرجل الطموح الذي كان يتحسس إلى النهوض في وجه الظلم ، بانضمامه لجانب العلويين كما نقل عنه . فانا لم نجد للشافعي موقفاً يدلنا بصراحة على انكاره للاوضاع ، ولعل قضية اتهامه بذلك حالت بينه وبين نشاطه وشعوره المتوقد ، هذا ان كان لقصية الاتهام أصل ، وإلا فلا شيء يدل على أي أثر هناك ، لأن القضية مكذوبة ولا أصل لها .

ولا تهمنا هذه الجهة ، ولكن يهمنا معرفة تأثره بطابع ذلك العصر ، من حيث النشاط العلمي ، والتقدم بين أقرانه ، لما اتصف به من ذكاء وفطنة . ونحن عندما ندرس تلك الجهة عن طريق المعجبين به نجد أن له نشاطاً عظيماً وتقدماً فائقاً يوم كان ببغداد . ولكن هناك أيضاً من ينفي هذا ويصفه بالانسحاب عن ميدان المقابلة لعلماء عصره ، ويجعل ذلك سبباً لخروجه إلى مصر .

يقول البزاز : كان الشافعي (رض) بالعراق يصنّف الكتب ، وأصحاب محمد (أي الشيباني) يكسرون عليه أقاويله بالحجج ويضعفون أقواله ، وقد

ضيقوا عليه ، وأصحاب الحديث أيضاً لا يلتفتون إلى قوله ، ويرمونه بالاعتزال فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر ، ولم يكن فقيه معلوم ، فقام بها سوقه (١) .

ويقول أيضاً : عن علي بن حسين الرازي قال : اجتمع في عرس هو وسفيان بن سحبان ، وفرقد ، وعيسى بن أبان ، وأخذوا في مسألة غامضة وفيهم الشافعي ، فدخل في نكتة من المسألة غامضة ، فظن الإمام الشافعي انه فطن للمسألة . ولم يكن كذلك ، فجره سفيان إلى أغمض منها حتى تحيّر ، ولم يتهيأ له الكلام ، فحكى ذلك لمحمد فقال : ارفقوا به فانه جالسنا وصحبنا ، ولا تفعلوا به هذا (٢) .

أما الاولون ، فقد وصفوه بانه قد احدث في بغداد تغيراً محسوساً ، وقد ثقل مقامه على أهل الرأي ، لأنه كان ينتصر لمذهب استاذه مالك ويدفع عنه ، وحوّل أكثر المبرزين منهم إلى حلقته .

حدث الفضل الزجاج فقال : لما قدم الشافعي إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ وكان في الجامع إما نيف وأربعون حلقة ، أو خمسون حلقة . فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم : قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون : قال اصحابنا . حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره (٣) .

ومعنى هذا ان الدراسة توحدت للشافعي ، ولم يبق لأهل الرأي مجال لمقابلة ذلك النشاط الذي لقيه الشافعي . وهذا أمر موكول إلى صحة أحد القولين ، ولا مجال لنا في تأييد جانب دون آخر ؛ على أننا لا ننكر منزلة الشافعي العلمية ، كما لا ننكر مقابلته لأهل الرأي ، مع انا نعلم انه أخذ أكثر معلوماته عن محمد بن الحسن الشيباني .

وعلى أي حال : فان أكثر الروايات حول الشافعي مضطربة ــ كما قدمت ــ ولكن مقتضى شرطنا في هذه الدراسة التعرض لكثير من ذلك ، ولنا الحق في المناقشة ، وقد رأينا ترك هذا الموضوع ، ونريد ان نلتحق بركب صاحبنا لمعرفة أخباره ، وأكثرها كانت في مصر ، لنأخذ على ضوئها صورة عن طابع شخصيته .

---

(١) المناقب للبزاز ج ٢ ص ١٥٣ .
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٠ .
(٣) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٦٨ – ٦٩ .

أخباره :

نشأ الشافعي يتيماً في حجر أمه وقدمت به مكة خوفاً عليه من الضيعة ، وليتلقى دراسته ، فاستقبل عهد دراسته على خالد الزنجي ومالك ، وكان بطبيعة الحال شديد الحاجة إلى ما يساعده على مواصلة دراسته ، لأنه كان فقيراً لا يجد ثمن القرطاس الذي يكتب عليه دروسه ، فكان يتعوض عنه باكتاف الغنم. وقد ساعده مالك بن انس لسعة حاله ، وبعد وفاة مالك التجأ إلى الوساطة لأن يلي عملا للدولة ، ليستعين به على زمانه فعيّن في اليمن ، وحمل منها أو من مكة إلى بغداد بتهمة التشيع أو غير ذلك . وكانت بغداد في عنفوان نهضتها العلمية وحركتها الثقافية ، واتجاهها الفكري إلى مختلف العلوم .

وكان الفقهاء في ذلك العصر قد انقسموا إلى أهل رأي يعتمدون في نهضتهم على سرعة افهامهم ، ونفاذ عقولهم وقوتهم في الجدل ، واهل حديث يعتمدون على السنن والآثار ، ولا يأخذون من الرأي إلا ما تدعو إليه الضرورة .

وكان الشافعي قد تفقه على أهل الحديث من علماء مكة ، وعلى مالك من علماء المدينة . وكان يعترف لمالك بالفضل والمنة فكان يقول : إذا ذُكر العلماء فمالك النجم ، ما أحد أمنّ عليّ من مالك بن أنس .

ولما ذهب إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأي على استاذه والمنعم عليه مالك بن أنس وعلى مذهبه . وكان أهل الرأي أقوى سنداً وأعظم جاهاً بمالهم من المكانة عند الخلفاء ، وبتوليتهم شؤون القضاء ، ذلك لأنهم اوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وانفذ بياناً (١) . وقد وقعت لكثير من الخلفاء وغيرهم مشاكل ، فكان لها مخرج عند أهل الرأي ، لذا كانت منزلتهم في الدولة أعظم من غيرهم .

وكان الشافعي قد لازم محمد بن الحسن عند قدومه العراق ، ودرس كتبه وأخذ عنه الشيء الكثير ، واطلع على كتب فقهاء العراق ، فأضاف ذلك إلى ما عنده من طريقة أهل الحديث .

وعاد الشافعي من العراق إلى الحجاز ، واستمر بمكة يواصل استفادته من الوافدين إلى مكة من علماء الامصار ، واختلط بهم ثم عاد إلى العراق مرة ثانية سنة ١٩٥ هـ في خلافة الأمين ، وهناك أملى على من التف حوله كتبه التي

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٢١ .

كتبها في مذهبه في العراق — وهو المعروف بمذهبه القديم — وقد رجع عن ذلك عندما نزل في مصر وحرم الرواية لذلك عنه ، وكان نزوله في هذه القدمة على محمد بن ابي الحسن الزيادي ، ومقامه هناك سنتان .

وقد توفي محمد بن الحسن ، وقام مقامه — من أصحاب ابي حنيفة — الحسن بن زياد اللؤلؤي ، ثم عاد إلى الحجاز . وفي سنة ١٩٨ هـ قدم العراق قدمته الثالثة فأقام هناك أشهراً ، ومن العراق سافر إلى مصر فنزل في الفسطاط ضيفاً كريماً على عبد الله بن عبد الحكم .

كانت الأسباب التي حملت الشافعي للرحيل إلى مصر كثيرة مختلفة ، فبعضٌ يقول : أنه كان يتشوق إلى مصر دائماً ، ورووا له في ذلك شعراً :

أرى النفس قد اضحت تتوق الى مصر ... ومن دونها قطع المهامه والقفر
فوالله ما أدري أللفوز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى القبر ؟ (١)

وهذه الابيات تنسب إلى الحسن بن هاني وهو المعروف بابي نواس ، وان الشافعي تمثل بها ، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان .

وقيل : انه قدم مصر رغبة منه في معارضة انتشار أقوال ابي حنيفة ومالك ، كما حدث الربيع قال : سألني الشافعي عن أهل مصر فقلت : هم فرقتان : فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه ، وفرقة مالت إلى قول ابي حنيفة وناضلت عليه . فقال : ارجو ان اقدم مصر إن شاء الله ، فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين .

فهو إذ ذاك سلك طريقاً وسطاً ، فلم يكن على رأي مالك في الحديث وتشدده ، ولا كاصحاب الرأي يتساهلون في الحديث ويكتفون بشهرته ، ويقدمون القياس على خبر الآحاد وان صح سنده .

فانتقد مالكاً لأنه ترك احياناً حديثاً صحيحاً ، لقول واحد من الصحابة أو التابعين ، أو لرأي نفسه . وكان أشد نقد لمالك قد وجهه الشافعي ، أنه ترك قول ابن عباس إلى قول عكرمة في مسألة ، مع أن مالكاً كان يسيء القول في عكرمة .

---

(١) معجم الادباء ج ١٧ ص ٣١٩

الإمام الشافعي في مصر :

وكان قدوم الشافعي لمصر ، وقد انتشر مذهب مالك وتركزت دعائمه على أيدي تلامذته ، الذين كان لهم في مصر مكانة عظيمة ، فاصبح اعتقاد الناس في مالك عظيماً ، ويقدمون قوله على السنّة إذ يقال لهم : قال رسول الله ، فيقولون : قال مالك . وكانت له قلنسوة يستسقون بها ، وقد غلوا بكتابه غلواً عظيماً حتّى قالوا : ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك . وفي لفظ آخر : ما على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك .

ونزل الشافعي ضيفاً كريماً على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وكان من أكبر أنصار مذهب مالك ، وكانت له مكانة ورياسة ، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً ، فأكرم مثوى الشافعي ووازره ، وتأكدت بينهما مودة وإخاء . وقد عُرف الشافعي بانه تلميذ مالك وناصر مذهبه والمدافع عنه ، وكان هذا أحد الأسباب التي هيأت النجاح للشافعي .

يضاف إلى ذلك أنه قدم مصر مزوداً بتوصية من خليفة العصر إلى أمير مصر ، أو انه جاء بصحبته على ما في القضية من إختلاف الأسباب . يقول ابن حجر : ان الرشيد سأل الشافعي أن يوليه القضاء فامتنع ، فقال سل حاجتك ، قال : حاجتي ان أعطى من سهم ذوي القربى بمصر واخرج إليها ، ففعل ذلك وكتب له إلى أميرها (١) .

وقيل : انه خرج إلى مصر مع أميرها العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى العباسي ، وكان العباس هذا خليفة أبيه على مصر ، وقد صحبه جماعة من أعيان أهل مصر ، كبني عبد الحكم ، والربيع بن سليمان ، وذلك بعد وفاة الرشيد سنة ١٩٩ هـ .

فكان الشافعي موضع عناية أصحاب مالك ، لأنه من أشهر تلاميذه والمناصرين له فوازروه ، وأخذ الشافعي في نشر مذهبه الجديد . ووضع الكتب في الرد على مالك ومعارضة أقواله .

قال الربيع : سمعت الشافعي يقول : قدمت مصر ولا أعرف أن مالكاً يخالف من احاديثه إلا ستة عشر حديثاً ، فنظرته فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع ، ويقول بالفرع ويدع الأصل . ثم ذكر الشافعي في رده على مالك ،

(١) توالي التأسيس ص ٧٧ .

المسائل التي ترك الأخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة ، او بقول واحد من التابعين أو لرأي نفسه .

وذكر الساجي : أن الشافعي انما وضع الكتب على مالك بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالك يستسقى بها ، وكان يقال هم : قال رسول الله فيقولون : قال مالك فقال الشافعي : إنما مالك بشر يخطىء فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في إختلافه معه ، وكان يقول : استخرت الله في ذلك مدة سنة .

وقال أبو عمر : وتكلم في مالك ايضاً فيما ذكره الساجي في كتاب العلل ، عبد العزيز بن أبي سلمة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وعابوا أشياء من مذهبه . إلى أن يقول : وتحامل عليه الشافعي وبعض أصحاب أبي حنيفة في شيء من رأيه حسداً لموضع امامته (١) .

فهو قد جعل رد الشافعي على مالك تحاملا عليه وحسداً له ، ولما وضع الكتاب على مالك تعصب المالكية عليه وسعوا به عند السلطان وقالوا له : أخرجه وإلا افتتن به البلد ، فأتاه الشافعي فكلمه فامتنع الوالي وقال : ان هؤلاء كرهوك وأخشى الفتنة ، فقال له الشافعي : أجلني ثلاثة أيام فمات الوالي فيها (٢) .

وقال ياقوت : كان بمصر من أصحاب مالك رجل يقال له فتيان ، فيه حدة وطيش ، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما ، فتناظرا في مسألة بيع الحر — وهو العبد المرهون — إذا اعتقه الراهن ولا مال له غيره ، فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله ومنع فتيان منه . . . فضاق فتيان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً . فلم يرد عليه الشافعي فرفع ذلك رافع إلى السري (الوالي) فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه ، فأخبره بما جرى وشهد الشهود على فتيان بذلك ، فقال السري : لو شهد آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه ، وأمر بفتيان فضُرب بالسياط وطيف به على جمل ، وبين يديه مناد ينادي : هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ان قوماً تعصبوا لفتيان ، من سفهاء الناس ، وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من اصحابه وبقي وحده ، فهجموا عليه وضربوه فحمل إلى منزله ، فلم يزل فيه عليلا حتى مات (٣) .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله .
(٢) توالي التأسيس ص ٨٤ .
(٣) معجم الادباء ج ١٧ ص ٢٢٣ .

إن هذه الرواية تدل على ان سبب موت الشافعي هو ذلك الضرب المنبعث عن التعصب ، وقد نص ابن حجر على انهم ضربوه بمفتاح حديد فمات (١) بعد ذلك الضرب بقليل ، كما جاء في رثاء الشافعي :

قال ابن حجر عند ذكره لهذا الحادث : وقد ضمن ذلك شيخ شيوخنا ابو حيان في قصيدته التي مدح بها الشافعي . ثم ذكر القصيدة . ونحن نذكر منها محل الشاهد :

ولما أتى مصر انبرى لأذاتـه ... أناس طووا كشحاً على بغضه طيا
اتى ناقـداً ما حصلوه وهادماً ... لما اصّلوا إذ كان بنيانهم وهيا
فدسّوا عليه عندما انفردوا به ... شقياً لهـم شل الإلـه له اليديا
فشج بمفتاح الحديد جبينـه ... فراح قتيلا لا بواك ولا نعيا
نعم قد نعاه الدين والعلم والحجا ... وترداد صوت في الدجا يسرد الوحيا (٢)

فالشافعي إذاً ذهب ضحية التعصب من المالكية ، لأنه كان يعارض اقوال مالك ويرد عليه وقد وضع كتاباً في ذلك كما وضع كتاباً في الرد على ابي حنيفة (٣) .

مذهبه الجديد :

وكيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد ، وكان قد درس المذهبين : مذهب أهل الرأي ومذهب أهل الحديث ، وقد لاحظ ما فيهما من نقص ، فبدا له ان يكمل ذلك النقص ، وأخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط ، وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً ، الذي لا يكاد يعنى بالجزئيات والفروع .

ولعل خير ما يلخص مسلكه في منحاه الاجتهادي هو انه قال : الاصل قرآن وسنة ، فان لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الاسناد عنه فهو سنّة ، والاجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث على ظاهره ، وما احتمل معاني فما اشتبه منها ظاهر اولاها به وإذا تكافأت الاحاديث فأصحها اسناداً اولاها ، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع

(١) توالي التأسيس ص ٨٦ .
(٢) توالي التأسيس ص ٨٧ .
(٣) انكر بعضهم على الخزرجي قوله في الخلاصة ص ٢٧٩ – : ان الشافعي مات شهيداً سنة ٢٠٤ هـ . لعدم وقوفه على المصادر التي تنص على ذلك .

ابن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال للاصل لِمَ وكيف. وانما يقال للفرع لِمَ ، فاذا صح قياسه صح وقامت به الحجة .

فهو بهذه الخطة الجديدة قد هاجم مالكاً ، لتركه الاحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأي نفسه .

وهاجم أبا حنيفة وأصحابه ، لأنهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً ، ويقدمون القياس على خبر الآحاد وان صح سنده ، وانكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة ، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث ، بدعوى انها مشهورة ، ووقف في القياس موقفاً وسطاً فلم يتشدد فيه تشدد مالك ، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة (١) .

وقال امام الحرمين : فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة المرسلة ، غير المستندة إلى شواهد الشرع ، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والاصول ، والشافعي (رض) جمع بين القواعد والفروع ، فكان مذهبه اقصد المذاهب ومطلبه أسد المطالب كما يقول امام الحرمين .

هذا عرض موجز لما يتعلق بحياة الشافعي وأخباره من حيث اتجاهه الفقهي ، ومخالفته لاهل الرأي وأهل الحديث .

وتدلنا الحوادث بوضوح انه لقي أذىً كثيراً في اظهار مخالفته لمالك ورده عليه ، كما انه لم يلق في مصر ذلك الاقبال المطلوب الذي كان يأمله رجل مثله ، فقد جفاه الناس ولم يجلس إليه أحد ، فقال له بعض من قدم معه : لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس ، فقال : إليك عني وأنشأ :

أأنثر دراً بين سارحة النعم وانظم منثوراً لراعية الغنم . ! (٢)

وكان يظهر التذمر والتألم ، ويدلنا على ذلك قوله :

وانزلني طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرءاً لا أشاكله
أحامقُهُ حتى تقال سجية ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله (٣)

ويقول :

لعمري لئن ضيعت في شر بلدة فلست مضيعاً فيهمُ غُرر الكلم

(١) تمهيد لتأريخ الفلسفة الإسلامية للاستاذ مصطفى عبد الرزاق ص ٢٢٥ وضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) معجم الادباء ج ١٧ ص ٣١٩ وتمام الابيات ص ٣٠٧ .

(٣) المعجم ج ١٧ ص ٣١٠ .

لئن سهل الله العظيم بلطفه وصادفت اهلاً للعلوم وللحكم
بثثت مفيداً واستفدت ودادهم وإلا فمكنون لديّ ومكتتم
ومن منح الجهال علماً اضاعه ومن منح المستوجبين فقد ظلم (١)

وقال الكندي : لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه : يا كذا ، . . . دخلت هذه البلدة وامرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا ، وألقيت بيننا الشر ، فرق الله بين روحك وجسمك (٢) .

وكان اشهب يدعو على الشافعي ويقول في سجوده : اللهم أمت الشافعي وإلا ذهب علم مالك بن أنس ، فسمع الشافعي بذلك وأنشأ يقول :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ومما قال :

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك عن حسد (٣)

الطعون على الشافعي :

توجهت للشافعي طعون كثيرة في مختلف الأمور ، من اعتقاد واستنباط وحديث ، فقد رموه بالاعتزال مرة ، والتشيع أخرى ، أو أنه يروي عن الكذابين ، وانه قليل الحديث وألف بعض الحنفية كتاباً في الرد والطعن عليه .

سئل يحيى بن معين : الشافعي كان يكذب ؟ قال : لا أحب حديثه ، ولا أذكره . وفي قول آخر : اما الشافعي فلا أحب حديثه .

وروى الخطيب عن يحيى بن معين انه قال : الشافعي ليس بثقة . وعن عبد الله بن وضاح انه قال في الشافعي : انه ليس بثقة . وقد أساء هذا القول بعض الشافعية فهجا ابن معين (٤) بقوله :

ولابن معين في الرجال وقيعة سيُسأل عنها والمليك شهيد
فان كان صدقاً فهو لا بدّ غيبة وان كان كذباً فالعذاب شديد (٥)

---

(١) معجم الادباء ج ٧ ص ٢٠٧ .

(٢) القضاة للكندي ص ٤٢٨ .

(٣) مناقب الفخر ص ١١٥ .

(٤) يحيى بن معين بن عون الغطفاني ابو زكريا البغدادي المتوفى سنة ٢٣٣ هـ احد الحفاظ ومن رجال الصحاح الستة اخذ عنه احمد بن حنبل والبخاري ومسلم وخلق كثير قال احمد بن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث.ولما مات نودي بين يديه هذا الذي كان يذب الكذب عن رسول الله (ص) إلى آخر ما هو موجود في ترجمته من ثناء وإطراء بالنظر لعوامل الحب والكراهة .

(٥) مناقب الفخر ص ٥٠ .

وعلى أي حال فلا بد من إعطاء نموذج من تلك الطعون فيما يأتي :

١ ـ ان البخاري ومسلم لم يخرجا حديثه في صحيحيهما ولولا أنه كان ضعيفاً في الرواية لرويا عنه كما رويا عن سائر المحدثين (١) .

٢ ـ انه كان لا يعرف صحاح الأخبار ، فقد روى عن أحمد بن حنبل أنه قال : قال الشافعي انتم أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح فاعلمني حتى أذهب إليه .

قالوا : وهذا اقرار منه بالتقصير . وعن ابي ثور أنه قال : الشافعي ما كان يعرف الحديث وإنما كنا نوقفه عليه ونكتبه (٢) .

٣ ـ ان من مذهبه أن المراسيل ليست بحجة ، ثم أنه ملأ كتبه من قول أخبرنا الثقة ، أخبرني من لا أتهمه . والجمع بين هذه الروايات وذلك المذهب عجيب (٣) .

٤ ـ انه كان يروي عن الكذابين والبدعيين ، فروى عن إبراهيم بن يحيى مع انه كان قدرياً ، وروى عن إسماعيل بن عليّة مع أنه قد طعن فيه .

٥ ـ انه يذهب مذهب الشيعة ،وأنه كان يقول الأشعار المشعرة برغبته في ذلك المذهب ، وقد نص ابن معين على تشيعه . وروى المزني قال : قلت للشافعي : انت توالي أهل البيت ، فلو عملت في هذا الباب أبياتاً فقال :

وما زال كتمانيك حتى كأنني ... برد جواب السائلين لأعجم

واكتم ودي في صفاء مودتي ... لتسلم من قول الوشاة وتسلم (٤)

هذه هي اهم الطعون الموجهة إلى الشافعي : وقد دافع الشافعية عن ذلك بما أمكنهم الدفاع عنه سواء وفّقوا للنجاح أم لا . ولا بد لنا من إبداء الرأي في ذلك .

١ ـ ان عدم تخريج البخاري ومسلم لحديث الشافعي لم يكن دليلا على الجرح في الشخص الذي لم يخرجا حديثه ، إذ لم يكن ذلك دائراً مدار الواقع فيكون قولهما الفصل وحكمهما العدل ، فان الصحيح يكون صحيحاً في نظرهما لا يلزم منه ان يكون كذلك واقعاً ، كما لا يلزم ان يؤخذ ذلك بطريق التقليد والإتباع . لان الحقيقة غير هذا ، إذ المؤاخذات على البخاري كثيرة جداً

---

(١) مناقب الرازي ص ٨٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٢٧ ، وطبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٨٢ ، وآداب الشافعي ص ٩٥ .

(٣) مناقب الشافعي للرازي ص ٨٤ .

(٤) الرازي ص ٥٠ .

فمنها في رجاله كروايته عن قوم عرفوا بالكذب وقوم ضعفاء وخوارج . ومنها في نفس الأحاديث التي يصدق عليها بعض علامات الوضع .

وقد كان البخاري يروي بالمعنى ، كما حدث الخطيب البغدادي : ان البخاري قال يوماً : ربّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام ، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر ! ! فقيل له : يا أبا عبد الله بكماله ؟ ! ! فسكت (١) . ومهما يكن من شيء : فان ترك البخاري لحديث الشافعي لم يكن دليلاً قاطعاً على التوهين ، وإن كان في ذلك شيء من الاستغراب ، إذ لا مانع للبخاري من تخريج حديث الشافعي ، لأن الخوف والحذر كان يحول بينه وبين تخريج احاديث كثير من اعلام الأمة ، نظراً لعوامل الظروف ، وسياسة الوقت . والبخاري لا يستطيع ان يجتاز تلك العقبات ، لفقدانه الجرأة والشجاعة .

هذا مع أن نزعة البخاري نحو الشافعي هي غير نزعته نحو اولئك الرجال الذين ترك حديثهم ، اما لشيء في نفسه ، او خوفاً من سلطان عصره ، اما تركه احاديث أهل البيت وفضائلهم فلا يعترينا شك بانحراف البخاري عن أهل البيت . هذا والأمر يحتاج إلى تحليل نفسية البخاري على ضوء الحوادث التاريخية . وعسى أن تتاح لنا الفرصة في ذلك .

٢ ـ أما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى ، فقد كان الشافعي يوثقه ويطمئن إليه . وكان يقول : لئن يخرم إبراهيم من بعد ، احب إليه من أن يكذب ، وكان ثقة في الحديث (٢) .

وكذلك ذهب بعض علماء الدين إلى تنزيه إبراهيم بن أبي يحيى عمّا رُمي به من الكذب . قال أبو أحمد بن عدي : سألت أحمد بن محمد بن سعيد (يعني ابن عقدة) : تعلم أحداً أحسن القول في إبراهيم غير الشافعي ؟ قال : نعم ، اني أنظر في حديث إبراهيم كثيراً وليس بمنكر الحديث .

قال ابن عدي : وقد نظرت أنا كثيراً في حديثه فلم أجد فيه منكراً ، إلا شيوخ يحتملون ، وانما يروي المنكر من قبل الراوي ، أو من قبل شيخه ، وهو (أي إبراهيم) في جملة من يكتب حديثه وله الموطأ أضعاف موطأ مالك .

وكان إبراهيم من تلامذة الإمام الصادق ، وله كتاب في مذهب أهل البيت وقد روى الشافعي عنه فأكثر ، وكان مرة لا يذكر اسمه ويقول : روي

---

(١) المناقب ج ٢ ص ١١ .

(٢) تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٥٩ .

عن جعفر بن محمد (الصادق) عن ابيه عن جده علي بن الحسين : أن مروان ابن الحكم قال له : ما رأيت أحداً أكرم غلبة من ابيك ، ما هو إلا ان ولينا يوم الجمل ، فنادى مناديه : لا يقتل مدبر ولا يدفن على جريح .

وقد جاء في كتاب الأم كثير من روايات الشافعي عن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام ولعل هذا هو السبب في الطعن عليه نظراً لما تقتضيه سياسة الوقت .

الإمام الشافعي والتشيع :

الإتهام بالتشيع خطر عظيم ، ومشكلة لا يقوى على تحملها كل أحد ، وكيف وقد صور التشيع بعدسة الإتهامات الكاذبة في الإبتعاد عن الدين ، تلك التهم التي تثير في النفوس إشمئزازاً ، وفي العواطف ثورة ، حتى أصبح من اللازم التظاهر بالعداء لمن يعرف به . وقد أدى الموقف السياسي إلى أن إتهام الرجل بالزندقة والإلحاد أهون عليه من الإتهام بالتشيع . فالزنديق آمن مع كفره والشيعي مطارد على ايمانه .

وقد مر بيان الدور الأموي ، وما اقترفوا فيه من الذنوب ، وارتكبوا من وحشية في معاملة شيعة أهل البيت بالطرق السيئة : فمن دفن للناس وهم أحياء ، إلى صلب على جذوع النخل ، إلى حرق وحبس ، ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوسين . حتى يقضي المسجون نحبه جوعاً وعطشاً . وكانوا يرتكبون من الآثام في وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، فيقطعون رأس الإبن أو الزوج ويبعثون بهذا الرأس إلى الأم أو الزوجة ويلقونه في حجرها . وكانوا يصلبون الناس ويتركونها حتى تنبعث منهم الروائح الكريهة ، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء . ولا ذنب لهم إلا حب أهل البيت واتباعهم .

اما في الدور العباسي فالأمر أشد وأعظم . وقد تعرضنا للبعض من ذلك في مطاوي الأبحاث ، ونعود بعد هذا التمهيد إلى أسباب اتهام صاحبنا الشافعي بالتشيع ، حتى جعل ذلك طعناً عليه مما اضطر اتباعه إلى الدفاع عنه وإخراجه من قفص الاتهام . ولا بد لنا من ان نتعرض لاسباب اتهام الشافعي بعرض موجز فنقول :

لقد توسع الناس في تطبيق لفظ الشيعي فاستعملوه بغير ما وضع له ، فهو بعد أن كان لا يطلق إلا على من يوالي علياً وأهل بيته (ع) ويقدمه

بالخلافة ويفضله على الامة — كما هو رأي كثير من الصحابة والتابعين — أصبح يستعمل في معان كثيرة . وعلى سبيل المثال نضع بين يدي القراء صوراً من ذلك . في ذكر رجال اتهموا بالتشيع وليسوا هم من الشيعة في شيء ، وهم كما يأتي :

١ — خثيمة بن سليمان العابد ، ألّف في فضائل الصحابة وذكر فضائل علي عليه السلام ، فاتّهم بالتشيع لذلك . وشهد الخطيب البغدادي بانه ثقة وأنه ألّف في مناقب الصحابة ولم يخص علياً . (١) .

٢ — الحاكم ابو عبد الله النيسابوري ، أتّهم بالتشيع لأنه ذكر في كتابه (المستدرك) احاديث في فضائل علي عليه السلام منها : حديث الطائر المشوي . وحديث (من كنت مولاه ...) . (٢) وزاد الذهبي : انه كان منحرفاً عن معاوية وآله . (٣)

٣ — عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هـ الحافظ الكبير ، ومن رجال الصحاح قال الذهبي : انه صاحب تصانيف ، وثقه غير واحد ، وحديثه مخرّج في الصحاح ، وله ما ينفرد به . ونقموا عليه التشيع ، وما كان يغلو به بل كان يحب علياً ويبغض من قاتله (٤) .

ويقول في ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي : هو من ثقات الشيعة ، حدث عنه سيار بن حاتم ، وعبد الرزاق بن همام ، وعنه أخذ بدعة التشيع (٥).

فانت ترى أنهم نقموا على ابن همام لتشيعه — وهو حب علي وبغض قاتله — وبهذا أصبح مبتدعاً كما يقولون ! !

٤ — محمد بن طلحة بن عثمان أبو الحسن النعالي ، أتّهم بالتشيع وتعرض للخطر ، لأن أبا القاسم نقل عنه : أنه شتم معاوية (٦) .

٥ — قاضي القضاة محيي الدين الأموي المتوفى سنة ٦٦٨ هـ يرجع بنسبه إلى عثمان ، قال ابن العماد في ترجمته : وكان شيعياً يفضل علياً على عثمان ، مع كونه أدعى نسباً إلى عثمان وهو القائل :

أدين بما دان الوصي ولا أرى   سواه وإن كانت أمية محتدي

---

(١) لسان الميزان ج ٢ ص ٤١١ .
(٢) تأريخ بغداد ج ٥ ص ٤٧٤ .
(٣) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٣٣ .
(٤) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٣١ .
(٥) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٢٢ .
(٦) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٨٤ .

ولو شهدت صفين خيلي لأعذرت   وساء بني حرب هنالك مشهدي (١)

أنظر كيف جعل مقياس تشيعه أنه يفضل علياً على عثمان فقط .

٦ ـ محمد بن جرير الطبري المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٣١٠ هـ كان من علماء القرن الثالث ، وله مذهب انفرد به ، وله أتباع يعملون فيه ، وقد غضب عليه الحنابلة إنتصاراً لإمامهم أحمد بن حنبل ، ورموه بالحجارة ، ولما مات دفن ليلاً .

قال إبن الأثير في حوادث سنة ٣١٠ : إنه دفن ليلاً بداره لأن العامة إجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ، وادّعوا عليه الرفض والإلحاد .

قال : وقال علي بن عيسى : لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه . وهذه التهمة وجهت إليه من الحنابلة ، لأنه ألّف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه اختلاف أحمد بن حنبل ، فقيل له في ذلك . قال : لم يكن من الفقهاء ، فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة في بغداد . (٢)

٧ ـ ابن حبون أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأندلسي المتوفى سنة ٣٠٥ هـ ، من علماء الأندلس وعظمائهم . قال ابن سعيد : لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حبون . وكان (يزن) أي يتهم في التشيع لشيء كان يظهر منه في معاوية .

ومن أعجب الأمور أن ابن عبد البر قد أتهم بالتشيع على ما فيه من النصب والعداء لاهل البيت ، فقد وصفه ابن كثير في تاريخه بأنه شيعي لرواية نقلها تمس بكرامة الامويين .

ومن الغريب ايضاً خلط كتّاب العصر الحاضر بوصفهم ابن ابي الحديد المعتزلي انه شيعي ، إلى غير ذلك من الغرائب .

هذا ما ذكرناه على سبيل المثال والتمهيد للوصول إلى أسباب إتهام الشافعي بالتشيع . ولو أردنا أن نتوسع في ذلك لطال بنا الحديث في ذكر الحوادث التي وقعت من وراء ذلك .

وصفوة القول : ان الإتهام بالتشيع ونسبة أناس كثيرين إلى الشيعة أصبح غير منوط بقاعدة ولا مربوط بدليل ، حتى أن أبا حنيفة نسبوه إلى التشيع ، لأنه كان يذهب إلى تفضيل علي (ع) على عثمان وقد امتحن كثير من العلماء

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٢٦ ومرآة الجنات ج ٤ ص ١٦٩ .

(٢) الكامل ج ٨ ص ٤٩ .

وأوذوا في ذلك ، مثل النسائي صاحب « السنن الكبرى » لأنه ألف في فضل علي كتاباً ولم يؤلف في فضائل معاوية . وأمثال هذا كثير لا يسع المقام حصره . ولنعد إلى الحديث عن أسباب إتهام صاحبنا بذلك . وهي أمور :

١ — كان الإمام الشافعي يتظاهر في مدح أهل البيت (ع) مما يدل على نزعته وميوله إلى التشيع — كما ذكروا — وإنها لتشعر بكل صراحة على ذلك ، فهو يعلن تمسكه بآل محمد ويقول :

آل النبي ذريعتي   وهموا اليه وسيلتي
أرجو بأن أعطى غداً   بيدي اليمين صحيفتي

واشتهر عنه قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكموا   فرض من الله في القرآن انزله
يكفيكموا من عظيم الذكر انكموا   من لم يصل عليكم لا صلاة له

ويوضح لنا الإمام الشافعي بواعث إتهامه بالرفض او التشيع فيقول :

قالوا ترفضت قلت كلا   ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شك   خير امام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً   فانني ارفض العباد

فهو باظهاره حب علي بن أبي طالب (ع) قد أتهم بالرفض ولشدة تظاهره بحب علي (ع) فقد هجاه بعض الشعراء بقوله المشهور :

يموت الشافعي وليس يدري   عليّ ربه أم ربه الله

وهو لم يقتصر بحبه لعلي فقط ، بل كان يوالي أهل البيت (ع) ويحبهم ولا يبالي بأن يتهم بالتشيع الذي كان من أعظم التهم في عصره وقبل عصره فيقول :

يا راكباً قف بالمحصب من منى   واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى   فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان اني رافضي

٢ — ان الشافعي قد صرح بتشيعه وجعل ذلك فخراً له فيقول :

انا الشيعي في ديني وأصلي   بمكة ثم داري عسقلبة
بأطيب مولد وأعز فخرا   وأحسن مذهب سموا البرية (١)

فهو بهذه الصراحة يدل على ان تلك التهمة موجهة إليه لا محالة .

---

(١) الفخر الرازي في المناقب ص ٥١ .

٣ ـ لقد نص على تشيع الشافعي جماعة من المؤرخين والمحدثين فهذا يحيى ابن معين المحدث الكبير كان يقول : ان الشافعي كان شيعياً ، فلما بلغ أحمد ابن حنبل ذلك ، وكان طبيعياً ان يسوءه هذا القول في الشافعي ، فاحب ان يسأل من ابن معين عن الأدلة التي أدت إلى إتهام الشافعي بالتشيع فقال أحمد لابن معين : كيف عرفت ذلك ؟

فقال يحيى : نظرت في تصنيفه في قتال أهل البغي ، فرأيته قد احتج من أوله لآخره بعلي بن أبي طالب (١) .

هذا هو سبب أتهام الشافعي او الطعن عليه بأنه كان يحتج بعلي بن أبي طالب ! !

وقال ابن النديم: وكان الشافعي شديداً في التشيع ، واستدل على ذلك بمايلي:

١ ـ ذكر له رجل يوماً مسألة فأجاب فيها ، فقال له الرجل : خالفت علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فقال الشافعي : اثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب واقول قد أخطأت .

٢ ـ حضر الشافعي مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال : لا أتكلم في مجلس أجدهم (أي الطالبيين) أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل (٢) .

فالشافعي إذاً بمجموع هذه الأدلة قد تحققت في حقه تلك التهمة ، وهي الإنتساب إلى مذهب التشيع ، الذي كانت الدولة وأذنابها تنظره بعين الغضب ، لأن مذهب التشيع كابوس لصدور الدولة وقذى في عيونها ، لعدم امتزاجه بسياستها ، فهو يستقي من ينبوع أهل البيت ويأخذ بتعاليمهم . وناهيك ما لأهل البيت في قلوب المتعطشين على السيادة والإستبداد من بغض وعداء ! ! إذاً كيف نصنع بهذا الإمام العظيم ، الذي اشتهر ذكره وكثرت اتباعه ، مع أنه متهم بانضمامه إلى جانب خصوم الدولة ، فلا بد من الدفاع لتبرأته من ذلك.

نتيجة وحكم :

وقد نستلخص من هذا الإستطراد لاتهام الشافعي ولأقواله ، سواء منها الصريحة او الموهمة النتيجة التالية :

---

(١) الفخر الرازي في المناقب ص ٥١ .
(٢) فهرست ابن النديم ص ٢٩٥ .

إن تشيع الشافعي كان تشيعاً بالنسبة لمجتمعه الذي أخرجته السياسة عن عقيدة الاستقامة ، حيث صيّرت أكثر مسلمي ذلك الزمن اناساً يحاربون أهل البيت باليد واللسان ، وقديماً قيل : (الناس على دين ملوكهم) لذلك كانت شجاعة الشافعي في إظهار حبه لعلي وآله هي السبب في وصفه بالتشيع .

اما إذا جردنا ذلك المجتمع من سيطرة الدولة ، وكشفنا الستار الذي تعمل من ورائه ايدي العابثين بصفو الاخوة الإسلامية – من قبل المتدخلين في الإسلام ، فاناً لا نجد هناك انساناً مسلماً يبغض أهل البيت فيما عدا الخوارج ، ومن حذا حذوهم ممن لم يرفع الإسلام ترسبات الشرك والوثنية من قلبه ، وما هو بمسلم بل مستسلم او متحين لفرصة الانتقام بالمسلمين ، طالما لم يكن في آل علي من يتصف بما يوجب كراهيته في المجتمع ، فحبهم لا يكاد يخلو منه قلب مسلم من السنة أو الشيعة، غير أن الفرق الأساسي بين الطائفتين هو قول الشيعة بالإمامة لعلي والوصاية له ، وقول السنة بالشورى والخلافة وانكار الوصاية . فالشافعي على هذا ليس شيعياً ، وإنما هو مسلم يتمسك بحب أهل البيت ولا يناصبهم العداء ، شأن أهل زمانه من السنّة .

وان نظرة دقيقة من القارىء إلى قول الشافعي : (ما الرفض ديني ولا اعتقادي) مع ملاحظة انّ سبب تسمية الشيعة هو رفضهم للخلفاء والخلافة توقفه بوضوح ، على أنّ الشافعي نفسه ينكر الرفض والاعتقاد به ، وأنه لم يزل يتمسك بمبدأ التسنن . غير أنه ينكر على مجتمعه إطلاق (لفظ رافضي) على محب علي وآله ، لعلمه بأن مجرد الحب لا يعني التشيع ، طالما كان التشيع ملزوماً بالاعتراف لعلي بالوصاية وأحقيته بالخلافة.واهليته للامامة ولزوم اتباعه . ولهذا قال على سبيل الفرض :

إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافضي

فالشافعي لا يبالي بتلك التهمة التي وجهت إليه ، لأنه كان يرى أن حب آل محمد فرض على الأمة الإسلامية . يدلنا على ذلك قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكموا   فرض من الله في القرآن انزله

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى (قل لا اسئلكم عليه اجراً إلا المودة في القربى) وبهذا قد اتضح لنا رأي الشافعي وعرفنا نزعته ، فهو محب لأهل البيت وليس بشيعي . ومما يؤيد ذلك ان الشيعة لم تدع هذه الدعوى ولم تدخله في قائمة علمائها ، لأن أمره واضح ومبدأه بيّن .

إذاً ، فالشافعي بريء من هذه التهمة . هذا ما استخلصناه على سبيل

الإستطراد والإختصار. وإلى القارىء صورة من دفاع الشافعية عن هذه التهمة .

دفاع الشافعية :

قال الفخر الرازي: اما دعوى الرفض فباطلة ، لأنه قد اشتهر عنه انه كان يقول بامامة الخلفاء الراشدين ، وكان كثير الطعن في الروافض ، قال يونس ابن عبد الاعلى : سمعت الشافعي يقول : اجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فانهم يشهدون بعضهم لبعض . وقال يونس : كـــان الشافعي يعيب الروافض ويقول : هم شر عصابة .

وأما مدح علي وحبه والميل إليه فذلك لا يوجب القدح ، بل يوجب أعظم أنواع المدح .

وأما طعن يحيى بن معين فالجواب عنه ، ما روى البيهقي عن أبي داود السجستاني . انه قيل لأحمد بن حنبل : ان يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى الشيعة ، فقال أحمد : كيف عرفت ذلك ؟ فقال يحيى نظرت في قتال أهل البغي فرأيته قد احتجّ من اوله إلى آخره بعلي بن أبي طالب .

فقال أحمد : يا عجباً لك ! ! ! فيمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي ، فان أول من ابتلي من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب ، قال : فخجل يحيى من كلامه . وايضاً فان يحيى بن معين كان شديد الحسد للشافعي وكان يلوم أحمد بن حنبل على تعظيم الشافعي .

ولما سمع الشافعي ان بعض الناس رماه بالتشيع أنشد وقال :

إذا نحن فضلنا علياً فاننا ... روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل ابي بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصب عند ذكراي للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما ... أدين به حتى أوسّد في الرمل (١)

مذهبه وانتشاره :

كانت مصر هي المكان الذي صدر عنه المذهب الشافعي ومنه انتشر في الاقطار ، وذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي والمذهب الحنفي . وكانا قد انتشرا هناك .

---

(١) مناقب الشافعي للرازي ص ٥١ — ٥٢ .

قال السبكي في الطبقات عن مصر والشام بالنسبة للمذهب الشافعي : هذان الاقليمان مركز ملك الشافعية ، منذ ظهر المذهب الشافعي ، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد ، لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم ، اما الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء ابو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي . ويقول : كان (محمد بن عثمان) رجلا رئيساً ، يقال انه هو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى دمشق ، وانه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار .

وعلى أي حال ، فان المذهب الشافعي كانت بذرته الأولى في مصر ، ومنها انتشر بفضل جهود اصحاب الشافعي ، ولولاهم لكان اثراً بعد عين ، ولكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد ، الذي لم يتهيأ له اصحاب مخلصون يقومون بنشره . ولعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي كما يلي .

١ — انه كان معروفاً بأنه تلميذ مالك وخريج مدرسته ، وكان لمالك هناك ذكر ولمذهبه انتشار فقوبل بالعناية ، وذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك والرد عليه :

٢ — نشاط الشافعي وعلو همته وتفوقه بالأدب ومعرفة اللغة ، واحاطته بأقوال مالك وأهل العراق . وعرف عنه أنه كان ينتصر لأهل الحديث ويرد على أهل الرأي .

٣ — اشتهار قرشيته واعتصامه بالانتساب للنبي (ص) وهذا له اثره في قلوب المصريين .

٤ — صلته بحاكم مصر الجديد عبد الله بن العباس بن موسى ، ومعرفته به يوم كان بمصر ، وانه سافر معه عند تعيينه ، او أنه حمل له وصية من الخليفة في بغداد .

٥ — اختياره في النزول عند اقوى بيت في مصر وأعزهم جانباً ، وهم بنو الحكم ، والتف حوله أعيان أصحاب مالك ، كأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم .

تغلب المذهب الشافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد وله السلطان هناك . وقد ذكرنا مقابلة انصار المذهب المالكي لأصحاب الشافعي : وتمت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبية ، لأنهم كلهم شوافع إلا

عيسى بن العادل (١) سلطان الشام ، فانه كان حنفياً ، ولم يكن في هذه الأسرة حنفي سواه ، ثم تبعه أولاده وكان شديد التعصب لذلك المذهب ، ويعده الحنفية من فقهائهم ، وله شرح على الجامع الكبير في عدة مجلدات .

ولما خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين لم تنقص حظوة المذهب الشافعي ، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلا سيف الدين ، الذي كان قبل بيبرس ، فقد كان حنفياً، ولكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته .

---

(١) عيسى بن سيف الدين الملك العادل ابي بكر بن أيوب ولد في القاهرة سنة ٥٧٦ . وملك دمشق ثمان سنين وأشهر ومات سنة ٦٢٤ هـ وكان متغالياً في التعصب لمذهب ابي حنيفة . قال له والده كيف اخترت مذهب ابي حنيفة واهلك كلهم شوافع ؟ فقال : أما ترغبون ان يكون فيكم رجل واحد مسلم . وهو قد صنف كتباً كثيرة منها : السهم المصيب في الرد على الخطيب . ترجمته في الفوائد البهية ص ١٥١ .

تعقيبٌ وتصويبٌ



وبعد هذا العرض لاخبار الشافعي وآثاره نود ان نسجل بعض الملاحظات اتماماً لتصوير الشافعي الفقيه وعهده فنقول :

حول تمييز الشافعي :

ان ما بأيدينا من أخبار الشافعي وما وقفنا عليه من آثاره ، وما يحكيه هو عن نفسه ، لا يدل على ما يذهب إليه الشافعية من القول : بأن الشافعي هو اعلم الامة . بل فوق علمائها اجمع ، وانه اعلم قريش واشهرهم ذكراً ، بل العلم بالكتاب والسنة له دون غيره ، في عصره وقبل عصره ، كما جاء في آداب الشافعي لابن ابي حاتم الرازي عن عبد الرحمن قال : سمعت دُبيساً يقول : جئت إلى حسين الكرابيسي فقلت له : ما تقول في الشافعي ؟

فقال : ما أقول في رجل ابتدأ في افواه الناس الكتاب والسنة ، نحن ولا الأولون حتى سمعنا من الشافعي الكتاب والسنة والاجماع . (١) .

ويقول السبكي في وصفه انه : الامام الأعظم المطلبي والعالم الاقوم ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فانه عالم قريش الذي ملأ الله به طباق الأرض علماً ، ورفع من طباقها إلى طباق السما بذاته الطاهرةمن هو اعلى من نجومها واسمى ، وأثبت باسمه في طباق اجزائها اسم من يسمع آذاناً صُما ، ومن لو قالت بنو آدم : علمه الله الاسما : كما ابرز منه لكم اباً ومن تصانيفه أمّاً والحبر الذي أسّس بعد الصحابة قواعد بيته بيت النبوة واقامها ، وشيد مباني الإسلام بعد ما جهل الناس حلالها وحرامها وأيد دعائم الدين (٢) .

وأمثال هذا كثير ، ونحن لا نثب معهم هذه الوثبة بل نقف عند حدود الواقع ولا نأخذ هذا بعين الاعتبار بدون تثبت ، مع العلم بأن هذا بعيد عن الواقع . ولا نفهم من ذلك الاندفاع لتصوير شخصية الشافعي إلا التعصب .

ونحن حين نتعرض لأمثال هذه الأمور انما نقصد اعطاء صورة عن ذلك التدرج إلي اعلاء مكانة الشخص ، طلباً للتفوق في ظروف التدافع والتقابل وتلاحي كل فريق مع منافسه . بدون التفات إلى مؤاخذة عند مخالفة الواقع .

---

(١) المناقب ص ٥٧ .
(٢) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٤٣ .

وإليك مثلا من ذلك :

يروي ابن عبد البر بسنده عن سويد بن سعيد قال : كنا عند سفيان بن عيينة بمكة ، فجاء رجل ينعي الشافعي ويقول : انه مات . فقال سفيان : ان مات محمد بن ادريس فقد مات أفضل أهل زمانه . (١) .

هذا ما ورد في مناقب الشافعي ، وإذا اردنا ان نقف وقفة قصيرة لاستجلاء الواقع فسيتضح لنا كذب هذا القول : لأن وفاة سفيان كانت سنة ١٩٨ هـ في جمادى الآخرة أي قبل وفاة الشافعي بستة سنين واشهر ، مع ان سويد بن سعيد هو البورفي — راوي هذا القول — كان من اكذب الناس ، وممن يضع الحديث ، كما نص علماء الرجال على ذلك .

التناقض في التصوير :

وهناك اقوال لا بدّ لنا من عرض بعضها واعطائها نظرة دقة وتمحيص :

جاء عن احمد بن حنبل انه كان يقول : ان هذا الذي ترون (أي العلم) كله او عامته من الشافعي . ويقول الميموني : قال لي احمد بن حنبل : مالك لا تنظر في كتب الشافعي ؟ ما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي .

وروى ابو نعيم في مناقب الشافعي : أن أحمد قال ليحيى بن معين : ان أردت الفقه فالزم ذنب البغلة (أي بغلة الشافعي) (٢) .

هذا وامثاله ترويه كتب الشافعية . وحينما نطمئن إلى هذا النقل مدة قصيرة فلا نلبث حتى نواجه ما يخالفه ويناقضه من الجانب الآخر .

قال أحمد بن الحسن الترمذي : سألت ابا عبد الله أحمد بن حنبل أأكتب كتب الشافعي ؟ فقال : ما أقل ما يحتاج صاحب حديث إليها (٣) .

وقال أبو بكر المروزي : قلت لاحمد بن حنبل : أترى الرجل يكتب كتب الشافعي ؟ قال : لا . قلت : اترى ان يكتب الرسالة ؟ قال : لا تسألني عن شيء محدث . لا تكتب كلام مالك ، ولا سفيان ، ولا الشافعي (٤) .

---

(١) الانتقاء ص ٧٠ .
(٢) توالي التأسيس ص ٥٧ .
(٣) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣٨ .
(٤) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٥٧ .

ونحن لا يدهشنا هذا التناقض بعد وقوفنا على الاصل الذي أثر على الآراء والحقائق ، وبعد ما سمعنا في مدح الشافعي وغيره بما هو أكثر من هذا ، وفي انتقاصه بما هو اعظم كالحديث الذي يرويه أحمد بن عبد الله الجويباري عن عبد بن معدان عن أنس عن النبي ﷺ : يكون في امتي رجل يقال له محمد بن ادريس أضر على امتي من ابليس ويكون في امتي رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج أمتي (١) .

واحمد بن عبد الله الجويباري امره مشهور وحاله معروف في وضع الاحاديث . وقد استخدموه لصالح التعصب والتنافس .

فهذه التيارات من الجانبين تستدعي الوقوف والتريث . وبهذا لا نصغي لاقوال المندفعين وراء العاطفة كقول أحمد بن يسار : لولا الشافعي لدرس الإسلام (٢) .

وقول البرذعي : سمعت ابا زرعة يقول : ما اعلم احداً اعظم منّة على أهل الإسلام من الشافعي .

ويقول أحمد بن سنان : لولا الشافعي لاندرس العلم . (٣) ولو اردنا ان نبحث بدقة عن هذه الاقوال وغيرها لمعرفة نصيبها من الصحة فالأمر لا يحتاج إلى تكلف . بعد أن وقفنا على المبادىء الأساسية التي دعت إلى وضع هذه الأقوال ، وأهمها ثورة العواطف وتيار التعصب .

وما لنا نستغرب او نستكثر على اصحاب الشافعي هذه المغالاة في مؤسس فقههم ورئيس مذهبهم ونحن نرى أصحاب أبي حنيفة لم يقصروا عن هذه الخدمة في حق إمامهم ؟ ! وبهذا استوت كفة الميزان في كل ما ورد من مبالغات معتنقي المذاهب ، كالحنفية في حديث : ابو حنيفة محيي السنة ، والمالكية في حديث : عالم المدينة ، والشافعية أيضاً في حديث : عالم قريش .

فجعلوا العلم وقفاً على شخصية الشافعي دون غيره من قريش وحصروه عليه بمعناه الكامل — ان صح الحديث — والا فهو موضوع من قبل المتعصبين كغيره من الاحاديث والمناقب التي كثيراً ما تبدو في مظهر جد براق خلاب ، ومما يؤيد ذلك أن ذوي الاستقامة من علماء المذاهب لم يجعلوا لأكثرها وزناً كبيراً من الاعتماد والاحتجاج .

---

(١) اللآلىء المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ٢١٧ .
(٢) توالي التأسيس ص ٧١ .
(٣) توالي التأسيس ص ٦١ .

اما الحنابلة الذين لم يستطيعوا خلق حديث في امامهم فانهم اعتمدوا على الاطياف فوضعوا عن النبي ﷺ كثيراً من ذلك وسيأتي بيانها ، وهي أمور كان مبعثها احتدام النزاع الطائفي الذي اصبح ميداناً للخلاف ومحوراً للتخاصم آنذاك .

نقول هذا بدون طعن على اولئك الرجال ، ولا حطاً من كرامتهم ، لأن الواقع الذي نلمسه من سيرتهم وما طبعوا عليه يقضي علينا ببراءتهم من ذلك الإدعاء الاجوف . وقد دلت آثارهم على خلاف ما يذهب إليه المتعصبون لهم .

مذهبه الفقهي :

إذا أردنا أن نقف على مدى نشاط الشافعي في فقهه فلا نستطيع تحديد ذلك بعد أن وقفنا على نشاط أصحابه وتلامذته الذين نما المذهب بجهودهم واجتهادهم بكثرة التخريج . ولهم آراء كثيرة وأقوال متعددة اجتهدوا فيها ، ولم يؤثر عن الشافعي نص فيها ، ونسبوا الجميع إليه وعُدّت من مذهبه ، وهم وان كانوا لا يقولون انها اقوال الشافعي ، لكنهم يقولون انها اوجه بمذهبه .

وبفضل جهود اصحابه قد (اكتسب المذهب من البيئات المختلفة والاحوال الإجتماعية المتباينة والشؤون الإقتصادية المتخالفة الشيء الكثير ، مما كان يتأثر به المجتهدون عند تخريجهم للمسائل ، إذ كانوا بلا ريب متأثرين ببيئاتهم الجغرافية والإجتماعية والإقتصادية ، وانك لو درست ذلك المذهب على ضوء هذا ، وفحصت الآراء بين المختلفين على ذلك النور لعلمت أثر البيئات في أقوال المختلفين وآراء المتنازعين ، وإن الذين يدرسون فروع ذلك المذهب بل فروع المذاهب المختلفة ، درسوها منسوبة لأصحابها ، وعرفوا البيئات المختلفة ؛ فانهم حينئذ يرون تلك الآراء صوراً صادقة لعصورها ، حاملة ألوانها ومنازعها الاجتماعية والاقتصادية واعراف الناس فيها (١) .

وقد نشأ في عصور الاجتهاد وحرية الفكر رجال لهم الاثر العظيم في التخريج وسعة دائرة المذهب كالاسفرائيني الذي قالوا في حقه : انه أنظر وأفقه من الشافعي ؛ ومثل القفّال وابو العباس وغيرهم ممن اشتهر بالاجتهاد المطلق

(١) الشافعي لمحمد ابو زهرة ٢٦٤ .

ونسب إلى الشافعي ، ولهم الفضل في التخريج للمسائل .

ولما اغلق باب الاجتهاد اصبح المذهب مقصوراً على دراسة اقوال المتقدمين ، والمحافظة على ما ورثوه عنهم ، واستخراج الفتاوى والأحكام من بين الأقوال المختلفة والآراء المتنازعة . وبمجموعها قد تكوّن المذهب الشافعي .

وعلى أي حال ؛ فانا لا نستطيع تحديد فقه الشافعي من اقواله وآرائه بعد ما اصبح المذهب المنسوب إليه ، مجموعة اقوال أئمة مختلفين متباعدة اوطانهم مختلفة آراؤهم ، وضمن تلك الأقوال انضمت أقوال الشافعي وآراؤه ، ولا سيما أكثر المؤلفين قد نسبوا ما ألفوه للشافعي طلباً للقبول ودعاية للرواج .

نهيه عن مذهبه القديم :

إن من أهم الظواهر التي لاحظناها عند دراستنا لحياة الشافعي هي نهيه عن الأخذ بمذهبه القديم الذي أفتى فيه ببغداد فأصبح المعوّل على ما أفتاه في مصر ، ومثل هذا التطور يوجد لنا إحجاماً عن تحقيق ذلك التكامل في تلك المدة القصيرة ، التي لا تسمح لمثله من البشر ان يبلغ تلك الدرجة التي أدعيت له في بلوغ أعلى منزلة علمية،مع وجود شواغل وموانع تحول بينه وبين استخدام قوته واستعمال فطنته،لاستنتاج مسائل تكون شاملة لاحكام قرون متوالية.

لقد كان الشافعي في مصر مشغولا بمرضه الذي اعتوره مدة طويلة ، مع وجود مشاحنات ومقابلات بين اصحابه وبين خصومهم من المالكية ، بالاضافة إلى ما وصفوه به من طول العبادة والتهجد . يضاف إلى ذلك ما كان يعلوه من دين لعسر حاله ، فيقال : انه مات وعليه من الديون ستون ألف ديناراً ، وهذا له أثره في الطبيعة البشرية ، اذ هو بحكم الطبع الإنساني شاغل مجهد ، مع ان الشافعي معروف ببلاغته ومعرفته بلغة العرب واشعارهم ، وكان هو ينظم الشعر الرائق أيضاً ، وقد التف حوله كثير من طلاب مصر لمعرفة الاداب واكتسابها منه . إلى آخر الأمور التي وصفوه بها ، وبطبيعة الحال ان ذلك يوجب التوقف عن اعطاء الحكم بما يدعونه له ، وكان اللازم ان نوفق بين تلك الروايات الدالة بمنطوقها على تكامله واستعداده وتفوقه الاجتهادي من صغر سنه ، وبين نهيه وتحريمه لمذهبه القديم ، لأن هذا التطور الغريب يستلزم الاستغراب في تحقيق ذلك التكامل . ونظراً لضيق المجال أرجأنا الكلام حول هذا الموضوع إلى محل آخر .

الخصومة المذهبية :

لقد اصبح الخلاف في المذاهب ميداناً للنزاع ومحوراً للتخاصم ومثاراً للفتن ، وقد تعرضنا لكثير من ذلك ، مما يوضح للقارىء النبيه ان الكثير منهم قد استساغ الوقيعة بمن يخالفه في المذهب ، وكانت المعركة الجدلية بين الحنفية والشافعية أكثر منها بين سائر المذاهب ، حتى خرج الأمر عن حدود الجدل إلى الحروب الدموية ، مما أدى إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف .
يقول ياقوت عند الكلام على (اصفهان) بعد أن ذكر مجدها القديم : وقد فشا فيها الخراب في هذا الوقت وقبله . وفي نواحيها ، لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، والحروب المتصلة بين الحزبين . فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى ، واحرقتها وخربتها ، لا يأخذهم في ذلك إلّ ولا ذمة . ومع ذلك فقلّ ان تدوم بها دولة سلطان ، او يقيم بها فيصلح فاسدها وكذلك الامر في رساتيقها وقراها التي كل واحدة منها كالمدينة .

ويقول عند وصفه للرّي ووقوع العصبية بين الحنفية والشافعية : ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية : هذا مع قلة عدد الشافعية ، إلا ان الله نصرهم عليهم. وكان اهل الرستاق ـــ وهم حنفية ـــ يجيؤون إلى البلد بالسلاح الشاك ويساعدون اهل نحلتهم ، فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى افنوهم (١) .

ولشدة الخلاف والجدل بينهم ألفت الكتب في بيان الخلاف بين ابي حنيفة والشافعي ، ونشأ من ذلك علم يسمى (آداب البحث والمناظرة) يقصدون منه الشروط التي يتبعها المجادل في جدله ، إذ اصبح الأمر فوضى وقد ذكر الغزالي شروطاً ثمانية لا يسع المجال ذكرها .

وعلى أي حال ، فان ذلك التعصب كان من نتائجه ذلك الاندفاع والاغراق في المدح ، بحق وبغير حق ، إذ لم يضعوا الامور في نصابها بالتجرد عن الاهواء والعاطفة ، مما شوّه وجه الحقيقة ، فأوجد صعوبة كبيرة في تمحيص الاخبار التي اشتملت عليها المناقب ، وبالأخص كتب الشافعية والحنفية للاسباب المتقدمة ، لأنها غير متناسقة ولا متماسكة ، لذلك اقتصرنا في دراسة حياة الشافعي على العرض التأريخي . ونقف عند هذا الحد من البيان عن تاريخ حياته ، وسنعود ان شاء الله تعالى إلى استعراض آرائه .

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٥٦ .

نتائج الخلافات المذهبية :

وقبل الختام أود الاشارة بايجاز إلى أن تلك الخلافات المذهبية والنعرات الطائفية قد اوجدت الفرقة بين المسلمين وكادت تكتسح صروح مجدهم المؤثل ، لولا عناية الله تعالى ولطفه بالإسلام وأهله ، ولم يكن منشأها سوى وجود الأيدي العابثة من الفئة الفاسدة أو من الذين دخلوا في الاسلام ـ لا رغبة ـ بل للوقيعة بأهله ، فاذا بهم وقد فسحت السياسة لهم المجال ليحققوا سوياً الاهداف التي لا تتحقق مع وحدة الكلمة ولا تنال إلا بالفرقة ، وتحكيم قانون (فرّق تسد) .

فكانت المؤامرات والدسائس تحاك من قبل خصوم الإسلام باتخاذهم شتى الأساليب في تفريق صفوف الأمة . وقد أفصح التأريخ عن كثير من تلك الحوادث المؤلمة والوقائع المفجعة ، التي أثارها أعداء الوحدة الإسلامية في شتى الظروف السالفة .

ولقد مرت احقاب من تلك الحياة المضطربة والادوار المظلمة والمسلمون في نزاع وتخاصم ، كلٌ يريد أن يكيل صاع الانتقام للآخر فكان من ذلك أن أريقت الدماء ، ونهبت الأموال بدون مبرر . وبهذا وجدت الامم المغلوبة غايتها المنشودة ، فعملوا بكل امكانياتهم في زيادة التوتر بين طوائف المسلمين ، ولم يسعد المسلمون بيقظة في زمن ما ، فيستقبلوا أمرهم بفكر ثاقب وحرية رأي وتجرد عن العواطف ، ليرفعوا ذلك الستار الاسود ويقطعوا تلك الأيدي العابثة ، التي حملت لهم معاول الهدم وأدوات التخريب احقابا وقروناً .

ولو رفع الستار لزال الخلاف ، واوقف ذلك الصراع الناتج من وراء التعصب الجنوني ، والجهل بالأمر الواقع ، ولكان باستطاعة المسلمين ان يوحدوا صفوفهم ليقفوا في وجه الخصم موقفاً مشرفاً في سبيل المحافظة على العقيدة والدين ، ولهدأت تلك الضوضاء التي ذهبت فيها أصوات المصلحين مع الرياح . ولأصبحنا (خير أمة أخرجت للناس) كما وصفنا القرآن الكريم .

قلت لو رفع الستار : لنظر بعضنا إلى بعض نظر مودة واخوّة بدلا من نظرة البغض والكراهية . ولزالت تلك الرواسب التي اوجدتها عصور التطاحن والتعصب لتكون عقبة كؤوداً في طريق وحدة المسلمين .

هذا وقد مرّت العصور وذهبت الأيام بما فيها غير مأسوف عليها ، ونحن ابناء اليوم ، فهل لنا أن نشعر بوجود تيارات دولية تعمل في السر والعلن ،

وتتكالب على السيطرة والاستعمار ؟ ! وان خير طريق لمعالجة الوضع هو الشعور بالمسؤولية تجاه الدين والوطن ، لندرك الحقيقة الناصعة ونقف على الأمر الواقع ونكون كما أمر الله تعالى (ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير) او (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) . ؟

* * *

هذا ما تيسر لنا — بعونه تعالى — بيانه ، ونسأله تعالى ان يوفقنا لاكمال بقية الأجزاء انه سميع مجيب .

وقد أرخ نخبة من العلماء لكتابنا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ننشر منها ما وردنا من سماحة العلامة الشيخ علي السماوي :

تحفتك الغراء قد أصبحت	بمفرق التأريخ إكليلا
ففقت أقرانك فيها بما	امليت اجمالا وتفصيلا
سفر به حبلك قد صار في	حبل رسول الله موصولا
وحزت خيراً فيه والخير ما	قد كان عند الله مقبولا
فزت بمسعاك لتحقيق مسا	حق وابطلت الأباطيلا
ومن سنى الصادق قد اشرقت	به براهينك تدليلا
لو النصارى قرأته لما	تلت بدنياها الأناجيلا
يا اسد الفضل ومن لم يزل	يحلل الابحاث تحليلا
تاريخك العذب بسلساله	فاق الفرات العذب والنيلا
أيدك العلم فدم سالماً	عضباً بوجه الجهل مسلولا
حسبك من سفرك اني به	ارتل الاطراء ترتيلا
حيث وجدت فيه ما ابتغي	(وفوق ما قد كان مأمولا)
حق لك الاطراء فيه بما	عانيت—ترحيباً وتبجيلا
وحق اعظامك فيه بما	أحسنت تحليلا وتأويلا
نال الأماني الغر من قد غدا	بالعلم والتأريخ (مشغولا)

١٣٧٧ هـ

ومن صديقنا الأستاذ الكبير المؤرخ السيد محمد الحلي :

هذا كتاب قد حوى كنزه   مباحثاً نافعة ممتعه
ابحاثه جاءت لمن انصفوا   دلائلا واضحة مقنعه
نمقّها من أسد مزبر   لانّ مع الخصم لكي يقنعه
ويوضح الحق جلياً كما   لم يخط في تأليفه موضعه
فهنّه والثم وأرخ فما   (يحكي عن المذاهب الاربعه)

١٣٧٧ هـ

ومن صديقنا الأستاذ الخطيب السيد عليّ الهاشمي :

خير سفر اظهر الحق لنا   (اسد) فيه وللزور محق
فتصفّحه وبالتاريخ (قل   مذهب الصادق بالإسلام حق)

١٣٧٧ هـ

* * *

(انتهى الجزء الثالث بحمده تعالى)



الجزء الرابع



بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

«صدق الله العظيم»



تقديم وبيان



نوعية البحث :

يتضمن هذا الجزء ، وهو الجزء الرابع من كتابنا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، لمحة موجزة عن حياة الإمام الصادق ، ونبذاً من تعاليمه ، وأخلاقه ، وآدابه ، ثم تاريخ حياة الإمام أحمد بن حنبل . وقد اقتصرت على ذكر نسبه وشيوخه ، وأهم حوادث عصره : كمشكلة خلق القرآن وغيرها . وهذه الحادثة هي من أهم الحوادث التي أثارت صراعاً فكرياً ، وجدلا بين المسلمين أعقبه عداء بين الطوائف ، ذهب ضحيته خلق كثير . وقد اكتفيت بالإشارة إليها في موجز من البيان . لكثرة ما كتب فيها وما ذكر عنها ، لأنها كانت العامل الوحيد في شهرة أحمد وطلوع نجمه .

كما اني أشرت إلى أعيان مذهبه وناشريه ، وحملة فقهه والمؤلفين فيه . ولم أهمل ذكر بعض القضايا الهامة التي تعطينا صورة لها علاقة في موضوع البحث عن الإمام أحمد ومذهبه ، كما اهملت الكثير من القضايا التي نقلت عنه من مناقب ومآثر ، وأشياء لا تصلح أن تكون تاريخاً نستمد منه معلومات خليقة بأن تكشف لنا عن نواحي شخصيته ، لأننا نحاول أن نتعرف عليه عن طريق الواقع ، ومن ضوء الحوادث التأريخية التي لا صلة لها بالمؤثرات التقليدية والمنازعات الطائفية .

منهج البحث :

وقد نهجت في هذا الجزء ما نهجته في الأجزاء السابقة من الابتداء بذكر الإمام الصادق ثم ذكر واحد من أئمة المذاهب الأربعة .

فذكرت الإمام أبي حنيفة في الأول ، ومالكاً في الثاني ، والشافعي في الثالث ، وأحمد بن حنبل في هذا الجزء .

وخصصت الجزء الخامس لأهم المسائل الفقهية المتفق عليها ، والمختلف فيها من المذاهب الأربعة ، ومذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، مع استدراك ما فاتنا بيانه في تلك الأجزاء المتقدمة عليه .

وقد نبهت بأن ترتيب ذكرهم بهذه الصورة انما هو حسب الرتبة الزمنية

لا الرتبة العلمية . فان الحكم لواحد من الأربعة بالأعلمية هو من الصعوبة بمكان ، لوجود الخلاف والاختلاف ، فأتباع كل إمام يدعون أن إمامهم هو الأعلم والأولى بالاتباع دون غيره ، مستدلين بالنقل والاعتبار . وساق كل فريق – عدا الحنابلة – أحاديث عن النبي جعلوها دليلا على لزوم اتباع ذلك الإمام ومبشّرة به تصريحاً أو تلميحاً .

فالحنفية يروون في كتب مناقبهم أحاديث : « يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي » وفي لفظ آخر : « يكون في أمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة » وفي لفظ ثالث : « اسمه النعمان بن ثابت » .

ونحن لا نقف هنا مع هذه المرويات موقف تمحيص وتدقيق بعد أن وقفنا معها في الجزء الأول ، فأوضحنا هناك للقارىء نصيبها من الصحة . ولم نحجم عن التصريح بأنها مكذوبة وانها من وضع رجال أجمع علماء الرجال على تجردهم من الصدق ، كما نص الكثيرون من علماء الحنفية على كذب هذه الادعاءات ونفوها نفياً باتاً .

وادعت المالكية انطباق حديث : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » .

وقد أطال القاضي عياض في (ترتيب المدارك) القول في الحديث وروايته ورواته بانطباقه على مالك دون غيره ، وان السلف فهموا ذلك وعدّ هذا من معجزات النبي ﷺ وإخباره بالمغيبات .

وقد أصبح عند المالكية من المسلمات ، واكثر حفاظ الحديث قالوا : ان هذا الحديث من اختصاص المالكية دون غيرهم ، ومنهم من وهنه مرة ونفي انطباقه على مالك مرة أخرى . لوجود علماء في عصر مالك كانت المدينة تزخر بهم ، وهم أعلم منه بل هم اساتذته : كسعيد بن المسيب ، وعبد العزيز العمري ، ومحمد بن مسلم الزهري ، وربيعة الرأي وغيرهم من شيوخ مالك الذين هم أعلم منه وأرقى درجة في الفقه ، ولو سمحت الظروف القاسية للحقيقة الصامتة أن تنطق بالحق وتفوه بالواقع لما تخطت الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي هو أستاذ مالك ومن شهد له مالك نفسه : بأن عينه ما رأت أعلم ولا أتقى من جعفر بن محمد الصادق .

واما الشافعية فدليلهم في النقل هو دعوى انطباق حديث عالم قريش : « يملأ الأرض علماً » على الشافعي وما ذلك إلا تخمينات مبهمة وفرضيات عقيمة ، وقد تعرضنا له في الجزء الثالث في حديثنا عن الشافعي .

أما الحنابلة فقد أهملوا طريق النقل وتمسكوا بالاعتبار ، فلم يدعوا وجود حديث في إمامهم يبشر به ويفيض على شخصيته قدسية تؤهله لأن يتفرد بالعلم ولزوم الاتباع ، ولكنهم اعتمدوا على مبشرات الأحلام ، فجعلوها محل اعتماد ومن المرجحات للمذهب ، وانها بمنزلة اليقظة فيقولون : إن ما قاله رسول الله ﷺ في نوم أو يقظة فهو حق ، وقد ندب ﷺ إلى الاقتداء به — أي بأحمد — فلزمنا جميعاً امتثاله (١) . يشيرون بذلك إلى منامات يدعى فيها أن سائلا سأل رسول الله ﷺ في النوم : من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك نقتدي به يا رسول الله ؟ فقال : عليك بأحمد بن حنبل . وبهذا استوت كفتا الميزان في طريق النقل كاستوائهما بين جميع المذاهب في طريق النقل والاعتبار . فانهم جميعاً قد عقدوا فصولا مطولة في الأحلام لاثبات فضائل أئمتهم ، وجعلوها مصدراً من مصادر تاريخ حياتهم ، وميزانا من موازين عظمة شخصيتهم وطريقاً لاثبات مفاخرهم .

كما اننا نلمح في مناقب الكثير منهم اشتراكاً في المفاخر التي اثبتوها ، وان طابعها واحد لا يتغير وإن تغير الزمن ، وقد تجنبنا الخوض في ذلك وذكر الكلام حولها ، إلا ما يتعلق به غرض من أطراف البحث .

وكثرت المنامات في فضل أحمد حتى كان لها الأثر في الأدب الحنبلي ، فنظم الشعراء ذلك ، يقول أبو الخطاب المتوفى سنة ٤٧٦ هـ :

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل ... به أقتدي مادمت حياً امتع
وذاك لأني في المنام رأيته ... يروح ويغدو في الجنان ويرتع (٢)

فهذا الرجل قد جعل المرجح لمذهب أحمد والدليل على لزوم اتباعه هو حلم رآه ، وهو : أنه رأى أحمد في الجنة ، ومثل هذا كثير ستقف على البعض منه في ترجمة أحمد .

وعلى أي حال فانا نقرأ في تأريخ حياة اولئك الأئمة صفحات غامضة ، والغازاً معقدة ، وزوائداً تتضمن غلواً في المدح ، وتجاوزاً في الاطراء ، ومناقب حافلة بالغرائب والعجائب ، يقف الباحث حيالها مدهوشاً ، ولكنه بعد أن يتوصل إلى معرفة الأسباب التي أوجدت تلك الأوهام وسببت ذلك الغموض تتضح له الحقيقة ، وإذا ظهرت الحقيقة بطلت الأوهام .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣٧ .
(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٤٠٧ .

ولقد نهجنا في بحثنا عن أئمة المذاهب نهجاً وسطاً ، فلم نندفع مع المتعصبين لهم فنستوحي معلوماتنا عنهم بما لا صلة له بالواقع ، ولا يكشف عن طابعهم الذي طبعوا عليه ونهجهم الذي ساروا به ، كما اننا لم نتنكر للحقائق شأن المتعصبين عليهم في سلوك طرق ملتوية فراراً من الحقيقة وابتعاداً عن الواقع ، فان كلاً من هذا وذاك لا يكشف لنا عن الحقيقة التي نحاول الوقوف عليها في دراستنا هذه .

وقد التزمنا بأمانة النقل للحوادث التي لها الأثر في نتائج المقارنة والموازنة بينهم ، فانا لم ننته بعد من اجراء تلك العملية ، ولا يمكن لنا ذلك إلا بعد التدقيق والتمحيص .

واني بهذا العرض التأريخي الموجز آمل من ورائه أن أقف على مقدمات غير عقيمة الانتاج .

التعصب للمذاهب :

وكما قلت إن مشكلة التعصب للمذاهب هي اعظم مشكلة حلت في المجتمع الإسلامي فقد أدت إلى تفرق وتباعد في صفوف المسلمين ، بانتشار العداء بين الطوائف ، وإثارة القلق من جراء الخلافات التي كونتها تلك الظروف القاسية ، عندما أصبح للآراء والأفكار عصبية تشبه العصبية الجاهلية ، وكل يحسب أن مذهبه هو الإسلام ، وان ما عداه انحراف لا يؤخذ به وظلال لا يلتفت إليه ، وقد نهجوا نهجاً أبعدهم عن روح الإسلام ، حتى بالغ بعضهم في طعنه لمن خالف مذهبه ، كقول بعض الحنابلة : « من لم يكن حنبلياً ليس بمسلم » . وقول الآخر : « لو كان لي من الأمر شيء لأخذت من الشافعية الجزية » . ويقول آخر : « لو كان لي من الأمر شيء لوضعت على الحنابلة الجزية » . وكل هذه الأمور ترجع إلى عوامل سياسية ، تحاول تفريق الصف وجعل المسلمين فرقاً واحزاباً ، يشتم بعضهم بعضاً ، وقد تحكم التعصب الطائفي فألقى على العيون غشاوة التمويه والخداع . وبهذا فقد توالت الحوادث وتعددت الفتن . حتى أدى ذلك التعصب ان يجهل بعض الخطباء واجبهم الملقى على عواتقهم : من الدعوة إلى الإصلاح ، والالفة والمحبة ، وقلع جذور العداء والتشاحن . عندما سلكوا طريق الفرقة ونشر الشغب وبث روح العداء . بقيامهم على المنابر يلعنون من خالفهم في مذهبهم ، مما أثر في نفوس العامة تأثيراً

دفعهم إلى النهب والتخريب ، وحرق المساجد والأسواق ، كما حدث في كثير من البلدان الإسلامية في سنة ٥٥٤ هـ وغيرها ، وقد اشرنا لذلك بإلمامة موجزة في أبحاثنا السابقة .

إن هذه الأمور المؤلمة هي التي فتحت باب التدخل لأعداء الاسلام في صفوف الأمة ليحاولوا القضاء عليه والوقيعة في أهله . وبمزيد الأسف أننا نتوارث ذلك الخلاف الذي أوجد الانقسام بيننا ، والفرقة في صفوفنا ، ففقدنا تلك القوة وسلبنا ذلك السلطان الذي انتشر في ارجاء المعمورة ، عندما خفق علم التوحيد فحطم هياكل الشرك ومعابد الوثنية ، ونشر العدل على وجه البسيطة ، وانبثق نور المحمدية يبدد سحب الظلام . وينير للانسانية طريقها . فأشرق وسط حلك الدياجير المظلمة يزيح حواجز الطريق التي تعترض سير قافلة الإنسانية الصاعد ، رامياً إيصالها إلى ربوع الخير وشاطىء النجاة ، ليمرح المسلمون بذلك النعيم ، فترفرف السعادة بدنياهم ويعم الرفاه في أرضهم . والمسلمون وسط هذا الرخاء صفاً متماسكاً .

فهل ندرك أثر ذلك الإختلاف؟ وهل يمكننا أن نعمل لازالة ما خلفه من أثر سيىء في المجتمع الإسلامي ؟ فلنطو صفحات ذلك التأريخ الأسود ونتمسك بتعاليم ديننا ، ونسير على منهاجه تاركين وراءنا خرافات سلف مخدوع وجيل طائش وترسبات طائفية قذرة .

ولا بد أن تعلو كلمة الله ويظهر دين الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون . بهذا وعدنا الله وان الله لا يخلف الميعاد .

التحامل على مذهب أهل البيت :

ولقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب ، أن أهم الأسباب التي دعت إلى تأليفه وتحمل عناء البحث ومشقة التنقيب عن المذاهب . هو : تطرف البعض بل تعصبه على مذهب أهل البيت ، فوصفهم بالشذوذ ومذهبهم بالبدعة . وهذا أمر لا مبرر له ولا يذهب إليه عاقل . ولكن مؤثرات التعصب وعوامل السياسة العمياء قد وجهت الواقع إلى الوجهة المعاكسة ، ودفعت المخدوعين وذوي الاطماع لمعاداة أهل البيت ، ورمي أتباعهم بكل ما يروق لهم أن يتقولوه .

قال الرياشي : سمعت محمد بن عبد الحميد قال : قلت لابن أبي حفصة ما أغراك ببني علي ؟

قال : ما أحد أحب إليّ منهم ولكن لم أجد شيئاً أنفع عند القوم منه : أي من بغضهم والتحامل عليهم (١) .

كان ابن أبي حفصة يتحامل على آل علي ويكثر هجاءهم طمعاً بجوائز العباسيين ، لأنهم شجعوا الناس على التحامل والبغض لأهل البيت ، وقد أنشد ابن أبي حفصة قصيدة أمام المهدي يتعرض فيها لآل علي ، فتزاحف المهدي من صدر مصلاه حتى صار على البساط ، اعجاباً بما سمع ، وقال له : كم بيتاً هي ؟

قال : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم .

وهذا النهج الذي سار بنو العباس عليه كان بنو أمية ينتهجونه ، وهو إثارة الشعور ضد آل علي ، ومعاقبة المعروفين بالولاء لهم ، ولو كان أقرب الناس إليهم. يقول العبلي :

شردوا بي عند امتداحي علياً ورأوا ذاك فيّ داءً دويا
فوربي لا أبرح الدهر حتى تختلي مهجتي بحبي عليا
وبنيه لحب أحمد إني كنت احببتهم لحب النبيا
حب دين لا حب دنيا وشر الـ حب حب يكون دنياويا
صاغني الله في الذؤابة منهم لا ذميماً ولا سنيداً دعيا

وهذا الشاعر هو من بني أمية ، ولكنه كان يحب اهل البيت ، فشردوه وطاردوه ، ونفوه من البلاد .

وما أكثر الشواهد التي احتفظ بها التاريخ من تلك الاساليب التي اسعملها حكام تلك العصور . لتوجيه الناس في طريق رغباتهم ، وإثارة الشعور ضد أهل البيت (ع) ، ونصب العداء لهم .

ولم يكن من الصعب على قوة الحكم وشدة الدعاية ، أن تزرع بذور العداء وتنشر الكراهة لأهل البيت ، ووصف اتباعهم بما يخالف الحقيقة والواقع .

فليس من الغريب إذا تجنى ذوو الاطماع والسائرين في ركاب الدولة أن يوصف مذهب أهل البيت بالبدعة .

وليس من الغريب أن يجعل التشيع عنوان الزندقة والشذوذ عن الدين ، لأن الحقد لهم قام في نفوس الكثيرين وانتشر بطريقة لا شعورية ، وقد صوروا التشيع بصورة لا تقع العين منه إلا على منظر يثير الحقد والكراهة ، عندما

---

(١) عقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٧

شوهته الدعاية الكاذبة ، وأسدلت على محاسن هذا المبدأ أبراداً من نسيج الخيال ، وفسروا تاريخ الشيعة بتفسير خاطىء لا يتصل بالحقيقة .

انهم فسروا حب الشيعة لأهل البيت اعتقاداً بالتأليه وأقاموا على ذلك شواهد من الأساطير المضحكة ، كأسطورة ابن سبأ (١) ، وأضافوا إليها قضايا المتدخلين في صفوف المسلمين من أعداء الدين ، ليثيروا بينهم العداء ، ولم يهتموا بالخطر الذي ينجم من وراء ذلك . لأن حكام ذلك العصر لا يهمهم شيء سوى نشر سلطانهم بكل وسيلة .

كما أنهم فسروا اعتماد الشيعة على أحاديث أهل البيت وأخذ الأحكام عنهم : بأن الشيعة تدعي نزول الوحي عليهم . وأقاموا شواهد وادعاءات باطلة ، إلى غير ذلك من الأمور التي أخذها الكتاب المعاندون ، أو المقلدون الذين يسيرون في طريق وعر يتعثرون بالأوهام ، فكتبوا بما شاءت الدعاية لا بما شاء الحق والواقع .

نعم ليس من الغريب أن نقف على آلاف الغرائب ، ولكن الغريب تجاهل أسباب وجودها ، وبواعث انتشارها ، على أيدي فئة مخربة عابثة .

إن تلك الأيدي قد رسمت للشيعة صورة مشوهة ووصفوهم بصفات بعيدة عن الواقع ، وما ذلك إلا خضوعاً للعاطفة وطمعاً لما في أيدي خصوم الشيعة من الحكام .

البحث والزوائد :

وبدراستي هذه عن المذاهب أخذت نفسي بالابتعاد عن الزوائد قدر الامكان ، فلا أتعرض إلا لما فيه صلة بالبحث ، وعلاقة بالموضوع ، كما أهملت جانب الهزل والمجون ، الحاصل من جراء التعصب المذهبي ، فهناك أشعار كثيرة ، وقضايا متعددة ، ولذلك اشرت لصلاة القفال (٢) في الجزء

---

(١) لقد ظهرت مسرحية عبد الله بن سبأ على مسرح الاوهام ؛ لينظر إليها ضعفاء النفوس كأنها حقيقة لا تقبل النقاش ، وما هي إلا من مهازل التاريخ ، وعجائب الزمن ، وخرافة يكذبها الوجدان ، ويندى منها جبين الإنسانية .

انها اسطورة مضحكة رتبتها اقلام مأجورة ، وأخرجها إلى الوجود أبطال فتنة ودعاة شغب ، ولقد تصدى الأستاذ الكبير السيد مرتضى العسكري لكشف حقيقة عبد الله بن سبأ وألف كتاباً قيماً صدر إلى الوجود منه جزء واحد وهو يواصل نشر ما تبقى من بحثه القيم .

(٢) لم اذكر هذه القضية بالتفصيل لما فيها من الأمور المخالفة للإسلام وقد ذكرها ابن خلكان ، وهو شافعي المذهب ، ويقصد بذكرها الطعن على الحنفية في تجوزهم السجود على العذرة والصلاة بجلد كلب وغير ذلك . كما نقلها كثير من المؤرخين .

الأول التي ذكرها بعض المؤرخين ، وأنها هي صلاة أبي حنيفة بالصورة الصحيحة ، كما تركت استقصاء أقوال الناقمين عليه ، والناقدين له ، وقد ذكرها الخطيب البغدادي وغيره .

وإني لم أستوف تاريخ حياة الإمام الصادق عليه السلام ولم أتعرض لترجمة الآباء والأجداد والأبناء والأحفاد ، لأن ذلك يستدعي تعداد أجزاء هذا الكتاب زيادة على ما أعددناه ، وقد أفردت مجلداً ضخماً يتضمن ذلك تحت عنوان (حياة الإمام جعفر بن محمد) وقد قضيت فيه وقتاً من الزمن ، فكان هو أحد الأسباب التي أدت أن تطول الفترة بين صدور هذا الجزء وسابقه .

وكذلك لم أستوف جميع حكمياته ومواعظه ، لأني قد جمعتها في جزئين على حدة تحت عنوان « الأسس التربوية » لتكون في متناول الجميع وسأنشر منها فصولا في هذا الجزء ، لأني لا أحب خلوه من تلك المآثر العظيمة ، والفكر الخوالد ، ولا أقول بأني قد أحطت بجميع تراثه الفكري ، فقد تعمدت ترك الكثير منها اختصاراً ، وقد بقي الشيء الكثير مبعثراً في بطون الكتب هنا وهناك ، ومن الله نسأل أن يهيء لهذه الآثار القيمة من يجهد نفسه في جمعها من مظانها ، ويتناولها بالشرح اللائق بها ، والكاشف عن حقائقها ، فإن ذلك أكبر خدمة للامة ، وإحياء أعظم أثر من تراثها الفكري .

وإذا أمدنا الله بمعونته ، ووفقنا بعنايته ، ووهب لنا فسحة في الأمل ، وتأخيراً في الأجل ، فسنقوم بهذه الخدمة ونحقق ما نطلب تحقيقه ومن الله نطلب القوة ، وبه نستعين وبيده التيسير .

كما نسأله تعالى أن يجمع كلمة المسلمين ويوفقهم لاتباع أوامره ، وأن يهب لهم اليقظة والحذر مما يدبره لهم أعداء الدين ، لإيجاد المشاكل والاختلاف فيما بينهم ، واتساع الثغرة التي ينفذون منها إلى مآربهم الخبيثة ، وغاياتهم الدنيئة ، إذ لا أمل لهم بذلك مع جمع الكلمة ووحدة الصف .

فلنطو صحائف التاريخ الأسود ، وننسى مآسي الماضي ، ونزيل من نفوسنا آثار التعصب الطائفي ، وترك الخصومة في الدين فإننا أمام خصوم قد تفاقم خطرهم ، واستفحل أمرهم .

« يريدون أن يطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

الإمام الصادق

لمحات من تاريخ حياته



ولادته :

الإمام أبو عبدالله جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ، ابن الحسين سبط رسول الله بن علي بن أبي طالب عليهم السلام .

ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة ، أو الاثنين عند طلوع الفجر ١٧ ربيع الأول سنة ٨٣ هـ وقيل سنة ٨٠ هـ . وقيل غرة رجب أو منتصفه ، وقيل يوم الثلاثاء قبل طلوع الفجر ، غرة شهر رمضان. والمعتمد الأول وهو يوم ١٧ ربيع الأول يوم ولادة جده رسول الله ﷺ كما عليه عمل كثير من المسلمين .

وامه أم فروة ، وقيل أم القاسم واسمها قريبة ، أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق. أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكانت أم فروة قد ولدت للامام الباقر ولدين هما : الإمام الصادق عليه السلام وعبدالله أو عبيد الله ، وقد قال الإمام الصادق فيها : إنها ممن آمنت واتقت وأحسنت ، والله يحب المحسنين .

وقد روت عن الإمام الباقر أحاديث كثيرة ، وكانت لها مكانة علمية ، وقد استقت العلم من ينبوع الوحي ، ومعدن الرسالة ، ومما يدلنا على مكانتها العلمية ، ما رواه عبد الأعلى قال : رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة ، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى ، فقال لها رجل ممن يطوفون : يا أمة الله أخطأت السنة . فقالت : إنا لأغنياء عن علمك .

وكان أبوها القاسم بن محمد بن أبي بكر من أعلام الأمة وكبار المحدثين عن أهل البيت ، وروى عن عمته عائشة وكثير من الصحابة ، وكان من الفقهاء السبعة ومن رواة الحديث ، وقد روى حديثه أصحاب الصحاح الستة .

وقد استوفينا ترجمة أم فروة وأبيها القاسم وأبيه محمد ، في كتابنا الذي أفردناه في ترجمة الإمام جعفر بن محمد الصادق ، ولذلك اكتفينا بهذه الإشارة الموجزة .

نشأته :

نشأ أبو عبد الله عليه السلام بالمدينة المنورة .وقد تولى جده الإمام زين العابدين

تربيته في عهد طفولته ، ودرج تحت كنفه ورعايته وكان هو معلمه الأول .

قضى مع جده زين العابدين ما يقارب ١٨ سنة من عمره ، وبعد وفاة جده سنة ٩٤ هـ تولى أبوه الباقر تربيته ، واستقل بتعليمه ، وكان الإمام الصادق مقدماً عند أبيه وملازماً له في حله وترحاله ، ودخل معه الشام ومكة المكرمة ، وقد شاهد هناك ازدحام الفقهاء من مختلف الأقطار على أبيه الباقر لاستماع حديثه والسؤال منه، وكانت حلقة درسه تعقد بالمسجد فتكون هي الحلقة الوحيدة لطلاب العلم، ورجال الفكر، ورواة الحديث ، فلا تعقد حلقة هناك إلا بعد انتهاء الإمام الباقر من إلقاء دروسه .

وكان الإمام الصادق في طليعة تلامذة أبيه في مدرسته بالمدينة ، وهي تضم عدداً وافراً من أعلام عصره : كعمر بن دينار الجمحي ، وعبد الرحمن الأوزاعي ، وابن جريح ، ومحمد بن المنكدر ، ويحيى بن كثير وغيرهم من رجال الحديث ، وهم يسألونه عن أهم المسائل وأعظم المشاكل ، ولم يحضر الإمام الصادق حلقة أحد من فقهاء عصره ، فهو غني عن ذلك وما يدعى أنه روى عن عروة بن الزبير والزهري وغيرهما فإنه ادعاء فارغ لا يدعمه دليل لأنه عليه السلام استقى العلم من جده زين العابدين ومن أبيه الإمام محمد الباقر عليه السلام. حتى نشأ تلك النشأة الصالحة ، ونال تلك الدرجة السامية ، وعظم في أعين كبار الفقهاء ، لما تحلى به من الخصال الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، والإحاطة التامة بشتى العلوم ، وظهرت عليه علائم الفضل ، وشرف المحتد ، وعزة النفس ، وصدق اللهجة . قال عمر بن المقدام : إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين .

وهكذا بقي مع أبيه عليه السلام بعد جده زين العابدين تسع عشرة سنة .

ولما توفي أبوه الباقر سنة ١١٤ هـ تفرد بالزعامة ، وقام بأعباء الإمامة ، بوصية من أبيه الباقر عليه السلام وكانت مدة إمامته ٣٤ سنة .

معاصرته للحكم الأموي :

أدرك الإمام الصادق عليه السلام طرفاً كبيراً من العهد الأموي ، وعاصر كثيراً من خلفائهم. فقد ولد عليه السلام في عهد عبد الملك بن مروان، وأدرك خلافته ثلاثة سنين أو ستة أي من سنة ٨٠ هـ أو ٨٣ هـ إلى سنة ٨٦ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها عبد الملك بن مروان . ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة وأشهر .

ثم ملك الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ هـ وتوفي سنة ٩٦ هـ . وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر .

ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفي سنة ٩٩هـ. وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر .

ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة ١٠١ هـ ومدة خلافته سنتين وستة أشهر .

وملك بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ١٠٥ هـ وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً .

وملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥ هـ وكانت مدة خلافته عشرين سنة إلا شهراً .

وملك بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر .

وملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦ هـ .

وملك بعده أخوه ابراهيم ولم تطل أيامه ، وتنازل لمروان الحمار بن محمد ابن مروان بن الحكم سنة ١٢٧ هـ ، وكان مروان آخر خلفاء بني أمية ، وقتل سنة ١٣٢ هـ . وكانت مدته خمس سنين وعشرة أشهر . ولم تكن مدة خلافة أو سلطان ، بل أيام حروب متوالية ، وثورات متتابعة ، وبموته انتهى العهد الأموي ، وانهارت دولتهم ، وقامت على أطلالها الدولة العباسية .

كانت هذه المدة التي لاتقل عن ثمانية وأربعين سنة قضاها الإمام الصادق عليه السلام في عهد الحكم الأموي ، مليئة بأحداث تبعث آلاماً تنكد عليه عيشه، لما فيها من المحن وويلاتها .

إنه عليه السلام كان يرى المضطهدين من خيار الأمة ، وصلحائها، تملأ بهم السجون ، ويساقون إلى الموت زرافات ووحداناً ، كما يرى بين آونة وأخرى رجال الطالبيين وأعيانهم مطاردين ، ومشردين يلاقون حتفهم شهيداً بعد شهيد ، فكانت مقاتلهم مآسي التاريخ الدامية ، وكان كل من ملك الأمر من أولئك الحكام يراقب حركاتهم بعين ساهرة ، وأذن سامعة ، فإذا ضاقت عليهم الأرض وأنفوا الذل خرجوا بالسيف ، وهم يأملون مناصرة الأمة ومؤازرتهم ، ولكن لم تسعد الأمة بذلك ، فكانت الشهادة وسامهم ، والقتل نهايتهم .

لقد عاصر الإمام الصادق عليه السلام ملوكاً استفحل ضررهم على جميع الطبقات ، وقد انحطوا إلى مهاوي الرذيلة ، فارتكبوا المنكرات التي يندى منها الجبين ، ويتصدع لها قلب ذوي الأنفة والحمية على الدين ، وهم يدعون

الخلافة للمسلمين ولا يتصفون بأي صفة من صفاتها فليس منهم أحد إلا وهو ظالم في حكم ، جائر على الرعية ، مستبد بأموال الأمة ينفقها في شهواته ، اللهم إلا إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز فهو نجيبهم ،إذ أظهر الزهد والابتعاد عن الظلم . وبادر إلى محو السنة الأموية ، ومنع سب علي عليه السلام بعد أن أدخل في مناهج التعليم ، وأعلنوا به على المنابر ، وفي الأندية والمجتمعات ، لينشئوا جيلا قد تركزت فيه فكرة البغض لعلي وأولاده ، فكان سب علي هو علامة الولاء للدولة ، والبراءة منه دليلا على الإخلاص وعدم الخيانة ، حتى تركزت في مخيلة كثير من الناس صور معاكسة للحقيقة ، ونشأوا على التقليد الأعمى في اتباع ولاة أمورهم ، وتصديق ما صدر عنهم .

قال أبو يحيى السكري : دخلت مسجد دمشق فقلت : هذا بلد دخله جماعة من الصحابة . فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس . فجلست إليه ، فقال له رجل جالس أمامه : من هو علي بن أبي طالب ؟ فقال الشيخ : خفاق كان بالعراق اجتمعت عليه جماعة . فقصد أمير المؤمنين (يعني معاوية) أن يحاربه فنصره الله عليه .

قال يحيى : فاستعظمت ذلك وقمت ، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلي إلى سارية ، وهو حسن السمت والصلاة والهيئة ، فقلت له : يا شيخ أنا رجل من أهل العراق ، جلست إلى تلك الحلقة ، ثم قصصت عليه القصة .

فقال الشيخ : في هذا المسجد عجائب ، بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمد الحجاج بن يوسف ، فعلي بن أبي طالب من هو ! ؟ (1) .

هكذا أثرت قوة الدعاية في مجتمع يتقبل تلك الأباطيل والمفتريات ، لضعف الإيمان . وكم للدعاية من أثر في توجيه الناس الى ما تهدف اليه السياسة ، من تحقيق أهداف وبلوغ مآرب ، حتى حملوا السذج على الاعتقاد بكل ما يوحى إليهم ، حتى ارتبطت في نفوس بعض الناس ارتباطاً وثيقاً ، فهي لا تقبل الرد والمعارضة . أما البعض الآخر فقد خضعوا لتلك الأوهام تحت ضغط الإرهاب وقوة الحكم الغاشم .

يقول الشعبي : ماذا لقينا من آل علي إن أحببناهم قتلنا ، وإن عاديناهم دخلنا النار .

وقد مرت الإشارة إجمالا — في الأجزاء السابقة — إلى تلك الدعايات وأساليبها ، ومدى تأثر المجتمع فيها .

---

(1) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص ٥ نقلا عن تاريخ ابن عساكر .

وعلى أي حال فإن الإمام الصادق عليه السلام قضى من عمره في الحكم الأموي ما يقارب نصف قرن ، وقد شهد انتقال الدولة منهم إلى بني العباس ، وشاهد ذلك النشاط السياسي الذي عصف بتلك الدولة فهدم أركانها ، ومحاها من صفحة الوجود ، كما عصف بأرواح الناس وأموالهم ، وقد اتضح لنا رأيه وموقفه وسط ذلك المعترك ، وسنرى فيما بعد رأيه في معالجة المشاكل وموقفه في إصلاح الوضع .

وخلاصة القول إن الإمام الصادق عليه السلام قد شاهد في عصر أولئك الحكام أنواع الظلم وضروب المحن، من سوء السيرة في الأمة، وجور الحكم في الرعية .

وقد تراكمت المصائب على أهل البيت ، وتوالت عليهم الحوادث من قتل وتشريد ، وفرض مراقبة شديدة ، ومنع الأمة من الاتصال بهم ،والانتهال من نمير تعاليمهم . وشاهد جده الإمام زين العابدين عليه السلام على فراش الموت ، متأثراً من السم الذي دسه الأمويون له، فقضى نحبه صلوات الله عليه سنة ٩٤هـ.

وكذلك شاهد أباه الإمام الباقر عليه السلام على فراش الموت، ولفظ أنفاسه مسموماً بيد أولئك الطغاة ، الذين صعب عليهم انتشار ذكره واتساع آفاق دعوته ، ونشاط مدرسته وذلك في سنة ١١٤ هـ .

ووافاه نبأ مقتل عمه زيد بن علي عليه السلام الثائر على الظلم والمنتصر للعدالة الضائعة ، في ظل حكم أولئك الطغاة في سنة ١٢٤ هـ .

وحينما أخبر الإمام الصادق عليه السلام عن مقتله وما جرى عليه بكى بكاء شديداً ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند الله أحتسب عمّي ، ثم قال : مضى والله شهيداً ، كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي و الحسين .

وقال عليه السلام: فلعن الله قاتله وخاذله ، وإلى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيه بعد موته ، ونستعين الله على عدونا وهو المستعان .

ولم تمض على قتل زيد بن علي عليه السلام مدة من الزمن حتّى وافته الأنباء بقتل ابن عمه يحيى بالجوزجان وذلك في سنة ١٢٦ هـ . وصلب على باب المدينة إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني فأنزله ودفنه .

وهكذا كان في كل آونة يقرع سمعه نبأ مفجع في أهل بيته وشيعته ، فقد ملأوا بهم السجون ، وصبغوا من دمائهم الأرض ، واهتزت بأجسادهم المشانق . وقد تلقى تلك الفجائع بصبر وثبات ، وعزيمة صادقة . .

ولا يغيب عن الأذهان عظيم استياء الإمام ومحنته من جراء الانحراف العقائدي والسياسي ، وبعد الأمة الاسلامية عن واقع الدين ، وابتعادهم من

الناحية العملية عن الإسلام ، وهو المسؤول الأول عن التوجيه ، وهداية الأمة .

وماذا يصنع وهو المحاط برقابة شديدة ، والدولة لا تنفك عن مقابلته بالشدة ، ومحاولة الفتك به بين آونة وأخرى . وقد نظر عليه السلام إلى واقع الأمر نظرة دقيقة ، وسار على خطة محكمة وطريق سويّ في معالجة الأوضاع ، وإصلاح المجتمع .

اما بقية حياته التي قضاها في العهد العباسي ، وهي من سنة ١٣٢ ﻫ إلى سنة ١٤٨ ﻫ وهي سنة وفاته ، وتكاد هذه المدة أن تكون في بدايتها خير عهد يشهده الإمام من حيث الحرية الكاملة ، ورفع الرقابة المشددة ، ولكن لم يطل الزمن حتى اشتد المنصور في معاملته ، وعامله بقسوة لا مزيد عليها ، حتى اغتاله بالسم في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٤٨ ﻫ .

وخلاصة القول : إن الإمام عاش هذه المدة وسط معترك سياسي وفكري، وقد قام بواجبه الإصلاحي ، ووجه الأمة إلى ما فيه سعادتها ، ولم يخضع لتلك السلطات فيترك عمله ، أو يتخلى عن المسؤولية في أداء الرسالة ، فلم يتزلف لملوك عصره فيسايرهم ، أو يبرر أعمالهم ، بل كان دائماً يسلك منهج آبائه في محاربة الظالمين ، مظهراً سخطه عليهم ، معلناً غضبه على أعمالهم ، داعياً لمقاطعتهم ، وكانت عليه من الله جنة واقية ، فهو متسلح بإيمانه بالله ، متحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى الله .

ولا بد لنا هنا — اتماماً للبحث عن حياته — من ذكر شيء من سيرته وبعض تعاليمه التي تتجلى فيها روح الصلاح ، وهو يضع في كل منها حجراً لأعظم الأسس التربوية .

* *

الإمام الصادق
قبس من سيرته وتعاليمه



تمهيد :

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام مثالا كاملا لدعاة الاصلاح ، وعلماً من أعلام الصلاح ، يأمر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة ، واكتساب الفضائل والابتعاد عن الرذائل ، لا يدخر النصح عن أحد .

كان يدعو الناس بلين ورفق ، ويجادلهم بالّتي هي أحسن ، ولا يتشدد على الشاك في الدين ، بل كان يوضح له ما أشكل ، ويبين له ما أبهم ، حتّى يظهر له الحق ويجلو له السبيل .

وكان يتشدد على أصحابه المتشددين في معاملة المنحرفين عن الحق ، ويأمرهم بأن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويقول لهم : « لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم ، ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون ، وما يدخل به الأذى علينا ، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه وتقولوا له قولا بليغاً » .

فقال له بعض أصحابه : إذاً لا يقبلون منا .

قال : اهجروهم واجتنبوا مجالسهم .

فهو يوجب على العالم أن لا يتخلى عن تعليم الجاهل الذي يتّردى بجهالته ، فيرتكب ما يخالف الدين ، ويدخل به الأذى على دعاة الاصلاح وحماة المسلمين ، ولا يصح لهم هجره إلا بعد اليأس من اصلاحه ، وإزالة الغشاوة التي أعمت بصره ، ففي هذه الحالة تكون مواصلته تشجيعاً ، ومجالسته اغراء .

وكان عليه السلام يبذل جهده في توجيه الناس وتقويم أخلاقهم ، وإصلاح شؤونهم ما استطاع ، ويريد منهم أن يلتزموا الجوهر ويتركوا العرض ، ويأمرهم بالعمل ، ويدعو ذوي اليسر إلى الانفاق على ذوي العسرة ، وأن يوسعوا على المضيق منهم حتّى يمنعوهم من ذل السؤال ، وكان ينفق حتّى لا يبقي شيئاً لعياله (١) كما يحدث عنه الهياج بن بسطام .

يقول شعيب بن ميثم : قال لي الصادق : يا شعيب أحسن إلى نفسك وصل قرابتك ، وتعاهد اخوانك ، ولا تستبد بالشيء فتقول : ذا لنفسي وعيالي ، ان الذي خلقهم هو يرزقهم .

---

(١) القرماني ص ١٢٨ ، وكشف الغمة للاربلي ج ١ ص ٢٢٣ .

إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله ، التي كان يبعث فيها الشعور لسامعيه على لزوم التخلق بالسجايا الحسنة اقتداء به ، لأنه عليه السلام كان حريصاً على توجيه المجتمع ، والتخلي بآداب الإسلام ، فهو يدعو الأغنياء لمواساة الفقراء والإحسان إليهم ، لتزول عوامل العداء والحسد والبغضاء ، ويكون الجميع اخوة ، كل يحب الخير لأخيه ، فلا اثرة ولا بخل ، ولا إهانة بعض لبعض ، ولا خصومة ولا مشاحنة ، إلى غير ذلك مما دعا الإسلام كل مسلم أن يتصف به .

ولحرصه عليه السلام على تأليف القلوب وإزالة الشحناء ، وإطفاء نار العداوة والبغضاء ، كان يدفع إلى بعض أصحابه من ماله ليصلح به بين المتخاصمين على شيء من حطام الدنيا تسوية للخلاف ، ودفعاً للتقاطع والتهاجر . ومنعاً من الترافع لحكام الجور .

نهيه عن المنازعات وفض الخصومة لدى حكام الجور:

قال أبو حنيفة واسمه سعيد بن بيان : مر بنا المفضل بن عمر وأنا وختن لي نتشاجر في ميراث ، فوقف علينا ساعة ، ثم قال لنا : تعالوا إلى المنزل . فأتيناه وأصلح بيننا بأربعمائة درهم ، فدفعها الينا حتى إذا استوثق كل واحد منا صاحبه قال المفضل : أما إنها ليست من مالي ، ولكن أبا عبدالله الصادق أمرني : إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما ، وأفتديهما من ماله فهذا مال أبي عبدالله الصادق .

وهكذا يكشف لنا عظيم اهتمامه بجمع الكلمة ، وعدم الفرقة أولاً ، وإنهاء الخصومات على يد من أقامه من قبله لذلك ثانياً .

لأنه عليه السلام منع عن المرافعة الى حكام الجور ، وأمر بمقاطعتهم وقد أقام جماعة من كبار أصحابه حكاماً من قبله ، ينظرون في الخصومات ، ويحكمون بحكم الله عز وجل ، وقد أمر الإمام الصادق بالرجوع إليهم ، والمرافعة عندهم وقال :

أيّما رجل كانت بينه وبين أخ له مماراة في حق ، فدعاه إلى رجل من اخوانكم ليحكم بينه وبينه ، فأبى إلا ان يرفعه الى هؤلاء ، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم : (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به)

وكان يعلن عليه السلام بأن المرافعة الى اولئك الحكام إثم ، وأن حكمهم غير

نافذ ، لأن الحكومة للامام العادل بالحكم ، العالم بالقضاء ، كنبي أو وصي نبي ؛ وهو عليه السلام أحق بالحكم ، وأمر بالرجوع لمن جعله من قبله للحكم بين المتنازعين .

وقد ورد عنه عليه السلام أنه قال :

إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور ، وأيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاض او سلطان جائر فقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم .

والمراد بقوله : بغير حكم الله مطلق ما يحكمون به ، سواء كان الحكم بالحق أم بالباطل ، لانهم حكام جور ، وليس لهم حق الحكومة بأحكام الله ، فحكمهم غير حكم الله .

وكما كان ينهى عن المرافعة اليهم ؛ كان ينهى عن معاونتهم والعمل لهم ، حتى في البناء وكراية الانهر ، وقال في جواب من سأله عن ذلك : ما أحب أن أعقد لهم عقدة ، أو وكيت لهم وكاء ، إن الظلمة وأعوان الظلمة في سرادق من نار ، حتى يحكم الله بين العباد .

نهيه عن الولاية للظالمين :

وطلب منه مولى من موال جده علي بن الحسين عليه السلام أن يكلم والي المدينة — وهو داود بن علي — أن يدخل في بعض الولايات .

فقال عليه السلام : ما كنت لأفعل .

فظن الرجل أن امتناع الإمام عليه السلام كان خوفاً من أن يظلم أحداً ؛ فحلف له بالإيمان المغلظة أنه يعدل ولا يجور ، فكان جواب الإمام عليه السلام أن قال له : تناول السماء أيسر عليك من ذلك . وقد أشرنا من قبل إلى مواقفه ضد الحكام وأحكامهم ، و إعلانه المقاطعة لهم . وعلى هذا النهج سار أتباعه ، وطبعت مدرسته بهذا الطابع ، فكانت عرضة للخطر من قبل حكام الجور ، ولكنها واصلت كفاحها في سبيل ترسيخ مبادئها وإعلاء كلمة الحق . وكان يحرص الحرص الشديد على إزالة الشحناء من القلوب ، وبث روح الأخوة ، فهو ينهى عن التهاجر والمقاطعة .

قال المفضل : سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول :

لا يفترق رجلان على الهجران الا استوجب احدهما البراءة واللعنة ،

وربما استوجب ذلك كلاهما .

فقال له معتب : جعلت فداك هذا حال الظالم ، فما بال المظلوم ؟ !

قال عليه السلام لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته ، ولا يتغافل عن كلامه . سمعت أبي يقول : اذا تنازع اثنان فعاد أحدهما الآخر فليرجع المظلوم الى صاحبه حتى يقول له : أي أخي أنا الظالم . حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه ، فإن الله حكم وعدل يأخذ للمظلوم من الظالم .

وقال جابر بن عون : إن رجلا قال لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : إن بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإني أريد أن أتركه ، فيقال لي : إن تركك له ذلة .

فقال عليه السلام : إن الذليل هو الظالم .

حثه على صلة الرحم :

فهو عليه السلام يحاول أن يزيل من القلوب ضغائن الأحقاد التي تبعث على الكراهة والفرقة ، وكان هو عليه السلام من حسن سيرته ومكارم أخلاقه يصل من قطعه ، ويعفو عمن أساء إليه ، كما ورد أنه وقع بينه وبين عبدالله بن الحسن كلام ، فأغلظ عبدالله في القول ، ثم افترقا وذهبا إلى المسجد ، فالتقيا على الباب ، فقال الصادق عليه السلام لعبد الله بن الحسن : كيف أمسيت يا أبا محمد ؟ .

فقال عبدالله : بخير — كما يقول المغضب —

قال الصادق عليه السلام : يا أبا محمد أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلى قوله تعالى : (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) .

فقال عبد الله : فلا تراني بعدها قاطعاً رحماً .

وكان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تقطع رحمك وإن قطعك .

وجاء إليه رجل فشكا أقاربه ، فقال عليه السلام : إكظم غيظهم . فقال الرجل إنهم يفعلون ويفعلون . فقال عليه السلام : أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله اليكم ! ! .

وقال عليه السلام : إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله إن لي أهلاً قد كنت أصلهم وهم يؤذوني ، وقد أردت رفضهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله يرفضكم جميعاً .

قال الرجل : وكيف أصنع ؟

قال ﷺ : تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيراً .

فكان عليه السلام يصل رحمه ويبذل لهم النصح ، ويدعوهم إلى ما فيه صلاح أنفسهم ، وإصلاح الأوضاع التي اضطرب حبل استقامتها في عصرهم وكان يصل فقراءهم بالليل سراً وهم لا يعرفونه ، كما كان عليه السلام يبذل النصح لجميع المسلمين ، ويدعوهم إلى الالتزام بأوامر الدين .

وكان يحث في كثير من تعاليمه على مساعدة الضعفاء ومعاونة المعوزين ، وصلة الفقراء والمساكين ، ويقوم هو بنفسه بصلتهم ومعاونتهم ، ويوزع عليهم من ماله . وإذا جن الليل قام بصدقة السر ، يطوف على بيوت الفقراء .

قال هشام بن الحكم رحمه الله : كان أبو عبد الله الصادق عليه السلام إذا اعتم وذهب من الليل شطره ، أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم فيحمله ، ثم يذهب فيه إلى أهل الحاجة من أهل المدينة ، فيقسمه فيهم ، وهم لا يعرفونه ، فلما مضى أبو عبدالله فقدوا ذلك فعلموا أنه كان هو أبو عبدالله الصادق عليه السلام.

حثه على مساعدة الضعفاء وأبناء السبيل :

وقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك. بلغني أنك تفعل في عين زياد (اسم ضيعة له) شيئاً أحب أن أسمعه منك .

فقال عليه السلام : نعم كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم ، ليدخل الناس ويأكلوا ، وكنت آمر أن يوضع عشر بنيات يقعد على كل بنية عشرة ، كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى ، يلقى لكل نفس منهم مد من رطب ، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم: الشيخ والعجوز والمريض والصبي والمرأة ، ومن لا يقدر ، أن يجيء فيكون لكل إنسان مداً ، فإذا أوفيت القوام والوكلاء أجرتهم أحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوت والمستحقين على قدر استحقاقهم ، وحصل لي بعد ذلك أربعمائة ديناراً ، وكانت غلتها أربعة آلاف .

وقال مصادف: كنت مع أبي عبدالله عليه السلام ما بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة ، وقد ألقى بنفسه ، فقال عليه السلام : مل بنا إلى هذا الرجل ، فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش . فملنا اليه فإذا هو رجل من

النصارى طويل الشعر ، فسأله الإمام : أعطشان أنت ؟ فقال : نعم .

فقال الإمام : انزل يا مصادف فاسقه . فنزلت وسقيته ثم ركب وسرنا .

فقلت له : هذا نصراني ، أفتتصدق على نصراني ؟

فقال : نعم . إذا كانوا بمثل هذه الحالة .

ولشدة اهتمامه بمساعدة الضعفاء ، وقضاء حوائج المؤمنين ، كان يرى عليه السلام أن الإعراض عن المؤمن المحتاج للمساعدة استخفاف به ، والاستخفاف بالمؤمن استخفاف بهم عليهم السلام . وجاء ذلك موضحاً في قوله ، وقد كان عنده جماعة من أصحابه : ما لكم تستخفون بنا ؟ فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال : معاذ الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك .

فقال عليه السلام: إنك أحد من استخف بي .

فقال الرجل : معاذ الله أن أستخف بك ! !

فقال له عليه السلام : ويحك ألم تسمع فلاناً ونحن بقرب الجحفة ، وهو يقول لك : احملني قدر ميل فقد والله اعييت . فوالله ما رفعت له رأساً ، لقد استخففت به ، ومن استخف بمؤمن فبنا استخف ، وضيع حرمة الله عزوجل .

وقال صفوان الجمال : دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل مكة ــ يقال له ميمون ــ فشكى إليه تعذر الكراء عليه .

فقال عليه السلام : قم فأعن أخاك . فقمت معه فيسر الله كراه ، فرجعت إلى مجلسي ، فقال أبو عبدالله : ما صنعت في حاجة أخيك ؟

فقلت : قضاها الله : بأبي أنت وأمي .

فقال عليه السلام : أما إنك إن تُعِن أخاك المسلم أحب إلي من طواف أسبوع في البيت .

* * *

ودخل عليه عمار الساباطي ، فقال له : يا عمار إنك رب مال كثير فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة ؟

قال : نعم .

قال عليه السلام : فتخرج الحق المعلوم من مالك ؟

قال : نعم .

قال عليه السلام : فتصل قرابتك ؟

قال : نعم .

قال : فتصل اخوانك ؟

قال : نعم .

قال عليه السلام : يا عمار إن المال يفنى ، والبدن يبلى ، والعمل يبقى والديان حي لا يموت .

يا عمار ما قدمت فلم يسبقك ، وما أخرت فلن يلحقك .

وقال المفضل بن قيس : دخلت على أبي عبدالله الصادق عليه السلام فشكوت إليه بعض حالي ، وسألته الدعاء فقال : يا جارية هاتي الكيس ، فجاءت بكيس فقال : هذا كيس فيه اربعمائة دينار فاستعن به .

قال المفضل : فقلت لا والله ما أردت هذا ولكن أردت الدعاء لي .

فقال لي عليه السلام : ولا أدع الدعاء ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم .

وقال الشقراني — مولى رسول الله — : خرج العطاء أيام المنصور ، فوقفت على الباب متحيراً ، وإذا بجعفر بن محمد قد أقبل ، فذكرت له حاجتي ، فدخل ثم خرج وإذا بعطائي في كمه وناولني إياه وقال : إن الحسن من كل أحد حسن وإنه منك أحسن ، وإن القبيح من كل أحد قبيح ، وإنه منك أقبح لمكانك منا .

قال ابن الجوزي : وإنما قال له جعفر ذلك لأن الشقراني كان يشرب الشراب ، فمن مكارم أخلاق جعفر أنه رحب به وقضى حاجته مع علمه بحاله ووعظه على وجه التعريض ، وهذا من أخلاق الأنبياء .

وقال يوماً لبعض أصحابه : ما بال أخيك يشكوك ؟ !

فقال : يشكوني إذ استقصيت عليه حقي .

فجلس الإمام مغضباً وقال : كأنك إذا استقصيت عليه حقك لم تسيء ؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب ؟ أخافوا أن يجور عليهم ؟ لا . ولكن خافوا الاستقصاء فسماه الله سوء الحساب فمن استقصى فقد أساء .

قال زرارة : قلت لأبي عبد الله: إن لي على رجل ديناً وقد أراد أن يبيع داره فيعطيني .

فقال الصادق عليه السلام : أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه ، أعيذك بالله أن تخرجه من ظل رأسه .

وكان يسأل القادمين عليه من أصحابه عن معاونة بعضهم بعضاً. قال محمد بن زيد الشحام رآني أبو عبدالله وأنا أصلي فأرسل ودعاني ، فقال لي :

من أين أنت ؟ قلت : من الكوفة ، فقال : من تعرف من الكوفة . فذكرت له رجلين .

قال : وكيف صنيعهما إليك . قلت : وما أحسن صنيعهما إليّ . فقال عليه السلام : خير المسلمين من وصل وأعان ونفع . ما بت ليلة قط وفي مالي حق يسألنيه الله تعالى ثم قال : أي شيء معك من النفقة ، قلت : عندي مائتا درهم . قال : أرنيها . فأتيته ، فزاد فيها ثلاثين درهماً ودينارين ، ثم قال عليه السلام تعشّ عندي. فتعشيت عنده .

قال زيد : فلما كان من السنة القابلة لم أذهب إليه ، فأرسل إليّ فدعاني ، فقال عليه السلام : ما لك لم تأتني البارحة ؟

قلت : لم يأتني رسولك . فقال عليه السلام فأنا رسول نفسي إليك ما دمت مقيماً في هذه المدة .

قال زيد : فقلت له علمني دعاء . قال : أكتب . بسم الله الرحمن الرحيم. يا من أرجوه لكل خير ، وآمن سخطه عند كل عثرة ، يا من يعطي الكثير بالقليل ، ويا من يعطي من سأله تحنناً منه ورحمة ، ويا من أعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه ، صلّ على محمد وأهل بيته ، واعطني بمسألتي إياك خير الدنيا وجميع خير الآخرة ، فإنه غير منقوص ما أعطيت وزدني من سعة فضلك يا كريم .

ثم رفع يده فقال : يا ذا المن والطول ، يا ذا الجلال والاكرام ، يا ذا النعماء والجود ، إرحم شيبتي من النار .

ثم وضع يديه على لحيته ، ولم يرفعهما ، حتى امتلأ كفه دموعاً .

وقال مصادف : كنت عند أبي عبدالله الصادق فدخل رجل فسلم عليه ، فسأله الإمام : كيف من خلفت من اخوانك ؟ فأجاب الرجل وأحسن الثناء وأطراهم . فسأله الإمام : كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم ! ؟

فقال الرجل : قليلة .

قال الإمام : كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم ؟

فقال الرجل : قليلة .

قال الإمام : كيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم ؟

فقال الرجل : إنك تذكر أخلاقاً قلّ ما هي فيمن عندنا .

قال الإمام : فكيف يزعم هؤلاء انهم شيعتنا ؟ !

قال اسحاق بن عمار : دخلت على أبي عبد الله الصادق . فنظر إليّ

بوجه قاطب ، فقلت : ما الذي غيّرك لي ؟

قال عليه السلام : الذي غيرك لاخوانك، بلغني يا إسحاق أنك أقعدت ببابك بواباً يرد عنك الفقراء .

فقلت : جعلت فداك إني خفت الشهرة .

فقال عليه السلام : ألا خفت البلية .

قال اسحاق بن ابراهيم : كنت عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام ، إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال : يا ابن رسول الله أنا من مواليكم ، وبيني وبينكم شقة بعيدة ، وقد قل ذات يدي ، ولا أقدر أن أتوجه إلى أهلي الا أن تعينوني ، فنظر أبو عبدالله وقال : أما تسمعون ما يقول أخوكم ؟

انما المعروف ابتداء ، فأما ما أعطيت بعد ما سأل إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه ، أفيبيت ليلته متأرقاً متململا بين اليأس والرجاء ، لا يدري أين يتوجه بحاجته ، فيعزم على القصد إليك ، فأتاك وقلبه يجب ، وفرائصه ترتعد ، وقد نزل دمه في وجهه ، وبعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد ، أم بسرور النجح ، فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« والذي فلق الحب ، وبرأ النسمة ، وبعثني بالحق نبياً ، لما يتجشم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك » .

قال اسحاق : فجمعوا له خمسمائة درهم ودفعوها إليه .

وكان عليه السلام يوجه المجتمع بتعاليمه إلى جميع مهمات الحياة ، ويحث الإنسان على عزة النفس وعدم الإهانة لها فيقول : إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلها ، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً ، أما تسمع قول الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً ، إن المؤمن أعز من الجبل ، الجبل يستقل منه بالمعاول ، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء .

حثه على العمل وطلب الرزق الحلال :

وقد حث عليه السلام في جملة من تعاليمه على طلب المال من حله ، ويدعو أصحابه إلى التكسب في الأسواق ، ويجعل ذلك عزاً للإنسان .

يقول المعلى بن خنيس : رآني أبو عبدالله عليه السلام وقد تأخرت عن السوق ، فقال لي : اغدو إلى عزك .

وقال لآخر – وقد ترك غدوه إلى السوق – : ما لي أراك وقد تركت غدوك إلى عزك ؟ ! !

فهو عليه السلام يدعو لكسب المال من حله لينال المرء عزة في نفسه ولا يكون كلاً على الناس فيهان .

ولقد أخبر عن رجل قال : لأقعدن ولأصلين ، ولأصومن ولأعبدن الله ، فأما رزقي فيأتيني .

قال عليه السلام : هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم .

وقال له رجل : إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها .

قال عليه السلام : ماذا تحب أن تصنع بها .

فقال الرجل : أوسع بها على نفسي وعيالي ، وأصل بها قرابتي ، وأتصدق وأحج ، وأعتمر .

فقال أبو عبدالله عليه السلام : ليس هذا طلب الدنيا ، هذا طلب الآخرة .

وكان هو بنفسه يطلب الرزق الحلال .

قال أبو عمر الشيباني : رأيت أبا عبد الله الصادق وبيده مسحاة يعمل في حائط له والعرق يتصبب ، فقلت : جعلت فداك أعطني أكفك .

فقال لي : إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة .

وقال المفضل بن قرة : دخلنا على أبي عبدالله في حائط له (أي بستان) وبيده مسحاة يفتح بها الماء وعليه قميص ، وكان يقول : إني لأعمل في بعض ضياعي وإن لي من يكفيني ليعلم الله أني أطلب الرزق الحلال .

وخرج عليه السلام في يوم صائف شديد الحر فاستقبله عبد الأعلى – مولى آل سام – في بعض طرق المدينة ، فقال له : يابن رسول الله حالك عند الله عز وجل وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم ! !

فقال عليه السلام : يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك .

نبذ من أعماله وأقواله :

فهو عليه السلام يعلم الناس قولاً وعملاً لأنه ناصح مرشد بأقواله وأفعاله يدعو إلى الخير ويهدي إلى سبيل الرشاد . بلغه عن رجل من أصحابه أنه وقع بينه وبين أمه كلام ، فأغلظ لها ، فلما دخل عليه من الغد ابتدأه قائلاً :

يا مهزم مالك وخالدة (اسم امه) أغلظت في كلامها البارحة ، أما علمت

أن بطنها منزل قد سكنته ، وأن حجرها مهد قد عمرته، وأن ثديها وعاء قد شربته ؟ فقال . بلى ، قال عليه السلام فلا تغلظ لها .

ودخل عليه صالح بن سهل — وكان يذهب مذهب الغلاة — فلما نظر إليه قال : يا صالح إنا والله عبيد مخلوقون لنا رب نعبده . وإن لم نعبده عذبنا . فترك صالح ما كان يذهب إليه .

وكان عبد العزيز القزار ممن يذهب لهذا المذهب ، فلما دخل على الإمام عليه السلام قال له : يا عبد العزيز ضع لي ماء أتوضأ به .

قال عبد العزيز : ففعلت . فلما دخل قلت في نفسي هذا الذي قلت فيه ما قلت ؟ ! !

فلما خرج قال عليه السلام : يا عبد العزيز لا تحمل البناء فوق ما لا يطيق. إنا عبيد مخلوقون .

وهكذا كان عليه السلام يرشد للحق ويدعو إلى سبيل الرشاد ويعظ جلساءه . ويوجه بأقواله وأعماله من شذ عن الطريق السويّ ، ويعلن براءته مما يدعي فيهم من الغلو ، ويقول أمام الملأ : إنا عبيد مخلوقون لرب إن عصيناه عذبنا .

وكان مجلسه يكتظ بمختلف الطبقات ، من علماء الفرق وأهل الآراء فهو يُلقي عليهم دروساً توجيهية بأقواله وأفعاله .

قال سدير الصيرفي : كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزاز في مجلس أبي عبد الله ، إذ خرج إلينا وهو مغضب فلما أخذ مجلسه قال :

يا عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب ، ما يعلم الغيب إلا الله عز وجل ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة ، فهربت مني فما علمت في أي بيت من الدار هي .

فهو بهذا يرد مزاعم أولئك المنحرفين عن منهج أهل البيت عليهم السلام ويدعون حبهم ، ويزعمون أنهم يوحى إليهم ، وأنهم يعلمون الغيب الذي هو لله وحده ، فأوضح عليه السلام لجلسائه بطلان هذه المزاعم ليحملوا ذلك عنه ، وينشروه في البلاد النائية ، لأنه شديد الاهتمام بأمر الغلاة ، وإعلان الحرب عليهم ، وهم ليسوا من شيعته ، وإنما هم أعداء له ، يريدون الإساءة له والوقيعة في أتباعه .

وسأله رجل من جلسائه فقال : إن قوماً من مواليكم يلمون بالمعاصي ويقولون : نرجو .

فقال عليه السلام : كذبوا ليسوا لنا بموالٍ ، أولئك قوم ترجحت بهم

الأماني . من رجا شيئاً عمل له ، ومن خاف شيئاً هرب منه .

وكما قلنا إن مجلسه كان مكتظاً بمختلف الطبقات ، من رواد العلم وحملة الحديث ، وكان سفيان الثوري وهو أحد أعلام الأمة ومن رؤساء المذاهب البائدة ، يكثر التردد عليه ويطلب منه الموعظة والتوجيه .

ويحدثنا سفيان : أنه دخل على الإمام الصادق عليه السلام وكان عليه جبة خز دكناء قال سفيان : فجعلت أنظر إليها متعجباً .

فقال لي : يا ثوري ، ما لك تنظر إلينا ، لعلك مما رأيت ؟

قال فقلت : يا بن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك .

فقال لي : يا ثوري ، كان ذلك الزمان مقفراً مقتراً ، ثم حسر عن ردن جبته ، وإذا تحتها جبة صوف بيضاء ، وقال : يا ثوري لبسنا هذا لله (وأشار إلى جبة الصوف) وهذا لكم (وأشار إلى الخز) فما كان لله أخفيناه ، وما كان لكم أبديناه .

وكان عليه السلام يؤوي الضيف ويدعو الغرباء إلى ضيافته ويكرمهم ، ومن حسن أخلاقه لا يود أن يسارع الضيف في رحلته ، ويمنع خدمه من المعاونة لهم في رحلتهم ، وهذا من مفاخر العرب ، ولهم فيه أشعار كثيرة . وعندما يسأله ضيوفه عن سبب ذلك يقول : إنا أهل بيت لا نعين أضيافنا على الرحلة من عندنا .

كما أنه يبذل الطعام ويدعو إلى بذله . وسأله محمد بن قيس فقال : إني لا أتغدى و لا أتعشى إلا ومعي اثنان أو ثلاث أو أكثر .

فقال عليه السلام : فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم .

فقال محمد : جعلت فداك كيف ؟ ! ! وأنا أطعمهم طعامي ، وأنفق عليهم ، ويخدمهم خادمي .

فقال عليه السلام : إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير ، وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة .

وقال رجل من الجالسين عنده : إن المنصور مذ صارت الخلافة إليه لا يلبس إلا الخشن ، ولا يأكل إلا الجشب .

فقال عليه السلام : يا ويحه مع ما مكن الله له من سلطان ! !

فقيل : إنما يفعل ذلك بخلاً وجمعاً للأموال .

فقال عليه السلام : الحمد لله الذي حرمه من دنياه ماله مع دينه . ولما أحضره المنصور في مجلسه وقع الذباب على وجه المنصور حتى ضجر ، فقال المنصور :

يا أبا عبدالله لم خلق الله الذباب ؟

فقال عليه السلام : ليذل به الجبارين . فوجم لقوله .

وقد أدب أصحابه بآداب الإسلام ، في جمع الكلمة وعدم الفرقة ، وحسن الصحبة لمن يصحبونه .

قال أبو بصير : سمعت أبا عبدالله الصادق يقول : اتقوا الله وعليكم بالطاعة لأئمتكم ، قولوا ما يقولون ، واصمتوا عما صمتوا فإنكم في سلطان من قال الله تعالى : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) . فاتقوا الله فإنكم في هدنة ، صلوا في عشائرهم ، واشهدوا جنائزهم ، وأدوا الأمانة إليهم ، وعليكم بحج البيت ، فإن في إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم . وأهوال يوم القيامة .

وقال أبو ربيع الشامي : دخلت على أبي عبدالله عليه السلام والبيت غاص ، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق ، فلم أجد موضعاً أقعد فيه ، فجلس أبو عبدالله وكان متكئاً ثم قال : يا شيعة آل محمد إنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه ، ومن لم يحسن صحبة من صحبه ، ومخالقة من خالقه ، ومرافقة من رافقه ، يا شيعة آل محمد اتقوا الله ما استطعتم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

وقال عليه السلام للمفضل : من صحبك ؟ قال رجل من اخواني قال عليه السلام : فما فعل ؟ قال المفضل منذ دخلت المدينة لم أعرف مكانه . فقال لي : أما علمت أن من صحب مؤمناً أربعين خطوة سأله الله عنه يوم القيامة .

وبعث الإمام الصادق عليه السلام غلاماً له في حاجة ، فأبطأ الغلام ، فخرج على أثره فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يروحه فانتبه ، فقال له الإمام عليه السلام : والله ما ذلك لك ، تنام الليل والنهار ! ! لك الليل ولنا منك النهار .

ودخل عليه رجل فقال: يابن رسول‌الله أخبرني بمكارم الأخلاق. فقال عليه السلام : هي العفو عمن ظلمك ، وصلة من قطعك ، وإعطاء من حرمك .

وقال يوماً لأصحابه : إنا لنحب من كان عاقلا ، فهماً ، حليماً ، مدارياً صبوراً ، صدوقاً ، وفياً . إن الله عز وجل خص الأنبياء بمكارم الأخلاق ، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك ، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله عز وجل ، وليسأله إياها .

فقال له ابن بكير : جعلت فداك وما هن ؟

قال عليه السلام : هن الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء

والشجاعة والغيرة ، والبر وأداء الأمانة .

وهكذا كان عليه السلام ، يلقي على الناس نصائحه ويغتنم الفرص في التوجيه والارشاد ، لما فيه صلاح أنفسهم ، وبذلك يصلح المجتمع . فهو عليه السلام طول حياته يهدي إلى الخير ، ويدعو الى سبيل الرشاد ، في امتثال اوامر الله ، والوقوف عند نواهيه .

وقد بذل جهده عليه السلام في بذل النصح لجميع المسلمين لينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته ، عندما تهذب النفوس من درن الرذائل ، وتتحول عن شهواتها .

ولم يترك طريقاً للنصح الا سلكه في اقواله وأفعاله ، ولم يدع باباً للتوجيه الا سلكه ، ويدفع بالناس الى التحلي بفضائل الأعمال ، ويحث على الورع والتقوى ، والاجتهاد في الطاعة ، والإلفة والمحبة والتعاون ، ومناصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم ، وأخذ الحق للضعيف من القوي ، وقال غير مرة : (ما قدست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويها بحقه) .

كما انه عليه السلام كان يوصي من يريد السفر من أصحابه ، أو الوفود القادمين عليه من البلاد النائية بالمروة ، ثم يشرحها لهم بقوله : هي كثرة الزاد وطيبه ، وبذله لمن كان معك ، وكتمانك على القوم بعد مفارقتك إياهم ، وكثرة المزاح في غير ما يسخط الله . ثم يقول : والذي بعث جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحق نبياً ، إن الله عز وجل يرزق العبد على قدر المروة ، وإن المعونة تنزل على قدر المؤونة ، وان الصبر ينزل على قدر شدة البلاء .

ويوصيهم بعد ذلك بما أوصى لقمان ابنه اذ يقول : إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم ، وأكثر التبسم في وجوههم ، وكن كريماً على زادك بينهم ، وإذا دعوك فأجبهم ، وإذا استعانوا بك فأعنهم ، واستعمل طول الصمت ، وكثرة الصلاة وسخاء النفس بما معك من دابة أو ماء او زاد ، واذا استشهدت على الحق فاشهد لهم ، وأجهد رأيك إذا استشاروك ولا تجب في مشورة حتى تقوم بها ، فإن من لم يمحض النصيحة لمن استشاره سلبه الله رأيه ونزع عنه الأمانة .

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم ، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم ، وإن تصدقوا او أعطوا قرضاً فاعط معهم ، واسمع لمن هو أكبر منك سناً ، و إذا أمروك بأمر أو سألوك شيئاً فقل نعم ولا تقل لا ، فإن لا عيّ ولؤم ؛ وإذا تحيرتم في الطريق فانزلوا ، وإذا شككتم في الأمر فقفوا وتوامروا ،

وإذا رأيتم شخصاً واحداً فلا تسألوه ولا تسترشدوه ، فإن الشخص الواحد في الفلاة مريب ، لعله أن يكون عين اللصوص . الخ ...

حول أخطاء بعض الكتاب :

هذه لمحة موجزة ونظرة خاطفة لبعض سيرته في حياته التي قضاها في الدعوة إلى سبيل الخير ، قائداً روحياً يوجه المجتمع إلى ما يسعده ، وقد رأينا كيف كان في منهجه مع ولاة عصره ، فهو لم يكن مسالماً لهم ، ولا مبرراً أعمالهم . ومن الخطأ في الرأي ما يذهب إليه بعض الكتاب من أن الصادق عليه السلام كان مسالماً يقعد عن نصرة أبناء عمه ، كما يقول الأستاذ أمين الخولي :

«إن الصادق – كما تشهد حياته – مسالم أو مسرف في المسالمة ، يقعد عن نصرة أبناء عمه ، فقد خرج ابن عمه محمد بن عبدالله بن حسين بالمدينة ، فهرب هو حتى قتل محمد ، فلما قتل واطمأن الناس وأمنوا رجع إلى المدينة ، وذلك أقصى المسالمة ، أو هو يصل إلى شيء وراء المسالمة قد ينتقد»(١) .

هذا ما يقوله الأستاذ الخولي . ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق والحكم على الشيء قبل معرفته ، فهناك الكثير ممن حاولوا أن يلحقوا أهل البيت بوصمات الانتقاد نتيجة للتعصب ، أو لضيق أفق المعرفة أمامهم ، فتاهوا في بيداء التخبط والتعثر ، عندما ركضوا في طريق الانحراف عن الواقع .

وان مثل هذا القول يرينا إلى أي حد بلغ التأثر بأفكار المنحرفين عن الواقع ، فلم يتجاوزوا في كتاباتهم عن أهل البيت حدود الخطة التي رسمتها لهم أقلام منحرفة ، وآراء شاذة .

الدعوة العباسية :

أشرنا سابقاً إلى سوء معاملة الأمويين ، وإجحافهم بحق الرعية ، وظلمهم الذي لم يسلم منه أحد حتى الشيخ في محرابه ، والطفل في مهده ، فعم الاستياء جميع الطبقات ، وساد الاضطراب جميع أنحاء المملكة ، وقد وصف الشاعر الجعدي تلك الحالة السيئة بقوله :

---

(١) مالك بن أنس لأمين الخولي . ص ٩٢ .

والناس في كربة يكاد لها تنبذ أولادها حواملها

فكان الوضع السيء يفسح المجال للثورة ، وأي دعوة إلى الخلاص من تلك المحن وويلاتها تلقى قبولا ، وقد قامت الجمعيات السرية للدعوة إلى الرضا من آل محمد ، ونالت النجاح بسرعة مدهشة حتى قضي على الدولة الأموية ، وقامت على أطلالها الدولة العباسية .

وإذا أردنا ان نستنطق الحوادث ، ونبحث عن العوامل التي أدت إلى نجاحهم ، فإنا لم نجد لهم في أول الأمر أي نشاط يذكر ، ولا يؤمل لهم النجاح بالدعوة والفوز في ميدان الكفاح السياسي .

إذاً كيف بدأت الدعوة وما هي أسباب طمعهم بالخلافة ؟ وأي أسلوب اتخذوه لجلب القلوب ؟ هذه أسئلة تجيب عليها الحوادث فلنعرض ذلك بموجز من البيان .

كان محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية (١) يعتقد بعض الناس فيه أنه هو الإمام بعد أخيه الحسين بن علي عليه السلام ، وأنه صاحب الدولة المبشر بها .

فلما مات محمد بن علي أوصى إلى ابنه أبي هاشم، وكان أبو هاشم، واسمه عبدالله ، من رجالات أهل البيت البارزين ، فاتفق أنه قصد هشام بن عبد الملك وافداً فوصله هشام ، ثم رأى من فصاحته ورئاسته ما حسده عليه ، وخاف منه ، فبعث إليه من سمه في الطريق ، فلما علم أبو هاشم بذلك ، عدل إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، فأعلمه أنه ميت ، وأوصى إليه ، وكان معه جماعة من أصحابه فأوصاه فيهم ، وذلك سنة ٩٩ هـ .

وكانت هذه الوصية بذرة طمع وبارقة أمل (فهوس محمد بن علي بن عبدالله منذيومئذ بالخلافة، وشرع في بث الدعاة سراً ، وما زال الأمر كذلك حتى مات سنة ١٢٥ هـ وخلف أولاده وهم جماعة ، منهم : ابراهيم المعروف بالامام والسفاح والمنصور) (٢) .

فقام ابراهيم بالدعوة ، وأخذ يتحدث مع المنكوبين في آلامهم ، ويشاركهم في التأثر ويعطف على المظلومين ، ويلعن الظالمين ، والناس يندفعون

---

(١) هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب ، كان من سادات قريش وشجعانهم المشهورين وأقويائهم المعروفين ، أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة ، روى الحديث عن أبيه علي ، وخرج حديثه أصحاب الصحاح الستة ، توفي سنة ٨٠ هـ ، أو ٨١ ، ودفن بالبقيع .

(٢) الآداب السلطانية ص ١٢٧ .

وراء من يشاركهم آلامهم ، ويميلون لمن يأملون الخلاص على يده من الظالمين .

انتشر دعاة ابراهيم في بلاد خراسان ، وهم من الرجال الذين هم الأثر هناك ، منهم زياد مولى همدان ، وحرب بن قيس ، وسليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وغيرهم ، فبعضهم قتلوا في سبيل الدعوة ، ومثل ببعضهم وحبس البعض الآخر (١) وما زال الأمر يتفاقم والناس تتقبل هذه الدعوة .

والجدير بالذكر أن الدعوة كانت على جانب كبير من الغموض والتكتم باسم الخليفة ، وأن الشخص الذي يبايعه الناس لا يعرفه إلا الدعاة ، والعامة تبايع إلى (الرضا من آل محمد) .

وكان في طليعة الدعاة نشاطاً وقوة ودهاء أبو مسلم الخراساني ، وقد ولاه ابراهيم الإمام على خراسان وجعله قائداً لتلك الحركة وذلك سنة ١٢٨ هـ .

وقد عرف أبو مسلم الخراساني بالدهاء والمهارة الحربية ، وكان يبذر بذور الشقاق بين جنود الأمويين ؛ ليحصل الانقسام بينهم ، وقد استفاد بذلك ونجح في مهمته ، فقد انجفل الناس من هراة ، والطالقان ، ومرو ، وبلخ ، وتوافروا جميعاً مسودين الثياب ، وأنصاف الخشب التي كانت معهم (٢) .

وكان السواد هو شعار الدعوة العباسية جعلوه علامة حزن لما نال أهل البيت عليهم السلام في العهد الأموي من القتل والتشريد .

أساليب الدعوة :

تولى الدعاة نشر الدعوة بكل نشاط ، وتجاوب الناس لقبولها ، وكانت الأساليب تستهوي النفوس وتثير الشعور ، وأهمها أن الثورة إنما تقوم على التنظيم ورعاية مصالح الأمة ، والانتصار للعدالة المفقودة والحق الضائع ، وان الخليفة هو من أهل البيت ومن عترة محمد وورثته ، وناهيك ما لأهل البيت من أثر في النفوس ، ووقع في القلوب ، لأنهم أهل العدل وحماة الدين .

كان الدعاة يلقون على الناس العبارات التالية :

هل فيكم أحد يشك أن الله عز وجل بعث محمداً واصطفاه ؟ قالوا : لا .

أفتشكون أن الله أنزل عليه كتابه فيه حلاله وحرامه وشرائعه ؟ قالوا : لا.

أفتظنونه خلفه عند غير عترته وأهل بيته ؟ قالوا : لا .

---

(١) تاريخ ابن الساعي ص ٣ .

(٢) الدينوري ص ٣٦٠ .

أفتشكون أنّ أهل البيت معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله ؟ الذي علمه الله . قالوا : لا . (١) .

وعندما يسمع الناس هذه العبارات المعبرة عن أمانيهم في تحقيق سعادتهم تحت ظل دولة تكفل لهم القضاء على آلامهم ، وتضمن تحقيق آمالهم بالعمل على إزالة كابوس ذلك الحكم الجائر . يزداد نشاطهم ويكثر حماسهم .

ومن الأساليب التي اتخذت لنجاح الدعوة هو الشعار الأسود الذي يعبر عن محاربة الضلالة ، أو إظهار الحزن والحداد على أهل البيت ، الذين قامت الدعوة باسمهم للانتقام من الأمويين على ما ارتكبوه منهم ، بدون مراقبة لله ولا احترام لرسوله . وقد أرسل ابراهيم الإمام لواء يدعى الظل أو السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ، وكتب إلى أبي مسلم إني قد بعثت إليك براية النصر(٢). وقد تأولوا الظل أو السحاب : أن السحاب يطبق الأرض وكما ان الأرض لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي (٣) . وإن ذلك اللواء يمثل لواء رسول الله ، لأنهم ذكروا أن لواءه في حروبه وغزواته كان أسوداً .

على أن للتنبؤات وكشف حجب الغيب عن المستقبل أثر في نشاط الدعوة ، واندفاع المنظمين إليها ، وقد جرى على الألسن من تلك النبوءات : (ع) بن (ع) بن (ع) سيقتل (م) بن (م) بن (م) وتأولوا أن المراد بالأول هو عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس ، والثاني هو مروان بن محمد بن مروان ، كما ادعوا أيضاً أن النبي ﷺ كان يبشرّ بدولة هاشمية ، وزعموا أنه قال لعمه العباس : إنها تكون في ولدك .

قال محمد بن الأسود : بينما عبدالله بن علي ، يساير أخاه داود بن علي ومعهما عبد الله بن الحسن ، فقال داود لعبدالله : لِـم لم تأمر ابنيك بالظهور ؟

فقال عبدالله بن الحسن : هيهات ، لم يأن لهما بعد. فالتفت إليه عبد الله ابن علي فقال : كأنك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان .

فقال عبدالله : إن ذلك كذلك . فقال عبدالله : هيهات وتمثل :

سيكفيك المقالة مستميت   خفيف اللحم من أولاد حام

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٧ .
(٢) الطبري ج ٩ ص ٨٢ .
(٣) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٧٠ والطبري ج ٩ ص ٨٥ .

أنا والله قاتله (١) .

وغير ذلك من التنبؤات التي كان يؤمن بها الناس ، والتي اتصلت في نفوسهم اتصالا وثيقاً ، فكان ذلك من العوامل في اندفاع الناس ، وهذه الأمور ظهرت في العهد الأموي الأسود .

ولما اتصل أبو مسلم الخراساني بابراهيم الإمام فسأله عن إسمه . فقال : إسمي ابراهيم بن عثمان . فقال له الإمام : غير إسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك . على ما وجدته في الكتب . فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ، وكنيته أبو مسلم .

وهذا يكشف لنا أن الدعوة كانت محفوفة بدعايات غيبية ، ويدعى وجود كتب تنطق بانتقال الخلافة إلى بني العباس ، ولكنهم تكتموا في إظهار ذلك للناس ولم يطلعوا عليها إلا النقباء من خواصهم ، وكان التكتم باسم الخليفة هو عامل جوهري في نجاح الدعوة ، حتى يتم الأمر ، وينتهي كل شيء ، عندما يزول سلطان الأمويين ، وهناك يعلن باسم الخليفة الذي يعرفه القواد والنقباء .

وعلى أي حال فإن الدعوة كانت تدعو إلى تحريك الشعور الديني بالانتصار لأهل البيت ، الذين اريقت دماؤهم في سبيل الانتصار للحق ، وقدموا أنفسهم إلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .

وبهذه الآمال انبعث في نفوس المسلمين الأمل بانبثاق فجر العدل الإسلامي الذي يضمن للناس سعادتهم ، على يد رجل من أهل بيت النبي ﷺ وهم أئمة العدل وهداة الخلق ، ولا سيما في الولايات التي كان الولاة والعمال يستغلونها لأنفسهم ، مدفوعين بعوامل الجشع ، وقد أذاقوا الناس أنواع الأذى وضروب المحن ، فاستأثروا بالأموال وضاعفوا الضرائب ، وأخذوا الجزية على المسلمين .

وكذلك انبعث الأمل في نفوس غير المسلمين ممن لم يعرفوا عن الإسلام في العهد الأموي سوى الاضطهاد ، ودفع الجزية ، وجباية الضرائب على اختلاف أنواعها ، فاندفع كثير من الدهاقين من المجوس إلى اتباع أبي مسلم وأظهروا الإسلام .

كما استجاب كثير من أهل الآراء والعقائد الخارجة عن الإسلام ، وغرضهم التخلص من الحكم الأموي ، عندما رأوا العطف من أبي مسلم على مذاهبهم

---

(١) المسعودي ج ٣ ص ١٨٨ .

وعقائدهم ، وكان الكثير منهم يعتبرونه وحده الإمام ، واعتقدوا فيه أنه أحد أعقاب زرادشت الذي ينتظر المجوس ظهوره ، حتى أنهم لم يعتقدوا بموت أبي مسلم ، بل كانوا ينتظرون رجعته .

وصفوة القول أن العباسيين قد وجدوا الفرصة سانحة للقيام بدعوة الناس إلى الثورة ضد الأمويين ، لوجود العوامل الكثيرة التي يأملون بها نجاح دعوتهم لأنفسهم ، وقد تستّروا بالدعوة لآل بيت النبي ﷺ وعترته ، وهم يخفون من ورائها الآمال والمطامع لأنفسهم .

ولهذا التجأوا إلى مجاراة أبناء علي عليه السلام ، ليهيؤوا جواً تسوده مشاعر المحبة والوئام ، حتى يتم لهم ما يريدونه ، بدون عرقلة من جانب أهل البيت الذين هتفت الجماهير بالانتصار لهم ، لذلك عقدوا في بادىء الأمر مؤتمراً بالأبواء يضم العلويين ، والعباسيين ، ليبايعوا رجلا منهم ، يكون هو الخليفة عندما يفتح الله عليهم في نجاح الثورة ، وأرسلوا إلى الإمام الصادق عليه السلام وقد علموا إباءه في قبول البيعة من قبل .

وانتهى المؤتمر بعد مداولة فيما بينهم إلى مبايعة محمد بن عبدالله بن الحسن وقد جاء في كلام المنصور يخاطب به الحاضرين :

لأي شيء تخدعون أنفسكم ؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى (يعني محمد بن عبدالله بن الحسن) .

فقالوا : قد والله صدقت ، فبايعوا جميعاً محمداً ، ومسحوا على يده ، وبعد ذلك حضر الإمام الصادق عليه السلام وقال لعبد الله بن الحسن : والله ما هي إليك (أي الخلافة) ولا لابنيك ، وانهما لمقتولان. ثم نهض(١) .

ويمكننا أن نعتبر هذا المؤتمر من أهم الوسائل التي اتخذها العباسيون لإيقاف أي عرقلة تقف في طريق سريان الدعوة من جانب أهل البيت ، وأنصارهم المدفوعين بدافع الولاء ، والانتصار للحق والعدالة ، لأن أهل البيت لهم فضيلة السبق إلى الإيمان ، وقوة التمسك بالدين ، والتضحية في سبيل الله ، وهم أعدل الناس في الحكم وأولاهم برعاية المصالح العامة ، في تطبيق نظام الإسلام .

ولا يعزب عن البال ما حاوله العباسيون أيضاً في زج أبناء علي في ذلك المعترك السياسي ، وهم يعلمون بالخطة التي اختطها الإمام الصادق لنفسه ، ولأبناء عمومته ، من الانعزال عن تلك الاتجاهات والاحتفاظ بمركزهم الديني ، لأن الظروف غير مواتية للثورة ، وكل شيء يقع قبل أوانه فنتيجته الفشل ،

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٤٤ .

ولكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوي بجلب البعض إليهم من بني الحسن في مبايعة محمد بن عبدالله المحض .

والخلاصة : أن الدعوة استمرت في طريقها ، وقام دعاة العباسيين بنشاطهم ، وأظهروا حماساً شديداً في الولايات الإسلامية ، فكانوا يجوبون بلاد خراسان لبثها ، ولا يدعون لشخص معين ، وإنما يذيعون بين الناس أنه لا خلاص لكم إلا إذا ولي أمركم آل البيت .

وهكذا سار كل ما دبره العباسيون بنجاح مدهش، فقد غلب أبو مسلم على خراسان ، واستولى على كورها ، وقامت الحروب هناك ، وتجمعت الجنود يقاتلون ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل الانتصار ، وهم يمتثلون الأوامر من قواد يدعون لخليفة لا يعرفه الناس ، ولم ينفق عليهم مالا ولم يعط أحدهم دابة ، ولا سلاحاً ، بل كانوا هم يجبون إليه الأموال ، ويحملون إليه الخراج في كل سنة ، وهو متستر بعبادته ، وإصلاح شأنه حتى ظهر أمره لمروان فقبض عليه سنة ١٣١ هـ وحبسه بحران ثم قتله ، فخاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من بني العباس ، وقصدوا الكوفة ولهم بها شيعة ودعاة ، وفي طليعتهم أبو سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد ، فأخلى لهم داراً ، وتولى خدمتهم بنفسه ، وكتم أمرهم لأنه أراد صرف الخلافة عنهم لآل علي .

ولكنه غلب على أمره، ووصلت جند أبي مسلم إلى الكوفة وظهر أمر بني العباس ، فأخرجوا السفاح إلى المسجد وبايعوه ولقبوه المهدي ، وخطب في الناس أول يوم من خلافته بخطبة استهلها بالتنويه عن الآمال التي بعثها الدعاة في النفوس بتلك الأساليب الخداعة ، أو الكذب المنظم .

وعلى أي حال : فقد فاز العباسيون واعتلى أبو العباس السفاح عرش الخلافة ، وتم لهم ما أرادوا ، وقد خابت آمال المندفعين بدافع الإيمان الصحيح ، والولاء لأهل البيت في إسناد الحكم إليهم لتحقيق العدل الإسلامي ، والتكافل الاجتماعي ، وتطهير الأرض من آلام الظلم وويلات الحروب ، كما خابت آمال أبي سلمة الخلال في تحويل الأمر لآل علي ، وعدوله عن الدعوة للعباسيين ، وقد احتجزهم بالكوفة مدة من الزمن ، ليكشف رأي العلويين في قبول البيعة لأنفسهم ، ولكنه غلب على أمره ، وانتهى كل شيء ببيعة السفاح .

ومهما تكن البواعث التي دعت أبا سلمة الخلال إلى تحويله عن فكرة الدعوة لبني العباس إلى آل علي ، كما نص عليه كثير من المؤرخين (١)

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٢٤ ، وابن قتيبة ص ١٢٨ ، والطقطقي ص ١٢٧ وغيرهم .

فلا يهمنا البحث عن ذلك ، ولكن المهم هو الرد من قبل الإمام الصادق وعدم إجابته له ، ففي ذلك دلالة واضحة على نظره الصائب وحدسه الثاقب ، وعلمه بما وراء الحوادث . فلم يخدع بتلك المغريات ، فيعرض نفسه وأهل بيته بل المجتمع الإسلامي كله لخطر لا قبل لهم على دفعه .

دعوة الإمام الصادق للخلافة :

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة (١) كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم : جعفر بن محمد الصادق ، وعمر الأشرف بن زين العابدين ، وعبدالله المحض . وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى لرسول الله ﷺ وقال أبو سلمة للرسول : العجل العجل فلا تكونن كوافد عاد، وقال له: اقصد أولا جعفر بن محمد الصادق فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين . وإن لم يجب فالق عبدالله المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالق عمراً .

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولا ، ودفع إليه كتاب أبي سلمة ، فقال الإمام عليه السلام : مالي ولأبي سلمة ؟ وهو شيعة لغيري. فقال له الرجل: إقرأ الكتاب . فقال عليه السلام لخادمه : ادن السراج مني فأدناه . فوضع الكتاب على النار حتى احترق . فقال الرسول : ألا تجيبه ؟ قال عليه السلام : قد رأيت الجواب . عرّف صاحبك بما رأيت .

فخرج الرسول من عنده وأتى عبدالله بن الحسن ، ودفع إليه الكتاب ، وقرأه وابتهج ، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب ، ركب عبدالله حتى أتى منزل أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه ، وقال : يا أبا محمد (كنية عبدالله المحض) أمر ما أتى بك ؟ قال : نعم ، هو أجل من أن يوصف ، فقال له : وما هو يا أبا محمد ؟ قال :

---

(١) أبو سلمة : حفص بن سليمان ، كان مولى بني الحارث بن كعب ، وقد نشأ بالكوفة ، ولعب دوراً هاماً في الدعوة العباسية لما اتصف به من فصاحة وعلم بالأخبار والسير وقوة البديهة وحضور الحجة ؛ وكان ذا ثروة طائلة ينفق من ماله على رجال الدعوة ، وقد اتصل بإبراهيم الامام بواسطة بكر بن ماهان ، أحد أبطال الدعوة المختصين بإبراهيم الامام ، فلما ادركته الوفاة قال لإبراهيم الامام : ان لي صهراً بالكوفة يقال له أبو سلمة الخلال قد جعلته عوضي في القيام بأمر دعوتكم ، فلما مات كتب إبراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بالدعوة ، فقام بها خير قيام وتركزت في الكوفة بجهوده ، وقتله السفاح لعلمه بانحرافه وميله للعلويين بعد أن استوزره مدة .

هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة ، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان ، فقال له أبو عبدالله : يا أبا محمد ، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان وأنت أمرتهم بلبس السواد ، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم ، أو وجهت فيهم ، وهل تعرف منهم أحداً ؟ فنازعه عبدالله بن الحسن الكلام ، إلى أن قال : إنما يريد القوم ابني محمد لأنه مهدي هذه الأمة ، فقال أبو عبدالله جعفر الصادق : ما هو مهدي هذه الأمة ولئن شهر سيفه ليقتلن .

فقال عبدالله : كان هذا الكلام منك لشيء . فقال الصادق : قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل ، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء ، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك(١)

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نكشف كثيراً من الحقائق الناصعة ، فإن امتناع الإمام عن إجابة أبي سلمة دليل قاطع على أن خطته الحكيمة ومنهجه السديد في عدم امتزاجه بذلك المعترك الذي لا يؤمل من ورائه نجاح تلك المهمة ، فهو عليه السلام قد أصاب كبد الحقيقة بتلك النظرة الصائبة والحدس الثاقب وعلمه بما وراء الحوادث ، فقد فشل أبو سلمة فشلا ذريعاً ، في تلك المحاولة التي جاءت متأخرة عن وقتها .

ولقد ابتعد الإمام الصادق عن ذلك المعترك وبذل لأبناء عمه النصح بأن لا يزجوا أنفسهم في ذلك الصراع ، وحذرهم عاقبة الأمر التي لا تعود عليهم إلا بالخيبة ، وقد لقي منهم استنكاراً وربما اتهموه ، ولكنه يرى ما لا يرونه ويعلم ما لا يعلمون . إذ الأمر جاء قبل أوانه ، وهو عليه السلام يرى التريث إلى إعداد العدة وإحكام الأمور حتى يأتي الوقت المناسب .

ولم يكن أبو سلمة وحده يتحول عن رأيه ، في الدعوة لبني العباس ، فقد سبقه أبو مسلم الخراساني لذلك ، فإنه تحول عن رأيه ، وحاول أن يستميل الإمام الصادق في إسناد الحكم إليه . فكتب إلى الإمام الصادق عليه السلام كتاباً يقول فيه :

إني قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٨٤ والآداب السلطانية ص ١٣٧ .

فكتب إليه الإمام عليه السلام : ما أنت من رجالي ، ولا الزمان زماني (١)

وها نحن أولاء نترك تقدير هذا الجواب إلى القارىء النبيه ، ليلمس فيه الحقائق التي تدل على الروح المشبعة بالإيمان ، والشخصية المتعصمة بالفكر الثاقب ، والنظر الدقيق لعواقب الأمور ، ومراعاة المصلحة العامة ، والسير على الخطط المحكمة والآراء السديدة ، في تقدير الظروف ومناسباتها ، فلم يندفع وراء تيار الأقوال البراقة ، ولم يجر في ميدان السياسة عند ما حاول الكثيرون إثارة حفيظته ، وتحريك عواطفه نحو الثورة وإعلان الحرب على أولئك الحكام الذين استشرى داؤهم وعظم خطرهم .

ولقد أراد بعض أصحابه حمله على الخروج وإعلان الثورة لما يعرفونه من كثرة محبيه وأنصاره ، ولكنهم كانوا ينظرون الأمور نظرة سطحية ، فتغلب عليهم سلامة الصدر ، وسرعة التصديق .

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلم عليه وقال له : يا ابن رسول الله لكم الرأفة والرحمة ، وأنتم أهل بيت الإمامة ، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه؟ ! وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف.

ودخل عليه سدير الصيرفي ، فقال : يا أبا عبدالله ما يسعك القعود . فقال عليه السلام : ولم يا سدير ؟ قال لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك . فقال : يا سدير وكم عسى أن يكونوا ؟ قال : مائة ألف . فقال الصادق عليه السلام : مائة ألف ؟ قال نعم (٢) .

فأجابه عليه السلام بما حاصله : أن تلك الكثرة المزعومة ، وذلك العدد الكبير لا يوجد فيهم من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة في نفوسهم إلا نفر قليل ، فلا يمكنه أن يخوض معركة كما يريد سدير وغيره ، مع عدم العدة الكافية من المخلصين الذين يمكنه الركون إليهم والتعويل عليهم . فإن التسرع في مثل تلك الظروف عديم النفع ، وإن انجع وسيلة أن يواصل دعوته لإيجاد التكامل الخلقي ، والتكافل الذي يربط اجزاء المجتمع ، ويصل الأفراد إلى نقطة الإدراك لكيفية الانتفاضة ضد الحكم القائم ، ويحصل وعي عام من جراء أعمال ولاة الأمر ، المخالفة لنظم الإسلام ، فتكون الثورة للعدالة الضائعة ولتحقيق نظم الدين . ولا جدال بأن الإمام الصادق كان يفكر ويقلب وجوه الرأي ، ليجد المدخل الذي يدخل منه لاصلاح ما فسد من أمور المسلمين ،

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٢٤٣ .

ويحاول أن يسلك أقرب الطرق للوصول إلى حل تلك المشاكل ، وإنقاذ المجتمع من براثن الظلم ونير الاستعباد ، عند ما ولي الحكم أناس انحدروا مع شهواتهم انحدار البهائم ، وتناحروا تناحر الوحوش ، وتهافت الناس لاتباعهم كتهافت الفراش على النار ، فلا يمكنه أن يخوض ذلك المعترك المضطرب الهائج ، لأن في ذلك ضياعاً للمصلحة التي يتطلبها الوضع ، وإهداراً للدماء من غير نتيجة مرضية . وهو لا يطلب إلا سعادة المجتمع تحت ظلال الإسلام ، ولقد عاش عليه السلام وهو غير بعيد عن مجتمعه الذي يعيش فيه ، وقد عرف مقدرتهم الحربية وعدم ثباتهم أمام الكوارث ، وقد اتضح للجميع تخاذلهم عن نصرة أهل البيت الثائرين من قبل ، وبهذا فلا يمكنه الركون إليهم والاعتماد عليهم لأنهم لا ينتصر بهم في حرب ، ولا يثبتون في شدة . وأهل الثبات والصدق قلة .

ولم يكن أبو سلمة معروفاً بولائه الصحيح ، وعقيدته الصادقة فيكون محل ثقة الإمام ليستجيب له ، ولو استجاب لكانت العاقبة أدهى وأمر ، كما اتضحت الحالة وظهرت الحقائق .

وصفوة القول إن الإمام الصادق عليه السلام قد اعتزل ذلك المعترك السياسي ، لا عن خضوع وتسليم ، بل كان انعزال ثورة وتصميم ، فقرر أن يدعو إلى الله ، لتوجيه الوعي الإسلامي بالقوة الروحية التي جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا ، وهو أقوى أثراً في اندفاع الإنسان إلى العمل . والشعور بالمسؤولية ، وأن يقوم المصلحون بالدعوة الصامتة ، فهي أنجح الوسائل في التبليغ ، وأقرب الطرق لهداية الناس .

إذاً ما هي الدعوة الصامتة ؟ ..



الإمام الصادق
الدعوة الصامتة



قال الإمام الصادق لأصحابه :
(أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه ،
وأداء الأمانة لمن ائتمنكم ، وحسن الصحابة
لمن صحبتموه ، وان تكونوا لنا دعاة صامتين)

موقف الإمام الصادق واتجاهه للاصلاح :

تقدمت الإشارة في الأبحاث السابقة عن موقف الإمام الصادق وسط ذلك المعترك السياسي المائج بالفتن والهائج بالأهواء، فلم يساهم عليه السلام في تلك الحوادث أو يمد أنملة للاشتراك فيها ، لعلمه بعواقب الأمر وأن الدعاة لهم أهداف وغايات . فاختط لنفسه ولأهل بيته خطة الاعتزال عن تلك التيارات والأعاصير السياسية ، واتجه إلى الاحتفاظ بمركزه العلمي ، لأداء رسالة الإسلام على أكمل وجه ، فذلك وحده كفيل بسعادة المجتمع . فابتعد عن المغامرة رغم إلحاح الكثيرين ممن ينظرون إلى الأمور نظراً سطحياً ، ولا يعلمون بعواقب الأمور . فهم يظنون أن الزمن قد حان لإقامة حكومة عادلة تسير على نظام الإسلام وقوانينه ، وهو المؤهل لتلك المنزلة لأنه زعيم أهل البيت وسيدهم ، وله المكانة المرموقة في المجتمع بشخصيته الفذة ، التي كانت تزعج الفئة الحاكمة ، وتثير كل مخاوفها ، الأمر الذي جعل الكثير من الناس يرمقونه بعين الإكبار ، ويعدونه الرجل المنقذ الذي تتحقق بشخصه آمالهم بالقضاء على ذلك الحكم الذي أذاق الناس أنواع المحن والظلم .

فكان عليه السلام على جانب كبير من رصانة التفكير ، وبُعد النظر في العواقب ، وخبرة فائقة بأحوال الناس ونزعاتهم وميولهم ، وعلماً بالظروف ومقتضيات الزمن ، فلم يستجب لتلك المحاولات ، ولم يتحول عن منهجه فيغامر بنفسه وبأهل بيته مغامرة عقيمة النتائج ، تعود على المجتمع بأخطار جسيمة ؛ لذلك كان ينهى أبناء عمه عن القيام بكل نشاط ثوري ، لثقته بفشل كل محاولة في ذلك الوقت . فلم يتجاوز في نشاطه الحد الذي يهدم جهوده التعليمية ، أو يحول دون متابعة دعوته الإصلاحية ، ولو أنه أجاب أبا سلمة أو أبا مسلم لما ندباه إليه كما تقدم ، لكان عرضةً لتلك الأخطار التي حلت

بغيره ممن عرف بنشاطه الثوري. فكان لتلك الأحداث أثر سيىء في نفوس الناس.

ولا بد لداعي الإصلاح من أنصار ينصهرون بمبادىء الدعوة وأهدافها يشاركونه بذلك الشعور عن نية صادقة وعزيمة ثابتة ، لينتصر بهم ويركن إليهم ، ويكونوا أعواناً مخلصين يأمنهم في كل خطوة يخطوها بطريق الإصلاح . وكم من إنسان يأمل النصر من أناس ، ولكنهم يخذلونه عند حاجته إلى النصر ، لعدم اختباره لهم وعدم علمه بأحوالهم ، لذلك كان من الحزم تحسس ذلك النوع من الأنصار كما فعل الإمام الصادق ، ويظهر أثره في جوابه لأبي مسلم(١) بقوله : ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني . وكذلك قوله لرسول أبي سلمة : ما أنا ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري ، فلا يمكنه القيام بثورة دموية وقد عرف عواقبها واتضح للجميع نتائج القيام بها مع علمه بذلك المجتمع الذي أنهكت قواه الحروب المتتالية والثورات المتتابعة .

وقد وجد عليه السلام أن الأمر يدعو إلى الحزم والتريث ، وأن يتحين الفرص المؤاتية إذ القيام بأمر في غير أوانه لا بد وأن يفشل وينهار ، فصمم على الاحتفاظ بالاتجاه العلمي ، والوقوف موقف المصلح المتسلح بالإيمان بالله ، وأن يتحمل الأذى في خدمة الأمة ، موجهاً عنايته لتوجيه الناس إلى الدين ، ونشر تعاليمه ، وبعث الوعي الإسلامي بالقوة الروحية ، التي هي أقوى العوامل لتوجيه الإسلام نحو الخير ، وقد جعلها الإسلام هي الأساس الوحيد للحياة الدنيا ، لأن المجتمع الإسلامي حسب تعاليمه ونظمه لا يقوم إلا على الإيمان بالله بعقيدة راسخة ، ومنه تنبعث القوة الروحية ، لأداء الواجب والشعور

---

(١) أبو مسلم الخراساني : هو عبد الرحمن بن مسلم . اتصل بإبراهيم الامام وهو غلام ، فنشأ في خدمته وتربى في نعمته ، وكان ذكياً فطناً قوي النفس ، فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعياً للدولة وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وقال لهم : انه منا أهل البيت ، فكان يسمى أمين آل رسول الله وقام بدوره في الدعوة حتى اظهرها سنة ١٢٩ هـ وكان شديد البطش سفاكاً للدماء حتى أحصي من قتلهم في أيامه فكانوا ستمائة الف .

ذكر ابن عساكر أن رجلا قام لابي مسلم وهو يخطب ، فقال له : ما هذا السواد الذي عليك ؟ قال : حدثني أبو الزبير عن جابر أن رسول الله دخل مكة وعليه عمامة سوداء ، يا غلام اضرب عنقه فضربت عنق الرجل السائل .

وقد استقل أبو مسلم بالحكم والناس له تبع حتى قال بعضهم بامامته ، ولما خشي المنصور من بطشه احتال عليه فقتله سنة ١٣٧ هـ فلم تصدق طائفة من تابعيه بموته ، وقالوا انه حي ، وذهبت أخرى إلى التصديق بموته ، وقالوا بامامة ابنه من بعده . وان التاريخ حافل بأخباره وسيرته من بطش وفتك وتقلب في الرأي وفساد في العقيدة .

سأل بعضهم عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم : أهو خير ام الحجاج ؟ فقال : لا أقول أن ابا مسلم خير من احد ولكن الحجاج شر منه .

بالمسؤولية والتضامن بين الأفراد والتكافل الاجتماعي ، وبذلك يسعد المجتمع وينعم أفراده .

فكان الإمام الصادق عليه السلام خير داعية للاصلاح لما اتصف به من صدق القول ومثابرة العمل ، ولم يقعد به عن ذلك ما لقيه من الأذى وما نزل به من مصائب ، فلم تهن عزيمته ولم تفتر همته ، بل ثبت في نشر دعوته ، وواصل أداء رسالته بالدعوة إلى العمل الصالح وهو دليل رسوخ العقيدة والإيمان بالله . وكلما ازداد الإيمان بالله ازداد العمل الصالح ، وبذلك تهون المخاطر التي تحوط دعوة المصلح وتهددها ، ويكسبها قوة الصمود ، واجتياز العراقيل والعقبات .

وكيف ينجو المصلح من مجابهة الشدائد ؟ ومهمته أن يحول بين نفوس الناس وشهواتها ، ويباعد بينها وبين ما ألفته من العادات ، فمن العسير أن يخلعوا أنفسهم مما هم فيه وأن يمدوا أعناقهم للحق الذي ابتعدوا عنه .

والمصلح يحتاج إلى ثبات فلا يتسرب اليأس إلى نفسه ، ولا تهن عزيمته عندما يصطدم بعقبة تعترض سبيل دعوته . ولا يحصل ذلك الثبات إلا بقوة الإيمان بالله . وهناك يستطيع أن يوجد أمة تصرخ بوجه الطغاة الذين استبدوا بالحكم ، وظلموا العباد وخربوا البلاد (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) . فالذين آمنوا بالله حق الإيمان يجاهدون في الله حق جهاده ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم .

أسس الدعوة إلى الاصلاح :

اتجه عليه السلام منذ تفرده بالزعامة واستقلاله بمهمة الإمامة إلى الدعوة لله ، وقد ألزم دعاة الخير وقادة الصلاح بأن يدعوا الناس بأعمالهم قبل الدعوة لهم بأقوالهم ، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا أعمال من يدعونهم إلى الخير ، فإن رأوا منهم العمل بما يدعونهم إليه والوقوف عند حدوده اتبعوهم ، وإن رأوا عملهم يخالف قولهم نبذوهم . ولذلك قالوا : إن تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول .

وان أمثل قاعدة يسترشد بها في اصطفاء من يتخذه الناس زعيماً لهم وقدوة هي أعماله ، فهي التي تجعله أهلا لأن يسلم إليه الناس قيادهم ، ويأتمنوه على عقولهم يثقفها ويغذيها ، و على أخلاقهم يقومها ويزكيها ، وإن أثر الحكمة

الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ أو الدعاة إلى الخير ليس بأكثر منها وهي مسطورة في الكتب ، أو منقوشة في الجدار ، إذ الأقوال الخالية عن العمل من قبل قائلها تدعو الناس إلى عدم الاعتداد بها ؛ لأنهم لا يرون أثراً منها على من يأمر بامتثالها . فلهم الحق إذا نفروا عنه . وكان ذلك من جملة العوامل التي دعت الإمام إلى تقرير القيام بالدعوة الصامتة كما جاء في وصيته لأصحابه بقوله : « أوصيكم بتقوى الله وأداء الأمانة لمن ائتمنكم ، وحسن الصحابة لمن صحبتموه وأن تكونوا لنا دعاة صامتين » .

فوقع هذا القول عندهم موقع الاستغراب. أجل، كيف يكون الداعي للخير صامتاً ؟ وكيف يقومون بهذه المهمة وهم لا يتكلمون ؟ فطلبوا منه إيضاح الأمر وإزالة الاشتباه ليزول الاستغراب فقالوا : يا ابن رسول الله وكيف ندعو ونحن صامتون ؟

قال عليه السلام : تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله ، وتعاملون الناس بالصدق والعدل ، وتؤدون الأمانة ، وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، ولا يطلع الناس منكم إلا على خير ، فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا إليه . وبذلك أراد أن تكون الواسطة بينه وبين المجتمع تعكس واقع تعاليمه ، وتحبذ منهجه ومبادئه ، فركز على أن ينهج أصحابه منهج العمل الصحيح والقول الصادق .

ولم يزل يكرر هذه القاعدة ويلزم أصحابه بالالتزام بها ، ويحثهم على العمل بما أمرهم به ، وقد ورد عنه كثير من الأقوال بهذا المضمون .

قال أبو أسامة : سمعت أبا عبدالله الصادق يقول : عليكم بتقوى الله والورع والاجتهاد ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، وكونوا دعاة لأنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً ، ولا تكونوا شيناً .

وقال ابن أبي يعفور : سمعت الصادق يقول : كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم . ليروا منكم الاجتهاد ، والصدق ، والورع .

فالإمام الصادق عليه السلام كان يحاول أن تكون الدعوة أساسها العمل الصالح والخلق الطيب ، فهي أنجع وسيلة لخوض معركة صامتة ، تكافح المظالم بكافة أنواعها ، وتقف إلى جنب المظلومين ، ليظهر بذلك خطأ أولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة وترأسوا على المسلمين ، وقد انحرفوا كل الانحراف عن مبادىء الإسلام وتعاليمه .

فالمسلم الذي يتحلى بصفات الإسلام لا يمكنه النفاق ولا المسايرة لذلك الركب المنحرف عن طريق الحق والرشاد .

نعم إنه ﷺ يرى أن الدعوة الإصلاحية بالأقوال والمواعظ الخلقية والاجتماعية لا يتحقق أثرها إلا إذا كانت الأعمال مظاهر لها ، وأن الاتصاف بتقوى الله واجتناب معاصيه ، ومعاملة الناس بعاطفة نبيلة وخلق رفيع ، وأداء الأمانة وحسن الصحبة والجوار ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكل صفة من صفات الخير والصلاح كما جاء في وصيته ، بجدير بأن يكون صاحبها مقبولا قوله مؤثراً بدعوته ، لأنه يملك مشاعر أبناء جنسه ، فهم يحبونه ويخلصون له بالمودة ، وناهيك بما وراء الحب من أثر في تغيير الطباع لاتباع المحبوب .

وقد قرر علماء الاجتماع : أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلا إذا أفعمت القلوب حباً للمصلح وطاعة لأوامره .

وإن الاتصاف بالأخلاق الفاضلة والانتصار على النفس ما هو إلا خطوة نحو الثورة الشاملة لجلب قلوب الناس ، لمن اتصف بتلك الصفات ، وإن المرء إذا استطاع ضبط نفسه وتنظيمها لجدير بأن تنقاد الناس إلى دعوته .

مهمة الداعي :

إن مهمة الداعي إلى الله مهمة عظيمة وعليه مسؤولية كبرى ، ولا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة من ترمي بهم المصادفات ، لأنه ليس كل فرد صالحاً لهذا العمل الشاق ، ولا كل فرد قادراً على تحمل أعبائه ، فالداعي يجب أن تتوفر فيه صفات عقلية وأخلاقية تخوله أداء واجبه على الوجه المطلوب ، إذاً فلا بد لمن يقوم بالنصح أن يتصف بالصبر ومحامده ، ويتحمل الأذى وشدائده ، فلا يبالي بما يلاقيه من أذى في سبيل أداء رسالته ونشر عقيدته ، وأن تكون له برسول الله أسوة حسنة وكل هذا إنما يتفرع عن الإيمان بالله والعمل بطاعته .

وقد تضمنت فقرات تلك الوصية المتضمنة لهذه القاعدة الإصلاحية (الدعوة الصامتة) كل نواحي الخير في الإنسان الدالة على كماله النفساني وهي ثلاثة :

١ ــ الناحية الاعتقادية التي تكمن وراءها القوة الروحية ، وعليها تبتني صحة أعماله ، وهي تتمثل في إدراكه بصلته بالله ، وامتثال أوامره ، وتلك القوة هي أعظم أثراً في قيام الإنسان بالعمل. وهذا الإدراك العقلي ، أو الشعور

الوجداني بصلة الإنسان بالله يجعل الإنسان مدفوعاً إلى العمل بطاعته .

٢ ـ ناحية خلقه الفردي وتهذيب نفسه بالأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة ، لأن بناء المجتمع الصالح إنما هو بصلاح أفراده ، وإعدادهم لأن يكونوا أعضاء صالحين ، وتزويد كل فرد منهم بما يجب عليه للأسرة وللمجتمع فإذا صلح الفرد وتهذبت الأسرة صلحت الأمة ، واتجهت لسبيل الصلاح .

٣ ـ الناحية الاجتماعية التي تنشأ عن مخالطة الناس ومعاشرته لهم من حسن الصحبة ، وحسن الجوار ، وأداء الأمانة وغيرها ، فإذا كملت في الشخص هذه النواحي الثلاثة ، كان هو الإنسان الذي يصلح لأن يدعو إلى الخير وسواء السبيل . وعلى هذا فليست العبرة بالصلاح هي المظاهر التي يكون مرجعها القلب ، وما قد نواه في ذلك ، ولكل امرء ما نوى ، فربما يكون الداعي مظهراً للدعوى بطول السجود وكثرة التسبيح ، ولكن باطنه غير ظاهره ، بل العبرة بالاستقامة ظاهراً وباطناً ، وإتيان الأعمال الصالحة التي تنبعث عن النية الصادقة والإيمان ، بما يعود على المجتمع بالسعادة في حسن المعاملة مع الناس ولذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام :

لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإن ذلك ربما يكون شيء قد اعتاده ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء الأمانة .

والغرض أنه عليه السلام كان حريصاً على توجيه الأمة توجيهاً صحيحاً لتسير إلى المثل الأعلى في الحياة ، وأن تسعى ما أمكنها السعي إلى تطبيق نظم الإسلام وتعاليمه . ففي ذلك صلاح المجتمع وسعادته ، وأي إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس إلى المحبة والتعاون والأخوة الصادقة .

الإسلام هو دين الله الذي أنزله رحمة بالإنسانية المعذبة ، فهو دين شامل بتعاليمه يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الظلم والفحشاء ، ويجعل المجتمع كنفس واحدة ، لأنه يبعث في نفس كل فرد شعوراً يلزمه احترام جميع الأفراد ، كما يشعر بأضرار أبناء جنسه وآلامهم ، كشعوره بأضرار نفسه وآلامها ، ويحس بمنافع أبناء مجتمعه كإحساسه بمنافع نفسه ، طبقاً للتعاليم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ومنها : « حب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك »

ويقول الإمام الصادق : « المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ذلك في سائر جسده ، إن المؤمن أخو المؤمن هو عينه ودليله ، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه » .

الإسلام يتناول الحياة كلها بجميع ما تشتمل عليه من تنظيم ، وهو يرسم

للبشر صورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم في هذه الأرض .

الإسلام يتناول الإنسان فرداً في جميع أحواله يوجهه ويهذبه ، ويتناوله وهو يعيش في مجتمعه مع غيره من الأفراد ، فأعطى للمجتمع دروساً يبين له كيف تكون الصلات بين أفزاده ، وكيف تكون العلاقات وتنشأ المودة والإخاء والحب والتكافل والتعاون ، ولو نفذ المسلمون دستور دينهم ، وساروا على منهاجه وتعاليمه ، لكانوا المثل الأعلى للانسانية الراقية ، ولسادوا العالم بأسره ولأصبح كل فرد منهم مثالا للفضيلة ورمزاً للكمال .

شخصية الداعي :

وصفوة القول إنه ﷺ اتجه إلى الإصلاح بالدعوة للعمل الصالح ، لأن العمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلمهم بعضهم بعضاً ، وهو أعظم حاجز بينهم وبين الشرور ، ومن شأنه أن يهذب النفوس ويطهرها من الخبث ، لأنه يربط الإنسان بربه بصلة الإيمان به ، فهو يخشاه في سره وعلانيته، ومن كان كذلك فلا يخشى ضرره ، ولا يقع منه ظلم ، ولا يصبح أسير شهواته ، وصريع أهوائه ، ومن كان يدعو الناس إلى دعوة هذا أساسها ، فجدير به أن يتحمل الأذى ويصبر على ما يلاقيه من أعداء الحق وأنصار الباطل ، فلا يهون لشدة ، ولا يضعف لاضطهاد ، بل يقابلها بالحزم والعزم ، وبقلب لا يعرف الضعف إليه سبيلا ، ولا يجد الخوف من الناس فيه مكاناً .

فلقد كان ﷺ قوياً في دينه لا يهن لشدة ، ولا يضعف عند النكبة ، بل يتلقى كل ذلك بقلب لا يتسرب إليه الضعف ، وفؤاد لا يتزلزل عند النوازل ، وهو قوي الثقة بربه وخالقه ، كثير الرجوع إليه في حاجاته ومهماته ، يلجأ إليه في كل شدة ، وينتصر به على أعدائه ، ويرد بالالتجاء إليه كيدهم ، وما يريدونه به من سوء وما يدبرون له من مكائد .

ولقد مرت عليه أيام مختلفة تبدلت فيها سياسات ، وتقلبت فيها أمور ، وشاهد أنواعاً من الحكم وكانت الأيام تبسم له مرة وتعبس أخرى ، ويقسو عليه الحكم تارة ، ويلين تارة أخرى ، وهو يتحمل الأذى ويصبر على المحن ، وكيف لا يكون كذلك وهو يحمل رسالة الإصلاح وأعظم مصلح عرفه التأريخ في عصره وبعد عصره . كان هدفه تقويم المعوج وإرشاد الضال وتوجيه الشاذ ، ليسير بالقافلة في طريق الخير مرحلة إثر مرحلة ، ولا تحول دونه.

ودون عزيمته المخاطر والأهوال ، ولا يخشى انفجار مشاعر أعدائه المكبوتة . وغيظهم المتوقد ، وقد مر غير مرة محاولة أعدائه للفتك به ، والقضاء عليه ، وترويج التهم حوله ، ولكن الله عصمه ورد كيدهم عنه ، ولما حل قضاؤه ولا راد لقضائه نفذ ما أرادوه ، وتم ما حاولوه من المكيدة . فمضى بعد أن ترك للأجيال دروساً وعبراً لم تكن مقصورة على أتباعه فحسب ، بل كانت عامة لجميع الأمة .

ملاحظات حول دعوته الاصلاحية :

١ — إن قوله عليه السلام : كونوا دعاة صامتين . لم يكن المقصود منه كون الداعي للعمل الصالح صامتاً مطلقاً ، لأن ذلك ينافي قوله عليه السلام : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكونان مع الصمت ، ولكن المقصود بأن يكون القول مقروناً بالعمل ، إذ هو بدونه لغو كما تقدم بيانه ، فجعل عليه السلام الدعوة بالعمل الصالح قبل الدعوة بالقول .

٢ — إنه كان يأمر بالإقدام في النصح ، وأن لا يحول بين الداعي وبين نشر دعوته خوف ظالم ؛ لأن الأمر بالمعروف من أهم فروض الإسلام وأكبر واجباته ، إذ هو أساس نشر الحق ، وإعلان المبادىء السامية . فيقول في الحث عليه : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلا ولم يبعدا رزقاً . ويقول : ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣ — يتجلى لنا أن هذه الدعوة قد وقفت في طريقها عقبات وحواجز ، لأن في انتشارها انتشار لمبادىء الإسلام ونظمه وتعاليمه ، ولم يبق من وراء ذلك لظالم طمع بالحكم ، ولا لمعادي الإسلام من وسيلة يحاربه بها انتصاراً لمبادئه ، لذلك فقد أحست العناصر المعادية للاسلام بخطر هذه الدعوة ، وإنها بدون شك ستقضي على مآربهم التي من أجلها اندسوا في صفوف المسلمين ، وبدون شك انها تهدم آمالهم المعقودة على ذلك التدخل ، من إثارة الفتنة وتشويه محاسن الإسلام ، عندما يغيرون الحقائق ويقلبون الأوضاع ، ولهذا أطلقوا دعاتهم ضد تحقيق هذه الدعوة الإصلاحية ، فانتحلوا لأنفسهم حب أهل البيت وأظهروا ولاءهم للامام الصادق ، الذي انفرد بزعامة ذلك البيت الطاهر . وقد تبرأ منهم وأمر بهجرهم . لأن تلك الفئة المعادية للاسلام انطلقت بكل

قوة ، فاستغلت جهالة العامة ممن لم تساعدهم ظروفهم على الاتصال بأهل البيت ، فصدقوا بما ادعاه أولئك المندسين بصفوف الأمة من الغلو في أهل البيت .

٤ ـ إن الناس في مقابلة الدعوة الإصلاحية ثلاثة طوائف . فطائفة تتقبل الدعوة وتناصرها ظاهراً وباطناً ويضحون في سبيل مناصرتها ، وهم ذوي العقول الراجحة الذين لم تستطع العاطفة أن تسيطر على عقولهم ، بل غايتهم اتباع الحق والحق أحق أن يتبع .

وطائفة أخرى تعادي تلك الدعوة ظاهراً وباطناً ، مع اتضاح صدق الداعي وظهور حجته ، ووضوح برهانه ، وهم المعاندون ، والمعاند لا يقنع بشيء ، لأنه لا يطلب حقاً ولا يحيد عن باطل ، وإنما هو متعنت يخالف الواقع ، ويبعد عن سنن الطريق لخبث في نفسه وفساد في طويته .

وطائفة ثالثة تعادي في الباطن وتناصر في الظاهر وهم المنافقون (١) وهؤلاء أشد ضرراً على الدعوى من الفئة الثانية ، وهم المعادون لها ظاهراً وباطناً ، لأنهم شاركوهم بتلك الصفات الخبيثة ، وقد امتازوا عليهم بالجبن والخور وضعف القلب ، فلا يستطيعون أن يصارحوا المصلح بأنهم أعداء له ، إذ ليست لهم قابلية للقيام بالجرأة الأدبية ، ولا تسمح نفوسهم بأن يظهروا بالمظهر الواقعي ، ويتقبلوا تلك الدعوة بقبول حسن عندما يصطدمون بالواقع ، لخبث نفوسهم وفساد نيتهم .

٥ ـ نظراً لأهمية هذا الموضوع وما يتعلق به ، فإن المجال لا يتسع للاحاطة بجميع أطراف البحث ، وإن للامام الصادق أقوالا كثيرة ومواقف متعددة حول الدعوة بالعمل الصالح ، فلذلك اخترنا الوقوف عند هذا الحد من البحث حول الدعوة الصامتة التي قام بها عليه السلام في عصر انطلاق الفكر ، وازدهار العلم ، وهو رئيس أعظم مدرسة إسلامية ، وزعيم تلك الحركة العلمية ، وكان خير قدوة صالحة في العلم والعمل الصالح ، لا يفتر عن تعليم الناس وتوجيههم إلى الخير والفضيلة ، كما لا يفتر عن عبادة الله والعمل بطاعته ويخشاه في سره وعلنه .

---

(١) المنافق مشتق من النافقاء ، وهو جحر الضبأ ، فالمنافق هو مثل ذلك الحيوان الخبيث يعمل له جحراً في الأرض يسمى النافقاء ، له بابان إذا اراد أن يدخل إليه من احد البابين لوح له بذنبه انه مقبل عليه ليطمعه ، ثم يخرج من الباب الآخر ، أو هو إحدى حجرة اليربوع الذي يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس ، فإذا ذهبوا إليها إذا به قد أعد جحراً آخر قد أخفاها عن الناس .

وقد أشرنا سابقاً إلى موقفه تجاه حكام الجور ومقاطعته لهم ، وقد أمر الناس بالابتعاد عنهم ، كما أبعد عنه المتقرب منهم إليه ، وحرم الولاية لهم ؛ لأنه عليه السلام يرى أن ولاية الجائر دروس الحق كله وإحياء الباطل كله .

وكان يحرم معاونتهم حتى في بناء المساجد ، لأنهم لا يملكون هذه الأموال فلا يقبل منهم العمل فيها حتى في وجوه الخير ، والإمام عليه السلام يهدف بهذه المقاطعة وعدم التعاون مع حكام الجور ، الذين ادعوا الخلافة الإسلامية ، أن يضيق دائرة نفوذهم ، ويوقظ الناس من غفلة اتباع أناس لا يليق بهم هذا المنصب ؛ لأن المقاطعة لحكام الجور ترغمهم على الاعتدال ، أو التخلي عن الحكم بدون إراقة دماء ، وقد أمر الله تعالى بقوله : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » .

فكانت مهمة الإمام الصادق عليه السلام تطبيق هذا الأمر ، لأنه أنجع وسيلة تنتصر بها الأمم على حكام الجور ، الذين يسيرون بغير صواب ويحكمون بغير العدل .

* * *

الإمَام الصَّادق

انطباعَات عَن شخصيَّته



تمهيد :

للامام الصادق شخصية قوية ، ومكانة مرموقة ، ومركز ملحوظ عند سائر الطوائف وجميع الفرق . شخصية أقر لها العدو بالفضل . شخصية هي مثال للصفات الكاملة والمزايا الحميدة ، فهو الصادق في لهجته ، والمنزه عما لا يليق بمنزلته ، وهو زعيم أهل البيت وسيدهم في عصره .

لقب بالصادق لأنه عرف بصدق الحديث حتى أصبح مضرب المثل في عصره وبعد عصره. قال ابن الحجاج وهو الشاعر المشهور :

يا سيداً أروي أحاديثه رواية المستبصر الحاذق
كأنني أروي حديث النبي محمد عن جعفر الصادق

لقد كان عليه السلام مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط ، وإنما بقي منها حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهداً ، ويكسب العلماء علماً .

لقد كانت له هيبة يخضع لها جليسه ، وصدق لهجة يطمئن اليه من يحدثه ، وحسن بيان ينفذ إلى قلوب سامعيه ، وقد أعطي من قوة البيان ووضوح الحجة ما جعل المعاندين يصغون لحسن بيانه ، ويخضعون لبرهانه .

وكان من السابقين بالخيرات رغبة بما وعد الله ، ومن دعاة الخير الذين لا يدخرون نصحاً عن المسلمين ، حتى انطبع في قلوب معاصريه من العلماء تعظيمه وتبجيله . فكانوا يقصدونه من كل الأطراف لاستماع مواعظه والاستفادة من علومه ، وكان مجلسه مكتظاً بوجوه الناس من أطراف البلاد النائية ، يغتنمون فرصة الاتصال به والانتهال من نمير تعاليمه ، ويطلبون المزيد من وصاياه وحكمه النافعة .

انطباعات سفيان الثوري :

قال سفيان الثوري : دخلت على الصادق فقلت له : أوصني بوصية أحفظها من بعدك . قال : وتحفظ يا سفيان ؟ قلت : أجل يا ابن رسول الله . قال : يا سفيان لا مروة لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا أخاً لملول ، ولا سؤدد لسيىء الخلق ، ثم أمسك . فقلت : يا ابن رسول الله زدني . فقال :

يا سفيان ثق بالله تكن عارفاً مؤمناً ، وارض بما قسمه لك تكن غنياً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وصاحب بمثل ما يصاحبونك به تزدد إيماناً ، ولا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله . قال سفيان : ثم أمسك الإمام فقلت: يا ابن رسول الله زدني. فقال : يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، وهيبة بلا سلطان ، فلينتقل من ذل معاصي الله إلى عز طاعته . ثم أمسك . فقلت : يا ابن رسول الله زدني .

فقال : يا سفيان أدبني أبي بثلاث ونهاني عن ثلاث ، فأما اللواتي أدبني بهن فإنه قال لي : يا بني من يصحب صاحب السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم ، ومن يدخل مداخل السوء يتهم . قلت : يا ابن رسول الله فما الثلاث اللواتي نهاك عنهن ؟

قال : نهاني أن لا أصاحب حاسد نعمة ، وشامتاً بمصيبة ، وحامل نميمة ثم أنشد :

عود لسانك قول الخير تحظ به إن اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت لـه في الخير والشر فانظر كيف تعتاد

ودخل عليه مرة أخرى يطلب المزيد من تعاليمه ووصاياه فقال عليه السلام : يا سفيان الوقوف عند كل شبهة خير من الاقتحام في الهلكة ، وترك حديث لم تروه أفضل من روايتك حديثاً لم تحصه ، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً ، ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فدعوه .

وقال نصر بن كثير : دخلت أنا وسفيان الثوري على جعفر بن محمد الصادق فقلت له : يا ابن رسول الله إني أريد البيت فعلمني شيئاً أدعو به ، فقال عليه السلام : إذا بلغت البيت فضع يدك على الحائط ثم قل : يا سابق الفوت ، يا سامع الصوت ، يا كاسي العظام لحماً بعد الموت ، ثم ادع بما شئت. فقال له سفيان شيئاً لم أفهمه .

فالتفت إليه عليه السلام فقال : يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله ، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار .

ودخل عليه حفص بن غياث ، وهو أحد أعلام عصره ، والمحدثين في وقته ، فطلب منه أن يوصيه وصية ينتفع بها فقال عليه السلام : إن قدرتم أن لا تعرفوا فافعلوا ، وما عليك إن لم يثن الناس عليك . إلى أن قال : إن قدرت

أن لا تخرج من بيتك فافعل فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب ، ولا تكذب ولا تحسد ، ولا ترائي ، ولا تداهن .

والغرض أنه كان وحيد زمانه لا يلحق أثره ولا يبلغ شأوه ، وهو المصلح الذي عرف الناس عنه حبه للاصلاح وبذله النصح لعباد الله ، لذلك قصده رجال العلم من علماء عصره من الأقطار النائية ، للانتفاع بمواعظه وحكمه ، وقد كان أبو حنيفة يغتنم الحضور عنده والاستماع منه ، عند ما دخل الإمام الكوفة ، كما نصت على ذلك كتب مناقب أبي حنيفة وأخباره ، وكذلك حضر عنده في المدينة سنتين ، حتى اشتهر عنه قوله : لولا السنتان لهلك النعمان .

وكان مالك بن أنس يحضر عند الإمام الصادق ، ويتأدب بآدابه، ويهتدي بهديه ، فكانت له انطباعات في نفسه يحدثنا عنها بقوله : ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً .

انطباعات زيد بن عليّ :

قال زيد بن علي : في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه (١) .

هذا قول رجل من سادات بني هاشم ، وعلم من أعلام الأمة وفقيه من فقهاء الإسلام ، وبطل من أبطال الثورة على الظلم ، ومن أباة الضيم ، إنه يكشف عن منزلة الإمام في نفسه ، واعتقاده فيه ، وهو معاصره ، وأكبر منه سناً ، وكذلك يكشف للناس ويبين لهم منزلة الإمام الصادق ، فهو يرى أنه حجة الله في ذلك الزمان ، وأن الهداية في اتباعه والضلال في خلافه ، وأن الله لا يحتج إلا بمن بلغ درجة الكمال النفساني ، وارتقى أعلى منزلة من طاعة الله وامتثال أوامره ، فابتعد عن الدنيا وزينتها ، وصدف عن زخارفها ، وأخلص لله فاستخلصه وطهره من دنس العيوب وكدر الذنوب .

---

(١) المناقب لابن شهراشوب ج ٢ ص ١٤٧ .

انطباعات مالك بن أنس :

ويقول مالك بن أنس : اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال : إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن ، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله إلا على طهارة ، ولا يتكلم بما لا يعنيه ، وكان من العلماء العباد والزهاد الذين يخشون الله (١) .

هذه شهادة مالك وانطباعاته عن شخصية الإمام ، ومالك هو رئيس مذهب من مذاهب الإسلام المعمول بها حتى الآن ، وكان معاصراً للامام الصادق ومن تلامذته. والذي يعنينا من هذه الكلمة قوله : إنه كان من العلماء العباد والزهاد ، الذين يخشون الله . فالعلم وحده غير نافع بدون عمل ، فالإمام الصادق عالم عامل زاهد في الدنيا يخشى الله ويتبع أوامره ، وإنما يخشى الله من عباده العلماء ، ولم يمنعه زهده وتبتله عن الكسب وطلب المعاش من وجوهه المشروعة مع الإجمال في الطلب والاعتدال في الإنفاق وأداء الحقوق ، كما أنه ينهى عن الكسل والبطالة ، ويمقت صاحبها ويفضل رجل العمل ويشجعه عليه . كما دلت سيرته على ذلك .

فالإمام مالك يكشف لنا انطباعاته عن الإمام الصادق ، وما عرفه عنه وما اعتقده فيه، بأنه لا ينفك عن عبادة الله وتلاوة كتابه ، ولا يتكلم بما لا يعنيه ، وكان من العلماء العباد والزهاد الذين يخشون الله ، وناهيك بما وراء الخشية من الله والعمل بطاعته ، فهي أعظم درجة وأرفى منزلة لدعاة الخير وأئمة الهدى ، وهو فرع من الشجرة النبوية التي طاب غرسها وزكى ثمرها ، قد التقى فيه شرف النسب وشرف النفس ، وعزة الايمان وقوة الحق ، وهو من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيراً . نعم إنه من السابقين إلى الخير والداعين إليه رغبة بما وعد الله ، فهو لم يألُ جهداً في التوجيه الصحيح ، وحرصه على هداية الأمة إلى سواء السبيل .

انطباعات أبي حنيفة :

وقد كشف لنا أبو حنيفة قبله انطباعاته عن الإمام الصادق ، وما عرفه عنه وأنه ما رأى أفقه منه بقوله :

---

(١) مالك بن أنس ، للخولي ص ٩٤ — وكتاب مالك لمحمد أبو زهرة ص ٢٨ نقلاً عن المدارك للقاضي عياض ص ٢١٢ .

ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيىء له من المسائل الشداد . فهيأت له أربعين مسألة ثم بعث إليّ أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة ، فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور ، فسلمت وأومأ فجلست ، ثم التفت إليه قائلا : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة. فقال عليه السلام: نعم أعرفه. ثم التفت المنصور فقال : يا أبا حنيفة الق على أبي عبدالله مسائلك . فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول : أنتم تقولون كذا وهم يقولون كذا ونحن نقول كذا ، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا حتى أتيت على الأربعين مسألة ، ما أخل منها مسألة واحدة ، ثم قال أبو حنيفة : أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (١) .

وهذه القضية تكشف لنا انطباعات أبي حنيفة عن الإمام الصادق ، وما عرفه عنه ، وأنه ما رأى أفقه منه ، وهو أعلم الناس لعلمه باختلاف الناس ، ونحن نستظهر من هذه القضية ثلاثة أمور :

١ ـ اهتمام المنصور بشأن الإمام الصادق ، لأن الناس افتتنوا به على حد تعبيره ، عندما اشتهر ذكره ، حتى سارت به الركبان ، والمنصور يعد هذا خطراً على دولته ، لأنه لا يريد أن يلتف الناس حول الإمام الصادق ، فذلك يثير مخاوفه منه ويجعله حذراً ، ولا يروق له تعلقهم بالإمام الصادق ، وانتشار علمه الذي سارت به الركبان ، كما تنبيء عنه معاملته معه وتشدده عليه ، وترقبه فرصة الفتك به والقضاء عليه .

٢ ـ وصف أبي حنيفة لهيبة الإمام ، وما داخله منها عند رؤيته له ، وهو لا سلطان له ولكنها هيبة منحه الله إياها ، التي تخضع لها جبابرة الأرض وتذل لها ملوكها .

هيبة العلم وجلالة الإمامة وعظمة التقوى ، هيبة اندكت أمامها هيبة الإمرة وعظمة السلطان ، ورهبة البطش .

يحدثنا ابن أبي العوجاء ـ عندما ناظره الإمام الصادق فسكت ابن أبي العوجاء . قال : فقال لي : ما يمنعك من الكلام ؟

قلت : إجلالا لك ومهابة منك ، ما ينطق لساني بين يديك ، فإني شاهدت

---

(١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج ١ ص ١٧٣ ، وجامع اسانيد ابي حنيفة ج ١ ص ٢٥٢ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ١٥٧ .

العلماء وناظرت المتكلمين ، فما تداخلني من هيبة أحد منهم مثلما تداخلني من هيبتك .

ويقول المفضل بن عمر : إن المنصور قد هم بقتل أبي عبد الله غير مرة فكان إذا بعث إليه ليقتله فإذا نظر اليه هابه (١)

فالمنصور صاحب الدولة والسلطة ، والجيش والحرس ، ومن عرف بالشدة والتجبر ، تندك هيبته أمام هيبة الإمام عليه السلام وعظمته ، لأنها لم تكن مصطنعة بل هي التي يفيضها الله تعالى على من يشاء من عباده .

ولا تختلف هذه الهيبة باختلاف الناس معه فإن كل واحد كان يشعر في نفسه بتلك الهيبة له ، سواء الولي والعدو والموالف والمخالف .

على انه عليه السلام كان بين أصحابه وجلسائه كواحد منهم ينبسط لهم بالكلام ويؤنسهم بالحديث ، ويجلس معهم على المائدة .

٣ – نستطيع أن نلحظ من وراء هذه الرواية أسباب تقرب المنصور للعلماء وتظاهره بمناصرة العلم ، وبالأخص من كانت له شهرة في محيطه كأبي حنيفة وقد نوهنا عن هذه الأسباب في الأبحاث السابقة .

انطباعات المنصور الدوانيقي :

وقد شهد المنصور – وهو أشد الناس خصومة له ، وأعظمهم عداوة وتألباً عليه – بأن الإمام الصادق كان من السابقين بالخيرات ، ومن الذين اصطفاهم الله من عباده ، وأورثهم الكتاب .

قال اسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس: دخلت على أبي جعفر المنصور يوماً فرأيته وقد اخضلّت لحيته بالدموع وقال لي : ما علمت ما نزل بأهلك ؟

فقلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : فإن سيدهم وعالمهم ، وبقية الأخيار منهم توفي .

قلت : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : هو جعفر بن محمد .

فقلت : عظم الله أجر أمير المؤمنين وأطال لنا بقاه .

فقال لي المنصور : إن جعفر بن محمد كان ممن قال الله فيه « ثم أورثنا

---

(١) حياة الإمام الصادق ، للسبيتي ص ٢٥ .

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات (١) .

وللمنصور كلمة أخرى تعبر عن انطباعاته وما عرفه عن الإمام الصادق وهي قوله لابن المهاجر : إعلم أنه ليس من أهل بيت إلا وفيهم محدث وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم .

ولهذه الكلمة قصة : وهي أن المنصور قال لمحمد بن الأشعث : يا محمد ابغ لي رجلا له عقل يؤدي عني . فقال له محمد : إني قد أصبته لك هذا ابن المهاجر خالي .

قال : فأتني به ، فلما أتاه ، قال له أبو جعفر : يا ابن المهاجر خذ هذا المال ، واتي المدينة ، واتي عبدالله بن الحسن ، وجعفر بن محمد ، وجماعة ، وادفع إليهم هذا المال ، وقل لهم : هذا من شيعتكم بخراسان ، فإذا قبضوا المال فقل : إني رسول وأحب أن يكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم ، فأخذ المال وأتى المدينة ، ثم رجع إلى أبي جعفر المنصور فقال له : ما وراءك ؟

قال : أتيت القوم وهذه خطوطهم بقبضهم المال خلا جعفر بن محمد فإني أتيته وهو يصلي في مسجد النبي ، فجلست خلفه وقلت : ينصرف فأذكر له ما ذكرت لأصحابه ، فتعجل وانصرف وتبعته فالتفت إلي . وقال : يا هذا اتق الله ، ولا تغري أهل بيت محمد ، فإنهم قريبو العهد من دولة بني مروان ، وكلهم محتاج. قلت: وما ذاك أصلحك الله ؟ قال : فأدنى رأسه مني فأخبرني بما جرى بيني وبينك. فقال المنصور: يا ابن المهاجر إعلم أنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدّث وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم . فالمنصور مع شدة عدائه للإمام الصادق . وبغضه له فهو يقول الحق في عدة مناسبات ، ويصرح بما يعتقده في نفسه ، فمرة يصفه بأنه من السابقين في الخيرات الذين اصطفاهم الله من عباده وأخرى يصفه بأنه محدث .

ويقول : ــ عندما يتحدث الناس عن علم الصادق ــ هذا الشجى المعترض في حلقي ، من أعلم الناس في زمانه .

ويقول : إنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا .

ويقول مخاطباً الإمام الصادق عليه السلام : لا نزال من بحرك نغترف وإليك نزدلف ، تبصر من العمى ، وتجلو بنورك الطخيا (الليلة المظلمة) فنحن نعوم

---

(١) تاريخ ابن واضح ج ٣ ص ١٧ .

في سحاب قدسك ، وطامي بحرك .

وقال لحاجبه الربيع : وهؤلاء من بني فاطمة لا يجهل حقهم إلا جاهل ، لا حظ له في الشريعة .

ومع هذه الاعترافات في حق الإمام الصادق فهو لا يستطيع أن يتغلب على هواه أو ينتصر على نفسه ، فينطلق من عقال حقده . ويعرف للإمام منزلته ، ويرعى حقه ويحفظ قرابته من رسول الله ﷺ .

ولكن المنصور كان خصماً لا يلين ، وجباراً لا يرعوي ، ومتعنت لا يخضع لحق ، ولا يرتدع عن باطل ، فقد كان يثقل عليه انتشار ذكر جعفر ابن محمد في أندية العلم وحلقات الدرس ، والعلماء يستدلون بروايته ويستشهدون بقوله فيكون قوله الفصل وحكمه العدل .

ولذلك فقد وقف للإمام بالمرصاد ، يحاول الفتك به والقضاء عليه ، مع معرفته بمنزلته ، ولكن قد أخذته العزة بالإثم ، والطمع في الملك، فهو دائماً مع شهواته ، أسير هواه وأطماعه .

انطباعات ابن أبي ليلى :

قال نوح بن دراج : قلت لابن أبي ليلى (١) : أكنت تاركاً قولا قلته وقضاء قضيته لقول أحد ؟ .

قال : لا إلا لرجل واحد . قلت : من هو ؟ قال : هو جعفر بن محمد الصادق .

هذا قول فقيه من فقهاء ذلك العصر وقاض من قضاة الدولتين الأموية والعباسية ، وقد وصفوه بأنه أفقه أهل الدنيا ، كما وصفوه بأنه صاحب قرآن

---

(١) ابن ابي ليلى : هو عبد الرحمن بن ابي ليلى الأنصاري ، المتوفى سنة ١٤٨ هـ. روى الحديث عن اخيه عيسى والشعبي وعطاء ونافع ، وروى عنه شعبة والسفيانان ووكيع . والشيء الذي نريد أن نوضحه هنا هو أن عبد الرحمن بن أبي ليلى أبو محمد ، هو غير عبد الرحمن ابن أبي ليلى الأوسي الكوفي المعروف بابن ابي ليلى ؛ فان هذا من أصحاب الإمام علي وشهد مشاهده كلها ، وهو من التابعين ، وقد ضربه الحجاج بن يوسف بالسياط حتى اسودت كتفاه ، وذلك عندما ما أمره أن يشتم علياً وينتقصه ، فامتنع ابن أبي ليلى فأقامه الحجاج في المسجد وأمر بضربه ، وأخذ ابن ابي ليلى يحدث الناس بفضائل علي ، ولم يعبأ بتعذيب الحجاج وتهديده وقد خرج على الحجاج في وقعة دير الجماجم سنة ١٨٣ هـ استنكاراً على الحجاج لتأخيره الصلاة حتى يفوت وقتها، وقيل أن الحجاج قبض عليه مرة أخرى وقتله، وقيل انه غرق في النهر هو ومحمد بن الاشعث وذلك في سنة ١٨٣ هـ .

وسنة ، وأنه صدوق ، وجائز الحديث ، وخرّج حديثه الأربعة ، وقد أقام قاضياً ثلاث وثلاثين سنة .

ومهما تكن حاله فهو بكلمته هذه يكشف لنا عن انطباعاته بعلم الإمام الصادق وعظيم منزلته ، وما عرفه عنه من قدم راسخ في العلم ، فهو لا يرى أحداً يترك قوله لقوله أو قضاء قضاه لأي أحد إلا لمن هو أعلم منه ، ولا يعتقد بهذه المنزلة لأي رجل في عصره ، إلا للإمام الصادق عليه السلام .

انطباعات عمر بن عبيد :

دخل عمر بن عبيد على الإمام الصادق ، فطلب من الإمام أن يعدد له الكبائر وقال : أحب أن أعرفها من كتاب الله ، أو سنة رسوله ؛ لأن الخلاف قد تعاظم بين المسلمين ، في مسألة مرتكب الكبيرة ، واحتدم النزاع في ذلك العصر ، وعقدت المجالس للمناظرة فيها .

فقال له الإمام : نعم يا عمر وفصلها له :

١ ـ الشرك بالله « إن الله لا يغفر أن يشرك به » (١) .

٢ ـ عقوق الوالدين : لأن العاق جبار شقي « وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » (٢) .

٣ ـ قذف المحصنات « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » (٣) .

٤ ـ أكل مال اليتيم « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » (٤) .

٥ ـ الفرار من الزحف « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٥) .

٦ ـ قتل النفس « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٦) .

---

(١) سورة النساء آية ١١٦

(٢) سورة مريم آية ٣٢ .

(٣) سورة النور آية ٢٣ .

(٤) سورة النساء آية ١٠ .

(٥) سورة الانفال آية ١٦ .

(٦) سورة النساء آية ٩٣ .

٧ ـ نقض العهد وقطيعة الرحم « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون »(١)

ويستمر الإمام عليه السلام في تعداد الكبائر بأوضح بيان ، ويستشهد على كل واحدة منها بآية من كتاب الله أو سنة من رسوله، حتى أتى على آخرها، وعمر بن عبيد يصغي لبيانه ، فلما انتهى الإمام عليه السلام قال عمر بن عبيد : هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم (٢) .

وهذه الكلمة من عمر بن عبيد ، وهو رئيس من رؤساء المعتزلة وعالم من علماء الأمة ، قالها بعد أن عرف ما عند الناس حول هذه المشكلة ، وهي فعل الكبير وقد ناظر وجادل وجاء للإمام الصادق ليكون قوله الفصل وحكمه العدل ، فهو يرى أن الإمام عليه السلام معدن العلم والفضل ، ومن حاول أن يتقدم عليه في هذه المنزلة فهو هالك .

وخلاصة القول في هذه الأقوال أنها صدرت عن أناس لا يتهمون بالتحيز فإن كلمة كل واحد منهم إنما تنطبق على الواقع ، وليس فيها ميل ولا تحيز .

فمالك بن أنس كان لا يعرف بموالاة أهل البيت ، ولا بالدعاية لهم ، ولم تكن نزعته نزعة شيعية فيتهم ، بل كانت نزعته أقرب ما تكون إلى النزعة الأموية ، فإنه يميل إليهم ، فانطباعاته عن شخصية الإمام بأنه من العلماء الزهاد الذين يخشون الله ، وأنه لا يفتر عن طاعة الله ، في سره وفي علنه ، كل ذلك صادر عن واقع لا تحيز فيه ، ولا ميل ، بل هو الحق الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه ، وقد لازمه مدة من الزمن ، وحضر مجالس درسه ووعظه ،ورافقه في سفره للحج ، فلم يجد فيه إلا العالم الزاهد ، الذي خالف هواه وعمل بما علم ، واتقى الله حق تقاته ، فكان من الصادقين الذين يهتدى بهديهم ويقتدى بهم .

وكذلك أبو حنيفة واعترافه بان الإمام الصادق كان أعلم الناس وأفقههم ، فهو قول صادر عن واقع بل عن خبرة ودراية ، فهو لا يتهم في قوله ، وهو بعيد عن أسباب الاتهام ، لأنه لم يعرف بميله للتشيع .

وأما المنصور فناهيك به من عدو لدود ، وخصم شديد ، إذ يشهد بما تقدم فإنما ذلك من باب :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧ .

(٢) كتاب الإمام الصادق للأستاذ رمضان لاوند ص ٢٠ – ٢٢ .

ومناقب شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء

وكما أن هؤلاء لا يتهمون بتصريحهم عما يعتقدونه في نفوسهم عن شخصية الإمام، كذلك لا يتهم عبد الله بن المبارك في مدح الإمام الصادق وتصريحه عن اعتقاده فيه عندما استقبله في بعض الأيام فقال :

أنت يا جعفر فوق الـ ـمدح والمدح عناء
إنما الاشراف أرض ولهم أنت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء

ويقول أيضاً :

الله أظهر دينه وأعزه بمحمد
والله أكرم بالخلافة جعفر بن محمد

وعلى أي حال فإن استيفاء هذا البحث بالبيان عن جميع ما يلم به من ذكر انطباعات العلماء والأدباء عن شخصية الإمام في عصره وبعد عصره أمر يطول شرحه ، وقد أشرنا للبعض منه في الجزء الأول .

وللمزيد من الوقوف على نواحي عظمته والسير على أضواء تعاليمه ، نود هنا ذكر فصول من حكمه وفكره الخوالد ، التي أرسلها عبر الدهور معلماً للأجيال ، وهو يضع في كل منها حجر الأساس لأعظم الأسس التربوية التي يتجلى فيها روح الصلاح وحب الإصلاح .



الإمام الصادق

فصول من حكمه



تمهيد :

إن للحكم والأقوال التي ينطق بها كبار الرجال والمصلحون ، أهمية كبرى في حياة الأمم التي تنشد الرقي ، لتمهد لنفسها الطريق إلى السعادة ، فالحكم التي يوجهها المصلحون بما يتعلق بمقتضيات الأمور الاجتماعية ، والاقتصادية ، وبكل شيء يمت إلى حياتهم التي يحيونها بصلة ، إنما هي سجل خالد تتلخص فيه الشخصية ، وتتبلور فيه الأخلاق والخصائص الفردية والاجتماعية .

إن أولئك المصلحون والمرشدون في كل أمة وفي كل عصر يدلون بحكمهم وإرشاداتهم لا يرومون من ورائها إلا سعادة المجتمع الذي يعيشون فيه ، فهم ينيرون الطريق بشعلة من الأفكار ؛ ليوجهوا الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة ، والابتعاد عن مهاوي الجهل ، ومخاطر الفساد .

وقد خلدت آثارهم عبر القرون تتلقاها الأجيال فتلقي عليهم دروساً نافعة ، وتلقي أضواء تكشف عن شخصياتهم فتبعث إلى الوجود من جديد ، وتمر العصور وهم أحياء بتلك الذكريات الخالدة .

وكان أهل بيت النبي ﷺ وخلفاؤه من بعده هم خير من أوجب النصح للمسلمين على أنفسهم ، جاعلين نصب أعينهم خدمة الأمة في التوجيه الصحيح ، والسير بهم في طريق الهدى والرشاد ، فكانت سيرتهم وحكمهم تدل على مدى اهتمامهم في أداء رسالتهم ، وقد خاضوا غمرات المحن في سبيل تحقيق ذلك ، فكانوا خير قادة للرشاد وأئمة للهدى . جربوا الحياة ومارسوها ، وكل منهم واجه ظروفاً خاصة ، وخاضوا معترك الحياة ، فكانت أقوالهم وحكمهم خلاصة تجارب ، وثمرة كفاح عانوه .

وكان للإمام الصادق عليه السلام تراث فكري وثروة كبيرة من الحكم الأخلاقية تعد في الواقع أعظم أثر من آثار دعاة الإصلاح ، وقادة الخير والرشاد فهو عليه السلام لا يهدأ لحظة عن الإرشاد إلى طاعة الله ، ولا تفوته فرصة يرجو فيها تنظيم العلاقات الاجتماعية وتهذيب النفوس من كل ما يؤدي إلى قطع تلك الروابط بين أفراد المجتمع .

ولقد قدمنا في أبحاثنا السابقة من هذا الكتاب بعض تلك الحكم ونجد لزاماً علينا أن نزين هذا الجزء ببعض جواهر حكمه التي تضمنت أهم النقاط

الاجتماعية والخلقية ، وكل ما يتعلق بأمور الفرد والمجتمع ، فهو ﷺ يعالج الأمور بأسلوب يعجز القلم عن وصفه ، وحكمة يتلعثم اللسان عن بيانها .

لقد عرف ﷺ بين الناس بكرم الأخلاق وصدق الحديث ، وحسن المجالسة. وقد منحه الله سلامة الفطرة ، وصفاء الحس، ونفاذ البصيرة وحسن البيان ، فكان خير داعية للخير ، ومرشد للهدى ، يزدحم مجلسه بمختلف الطبقات والطوائف وينتهلون من تعاليمه ، ويتزودون من حكمه وأخلاقه ، وقد وجدوا فيه المصلح الاجتماعي العظيم ، والمرشد الديني الكبير .

إنهم وجدوا فيه عالماً وإنساناً كاملاً ، يهدي إلى الرشاد ، ويدعو إلى سواء السبيل ، وقد خرّجت مدرسته علماء أعلاماً ورجال إصلاح خدموا الإنسانية جمعاء خدمة لاتنكر .

إنه ﷺ لم يدخر نصحاً عن أحد ، ولم يأل جهداً في توجيه النصح لكل أحد ، فتجد له في كل مناسبة قولاً ، وفي كل مجال حكمة ، ولكل مشكلة حلاً ، وإن منهجه القويم وطابعه الأخلاقي ليظهران على كل كلمة نقلت عنه ، وعلى كل أثر نسب إليه .

إن تلك الفكر الخوالد تتصف بصفة الشمول لجميع نواحي الحياة الانسانية وتوضح للمسلم تعاليم دينه الصحيح ، وهي تمت إلى واقع المسلمين في كل عصر ، وهي الدواء لأمراض المجتمع ، والحل الصحيح لمشكلاته .

وها نحن نذكر هنا بعض حكمه ومواعظه ، في أمور متفرقة اقتبسناها من تلك الثروة العلمية ، بدون شرح وتعليق ، لأننا عزمنا على إبراز ما جمعناه من حكمه وتراثه الفكري على حدة ، مع شرح يكشف معانيها ، ويبين مرادها ، ومن الله نستمد العون وهو ولي التوفيق .

حكمه وأقواله :

* اتقوا الله واعدلوا ، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون .
* إياكم والخصومة فإنها تشغل القلب ، وتورث النفاق ، وتكسب الضغائن ، قال النبي ﷺ : ما كاد جبرائيل يأتيني إلا قال : يا محمد اتق شحناء الرجال ، وعداوتهم .
* أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه ، ومن لم يصفح عمن اعتذر إليه .

* إن من حقيقة الإيمان أن توثر الحق وإن ضرك ، على الباطل وإن نفعك .
* احفظ لسانك تعز ، ولا تمكن الناس من قيادك فتذل رقبتك .
* إياكم وسؤال الناس فإنه ذل في الدنيا وفقر تعجلونه ، وحساب طويل يوم القيامة .
* اطلبوا العلم ولو بخوض اللجج ، وشق المهج .
* إذا أردت أن تختبر عقل الرجل في مجلس واحد فحدثه في خلال حديثك بما لا يكون ، فإن أنكره فهو عاقل ، وإن صدقه فهو أحمق .
* إن هذا العلم عليه قفل ومفتاحه السؤال .
* إن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة : لسان السوء ، ويد السوء ، وفعل السوء .
* العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق ، منصفاً بقوله جموحاً عند الباطل ، يترك دنياه ولا يترك دينه ، ودليل العاقل شيئان : صدق القول وصواب الفعل ، والعاقل لا يتحدث بما ينكره العقل ، ولا يتعرض للتهمة ولا يدع مداراة من ابتلي به ، ويكون العلم دليله في أعماله ، والحلم رفيقه في أحواله ، والمعرفة تعينه في مذاهبه ، والهوى عدو العقل.ومخالف الحق ، وقرين الباطل ، وقوة الهوى من الشهوة ، وأصل علامات الشهوة أكل الحرام ، والغفلة عن الفرائض والاستهانة بالسنن والخوض في الملاهي .
* أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله ، وانصحوا لأنفسكم ، وجاهدوها في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله ، فإن لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها بشدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته ، ولا يضر من عرفها فدان بها حسن اقتصاده ، ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلا بعون الله عز وجل .
* إن السرف يورث الفقر وإن القصد يورث الغنى .
* إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عذر واحد إلى سبعين عذراً ، فإن لم تجد له عذراً فقل : لعل له عذراً لا أعرفه .
* إن الله ارتضى لكم الإسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق .
* إن العمل الدائم القليل على يقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين .
* أحب اخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي .
* إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار إذا التقوا وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم ، كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار ، وإن بعد ائتلاف قلوب الفجار

إذا التقوا ، وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف ، وإن طال ائتلافها على مذود واحد .

* إياك ومخالطة السفلة فإن مخالطة السفلة لا تؤدي إلى خير
* إن مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشاً
* إن عيال الرجل أسراؤه فمن أنعم عليه الله فليوسع على أسرائه ، فإن لم يفعل يوشك أن تزول تلك النعمة عنه .
* اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع .
* انظر إلى من هو دونك في المقدرة ، ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإن ذلك أقنع لك بما قسم الله لك ، وأحرى أن تستوجب الزيادة منه عز وجل ، واعلم إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين ، واعلم أنه لا ورع أنفع من تجنب محارم الله ، والكف عن أذى المؤمن ، ولا مال أفضل من القناعة باليسير المجزي ، ولا جهل أضر من العجب .
* إن الغنى والعز يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه .
* ألا وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان المؤمن الفقير من الفقر في دنياه ، ومعاشه ، ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين .
* إن صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ، ويعصمان من الذنب ، فصلوا أرحامكم ، وبروا إخوانكم ، ولو بحسن الجواب ورد السلام .
* احذروا سطوات الله بالليل والنهار فقيل له : وما سطوات الله ؟ فقال : أخذه بالمعاصي .
* إياك وخصلتين : الضجر والكسل ، فإنك إن ضجرت لم تصبر على حق ، وإن كسلت لم تؤد حقه .
* إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له .
* باشر كبار أمورك بنفسك وكل ما صغر منها لغيرك .
* البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة إلى سنام البعير والسيل إلى منتهاه .
* إياكم والخصومة في الدين ؛ فإنها تشغل القلب عن ذكر الله . وتورث النفاق ، وتكسب الضغائن ، وتستجيز الكذب .
* إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله عز وجل ولم يعطكموها لتكنزوها .
* إذا بلغك عن أخيك شيء فلا تغتم ، فإن كان كما يقول كانت عقوبة

عجلت ، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها .

* إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه .
* أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق ، والرفق في تقدير المعيشة خير من سعة المال ، والرفق لا يعجز عن شيء والتبذير لا يبقى معه شيء ، إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق .
* اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله ، فإن لم يكن هو من أهله فكن أنت من أهله .
* إن من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه .
* تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير لك من طلب الحوائج إلى من لم يكن له ثم كان .
* ثلاثة لم يجعل الله لأحد من الناس فيهن رخصة : بر الوالدين ، برين كانا أو فاجرين ، والوفاء بالعهد للبر والفاجر ، وأداء الأمانة للبر والفاجر .
* تأخير التوبة اغترار ، وطول التسويف حيرة ، والاعتدال على الله هلكة ، والاصرار على الذنب أمن من مكر الله ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .
* ثلاثة من لم تكن فيه فلا يرجى خيره أبداً : من لم يخش الله في الغيب ، ولم يرعو عند الشيب ، ولم يستحِ من العيب .
* تحتاج الأخوة فيما بينكم إلى ثلاثة أشياء فإن استعملتموها وإلا تباينتم وهي : التناصف ، والتراحم ، ونفي الحسد .
* ثلاثة من استعملها أفسد دينه ودنياه : من أساء ظنه ، وأمكن من سمعه وأعطى قياده حليلته .
* ثلاثة تجب على السلطان للخاصة والعامة : مكافأة المحسن بالإحسان ليزدادوا رغبة فيه ، وتغمد ذنوب المسيئين ليتوب ويرجع عن غيه ، وتألفهم جميعاً بالإحسان والإنصاف .
* ثلاثة تدل على كرم المرء : حسن الخلق ، وكظم الغيظ ، وغض الطرف .
* الجهل في ثلاث : الكبر والمراء والجهل بالله فأولئك هم الخاسرون .
* حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك .
* الحزم في ثلاث : الاستخدام للسلطان ، والطاعة للوالد والخضوع للمولى .
* الحياء والإيمان مقرونان فإذا ذهب أحدهما اتبعه الآخر .

* خلّوا سبيل المعسر كما خلاه الله (اشارة لقوله تعالى : وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) .
* خف الله كأنك تراه ، وإن كنت لا تراه فإنه يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم بدرت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك .
* خذ من حسن الخلق بطرف تروج به أمرك ، وتروح به قلبك .
* خير السادة أرحبهم ذراعاً عند الضيق ، وأعدلهم حلماً عند الغضب ، وأبسطهم وجهاً عند المسألة ، وأرحمهم قلباً إذا سلط ، وأكثرهم صفحاً إذا قدر .
* الدين غم في الليل وذل في النهار .
* داووا مرضاكم بالصدقة وادفعوا البلاء بالدعاء .
* دراسة العلم لقاح المعرفة وطول التجارب زيادة في العقل ، والشرف والتقوى والقنوع راحة الأبدان .
* رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال : تصغيره ، وستره وتعجيله . فإنك إن صغرته عظمته عند من تصنعه اليه ، وإذا سترته تممته ، وإذا عجلته هنأته ، فإذا فعلت غير ذلك فإنك سخفته ونكدته .
* رأيت المعروف كاسمه ، وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه وذلك يراد منه ، وليس كل من يحب إلى الناس يصنعه ، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه ، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب .
* الرجال ثلاثة : عاقل وأحمق وفاجر . فالعاقل إن كلم أجاب وإن نطق أصاب ، وإن سمع وعى ، والأحمق إن تكلم عجّل ، وإن حمل على القبيح فعل ، والفاجر إن ائتمنته خانك وإن حدثته شانك .
* سرك من دمك فلا تجره في غير أوداجك .
* ستة لا تفارقهم الكآبة : الحقود ، والحسود ، وفقير قريب العهد بالغنى وغني يخشى الفقر ، وطالب رتبة يقصر عنها قدره وجليس أهل الأدب وليس منهم .
* سيد الأعمال ثلاثة : إنصاف الناس من نفسك ، حتى لا ترضى بشيء إلا رضيت لهم مثله ومواساة الأخ بالمال ، وذكر الله على كل حال . ثم قال : ليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فقط ، ولكن إذا

ورد عليك ما أمر الله به أخذت به ، وإذا ورد عليك شيء نهى الله عنه تركته .

* الصفح الجميل : أن لا تعاقب على الذنب ، والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى .
* صلة الأرحام تحسن الخلق وتطيب النفس، وتزيد في الرزق ، وتنسي الأجل.
* صدرك أوسع لسرك .
* الصلاة قربان كل تقي ، والحج جهاد كل ضعيف ، وزكاة البدن الصيام والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر ، واستنزلوا الرزق بالصدقة ، وحصنوا أموالكم بالزكاة ، وما عال من اقتصد ، والتدبير نصف العيش ، والتودد نصف العقل ، وقلة العيال أحد اليسارين ، ومن أحزن والديه فقد عقهما ، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره ، والصنيعة لا تكون صنيعة إلا عند ذي حسب ودين ، والله تعالى منزل الصبر على قدر المصيبة ، ومنزل الرزق على قدر المؤنة ، ومن قدر معيشته رزقه الله ، ومن بذر معيشته حرمه الله .
* صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة وهي منساة في العمر وتقي مصارع السوء.
* صدقة يحبها الله : إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب إذا تباعدوا .
* صلاح حال التعايش والتعاشر على مكيال ، ثلثاه فطنة وثلث تغافل .
* ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر.
* احذروا عواقب العثرات .
* إن المؤمن أخو المؤمن ، عينه ودليله ، لا يخونه ولا يظلمه ، ولا يغشه ، ولا يعده عدة فيخلفه .
* طلب الحوائج إلى الناس استلاب للعز ومذهبة للحياء ، واليأس مما في أيدي الناس عز للمؤمن في دينه ، والطمع هو الفقر الحاضر .
* الطيرة على ما تجعلها إن هونتها تهونت ، وإن شددتها تشددت ، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن .
* ما من أحد يتيه إلا لذلة يجدها في نفسه .
* ما من أحد تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه.
* ما أقبح بالمؤمن من أن تكون له رغبة تذله .
* إن المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عرفها بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير أكبر من نفعها :

فأولها : أن يكون الذي تشاوره عاقلا .
والثانية : أن يكون حراً متديناً .
والثالثة : أن يكون صديقاً مواخياً .
الرابعة : أن تطلعه على سرك ، فيكون علمه به كعلمك بنفسك ، ثم يسر لك ويكتمه ، فإنه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته ، وإن كان حراً متديناً أجهد في النصيحة لك ، وإذا كان صديقاً مواخياً كتم سرك إذا أطلعته عليه ، وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك به ، فهناك تمت المشورة وكملت النصيحة .

* الصداقة محدودة فمن لم تكن فيه تلك الحدود فلا تنسبه إلى كمال الصداقة ومن لم يكن فيه شيء من تلك الحدود فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة :
أولها : أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة .
الثانية : أن يزينك زينه ويشينك شينه .
الثالثة : أن لا يغيره مال ولا ولاية .
الرابعة : أن لا يمنعك شيئاً مما تصل اليه مقدرته .
الخامسة : أن لا يسلمك عند النكبات .

* طلبة العلم على ثلاثة أصناف : فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل . وصنف يطلبه للفقه والعقل .

فصاحب الجهل والمراء متعرض للمقال في أندية الرجال يتذاكر العلم ، وصفة الحلم ، قد تسربل بالخشوع، وتخلى عن الورع فدق الله من هذه خيشومه.

وصاحب الاستطالة والختل : ذو خب وملق ، يستطيل على مثاه من أشباهه ويتواضع للأغنياء من دونه .

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن يعمل ويخشى ، وجلا داعياً مشفقاً على شأنه ، عارفاً بأهل زمانه ، مستوحشاً من اوثق اخوانه .

* طلبت الجنة فوجدتها في السخاء ، وطلبت العافية فوجدتها في العزلة ، وطلبت ثقل الميزان فوجدته في شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله . وطلبت سرعة الدخول إلى الجنة فوجدتها في العمل لله ، وطلبت حب الموت فوجدته في تقديم المال لوجه الله ، وطلبت حلاوة العبادة فوجدتها في ترك المعصية ، وطلبت رقة القلب فوجدتها في الجوع والعطش ، وطلبت نور القلب فوجدته في التفكر والبكاء ، وطلبت الجواز على الصراط فوجدته في الصدقة

وطلبت نور الوجه فوجدته في صلاة الليل ، وطلبت فضل الجهاد فوجدته في الكسب للعيال ، وطلبت حب الله فوجدته في بغض أهل المعاصي ، وطلبت الرياسة فوجدتها في النصيحة لعباد الله ، وطلبت فراغ القلب فوجدته في قلة المال ، وطلبت عزائم الأمور فوجدتها في الصبر ، وطلبت الشرف فوجدته في العلم ، وطلبت العبادة فوجدتها في الورع ، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد ، وطلبت الرفعة فوجدتها في التواضع ، وطلبت العز فوجدته في الصدق ، وطلبت الغنى فوجدته في القناعة ، وطلبت الأنس فوجدته في قراءة القرآن ، وطلبت رضا الله فوجدته في بر الوالدين .

* إذا كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا ؟ وإن كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا ؟ وإذا كان الحساب حقاً فالجمع لماذا ؟ وإن كان الخلف من الله عز وجل حقاً فالبخل لماذا ؟ وإن كانت العقوبة من الله عز وجل النار فالمعصية لماذا ؟ وإن كان الموت حقاً فالفرح لماذا ؟ وإن كان العرض على الله حقاً فالمكر لماذا ؟ وإن كان الشيطان عدواً فالغفلة لماذا ؟ وإن كان كل شيء بقضاء وقدر فالحزن لماذا ؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا ؟

* إن أحق الناس بأن يتمنى للناس الغنى البخلاء ؛ لأن الناس إذا استغنوا كفوا عن أموالهم ، وإن أحق الناس بأن يتمنى للناس الصلاح أهل العيوب ، لأن الناس إذا صلحوا كفوا عن تتبع عيوبهم .

وإن أحق الناس بأن يتمنى للناس الحلم أهل السفه الذين يحتاجون أن يعفى عن سفههم ، فأصبح أهل البخل يتمنون فقر الناس ، وأصبح أهل العيوب يتمنون معائب الناس ، وأصبح أهل السفه يتمنون سفه الناس ، وفي الفقر الحاجة إلى البخيل وفي الفساد طلب عورة أهل العيوب وفي السفه المكافأة بالذنوب .

* العاقل لا يستخف بأحد ، وأحق من لا يستخف به ثلاثة : العلماء ، والسلطان ، والاخوان ، لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه ، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه ، ومن استخف بالاخوان أفسد مروءته .
* العافية نعمة خفية إذا وجدت نسيت وإذا عدمت ذكرت .
* العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن .
* العجب يُكلم المحاسن ، والحسد للصديق من سقم المودة ، ولن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك .
* العز أن تذل للحق إذا لزمك .

* العادة على كل شيء سلطان .
* عليك بالنصح لله في خلقه فإنك لن تلقاه بعمل أفضل منه .
* ويل لقوم لا يدينون الله بالمعروف والنهي عن المنكر .
* الغضب ممحقة لقلب الحليم ، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله .
* الغضب مفتاح كل شر .
* فوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها ، وأشد من المصيبة سوء الخلف منهـا .
* من استشاره أخوه فلم يمحضه النصح سلبه الله رأيه .
* لا تبد الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك .
* لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحدٌ أحداً ، ولو يعلم المسؤول إذا منع ما منع أحد أحداً .
* لا تتبع أخاك بعد القطيعة وقيعة فيه ، فتسد عليه طريق الرجوع اليك ، ولعل التجارب أن ترده إليك .
* لو علم سيء الخلق أنه يعذب نفسه لتسمح في خلقه .
* لا تكن أول مشير ، وإياك والرأي الفطير ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تشر على مستبد برأيه ، ولا على وغد ولا على متلون ، ولا على لجوج .
* لا يزال العز قلقاً حتى يدخل داراً قد أيس أهلها من أيدي الناس .
* ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره .
* البر وحسن الخلق يعمران الديار ، ويزيدان في الأعمار ، فقيل له : ما حد حسن الخلق ؟

قال عليه السلام : تلين جانبك وتطيب كلامك ، وتلقي أخاك ببشر حسن .

وقال عليه السلام للمفضل بن عمر : أوصيك بست خصال . قال المفضل وما هي يا سيدي ؟

قال عليه السلام : أداء الأمانة إلى من ائتمنك ، وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك ، واعلم بأن للأمور أواخر فاحذر العواقب ، وإن للأمور بغتات فكن على حذر ، وإياك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعراً ، ولا تعدنّ أخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه .

* ثلاثة لا يصيبون إلا خيراً : أولو الصمت ، وتاركو الشر ، والمكثرون من ذكر الله ، ورأس الحزم التواضع .

فقيل له وما التواضع ؟

قال عليه السلام أن ترضى من المجلس بدون شرفك ، وأن تسلم على من لقيت ، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً .

* خمس خصال من فقد منهن واحدة لم يزل ناقص العيش مشغول القلب : فأولها صحة البدن ، والثانية الأمن ، والثالثة السعة في الرزق ، والرابعة الأنيس الموافق ، والخامسة : وهي تجمع هذه الخصال. الدعة، فقيل له : وما الأنيس الموافق قال : الزوجة الصالحة ، والولد الصالح .

* الكلام ثلاثة : صدق، وكذب، وإصلاح بين الناس .
فقيل له ما الاصلاح بين الناس ؟

قال عليه السلام : تسمع في الرجل كلاماً إن يبلغه فيخبث نفسه ، فتلقاه وتقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعت منه .

* إن الخمر رأس كل إثم ومفتاح كل شر ، وما عصي الله بشيء أشد من شرب المسكر.

فقال له الرجل : أصلحك الله؛ أشرب الخمر شر أم ترك الصلاة ؟
قال عليه السلام : شرب الخمر . ثم قال له : أو تدري لم ذاك ؟ قال : لا .
قال عليه السلام : لأنه — أي شارب الخمر — يصير في حال لا يعرف ربه .

* وسئل عليه السلام : هل يكون المؤمن بغيضاً ؟
قال : لا . ولا يكون ثقيلا .

* لعن الله قاطعي سبيل المعروف . قيل له : ومن قاطعو سبيل المعروف ؟
قال عليه السلام : الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره .

* لا يطعن ذو الكبر في الثناء الحسن ، ولا الخب في كثرة الصديق ، ولا السيء الأدب في الشرف ، ولا البخيل في صلة الرحم ، ولا المستهزىء بالناس في صدق المودة ، ولا القليل الفقه في القضاء ، ولا المغتاب في السلامة ، ولا الحسود في راحة القلب ، ولا المعاقب على الذنب الصغير في السؤدد ، ولا القليل التجربة المعجب برأيه في الرياسة .

* لا يصلح من لا يعقل ، ولا يعقل من لا يعلم ، والصدق عز ، والجهل ذل ، والفهم مجد ، والجود نجح ، وحسن الخلق مجلبة للمودة ، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس ، والحزم مشكاة الظن ، والعاقل غفور والجاهل ختور؛ وإن شئت أن تهان فاخشن ، ومن كرم أصله لان قلبه ، ومن خشن عنصره غلظ كبده ، ومن فرط تورط ، ومن خاف العاقبة تثبت .

* لا غنى بالزوج عن ثلاثة فيما بينه وبين زوجته : الموافقة ليجتلب بها موافقتها ومحبتها وهواها .
وحسن خلقه معها ، واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة في عينها ، وتوسعته عليها .
ولا غنى للزوجة فيما بينها وبين زوجها عن ثلاث خصال وهن : صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة في حال المحبوب والمكروه .
وحياطته ليكون ذلك عاطفاً عليها عند زلة تكون منها .
وإظهار العشق له بالخلابة والهيئة الحسنة لها في عينه .
* لا تتكلم فيما لا يعنيك ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً ، فرب متكلم تكلم بالحق بما يعنيه في غير موضعه فتعب ، ولا تمارين سفيهاً ولا حليماً فإن الحليم يغلبك والسفيه يرديك ، واذكر أخاك إذا تغيب بأحسن ما تحب أن يذكرك به إذا تغيبت عنه ، واعمل عمل من يعلم أنه مجزي بالإحسان ، مأخوذ بالإجرام .
* ليس من أحد، وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه ، ومن انتصر بمعاجلة الفرصة مواجلة سلبته الأيام فرصته ، لأن من شأن الأيام السلب ، وسبيل الزمن الفوت ، ولا تحدث من تخاف أن يكذبك ولا تسأل من تخاف أن يمنعك ، ولا تأمن من تخاف أن يغدر بك ، ومن لم يواخي من لا عيب فيه قل صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بايثاره إياه على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على كل ذنب كثر تعبه .
* لا تغرنك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم ، ولا تقطع النهار عنك بكذا وكذا فإن معك من يحصي عليك ، ولا تستصغرن حسنة تعملها فإنك تراها حيث تسرك ، ولا تستصغرن سيئة تعملها فإنك تراها حيث تسوؤك ، وأحسن فإني لم أر شيئاً أشد طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة محدثة لذنب قديم .
* لا تعتد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات .
* لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن سرعة الاسترسال لا تقال .
* ليس لك أن تأمن الخائن وقد جربته وليس لك أن تتهم من ائتمنت .
* ليس للملول صديق ، ولا لحسود غنى ، وكثرة النظر في الحكمة تلقح العقل .
* ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدقته الأعمال .

* ليس فيما أصلح البدن إسراف .
* كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول فيه .
* كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الاخوان .
* كفى بالحلم ناصراً .
* كسب الحرام يبين في الذرية .
* من سعادة الرجل أن يكون القيم على عياله .
* من أمل أحداً هابه ومن قصر عن شيء عابه .
* من صدق لسانه زكى عمله ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن بره بأهل بيته مد في عمره .
* من حق أخيك أن تحمل له الظلم في ثلاث مواقف : عند الغضب ، وعند الذلة ، وعند السهو .
* لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة ، والصبر على الرزايا .
* لايبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في الله ويبغض أقرب الخلق منه في الله .
* لا تكون مؤمناً حتى تكون خائفاً راجياً ، ولا تكون خائفاً راجياً حتى تكون شاملا لما تخاف وترجو .
* لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ، ومن أين ملبسه أمن حلال أم من حرام ؟
* من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله ، وتعطي في الله وتمنع في الله .
* من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله ، ولا يحسدهم على ما آتاهم الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله فإن رزقه لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده كره كاره ، ولو أن أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت .
* من لم يحب على الدين ولا يبغض على الدين فلا دين له .
* ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال : وقور عند الهزاهز ، صبور عند البلاء ، شكور عند الرخاء ، قانع بما رزقه الله ، لا يظلم الأعداء ولا يتحمل الأصدقاء ، بدنه منه في تعب والناس منه في راحة .
* يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل ، والتعاون ، والتعاطف ، والمواساة

لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض .

* يا شيعة آل محمد إنه ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب ، ولم يحسن صحبة من صحبه ، ومرافقة من رافقه ، ومصالحة من صالحه ، ومخالفة من خالفه. يا شيعة آل محمد اتقوا الله ما استطعتم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالأدنى ، ولا تعجب من نفسك فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك لعلك تبقى ، وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم ، وربما اغتررت بجمالك وإصابتك مأمولك وهواك فظننت أنك صادق ومصيب ، وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك ، وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الاخلاص ، وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه ، وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة .

* إن الله خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته فلا تحتقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه ، وغضبه في معاصيه فلا تحتقروا شيئاً فلعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده ، فلا تحتقروا منهم أحداً فلعله ولي الله .

* إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن ذكر الله ، وعاين بسرك عظمة الله عز وجل ، واذكر وقوفك بين يديه قال تعالى : « هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق » وقف على قدم الخوف والرجاء .

* لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصي الله فيه ولا يقدر على تغيره ، ومن ابتلي بحضور طعام ظالم إكراهاً وتقية ، فليقلل الأكل ولا يأكل أطايب الأطعمة .

* المؤمن هو الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، والذي لم يأخذ أكثر مما له .

* الصمت كنز وافر وزين الحليم وستر الجاهل .

* قلة الصبر فضيحة .

* كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب : أن يكون حاذقاً بعمله ، مؤدياً للأمانة فيه ، مستميلا لمن استعمله .

* كم من مغرور بما أنعم الله عليه ، وكم من مستدرج يستر الله عليه ، وكم

من مفتون بثناء الناس عليه .

* من ائتمن خائناً على أمانة لم يكن له على الله ضمان .
* من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال .
* من زرع العداوة حصد ما بذر .
* من أخلاق الجاهل : الإجابة قبل أن يسمع ، والمعارضة قبل أن يفهم ، والحكم بما لم يعلم .
* من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر .
* إياك وملاحات الشعراء فإنهم يضنون بالمدح ويجودون بالهجاء .
* الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل ، كلما ازداد رياً ازداد مرارة .
* من عظمت نعمة الله عليه اشتدت مؤنة الناس إليه .
* إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها .
* دعامة الإنسان العقل ، وبالعقل يكمل ، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره .
* ثلاثة يجب على كل إنسان تجنبها : مقارنة الأشرار ، ومحادثة النساء ، ومجالسة أهل البدع .
* القضاة أربعة : قاض قضى بالحق وهو لا يعلم أنه الحق فهو في النار ، وقاض قضى بالباطل وهو لا يعلم أنه باطل فهو في النار ، وقاض قضى بالباطل وهو يعلم أنه باطل فهو في النار ، وقاض قضى بالحق وهو يعلم أنه الحق فهو في الجنة .
* ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلا الله .
* مز عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه وإن دعا لم يستجب له ولم يؤجره الله على ظلامته .
* من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به .
* من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله .
* من ولي شيئاً من أمور المسلمين وضيّعه ضيّعه الله .
* من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده .
* من كان الحزم حارسه والصدق جليسه عظمت بهجته وتمت مروته . ومن كان الهوى مالكه والعجز راحلته عاقاه عن السلامة وأسلماه إلى الهلكة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* ثلاثة يحتاج إليها الناس طراً : الأمن ، والعدل ، والخصب .
* ثلاثة تكدر العيش : السلطان الجائر ، وجار السوء ، والمرأة البذية .
* إذا أراد الله برعية خيراً ، جعل لهم سلطاناً رحيماً ووزيراً عادلاً .
* من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم. إن رسول الله ﷺ قال: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ومن سمع رجلا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم .
* إياكم وظلم من لا يجد عليكم ناصراً إلا الله .
* العامل بالظلم والمعين له والراضي به كلهم شركاء .
* اتقوا الظلم فإن دعوة المظلوم تصعد إلى السماء .
* إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالوالد الرحيم .
* وجدنا بطانة السلطان ثلاث طبقات :

طبقة موافقة للخير وهي بركة عليها وعلى الرعية .

وطبقة غايتها المحاماة على ما في أيديها فتلك لا محمودة ولا مذمومة ، بل هي إلى الذم أقرب .

وطبقة موافقة للشر وهي مشؤومة مذمومة عليها وعلى السلطان .

* نجوى العارفين تدور على ثلاثة : الخوف ، والرجاء، والحب .

فالخوف فرع العلم ، والرجاء فرع اليقين ، والحب فرع المعرفة ، فدليل الخوف الهرب ، ودليل الرجاء الطلب ، ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه ، فإذا تحقق العلم بالصدر خاف ، وإذا صح الخوف هرب وإذا هرب نجا .

* المعروف زكاة النعم ، والشفاعة زكاة الجاه ، والعلل زكاة الأبدان ، والعفو زكاة الظفر ، وما أديت زكاته فهو مأمون السلب .
* لو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً .
* إن من بقاء المسلمين والإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف حقها ، ويصنع فيها المعروف ، وإن من فناء الإسلام والمسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ، ولا يصنع فيها المعروف .
* إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله ولم يعطكموها لتكنزوها .

* إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ، ومعونة للفقراء ، ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ، ولا مستغن بما فرض الله عز وجل عليه .

وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا إلا بذنوب الأغنياء ، وحقيق على الله عز وجل أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله ، وأقسم بالله الذي خلق الخلق وبسط الرزق ، أنه ما ضاع مال في بر ولا في بحر إلا بترك الزكاة ، وإن أحب الناس إلى الله عز وجل أسخاهم كفاً ، وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ، ولم يبخل على المؤمن بما افترض الله عز وجل لهم في ماله .

* من وقف نفسه موقف التهمة فلا يلومن من أساء الظن به . ومن كتم سره كانت الخيرة بيده ، وكل حديث جاوز اثنين فاش ، وضع أمر أخيك على أحسنه ، ولا تطلبن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد في الخير لها محملا ، وعليك بإخوان الصدق فإنهم عدة عند الرخاء ، وجنة عند البلاء ، وشاور في حديثك الذين يخافون الله وأحب الاخوان على قدر التقوى ، واتق خيار النساء وكن من شرارهن على حذر ، وإن أمرن بكم في المعروف فخالفوهن حتى لا يطمعن منكم في المنكر .

هذا عرض موجز لحكميات الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام انتزعناها من الكتاب الذي أعددناه لجمع تراثه الفكري ، وأسميناه (بالأسس التربوية) .

حكمه تعاليم إسلامية :

ومن المؤسف أن هذه الحكم لا تزال مبعثرة في بطون الكتب ، هنا وهناك ، ولم نجد من تصدى لجمعها وشرح غوامضها ، فهي غذاء روحي ، ورصيد ضخم من الأخلاق ، والثقافة ، والآداب ، ولا بد لكل منصف أن يعترف بأهمية ذلك ، وعسى أن يأتي اليوم الذي تبرز فيه هذه الآثار ، بالصورة المطلوبة لتكون منهجاً أخلاقياً ، يعتز المسلمون به وتكون موضع اهتمام وتقدير.

وهذه الفصول التي أوردناها هي بعض من ذلك الرصيد الضخم ، وجزء من ذلك التراث القيم ، فإنا ذكرناها لا على سبيل الحصر بل في معرض التمثيل عما يكشف لنا وجهة نظره في كثير من قضايا الإنسان والمجتمع .

وقد رأينا كيف كان حرصه على معالجة المشاكل الاجتماعية ، وبأي

طريقة يحاول أن يصلح النفوس ، ويحارب العادات المضرة ويدعو إلى اعتناق الفضائل .

إنه عليه السلام يصور لنا أحوال النفس الإنسانية في جميع حالاتها ويكشف لنا ما يكمن فيها من عقد وانفعالات ، ويجعل لها حدوداً ومقاييس ، في حالة اطمئنانها وقلقها ، ورضاها ، وغضبها ، وخوفها ، وأمنها . فإصلاحها صعب إذا لم تتخذ الطرق الناجحة لذلك ، وقد بينها في كثير من تعاليمه .

وعلى كل حال فإن هذه الحكم التي يقرها العقل ، ويرتاح لها الضمير الحر ، ويعترف بها الوجدان ، ويشهد لها الواقع . هي خلاصة تعاليم إسلامية تهدف إلى سعادة الإنسان في حياته ، وبعد مماته ، والإمام الصادق يرسل هذه النصائح لجميع المسلمين ، ويضعها بين يدي الأحفاد ، كما وضعها بين يدي الآباء والأجداد ، فهو ناصح يرسل عظاته عبر الدهور معلماً وفيصلاً بين الحق والباطل .

إنه عليه السلام من أعظم الشخصيات التي أدت واجبها ومثلت دورها في الدعوة إلى الله ، فبرزت في معترك الحياة ببطولة تبعث في نفوس الأمة قوة الإيمان ، وصحة العقيدة ، والإقدام على التضحية .

إنه عليه السلام يريد أن يعالج تلك المشاكل التي كان يموج بها العالم الإسلامي في عصره على ضوء ما جاء في الإسلام من مبادئه القويمة ، وتعاليمه السمحة .

فكان يدعو الناس إلى التسلح بالقوى المعنوية ، التي لا تقف أمامها أي قوة ، إن الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر . أعظم قوة تضمن للأمة النصر والنجاح ، فإن المؤمن قوي القلب قوي الإرادة . واثق بنصر الله وتأييده ، فهو الذي يذلل له كل صعب ، ويهون عليه كل خطب ، وبه يستطيع الإنسان أن يتغلب على شهواته ، وميوله ونزعاته ، وينشأ عن ذلك الإيثار والمحبة ، والتضحية ، ونكران الذات ، والتفاني في صالح المجتمع وكل فضيلة يتحلى بها الفرد المسلم .

والإيمان بالله يجعل في نفوس المؤمنين وعياً ، يبعثهم على محاربة الرذيلة بشتى أنواعها ، وبالوعي الإسلامي يزول خطر العابثين بمقدرات الأمة ، كما أن فقدانه يعرضها لكل خطر ، ويجعلها فريسة لكل طامع وخاضعة لكل متسلط ، ومدفوعة في أمواج الفتن وتيارات الآراء ، فلا تمييز بين الحق والباطل والضار والنافع .

جهاده ودفاعه عن الإسلام :

وعلى أي حال : فإن الإمام الصادق عليه السلام كان من أعظم الشخصيات الإسلامية ، التي خدمت الأمة بنشر العلم ، وبث روح الفضيلة ، وحث الناس على التمسك بمبادىء الإسلام التي تكفل للإنسانية سعادتها ، وتحريرها من قيود الاستغلال والعبودية .

وقد حارب الخرافات والأوهام ، والمعتقدات الخبيثة ، وحفر لها قبوراً بمعاول الحق .

كان الناس ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار ، لما منحه الله من فضل القربى ، وشرف المحتد ، وطهارة النفس ، وقوة الإدراك ، وصدق الحديث، والفقه في الدين ، والعمل بطاعة الله ، والدعوة إلى الحق ، ومجانبة الباطل ، ومحاربة الظالمين ، وكانت مدرسته أعظم جامعة إسلامية ، يقصدها طلاب العلم من مختلف الجهات ، وقد أخذ على عاتقه أداء الرسالة الملقاة على كاهله ، في توجيه الناس توجيهاً صحيحاً ، وسلك بهم طريق الاستقامة والتماسك ، ونحى ناحية الأخلاق والتهذيب ، على ضوء تعاليم الإسلام ، فكانت له شهرة علمية تتحدث بها الركبان ، ونفوذ روحي يخضع له العدو والصديق .

ولقد عظم ذلك على الحكام الذين أرادوا إخماد الشعور بجرائمهم ، والسكوت عن معارضتهم ، بما ارتكبوه من العبث بكرامة الإنسانية ، وإهدار القيم الرفيعة ، ولا يريدون أن يرتفع صوت الاستنكار على أعمالهم ، لأنهم يدعون أنهم أئمة عدل ، وأنصار حق ، ولهم أهلية وراثة النبي ، والاختصاص بسلطانه ، والواقع أنهم على خلاف ما يدعون ، ولكنهم يريدون إغراء البسطاء من الناس .

لقد عظم عليهم مركز الإمام الصادق وكانت شخصيته تثير مخاوفهم ، ولم يستطيعوا أن يؤاخذوه بما يبرر لهم الانتقام منه ، والانتفاضة عليه ، وقد التجأ المنصور إلى خلق اتهامات وتزوير كتب ، يحاول من ورائها أن يفسح له المجال في الوقيعة فيه ، ولكن محاولته باءت بالفشل وسعيه بالخسران .

وهكذا بقي عليه السلام عرضة للخطر ، ولكنه مؤمن بالله فلا يخشى من دونه أحداً .

وفي ذلك العصر المضطرب بدأ التنازع بين الدين والفلسفة ، وبين الإسلام والعقائد التي جاء الإسلام لمحاربتها ، وظهرت بوادر الجدل العقلي وعلم

الكلام ، فكان موقفه من تلك التيارات وسط ذلك النزاع والجدل موقف العالم المناضل عن الدين ، والمدافع القوي بحجته ووضوح برهانه ، الراجح في عقله واستدلاله يدافع عن الإسلام بما يقره العلم الصحيح ، ويخضع له العقل السليم ، ويرتاح له الضمير ، ويدلي بآرائه على خصومه ، بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه فينفذ إلى قلوبهم فلا يجدون بداً من التسليم لقوله الحق ومنطقه الصائب .

فكان عليه السلام لا يجارى في استدلال ، ولا يغلب في برهان ، بل كان هو المتفوق والسابق في كل مضمار .

وقد شعر دعاة الإلحاد بخطر موقفه لرد كل شبهة ، ومحاربة كل فكرة من طريق العلم والمنطق فعظم عليهم ذلك ، ونظروا إليه نظرة ملؤها غضب وحقد ، وحاولوا أن يقفوا في طريق دعوته الإصلاحية كما وقف هو عليه السلام في طريق نشر مبادئهم الالحادية ، وتوصلوا إلى حل ناجح وهو انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسته ، وادعاء حب أهل البيت لكي يفسدوا بذلك بعض الأمور بروايتهم عنه وكذبهم عليه ، وارتكابهم أموراً لا تتفق مع مبادىء الإسلام .

وبهذا يلزمنا أن نشير إلى مشكلة الغلاة في عصره .

ونود هنا أن نستعرض حركة الغلاة ونشأتها ، وتطورها ، لنقف على العوامل التي جعلت الكثير من المؤرخين والكتاب ، يذهبون إلى وجود العلاقة بينهم وبين شيعة أهل البيت ، بل ذهب البعض إلى وصف الشيعة ، بالغلو ، وكل ذلك ناشىء عن التجني على الحقائق ، والبعد عن الواقع . فليس بين الشيعة وبين الغلاة رابطة تجمعهم ، وما تلك التهم إلا من أغراض السياسة العمياء ، التي تريد تشويه الحقائق ، وقلب الأوضاع ، واتهام الأبرياء .

وقد التجأت هنا إلى ذكر مشكلة الغلاة ودوافع حملها على المذهب الشيعي بعد أن أشرت لها في الجزء الأول ، لأني وقفت على عبارات لبعض المؤلفين وقد وصفوا الشيعة بأوصاف يندى لها الجبين ، ويحترق لها قلب المسلم الحريص على جمع كلمة الإسلام ، في عصر يجب أن تتوحد الكلمة فيه وتزول الضغائن والأحقاد التي خلقتها النعرات الطائفية الأولى ، والتي يقدح زنادها أعداء الإسلام ، الذين يريدون أن يفرقوا الصفوف ، لتحقيق آمالهم عندما اندسوا في صفوف المسلمين .

ومن العجب أن يبدو هذا التهجم الشائن ممن يدعي المعرفة ، ويتزيا بزي العلم ، وقد دلت أقواله على ما تنطوي عليه نفسه من الخبث والجشع ،

وقلة المعرفة بالأمور ، إنه العار وإنه الدمار . أن تبتلى الأمة الإسلامية بأمثال هؤلاء الذين قدموا أنفسهم لخدمة أعداء الدين .

وعلى كل حال فإنا نحاول بهذه الدراسة السريعة عن حركة الغلاة في عصر الإمام الصادق ، أن نوفق لإقناع من استساغ الطعن على الشيعة ، بوصفهم في الغلو ودعوى التأليه لأهل البيت ، وما ذلك إلا تخرصاً وتقولاً وافتراء وتزويراً ، وسيقف القارىء الكريم على موقف أهل البيت وشيعتهم من الغلاة وبراءتهم منهم مما لا يدع مجالا لمتقول ، ولا طريقاً لمفرق .

والله نسأل أن يمدنا بالتوفيق وعليه الاتكال .



مُشكلة الغلاة



المؤرخون ومشكلة الغلاة :

يأبى كثير من المؤرخين إلا أن يتأثروا بالدعايات الكاذبة ، ويأخذوا بأقوال المنحرفين عن الحق ، الذين أصبحوا آلة طيعة بيد حكام دفعتهم شهواتهم وحرصهم على سلطان الاستبداد بأمور الأمة ، ألا يروا فضيلة لأهل البيت إلا ضيعوها ، ولا مكرمة إلا أخفوها ، حسداً منهم ، وخوفاً على سلطانهم .

نعم يأبى كثير من المؤرخين إلا أن يسيروا مع التيار الجارف من آراء قوم يصعب عليهم وحدة الصف ، ويثقل على أنفسهم جمع الكلمة ، فتعمدوا إثارة الفتن ، وتشويه الحقائق بالدس والافتراء والتقول بالباطل ، وهدفهم في ذلك أنهم لا يريدون أن يحصل صفاء بين المسلمين ، فربطوا تأريخ الغلاة بتاريخ الشيعة ، وعقائدهم بعقائد الشيعة . رغم الحقائق الدالة على خلاف ما يذهبون إليه من التجني على الشيعة .

إن من الواجب على المؤرخ أن يتصدى للتمييز بين الأشياء التي يدونها ، وأن يضع كل شيء في مكانه ، لئلا يحصل الخلط الشنيع بين الأمور المتناقضة .

وإني لا أستطيع أن أتصور بعداً عن الحق ، ومكابرة للواقع ، مثل مكابرة من يصف الشيعة بالغلو ، لأن البعض منهم نسبوا إليهم ، وما ذلك الا خطلا في الرأي وابتعاداً عن الحق .

إن مشكلة الغلاة هي أعظم مشكلة أوقعها خصوم الإسلام بين أهله ، ولم تعالج هذه المشكلة بحل صحيح ، على ضوء الواقع من حيث هو ، بل استمرت تعمل عملها ، وتؤثر أثرها في شق وحدة الصف ، وبث روح العداء بين المسلمين .

وإن مشكلة الغلاة توقع الباحث في صعوبة لا يذللها إلا حرية رأيه وإنصافه . وابتعاده في البحث عن التقليد الأعمى ، والتعصب الطائفي الذي جر على هذه الأمة ، بلاء الفرقة ومحن البغضاء والتطاحن .

إن أكثر المؤرخين لم يدرسوا الظروف التي نشأت فيها طوائف الغلاة ، ولم يعرفوا أسباب ذلك ، كما أنهم لم يقفوا على العوامل التي بعثت النشاط في دعوتهم فأثرت أثرها في تفريق الصفوف ، وايقاد نار البغضاء في القلوب ، وإثارة الفتن في المجتمع ، ولو أن أولئك المؤرخين الذين ربطوا تاريخ الغلاة

بتاريخ الشيعة واستعملوا الأقيسة المعكوسة ، درسوا ظروف نشأة تلك الأفكار ، وأسباب ذلك الاعتقاد ، وبواعث ذلك النشاط ، لوجدوا أنفسهم خاطئين في سلوكهم ، مبتعدين عن الواقع ، واتضح لهم البون الشاسع ، بين الغلاة وبين الشيعة وبذلك تظهر الحقيقة في البحث – إن كانوا يطلبونها – وإذا ظهرت الحقيقة بطلت الأوهام .

وقد قلت سابقاً إن خصوم الإسلام في عصر الإمام الصادق عليه السلام قد عظم عليهم موقفه ، في نشر الدعوة الإسلامية ، عند ما نشطت الحركة العلمية ، حيث اتجه الناس إلى التدوين والبحث ، وظهر علم الكلام ، والفلسفة وبرزت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في نشر العلم وبث تعاليم الإسلام ، وكثر المنتمون إليها ، وانتشر ذكرها في جميع الأقطار الإسلامية وقام أصحابه بأداء الرسالة ، وكان للكوفة النصيب الأوفى من حملة العلم ، ورجال الإصلاح ، المنتسبين لتلك المدرسة ، فكان عددهم يربو على الألف ، منهم تسعمائة محدث في مسجد الكوفة ، كل يقول : حدثني جعفر بن محمد .

وحيث كانت الكوفة مركزاً هاماً للتجارة والصناعة ملحوظاً في حياة المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري ، وازدهرت فيها المنسوجات الحريرية وهي ما سموها عمل الوشي والخز ، وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً في الأقطار الإسلامية (١) وكانت محاطة بقرى كثيرة ، وفيها من غير المسلمين عدد كبير كالنصرانية في الحيرة وغيرها ، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عرفوا بحمراء الديلم (٢) كما كثرت الهجرة إليها من الأقطار النائية من ذوي العقائد الفاسدة والآراء الشاذة ، واختلطوا بمجتمع الكوفة فكان نشاطهم محسوساً في استغلال الفرصة لبث آرائهم ونشر عقائدهم ، وربطها بالعقائد الإسلامية عن طريق الخداع والتضليل حقداً على الإسلام وأهله ، واندس البعض منهم في حلقات العلم مدعياً انتماءه لمدرسة الإمام الصادق ، وهم يكذبون عليه فيما ينسبونه إليه ، وغرضهم في ذلك هو الطعن على أهل البيت ، وتشويه سمعة أوليائهم ، لكي ينفروا القلوب ، ويثيروا البغضاء ، لتقع الفرقة بين صفوف المسلمين .

---

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٧٢ .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٨٩

أسباب نشأة الغلاة :

ويجب أن لا يغيب عن بالنا سبق هذا العداء للإسلام وقدمه قبل عصر الإمام الصادق عليه السلام فهو متأصل منذ فجر الدعوة الإسلامية يتوارثه الأبناء والأحفاد، وذلك لأن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ البداية موجهة إلى الناس كافة ، سواء منهم العرب وغير العرب ، وثنيون أو يهود ، نصارى أو مجوس ، فهي لم تختص بطائفة دون أخرى ، ولا بقوم دون قوم ، ولا بقطر دون آخر ، بل هي رسالة عامة ، ولا بد أن تجابه دعوته صلى الله عليه وآله وسلم بأقوى عدة وبأكثر عدد من المعارضين الذين قضى الإسلام على عقائدهم الفاسدة ، وهدم هياكل عبادتهم التي يعبدونها من دون الله ، كما هدم صروح الكبرياء والأنانية وأزال عروش الظلم والاستبداد ، وأذل قوماً اعتزوا بسلطانهم فاستذلوا الآخرين . إلى آخر ما جاء به الإسلام من الإصلاح للعالم ، الذي كان يموج بالفتن وتسوده نزعات مختلفة ونحل متنوعة ، وكان الناس يتخبطون في ظلام حالك كله شر ومخاوف ، إذ يتغلب القوي على الضعيف ، فتشن الغارات لنهب الأموال وانتهاك الحرمات في التكالب على السيادة ، والاثرة والاستغلال .

فلم يخضع لهذه الدعوة جبابرة قريش الذين ملكت الأنانية قلوبهم ، واستولى حب الذات والاثرة على مشاعرهم ، وجعلوا من عبادة الأصنام قواماً لحياتهم .

لأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى عبادة رب واحد لا شريك له ، كما جاء بنظام العدل والمساواة الشاملة ، وهدم الفروق الظالمة بين الناس ، وسوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وقرر أن أصل الإنسان واحد والجميع أخوة في الإنسانية ، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وجاء بأحكام شاملة لم يستثن منها إنساناً ولا طائفة ، بل الكل سواء في تطبيقه ، وكان طبيعياً أن تصطدم تلك المبادىء بعادات العرب القديمة التي ورثوها عن الآباء والأجداد شأن كل دعوة ناشئة ، كما أزعجتهم سرعة الدعوة في قلوب الناس .

وقد أحست العناصر الأخرى بخطر دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرمقت ما كسبه الإسلام من تقدم وانتشار بعين الحقد والحسد ، وكانت للنصرانية قوة في الشمال ولها أتباع منبثون في مهد الدعوة ، ولليهود عدة قوية في بلد الهجرة ، وللمجوس دولة ومعابد ، وكل هذه العناصر لا يروق لها انتشار هذا الدين وظهوره ، فتظاهر الكل بالعداء للإسلام ، وانتظم عقدهم وتكتلوا لحرب

محمد ﷺ ومعارضة دعوته ، وبذلوا جهودهم ، وعملوا أقصى ما يمكن أن يعملوه ، فكانت هناك حروب دامية وغزوات متوالية بينه ﷺ وبين المشركين ومن انتظم في عقدهم ، حتّى نصر الله النبي ﷺ فتيقنوا أن لا أمل لهم مطلقاً في القضاء على الإسلام ، فهو يزداد قوة وثباتاً رغم المعارضة في الحروب الدامية .

ودخل البعض منهم في الإسلام اعترافاً بعجزهم عن مقاومته ، وآخرون اعتقدوا صدق نبوة محمد ﷺ فاستجابوا له ، وفئة ثالثة دخلوا نفاقاً وخداعاً فأظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، وبقي الحقد يأكل قلوبهم والغيظ يحز في نفوسهم ، فهم يتحينون الفرص ويتأهبون للوثبة ، ويعملون من وراء الستار ، وينتظرون اليوم الذي ينتقمون فيه من الإسلام وأهله .

وبعد أن عجزوا عن مقابلة الإسلام وجهاً لوجه راحوا يعملون من وراء الستار بأيد عابثة ، ولعل أول عهد حقق آمالهم هو العهد الأموي ، لأن ملوكهم قد رفضوا الخضوع لقوانين الإسلام ، ولم يلتزموا بتعاليمه ، كما أنهم من المغلوبين على أمرهم يوم أعلنوا الحرب على النبي ﷺ . وكانت قيادة تلك العناصر المختلفة بيد زعيمهم أبي سفيان ، وبهذا لا يمكننا أن نجزم بزوال تلك الأحقاد عن قلوبهم ، وإن أعمالهم شاهدة على وجودها ، فكان دورهم فتحاً لتلك العناصر المعادية للإسلام ، فقد سنحت الفرصة وكان لهم في الأمر متسعاً ، وقد قرّب الأمويون إليهم بعض المتدخلين في صفوف المسلمين ، وجعلوا منهم أداة سياسية يستعينون بها على ترويج دعاياتهم ، وإظهار مقاصدهم ، كما أقام معاوية بن أبي سفيان كعب الأحبار — وهو يهودي أسلم في عهد عمر — قصاصاً . فغير مجرى الحوادث والتاريخ وأدخل الاسرائيليات في تاريخ الإسلام .

وعلى كل حال فلا تعنينا حركة خصوم الإسلام في العهد الأموي ، الذي كان مسرحاً تظهر على لوحته الأمور المتناقضة للاسلام ، والمخالفة لمبادئه ، وإنما الأمر الذي يهمنا هو التعرض لحركتهم في عصر الإمام الصادق عليه السلام وأثر براءته منهم ، وإعلان ذلك للملأ ، وكيف أثر ذلك في إبادتهم ومحوهم من صفحة الوجود، ولم يبق منهم إلا صوراً خيالية ينظر إليها من أكل الغيظ قلبه .

الدعوة الإسلامية وخصومها :

تبين مما قدمناه في هذه الأبحاث أن الدعوة الإسلامية قد ثقلت على كثير من ذوي النفوس المريضة من مختلف العناصر وشتّى الطوائف ، وقد قابلوا ذلك بالعداء السافر والحرب الدموية، ولما عجزوا عن المقابلة للإسلام وجهاً لوجه، التجأوا إلى الحرب السرية ، وحمل معاول الهدم والتخريب ، واستعمال الوسائل التي تدعو إلى إثارة الفتنة بين المسلمين ، وقد وجدوا أن أقرب طريق يوصلهم إلى غاياتهم وتحصيل أمنيتهم هو التدخل في صفوف المسلمين ، والعمل على تفريق الكلمة وبث روح العداء ، وتفرقوا لهذا الغرض فرقاً وأحزاباً ، فمن مستجلب ود السلطة لينال مركزاً هاماً في الدولة يستطيع بواسطته أن يفسد بعض الأمور ويغير بعض الحقائق .

ومنهم من سلك طريق إظهار المحافظة على الإسلام ، والانتصار له ، والرد على ما يلصقه به اخوانه ، الذين سلكوا سبيله في تشويه سمعة الإسلام .

ومنهم من ضرب على وتر حساس يستطيع به أن يستميل القلوب ، ويحرك الشعور، وهو إظهار حب أهل البيت عليهم السلام الذين تألبت جميع الفئات الحاكمة على ظلمهم من دون مراقبة لله ولا مراعاة لحرمة رسوله .

وصفوة القول إنهم توزعوا على جميع الطوائف الإسلامية ، فاندسوا في صفوفهم وامتزجوا في مجتمعهم .

هذا سوسن النصراني كان أول من نطق بالقدر وقد أظهر الإسلام ، وعنه أخذ معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد (١) ثم عاد سوسن إلى نصرانيته بعد أن بث فكرته .

وهذا ابن كلاّب من بابية الحشوية ، وكان عباد بن سليمان يقول إنه نصراني .

قال أبو عباس البغوي : دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي ، فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاب فقال فيثون : رحم الله عبد الله (اسم ابن كلاب) كان يجيئني فيجلس إلى تلك الزاوية — وأشار إلى ناحية من البيعة — وعني أخذ هذا القول ، ولو عاش لنصّرنا المسلمين.(٢) — أي لجعلناهم نصارى .

---

(١) انظر الفرق للبغدادي ص ٧٠

(٢) الفهرست لابن النديم ٢٥٥ — ٢٥٦

ذكرنا هذا على سبيل المثال لما يفعله أصحاب الديانات الأخرى الذين كانوا يستغلون الفرص للتدخل في صفوف المسلمين ، فهم لم يتحد غرضهم في الدخول بطائفة أو الانضمام إلى جماعة ، بل كانوا متفرقين في أهل الحديث والفقهاء والمؤرخين ، وأهل الكلام والفلسفة ، سائر العلوم وما أكثر الوسائل التي يتبعونها والأثواب التي يتنكرون بها لحماية أنفسهم وتحقيق أهدافهم .

فقد يتنكر اليهودي في ثوب الإسلام ويدعي لنفسه أهداف المسلمين وأساليبهم ، فيندس وسط جماعات وهيئات هي أبعد ما يكون أن يؤمن بمبادئها ومثلها ، ويأخذ على عاتقه هدم هذه المبادىء والمثل والتشكيك في قيمها وجدواها ، فهو إذ يتظاهر في الانضمام إلى طائفة معينة ، ويكون حريصاً على تحقيق مبادئها ونشر تعاليمها ، إنما يفعل ذلك لينجح في مهمته ، وهي تحقيق أهدافه الدنيئة عن طريق آخر ، وكذلك غير اليهودي من نصراني ومجوسي ووثني ومشرك ، وكل من في قلوبهم حقد على الإسلام وأهله .

فهم يدعون الإسلام من جهة ، ويعملون على هدمه من جهة أخرى ، ولهم أساليب كثيرة يتوسلون بها لتحقيق أهدافهم وتحصيل أمانيهم . وقبل أن نأتي على استقصاء أساليبهم في المكر والخداع والتضليل ، نود أن نشير إلى أبطال حركة الغلاة في عصر الإمام الصادق عليه السلام ومعارضة دعوته الإصلاحية ، التي قام بها في عصر ازدهار العلم واتساع نطاق النهضة الفكرية .

رؤساء الغلاة ومواقف الإمام ضدهم :

أبو الخطاب الأسدي : وهو محمد بن مقلاص الأسدي الكوفي ، كان رجلا من الموالي اشتهر بكنيته دون اسمه ؛ فالشهرستاني يذكره على أنه محمد بن زينب الأسدي الأجدع . والمقريزي يثبته : محمد بن أبي ثور ، ويذكر أنه قيل في اسمه محمد بن يزيد الأجدع . وأبو جعفر بن بابويه يذكر أن اسم أبي الخطاب زيد ، إلى آخر ما فيه من الاختلاف .

ظهر هذا الرجل في الكوفة ، وكان المجتمع يموج بالتيارات السياسية ، والدعوة العباسية تشق طريقها إلى النجاح بسرعة ، فاستغل ذلك الظرف الذي يأمل فيه نجاح مهمته في نشر دعوته الإلحادية ، فدعى إلى عقيدة عرف اتباعها بالخطابية ، وساعدته الظروف المواتية أن يجمع حوله تلاميذ يلقنهم تعاليمه ، ويرسم لهم خطط الدعوة والتجمع والظهور ، وكانت حركتهم سرية محكمة

وهي حركة سياسية من جهة وعقائدية من جهة أخرى ، وتلتقيان في نقطة العداء للإسلام .

ولم تدون عقائد أبي الخطاب في كتاب سطرتها أقلام أتباعه ، وإنما أخذت من غيرهم ، وهذا ما يجعلنا نتردد في بعض ما نسب إليه . وقد أجمعت الشيعة على لعن أبي الخطاب وتكفيره والبراءة منه ، وإنه غال ملعون كما هو مذكور في كتب الرجال والحديث والتاريخ .

قد اتسعت حركة أبي الخطاب في ذلك الجو المضطرب ، واستغل فرصة الدعوة لأهل البيت ، والانتقام من أعدائهم ، فأعلن مبدأه وأظهر عقيدته المخالفة لروح الإسلام ، والتي لا تتصل بأهل البيت بأي صلة ، ولما بلغ ذلك إلى الإمام الصادق عليه السلام اهتم غاية الاهتمام بفتنة أبي الخطاب ، وخاف عاقبتها السيئة التي تعود على صفوف المسلمين بالفرقة وعلى جمعهم بالشتات ، وهو عليه السلام في ذلك العصر يبذل جهده في التوجيه إلى الالتزام بتعاليم الدين لتجتمع كلمة المسلمين ، فيكونوا صفاً واحداً يردون كل خطر يهدد المجتمع الإسلامي .

وقد وقف الإمام الصادق تجاه هذه الدعوة الإلحادية موقفاً مهماً ، وأعلن استنكاره على أبي الخطاب ، فكان موقفه عليه السلام صدمة لموجة الغلو الجامحة وقضاء مبرماً على مزاعم الملحدين ، ويتجلى عظيم اهتمامه من أقواله ، وأمره للناس بالابتعاد عنهم .

قال عيسى بن أبي منصور : سمعت أبا عبدالله الصادق يقول — وذكر أبا الخطاب — : اللهم إلعن أبا الخطاب فإنه خوفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي ، اللهم أذقه حر الحديد .

وعن عنبسة بن مصعب قال : قال لي أبو عبدالله : أي شيء سمعت من أبي الخطاب ؟ قلت : سمعته يقول : إنك وضعت يدك على صدره وقلت له : عه ولا تنس . وأنت تعلم الغيب ، وإنك قلت : هو عيبة علمنا وموضع سرنا أمين على أحيائنا وأمواتنا .

فقال الإمام الصادق : لا والله ما مس شيء من جسدي جسده ، وأما قوله إني قلت : إني أعلم الغيب فو الله الذي لا إله إلا هو ما أعلم الغيب . ولا أجرني الله في أمواتي ، ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له ؛ وأما قوله إني قلت : هو عيبة علمنا وموضع سرنا وأمين أحيائنا وأمواتنا ، فلا آجرني الله في أمواتي ولا بارك لي في أحيائي إن كنت قلت له من هذا شيئاً .

وقال المفضل بن يزيد قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة : يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تشاوروهم ، ولا تصافحوهم ولا توارثوهم .

وقال مرازم : قال لي أبو عبد الله : قل للغالية تولوا إلى الله فإنكم فساق مشركون .

وقال أبو بصير : قال لي أبو عبد الله : يا أبا محمد ابرأ ممن يزعم أنا أرباب ، قلت بريء منه .

قال عليه السلام : ابرأ ممن يزعم أنا أنبياء . قلت : بريء منه .

وعن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله إنهم (أي الخطابية) يقولون : إنك تعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر ، وعدد ما في التراب . فرفع الإمام الصادق يده وقال: سبحان الله سبحان الله، والله ما يعلم هذا إلا الله .

وعن سدير عن أبيه قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : إن قوماً يزعمون أنكم آلهة يتلون علينا بذلك قرآناً « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » قال عليه السلام : يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء ، برأ الله منهم ورسوله ما هؤلاء على ديني ودين آبائي ، والله لا يجمعني وإياهم يوم إلا وهو عليهم ساخط .

وقال ميسرة : ذكرت أبا الخطاب عند أبي عبد الله عليه السلام ، وكان متكئاً فرفع إصبعه إلى السماء ثم قال : على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فأشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك ، وأنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب غدواً وعشياً ، ثم قال : والله والله إني لأنفس على أجساد أصيبت معه النار .

إننا نلحظ في الفقرة الأخيرة تأسفه على أولئك القوم الذين غرر بهم دعاة الإلحاد ، فأوردهم موارد الهلكة ، عندما انضموا تحت لواء تلك الدعوة الباطلة ، ولذلك وقف عليه السلام في أداء واجبه لشل ذلك النشاط المعادي للإسلام ، فرفع صوته باستنكار مذاهب الغلاة ، فكان إعلان براءته صدمة للإلحاد ، وقام رجال الشيعة في شل تلك الحركة ومعارضة ذلك التيار ، وابعدوهم عن مجتمعهم ، وكشفوا الستار الذي كانوا يعملون من ورائه ، فأحدث ذلك صدعاً في صفوف الغلاة ، أدى إلى فرقتهم وإبادتهم بسرعة .

وقد وقف أبو الخطاب موقف المتصلب تجاه براءة الإمام الصادق منه ،

وتمكن من إغراء البسطاء من أصحابه بأن يعلن نفسه أنه نبي رسول ، وأن كلمة الرسل واجب إطاعتها ، ويذهب بعض نقلة العقائد أنه أعلن عن نفسه أنه إله (١) ، وطفق أبو الخطاب يدعو لعقيدته ، وقد أحاط به الفشل لأن موقف الإمام الصادق عليه السلام وتكذيبه لما يدعيه أبو الخطاب كان له الأثر العظيم في شل تلك الحركات التي جاءت لإغواء المسلمين ، ومحاربة الدعوة الإسلامية وتشويه سمعة أتباع أهل البيت ، فكانت معارضة الإمام الصادق ضربة قاضية ، وخاب أمل ابن الخطاب ، وتفرق أصحابه بعد براءة الإمام الصادق عليه السلام منه وقد أسف أبو الخطاب أن يتفرق الآخرون عنه فتمحى دعوته ، ولكنه أراد أن يخاطر بهم في الكريهة ، وأن يوردهم حياض المنية ، وهم على غير دين الإسلام ، فحاول الخروج على الدولة بتلك القلة ، وأغراهم بقوله : قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح ، ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم لا تضركم ولا تعمل فيكم ، وخرج بهم إلى مسجد الكوفة وكان عيسى بن موسى قائد المنصور المشهور والياً ، ولم يكد يسمع حتى أرسل إليهم قوة من جيشه العباسي للقضاء عليهم ، فحاربوا عيسى محاربه شديدة بالحجارة والسكاكين ، وهم يعتقدون صدق أبي الخطاب بأن السلاح لا يضرهم ، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا : ما ترى ما يحل بنا من القوم ؟

فقال لعنه الله : إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي ؟ وأسر أبو الخطاب ، فأُتي به عيسى بن موسى فقتله في دار الرزق ، وصلبه مع جماعة من أصحابه وذلك سنة ١٣٨ هـ . وبهذا انتهى دور أبي الخطاب وأصحابه .

بزيع بن موسى : وهو أحد أبطال الدعوة الإلحادية ، وإليه تنسب الفرقة البزيعية ، وقد أقروا بنبوته كما زعموا أنهم كلهم أنبياء ، وأنهم لا يموتون ، وأنهم يرفعون ، وزعم بزيع أنه صعد إلى السماء ، وأن الله مسح على رأسه ، ومج في فيه ، وأن الحكمة تنبت في صدره ، إلى آخر خرافاته وأكاذيبه .

وزعم جماعة من أصحابه أنه الإمام بعد أبي الخطاب ، ولهذا عُدت فرقة البزيعية من فرق الخطابية ، مع أن لكل منهما بدعة مستقلة وآراء على حدة (٢)

ولما بلغت مقالته للإمام الصادق عليه السلام أعلن للملأ لعنه ، والبراءة منه ومن أضرابه وقال : لعن الله بزيعاً ، والسري ، ومعمراً ، وبشار الشعيري ، وحمزة الزيدي ، وصائد الهندي .

---

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص ٧٧ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٣٠١ .

وقال عليه السلام: إن بناناً والسري وبزيعاً لعنهم الله قدتراءى لهم الشيطان .

وقال عليه السلام عند ذكر هؤلاء : لعنهم الله ، فإنا لا نخلو من كذاب يكذب علينا ، أو عاجز الرأي ، كفانا الله مؤنة كل كذاب ، وأذاقهم حر الحديد .

ولا زال الإمام يرسل كتبه ويوجه رسله للأقطار ، في التحذير من هؤلاء الذين أقضوا مضجعه ، في بث سمومهم في المجتمع الإسلامي .

بشار الشعيري: وكان بشار الشعيري من أهل الكوفة من دعاة الإلحاد، وممن يقول بمقالة العلياوية ، وهم الذين قالوا إن علياً رب ، وظهر بالعلوية الهاشمية ، وقالوا بالتناسخ والتعطيل ، وكان لبشار جماعة يتبعوه على أضاليله وأباطيله .

قال مرازم : قال أبو عبدالله : يا مرازم من بشار ؟ قلت : الشعيري . قال عليه السلام : لعن الله بشاراً . يا مرازم قل لهم : ويلكم توبوا إلى الله ، فإنكم كافرون مشركون .

وكان بشار جاراً لمرازم ، فقال له الصادق عليه السلام يا مرازم إن اليهود قالوا ووحدوا الله ، وإن النصارى قالوا ووحدوا الله ، وإن بشاراً قال قولا عظيماً ، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له يقول لك جعفر : يا فاسق ، يا كافر ، يا مشرك ، أنا بريء منك .

قال مرازم : فلما قدمت الكوفة ، فوضعت متاعي وجئت إليه ، ودعوت الجارية ، وقلت قولي لأبي إسماعيل ، هذا مرازم ، فخرج إليّ. فقلت له: يقول لك جعفر بن محمد : يا كافر ، يا فاسق ، يا مشرك ، أنا بريء منك . فقال بشار : وقد ذكرني سيدي . قال : قلت نعم ذكرك بهذا الذي قلت لك . فقال : جزاك الله خيراً ، وجعل يدعو لي .

ومن هذا يتجلى لنا أن هؤلاء كانوا على طرفي نقيض مع أهل البيت ، فليس لهم صلة بتعاليمهم واتباع أوامرهم ، وإنما هم يحاولون إشاعة الأكاذيب عليهم بغضاً لهم ، فنرى هذا الرجل تبلغه براءة الإمام منه ، ولعنه له ، وهو غير مكترث ولا متأثر ، وبهذا ندرك طبيعة تآمرهم على الإسلام ، واتساع نطاقه بكل وسيلة .

وقال إسحاق بن عمار : قال أبو عبدالله لبشار الشعيري : اخرج عني لعنك الله. لا والله لا يظلني وإياك سقف أبداً ، فلما خرج قال أبو عبدالله: ويله ألا قال بما قالت اليهود ؟ ألا قال بما قالت النصارى ؟ ألا قال بما قالت المجوس ؟ أو بما قالت الصابئة ؟ والله ما صغّر الله تصغير هذا الفاجر أحد ،

إنه شيطان بن شيطان ، خرج من البحر ليغوي أصحابي فاحذروه ، وليبلغ الشاهد الغائب، أني عبد الله بن عبد الله ، ضمتني الأصلاب والأرحام، وإني لميت ومبعوث ، ثم مسؤول ، والله لأسألن عما قال فيّ هذا الكذاب وادعاه ، ما له غمه الله ، فلقد أمن على فراشه ، وأفزعني وأقلقني عن رقادي .

وخلاصة القول إن بشاراً تزعم حركة الحادية ، وقد اهتم الإمام الصادق بهم أعظم اهتمام كما تدل عليه أقواله في ذلك ، لأن هؤلاء الملحدين أرادوا الوقيعة في أهل البيت ، ومعارضة الدعوة التي قام بها الإمام الصادق ، في إصلاح ما أفسدته الظروف القاسية ، التي مرت بالمسلمين .

أما الذين ذكرهم عليه السلام مع بشار ولعنهم ، وتبرأ منهم ، وهم بزيع وتقدمت الإشارة إليه ، ومعمر ، والسري ، وحمزة الزيدي ، وصائد النهدي وبيان ، فكانوا من دعاة الإلحاد ، وأبطال إثارة الفتنة بين صفوف المسلمين ، والكذب على أهل البيت . وكان لكل واحد من هؤلاء دور هام في إثارة الفتن ، وإشغال مجتمع الشيعة في مقاومتهم ، لأن أولئك النفر من الغلاة قد أجهدوا أنفسهم في التلفيق والكذب ، وإيجاد سلسلة أفكار تنافي واقع الإسلام ، فلم تنجح تلك الخطط ، لأن أهل البيت أمروا أتباعهم بمقاومتهم .

معمر النهدي : فأما معمر فهو زعيم الفرقة المعمرية التي ألفت بعد قتل أبي الخطاب وقد ألفوا لهم عقيدة مستقلة ، على نحو ما فعل بزيع ، وخرج ابن (اللبان) يدعو إلى معمر ، وقال إنه الله ، وصلى له وصام ، وأحل الشهوات كلها ، ما حل منها وما حرم ، كشرب الخمر ، والزنا ، والسرقة ، والميتة ، ولحم الخنزير ، وغيرها . وقالوا بالتناسخ وإنهم لا يموتون ، ولكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم .

إلى آخر ما هنالك من أقوالهم الخرافية ودعاياتهم الإلحادية (١) .

وأما السري : فهو الذي قال فيه أصحابه : إنه رسول مثل أبي الخطاب : وقالوا : إنه قوي أمين ، وهو موسى القوي الأمين ، وفيه تلك الروح الخ .

حمزة الزيدي : وأما حمزة الزيدي فكان يكذب على أبي جعفر الباقر عليه السلام وقد أعلن عليه السلام للناس لعنه وكذبه .

وكان حمزة يقول لأصحابه : إن أبا جعفر يأتيني في كل ليلة ، وقد وصفه الإمام الصادق بأنه شيطان ولعنه ، وحذر الناس من كذبه ، والذي يظهر أن

---

(١) النوبختي ص ٤٤ .

الرجل استعمل سلاح الافتراء والكذب على أهل البيت ، ولا شك أن أثره عظم في الإغراء والتضليل ، ولم توجد له آثار تدل على ادعائه بعقيدة خاصة ، أو مبدأ مرسوم ، أو تأليف جماعة معينة ، وإنما كان داعية ضلال وعدواً لأهل البيت يذيع عنهم ما لا يقولونه .

صائد النهدي : وكذلك صائد النهدي ، فالذي يظهر أنه كان من الكذابين ولم نقف على ترجمة وافية له نستمد منها آراءه ونزعاته (١) .

وقد أظهر الإمام الصادق عليه‌السلام نوايا هؤلاء الذين اتخذوا الكذب على أهل البيت سلاحاً يفتكون به .

قال عليه‌السلام : إنا أهل بيت صادقون ، لا نخلو من كذاب يكذب علينا ليسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس .

بيان التبان : وأما بيان فالذي يظهر أنه كان من الكذابين أيضاً ، لأن الإمام كان يقول : لعن بنان التبان ، وإن بناناً كان يكذب على أبي . ولا بد هنا من التنبيه إلى شيء ، وهو : أن هذا الاسم يشتبه مع بيان بن سمعان التميمي أو النهدي الذي قام بحركة إلحادية في عصر الإمام الباقر والصادق : وإليه تنسب الفرقة البيانية ، وقالوا : بنبوة بيان وقالوا في ذلك قول الله عز وجل : (هذا بيان للناس وهدى) .

وادعى بيان النبوة بعد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وكتب إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه‌السلام يدعوه إلى نفسه والإقرار له ، ويقول في رسالته للإمام الباقر عليه‌السلام : أسلم تسلم وترتقي في سلم ، وتنج وتغنم ، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة وقد أعذر من أنذر .

وحاول بيان أن تكون له شخصية لتركيز دعوته ونشر مبادئه ، فكان يظهر قدرته على السحر ، وأن عنده الاسم الأعظم ، وبه يهزم العساكر ، ويدعو به الزهرة فتجيبه ، وادعى بنفسه الربوبية ، وقال : أنا البيان ، وأنا الهدى ، وأنا الموعظة . واختلف أصحابه في عقيدتهم فيه :

فمنهم من زعم أنه كان نبياً نسخ بعض شريعة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومنهم من زعم أنه كان إلهاً (٢) .

ويقول النوبختي : إن بياناً كان تباناً يتبن التبن بالكوفة ، ثم ادعى أن محمد بن

---

(١) النوبختي ص ٣٨ .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٤٥ .

علي بن الحسين أوصى إليه ، وأخذه خالد بن عبدالله القسري هو وخمسة عشر رجلا من أصحابه ، فشدهم في أطنان القصب ، وصب عليهم النفط في مسجد الكوفة ، وألهب فيهم النار ، فأفلت منهم رجل فخرج بنفسه ، ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم النار ، فكر راجعاً إلى أن ألقى نفسه في النار فاحترق معهم (١) .

المغيرة بن سعيد : وهو مولى بجيلة ، خرج في أيام أبي جعفر الباقر عليه‌السلام وقتل في أيام الإمام الصادق عليه‌السلام سنة ١١٩ هـ .

وقد استطاع أن يموه على كثير من المتطرفين ، وأن يخدع جملة من الناس وكان ماهراً في دس الأحاديث ووضعها على أهل البيت عليهم السلام .

وقد نسبت إليه عقيدة تأليه علي عليه‌السلام ولم يثبت ذلك لأن الثابت أنه قال : بأن علياً مخلوق (ويبدو أن المغيرية ألهوا علياً متأثرين بالخطابية) (٢) .

وذكر عنه الرواة : أنه ذهب إلى أن ماء الفرات محرم ، وأن كل نهر أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسة فهو أيضاً محرم .

ويقول الشهرستاني : إن المغيرة ادعى لنفسه الإمامة بعد محمد المعروف بالباقر بن علي بن الحسين ، وبعد ذلك ادعى النبوة لنفسه وغلا في حق علي (٣).

ويقول الطبري : كان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور .

ويقول الأشعري : إنه زعم أنه يحيي الموتى بالاسم الأعظم ، وأراهم أشياء من اليزنجات والمخاريق . (٤) .

وقال جرير بن عبد الحميد : كان المغيرة بن سعيد كذاباً ساحراً .

وقال الجوزجاني : قتل المغيرة على ادعاء النبوة ، كأن أسعر النيران بالكوفة على التمويه والشعبذة حتى أجابه خلق كثير .

وقال معاوية : أول من سمعته يتنقص أبا بكر وعمر المغيرة المصلوب .

وقد كانت حركة المغيرة حركة قوية ، وكان لخروجه منادياً لعقيدته دوي أزعج خالد القسري والي الكوفة وأذهله ، وقد سمع به وهو على المنبر ، فنادى أن أطعموني ماء ، يريد أن يشرب فهجاه يحيى بن نوفل بقوله :

تقول من النواكه أطعموني　　　شراباً ثم بلت على السرير

---

(١) الفرق للنوبختي ص ٢٨ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٤ .

(٣) المقالات الإسلامية الأشعري ج ١ ص ٧ — ٨ .

(٤) لسان الميزان لابن حجر ج ٦ ص ٧٦ .

لأعلاج ثمانيــة   وشيخ   كليل الحد ذي بصر ضرير(١)

وكان المغيرة أعمى ، وقول الشاعر : لأعلاج ثمانية : هو أن أصحاب المغيرة الذين خرج بهم ويدعون الوصفاء كانوا ثمانية ، وقيل : سبعة .

براءة الإمام الباقر والصادق من المغيرة :

ومهما يكن من حديث هذا الرجل ، فإنا نود أن نكشف واقعه على أضواء أقوال أهل البيت فيه ، وفي أضرابه الذين تنكروا للمسلمين ، وتآمروا عليهم قصد الوقيعة فيهم .

قال كثير النواء : سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول : برىء الله ورسوله من المغيرة بن سعيد ، وبنان بن سمعان ، فإنهما كذبا علينا أهل البيت (١) .

وقال محمد بن عيسى بن عبيد : إن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرحمن (٢) وأنا حاضر: وقال له يا أبا محمد ما أشدك في الحديث؟ وأشد إنكارك لما يرويه أصحابنا ! فما الذي يحملك على رد الأحاديث ؟

فقال يونس : حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبدالله الصادق يقول عليه السلام : لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة ، وتجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة ، فإن المغيرة بن سعيد دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها ، فاتقوا الله ، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا ، وسنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم

وفي رواية أخرى : عن يونس عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبدالله عليه السلام يقول : كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي ، ويأخذ كتب أصحابه وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب ، فيدفعونها إلى المغيرة ، وكان يدس فيها الكفر والزندقة ، ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى

---

(١) لسان الميزان ج ٦ ص ٧٦ .

(٢) يونس بن عبد الرحمن ، أبو محمد مولى علي بن يقطين ، المتوفى سنة ٢٠٨ هـ كان من تلامذة الإمام موسى بن جعفر وعلي بن موسى الرضا (ع) وكان الإمام الرضا يشير إليه في العلم والفتيا ، وكان من خاصة الإمام الرضا ووكيله ، وله تصانيف كثيرة منها : كتاب الأرث ، كتاب الزكاة ، كتاب جوامع الآثار ، كتاب الشرائع ، كتاب الصلاة ، كتاب العلل الكبير ، كتاب علل الحديث ، كتاب الجامع الكبير في الفقه ؛ كتاب تفسير القرآن ، كتاب الرد على الغلاة . وغيرها يبلغ عددها الثلاثين كتاباً . قال ابو جعفر البصري : دخلت مع يونس بن عبد الرحمن على الرضا (ع) فشكى إليه ما يلقى من أصحابه : فقال (ع) : دارهم فان عقولهم لا تبلغ ،توفي يونس بالمدينة المنورة سنة ٢٢٨ هـ .

أصحابه ، ثم يأمرهم أن يبثوها في الشيعة ، فكل ما كان في كتب أبي من الغلو فذاك مما دسه المغيرة بن سعيد في كتبهم .

وعن عبد الرحمن بن كثير قال : قال أبو عبدالله عليه السلام يوماً لأصحابه : لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن الله يهودية كان يختلف إليها ، يتعلم منها السحر ، والشعبذة ، والمخاريق ، إن المغيرة كذب على أبي فسلبه الله الإيمان ، وإن قوماً كذبوا عليّ مالهم ؟ أذاقهم الله حر الحديد . فو الله ما نحن إلا عبيد خلقنا واصطفانا ، ما تقدر على ضر ولا نفع ، إن رحمنا فبرحمته ، وإن عذبنا فبذنوبنا ، والله ما بنا على الله من حجة ، ولا معنا من الله براءة ، وإنا لميتون ، ومقبورون ، ومنشورون ، ومبعوثون ، وموقفون ، ومسؤولون ، ما لهم لعنهم الله ، فلقد آذوا الله ، وآذوا رسول الله في قبره ، وأمير المؤمنين ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، وها أنا ذا بين أظهركم ، أبيت على فراشي خائفاً ، يأمنون وأفزع ، وينامون على فراشهم وأنا خائف . ساهر وجل ، أبرأ إلى الله مما قال فيّ الأجدع ، وعبد بني أسد أبو الخطاب لعنه الله ، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب أن لا يتقبلوه ، فكيف وهم يروني خائفاً وجلا أستعدي الله عليهم ، وأبرأ إلى الله منهم !! إني امرؤ ولدني رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معي براءة من الله ، إن أطعته رحمني ، وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً .

وعلى أي حال : فهو عليه السلام كان مهتماً غاية الاهتمام بأضرار هؤلاء المندسين بين صفوف الأمة ، فكان قلقاً منهم ، ويعلن للناس براءته منهم ، ويبين لهم كذب ما يدعيه أولئك المخربون ، الذين أرادوا أن يفسدوا المجتمع وأن يثيروا الفتنة ، بادعاء التأليه لأهل البيت مع أنه عليه السلام يعترف بأنه عبد من عبيد الله ، وأنه ميت ومبعوث .

كما يتجلى لنا عظيم اهتمامه بفتنة هؤلاء ، فهو خائف وجل يبيت على فراشه قلقاً ، لا يقر به قرار ، خشية اتساع هذه الفتنة ، وتطاير شررها ، فلا يعود ذلك على المسلمين إلا بأوخم العواقب .

هذا وقد نشط المغيرة في دعوته الإلحادية ، كما قدمنا وأمر أصحابه بإظهار الدعوة ، من السر إلى العلن ، وكانوا سبعة نفر يدعون الوصفاء ، وكان خروجهم بظهر الكوفة . فأخبر خالد القسري بخروجهم وهو على المنبر ، فقال : أطعموني ماء . لانزعاجه وخوفه ، فهجاه ابن نوفل كما تقدم .

ولما ظفر به خالد أتى به مع سبعة نفر ، ثم أمر بسريره فأخرج إلى المسجد ،

وأمر بأطنان القصب ونفط ، فأحضروا ثم أمر المغيرة أن يتناول ، فكع عنه ، وتأنى.فصبت عليه السياط ، فتناول طناً فاحتضنه فشد عليه ، ثم صب عليه وعلى الطن نفط ، ثم ألهبت فيهما النار فاحترقا ، ثم أمر الرهط ففعلوا (١) .

وقال أبو بكر بن عياش : رأيت خالد بن عبدالله القسري حين أتى بالمغيرة بن سعيد وأتباعه ، فقتل منهم رجلا ، ثم قال للمغيرة أحيه ، وكان يريهم أنه يحيي الموتى ، فقال والله ما أحيي الموتى . فأمر خالد بطن قصب فأضرم ناراً ، ثم قال للمغيرة اعتنقه فأبى ، فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه والنار تأكله . فقال خالد هذا والله أحق منك بالرياسة ، ثم قتله وقتل أصحابه ، وذلك حدود سنة ١١٩ هـ .

أبو منصور العجلي : وهو أبو منصور مشهور بكنيته ، نشأ في البادية ثم استوطن الكوفة ، وله بها داراً ، وكان عربياً من عبد القيس .

جاء هذا الرجل ببدع ودخل في ميدان ذلك الصراع العنيف ، وادعى أن الله عز وجل عرج به إليه ، فأدناه منه وكلمه ، ومسح على رأسه ، وقال له : أي بني ، وادعى أيضاً أنه نبي ورسول وأن جبرائيل عليه السلام يأتيه بالوحي من عند الله عز وجل ، وأن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالتنزيل، وبعثه هو « يعني نفسه » بالتأويل . وكان يرى وجوب قتل من خالف دعوته ، لأنهم مشركون فيقول لأصحابه : من خالفكم فهو مشرك كافر فاقتلوه . فإن هذا جهاد خفي .

قام هذا الرجل بنشاط . وعلم أصحابه الثبات والشجاعة ، وراح يطلب الوسائل التي ينجح بها في تقوية حركته ، وتركيز زعامته ، وأعلن أولا أنه من أتباع أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ، ولكن أمله لم يتحقق فإن الإمام أبو جعفر عندما بلغه أمره أظهر لعنه ، والبراءة منه ، وطرده من حظيرة أتباعه ، ولما فشل في حيلته هذه ادعى أنه إمام وحده ، ودعى الناس إلى اتباعه ، وأنه الإمام الشرعي المستقل ، ثم ترقى له الأمر فأصبح نبياً ، وقال : إن الرسالة لا تنقطع أبداً . بمعنى أن الأنبياء يظهرون في جميع العصور والأوقات . وهذه المقالة تبرر ادعاءه بالنبوة ، وكذلك ادعى أن النبوة في ستة من ولده .

وقد تنبأ ابنه من بعده ، وادعى مرتبة أبيه ، وتابعه على رأيه بعض السفلة ، وكان مصيره القتل .

واستمر أبو منصور ببدعته وغوايته ، وقد لقبه الإمام الصادق عليه السلام بأنه

---

(١) الطبري ج ٩ حوادث سنة ١١٩ هـ .

رسول إبليس عند ما أعلن للناس خبث سريرته ، وعظم خطره ، وقد حذر الناس منه وأمرهم بالابتعاد عنه ، ولعنه ثلاثاً (١) ودعا عليه ، ولم يكد يوسف ابن عمر الوالي زمن هشام بن عبد الملك يقف على أمرهم ، حتى تصدى له ولأصحابه ، فقتلهم صلباً ، وتزعم ولده فيمن لقي من أصحاب أبيه ، وادعى النبوة أيضاً ، فأخذه المهدي ، وقتله وتتبع أصحابه .

وهكذا ينتهي آخر دور يلعبه دعاة الفرقة من أعداء الإسلام ، الذين أرادوا أن يفتكوا بأهله ، انتصاراً لمبادئهم ، وحباً للسلطة والنفوذ ، فاستعملوا شتى الوسائل في تحقيق ذلك ، ولكن محاولتهم فشلت ، لقيام دعاة الإصلاح في إيضاح مفاسدهم ، وبيان خطرهم ، وسوء نواياهم ، حتى زالوا من صفحة الوجود .

وقد أخطأ الأستاذ محمد جابر عبد العال مؤلف كتاب حركات الشيعة المتطرفين ، حيث يذهب إلى بقاء تلك الحركة ، وإن جابر الجعفي تزعمها بقوله : قتل المغيرة وصلب بجوار بيان بواسط ، كما قتل أصحابه ، ولكن حركته لم تخمد ، إذ تزعمها من بعده جابر الجعفي ، وأنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة نفسه (٢) .

وهذا القول خارج عن حدود الصحة ، وبعيد كل البعد عن الواقع ، وهو تهجم شنيع ، وافتراء فاضح ، فإن علماء الحديث هم أدرى بجابر وأعرف بمنزلته ، وليعرني الأستاذ سمعه لأنقل له شهادة علماء الرجال الأعلام:

يقول ابن المهدي : ما رأيت في الحديث أورع من جابر .

وقال ابن عليه : جابر صدوق في الحديث .

وقال شعبة : إذا قال جابر حدثنا وسمعت فهو من أوثق الناس .

وقال وكيع : مهما شككتم فلا تشكوا في أن جابراً ثقة .

وقال ابن عبد الحكم : سمعت الشافعي يقول قال سفيان الثوري لشعبة : لإن تكلمت في جابر لأتكلمن فيك (٣) .

ولا نطيل الكلام حول منزلة جابر العلمية ، فقد روى عنه خلق كثير ، منهم : شعبة ، والثوري ، واسرائيل ، والحسن بن حي ، وشريك ، ومسعر ، وأبو عوانة ، وغيرهم وخرّج حديثه الترمذي في صحيحه وأبو داود في سننه وابن ماجه .

---

(١) الكشي ص ١٩٦ .
(٢) حركات الشيعة المتطرفين ص ٤١ .
(٣) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٤٨ .

هذا وإن مدحه والثناء عليه من أهل البيت ثابت متواتر ، ولا أدري من أين جاء الأستاذ بهذه الفكرة الخاطئة ولعله اعتمد على البغدادي في الفرق إذ يقول عند ذكره لمن ذهب إلى رجعة محمد بن عبدالله بن الحسن ، ويقال لهم المحمدية لانتظارهم محمد بن عبدالله : وكان جابر على هذا المذهب وكان يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة (١) ا هـ . والبغدادي معروف بتقوله وكذبه في نقله ، فقد أورد في كتابه أموراً لا صحة لها . ولنفترق هنا تاركين الحديث عن كثير من الأخطاء التي وقفنا عليها في مؤلفه ، ونقله أموراً لا صحة لها ، وحكمه على أشياء بدون تثبت ، وإن الأستاذ عبد العال قد خالف الحقيقة ، فلقد غرب وشرق ، وتقول وتأول ، والكتاب بمجموعه نقد لاذع ، وكذب فظيع ، ولقد مثل في كثير من آرائه أفكاره الضيقة ، ونظرته القاصرة ، لأنه أثبت أشياء على غير تأمل للواقع ، بل إعراضاً عن الحق ، وتجاوزاً عن الحقيقة ، واستسلاماً للهدف الذي من أجله يقصده في تأليفه .

ولقد مررت على تلك الأخطاء المتراكمة مر كرام ، وعسانا نلتقي به مرة أخرى ، وهو واحد من مجموعة كبيرة من الكتاب ، الذين يقولون بدون تدبر وأكثرهم يتقول انتصاراً لمذهبه ، أو خضوعاً لعاطفته .

دراسة حركة الغلاة ناقصة :

وعلى أي حال فإن حركة الغلاة هي من أخطر العوامل التي لعبت دوراً هاماً في المجتمع الإسلامي ، وإن دراستها لا تزال حتى اليوم ناقصة بل غامضة ، لوجود الكثير من التشويه واللبس ، فالوقوف عليها ببيان ووضوح من المشقة بمكان ، إذ لم تدون آراء أولئك القوم بأقلام دعاتهم ، فلم تكن لهم مؤلفات تدون بها عقائدهم ، وذلك لأن حركتهم كانت قصيرة العمر سريعة الزوال ، لما قام به أهل البيت عليهم السلام في تفريق صفوفهم ، وصدع شملهم عندما أعلنوا البراءة منهم ، ولعنوهم ، وحذروا المجتمع الإسلامي من نواياهم الخبيثة ، فكانت عاقبتهم إلى الزوال ، وجمعهم إلى الشتات .

وإن كثيراً ممن كتب في هذا الموضوع وتناوله بالبحث ، لم يقصد جلاء الغامض ، وإظهار الحقيقة ، وإنما القصد من ذلك هو التشويه ، والتضليل ،

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٧ .

ونشر ما يساعد أعداء الدين الإسلامي على الوقيعة في أهله ، لأن أولئك الذين تناولوا حركة الغلاة بالبحث لم يتحروا الدقة في إيراد ما جاء في كثير من الروايات ، ولم يدرسوا الظروف التي ساعدت على نشر تلك الأفكار الخاطئة والعقائد الفاسدة ، التي حاول نشرها في المجتمع الإسلامي ، وإن أولئك الكتاب يجهلون العوامل التي أدت إلى قيام تلك الحركة ، أو أنهم يتعصبون فيحيدون عن الواقع ويتنكرون للحقيقة ، وإن الجهل والتعصب هما اللذان يجعلان كثيراً من الكتاب والمؤرخين يتجاهلون قيمة إظهار الحقيقة وبيان الواقع. وأنهم يكتبون لا للتاريخ والحقيقة ، وإنما يكتبون للمغالطة والوقيعة ، ولم يدركوا خطر أخطائهم وعظيم جنايتهم على الإسلام ، في فتح باب التدخل لأعداء الإسلام .

الغلاة والشيعة :

وكيف كان فقد ظهر لنا أن حركة الغلاة كانت ضد أهل البيت عليهم السلام بصورة خاصة ، وضد الإسلام بصورة عامة ، فإن ما يدعون إليه إنما هو ضد ما دعى إليه الإسلام ، وأهل البيت هم أقطاب الإسلام ودعاته ، والذين بذلوا أنفسهم في سبيل إعلاء كلمته ، والمحافظة على مبادئه ، ونشر تعاليمه ، وأن التشيع بمفهومه الواقعي هو اتباع علي عليه السلام ومشايعته مع أن بعض الفئات من الغلاة كانوا يكفرون علياً عليه السلام كالكاملية فكيف يصح عدهم في عداد الشيعة .

وكيف يصح أن تجعل البيانية من فرق الشيعة ، وهذا زعيمهم (بيان) يحاول أن يكون الإمام الباقر من أتباعه ، عندما يكتب إليه يدعوه لنفسه ، والإقرار له ، فيقول في رسالته للإمام الباقر : أسلم تسلم ، وتنج وتغنم ، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة ، وقد أعذر من أنذر .

فهل بعد هذا من مجال لمتقول أو زاعم ، بأن تجعل هذه الحركة من حركات الشيعة ، ولكن الخصومة توجد من لا شيء شيئاً ، وتفسر الحوادث بما تشتهي .

والمغيرية وأتباعها يذهبون إلى تكفير أهل البيت والشيعة أجمع ، لأنهم يرون كفر من خالفهم ، ووجوب قتله ، وهل وجدت دعوتهم معارضة من قبل فئة كما وجدت من قبل الأئمة وشيعتهم ، فكيف يصح عدهم في سجل

الشيعة ؟ وهكذا إلى آخر ما وقفنا عليه .

والشيء الذي نريد أن نقوله هو : إن حركة الغلاة قد شلت في تلك المعارضة التي صدرت عن الإمام الصادق وزالت آثارهم بسرعة . ولكن الأغراض السياسية العمياء عندما حاولت الحط من كرامة أهل البيت قد جعلت حركة الزنادقة مرتبطة بالتشيع ، (وأنه كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة ، إذ رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الرافضة دليلاً على الزندقة ، وداعياً إلى الاتهام بها) (١) .

وقد قامت الدولة في أيام المهدي بمطاردة من يتهم بالزندقة والقضاء عليه ، فقتل بتلك التهمة خلق كثير ، ولم يكن كل هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة حقاً ، وإنما كان منهم من يتهم بالزندقة لأسباب سياسية ، فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم ، ممن لم يساير ركبهم أو يتحسسون فيه عدم الميل إليهم ، كما كانوا يتهمون بذلك بعض الهاشميين الذين يريدون القضاء عليهم ، فقد اتهم ابن من أبناء داود بن علي العباسي ، ثم يعقوب بن الفضل وأتي بهما إلى الخليفة المهدي .

وعلى هذا النحو فقد فتح باب التشفي والانتقام بتهمة الزندقة ، ليكون ذلك مبرراً لقتلهم ، ولم يقتصر الأمر على الخلفاء في اتهامهم الخصوم بالزندقة بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام — الباطل غالباً — بالزندقة سبيلاً الكيد والوقيعة بنظرائهم ، أو خصومهم الذين يحقدون عليهم (٢) .

وبهذا فتحت أبواب التهم على الشيعة لأنهم الحزب المعارض للدولة والخصوم لحكام الجور فكان ما كان من تهم وتقول وافتراء .

حركة الغلاة ضد الإسلام :

عرفنا أن هذه الفئة الضالة ، تكمن وراء قوة الدس والوقيعة والتفرقة ، وبعث الشك والريبة في النفوس ، ولو طال بها الزمن لاستطاعت أن تؤثر ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، على ذوي العقول الضعيفة ، وتجرفهم بتيارها ، ولكن لم يثبت التاريخ أنهم أثروا على أحد ممن له صلة بأهل البيت ، فمال إلى أقوالهم .

---

(١) تاريخ الالحاد في الاسلام لعبد الرحمن بدوي ص ٣٩ .

(٢) الطبري ج ص ٤٩٠ والجهشياري ص ٨٩ — ٩٠ .

وليس في مقدور أي أحد أن يغفل حقيقة هامة ، وهي أن هؤلاء المتدخلين في صفوف الأمة ، قد دفعهم بغضهم للإسلام على أي لون كان ، وأن الذين انتحلوا حب أهل البيت منهم إنما كان الباعث لهم هو العداء لأهل البيت ، وبغض دعوتهم الإصلاحية ، وهم يعلمون ما لأهل البيت من أثر في نفوس المسلمين ، وإن اتساع شهرة الإمام الصادق العلمية ، وكثرة الوفود على مدرسته لانتهال العلم ، إنما هو دليل قاطع على قوة تمسك المسلمين بمبادئهم ، وهذا أمر لا يروق لفئة تحاول محو تلك المبادىء . وتضليل الناس . وإنهم اتخذوا الكوفة مقراً لنشر الدعوة الإلحادية ، لأن في الكوفة نشاطاً شيعياً ، وحركة فكرية ، وفيها ما يزيد على ألف محدث ، يحدث عن الإمام الصادق ، وفيها من العناصر المختلفة ، من غير المسلمين ، ولكن الكوفة ، بصفتها العامة ، عربية مسلمة ، توالي أهل البيت .

لهذا جعلت الدعوة في مركز من المراكز الحساسة ، لكي يبثوا سمومهم ، وينشروا آراءهم وعقائدهم الفاسدة ، فيتناقلها الناس ، ومصدرها الكوفة . والكوفة ، شيعية فتسجل تلك العقائد على سجل الشيعة ، الذين هم شوكة في عيون السلطة ، التي يحلو لها أن توسع هذه الشقة وتؤيد هذه الدعاية .

ولقد راح أولئك الخصوم يشيعون الأكاذيب ويتقولون الأقاويل على أهل البيت ، طبقاً للمخطط الذي رسموه في محاربة الدعوة الإصلاحية ، التي قام بها الإمام الصادق عليه السلام — كما تقدم ذكرها — وقد وجدوا العون والحماية ، من قوم يروق لهم ذلك ، وتحلو لهم الوقيعة لشيعة علي عليه السلام عندما ترتبط الزمرة الملحدة بعجلة التشيع ، فيكون ذلك دليلا على ما يتقولونه في ذم الشيعة ، وشل نشاط حركتهم ، في عصر تحرر الفكر وازدهار العلم .

ولا يفوتنا أن نقول بأن هذا التعاون مع خصوم أهل البيت قد بقي إلى العصور المتأخرة ، فهم ينشرون تلك الافتراءات البالية ، ويلبسونها ثوباً جديداً ، تضليلا للناس وحباً في إثارة الشغب ، فكلما أراد المصلحون حل مشكلة الفرقة والدعوة إلى التقارب ، ذهب الكثيرون — ممن لا يروق لهم الصفاء والتقارب — إلى زيادة التعقيد ، واتساع شقة الخلاف ، في نشر دفائن السلف ، وعرض الأفكار البالية ، وهو أسلوب يتخذونه لشل كل محاولة ساعية نحو الإصلاح ، بحيث يجعلون من المستحيل على القوى المتخاصمة أن تتفق أو تتعاون .

إنهم يريدون أن نبقى متخاصمين إلى أن يحطم أحدنا الآخر ، وهذا هو

ما يصبو إليه أعداء الإسلام ويسعون بكل جهدهم لتحقيقه .

إنهم يريدون أن يبقى المسلم لا يطمئن إلى أخيه المسلم ولا يتعاون معه .

إننا في أيامنا هذه يتهددنا عدو قد تزايد خطره ، عدو قد سطى على مبادئنا ومجتمعنا ، يبث سمومه ويتستر بمختلف الأثواب ، ويستعمل شتى الأساليب ، فجرف بعض شبابنا بدعايته الكاذبة ، وأقواله الفارغة .

إننا أمام موجة إلحادية عارمة ، تسندها أمة ذات قوة وعدة ، تحاول أن تفصل بيننا وبين قوتنا الروحية ، وعقيدتنا الإسلامية .

إنها قوة تنذر بالخطر ، وتدعو إلى الاهتمام ، واتخاذ التدابير في ردها ودفع خطرها ، ولا يمكننا ذلك ونحن يكفر بعضنا بعضاً ، ويبتعد بعضنا عن بعض ، ويتهم بعضنا الآخر ، بأمور أكل الدهر عليها وشرب ، تلك أشياء وجدت لغاية التفرقة بين المسلمين ، لأن في اتحادهم هدماً لمعاقل الحكم الجائر ، ولا يمكن لحكام الاستبداد أن يعيشوا في مجتمع تسوده مشاعر المحبة والوئام .

إننا أمام تيارات دولية ، وأطماع استعمارية ، وأعاصير فكرية ، فهل نتنبه لهذه الأخطار المحيطة بنا ، ويكفينا ما حل بنا من وراء المنازعات الطائفية ، التي اتخذها المتعطشون على السيادة أقوى وسيلة لتحقيق أهدافهم وإشباع رغباتهم

يجب علينا أن ندرس الظروف القاسية التي حلت بالمسلمين فأدت بهم إلى هذا التأخر والانحطاط ، فكل ذلك ناجم عن التفرقة والخصومة والتعصب .

يجب علينا أن نتفاهم وأن نسعى لإزالة الحواجز التي تحول بيننا وبين تقاربنا ، إننا على حق والحق يعلو ولا يعلى عليه ، والإسلام فوق كل شيء ، وتحت رايته تتحقق السعادة ، وفي مبادئه تسعد الإنسانية .

نحن أبناء اليوم والمطلوب منا أن نحتفظ بأمانة الإسلام ، وأن ندافع عنه بكل ما نتمكن ، فإن أمامنا أخطار المبادىء الهدامة ، التي تحارب التوحيد ، وتنصر الإلحاد ، وقد أعدت العدة وأكملت القوة ونحن نبقى عاكفين على نبش الدفائن ، وإثارة الضغائن بأفكار بالية وآراء شاذة .

إن تلك الخرافات والأوهام قد أصبحت في خبر كان ، وقد زالت على أيدي دعاة هدى وأئمة رشاد ، إذ حفروا لها قبوراً بمعاول الحق ، فزال أثرها ونسي خبرها .

دعونا من فتح سجلات الماضي ، وليقف كل واحد منا إلى جانب أخيه المسلم ، يشد أزره ، فإن الأمة الإسلامية أحوج إلى وحدة الصف أكثر من أي وقت مضى ، لأنها تمر بنفس المراحل الأولى التي تعرضت فيها لحملات دعاة الفرقة .

حوار وتصويب :

ويطول بنا المقام إن أردنا أن نطيل الحديث عن الأساليب التي اتخذت لاتهام الشيعة بأمور هي أبعد ما تكون عن الواقع ، وقد دعانا إلى استعراض هذا البحث ، ما وقفنا عليه من الشذوذ عند بعض الكتاب الذين انحرفت أقلامهم عن تسجيل الحقائق العلمية وجرت في ميدان التعصب ، ولم تجعل للواقع أي قيمة ، ونحن لم نحاسبهم على ذلك الانحراف والانعطاف نحو جهة معينة ، لا الجهة التي يقتضيها الحق ويدعو إليها البحث العلمي .

وليس في استطاعتي الآن تعداد أولئك الكتاب ومناقشتهم ، ولكني أود أن أناقش بعضاً منهم ممن صدرت كتبهم في العهد القريب ، ففيها من التعصب والتحيز ، ونكران الحق ، ما يدعونا إلى الأسف الشديد أن يصدر هذا من علماء مثقفين .

وعلى أي حال فإنا نقف معهم وقفة قصيرة ، ونلتقي بهم لقاء ودياً ، ونعاتبهم عتاباً أخوياً ، ونطلب منهم التثبت فيما ينقلونه ، وأن يتحروا الصدق فيما ينقلونه ، فإن وراءهم حساب الأجيال ، وحساب الله أعظم .

وها نحن نلتقي بالأستاذ الشيخ علي الغرابي ، وهو أستاذ في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، ومؤلف كتاب (الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين) .

يتحدث هذا الشيخ عن تاريخ العقيدة ، وعن نشأة علم الكلام ، ثم يتحدث عن الفرق ، ويطيل الحديث عن المعتزلة ، ولا نود أن نطيل الوقوف معه ، فالوقت أثمن من ذلك ، ولكنا نريد أن نتعرض لهفواته في ذكر فرق الشيعة ، وبذلك نعرف مدى تأثر الأفكار بالإيحاءات الكاذبة ، كما نلمس تراكم الترسبات الطائفية ، التي لم يستطع الواقع إزالتها من بعض القلوب ، وإن التنور وانكشاف الأمور لم يزدها إلا زيفاً وضلالا .

يقول الشيخ : (ب) الشيعة :

١ ــ نبذة عن فرقهم وبعض آرائهم :

أصناف الشيعة وعلة تسميتهم :

إنما سموا شيعة لأنهم شايعوا علياً وقدموه على أصحاب رسول الله ﷺ وهم ثلاثة أصناف :

(١) الغالية وسبب تسميتهم :

وإنما سموا غالية لأنهم غالوا في علي ، وقالوا فيه قولا عظيماً ، وهم خمس عشرة فرقة .

ثم يعدد الفرق بأسمائها ، وهي أسماء بلا مسميات ، مع أن أكثر هذه الفرق لا ينطبق على تعريفه الأول ، فهم يغالون في علي ولم يدعوا ألوهيته ، ولكن الشيخ لم يكن باحثاً متثبتاً .

ثم ينتقل الشيخ بحديثه إلى الصنف الثاني من أصناف الشيعة ، وهم الرافضة ، فيقول : وإنما سموا رافضة برفضهم أبا بكر وعمر إلى أن يقول : والرافضة أربع وعشرون فرقة سوى الكاملية ، ويسمون الامامية نقولهم بالنص على علي ابن أبي طالب .

ثم يقول : الفرقة الأولى من الرافضة (القطعية) :

وإنما سموا قطعية لأنهم قطعوا على موت (موسى بن محمد بن علي) وهم جمهور الشيعة ، وهم يقولون بالنص على إمامة علي بن أبي طالب ، وإن علياً نص على إمامة ابنه الحسن ، وإن الحسن نص على إمامة أخيه الحسين ، وهكذا يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى (محمد بن الحسن بن علي) وهو الغائب المنتظر عندهم وإنه سيظهر فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً .

ثم يذكر الكيسانية وإن فرقهم إحدى عشرة فرقة .

ويتحول الشيخ إلى ذكر فرقة الزيدية ويذكر بعض آرائهم . ولا يهمنا حديثه عن ذلك ، والمهم أن ننبهه على بعض أخطائه وما أكثرها ، ولا نريد أن نشدد الحساب عليه فهو مقلد لغيره أو متعصب وكلا الأمرين يحولان دون إظهار الحقيقة وبيان الواقع .

ونحن أولاء نترك إطالة الوقوف معه لنناقشه على آرائه التي استمدها من مصادر غير موثوق بها إن كان ينقل عن مصدر ، وإلا فهو جاهل بحقيقة الحال

إن الشيخ يريد أن يتحف المسلمين بهذا العصر المكفهر بسحب العداء لهم ، والمزدحم بأفواج النقمة منهم والسخط عليهم من قبل خصوم يريدون أن يفرقوا الشمل ويثيروا الفتنة .

نعم لا نريد نقاشه ، ولكنا نود أن ننبهه لبعض الأخطاء التاريخية عساه أن يتقبل ذلك فيرجع عن طريق الانحراف :

إنه يقول في القطعية : إنهم قطعوا على موت (موسى بن محمد بن علي) . وهذا خطأ من عدة جهات :

١ ـ أنه لا يوجد إمام من أئمة أهل البيت اسمه موسى بن محمد بن علي ،

ولا نعرفه ولا يعرفه كل أحد ، فمن أين جاء الشيخ بهذا الاسم ؟ ! فهل كان يقصد به الإمام موسى بن جعفر ، فإن كان كذلك ولكنه يجهله ولم يتعرف عليه ، ولا يدري من هو ، فكيف يرجى الصواب من باحث يجهل إماماً له منزلة عظيمة ، ومكانة اجتماعية ، وشخصية أخافت الدولة ، وأقضت مضاجعها ، وهي في عظمتها وأيام عزتها . فكان الرشيد أيام عظمته وقوة سلطانه يخشى صولة الإمام موسى بن جعفر وهو في محرابه ومجلس علمه .
إذاً فلا يصح وصف القطعية بأنهم قطعوا على موت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لأن القطعية هم الذين قالوا بأن الإمامة انقطعت على الإمام جعفر الصادق في حياته ، وصارت في ولده اسماعيل .

فقول الشيخ إن القطعية قطعوا على موت موسى أمر مقطوع بكذبه وبطلانه.

٢ — مع التنزل من أنهم قطعوا على موت موسى ، فما معنى قوله في وصفهم بأنهم يقولون بانتقال الإمامة بالنص في أبناء الحسين إلى محمد بن الحسن بن علي ، وهو الغائب المنتظر .

وعلى هذا فلا يصح القول بالقطع على موت الإمام موسى ، بل ساقوا الإمامة إلى ولده الرضا عليه السلام ومن بعده بولده الهادي ، ثم إلى الإمام العسكري ثم إلى الغائب المنتظر عليه السلام فهم على هذا يعدون من الشيعة الاثني عشرية لا القطعية ، فكيف يحصل الاتفاق في قوله الأول بأنهم قطعوا الإمامة على موت موسى ؟ ؟

٣ — يقول : وهم — أي القطعية — جمهور الشيعة .

ونحن نسائله هل وقف على مؤلفات الشيعة فوجد أثراً يذكر للقطعية ، وهل عرف منهم جماعة حتى يصح له أن يعبر عنهم بأنهم جمهور الشيعة ، نعم جمهور الشيعة هم الاثنى عشرية ، ولعل الشيخ لم يفرق بين قوله بالقطع على موت الإمام موسى ، وبين القول بسوق الإمامة إلى من بعده من أولاده وأحفاده .

موقف مع شيخ أزهري :

وهذا عالم آخر من علماء الأزهر الشريف وأستاذ بكلية أصول الدين وهو الشيخ محمد أبو زهو نلتقي معه في كتابه (الحديث والمحدثون. المطبوع سنة ١٣٧٨ هـ. ١٩٥٩ م) .

تعرض الأستاذ في كتابه إلى ذكر الشيعة ، وننقل بعض ما قاله ودوّنه يقول : كانت الفكرة الأولى في التشيع : أن جماعة من الصحابة يرون بعد موت رسول الله ﷺ أن الخلافة ميراث أدبي لعلي بن أبي طالب ، وأنه أولى بها بعدة أمور منها : إنه أقرب عاصب لرسول الله ﷺ بعد عمه العباس :

ثم يعدد مزايا أمير المؤمنين إلى أن يقول :

رأينا أن فكرة التشيع لعلي تلبس ثوباً جديداً وينضم إليها كثير من الزنادقة، وأرباب الأهواء والمنافقين بقصد الإفساد في الدين .

ثم يقول : وعلى الجملة فقد افترقت الشيعة ثلاث فرق : (الكيسانية) وتولوا محمد بن الحنفية والإمامية (الجعفرية) وتولوا جعفر الصادق (والإمامية) الزيدية وتولوا زيد بن علي بن الحسين .

ويذكر بعد ذلك عقائد الشيعة ويعددها :

١ ــ الرجعة .

٢ ــ النبوة : ادعى بعض الشيعة النبوة لعلي .

٣ ــ الألوهية : ذهبت فرقة من الشيعة إلى تأليه علي .

إلى أن يقول فضيلته تحت عنوان: التشيع ستار لأعداء الإسلام: ويقيني أن التشيع كان ستاراً احتجب وراءه كثير من أعداء الإسلام من الفرس ، واليهود ، والروم ، وغيرهم ، ليكيدوا لهذا الدين ، ويقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية ، فقد كان الفرس يزعمون أنهم الأحرار والسادة ، وكانت لهم الدولة من قديم الزمان ، فلما بدل الله عزهم ذلا ، وصير ملكهم نهباً ، على يد العرب الذين كانوا في نظرهم أقل الأمم خطراً ، .. الخ .

ثم يقول : أخذوا ــ أي الفرس ــ يتحسسون أبواب الضعف عند المسلمين فلم يجدوا باباً أنجع لهم من الحيلة والخداع ، فأظهر جماعة منهم الإسلام ، وانضموا إلى أهل التشيع ، مظهرين محبة أهل البيت ، وسخطهم على من ظلم علياً رضي الله عنه .

ثم يستمر أبو زهو فيذكر صفات الشيعة بما يروق له وما يوحيه إليه وهمه ، إلى أن يقول ــ وما أعظم ما يقول ــ : كان من وراء الشيعة والخوارج ومن على شاكلتهم الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيع ولا بالخروج وتمسكوا بالسنن .

نضع هذه الفقرات التي اقتطفناها من حديث الشيخ بين يدي كل منصف متجرد عن التعصب والتحيز .

إننا نذكر هذه الأقوال والألم يحز بنفوسنا ، والاستغراب يستولي على مشاعرنا ، عجيب ـ وكم أرانا الدهر من عجب ـ أن يصدر مثل هذا التعبير النابي ! ؟ والقول الشائن ، من رجل ينتمي لأكبر مؤسسة إسلامية ، لها مكانتها في المجتمع الإسلامي ، وقد خدمت الأمة على مر العصور ، ولا شك أنها تحرص على جمع الكلمة ، ومحاربة الفرقة ، إنها مؤسسة الأزهر الشريف ، التي قطعت شوطاً بعيداً في خدمة الإسلام . ونشر مآثره .

عجيب أن تصدر مثل هذه الهفوات ، من رجل يعد من كبار علمائها ، إذ أنيط به تدريس أصول الدين ، وتلك أكبر مهمة ينحو الأزهر بتحقيقها .

عذرنا تجاهل الشيخ بنص حديث الغدير الذي هو من أهم الأحداث الإسلامية ، والوقائع التاريخية التي لا يمكن جحودها ، ومن الصعب إنكارها .

فلا نريد أن نذكر الشيخ بالمصادر التي ذكرت هذا النص الجلي ، ولا نريد أن نقدم له قائمة بأسماء الصحابة الذين شهدوا بسماعهم من رسول الله ﷺ يوم قام بذلك الحفل الرهيب ، والجمع الحاشد ، وفي ذلك الهجير المضطرم ، في غدير خم حيث مفترق المدنيين والمصريين ، والعراقيين ، وعدد الجمع لا يقل عن مائة ألف ، وأعلن للملأ الحاشد بخطبته العظيمة ، التي قال فيها : من كنت مولاه فهذا علي مولاه .

نعم لا نريد أن ننبه الشيخ لمراجعة الصحاح التي روت ذلك ، كصحيح مسلم ، والترمذي ، والحاكم وغيرها ، أو نرشده إلى مراجعة الكتب التي ذكر فيها هذا الحديث ، وعددها يربو على ستمائة مؤلف وكتاب .

إن حديث الغدير هو نص صريح ولم يستطع أحد إنكاره ، وإن كان الكثيرون قد وقعوا في كثير من التمحلات والتأويلات ، في المعنى اللغوي للفظ المولى ، ولكن ذلك لم يصل بهم إلى نتيجة مرضية .

نحن نترك هذا للباحث الحر المتجرد عن العاطفة والتحيز ، ولا نطيل الحديث مع الشيخ في هذا الموضوع ، كما أننا لا نطيل الحديث في قوله : ويقيني أن التشيع كان ستاراً احتجب وراءه أعداء الإسلام من الفرس واليهود والروم وغيرهم إلى آخره (١) .

لأن هذه العبارة قد مرت على أسماعنا من كثير ممن يريد أن يثير الفتنة ، وينشر الشغب ، وقد رددها المستشرقون الذين يريدون في أبحاثهم الوقيعة بين

(١) الحديث والمحدثون ص ٩١ .

المسلمين ، وإن فضيلة الشيخ لكثرة اتباعه لأولئك الكتاب ، واقتباسه في تعبيره من عباراتهم ، وضع هذه الآراء الشاذة في إطار اليقين ، كما أن يقيني فيه أنه قاصر عن إثبات ما يدعم دعواه من الطرق العلمية . ويحق لنا أن نسأل فضيلة الشيخ فنقول : لأي شيء لا يكون التدخل من قبل أعداء الدين في صفوف سائر الطوائف هدماً للدين ، وتآمراً على أهله ؟

أليست فرق الكرامية التي يبلغ عددها اثني عشر فرقة وأصولها ستة وهم : العابدية ، والنونية ، والزربنية ، والاسحاقية ، والواحدية ، وأقربهم الهيصمية وهم منتسبون لأهل السنة (١) .

وهؤلاء قد ابتدعوا في الدين ، وأضلوا خلقاً كثيراً ، وقد اندسوا في الحنابلة ، وانتسبوا لأحمد بن حنبل .

وكان مؤسس هذه الفرقة (الكرامية) هو محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، كان أصله من زرنج ، ونشأ بسجستان ، ثم دخل بلاد خراسان ، وجاور بمكة خمس سنين ، ثم أظهر بدعته ، وتبعه خلق كثير ، وشاع ذكره ، حتى قال الشاعر في مدحه :

الفقه فقه أبي حنيفة وحده والدين دين محمد بن كرام
إن الذين بجهلهم لم يقتدوا في الدين بابن كرام غير كرام (٢)

ذهب محمد بن كرام إلى أن الإيمان قول باللسان ، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن .

وزعم ابن كرام وأتباعه : أن معبودهم محل الحوادث ووصفوه ــ تعالى الله عما يصفون ــ بالثقل ، وذلك أن ابن كرام قال في كتاب عذاب القبر في تفسير قوله « إذا السماء انفطرت » إنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها ، ولهم مزاعم كثيرة وآراء باطلة (٣) ولهم في الفقه أقوال .

منها : صلاة المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود ، ولا قيام ولا قعود ، ولا تشهد ولا سلام .

ومنها : صحة الصلاة في ثوب كله نجس ، وعلى أرض نجسة ، ونجاسة ظاهر البدن ، وإنما أوجب الطهارة عن الأحداث دون الأنجاس .

ومنها : أن غسل الميت والصلاة عليه سنة غير مفروضة وإنما الواجب كفنه ، ودفنه .

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٩ .
(٢) لسان الميزان ج ٥ ص ٣٥٤ .
(٣) الفرق للبغدادي ص ١٣٠ – ١٣٧ .

ومنها : القول بصحة الصلاة المفروضة، والحج المفروض بلا نية .

قال الشيخ زاهد الكوثري : وكثير من الكرامية قالوا بحلول الحوادث في الله تعالى وحلوله في الحوادث ، اندسوا بين الحنابلة ، فأضلوا خلائق ولله في خلقه شؤون ، وكذلك فعل البربهارية والسالمية (١) .

ونحن لا نريد أن نتناول بالبحث جميع الفرق التي نسبت لأهل السنة وتزعمها رجال من الدخلاء ، كالمشبهة والمجسمة والمريسية وغيرهم ، لأنا لا نود أن نتبع طريقة من يسطو على القديم من الشبه والآراء ، ويطلوه بطلاء حديث ، تغريراً للبسطاء ، واستمالة للدهماء ، فجمعوا بين جريمتين جريمة الخيانة وجريمة الخداع ، فوق ما اقترفوا من جريمة الطعن في سيرة أهل البيت المنزهين من كل عيب والمطهرين من كل دنس ، وهم حماة الدين وأعلام المسلمين .

عذرنا من ذهب لذلك من السلف ، وعفى الله عما سلف ، ولكن ما ما عذر أبناء العصر الحاضر الذين وقفوا على بواعث تلك الاتهامات الموجهة إلى الشيعة ، وعرفوا أهداف السياسة في ذلك ؟ وهم يتجاهلون حقيقة لا يمكنهم جهلها .

وعلى أي حال فإنا لا نريد إطالة الوقوف مع الشيخ (أبو زهو) في هذا الموضوع ، إذ الأمر يدعونا إلى إطالة البحث ، وتقديم قوائم بأسماء رجال من أبناء فارس ، دخلوا في صفوف فرق المسلمين من غير الشيعة ، ونشروا كثيراً من المذاهب ، ولو أنه أطل ببحثه على تراجم رجال المذهب الحنفي وأعيانه ، لوجدهم من أبناء فارس ، فقد قاموا بنشر المذهب الحنفي ، وساندوا حركته بكل عصر ، ولعل ذلك يكفي لإقناع الشيخ في بطلان قوله .

نعم لا نريد إطالة النقاش فيما تقوله على الشيعة ، ولم يكن هو أول من يسهم في تجاهل الحقائق ، فكم رأينا كثيراً من أمثاله وأعرضنا عن نقاشه .

والشيء الذي يلزمنا أن نقف عليه وقفة أسف وتألم وهو قوله بالمبحث الرابع إذ يقول : كان من وراء الشيعة ، والخوارج ومن على شاكلتهم ، الجمهور الأعظم ممن لم يتدنسوا بالتشيع (٢) ...

هكذا يقول وما أعظم ما يقول. إنه يرى أن الانتساب إلى التشيع دنس، ونحن لا نقول في رده أي شيء ، إلا أننا نطلب ممن قرظوا الكتاب ومدحوه ،

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٢١ .

(٢) الحديث والمحدثون ص ٩٨ .

أن يراجعوا ضمائرهم في صحة هذا القول وهل ارتضوا ذلك ؟ ومن العجيب أن يكون كذلك ! !

أيكون التشيع دنس وقد انتمى إليه كبار الصحابة وخيار التابعين ؟ !

أيكون التشيع دنس وهو اتباع علي وحبه وبغض أعدائه ، وقد دعى رسول الله ﷺ لذلك في بدء دعوته ؟ !

غريب وأيم الحق أن تصدر كلمة كهذه من إنسان يدعي العلم والمعرفة ، ويتصدر للتدريس في أصول الدين .

إنها كلمة خرجت من قلب يحترق غيظاً عندما يبلغه تقارب المسلمين ، في عصر يلزمهم ذلك ، إنه يفقد معنوية لا ينالها إلا بالتفرقة ، وإثارة الفتنة .

أي قلم استطاع أن يسطر هذه الحروف لكلمة عظيم وقعها على المنصفين من المسلمين ، الذين يسوؤهم ما حل بمجتمعهم ، من شحناء وبغضاء ، جرتهما عليهم طائفية رعناء وعصبية عمياء .

فلنترك حساب هذا الشيخ على ما تجناه في كتابه ، وما افتعله في أبحاثه ، ولنا معه عودة إن شاء الله .

كما أننا نترك الوقوف مع غيره من أمثاله ، ومن على شاكلته ، ممن تجردوا للكذب والافتراء ، ونظروا إلى الشيعة من زاوية التعصب الطائفي أو غير ذلك ، فسلوا عليهم سيوف النقمة . ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ .

الناقمون على الإسلام وأهل البيت :

وعلى أي حال إننا إذا أردنا أن نحاسب الناقمين على الشيعة طبقاً للمنطق الصحيح ، على مواقع الخطأ في اتهام الشيعة بأمور لا صلة لها بالواقع ، ولا نصيب لها من الصحة ، فإن الأرقام تقف عن مسايرتنا ، وربما تقف عن الإحصاء ، ولا نريد ذلك ، ولكننا نريد منهم التوسع في التفكير الحر ، وترك المغالطات ، والتثبت في النقل ، فقد مرت العصور التي تدعوهم إلى إثارة الفتن ، وإيقاد نار البغضاء بين المسلمين .

لقد رأينا كيف نشأت تلك الفئات ، وعرفنا الأسباب التي دعتهم إلى الادعاء بالتقرب من أهل البيت .

إن العداء المتأصل في قلوب أولئك المنهزمين أمام قوة الإسلام الذاتية ، حملهم على مقابلته من طريق غير مباشر ، وإن انتحال البعض منهم حب أهل البيت ، والتظاهر بالولاء لهم إنما كان هدفهم في ذلك تغرير البسطاء ، وتضليل العامة ، ممن ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية ، مع أنهم لمسوا رغبة السلطة الحاكمة في تشويه سمعة أتباع أهل البيت ، ليحملوا الناس على الابتعاد عنهم ، وأن يحرموا أغلبية الأمة من الأخذ بتعاليم آل محمد ، لما يدسونه في أحاديثهم ، وما يشوهونه من أقوالهم ، وقد أدرك الأئمة عليهم السلام هذا الخطر العظيم ، فقاموا بمحاربة تلك الفئة الضالة والزمرة الملحدة ، وقد وقف الشيعة إلى جنب أهل البيت في إعلان الحرب على تلك الفئة ، والبراءة منهم وحكموا بنجاستهم وعدم الامتزاج معهم ، فكان نصيب تلك الحركة التي قام بها الملحدون ضد الإسلام بصورة عامة ، وضد أهل البيت بصورة خاصة ، الفشل والانهيار ، وإن نالت الفوز الموقت ، وأثرت في عقول لم يكن لها نصيب من الرجحان ، فذلك أمر يعود للظروف ، ومقتضيات الزمان ، وأنه يدور على تلك القوة الغاشمة ، قوة السلطة المتعسفة ، التي قضت على الأفكار بالجمود لكي يشغل المسلمون فيما بينهم بالتناحر والتطاحن ، ويسكتوا عما هو أخطر وأجدر بالمقاومة والمحاربة ، وهو نظام حكمهم الذي وضعوه حسب أهوائهم الجائرة ، ورغباتهم الجشعة ، ونزعاتهم المتعسفة ، والذي جعلوه مرتبطاً بالإسلام ، وإنه النظام الذي لا يمكن مخالفته ، لأنهم انتحلوا لأنفسهم حق وراثة الحكم ، وحماية الدين وصيانة الإسلام .

وفي النهاية ينبغي أن نضع أمام أعيننا الغاية التي من أجلها التحق أولئك الغلاة بركب الشيعة في نظر الكثير من الكتاب والمؤرخين ، مع بعد المسافة وعدم التقارب ، فإن ذلك لا يعدو نظرة التعصب والانتقاص ، نظراً لمقتضيات الزمن وعوامل السياسة ، كما هو ملموس لمن يطلب الحقيقة ، ويحاول الوقوف على الواقع ، ويجعل نفسه حراً في ميدان البحث ، ولا يعتمد على أقوال من يحاولون بنشر تلك الدعايات الكاذبة غرضاً معيناً ، ويدبرون أمراً مرسوماً ، وهم يلتقون جميعاً على هدف واحد ، ويجتمعون على غرض واحد ، وينسون في سبيل ذلك كل ما يقتضيه العلم ويتطلبه الحق والإنصاف ، من عدم التحيز وترك التعصب ، والبعد عن المغالطة ليبدو وجه الحقيقة سافراً ويتضح الحق (والحق أحق أن يتبع) .

ولكن بمزيد الأسف أن يستولي سلطان التعصب على بعض الناس ،

فيسلبهم حرية الرأي ، ونزاهة النقل ، فيقعون في مأساة الجمود الفكري ، بفقد المرونة والصراحة وخدمة الحقيقة ، لأنهم يتحركون وسط غيرهم من الناس ، ويتنكرون للحقائق ، ويبتعدون عن الواقع ، الأمر الذي أدى إلى عواقب وخيمة لا يحمد عقباها .

المنحرفون عن الحق والشيعة :

ونعود إلى أولئك المنحرفين عن الصواب ، الذين جعلوا من التشيع ستاراً لأعداء الدين ، بل زاد بعضهم فجعل التشيع مبدأ تفرق هذه الأمة ، لأن أصول التشيع من ابتداع اليهود ، كما يقول السيد رشيد رضا : (كان التشيع للخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مبدأ تفرق هذه الأمة في دينها وفي سياستها :

وكان مبتدع أصوله يهودي اسمه عبدالله بن سبأ ، أظهر الإسلام خداعاً . ودعا إلى الغلو في علي كرم الله وجهه ، لأجل تفريق هذه الأمة وإفساد دينها ودنياها) (١) .

نعم نعود فنسائلهم عن هذا التجني الفاضح هل أخذوه من مصدر يوثق به ؟ أم هل وقفوا على شيء من ذلك في كتب الشيعة مما يؤيد ما ذهبوا إليه ؟

ما ذنب الشيعة عندما اقتضت الظروف القاسية أن تحمل أعداءهم على التدخل في صفوفهم ، لتشويه السمعة وفتح باب المواخذة ؟

وهل كل من يدعي الانتساب لقوم يؤخذون بجرمه مع بيان الفارق ، وعدم العلاقة وإظهار البراءة منه والابتعاد عنه .

أي علاقة بين الشيعة وبين الغلاة ، وهل يوجد ربط في العقائد بين الفئتين؟ اللهم إلا من باب المغالطة والتجاهل ، فما هذا التجني يا أيها الكتاب ؟ لقد أبيتم إلا أن تجعلوا حب أهل البيت غلواً ، وثبوت الوصاية لعلي خروجاً عن الإسلام .

انظروا إلى عواقب هذا التطرف والشذوذ ، وكيف أدى إلى تفريق الصف

---

(١) كتاب السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة ص ٤ — ٦ طبع مصر سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ والكتاب يقع في ٢٨١ صفحة وكله سباب وتهجم وتقول بالباطل على رجال الشيعة واعيانهم وقد وضع له (الشيخ احمد حامد الفقي) خاتمة، وأي خاتمة هي انه قد تكلم بلسان لا عهد له بالأداب ، ولا صلة له بالصدق ، وقد أعرضنا عن مناقشته تهاونا واحتقاراً .

وتشتيت الشمل . وتغلب أعداء الإسلام عليهم وحكمهم لبلادهم واستغلالهم لثرواتهم .

وإن تلك الافتراءات التي يصوغها المتحاملون ، ويحوكها المتعصبون ، فهي لا تقوى على مقابلة الحق ، بل تذوب أمام أضوائه ، وتتحطم تحت ضرباته ، والذين يصرون على مثل هذه الأمور ، ويأبون التورع عن مثل هذا الإنحدار ، إنما هم أعداء الأمة الإسلامية جمعاء،وجعلوا من الشيعة هدفاً لأغراضهم ، ليثيروا الفتنة والبغضاء بين صفوف المسلمين فتحققت بذلك أغراضهم السيئة .

أما قضية ابن سبأ فهي أسطورة قديمة ولعبة سياسية ، وتهمة اتهم بها كبار الصحابة من حملة لواء التشيع ، كأبي ذر وعمار وغيرهم .

يقول الدكتور أحمد أمين في فجر الإسلام بعد ذكر مزدك (١) ومذهبه الثنوي : وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس ، ولكن قباذ نكل به وبقومه ، ودبر لهم مذبحة سنة ٥٢٣ هـ كاد يستأصلهم بها .

ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه ، حتى إلى ما بعد الإسلام ، إلى أن يقول:ونلمح وجه شبه بين رأي أبي ذر الغفاري، وبين رأي مزدك في الناحية المالية فقط ، فالطبري يحدثنا أن أبا ذر ؛ (قام بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وظهورهم)(٢) .

من هذه الدعوة التي قام بها أبو ذر الغفاري يستنتج الأستاذ أحمد أمين أن أبا ذر أخذ هذا الرأي من مزدك أو قريب من رأيه . وبعد ذلك يتساءل الأستاذ عن كيفية أخذ أبي ذر لهذا الرأي ، فيستدل بما رواه الطبري : أن ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك ثم يقول : ونحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب به عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من صنعاء ، أظهر الإسلام في عهد عثمان ، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم ، وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة ، قد نتعرض لها فيما بعد ، وكان قد طوّف في بلاد كثيرة : في الحجاز والبصرة،

---

(١) ظهر مزدك في فارس سنة ٤٨٧ هـ وهو من أهل نيسابور ، ودعا إلى مذهب ثنوي جديد ، وكان يقول بالنور والظلمة ، وامتاز بتعاليمه الاشتراكية ، وأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ، فقوي أمره وعظمت شوكته ، واتبعه السفلة ، واغتنموا دعوته فرصة ، فابتلي الناس بهم وقوي امرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله . . .

(١) فجر الإسلام ص ١١٠ .

والكوفة ، والشام ومصر ، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن ، واعتنقها أبو ذر حَسَن النية ، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه ...

ويقول الدكتور حسن إبراهيم في كتابه (تاريخ الإسلام السياسي) بعد أن ذكر بيان الحالة التي كان عليها المسلمون في أخريات خلافة عثمان : فكان الجو ملائماً تمام الملاءمة ، و مهيئاً لقبول دعوة عبدالله بن سبأ ، والتأثر بها إلى أبعد حد .

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم ، اشتهر بالورع والتقوى ، وكان من كبار أئمة الحديث ، وهو أبو ذر الغفاري (١) الذي تحدى سياسة عثمان ، ومعاوية واليه على الشام ، بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً فأسلم ، ثم تنقل في البلاد الإسلامية ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، فالكوفة ، والشام ومصر .

فأنت ترى أن هذا الصحابي الجليل ، الذي امتاز بصدق اللهجة ،ووضوح الحجة ، فاستحق أن يقول الرسول ﷺ عن أخلاقه : (ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر)(٢) قد تجني عليه بما نسبوه إليه من التأثر بآراء مزدك بواسطة ابن السوداء عبدالله بن سبأ ، كما يزعم هؤلاء الأساتذة الذين لا خبرة لهم بالتاريخ ولا معرفة بأحوال الرجال .

ونحن إذ نستعرض مثل هذه الآراء ، لا نريد من ورائها إلا إعطاء صورة عن الشذوذ الفكري ، والخروج عن قواعد الاستنتاج .

كيف يصح القول بأن أبا ذر قد اعتنق رأي (مزدك) ؟؟ وهو خريج مدرسة محمد ﷺ والمنتهل من علومه ، والممتثل لتعاليمه ، وقد وصفه ﷺ بما سمعت آنفاً كما وصفه الإمام علي عليه السلام بقوله : (أبو ذر وعاء مُلىء

---

(١) ابو ذر هو جندب بن جنادة الغفاري ، المتوفى سنة ٣١ ﻫ أمه أم رملة بنت الوقيعة الغفارية ، وهو رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام ، وكان من المتألهين في الجاهلية الذين عبدوا الله وتركوا الأصنام ، ولما اسلم أجهر في اسلامه في البيت الحرام بمكة فضربه رجال من قريش حتى ضرجوه بدمه ، واغمي عليه فتركوه ظناً منهم انه مات ، وقد ورد عن النبي(ص) احاديث كثيرة في مدحه ، ورحل إلى الشام في خلافة عثمان ، فانكر على معاوية سيرته وسوء عمله ، واعلن بالإنكار عليه ، فشكاه معاوية إلى الخليفة ، وأخرجه من الشام ونفاه إلى الربذة حيث توفي بها وحده ، فكان كما قال فيه النبي (ص) : (رحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويبعث وحده) .

ولما انتقل رسول الله (ص) إلى جوار ربه كان أبو ذر غائبا فعاد وقد ولي أبو بكر ، فقال : أصبتم قناعة وتركتم قرابة ، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم اثنان .

(٢) الاستيعاب بهامش الاصابة ج ١ ص ٢١٦ والاصابة ج ١ ص ٦٤ .

علماً ثم أوكيء عليه) (١) .

ومن كان كذلك أيحتاج بآرائه وأقواله إلى يهودي ، فيتأثر بأقواله وآرائه؟ فتكون أساساً لدعوته التي قام بها .

ولكن عوامل السياسة ، ومؤثرات الدعاية توجد من لا شيء شيئاً ، عندما اقتضت الظروف تبرير معاوية في عمله ، وحمله على الصحة ، وأن إنكار أبي ذر عليه كان بدافع عن اعتقاد خارج عن الإسلام ، ولهذا فقد التجأ أنصار معاوية والمدافعون عنه أن يلبسوا دعوة أبي ذر بصبغة التأثر بآراء غير المسلمين . ليسلم معاوية من الطعن ، وإن أصاب الطعن صميم تعاليم الإسلام .

هذا ومع التنزل من صحة قصة ابن سبأ الذي جعلوا منه بطلا لجميع الحركات في ذلك العهد ، فهو الذي رفع صوته بالكوفة إنكاراً على عثمان ، فاستجابت له الجماهير ، ورحل إلى مصر فغير القلوب ، وجهز الجيوش لحرب عثمان ، وأقام في المدينة ، فحول الأمور عن مجراها وأغرى بعض الصحابة ، أمثال أبي ذر ، وعمار بن ياسر (١) ومحمد بن حذيفة (٢) وعبد الرحمن بن عديس (٣) ومحمد بن أبي بكر (٤) وصعصعة بن صوحان

---

(١) الاصابة ج ٤ ص ٦٤ .

(٢) هو أبو اليقضان عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن قيس من بني ثعلبة وامه سمية ، وهو سابع سبعة أظهروا الإسلام وجاهروا به ، وقد قال فيه رسول الله (ص) : ان عماراً ملء إيماناً إلى مشاشه .

وكان من المعذبين في الله هو وابوه وامه ، وقد مات والده متأثراً من تعذيب قريش إياه على إسلامه ، وكان عمار مع علي في حرب الجمل وصفين ؛ وقتل بصفين مساء الخميس ٩ صفر سنة ٣٧ هـ قتله أهل الشام ، فكان قتله مصداقا لقول رسول الله (ص) : (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) .

(٣) هو أبو القاسم محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه سهلة بنت سهيل بن عمر العامرية ، ولد بأرض الحبشة على عهد رسول الله ، وكان من أشد الناس إنكاراً على عثمان ، وذهب إلى مصر ، فأخرج نائب عبد الله بن أبي سرح من مصر ، وبايعه أهل مصر ،ولما ولي علي (ع) أقر محمد بن حذيفة على مصر ، وبقي على إمارته ، وقد غدر به معاوية وسجنه بدمشق وقتله .

(٤) عبد الرحمن بن عديس البلوي المقتول سنة ٣٦ هـ كان ممن شهد الحديبية ، وبايع تحت الشجرة ، وكان ممن أظهر الإنكار على عثمان ، وقاد جيش المصريين لحربه يوم الدار ، وقد سجنه معاوية ، وغدر به بعد المهادنة وقتله .

(٥) محمد بن ابي بكر وامه اسماء بنت عميس ، نشأ في حجر علي ، وشهد معه حروبه ، ثم ولاه مصر سنة ٣٧ هـ فجهز إليه معاوية جيشاً وقتل صبراً ، وادخلوا جسده في بطن حمار ميت فاحرقوه ، وذلك في سنة ٣٨ هـ .

العبدي (١) ومالك الأشتر (٢) : وغيرهم من صلحاء الصحابة وكبار التابعين .

إلى آخر ما نسبوه إليه من أعمال ، وكل ذلك لا يمت إلى الوقع بصلة ، لأن قصة ابن سبأ هي من القصص الخرافية ، وقد تفرد الطبري بذكرها مستنداً إلى سيف بن عمرو التميمي البرجمي الكوفي ، وإذا رجعنا إلى ترجمته لنقف على قيمة ما يرويه ، فإنا نجدهم يصفونه بالوضع للحديث ، ساقط الرواية ، يروي الموضوعات عن الثقاة ، عامة أحاديثه منكرة ، متهم بالوضع والزندقة (٣) إلى آخر ما ورد في وصفه عن علماء الرجال كابن معين وأبي حاتم ، وأبي داود ، والدارقطني ، وابن عدي وابن يحيى ، وابن حبان وغيرهم . وذلك لا يدع مجالا للشك بأن هذا الرجل قد وضع هذه القصة ، ولا يقصد من ورائها إلا الوقيعة في رجال المسلمين ، وإثارة الفتنة فيما بينهم ، طبقاً للخطط التي وضعها الزنادقة في ذلك العصر ، وقد نجح هذا المخطط ، فأصبح ابن سبأ بطلاً مشهوراً يردده الكتاب والمؤرخون .

وتجدر الإشارة هنا إلى ارتباط هذا الاتهام بذلك التحسس الديني الذي أثارته سياسة عثمان ، والتي كانت أول البوادر للتحكم والاستبداد ، وأول ظاهرة في الحكم الإسلامي ، ومن أجل ذلك قام أولئك الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة الرسول الأعظم ﷺ فأنكروا تلك الأفعال ، وعارضوا تلك السياسة ، فعظم ذلك على الأمويين ، وقابلوا أعمالهم بالعنف من جهة ، وبالحط من كرامتهم من جهة أخرى .

وإن نظرة بسيطة إلى واقع الأمر ، فإنا نجد اتهام الصحابة بتلك الأمور إنما هو من أعمال أنصار الأمويين ، لتشويه سيرة أولئك العظماء الذين نقموا على عثمان ، وأنكروا عليه سياسته التي جرّت عليه نقد الصحابة وإعلان الثورة .

والحاصل أن وضع أسطورة ابن سبأ هي لغرض الحط من كرامة المنكرين على عثمان ، ولكن المنصفين من الباحثين لم يستطيعوا السكوت عن هذه

---

(١) صعصعة بن صوحان بن حجير بن المجرس العبدي ، أسلم على عهد رسول الله (ص) وكان خطيباً فصيحاً ، شهد صفين مع علي (ع) ولما استولى معاوية بعد الصلح نفاه إلى البحرين فمات بها .

(٢) هو مالك بن الحرث بن عبد يغوث بن مسلمة بن الحرث بن جذيمة بن مالك النخعي ، أدرك رسول الله ، وكان رئيس قومه ، شهد اليرموك فشترت عينه بها ؛ ولقب بالأشتر ، صحب عليا وشهد الجمل وصفين ، وأرسله علي واليا على مصر فدس معاوية إليه السم في العسل على يد رجل صحبه في الطريق ، ارسله معاوية لهذا الغرض ، وتوفي متأثراً من السم وذلك سنة ٣٨ هـ .

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ج ١ ص ٤٣٨ ، وتهذيب التهذيب ج ٤ ص ٢٩٧ ، وفهرست ابن النديم ص ١٣٧ .

الخرافة البالية ، والأسطورة المضحكة ، والفرية الباطلة ، فصرحوا بما هو الحق ، وأظهروا للناس بطلانها ، وناقشوا نقاط الضعف التي تحوط بها ، فنحن نشكر للمنصفين انتباههم ، كما أننا نأسف لأولئك المخدوعين لانزلاقهم في هوة التعصب ، وانقيادهم للهوى واستجابتهم لداعية التفرقة ، فنحن نمر بلغوهم مر الكرام ، ولنسدل الستار عن فضائح جناياتهم على الحقيقة ، ونكل أمرهم لذوي العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة الذين يقيسون الأمور بمقياس العلم ، وتقترن أقوالهم بالواقع ، ولا يقيمون للخرافات وزناً ولا يجعلون للتقليد الأعمى قيمة .



الإمام الصادق
أجوبة ومناظرات



تمهيد :

تقدم القول أن عصر الإمام الصادق عليه السلام كان عصر مجادلات ونظر ، إذ اتسعت فيه دائرة الخلافات العقائدية ، وانتشرت فيه المقالات المختلفة ، وظهرت هناك عقائد ومذاهب لا تتمشى مع روح الإسلام ، كما أن شبه الزنادقة والملحدين قد ظهرت بصورة علنية ، ولقد وجد يومئذ من ينكر وجود الله ، مستعيناً على إثبات وجهة نظره بالمنطق اليوناني ، إذ ظهرت نتائج التفاعل الفكري بين المسلمين وحضارة اليونان ، وانتشرت مبادىء المنطق اليوناني والفكر الإغريقي .

ودار الجدل والنقاش حول مسائل أهمها مسألة التشبيه والتجسيم والصفات ومسألة تحمل الإنسان مسؤولية عمله ، أو رفع كل مسؤولية عنه ، وبراءته من كل إثم ، إلى غير ذلك من المسائل : كقدم العالم وحدوثه وفكرة العدل ، والكبائر ، مما هو مذكور في أمهات الكتب من الخلافات عندما ظهرت التيارات المختلفة ، التي ارتسمت في آفاق الفكر الإسلامي .

وقد رأينا فيما سبق موقف الإمام في رد تلك المزاعم ، ودفع تلك الشبهات ، وأول ما كان يسعى إليه هو إثبات وجود الله ووحدانيته ، وعلاقة صفاته به ، بأدلة عقلية مبتنية على أسس منطقية صحيحة ، يحاول فيها إظهار الحق ، وكشف الحقيقة بما أوتي من مواهب غزيرة ، ومقدرة على البيان ، فمرة يأتي بأوجز بيان في برهانه مع الوفاء بالقصد ، وأخرى يطنب في الدليل ويوضح الحجة ، ويسترسل في البيان كما في توحيد المفضل وغيره ، فمن إيجازه حينما يسأل عن الدليل على الخالق فيقول عليه السلام : (ما بالناس من حاجة) .

فما أوجزها من كلمة وأكبرها من حجة ، فإنا نجد الناس في حاجة مستمرة في كل شأن من شؤون الحياة ، وهذه الحاجة تدل على وجود مآل لهم في حوائجهم ، غني عنهم بذاته ، وأن ذلك المآل واحد ، وإلا لاختلف السير والنظام . ويسأله مرة هشام بن الحكم بقوله ما الدليل على أن الله واحد ؟ فيقول عليه السلام : اتصال التدبير وتمام الصنع (١) .

---

(١) الإمام الصادق للشيخ المظفر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موقف الإمام من الزنادقة والشبه الفكرية :

وإن موقف الإمام الصادق في الدفاع عن الإسلام في رد شبه الزنادقة والدهرية ، وخصومه من أهل الأديان الأخرى ، وقد دبجت فيه آلاف الصفحات في مئات الكتب ، وهي ثروة فكرية لا غنى لأي أحد من المسلمين عنها ، كما أنه عليه‌السلام قد وجه أصحابه على قدر كفاءتهم ومقدرتهم ، ليخوضوا تلك المعارك الفكرية ، ويقفوا في صد تلك التيارات والأعاصير ، فكانوا خير معين على حل المشاكل الاجتماعية التي كان الإمام يهتم بها غاية الاهتمام ، يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم وتحت إشرافه يكون القيام بها منهم ، فهو المصدر الأول والمنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه .

فكانت لهم اليد الطولى في خوض تلك المعارك ومحاربة أهل الإلحاد والزندقة ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والفرق الشاذة . وكان عليه‌السلام ينهى عن الكلام في ذات الله فيقول : تكلموا في خلق الله ولا تتكلموا في الله ، فإن الكلام في الله لا يزيد صاحبه إلا تحيراً .

ويقول عليه‌السلام لمحمد بن مسلم : يا محمد إن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله ، فإذا سمعتم ذلك فقولوا لا إله إلا الله .

ويقول عليه‌السلام : تكلموا في كل شيء ولا تتكلموا في ذات الله .

ويقول عليه‌السلام : إياكم والتفكر في الله ، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه .

ولعله عليه‌السلام يقصد في النهي عن الكلام الجدلي الذي تاه به كثير من الناس ، لاعتمادهم فيه على خواطر توحيها اليهم نفوس ساقها إلى الكلام حب الغلبة دون أن يستندوا إلى ركن وثيق ، أو يأخذوا هذا العلم من معدنه الصحيح .

لقد كان الإمام الصادق محط آمال الأمة ومعقد أمانيها ، وكانت مدرسته يؤمها كبار العلماء ورجال الفلسفة وطلاب العلوم على اختلاف أنواعها ، فهو لم يختص بعلم دون آخر ، ولم يقتصر على منهج واحد ، فكان كل وارد يجد عنده ما يطلبه ، وكل سائل يأخذ عنه أحسن الجواب ، لذلك أصبحت الوفود تنهال على مدرسته من جميع الأقطار ؛ لأنهم وجدوا فيه المعلم الصادق والانسان الكامل .

يقول الأستاذ رمضان لاوند :

إن الإمام الصادق أبا عبدالله هو نموذج لإنسانية المعرفة في العصر الإسلامي الذهبي ، بل بداية رائعة له ، هيأت له أسباب هذه الأمة ، بالإضافة إلى ذكائه الوقاد وجهوده البالغة في البحث والتأمل والدراسة ، كان من أولئك الملهمين الذين لا يجود التاريخ الإنساني بهم ، إلا في فترات متباعدة ، يضاف إلى هذا أيضاً أنه ثمرة من ثمرات أهل البيت النبوي الشريف ، ممن كانوا في الذروة من قادة العرب وأئمتهم .

والحق أن إمامته العلمية لم تكن مقصورة على أتباعه كما ذكرت آنفاً ، فلقد رأينا في مجموعة الأخبار الواردة في الفصول السابقة أن عمرو بن عبيد ، وهو من رجال السنة ، قد أتاه يسأله عن أمر دينه ويستفتيه في شؤون مختلفة ، من الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة ، كما أثبتت الأخبار التي أصبحت لها صفة التواتر ، وأن أبا حنيفة النعمان ، وهو صاحب أحد مذاهب السنة الأربعة ، قد لازمه مدة سنتين من حياته الدراسية ، وأن سفيان الثوري ، وهو صاحب مذهب من مذاهب السنة ، قد لازمه وناقشه وجاوره ، وكان منه كما يكون التلميذ من أستاذه . ولئن كان سواه من علماء العصر العباسي الذين تميزوا بالثقافة الإنسانية الشاملة ، قد برز في علم دون آخر ، فإن الإمام الصادق لم يكن في علم من هذه العلوم مقصراً به عن الآخر أبداً ، لقد كانت الركائب تحمل إليه طلاب الحكمة ، وأصحاب الفقه والفلسفة ، وعلم الكلام ، والعلوم الطبيعية ، واللغة ، والنحو ، والصرف ، والبيان والآداب في شعرها ونثرها ، والتفسير والسنة النبوية ، وأيام عرب الجاهلية والإسلام .

يضاف إلى هذا كله وقار وهيبة واستقامة ، وصدق وصراحة ، وحسن بيان ، وتصرف وقيادة حازمة لأتباعه ، وسياسة ماهرة لأنصاره . (١) .

وعلى أي حال فان الإمام الصادق عليه السلام كان وحيد عصره في مختلف العلوم والفنون ، وظهرت في شخصيته آثار الوراثة بأجلى صورها ، وأبرز معانيها، إذ هو رضيع ثدي الإيمان، ووليد بيت الوحي ووارث علم النبي ، وحافظ تراثه .

لقد كان عليه السلام علماً من أعلام الهدى ودعاة الرشاد ، يدعو للخير ليوجد قوة فعالة تتجه نحو الخير ، ليحيى المسلمون حياة طيبة .

ومهما تكن العوامل التي اتخذها اعداؤه في صرف الناس عنه ، فانها لم

---

(١) الإمام الصادق لرمضان لاوند .

تؤثر الاثر الذي يطلبونه في تحويل الناس عنه ، إذ العقيدة أكبر مؤثر في تكوين العقل الإنساني ــ رقياً وانحطاطاً ــ فان الناس لا يجهلون ما لأهل البيت من الأثر العظيم في المجتمع الإسلامي ، وقد منحهم النبي ﷺ صفة لا يشاركهم فيها أحد : وهي الاقتران بالكتاب ،وعدم افتراقهما إلى يوم القيامة ، وقد مرت الاشارة لذلك . ولقد انهال الناس على مدرسة الإمام الصادق من كل قطر على اختلاف نزعاتهم وآرائهم ، فكان هو المعلم الأول ، والمرشد الناصح ، والمحدث الصادق .

وليس بالامكان حصر أجوبته عن المسائل التي وجهت إليه من طلاب العلم ، ولا بيان مناظراته التي ناظر بها أهل الأديان المختلفة والفرق المتفرقة . ونحن هنا نشير للبعض منها لئلا يخلو هذا الكتاب عن اثبات شيء منها :

سأله ابو حمزة عما يقال من أن الله جسم .

فقال عليه السلام : سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لا يحد ، ولا يحس ، ولا تدركه الحواس ، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا تخطيط ولا تحديد .

ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال : يا أبا عبد الله أخبرني متى كان الله ؟

فقال عليه السلام : متى لم يكن حتى أخبرك متى كان ، سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

وقال ابن ابي يعفور سألت أبا عبد الله عن قول الله : هو الأول والآخر ، فقلت أما الأول فقد عرفناه وأما الآخر فبين لنا تفسيره . .

فقال عليه السلام : انه ليس شيء يبيد أو يتغير ويدخل التغيير والزوال والانتقال ، من لون إلى لون ، ومن هيئة إلى هيئة ، ومن صفة إلى صفة ، ومن زيادة إلى نقصان ، ومن نقصان إلى زيادة ، إلا رب العالمين ، فانه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، وهو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل لا تختلف عليه الصفات والأسماء الحديث (١) .

وقال محمد بن مارد لأبي عبد الله عليه السلام : حديث روي لنا انك قلت : (إذا عرفت فاعمل ماشئت) .

فقال عليه السلام قد قلت ذلك .

قال محمد : وإن زنوا وإن سرقوا أو شربوا الخمر .

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملي ص ٥٦ .

فقال عليه‌السلام : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله ما انصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووضع عنهم ، انما قلت (إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره).

ومثله عن فضيل بن عثمان : قال : سئل ابو عبد الله الصادق عليه‌السلام عما روي عن أبيه : (إذا عرفت فاعمل ما شئت) وإن بعضهم يستحل بعد ذلك كل محرم .

فقال عليه‌السلام ما لهم لعنهم الله ؟؟ إنما قال أبي إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك (١) .

وقد كان لاشاعة هذا الحديث من قبل أعداء أهل البيت أثر كبير في نفس الإمام الصادق ، فان اولئك القوم الذين يريدون الوقيعة والتشويه قد تأولوا هذا الحديث ، وقلبوا حقيقته ، وأذاعوا بين العامة أن معرفة الإمام كافية عن العمل، وقالوا: إنما الدين المعرفة ، فاذا عرفت الامام فاعمل ماشئت.

وقد اهتم الإمام الصادق عليه‌السلام لهذه الاشاعة الكاذبة ، والتأويل الباطل ، فاعلن البراءة ممن يذهب لذلك ، ولعنهم على رؤوس الاشهاد ، وبسط القول في معنى هذا الحديث ومدلوله، وقال عدة مرات : إنا لله وإنا إليه راجعون، تأول الكفرة ما لا يعلمون ، وإنما قلت : أعرف واعمل ما شئت من الطاعة ، فانه مقبول منك ، لأنه لا يقبل الله عملا من عامل بغير معرفة ، لو أن رجلا عمل أعمال البر كلها ، وصام دهره ، وقام ليله ، وأنفق ماله في سبيل الله ، وعمل بجميع طاعة الله ، ولم يعرف نبيه الذي جاء بتلك الفرائض ، فيؤمن به ويصدقه ، وإمام عصره الذي افترض الله طاعته فيطيعه ، لم ينفعه الله بشيء من عمله ، قال الله عز وجل في مثل هؤلاء : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) .

وكتب إلى الآفاق بذلك كتابا قال فيه : وإنما يقبل الله العمل من العباد بالفرائض التي افترضها عليهم ، بعد معرفة من جاء بها من عنده ، ودعاهم إليه : فأول ذلك معرفة من دعى إليه وهو الله الذي لا إله إلا هو ، وتوحيده ، والاقرار بربوبيته ، ومعرفة الرسول الذي بلغ عنه وقبول ما جاء به ، ثم معرفة الأئمة بعد الرسول الذين افترض طاعتهم في كل عصر وزمان على اهله ، والإيمان والتصديق بجميع الرسل والأئمة ، ثم العمل بما افترض الله عز وجل

---

(١) الوسائل ج ١ ص ١١٦، ص ١١٧ .

على العباد من الطاعات ، ظاهراً وباطناً ، واجتناب ما حرم الله عز وجل عليهم ظاهراً وباطناً (الخبر) (١) .

وقال سليمان بن مهران : سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل : (والأرض جميعاً قبضته) ؟

فقال عليه السلام : يعني ملكه لا يملكها معه أحد والقبض من الله تعالى في موضع آخر المنع والبسط منه الاعطاء والتوسع ، كما قال عز وجل : (والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) يعني يعطي ويوسع ويمنع ، والقبض منه عز وجل في وجه آخر الأخذ ، والأخذ في وجه القبول منه كما قال تعالى : (يأخذ الصدقات) أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها .

قال سليمان فقلت : فقوله تعالى : (والسموات مطويات بيمينه) ؟ .

قال عليه السلام : اليمين اليد ، واليد القدرة والقوة ، فقوله عز وجل : (والسموات مطويات بيمينه) أي بقدرته وعونه ، سبحانه وتعالى عما يشركون.

وسأله هشام بن الحكم بقوله : ما الدليل على ان الله واحد ؟

فقال عليه السلام : اتصال التدبير وتمام الصنع .

وسأله أبو شاكر الديصاني بقوله : ما الدليل على أن لك صانعاً ؟

فقال عليه السلام : وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أكون صنعتها أنا أو صنعها غيري ، فان كنت صنعتها فلا أخلو من أحد معنيين ، إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة ، فقد استغنيت عن صنعتها ، وإن كانت معدومة فانك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً ، فقد ثبت المعنى الثالث أن لي صانعاً ، وهو رب العالمين . فقال الديصاني وما أحار جواباً .

وعنه عليه السلام في جواب من سأله عن معنى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) قال: استوى من كل شيء ، فليس شيء أقرب إليه من شيء ، لم يبعد منه بعيد ، ولم يقرب منه قريب ، ثم قال : من زعم أن الله عز وجل من شيء أو في شيء أو على شيء فقد كفر .

فقال له السائل : فسر لي ذلك .

فقال عليه السلام من زعم ان الله من شيء فقد جعله محدثاً ، ومن زعم انه في شيء فقد جعله محصوراً ، ومن زعم انه على شيء فقد جعله محمولا .

وسئل عن شبهة المجسمة فقال عليه السلام :

---

(١) الوسائل ج ١ ص ١٣٩ .

ان الجسم محدود متناه ، والصورة محدودة متناهية ، فاذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان ، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً .

فقال السائل : فما أقول ؟

فقال عليه السلام: لا جسم ولا صورة ، وهو مجسم الأجسام ، ومصور الصور ، لم يتجزأ ، ولم يتناه ، ولم يتزايد ، ولم يتناقص ، لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق ولا بين المنشىء والمنشأ (١) .

وقال عليه السلام : فمن زعم ان الله في شيء أو على شيء ، أو يحول من شيء إلى شيء ، او يخلو منه شيء او يشتغل به شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين ، والله خالق كل شيء لا يقاس بالقياس ، ولا يشبه الناس، لا يخلو منه مكان ، ولا يشغل به مكان، قريب في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربنا لا إله غيره(٢).

وسأله سليمان بن مهران الأعمش : هل يجوز أن نقول أن الله عز وجل في مكان ؟

فقال عليه السلام: سبحان الله وتعالى عن ذلك، انه لو كان في مكان لكان محدثاً ، لأن الكائن في مكان محتاج إلى المكان ، والاحتياج من صفات المحدث لا من صفات القديم .

وسئل عليه السلام عن قوله عز وجل : « اهدنا الصراط المستقيم » قال عليه السلام : يعني أرشدنا إلى الطريق المؤدي إلى محبتك ، والمبلغ إلى دينك ، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب ، أو نأخذ بآرائنا فنهلك (٣) .

قال هشام بن الحكم كنت عند الإمام الصادق عليه السلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب ، وعبد الملك بن أعين ، فقال له معاوية : يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما تقول في الخبر الذي روي أن رسول الله رأى ربه ؟ على أي صورة رآه ؟ وعن الحديث الذي رووه أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة ، على أي صورة يرونه ؟ فتبسم عليه السلام ثم قال : يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة أو ثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ، ثم لا يعرف الله حق معرفته ! !

ثم قال : يا معاوية إن محمداً لم ير الرب تبارك وتعالى بمشاهدة العيان ، وان الرؤية على وجهين : رؤية القلب ورؤية البصر ، فمن عنى برؤية القلب فهو

---

(١) الكافي باب النهي عن الجسم والصورة .
(٢) البحار ج ٣ ص ٩٠ .
(٣) الإمام الصادق لرمضان لاوند ص ٦٣ .

مصيب ، ومن عنى برؤية البصر فقد كفر بالله وآياته ، لقول رسول الله ﷺ من شبه الله بخلقه فقد كفر . ولقد حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليهما السلام : سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له : يا أخا رسول الله هل رأيت ربك ؟

فقال : وكيف أعبد من لم أره ؟ لم تره العيون بمشاهدة العيان ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، فإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فان كل من جاز عليه البصر فهو مخلوق ، ولا بد للمخلوق من الخالق . فقد جعلته اذن محدثاً مخلوقاً ، ومن شبهه بخلقه فقد اتخذ مع الله شريكاً . ويلهم أو لم يسمعوا بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » وقوله : « لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » وانما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط ، فدُكّت الأرض ، وصعقت الجبال ، فخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك من قول من زعم انك ترى ، ورجعت إلى معرفتي بك ، ان الابصار لا تدركك ، وأنا أول المؤمنين وأول المقرين بانك ترى ولا ترى وانت بالمنظر الأعلى .

ثم قال عليه السلام : إن أفضل الفرائض وأوجبها معرفة الرب ، والإقرار له بالعبودية ، وحد المعرفة أن يعرف انه لا إله غيره ، ولا شبيه له ولا نظير ، وأن يعرف انه قديم مثبت موجود غير مقيد ، موصوف من غير شبيه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وبعده معرفة الرسول والشهادة بالنبوة .

وله عليه السلام كثير من الحجج في الرد على من جوزوا الرؤية لله في البصر سواء في الدنيا او في الآخرة ، لأنهم اختلفوا في ذلك ، إذ جوزها قوم في الدنيا والآخرة ، ومنعها آخرون في الدنيا وأجازوها في الآخرة ، كما هو مذهب الشافعي .

وذهب أهل البيت « ع » إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة ، وعدم امكانها مطلقاً لأنه تعالى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(١) . لأن الأبصار انما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعاً ، كالاجسام والهيئات ، وعلل ذلك بأن الباصرة لا تكون في حيز الممكنات ما لم تتصل أشعة البصر بالمرئي ويمتنع اتصال شيء بذاته جل وعلا .

---

(١) سورة الانعام : ١٠٢

ولما اشتهرت مقالة المفوضة : وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين ، ورفعوا عنها قدرة الله وقضاءه ، عكس المجبرة الذين اسندوا الافعال إليه تعالى ، وأنه أجبر الناس على فعل المعاصي ، وأجبرهم على فعل الطاعات ، وأن افعالهم في الحقيقة أفعاله ، فكان أثر هاتين الفكرتين سيئا في المجتمع الإسلامي . فتصدى الإمام عليه السلام لرد هؤلاء ، وأعلن العقيدة الصحيحة في جوابه البليغ ورده الشهير وهو قوله : (لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين) .

وخلاصته : أن أفعالنا — من جهة — هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا ، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى ، داخلة تحت سلطانه فلم يجبرنا على افعالنا ، حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي ، لأن لنا القدرة على الاختيار في ما نفعل ، ولم يفوض الينا خلق افعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه ، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد .

وبهذا تعتقد الشيعة ، ومذهبهم وسط بين المذهبين كما بينه أئمة الهدى ودلت عليه كلمة الإمام الصادق عليه السلام في جوابه هذا .

وقال محمد بن عجلان : قلت لأبي عبد الله الصادق : فوض الله الأمر إلى العباد ؟

فقال عليه السلام : الله أكرم من أن يفوض اليهم .

قلت : فاجبر العباد على أفعالهم ؟

فقال عليه السلام : الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثم يعذبه عليه .

وبلغه عليه السلام مقالة الجعد بن درهم (١) وهي أنه جعل في قارورة ترابا وماء ، فاستحال دوداً وهواماً ، فقال الجعد : انا خلقت هذا لأني سبب كونه .

فقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ليقل كم هي وكم الذكران والاناث إن كان خلقها ، وكم وزن كل واحدة منهن ، وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره ! ! (٢) .

قال ابن حجر : فبلغه ذلك — أي قول الإمام الصادق — فانقطع ورجع .

---

(١) الجعد بن درهم : اصله من خراسان ، ويقال انه من موالي بني مروان ، سكن دمشق وكانت له بها دار ، وإليه ينسب مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية ، لأنه كان معه فيقال مروان الجعدي ؛ والجعد هو أول من اظهر القول بخلق القرآن ، وقد غضب عليه بنو أمية فتطلبوه وهرب إلى الكوفة ، فقبض عليه خالد القسري فقتله يوم الأضحى سنة ١٢٤ هـ ، وقال للناس ؛ ضحوا يقبل الله منكم فاني مصح بالجعد فنزل إليه وذبحه تحت المنبر .

(٢) لسان الميزان لابن حجر ج ٢ ص ١٠٥ .

وسأله سدير الصيرفي عن معرفة الله تعالى .

فأجابه عليه السلام عن المعرفة بالوهم ، والمعرفة بالإسم ، والمعرفة بالصفة ، وفصل له جميع هذه الأنواع ، وذكر له المعرفة الصحيحة .

ثم ذكر صفة الإيمان الصحيح ، وكيف يصبح الرجل مؤمناً حقاً ، وان ذلك لا يحصل إلا بالاقرار والخضوع لله والتقرب إليه ، والاداء له بما فرض من صغير وكبير . ثم أخذ في التفصيل والبيان ، وذكر بعد ذلك صفات الإسلام العامة ، والأشياء التي يستحق الإنسان بها اطلاق الإسلام عليه .

ثم ذكر أسباب الخروج من الإيمان ، وذكر معنى الفسق ، وبين الكبائر التي يكون بها فساد الإيمان إلى آخر ما ذكر في الجواب عن ذلك تفصيلا (١) .

طرق معيشة العباد :

وسأله سائل فقال : كم جهات معائش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل ووجوه النفقات ؟

فقال عليه السلام : جميع المعائش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيها المكاسب اربع جهات من المعاملات .

فقال السائل : أكل هذه الأربع جهات حلال ، أو كلها حرام ، أو بعضها حلال وبعضها حرام ؟

فقال عليه السلام : في هذه الاجناس الأربعة حلال من جهة ، وحرام من جهة ، وهذه الاجناس معروفات ، فأول هذه الجهات الأربع الولاية وتولية بعضهم على بعض .

ثم التجارة في جميع البيع والشراء بعضهم من بعض ، ثم الصناعات من جميع صنوفها .

ثم الاجارات ، وكل هذه تكون حلالا من جهة وحراماً من جهة ، والفرض من الله على العباد في هذه المعاملات الدخول في جهات الحلال منها ، والعمل بذلك الحلال واجتناب جهة الحرام منها .

ثم أخذ عليه السلام في التفصيل : فذكر الولاية وقسمها إلى حلال ، وهي ولاية ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم وتوليتهم على الناس .

---

(١) تحف العقول ص ٣٢٥ — ٣٢٩ .

وأما الحرام منها ، فهي الولاية لأئمة الجور والعمل لهم ، والكسب معهم بجهة الولاية لهم ، فهو حرام ومحرم ، معذب من فعل ذلك قليلا او كثيراً

وعلل ذلك عليه السلام بأن ولاية الوالي الجائر دروس للحق كله ، واحياء الباطل كله ، وإظهار الظلم والفساد ، وإبطال الكتب ، وهدم المساجد ، وتبديل سنة الله وشرائعه ، ولذلك حرم العمل معهم ومعونتهم ، والكسب معهم إلا بجهة الضرورة ، نظير الضرورة إلى الدم والميتة .

ثم ذكر التجارة وما يحل من البيع وما يحرم منه ، فالحلال ما هو غذاء العباد وقوامهم في أمورهم ، في وجوه الصلاح الذي لا يقيمهم غيره إلى آخر بيانه في ذلك .

والحرام منه هو كل أمر يكون فيه الفساد مما هو منهي عنه من جهة أكله وشربه ، أو كسبه أو نكاحه ، أو ملكه ، أو امساكه ، أو هبته او عاريته .

ثم ذكر عليه السلام بقية الجهات من الصناعة والإجارة ، ووجوه إخراج الأموال وإنفاقها وما يحل للإنسان أكله وما لا يحل ، وما يجوز من اللباس وما لا يجوز ، إلى آخر بيانه وتفصيله في جوابه لسائله .

سلوك الوالي مع الرعية :

وسأله عبد الله النجاشي (١) : عما يقربه إلى الله تعالى وإلى رسوله بما يعمله في ولايته مع الرعية .

فأجابه عليه السلام بجواب طويل ورسالة مفصلة منها قوله : فاني ملخص لك جميع ما سألت منه إن أنت عملت به ولم تجاوزه رجوت أن تنجو ان شاء الله تعالى؛ أخبرني أبي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمحضه النصيحة سلبه الله لبه ، واعلم أني سأشير عليك برأي إن أنت عملت به تخلصت مما انت متخوفه ، واعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء ، وكفّ الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية ، والتأني وحسن المعاشرة مع لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، ومداراة صاحبك

---

(١) هو أبو بجير عبد الله بن غنيم بن سمعان الاسدي البصري . كان والياً للمنصور على الأهواز ، وكان يرى رأي الزيدية ، وقدم المدينة ودخل على الإمام الصادق ، وسأله بمسائل عديدة فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال : هذا عالم آل محمد (ص) ، ولا زال يراسل الإمام ويسأله عن أهم الأمور .

ومن يرد عليك من رسله ، وارتق فتق رعيتك بأن توافقهم على ما وافق الحق والعدل ان شاء الله .

وإياك والسعاة وأهل النمائم ، فلا يلتزقن منهم بك أحد ، ولا يراك الله يوماً وليلة وأنت تقبل منهم صرفاً ولا عدلا فيسخط الله عليك . . .

ومنها : ولا تستصغرن من حلو أو فضل طعام تصرفه في بطون خالية ، ليسكن بها غضب الله تبارك وتعالى ، واعلم اني سمعت من أبي يحدث عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام انه سمع النبي ﷺ يقول : ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاناً وجاره جائع . فقالوا : هلكنا يا رسول الله . فقال ﷺ : من فضل طعامكم ومن فضل تمركم ورزقكم تطفون بها غضب الرب . . . .

يا عبد الله إياك ان تخيف مؤمناً ، فان أبي محمد حدثني عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب أنه كان يقول : من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها اخافه الله يوم لا ظل إلا ظله .

ثم أخذ عليه السلام يوجه له نصائحه ويذكر له مكارم الأخلاق وما يلزم ان يتحلى بها كل مسلم ، ويروي له أحاديث رسول الله ﷺ في ذلك ، ويختم جوابه بقوله : أوصيك بتقوى الله وايثار طاعته ، والاعتصام بحبله ، فانه من اعتصم بحبل الله فقد هدي إلى صراط مستقيم ، فاتق الله ولا تؤثر أحداً على رضاه ، واعلم بأن الخلائق لم يوكلوا بشيء اعظم من التقوى ، وانه وصيتنا أهل البيت ، فان استطعت ألا تنال شيئاً من الدنيا تسأل عنه غداً فافعل .

وذكر الحلواني في نزهة الناظر ان كاتب المهدي المعروف بأبي عبد الله سأل الإمام الصادق عما يستطيع به مداراة السلطان وتدبير أمره ، فأجابه الإمام عليه السلام بما يرشده لذلك ، وشرح له طرق السلوك في مداراة السلطان ، وأوصاه بأمور هامة ، ونصحه في أشياء كثيرة ، ولا يخفى أن السائل كان كاتباً للمهدي وهو في ولاية عهده ، وكان ممن يوالي أهل البيت شأنه شأن كثير من القواد والأمراء والكتاب ، الذين دخلوا في سلطان بني العباس لمساعدة الضعفاء ، ودفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم .

التوحيد في أجوبة الإمام للمفضل بن عمر :

وهو جوابه للمفضل بن عمر (١) حينما سمع كلام ابن أبي العوجاء وانكاره للصانع فناظره المفضل ثم بادر إلى الصادق عليه السلام وطلب منه أن يملي عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة ، فأجابه بتلك الدروس القيمة ، والحكم النافعة، التي تحتوي على دلائل التوحيد ، ومحكم البراهين على وجود الصانع الحكيم ، من بيان هيئة العالم ، وتأليف أجزائه ، مما يفرض على الكل أن يرفضوا فكرة المصادفة في تجمع هذه الكائنات ، وفكرة خلود المادة التي يقول بها الدهرية والملحدون .

وبعد ذلك ذكر كيفية خلق الإنسان وتكوينه ، وكيفية ولادته وتغذيته ، وغرائزه ، وطبائعه وبيان الدماغ وعظمته ، وما فيه من سائر الاعضاء من عجيب الصنع ، وعظيم القدرة ، إلى آخر ما يتعلق بالحلقة الأولى من حديثه ، وهو المجلس الأول .

وفي الحلقة الثانية تحدث عن الحيوان وأنواعه ، والحكمة في خلقه مفصلا موضحاً ، مفنداً أقوال الخصوم ، ثم ربط تفصيله لخصائص الكائنات الحية ، أنواعها وطبقاتها بفكرة الله ووجود الخالق والمخلوق .

وفي اليوم الثالث بدأ يملي حلقته الثالثة فتحدث مطولا عن نظام الكواكب العجيب ، وعقلانية تنظيم الأجواء ، وعلاقة الإنسان بهذه وتلك ، رابطاً هذا كله أيضاً بفكرة الوجود الإلهي ووحدانية الله .

وفي اليوم الرابع تحدث عن الأوبئة والأمراض ، والآفات المختلفة التي تصيب الإنسان ، والحيوان والنبات ، وعقلانية علاقتها بخالق الوجود ووحدانيته أيضاً .

ونرى من اللازم الإشارة لذلك اختصاراً إذ لا سبيل لنقل النصوص كاملة كما وردت لطولها ولذلك نكتفي بذكر البعض .

---

(١) هو أبو عبد الله المفضل بن عمر الجعفي الكوفي ، ولد في الكوفة في نهاية القرن الأول أيام الإمام الباقر (ع) ، وتوفي في أواخر القرن الثاني عن عمر يناهز الثمانين سنة ، وقد أدرك أربعة من أئمة أهل البيت ، وهم الباقر ، والصادق ، والكاظم ، والرضا عليهم السلام ، ولم يرو عن الباقر لأنه كان صغيراً في ايامه ، واتصل بالإمام الصادق اتصالا وثيقاً، وكان من ثقاة أصحابه وكان وكيلا على أمواله بعد موت عبد الله بن أبي يعفور .

المجلس الأول في خلق الإنسان :

قال عليه السلام بعد أن ذكر الملحدين وأسباب شكهم وتهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه : نبتدي يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به ، فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم ، وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمه الرحم ، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ، ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة ، فانه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات ، فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه ، واستحكم بدنه ، وقوي أديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء ، هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج واعنفه حتى يولد ، وإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم امه إلى ثدييها ، فانقلب ذلك الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود من الدم ، فيوافيه في وقت حاجته إليه ، فحين يولد تلمظ وحرك شفتيه طلباً للرضاع ، فهو يجد ثدي امه كاداوتين لحاجته إليه ، فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن رقيق الامعاء لين الاعضاء ، حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه ، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس ، ليمضغ بها الطعام ويسهل له اساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك . . .

ثم قال عليه السلام : اعتبر يا مفضل فيما يدبر الإنسان في هذه الأحوال المختلفة ، هل يمكن أن تكون بالإهمال ؟ . إلى أن يقول عليه السلام : فمن هذا الذي يرصده حتى يوافيه بكل شيء من هذه المآرب ؟ إلا الذي انشأه خلقاً بعد ان لم يكن ، ثم توكل له بمصلحته بعد أن كان ، فان كان الاهمال يأتي بمثل هذا التدبير فقد كان يجب أن يكون العمد والتقدير يأتيان بالخطأ والمحال ، لانهما ضد الإهمال ، وهذا فظيع من القول ، وجهل من قائله ، لأن الإهمال لا يأتي بالصواب ، والتضاد لا يأتي بالنظام ، تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً .

ثم قال عليه السلام : ولو كان المولود يولد فاهما عاقلا لأنكر العالم عند ولادته ، ولبقي حيران تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف ، وورد عليه ما لم ير مثله ، من اختلاف صور العالم من البهائم والطير ، إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم .

ثم لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولا مرضعاً ، معصباً بالخرق مسجى في المهد لانه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين

يولد ، ثم لا يوجد له من الحلاوة والوقع من القلوب ما يوجد للطفل ، فصار يخرج إلى الدنيا غبياً غافلا عما فيه أهله ، يتلقى الاشياء بذهن ضعيف ، ومعرفة ناقصة ، ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلا قليلا ، وشيئاً بعد شيء ، وحالا بعد حال ، حتى يألف الأشياء ويتمرن ويستمر عليها ، فيخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته ، وإلى الاعتبار والطاعة ، والسهو والغفلة والمعصية ، وفي هذا أيضاً وجوه أخر : فانه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد ؛ وما قدر أن يكون للوالد في الاشتغال بالولد من المصلحة ، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبر ، والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم ، ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم ، ولا يألف الآباء أبناءهم ، لأن الأبناء إذا كانوا يستغنون عن تربية الآباء ، وحياطتهم ، فيتفرقون عنهم حين يولدون ، فلا يعرف الرجل أباه وأمه . ثم ذكر عليه السلام فوائد البكاء للطفل ، وساق البيان إلى ذكر أعضاء البدن على الشكل الموجود .

فقال المفضل: يا مولاي إن قوماً يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة .

فأجابه الإمام عليه السلام : سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على هذه الأفعال ؟ أم ليست كذلك ؟ فان أوجبوا لها العلم والقدرة ، فما يمنعهم من إثبات الخالق ، فان هذه صفته ، وان زعموا انها تفعل هذه الافعال بغير علم ولا عمد ، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، علم أن هذا الفعل للخالق الحكيم ، وأن الذي سموه طبيعة هو سنته في خلقه الجارية على ما أجراه عليه .

ويستمر عليه السلام في بيان وصول الغذاء إلى البدن ، وكيفية انتقال صفوه من المعدة إلى الكبد ، في عروق رقاق ، ثم كيفية تقسيمه في البدن ، وبروز الفضلة منه ، وذكر نشوء الابدان ونموها ، والحواس التي خص الله بها الإنسان. إلى أن يقول : لو رأيت تمثال الإنسان مصوراً على حائط فقال لك قائل : ان هذا ظهر ههنا من تلقاء نفسه ، لم يصنعه صانع . أكنت تقبل ذلك ؟ بل كنت تستهزىء به ، فكيف تنكر هذا في تمثال مصور جماد ، ولا تنكر في الإنسان الحي الناطق ؟ ثم أخذ في البيان عن خلقة الإنسان وعجيب صنعه وما أودع فيه من القوى .

المجلس الثاني في ذكر الحيوان :

قال عليه السلام : ابتدي لك بذكر الحيوان ليتضح لك من أمره ما وضح لك من غيره ، فكر في أبنية الحيوان وتهيأتها على ما هي عليه ، فلا هي في صلابة كالحجارة ، ولو كانت كذلك لا تنثني ولا تتصرف في الأعمال ، ولا هي على غاية اللين والرخاوة ، فكانت لا تتحامل ولا تستقل بأنفسها ، فجعلت من لحم رخو ينثني ، تتداخله عظام صلاب ، يمسكه عصب ، وعروق تشده ، وتضم بعضه إلى بعض ، غلفت فوق ذلك بجلد يشمل على البدن كله . إلى أن يقول عليه السلام :

وفكر بعد هذا في أجساد الانعام ، فانها خلقت على ابدان الإنس من اللحم ، والعظم والعصب ، وأعطيت السمع والبصر ، ليبلغ الإنسان حاجياته منها ، ولو كانت عمياً صماً لما انتفع بها الإنسان ، ولا تصرفت في شيء من مآربه ، ثم منعت الذهن والعقل لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدها الكد الشديد .

ثم أخذ عليه السلام يذكر مميزات كل نوع من أنواع الحيوان الثلاثة وهي : الإنسان ، وآكلات اللحوم ، وآكلات النبات ، وما يقتضي كل نوع منها حاجته ، من كيفية الأعضاء والجوارح ، فيأتيك بلطائف الحكمة وبدائع القدرة.

ثم يستمر عليه السلام في كلامه للذرة ، والنملة ، والليث .

واستطرد ذكر الطائر وكيف خفف جسمه ، وأدمج خلقه ، وجعل له جؤجؤاً ليسهل عليه أن يخرق الهواء ، إلى غير ذلك من خصوصيات خلقته ، وهكذا في خلق تلك الخصوصيات ، ويستطرد الحكمة في خصوصيات خلقة الدجاجة ، ثم العصفور ، ثم الخفاش ، ثم النحل وغيرها من صغار الطيور ، وما جعل الله فيها من الطبائع ، والفطن ، والهداية لطلب الرزق .

ثم استعرض خلق السمك ومشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه فيقول : فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق ، وقصر علم المخلوقين ، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك ، ودواب الماء ، والأصداف ، والأصناف ، التي لا تحصى منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس باسباب تحدث .

ثم ينهي كلامه على وحدانية واجب الوجود .

المجلس الثالث في ذكر السماء :

قال عليه السلام بعد أن تحدث عن السماء ولونها ، وما فيه من صواب التدبير وعظم الحكمة: فكر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها ، لاقامة دولتي الليل والنهار ، فلولا طلوعها لبطل امر العالم كله ، فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في امورهم والدنيا مظلمة عليهم ، ولم يكن يتهنأون مع فقدهم لذة النور وروحه ، والارب في طلوعها ظاهر ، مستغن بظهوره عن الاطناب في ذكره والزيادة في شرحه ، بل تأمل المنفعة في غروبها ، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار ، مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة ، لسكون ابدانهم ووجوم حواسهم ، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الاعضاء ، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل ومطاولته ، على ما يعظم نكايته في ابدانهم ، فان كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار ، حرصاً على الكسب والجمع والادخار ، ثم كانت الأرض تستحمي بدوام الشمس ، وتحمي كل ما عليها من حيوان ونبات ، فقدرها الله بحكمته وتدبيره ، تطلع وقتاً وتغرب وقتاً .

ثم تعرض لبعض العقاقير وخواصها ومنافعها إلى آخر الفصل .

المجلس الرابع في ذكر آفات الدهر :

تحدث فيه عليه السلام عن الآفات الحادثة في بعض الازمان التي اتخذها اناس من الجهال ذريعة إلى جحود الخالق والخلق ، وانكرت المعطلة والمانوية من المكاره والمصائب وما انكروه من الموت والفناء إلى أن انتهى في البيان إلى الخالق في شُبه الملحدين ، إلى آخر بيانه ونير برهانه ، وقال في آخر كلامه للمفضل : خذ ما أتيتك وكن لله من الشاكرين ، فقد شرحت لك من الادلة على الخلق ، والشواهد على صواب التدبير ، قليلا من كثير وجزءاً من كل ، فتدبره وفكر فيه واعتبر به .

ولهذه الأجوبة ـــ الموجزة والمطولة منها ـــ أمثال كثيرة منثورة في كثير من الكتب بمختلف العلوم من تفسير وفقه ، وحكمة وكلام وطب ، وغير ذلك ، وقد اقتصرنا على هذا القدر في ناحية واحدة وهي ناحية التوحيد ، وما يتعلق بصفاته تعالى مما هو مذكور في محله بكثرة ، وقد تركنا الكثير منها نظراً لما الزمنا انفسنا من الاختصار .

مناظرات الإمام حول الإسلام ومبادئه :

اما مناظراته واحتجاجه على كثير من أهل الإديان المختلفة ، والفرق المتعددة ، فهي كذلك في الكثرة والتعدد بمختلف العلوم وشتى المواضيع ، فقد ناظر عليه السلام علماء الأديان الأخرى حول الإسلام ونبيه ، بأسلوب الإقناع والحجة الدامغة .

وكذلك ناظر المرتابين وأهل الزيغ والضلال والملحدين والزنادقة ، بمناظرات عديدة يدعوهم فيها إلى سبيل الله وتوحيده ، ونبذ الخضوع لغير الله ، وعدم الشرك به ، ليخرجهم بذلك من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، والاستقامة عليه ، بأسلوب قوي نافذ للعقول والقلوب معاً ، مراعياً في ذلك قابلية المخاطب واستعداده .

وله مناظرات كثيرة مع رؤساء الفرق الإسلامية ، من معتزلة ومجسمة ، وقدرية وجبرية ، ومفوضة، وغيرهم. وهو يحاول بذلك نبذ الآراء المختلفة ، وترك الهوى والانقسام في الدين ، والتفرق فيه ، فكان له عليه السلام من الحجج البوالغ ما رفع به العذر ، وازال الريب ، وعلى سبيل المثال نذكر بعضاً من مناظراته ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب العقائد والكلام والحديث ، فقد تضمنت الشيء الكثير منها .

جاء أحد الزنادقة ممن يبثون الشبهات حول الدين إلى الإمام الصادق وهو في البيت الحرام ، وبعد أن قابله وتبادلا حديثاً قصيراً قال له الإمام عليه السلام انتظر حتى أفرغ من الطواف ، ثم ائتنا نحدثك فنرى ما عندك .

ولما فرغ أبو عبد الله من طوافه وصلاته ، أتاه الرجل وجلس وتلامذة الإمام — ومنهم هشام بن الحكم — مجتمعين عنده .

فقال ابو عبد الله عليه السلام : أتعلم أن للارض فوقاً وتحتاً ؟

قال : نعم .

قال ابو عبد الله : فهل دخلت تحتها ؟

قال : لا .

قال الإمام عليه السلام : ما يدريك ما تحتها ؟

قال : لا أدري الا أني أظن أن ليس تحتها شيء .

قال أبو عبد الله : فالظن عجز فلم لا تستيقن ؟

ثم أردف الإمام الصادق يقول : أفصعدت إلى السماء ؟

قال : لا .
قال : أفتدري ما فيها ؟
قال : لا .
قال الإمام عليه السلام : عجباً لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب ، ولم تصعد إلى السماء ولم تجز هناك ، فلم تعرف ما خلفهن وأنت مع ذلك جاحد بما فيهن ؟؟
ثم قال عليه السلام : أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، ولا حجة للجاهل ، فيا عبد الملك — وهو اسم الرجل — افهم عنا فانا لا نشك في الله أبداً ، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان ويرجعان واضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما ؟ فان كانا يقدران على أن يذهبا فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلا ؟ لقد اضطرا إلى دوامهما والذي اضطرهما هو اعظم منهما وأكبر .
ثم أخذ عليه السلام يناظره في أمور كثيرة حتى أدى به الأمر إلى الاعتراف بخطئه ورجع عن مقالته ، فأمر الإمام عليه السلام هشام بن الحكم أن يتولى توجيهه (١) .
وله مناظرات مع ابن أبي العوجاء (٢) في التوحيد وغيره ، وكان ابن أبي العوجاء من الزنادقة المشهورين ، وقتل على الزندقة ، واعترف عند قتله بدسه الأحاديث الكاذبة في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله .
فمن تلك المناظرات : انه كان هو وابن المقفع (٣) في المسجد الحرام

---

(١) كتاب الإمام الصادق للأستاذ رمضان لاوند ص ١٨٣ — ١٨٥ وكتاب حياة الإمام الصادق للسبيتي ص ٧٧ — ٧٩ وكتاب الإمام الصادق للشيخ المظفر ج ١ ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٢) ابن أبي العوجاء : هو عبد الكريم بن ابي العوجاء ، خال معن بن زائدة ، وكان من الزنادقة المشهورين ، يقول جرير بن حازم كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : واصل ابن عطاء ، وعمر بن عبيد ، وبشار بن برد ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزد ، فاما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية ، وأما بشار فبقي متحيراً ، وكان عبد الكريم يفسد الأحداث ، فتهدده عمر بن عبيد فلحق بالكوفة فدل عليه محمد بن سليمان فقتله وصلبه وذلك سنة ١٦١ هـ ولما أخذ لتضرب عنقه قال : لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام — لسان الميزان ج ٤ ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) هو عبد الله بن المقفع ، ولد سنة ١٠٦ أو ١٠٧ هـ في قرية من قرى فارس اسمها (جور) وموضعها فيروز آباد ، ويقول ابن النديم : انه اسمه بالفارسية (روزبه) ومعناه (المبارك) واسم أبيه (داذويه) فلما أسلم تسمى بعبد الله وتكنى بأبي محمد ، وكان حسن الأدب ، واسع العلم حاد الذكاء ، ويعد في طليعة الكتاب الحاذقين ، وقد استعمله بعض الولاة والأمراء للكتابة في دواوينهم . رمي بالزندقة والالحاد ، وحقد عليه المنصور لأمور كثيرة ، وقد قتله سفيان بن يزيد قتلة شنيعة ، وذلك انه أمر بتنور فاسجر ثم أمر بابن المقفع فقطع وألقي في التنور وأطبق عليه .

يلاحظان الجمع الذي كان يقوم بالطواف حول الكعبة ، فقال ابن المقفع لاصحابه : لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلا هذا الشيخ الجالس (واشار إلى جعفر بن محمد الصادق) أما الباقون فرعاع وبهائم ، فقام ابن أبي العوجاء إلى الشيخ وتحدث معه ثم رجع وقال : ما هذا ببشر ! وان كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً ، ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا .

وحينما اقترب من الإمام وأصبحا منفردين قال له الإمام الصادق : لو كان الأمر كما يقول هؤلاء (وأشار إلى الجمع القائم بالطواف) — وهو حق كما يقولون — نجا هؤلاء وعطبتم ، اما إذا انعكس الحال وكان على ما تقولون — وهو ليس كما تقولون — فانتم وإياهم سواء .

فسأله ابن أبي العوجاء : رحمك الله أيها الشيخ أي شيء نقوله نحن ، وأي شيء يقولونه هم ؟

فأجابه الإمام جعفر : أنى لما تقولون ان يكون كما يقولون ! ؟ هم يقولون بالمعاد ، والوعد والوعيد ، وان للسماء إلهاً ، وبها عمراناً ، بينما تزعمون أن السماء خراب وليس بها أحد .

فقال ابن أبي العوجاء : لو كان الأمر كما تقول ، فما منع الله من الظهور لجميع خلقه ودعوتهم إلى عبادته حتى لا يصبح اثنان فيهم على خلاف ؟ لماذا اختفى عنهم ، ومع ذلك ارسل إليهم رسلا ؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم ، لكان ذلك اسهل إلى الاعتقاد به .

فأجابه الإمام جعفر : كيف اختفى عنك من أظهر قدرته في نفسك أنت ، وفي نمائك ؟ ! ! وكان جواباً بليغاً حتى قال ابن أبي العوجاء لاصحابه : وظل يحصي لي قدرة الله التي في نفسي ، والتي لم استطع رفضها حتى ظننت أن الله قد نزل بينه وبيني (١) .

وله مناظرة اخرى :

كان ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن المقفع في نفر من الزنادقة مجتمعين في الموسم بالمسجد الحرام ، وابو عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فيه إذ ذاك يفتي الناس ويفسر لهم القرآن ، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات ، فقال القوم لابن ابي العوجاء : هل لك في تغليط هذا الجالس وسؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به ، فقد ترى فتنة الناس به وهو علاّمة زمانه ؟

---

(١) من تاريخ الالحاد للاستاذ عبد الرحمن بدري ص ٦٩ .

فقال لهم ابن ابي العوجاء : نعم . ثم تقدم ففرق الناس فقال : يا أبا عبد الله أفتأذن لي في السؤال ؟ فقال له أبو عبد الله : سل ان شئت . فقال ابن ابي العوجاء : إلى كم تدوسون هذا البيدر ، وتلوذون بهذا الحجر ، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر ، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر ؟ من فكر في هذا وقدر علم انه فعل غير حكيم ولا ذي نظر ، فقل فانك رأس هذا الأمر وسنامه ، وأبوك أسسه ونظامه .

فقال له الإمام الصادق عليه السلام : ان من أظله الله وأعمى قلبه ، استوخم الحق فلم يستعذبه ، وصار الشيطان وليه وربه ، يورده مناهل الهلكة ولا يصدره. وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في اتيانه ، على تعظيمه وزيارته ، وجعله قبلة للمصلين له ، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه ، منصوب على استواء الكمال ، ومجمع العظة والجلال ، خلقه الله قبل دحو الارض ، فأحق من أطيع فيما أمر ، والنهي عما زجر ، هو الله المنشيء للأرواح والصور .

فقال له ابن أبي العوجاء : ذكرت يا أبا عبد الله فأحلت على غائب .

فقال الإمام الصادق عليه السلام : كيف يكون يا ويلك غائباً من هو مع خلقه شاهد ، وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ، يسمع كلامهم ، ويعلم أسرارهم ، لا يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان ، ولا يكون إلى مكان اقرب منه إلى مكان ، تشهد بذلك آثاره ، وتدل عليه أفعاله ، والذي بعث بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد صلى الله عليه وآله الذي جاءنا بهذه العبادة ، فان شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك .

فابلس ابن ابي العوجاء ولم يدر ما يقول ، فانصرف من بين يديه ، فقال لاصحابه : سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة فالقيتموني على جمرة . فقالوا له : اسكت فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك ، وما رأينا احقر منك اليوم في مجلسه . فقال : ألي تقولون هذا ؟ انه ابن من حلق رؤوس من ترون ، واومأ بيده إلى أهل الموسم .

هذا انموذج من أجوبته عليه السلام ومناظراته في باب التوحيد ، وقد اقتصرنا على هذا البعض ولا يسعنا ذكر اكثر منه لضيق المجال ورعاية للاختصار .

خلاصة الصراع بين دعوة الإمام الاصلاحية ودولة المنصور العباسية :

رأينا فيما مضى من الابحاث السابقة عن حياة الامام الصادق عليه السلام ، كيف كانت دعوته الاصلاحية في ذلك العصر الذي سادت فيه موجة عاتية من الفتن ، عندما انطلقت الافكار ، وعصفت الآراء ، واختلف الناس فيما بينهم ، فتكالبوا على حب الذات والظفر ، وتطاحنوا على الغلبة والتفوق ، فانتشرت البدع والخرافات ، وظهرت الفرق التي تتشح بثوب الإسلام ، ولكنها تتجافى عن تعاليمه وتتنكر لمبادئه ، والتي هي في الواقع أشد ضرراً على الإسلام من سائر الملل والديانات الأخرى ، وكان اعظمها عليه اولئك المندسين في صفوف المسلمين وفيهم من يدعي حب أهل البيت ، والانتماء اليهم ، ولكنهم خصوم لهم واعداء لدعوتهم ، لذلك كان اهتمامه عليه السلام في امرهم عظيماً ، وموقفه تجاهم حاسماً ، فحاربهم حتى استأصل شافتهم ومحى صفحتهم ، وقد اشرنا لذلك فيما سبق .

ولكن المغرضين من خصوم الشيعة اتخذوا ذلك وسيلة للتحامل عليهم والوقيعة فيهم ، ووصفهم بكل ما هو شائن. وبمزيد الأسف أن يتأثر بتلك الدعاية كثير من ذوي الثقافة فوقعوا في إثم الاتهام الكاذب ، وتلبسوا بجريمة مخالفة الواقع .

وعلى أي حال : فقد كان الإمام الصادق يدعو إلى الإصلاح بين الناس والتمسك بتعاليم الدين ، والأخذ بمبادىء الإسلام لحياتهم الفردية ، والإجتماعية والإقتصادية ، ونبذ الآراء المختلفة ، وترك الهوى والانقسام في الدين ، والتفرق فيه ، لتتكون وحدة إسلامية تجمع المسلمين تحت راية القرآن . وتعاليم الرسول ﷺ ، ولتحصل الأخوة العامة ، والمساواة التامة ، والتضامن الإجتماعي ، وما يقوم عليه من تعاون وتعاطف ، وتراحم وعدل واحسان ، وصدق وصبر ، وبر وخير ، إذ أن الدين الإسلامي قد وضع نظام المعاونة والمساعدة بين أفراده لتحصل بينهم روابط الالفة والمحبة ، وقد سبق جميع الأمم إلى هذا النظام .

كما قد رأينا فيما سبق كيف اعتزل الإمام الصادق عليه السلام السياسة ، ونهج منهج التماسك ، واحتفظ بمكانته العلمية ، وهو الشخصية التي كانت الانظار متجهة إليه ، والناس ينظرون إليه نظرة اجلال واكبار ، لما منحه الله تعالى من طهارة النفس ، وشرف المحتد ، وفضل القربى ، وقوة العقل ، والإدراك ،

والفقه في الدين ، مما جعل مدرسته يؤمها طلاب العلم من مختلف الاقطار ، على اختلافهم في النزعات والآراء ، فكان يعلم الجاهل ، ويرشد الضال ، ويهدي إلى سواء السبيل .

وحسبنا دلالة على ذلك انتماء العلماء المبرزين لمدرسته من الذين اصبحوا رؤساء مذاهب ، وأئمة فرق ، وكل معترف بفضله ومقر بعلمه ، ومفتخر بانتمائه لمدرسته .

وهذه حقيقة لا يمكن اخفاؤها ، إلا من قبيل المغالطة والمكابرة ، والتهرب عن الحق ، ولسنا الآن بصدد البحث عن هذا فقد مر بيان ذلك .

سار الإمام الصادق في طريق الدعوة الاصلاحية وترك الجانب العباسي ، ولم يزج نفسه في المعترك الذي عظم خطره ، لأنه كان يرى أن الوقت غير ملائم . ولم يكن له من العدة والعدد ما يستطيع أن يخوض تلك المعركة ، فاراد عليه السلام أن يخوض معركة علمية عن طريق التوجيه والإصلاح الإجتماعي ، ليهذب النفوس من نزعات الشر والفساد ، وقد رأينا كيف كانت دعوته ، وكيف انه الزم الدعاة إلى العمل بما يدعون اليه ، كما عبر عن ذلك عليه السلام بالدعوة الصامتة .

وقد كان أثر هذه الدعوة إلى الإصلاح الذي كان ينشده الإمام الصادق عظيماً على المنصور ، فلم ترق في عينه ولم تقع منه موقعاً حسناً ، بل كان يظهر غضبه مرة ويكتمه أخرى ، لأنه يعتبر إقبال الناس على الإمام الصادق عليه السلام وانتشار دعوته إلى الاصلاح الإجتماعي ، منهاج ثورة يستفحل خطرها وليس في امكانه اخمادها .

لذلك بقي المنصور متخوفاً من آل علي بصورة عامة ومن الإمام الصادق بصورة خاصة ، وكان يعبر عنه « بالشجى المعترض بحلقه » فلم يزل يقلب وجوه الرأي ويدبر المكيدة وينصب له حبال الحيل ، لكي يقع الإمام الصادق في قبضته ، فزور الكتب وأرسل إليه من يستميله إلى الثورة ، ولكنه عليه السلام كان امنع من عقاب الجو ، فحلق بسداد رأيه وصفاء تفكيره ، وعلمه بما وراء الحوادث ، فكشف القناع عن تلك الدسائس ، وفشل المنصور بما افتعله من تهم ليدين الإمام بذلك فيأخذه بحجة الخروج على الدولة التي ادعى انها دولة شرعية ، والخروج عليها خروج على سلطان الله .

ولقد استعمل المنصور تلك الخطط مع زعماء آل علي ، فكانت هناك ثورات دموية استطاع المنصور أن يقضي بواسطتها على البقية من آل علي والظفر

بهم ، وقتلهم بصورة بشعة ، بعد أن أذاقهم أنواع الاذى وضروب التنكيل والمحن ، وهذا ما كان يخشاه الصادق عليهم عندما امرهم بالتريث وعدم الاستجابة للدعاة في الثورة .

وكانت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى تنتحل وراثة النبي ، وانهم أولى الناس بأمر الأمة ، وهم الذين يمثلون الخلافة الراشدة ، من العدل في الحكم ، والاستقامة في الأمر ، والمحافظة على الإسلام ، لأنهم حاولوا أن يصبغوا دولتهم بصبغة الدين ، وان يظهروا امام الناس بمظهر المحافظة على مبادئه ، وأن سلطانهم هو سلطان الله ، ويحكمون بأمره ، ويسيرون على هدى الرسول ، فمنحوا أنفسهم القاب الحماية عن الدين ، وامامة المسلمين ، وانهم يسيرون بالعدل ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وانهم اهل بيت النبي وورثته ، إلى غير ذلك من الألفاظ الفارغة التي يحاولون من ورائها الاستئثار بالحكم ، وعدم السماح لأي أحد أن يصيح في وجوههم مطالباً بحق ، أو يرفع صوته استنكاراً لسوء السيرة التي ساروا عليها في حكمهم ، لأنهم يريدون أن يبقى الناس مسخرين لارادتهم ، وأداة طيعة لهم ، إذ يزعمون أن الله أوجب حقهم وأن سلطانهم هو سلطان الله ، وانهم جاءوا لخير الناس ولا يعملون إلا الصالح ، ويتجنبون الضار .

فالخليفة عندهم ليس ملكاً على دولة سياسية فقط ، بل هو ملك على دولة دينية تحيط به رسوم دينية ، ويريد أن يعتبر إماماً للمسلمين ، وانه خليفة رسول الله ﷺ في قيادة الأمة قيادة روحية ، وأن الله منحه منزلة خاصة ، فبينما كان الأمويون يتقلدون الصولجان ويلبسون الخاتم رمزاً على الحكم ، وعلى انهم ورثوا ذلك عن اسلافهم ، ترى العباسيين يتقلدون البردة ، التي كان الرسول ﷺ منحها لكعب بن زهير ، عندما مدحه بقصيدة (بانت سعاد) وكان الخليفة العباسي الأول هو أول من سن هذا التقليد ، ثم ورثها الخلفاء من بعده ، فكانوا يلبسون هذه البردة في حفلات البيعة وغيرها ، حتى في الحفلات الحربية وكثيراً ما كانوا يلبسونها في صلاة الجماعة .

يقول هلال الصابي عند كلامه عن جلوس الخلفاء وما يلبسونه في المواكب: الذي جرت به العادة أن جلوس الخليفة على كرسي مرتفع ، ويكون لباسه السواد ، ويجعل على رأسه عمامة سوداء رصافية ، ويتقلد سيف النبي ﷺ ويلبس خفاً أحمراً ويضع بين يديه مصحف عثمان رحمه الله ، الموجودة في

الخزائن ، وعلى كتفيه بردة النبي) ﷺ (١) .

وبهذه الصفة والمظاهر الخلابة استطاعوا التأثير على مشاعر الكثير من الناس ، لينظروا إليهم نظرة التقديس والاعتقاد بأنهم ورثة النبي وهم أحق بالأمر ، وهنا يعتبر كل من انكر أعمالهم أو خرج عليهم خارجاً على المسلمين ، متعد لحدود الله .

وسرى هذا الاعتقاد في نفوس البسطاء منذ نشأة الدولة ، يحدثنا الطبري : أن وفداً دخل على أبي العباس السفاح يقدمهم غيلان بن عبد الله الخزاعي ، فقال للسفاح : اشهد انك أمير المؤمنين وانك حبل الله المتين ، وانك إمام المتقين . فقال السفاح : حاجتك يا غيلان. قال: استغفرك . قال السفاح : غفر الله لك .

وفي الحقيقة والواقع أن نجاح العباسيين في مهمة هذه الإدعاءات كان بحاجة إلى بذل الجهد إلى دعاية قوية ، لتركيز هذه العقيدة ، ووضع كثير من الأساطير حولها ، وادعاء البشارة بالدولة الجديدة التي تكفل للناس سعادتهم ، وتقضي على الشقاء الذي عاناه الناس في العهد الاموي ، وقد قام علماء الدولة ، وهم الذين تمكن الضعف من نفوسهم وأخذ الطمع بزمام عقولهم ، في نشر تلك الدعوة الكاذبة ، وحياكة الأساطير وخلق الأحاديث ، حتى استمر الاعتقاد يعمل عمله في نفوس كثير من الناس ، فأصبح من لايؤمن بشرعية السلطان العباسي زنديقاً ، وهذا ما نعبر عنه بالزندقة السياسية التي وسم بها كثير من الناس الذين استنكروا على العباسيين سوء سيرتهم ، وأدركوا على مرور الأيام وتكرر الحوادث زيف ما يدعونه من العدل الشامل والحكم العادل ، وانهم ورثة النبي وأهل بيته ، وهم أحق الناس بالأمر وأولاهم بالحكم ، فكان المنكرون لتلك الأوضاع يتهمون بالزندقة ويكون نصيبهم القتل ، لأنهم عارضوا سلطان الله وخليفة رسوله ، مع تظاهره بما يخالف ذلك ، وانهم ابعد ما يكون عن اتباع أوامر الإسلام ، ففي عهد السفاح سفكت دماء بريئة وهدمت قرى آمنة ، واستبيحت حرمات وهتكت اعراض .

وكان القواد يستعملون مادة الفناء والإبادة اتباعاً لأمر الخليفة العباسي وهي : من اتهمته فاقتله (٢) ولما ولي يحيى ابن محمد العباسي على الموصل من قبل أخيه السفاح ، بعد أن أنكروا أعمال عامله السابق وهو محمد بن صول ،

---

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٩٣ .
(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٢ حوادث سنة ١٣٢ هـ .

فلما دخل يحيى بلد الموصل لم يظهر لأهله شيئاً ينكرونه ، ولم يعترضهم فيما يفعلونه ، ثم دعاهم فقتل منهم اثنى عشر رجلا ، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح فأعطاهم الامان ، وأمر فنودي من دخل الجامع فهو آمن ، فأتاه الناس يهرعون إليه ، فأقام يحيى الرجال على ابواب الجامع فقتلوا الناس قتلا ذريعاً أسرفوا فيه ، فقيل إنه قتل عشرين ألفاً ممن لهم خواتيم ، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن فسأل عن ذلك فأخبر به ، فقال : إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان . ففعلوا ذلك واستباح الزنوج نساء البلد ، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة ، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك فقالت له : الست ابن عم رسول الله ﷺ ؟ أما تأنف للعربيات المسلمات ! . فأمسك عن جوابها وسير معها من يبلغها مأمنها ، فلما كان من الغد جمع الزنوج للعطاء وكان عددهم أربعة آلاف فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم(١) إلى غير ذلك من الأمور التي جرت في عهده على قلة أيامه .

أما في عهد المنصور فكان الأمر أدهى وأمر ، فقد واجه الناس في عهده ألواناً من الظلم ، مما لا عهد لهم به من قبل ، كما صب جام نقمته على العلويين ، فعاملهم معاملة لم يشهد التاريخ مثلها ، وطاردهم وضيق عليهم الدنيا ، وأذاقهم أنواع الأذى وضروب المحن ، فلم يرحم كبيراً ولم يعطف على صغير ، ولم ينكسر لصوت ثاكل ونياح امرأة .

ومع هذا كله فقد كان يسبغ على اعماله أبراد القداسة ، وينتحل السلطان الشرعي ، وأن ما يفعله بارادة الله واذنه ، فقد صرح بذلك على المنبر في عدة مواطن ، وكما جاء في بعض خطبه يوم عرفه بقوله :

أيها الناس انما انا سلطان الله في أرضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه اعمل بمشيئته ، واعطيكم باذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحني لاعطياتكم وقسم فيئكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني اقفلني ، فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف أن يوفقني للصواب ، ويسددني للرشاد ، ويلهمني الرأفة فيكم ، والإحسان اليكم (٢) .

فانت ترى أن المنصور يحاول أن يوجه الناس إلى الاعتقاد بشخصيته ، اعتقاداً يجعلهم يؤمنون بصحة أعماله ، لانها تصدر بمشيئة الله ، اذ جعله والياً

(١) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢١٢ حوادث سنة ١٣٥ هـ .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢ .

للأمر ، حاكماً للأمة ، ليركز بذلك عرشه الذي بات يضطرب فوق تيارات المؤاخذات ، بل الثورات المتلاحقة ، لسوء سيرته التي لا تتناسب مع واقع ادعائه ، ومع علمه بأن قلوب أكثر الناس مع أهل البيت ، كما ازعجه موقف الإمام الصادق وانتشار ذكره .

ويمكننا أن نعتبر ما يصدر منه من تقريب العلماء والتظاهر بالزهد ، والاصغاء للوعظ ، انما هي اساليب يستعين بها على تحقيق أهدافه ، وليجعل في شخصيته ثقة للناس الذين تخدعهم المظاهر ، وتسحرهم الالفاظ ، كما يحاول أن يهدم ثقة الناس بمن هو أولى به من أهل البيت .

فنراه يصغي لوعظ عمرو بن عبيد ويبكي أمامه من خشية الله كأنه لم يرتكب جريمة ، خشية من الله وخوفاً من عقابه .

بلغه ان محمد بن عبد الله، النفس الزكية، كتب إلى عمرو بن عبيد – رئيس المعتزلة – يستميله ، فضاق المنصور بذلك ذرعاً وارسل إلى عمرو بن عبيد ، فلما وصله أكرمه وشرفه ، وقال : بلغني أن محمد بن عبد الله كتب إليك كتاباً ، قال عمرو : قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه ، فقال المنصور ، فبم أجبته ؟

قال عمرو : لم أجبه إلى ما أراد . ثم قال المنصور لعمرو : عظنا يا ابا عثمان.

فقال عمرو : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد . . . إلى آخرها .

فبكى المنصور بكاء شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا الساعة .

ثم قال عمرو : اتق الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فافتد نفسك ببعضها ، واعلم أن الأمر الذي صار إليك انما كان بيد غيرك ممن كان قبلك ، ثم أفضى إليك . الخ .

فعاد المنصور إلى بكائه حتى كادت نفسه تفيض (١) .

هكذا أظهر المنصور نفسه امام رجل من العلماء وزعيم من زعماء الطوائف بمظهر السلطان الخائف من الله ، الباكي من خشيته ، لتنطبع في ذهنه صورة عن إمام المسلمين ، فيبلغها أصحابه حتى تبرد عزائمهم عن مؤاخذته ، والانكار على اعماله ، وقد نجحت حيلة المنصور ، فان المعتزلة لم يخرجوا عليه ولم يستنكروا اعماله حتى مات عمرو بن عبيد .

---

(١) حور العين لاحمد بن فارس ص ٢١٠ .

وعلى أي حال : فالمنصور لم يزل يقلب وجوه الرأي ، ويدبر الحيل في القضاء على الإمام الصادق ، ولا تروق له تلك الشهرة العلمية التي اكتسبتها مدرسته ، ولذلك حاول أن يحصر الفتوى بمالك بن أنس عندما رفع منزلته ، ونوه باسمه ونادى مناديه (ان لا يفتين إلا مالك) كما طلب من مالك ان يضع كتاباً يكون هو المرجع في الفقه رسمياً ، فلا يمكن الرجوع لغيره ، او الأخذ عن أحد سواه .

وانما خص مالكاً بذلك دون غيره من علماء المدينة لعلمه بانحرافه عن آل علي ، وأن نزعته نزعة أموية .

واستمر المنصور في تقديم العلماء ليسند عرشه الذي أصبح مهدداً من خطر الدعوة لأهل البيت ، وعدم الاعتراف له بأهلية الخلافة ، لما اتصف به من العسف والجور ، ومخالفة أحكام الاسلام .

وقد اشتهرت كلمة الإمام الصادق عندما سئل عمن يصلح للخلافة فأجاب عليه‌السلام :

إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن المحارم وحلم يملك به غضبه ، وحسن الخلافة على من ولي حتى يكون له كالوالد الرحيم.

وهذه الكلمة تجرد المنصور من أهلية الخلافة ، لعدم اتصافه بواحدة منها ، فلا يمكن الاعتراف له بذلك .

كما انه عليه‌السلام منع الناس من الترافع إلى الحكام ووصفهم بأنهم حكام جور وأئمة ضلال ، فحكمهم غير نافذ ، وطاعتهم غير لازمة ، وأن الركون إليهم ، والعمل لهم ضياع للحق ومعاونة على الظلم .

وكان يؤنب أصحابه الذين يتعاملون مع رجال الدولة وينهاهم عن ذلك قال لعذافر : بلغني انك تعامل ابا أيوب والربيع (١) فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة .

ونهى عن العمل لهم حتى في بناء المساجد وكرايه الأنهر ، وعندما سئل عن ذلك أجاب بقوله : ما أحب أن اعقد لهم عقدة ، أو وكيت لهم وكاء .

ويقول عليه‌السلام : العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء .

---

(١) أبو أيوب هو سليمان بن مخلد كاتب المنصور والمقرب عنده ، ثم قلده الدواوين والوزارة واصبحت له عند المنصور منزلة عظيمة دون سائر الناس ، حتى قالت العامة انه قد سحر أبا جعفر ، وبعد ذلك غضب عليه ونكبه وصادر أمواله ، وذلك في سنة ١٥٣ هـ .

أما الربيع بن يونس : فهو الربيع بن يونس بن أبي فروة مولى كيسان ، كان من أعيان الدولة وتولى نفقات المنصور ثم قلده الوزارة وقلد ابنه الفضل بن الربيع الحجابة .

ويقول عليه السلام : من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً حتى ينزع عن معونته .

ولم يهن على الدولة كل هذه الأمور التي تقف في سبيل تحقيق أهدافها ، كما عظم عليها اختصاص مدرسة الإمام بطابع الانفصال عن الدولة ، فلم يمكنهم التدخل في شؤونها ، او تكون لهم يد في توجيهها ، وتطبيق نظامها ، ولم تكن بينها وبين الدولة رابطة من روابط الإلفة والإنسجام : ومعنى ذلك عدم الاعتراف بشرعية الدولة ، وانها دولة جائرة لا يمكن الركون إليها ، وإن تظاهر الحكام بالمحافظة على المبادىء الإسلامية ، فتلك أمور سياسية لا واقع لها في نفس الواقع .

وكما قدمنا بأن الصراع بين مدرسة الإمام وبين الدولة يشتد على ممر الأيام ، وقد اتخذت أنواع الاساليب ، واستعملت شتى الحيل لإخضاع تلك المدرسة لأوامر الدولة ، والسير في ركابها ، فلم تنجح الوسائل ولم تنفع الأساليب . وهكذا يستمر هذا الصراع على ممر الدهور ومدرسة الإمام الصادق عرضة لأخطار النقمة ، وهدفاً لسهام الاتهام ، وقد رمي المنتمون إليها بالزندقة والالحاد والخروج على سلطان الله ، وذلك طبقاً لمنطق السياسة .

ولعل الرجوع إلى ما كتبناه سابقاً عن هذا الصراع ، كافياً عن الاطالة في ذلك ، فانا قد ذكرنا هناك عوامل انتشار المذاهب ، ومقومات شخصيات رؤسائها ، وان العامل الوحيد هو قوة السلطان ومناصرة الدولة ، كما أشرنا إليه في البحث عن عوامل المذهب الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والآن نشرع في ذكر المذهب الرابع ، وهو الحنبلي فلننتقل بك أيها القارىء الكريم إلى دراسة صحيحة عن حياة رئيس المذهب الحنبلي — الإمام أحمد بن حنبل — لنرى على ضوء المعلومات التاريخية ، مقومات شخصية ، وعوامل انتشار مذهبه ، والله المسدد للصواب .



الإمام أحمد بن حنبل
نسبه ونشأته



تمهيد :

نحن الآن مع الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام الرابع من أئمة المذاهب الإسلامية ، وقد حاولنا قدر الجهد والامكان التعرف على كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة ، في دراسة مجردة عن التحيز ، كما أهملنا الكثير من الزوائد التي لا نلمس من ورائها شيئاً جوهرياً عن شخصية كل واحد منها ، فهناك كثير من الأساطير التي وضعت في ظروف خاصة ، حول تكوين تلك الشخصية ، وإبرازها في إطار الاعجاب ، والخروج عن حدود الواقع .

وقد ظهر لنا فيما سبق أسباب إيجاد تلك الأمور ، كما وقفنا على عوامل انتشار مذاهبهم ، دون غيرهم ، ولنا فيما سبق من البحث في الاجزاء السابقة كفاية عن الإطالة ، وقد بقيت أمور تتعلق في البحث عنهم ستأتي في الأجزاء القادمة إن شاء الله .

أما الإمام أحمد فان دراسة حياته لا تخلو من الأساطير والحكايات والاطياف ، التي جعلت في جدول تكوين شخصيته ، مما لا تتفق مع الواقع ، ولا يمكن قبولها من دون تمحيص ، ولا بد لنا من الوقوف على الحقيقة من طريق البحث العلمي ، لا التخمين والوهم .

كما ان هناك آراء وعقائد نسبها الحنابلة إلى أحمد بن حنبل ، وهي بعيدة عن الاعتقاد الصحيح ، وقد عد هذا من ابتلاء أحمد في اصحابه ، لان نسبتها إليه مما يثير الشك والريب في أمره .

وفي عصر أحمد ماجت المدن الإسلامية بعناصر مختلفة ، من أمم متباينة الأرومة ، وترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما ، وامتزجت مدنيات وتصادمت حضارات .

ومن طبيعة العصر الذي تكثر فيه المنازعات ، ويضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة بعضها ببعض ، أن تظهر فيه آراء وأخلاق منحرفة ، ويكثر الشذوذ الفكري والشذوذ الاجتماعي ، حتى يصبح الشاذ هو الكثير ، والغريب هو المألوف .

فالبحث عن شخصية علمية عاشت في ذلك العصر ، المائج بالاختلاف وشذوذ الآراء ، لا بد من أن يتصف بصعوبة أمام الباحث الذي يتجرد عن

العاطفة ، والغلو والتحيز .

ونحن الآن ندرس حياة الإمام أحمد على ضوء الواقع ، تاركين وراءنا كثيراً من زوائد المغالين ، لأنها لا تكشف عن ناحية من نواحي تلك الشخصية التي يتطلبها البحث المتجرد عن العاطفة .

نسبه :

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة ابن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن قصي ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .

هكذا ساق ابن الجوزي هذا النسب في مناقب أحمد (١) وكذلك ذكره القاضي ابن ابي يعلى في الطبقات (٢) .

وقد اختلف في مازن بن ذهل بن شيبان ، فبعضهم يقول : مازن بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة . وبعضهم يقول : مازن بن شيبان بن ثعلبة ، ولا يهمنا هذا الاختلاف فقد ورد نسبه بهذه الصورة ، ولكن المهم في ذكر هذا النسب على طوله ، والاختلاف فيه ، أنه جعل من مناقب احمد ومن مؤهلاته العلمية .

يقول ابن رجب بعد ذكر هذه السلسلة : وهذا النسب فيه منقبة عميمة ، ورتبة من وجهين : أحدهما حيث تلاقى في نسب رسول الله ﷺ : لأن نزاراً (وهو الجد السابع والعشرين لأحمد) كان له ابنان أحدهما مضر ونبينا من ولده والآخر ربيعة وامامنا أحمد من ولده .

والوجه الثاني انه عربي صحيح النسب ، وقد قال رسول الله ﷺ : أحب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي .

فهذا النسب على ما ذكروه هو أول مناقب أحمد ، لأن الاتصال برسول الله ﷺ وإن بعدت الواسطة ، واتسعت الدائرة ، هو منقبة عظيمة ، ولعل ذلك هو أحد المرجحات عندهم لمذهبه ، ولزوم اتباعه ، ونحن لا ننكر أن الإتصال برسول الله شرف عظيم ، ولكننا نستغرب هذا التمحل في الاستدلال

---

(١) المناقب ص ١٦ .

(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٤ .

والتكلف في الاثبات ، لأن هذا أمر لا يختص به أحمد بن حنبل ، فهو شامل لملايين من البشر ، فلا يمكن جعله مرجحاً لمذهبه وعده في مناقبه .
وأما الوجه الثاني وهو كونه عربياً ليكون الحديث المذكور كالبشارة بأحمد ولزوم محبته ، مع أن هذا الحديث قد نص كثير من الحفاظ على وضعه ، ومع صحته فليس من الصحيح الاستدلال به ، وجعله من مقومات شخصية الإمام أحمد .

ولادته ونشأته :

ولد أحمد في المشهور في ربيع الأول من سنة ١٦٤ من الهجرة النبوية ، وقد ذكر ذلك ابنه صالح وحكاه ابنه عبد الله ايضاً ، قال : سمعت أبي يقول : ولدت في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وذلك في عهد المهدي . واختلفت الروايات في محل ولادته ، فقيل أنه ولد ببغداد ، إذ جاءت به أمه حملا من مرو ، وقيل انها ولدته في مرو ، والاول أشهر كما تضافرت الروايات في ذلك ، وقد روي عنه أنه قال: قدمت بي أمي حملا من خراسان ، وولدت سنة ١٦٤ هـ.
وفي رواية أخرى انه قال : قدم بي من خراسان وانا حمل ، ولم أر جدي ولا أبي .
وروى صالح العجلي عن أبيه : أن أحمد بن حنبل سدوسي بصري ، من أهل خراسان ، ولد ببغداد ونشأ بها .
وقول العجلي انه بصري : لأن شيبان كانت منازلها بالبصرة وباديتها ، وكان أحمد إذا جاء إلى البصرة صلى في مسجد مازن ، وهم من بني شيبان ، فقيل له في ذلك فقال : مسجد آبائي (١) .
أما أمه فيقال أنها شيبانية أيضاً ، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني ، وقيل انها ليست بشيبانية .
وعلى الجملة فقد نشأ أحمد يتيماً في حجر أمه ، وهي التي تولت تربيته ، لأنها دخلت به بغداد حملا فولدته ، وليس له كافل غيرها . وما يقال من أنه كان يعيش على عقار ابيه في بغداد ، فهو قول بغير مستند .
ولا نعلم هل أن عمه تولى شؤونه لأنه كان حياً عندما قدمت أم احمد من خراسان ، وكان عمله ايصال الاخبار إلى الولاة بأحوال بغداد ، ليعلم بها

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص ٢١

الخليفة إذا كان غائباً عنها ، وكان أحمد يتورع عن حملها ، وايصالها إلى الولاة .

ونشأ أحمد ببغداد وتربى بها تربيته الأولى ، وكانت بغداد حاضرة العالم الإسلامي ، وعاصمة دولته ، وهي تموج بأناس اختلفت مشاربهم ، وتخالفت مآربهم ، وزخرت بأنواع المعارف والفنون ، وكانت تموج برجال العلم وحملة الحديث ، ففيها القراء والفقهاء والمتصوفة ، وعلماء اللغة ، والفلاسفة ، والمحدثون ، وقد توجه إلى علم الحديث ، بعد أن قرأ القرآن وتعلم اللغة والكتابة ، ولقد قال هو في ذلك : كنت وأنا غلام أختلف إلى الكتاب ، ثم اختلفت إلى الديوان وانا ابن عشرة سنين .

ثم اتجه إلى طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، وبعد ذلك رحل إلى الأقطار ، وكتب عن شيوخها وأخذ عن الشافعي واتصل به اتصالا وثيقاً ، وقويت بينهم عرى المودة ، ولازمه مدة اقامته في بغداد ، وكان يعترف للشافعي بعلو المنزلة ويقول : ما من أحد مس بيده محبرة وقلماً إلا وللشافعي في عنقه منة . وقال : انه لم يبت مدة ثلاثين سنة إلا ويدعو الله للشافعي ويستغفر له .

وكان أول تلقيه العلم على القاضي أبي يوسف صاحب ابي حنيفة المتوفى سنة ١٨٢ هـ فقد قال : أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف (١) .

وابتدأ رحلاته لتلقي الحديث في سنة ١٨٦ هـ ، فرحل إلى الحجاز ، والبصرة واليمن ، والكوفة ، وكان يود أن يرحل إلى الري ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد ، ولم يكن قد رآه في بغداد ، ولكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه في هذا السبيل ، وكان يقول : لو كان عندي تسعون درهماً لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد لأنه كان في ضنك عيش ، يتحمل في سبيل ذلك المتاعب ، إذ لم يكن له كافل من اسرته كما تقدم بيانه . كما انه لم يتمكن من الرحلة إلى الشافعي في مصر إذ وعده بذلك .

نبوغه وشهرته :

ونبغ أحمد في مجتمعه وعرف بين أقرانه ، ولكن شهرته لم تكن تبلغ حدها الذي بلغت إليه في آخر حياته إلا بعد وقوع المحنة ، فهو في ذلك المجتمع الذي كان يزخر برجال العلم وحملة الحديث لم يكن مبرزاً ، أو له شهرة تفوق غيره ، لذلك لم يكن في أول الأمر معدوداً في قائمة الرجال من أهل العلم الذين

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص ٢٢ .

تهم الدولة في موافقتهم بمشكلة خلق القرآن ، أو يسوؤها مخالفتهم ، فقد جاء في كتاب المأمون الأول ذكر جماعة من العلماء ، ولم يكن أحمد فيهم ، ولكنه ورد بعد ذلك .

ومهما يكن من أثر الاسباب في شهرة أحمد فان ذلك لا يتعدى حدود صموده في الامتناع عن القول بخلق القرآن ، وكما سيأتي أنه لم يكن الوحيد في ذلك ، فان جماعة من العلماء ، قد وقفوا موقفاً مشهوداً ، وقد تحملوا في سبيل ذلك الأذى ، وقد تجرعوا الغصص ؛ وكانت خاتمة المطاف أن لقوا حتفهم في السجون ، وتحت ضرب السياط وحد السيوف .

وبطبيعة الحال أن يكون ذلك الصراع العقائدي قد فسح المجال لمعرفة الأشخاص الذين يبرزون في هذا الميدان ، ومن حسن الحظ أن يبقى أحمد إلى عهد المتوكل ، الذي غير مجرى الحوادث بمحاولته جلب الرأى العام الذي كان مستاء من تصرفات المعتزلة ، وشدة سطوتهم ، وتنكيلهم بمن يخالف عقيدتهم ، فكان انتصار المتوكل للمحدثين قد أحدث انقلاباً في سياسة الدولة وتوجيه الرأي العام ، فانهزم المعتزلة ، وانتصر المحدثون ، وسطع نجم أحمد في ذلك الافق المكتظ بسحب الخلافات والمنازعات العقائدية ، واتجه الرأي العام إلى تعظيمه ، والالتفاف حوله ، وقد أبدى المتوكل عنايته التامة في احترام أحمد وتعظيمه ، وأصبحت له منزلة سامية ، وظهر اتباعه بمظهر العظمة .

وكان المتوكل يصله بصلات سنية ، و يعطف عليه ، وعين له في كل شهر أربعة آلاف درهم (١) وطلبه إلى سامراء ليتبرك برؤياه ، وينتفع بعلمه فامتنع أحمد ولكنه أجبر على الموافقة .

وكان الأمراء يدخلون عليه ويبلغونه سلام الخليفة ، ولا يدخلون عليه حتى ينزعون ما عليهم من الزينة ، وقد بلغ من تقدير المتوكل لأحمد واحترامه انه أصبح لا يسمع عليه وشاية ، ولا يصغي لقول خصم فيه ، إلا الاتهام بالميل للعلويين ، فان المتوكل كان يأخذ في ذلك على الظنة والتهمة ، وقد تمكن الوشاة بأن يبلغوا المتوكل عن أحمد بالميل للعلويين ، وانه يبايع لرجل منهم سراً ، فكبست داره وفتشت أدق تفتيش (٢) . فلم يجدوا ما يدل على ذلك .

وبهذا برأت ساحته من هذه التهمة ، التي كادت أن تطيح بكيانه ، وتعود عليه بالعذاب والنكال ، شأنه شأن غيره من العلماء ، الذين أخذوا بهذا الاتهام

---

(١) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٣٩ .
(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٣٦ .

الذي ليس من ورائه الا القتل بدون رحمة .

صلته بالمتوكل :

وكان المتوكل يوصي الأمراء باحترام أحمد وتقديره ، ولما مرض أحمد كان المتوكل يبعث إليه برسله يستعلم أخباره ، ويسأل عن حاله ، ولما مات اهتم أمير البلد بأمره ، وتولت رجال الدولة القيام بواجب تجهيزه ، وحضر من بني العباس نحو مائة رجل مع سائر القواد والاعيان والوزراء فكان يوماً مشهوداً .

والذي يظهر من سيرة أحمد انه كان منكمشاً من المتوكل غير مرتاح إلى مودته ، فهو لا يقبل هديته إلا خوفاً ، ويقال أنه كان يفرقها سراً على المحتاجين ، ولا يجلس على بساطه ولم يظهر عليه ذلك أو يتظاهر بالمخالفة ، ولكنه كان يذهب إلى صحة خلافته وإمامته ولزوم طاعته .

لم تكن عناية المتوكل هذه بالإمام أحمد لدافع ديني فهو أبعد الناس عن تعاليم الدين ، ولكنها أمور سياسية دعت لذلك ، وظروف خاصة اقتضت اظهار هذه المودة ، لأن العامة اصبح لهم تعلق بشخصية أحمد ، الأمر الذي جعل الدولة تلحظ ذلك ، وتقيم له وزناً ، كما انه كان يساير الدولة .

ولقد كانت سياسة الدولة العباسية ابان قوتها تؤكد طابعها الديني ، فقربت إليها العلماء والفقهاء ، والمشتغلين بالعلوم الإسلامية ، وكانت ترقب أيضاً حركات فريق منهم ، ممن يؤدي اشتهارهم بالعلم والورع إلى تعلق الجماهير بهم ، إذ قد يؤثر ذلك في مركز الخلفاء ، وقد يزعزع ولاء المسلمين لهم ، فكان الخلفاء يهتمون بما يجري في حلقات الفقهاء والمحدثين ، ويراقبون من يتعرض منهم بالنقد للنظام القائم وقد يبطشون به ، كما رأينا في اهتمام المنصور بأمر الإمام الصادق ومحاولة القضاء عليه عندما وقف عليه السلام موقف المعارضة لحكمهم ، ووصفهم بحكام جور ، وأئمة ضلال ، وأمر بمقاطعتهم والابتعاد عنهم .

وكذلك فعل الرشيد مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فقد اهتم بأمره وسجنه وعذبه ، حتى مات في السجن مسموماً .

وقد رأينا ما لقيه أحمد نفسه من تعذيب وتنكيل عندما خالف رأي الدولة ، وانه امتحن ونكل به ، كما ستقف عليه قريباً ، وبعد أن اتحد الرأي

وتعير الوضع ، فلم يكن من أمر أحمد ما يخشى منه على الدولة ، بل كان يؤيد موقفها ويشد أزرها ، فقد جاء في إحدى رسائله : والسمع والطاعة للأئمة ، وأمير المؤمنين ، البر والفاجر ، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ، ورضوا به ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة ، وسمي أمير المؤمنين ، والغزو ماضي مع الأمراء إلى يوم القيامة ، البر والفاجر ، وقسمة الفيء ، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماضي ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم ، ودفع الصدقات اليهم جائزة نافذة ، من دفعها اليهم اجزأت عنه ، براً كان أو فاجراً ، وصلاة الجمعة خلفه ، وخلف كل من ولي ، جائزة إمامته ، ومن اعادها فهو مبتدع تارك للآثار ، مخالف للسنة ، ليس له من فضل الجماعة شيء ، إذ لم ير الصلاة خلف الأئمة من كانوا ، برهم وفاجرهم ، فالسنة أن تصلي معهم ركعتين ، وتدين بأنها تامة ، لا يكن في صدرك شك ، ومن خرج على امام من أئمة المسلمين ، وقد كان الناس اجتمعوا عليه ، وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا او بالغلبة ، فقد شق عصى المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ فان مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية (١) .

فأقوال أحمد ناطقة نطقاً صريحاً بأنه يرى لزوم الطاعة لمن يتولى الأمر ، لا فرق بين البر والفاجر ، فطاعة الكل لازمة حتى في أمر محض للمعصية ، ولكن يؤخذ من أفعاله الخاصة كما اسندوا اليه ذلك ، انه لا يرى الطاعة في المعصية ، أما أقواله فهي عامة لا تخصيص فيها ، ولم يكن له موقف معارضة أو دعوة إلى مخالفة .

ويقول محمد ابو زهرة : لم يؤثر عنه أنه عمد إلى دعوة الأمراء والحكام إلى الامتناع عن الظلم وإلى توجيههم إلى اقامة السنة ، بل كان موقفه سلبياً ، لا يسايرهم فيما هم فيه ، ولا يدعوهم بالقول إلى غيره ، فهل كان ناشئاً من أنه كان يمتنع عن الخوض في السياسة ، ومعالجة شؤونها ، وترك الأمر والدعوة إلى السياسة الصالحة للصالحين من أهل الخبرة فيها .

وقد عرض القضاء على أحمد بن حنبل فرفض قبوله ، وذلك أن الشافعي رشحه للقضاء في اليمن عندما سافر أحمد إليها ، للاستماع من عبد الرزاق ابن همام ، وكان الشافعي هناك يتولى بعض وظائف الدولة ، فامتنع أحمد عن القبول ، ولم يكن امتناعه لعدم شرعية الدولة ، فهو يرى أن الخلافة في ذلك

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٧٥ — ٧٦ .

الوقت صحيحة ويجب الطاعة لمن يتولى الأمر براً كان أم فاجراً وذلك بخلاف امتناع الإمام ابي حنيفة عن تولي القضاء في عهد الدولة الأموية ، وقد ضربه ابن هبيرة ليرضخه على قبول هذه الوظيفة فامتنع ؛ وفي أيام المنصور عرض عليه القضاء فرفضه حتى سجنه المنصور وضربه بالسياط ، وكان ذلك سبب موته كما يقال لأن أبا حنيفة لا يرى صحة خلافة العباسيين والأمويين وكان رأيه عدم المعاونة معهم .

ولكن الإمام أحمد يرى لزوم المعاونة ووجوب الطاعة ، فامتناعه عن قبول القضاء يبعث على التساؤل ، ولعل هذه القضية لا أصل لها .

الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في محنته



المحنة :

ظهرت مقالة القول بخلق القرآن في بداية القرن الثاني للهجرة ، فقد أعلن بها الجعد بن درهم ، وقتل من أجلها ، قتله خالد بن عبد الله القسري حاكم العراق .

وبقيت هذه الفكرة في طي الكتمان ، ولم يكن لها أي أثر او تطور في التأريخ ، إلى زمن هرون الرشيد عندما نبغت المعتزلة ، ونشطت الحركة الفكرية وثاروا على الجمود ، ولم يستطيعوا أن يجاهروا في ذلك ، لأن هرون الرشيد كان يحارب هذه الفكرة ، حتى انه قال يوماً : بلغني أن بشر المريسي يقول : القرآن مخلوق ، والله والله لئن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد . ولما علم بشر بذلك ظل متوارياً أيام الرشيد (١) .

وقال بعضهم : دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق ، والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق (٢) .

واستمرت المسألة في دور الكتمان والتستر إلى زمن المأمون ، ولما ظهرت الفلسفة . وأثيرت مسائل حول صفات الله من المتكلمين والمعتزلة ، فكان أهمها هي مسألة كلام الله ، وخلق القرآن ، وهي ابرز شيء كان في تأريخ المعتزلة ، لما اتصل بها من أحداث تاريخية وسياسية .

وكما قلنا أن المسألة وجدت في آخر الدولة الاموية ، وبقيت تنمو ويدور حولها الجدل ، وتتسع فيها المناظرة ، وتؤلف فيها الكتب حتى جاء عصر المأمون فانه كان يميل إلى حرية الفكر ، وبذلك استطاع المعتزلة أن يواصلوا نشاطهم فقد كانوا يتحرقون إلى نشر اصولهم ، فوجدوا في المأمون بغيتهم ، ونظروا إليه بعين الإكبار ؛ لان الإصلاح الذي يرومونه يتحقق على يديه فالتفوا حوله ، اذ وجدوا فيه ركناً شديداً .

فكان مذهبهم أقرب المذاهب إلى نفس المأمون ، فقربهم وأصبحوا ذوي

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤٧ .
(٢) تاريخ ابن كثير ج ١ ص ٢١٥ .

نفوذ في القصر ، وكان من اظهرهم ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبي داود ، وكان هو حامل لوائهم إذ رجحت كفته وتولى القضاء ، وبقيت هذه المسألة من سنة ٢١٨ هـ إلى ٢٣٤ هـ وسميت في التاريخ بالمحنة وهي في الاصل الخبرة .

واستغل المعتزلة الموقف ، واغتنموا فرصة استمالة المأمون والمعتصم والواثق لهم ، فأطلقوا أيديهم في السياسة ، فنكلوا بخصومهم وأذاقوا الناس العذاب ، إذ هم لم يقولوا بخلق القرآن ، وأقاموا ضجة ليس لها مثيل من محاكم تقام ، ويعرض فيها على العلماء والقضاء القول بخلق القرآن ، فمن لم يقل عذب وأهين ، وسمى المؤرخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن ، وكانت سطوتهم — أي المعتزلة — في ذلك بلغت الذروة ، فلما بلغوها أخذوا ينحدرون عنها .

وجاء المتوكل فرأى ناراً تتقد في كل مكان وامتحانات ومحاكمات ، وضرباً . ونفياً وتشريداً ، والرأي العام ساخط على هذه الحالة ومن لم يقل بخلق القرآن وتحمل العذاب عد بطلا .

فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن الرأي العام وأن يكتسب تأييده ، فأبطل القول بخلق القرآن ، وأبطل الامتحانات والمحاكمات ونصر المحدثين (١) .

اتسع الافق أمام المعتزلة ، وواصلوا نشاطهم العلمي والسياسي ، عند ما عزل يحيى بن اكثم عن منصب قاضي القضاة سنة ٢١٧ هـ وتولى مكانه ابن أبي داود ، وهو كبير المعتزلة وفي رعيلهم الأول ، وفي سنة ٢٠٦ هـ مات يزيد بن هرون ، وكان هو ويحيى بن اكثم يحولان بين المأمون وبين اظهار القول بخلق القرآن ، فقد جاء في تصريح للمأمون قال فيه : (لولا يزيد بن هرون (٢) لأظهرت القول بخلق القرآن) .

فقال له بعض جلسائه : ومن يزيد بن هرون حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟

فقال المأمون : إني أخاف إن اظهرته يرد علي فيختلف الناس فتكون فتنة وأنا أكره الفتنة .

---

(١) ظهر الاسلام ج ٤ ص ٨ .

(٢) يزيد بن هرون أبو خالد الواسطي ، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كان من الحفاظ والعلماء المشهورين ، قال علي بن المديني: ما رأيت رجلا قط اشهر من يزيد بن هرون. وكانت له مكانة في المجتمع وأثر في قلوب الناس .

وبهذا يظهر أن الفكرة أخذت من المأمون مكانها من قديم ، ولكنه كان يمانع من قبل خواصه ، وهو يحذر الفرقة ويخشى الفتنة ، وبعد أن وجد الطريق قد مهد لذلك أعلن رأيه وحمل الناس بالقوة إلى تأييده واتباع رأيه ، وبدأ بذلك في سنة ٢١٨ هـ .

وعلى أي حال : فان المأمون قد اشتد في امتحان الناس ولزوم اقرار الفقهاء بما يراه ، فجعل يرسل لعامله الكتب وكانت تزداد شدة وعنفاً ، وتهديداً وتوعيداً ، وكان من نتائج هذا الامتحان أن أجاب جميع الفقهاء لذلك ولم يمتنع منهم إلا نفر قليل ، منهم أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، واحمد بن نصر الخزاعي ، وابو يعقوب البويطي ، ونعيم بن حماد ، وهؤلاء قد ذاقوا حتفهم لامتناعهم عن الاجابة ، وبقي أحمد ولم يكن حظه كحظهم من السجن والقتل ، فتركزت شخصية أحمد ، فكانت انظار المحدثين تتجه إليه ، بعد أن غلبوا على أمرهم وأصبحوا مضطهدين أمام ذلك التيار الذي يحاول القضاء على الجمود الفكري ، واعطاء العقل حرية التصرف في نصوص الشريعة ، إن لم تكن مؤيدة بالكتاب أو صحيحة السند من السنة .

أدوار المحنة :

كانت الخطوة الأولى التي خطاها المأمون ليضمن انصياع رعيته بالنحلة التي انتحلها ، والرأي الذي ارتآه ، أن دعى الفقهاء والمحدثين إلى أن يقولوا بمقالته في خلق القرآن ، فيقولون إن القرآن محدث ، كما يقول المعتزلة الذين اختار منهم وزراءه وصفوته ، وجعلهم بمنزلة نفسه ، فأرسل كتاباً إلى عامله على بغداد : اسحق بن ابراهيم ، وهو ابن عم طاهر بن الحسين ، وقد أمره فيه أن يشخص لديه القضاة والمحدثين ، وأن يمتحنهم في موضوع خلق القرآن . كما أرسل كتبه إلى الأقطار لحمل الناس على ذلك ، وارغامهم على الأخذ بهذهِ الآراء ، واتباع الأمر الذي يدعو فيه إلى التفكير الحر ، واستخدام العقل في فهم العقائد الدينية ، كما تشير لذلك كتبه ، وخاصة كتابه الأول الذي أطال فيه بذكر السبب الذي ألجأه إلى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، حيث قال فيه :

« إن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته ، والعمل بالحق في الرعية ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الاعظم والسواد الأكبر من

حشو الرعية ، وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه ، في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ، والايمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقصور عن أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفونه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكر والتذكر ، وذلك انهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما انزل من القرآن ، فاطبقوا مجتمعين على انه (أي القرآن) قديم أزلي لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه .

وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » فكل ما جعله الله فقد خلقه .

وقال : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور »

وقال عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » .

فأخبر أنه قصص لأمور قد أحدثها ، وتلا به متقدمها ، فقال تعالى: « آلر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وكل محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه ، ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم اظهروا ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا بهم الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزيناً بذلك عندهم ، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم»

ثم ذكر ان هؤلاء قد زكوا أمثالهم ، وقبلت شهادتهم ، ونفذت الأحكام بهم ، مع دغل دينهم وفساد عقيدتهم :

« وأولئك شر الأمة ، ورؤوس الضلالة المنقرضون من التوحيد ، وأحق من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فانه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد » .

ثم قال : « فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون في

خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه ، فاذا أقروا بذلك . . . فمرهم ومن بحضرتهم من الشهود على الناس ، ومسالتهم من علمهم في القرآن وترك اثبات شهادة من لم يقر انه مخلوق محدث . . . واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله » .

فكان هذا الكتاب خطوة أولى لامتحان الرعية في انصياعهم وتسليمهم لما ينتحله من هذه المقالة ، التي يرى القيام بها واجباً عليه لأن ذلك يستلزم تصحيح عقائد الناس ، ولا سيما إذا تغلغل الفساد إلى أصل من أصول الدين ، كالاشراك مع الله شيئاً آخر وهو القرآن ، وبهذا لا يصح أن يستقضي من ضعفت عقيدته ، ولا تقبل شهادته ، إذ لا يوثق بمن ضعف إيمانه ، ولا سلطان لمن لا تصح عقيدته واشراك في توحيده ، فهو غير مأمون من الظلم والحيف على الرعية والسلطان مسؤول عنه أمام الله .

وهذه الخطوة مقصورة على التوعيد والعزل عن القضاء ، وعدم قبول شهادة من لا يتبع رأي الخليفة ، فلا تعذيب ولا تنكيل ، فهو يحاول الاصلاح بهذه الأمور ، وان تعذر ذلك فانه يستعمل القوة .

وأرسل نسخة من الكتاب إلى مصر وكان قاضيها يومئذ هرون بن عبد الله الزهري ، فأجاب لذلك كما أجاب الشهود المعتمدون ، ومن توقف منهم اسقطت عدالته ، وأبطلت شهادته .

وقد أصدر المأمون أمراً عاماً يأخذ الناس بالمحنة في كافة أرجاء المملكة الإسلامية ، ففي سنة ٢١٨ هـ ذهب المأمون بنفسه إلى دمشق ، وربما كان في طريقه وهو ذاهب إلى حملته الأخيرة على آسيا الصغرى . وهنالك في دمشق أشرف بنفسه على امتحان الفقهاء والعلماء ، في مسائل حرية الإرادة ، ووحدانية الذات الإلهية ، أي العدل والتوحيد ، وعنده ان عقيدة التوحيد تعد اختباراً يؤدي إلى القول بخلق القرآن ، وبذلك سمى المعتزلة انفسهم أهل التوحيد والعدل .

وسارع اسحاق بن إبراهيم والي بغداد إلى تنفيذ رغبة المأمون ، فاحضر المحدثين والفقهاء والمفتين ، وانذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد ان لم يقروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سئلوا أن ينطقوا به ، ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم واعلنوا اعتناق ذلك المذهب .

ويعلل ابن كثير : أن اجابتهم كانت مصانعة ، لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وان كان له رزق على بيت المال قطع ، وان كان مفتياً منع من الافتاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاستماع (١) .

وإليك ثبتاً في اسماء بعض من أجاب من العلماء منهم : يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٢ هـ وهو من شيوخ أحمد بن حنبل والبخاري وغيرهم ، وقال فيه أحمد : حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث .

وإسماعيل بن أبي مسعود البصري المتوفى سنة ٢٤٨ هـ .

وعلي بن الجعد الهاشمي مولاهم أبو الحسن الجوهري المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأبو حسان الزيادي المتوفى سنة ٢٤٢ هـ ، وعلي بن مقاتل ، وابو معمر القطيفي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، وأحمد بن الجواري المتوفى سنة ٢٤٦ هـ ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي مؤلف الطبقات المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأبو خثيمة زهير بن حرب المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ، وابو مسلم المستميلي ، وأحمد بن الدورقي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ ، وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وبشر بن الوليد الكندي المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وابو علي بن عاصم ، وأبو شجاع واسحاق بن إسرائيل المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، وسعدويه الواسطي المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، ومحمد بن حاتم ابن ميمون المتوفى سنة ٢٣٥ هـ ، وغيرهم : كابن العوام ، ويحيى بن حميد العمري ، وأبو نصر التمار ، وقد ذكر ابن كثير منهم النظر بن شميل ، وهذا خطأ لأن ابتداء الدعوة إلى القول بخلق القرآن كانت في سنة ٢١٨ هـ وكانت وفاة النظر في سنة ٢٠٣ أي قبل المحنة بخمس عشرة سنة .

امتحان أحمد بن حنبل :

جاء في كتاب المأمون الرابع لعامله اسحاق يأمره بأن يستدعي بشر بن الوليد ، فان أصر على الامتناع تضرب عنقه ، وكذلك أمره في إبراهيم بن المهدي ، وأما الباقون يعيد عليهم الكرة فمن أبى منهم يحمل موثقاً إلى عسكر المأمون مع من يقوم بحفظهم .

فجمعهم اسحق وقرأ عليهم كتاب المأمون ، فأجاب كافة الفقهاء ما عدا

(١) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٧٣ .

أحمد بن حنبل ، وسجادة والقواريري ، ومحمد بن نوح ، فأمر بهم اسحق بن إبراهيم فشدوا في الحديد ، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم ، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه . وبعد يوم آخر أجاب القواريري بأن القرآن مخلوق فأخلى سبيله ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح .

فكتب حاكم بغداد إلى المأمون بذلك فأمره بأن يشخص إليه أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح موثقين في الأغلال ، ولما وصلا في طريقهما إلى قرب الأنبار ، وفي اثناء الطريق جاءهم نعي المأمون .

فأما محمد بن نوح فقد مات وهو عائد إلى بغداد بعد موت المأمون ، ففك قيده وصلى عليه أحمد بن حنبل ، وبهذا ينتهي دور أحمد في عصر المأمون .

في عهد المعتصم :

لم تنقطع المحنة عن العلماء بوفاة المأمون بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها ، وكانت شراً مستطيراً ، فقد بلغ البلاء اشده ، والمحنة اقصاها في عهد المعتصم ، ثم في عهد الواثق .

لقد أوصى المأمون قبل وفاته أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه في القرآن ، ودعوة الناس إليه بقوة السلطة ، وكأنه فهم أن تلك الفكرة دين واجب الاتباع ، لا يبرأ عنقه منها من غير أن يوصي خلفه به فوصاه ، فقد جاء في مطلع وصيته : هذا ما اشهد عليه عبد الله بن هرون الرشيد . أمير المؤمنين بحضرة من حضره ، أشهدهم جميعاً على نفسه . أنه يشهد هو ومن حضره ، أن الله عز وجل وحده لا شريك له في ملكه ، ولا مدبر لأمره غيره ، وأنه خالق ، وما سواه مخلوق ، ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل كل شيء ، ولا شيء مثله تبارك وتعالى . وجاء في وسط الوصية : يا أبا إسحاق أدن مني (كنية المعتصم) واتعظ بما يرى وخذ بسيرة أخيك في خلق القرآن (١) .

فاشتد المعتصم في امتحان الناس ، اتباعاً لسيرة أخيه وجريا على نهجه الذي لم يتصف بصفة الرأفة ، ولا يحول بينه وبين ايقاع المكروه بمن يريد أي

---

(١) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٤٧ .

حائل ، مع ما فيه من النشاط العسكري ، وقوة الإرادة والشجاعة التي امتاز بها ، ولم يكن رجل علم ، بل رجل سيف لا يضعه عن عاتقه .

ولا حاجة لنا بذكر جميع اطراف المحنة ، والمؤاخذة ، ولكنا نشير لما يخص صاحبنا ــ أحمد بن حنبل ــ في ذلك وموقفه في مجابهة تلك الشدة ، وكيف نجا من سطوة المعتصم ، وشدّة ابن ابي داود ، وهو كبير المعتزلة ، وبطل هذه المعركة ، فهل أجاب أحمد لما أراد الخليفة فخلى سبيله ؟ أم أن المعتصم خشي وقوع الفتنة عندما يقتله إن أصر على الامتناع ؟ أم أنه رق عليه وأعجب بشجاعته وثباته ؟ وقد ذكر بعض المؤرخين أن أحمد أجاب في المحنة وانقطع عن المناظرة كما سنبينه قريباً .

وعلى وجه الإجمال فان المعتصم اشتد في امتحان الناس ، وكان أحمد سجيناً عنده فأمر بحمله إليه ، وقال حاكم البلد : ان الخليفة قد أقسم إلا أن يقتله بالسيف ، وانه سوف يضربه ضرباً بعد ضرب ، وانه سيزجه في مكان مظلم لا يرى فيه النور . وسار أحمد إلى المعتصم ، فلما دخل عليه وابن أبي داود وأصحابه في حضرته ، والدار غاصة بأهلها وبالقضاة والفقهاء من اتباع الدولة ، فناظروه ولم يستطيعوا اخضاعه .

فقال ابن أبي داود : يا أمير المؤمنين (انه ضال مضل متبدع) .

وبقي أحمد ثلاثة أيام يؤتى به كل يوم للمناظرة ، عسى أن يرضخ أحمد لحكم السلطة ولكنه استعصم ولم يجب ؛ فلما يئس المعتصم منه أمر بضربه بالسياط ، وقد اختلف في عددها فقيل ثمانية وثلاثين وقيل أقل من ذلك .

وعلى أي حال : فان تعذيب أحمد لم يدم ، بل أن المعتصم اطلق سراحه ، وخلع عليه ، وقد ذكر بعضهم ان السبب هو ان العامة قد تجمعوا على دار السلطان أو هموا بالهجوم ، فأمر المعتصم باطلاقه وهذا لا يتمشى مع واقع الأمر ، فان المعتصم لم يعرف بضعف الإرادة ، وكانت دولته في ابان عظمتها وقوة سلطانها فلا يؤثر فيها استنكار عدد قليل من الناس ، على ما يفعله من الأمور .

وذهب بعض إلى أن أحمد أجاب الخليفة فاطلق سراحه كما جاء في رسالة الجاحظ التي تمثل وجهة نظر المعتزلة تمثيلا صادقاً ، فهي تنسب لاحمد انقطاعه عندما ناقشه أحمد بن ابي داود بمحضر المعتصم ، وأقام عليه أدلة من الكتاب وأدلة عقلية .

قال الجاحظ في رسالته مخاطباً لأهل الحديث بعد أن ذكر المحنة والامتحان:

وقد كان صاحبكم هذا (أي الإمام أحمد) يقول : لا تقية إلا في دار الشرك . فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية، فلقد اعملها في دار الإسلام . وقد أكذب نفسه . وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم . على انه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضرب ضرباً كثيراً . ولا ضرب الا بثلاثين سوطاً مقطوعة الثمار ، مشبعة الاطراف ، حتى أفصح بالإقرار مراراً . ولا كان في مجلس ضيق ولا كانت حاله مؤيسة ، ولا كان مثقلا بالحديد ، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد .

ولقد كان ينازع بألين الكلام ويجيب باغلظ الجواب ، ويرزنون ويخف ويحلمون ويطيش (١) .

هذا ما أردنا اثباته من هذه الرسالة التي تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما اتلفه أهل السنة من مؤلفات المعتزلة ، وهي تدلنا على إقرار أحمد واعترافه بأن القرآن مخلوق . مؤيدة بما ذكره اليعقوبي في تاريخه :

وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن ، فقال أحمد : أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا . فأحضر له الفقهاء وناظره عبد الرحمن بن اسحق وغيره ، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق ، فضرب عدة سياط ، فقال إسحق ابن إبراهيم : ولني يا أمير المؤمنين مناظرته . فقال : شأنك به فقال إسحق :

هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك او علمته من الرجال ؟

فقال أحمد : بل علمته من الرجال .

فقال (إسحق) : شيئاً بعد شيء أو جملة ؟

قال : علمته شيئاً بعد شيء .

قال (اسحق) : فبقي عليك شيء لم تعلمه ؟

قال أحمد : بقي عليّ شيء لم اعلمه .

قال إسحق : فهذا مما لم تعلمه ، وعلمكه أمير المؤمنين .

قال أحمد : فإني أقول بقول أمير المؤمنين .

قال إسحق : في خلق القرآن ؟

قال أحمد : في خلق القرآن . فأشهد عليه وخلع عليه واطلقه إلى منزله .

هذا ما يستدل به على اجابة أحمد للمعتصم ، من أقوال رجال هم أقرب الناس من عهده ، واطلعهم على حوادثه .

---

(١) مقدمة كتاب احمد بن حنبل والمحنة ص ١٤ نقلا عن هامش الكامل ج ٣ ص ١٣١-١٣٩

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٨ .

وبدون شك أن امتحان أحمد كان من أكبر العوامل لانتشار ذكره واتجاه الناس إليه ، وانه بعد أن استقر في بيته بعد ما عفى عنه المعتصم ، التف حوله جماعة للسماع منه في المسجد يدرس مدة بقاء المعتصم ، وبعد وفاته تقلد ولده الواثق الخلافة صار أحمد محدثاً مشهوراً ، فعظم ذلك على قاضي بغداد الحسن بن علي بن الجعد ، فكتب إلى أبي داود (١) بذلك ، فلما سمع أحمد امتنع من تلقاء نفسه .

ولما قام الواثق بالأمر ، أعاد امتحان أحمد ، ولكنه لم يتناوله بأذى ، كما فعل المعتصم ، واكتفى بمنعه من الإجتماع بالناس ، فأقام أحمد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق .

ومن الحق والإنصاف ان نقول أن المحنة لم تكن مقصورة على أحمد بن حنبل ، وإن كان تصوير موقفه قد أخذ يتسع ويتطور ، وحيكت حوله أساطير وأقوال ، فان هناك من فقهاء ذلك العصر من كان موقفهم أشد من موقف أحمد في الإمتناع ، ومواجهة الخطر ، ومكابدة المحنة ، فقد استشهد الكثير منهم في سبيل معتقده ، وقاوم حتى لقي حتفه ، كما رأينا في موقف محمد بن نوح وموته ، وهو مثقل بالحديد ، وإليك ذكر البعض منهم :

شركاء في المحنة :

١ ـ أحمد بن نصر الخزاعي بن مالك الخزاعي المقتول سنة ٢٣١ هـ ، وهو مروزي من مدينة مرو ، ينتمي لإحدى العشائر الكبيرة في قبيلة خزاعة ، وهو من تلامذة مالك بن أنس ، وروى عنه ابن معين ومحمد بن يوسف الطباع .

وكان من أهل العلم ، صلباً في عقيدته ، قوياً في معارضته ، وقال أحمد بن

---

(١) أحمد بن ابي داود بن جرير القاضي الايادي ، المتوفى سنة ٢٤٠ هـ كان من أقوى شخصيات عصره ، وله الأثر الكبير في المجتمع ، وكان من اصحاب واصل بن عطاء ، فصار إلى الاعتزال .

وهو بطل الثورة الفكرية أيام المحنة ، لمكانته في الدولة ونفوذه ، وقد اتصل بالمأمون فأعجب به لعقله وحسن منطقه ؛ فقربه واصبح ذا نفوذ كبير في قصره ، وكان من وصية المأمون للمعتصم : (وابو عبد الله احمد بن ابي داود لا يفارقك الشركة في المشورة في كل امرك ، فانه موضع ذلك) .

فلما ولي المعتصم جعل بن ابي داود قاضي القضاة مكان يحيى بن اكثم ، وكان كذلك قاضي القضاة في أيام الواثق ، فلما ولي المتوكل أصيب بالفالج وأفل نجمه ، فكانت مدة عظمة بن ابي داود ونفوذه نحواً من ثمان وعشرين سنة ، أي من سنة ٢٠٤ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ .

حنبل فيه بعد أن قتل : (لقد جاد بنفسه) كما ان له مكانة في المجتمع ، فقد شغل أبوه وجده المناصب العالية في عهد الخلفاء العباسيين ، كما اشتهر هو في الوقت بالأمانة ، والعدالة بين المحدثين من أهل السنة .

قبض عليه والي بغداد وامتحنه الواثق وسأله : ما تقول في القرآن ؟

قال : كلام الله ليس بمخلوق . فحمله أن يقول انه مخلوق فأبى .

وسأله عن رؤية الله يوم القيامة (والمعتزلة ينكرونها) فقال بها ، وروى له الحديث في ذلك .

فقال الواثق : ويحك هل يُرى كما يُرى المحدود المتجسم ، ويحويه مكان ، ويحصره الناظر ، انما كفرت برب هذه صفته .

ولما أصر أحمد الخزاعي على رأيه ، دعى الخليفة بالسيف المسمى الصمصامة وقال : اني احتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ، ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها ، ثم مشى إليه بنفسه ، فضرب عنقه ، وأمر به فحمل رأسه إلى بغداد ، فنصب بالجانب الشرقي أياماً ، ثم بالجانب الغربي اياماً ، ولما صلب كتب الواثق ورقة وعلقت في رأسه : (هذا رأس احمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هرون (وهو الواثق) إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه فأبى إلا المعاندة فعجل الله به إلى ناره .

ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة (١) وقد تنوقلت قصة خرافية فحواها : أن الرأس منذ أن نصب إلى أن دفن كان يتلو القرآن ، وتضاهيها قصة أخرى تحكى : أنه بعد مقتل أحمد بن نصر بسنين طويلة وجد رأس أحمد بن نصر وجسده مطمورين في الرمال ، لم يلحقهما أي أثر (٢) .

وقتل أحمد بن نصر في آخر شعبان سنة ٢٣١ هـ ، وظل رأسه والجذع الذي نصب عليه معروضين للأنظار طيلة ست سنوات ، ولا يعقل ترك رأس قتل لجريمة الكفر في نظر الدولة ، وهو يتلو القرآن طيلة هذه المدة ، مما يدل على فضيحة تلك الدعوى ، واستنكار الناس ، ولكن الاندفاع العاطفي خلق حول كثير من الأشخاص أساطير وخرافات يكذبها الوجدان .

٢ ــ يوسف بن يحيى البويطي تلميذ الشافعي وخليفته على حلقة درسه ، حمل من مصر إلى بغداد ، مثقلا باربعين رطل من الحديد ، وامتحن فأبى

---

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) أحمد بن حنبل والمحنة ص ١٦٦ .

أن يقول ان القرآن مخلوق ، وقال : والله لأموتن في حديدي هذا ، حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون انه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ، ولئن دخلت عليه يعني الواثق لأصدقنه ، ومضى على امتناعه حتى مات في سجنه سنة ٢٣٢ هـ.

وكان وهو في الحبس يغتسل كل جمعة ثم يخرج إلى باب السجن إذا سمع النداء ، فيرده السجان ويقول له : ارجع رحمك الله ، فيقول البويطي : اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني (١).

٣ — عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولى آل طلحة الكوفي ، المتوفى سنة ٢١٩ هـ ، وهو من شيوخ أحمد والبخاري ، ويحيى بن معين ، وقد امتحن وعذب لأجل امتناعه عن القول بخلق القرآن ، لما بلغ كتاب المأمون إلى الكوفة ، سئل عن فحواه فقال : انما هو ضرب الأسواط ، ثم امسك بزر ثوبه ، وقال : رأسي أهون عليّ من هذا ، ولم يزل مصراً على امتناعه حتى مات سنة ٢١٩ .

٤ — نعيم بن حماد بن معاوية بن الحرث الخزاعي ابو عبد الله المروزي ، المتوفى سنة ٢٢٨ هـ ، كان من الذين ثبتوا في المحنة ، ولم يجب إلى ما طلب منه عندما أمر الواثق بحمله من مصر ، وامتحن في القول بخلق القرآن ، فلم يقل أن القرآن مخلوق ، وأصر على التمسك بعقيدته ، فزج في السجن إلى أن مات فيه.

ونعيم هذا هو الذي فد الف كتاباً في الرد على أبي حنيفة ، وكان يعرف بوضع الحديث في تقوية السنة في مقابل المعتزلة وغيرهم (٢) .

٥ — عفان بن مسلم بن عبد الله الأنصاري أبو عثمان البصري الصفار ، أحد الأئمة الأعلام ، ومن رجال الصحاح الستة ، وعنه أخذ أحمد بن حنبل والبخاري ، وابن معين ، وابن المديني ، قال أبو حاتم : هو امام ثقة متقن متين . وقال ابن عدي : عفان أوثق من أن يقال فيه شيء (٣) .

نزل عفان بغداد ، ونشر بها علمه ، وحدث عن شعبة واقرانه ، قال يحيى ابن معين: أصحاب الحديث خمسة: ابن جريح، ومالك، والثوري، وشعبة .

قال حنبل : كتب المأمون إلى متولي بغداد يمتحن الناس فامتحن عفان . وقال المأمون : فان لم يجب عفان فاقطع رزقه ، وكان له في الشهر خمسمائة درهم ، فلم يجبهم عفان لذلك وقال : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » (٤)

---

(١) طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٧٦ ، و: أحمد بن حنبل والمحنة ص ٣٦٧ .
(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٧ .
(٣) الخلاصة للخزرجي ص ١٣٧ .
(٤) الشذرات ج ٢ ص ٤٧ .

فقطع المأمون رزقه الذي كان يتقاضاه منه ، وثبت على عقيدته في المحنة ، وقد غضب عليه أهل بيته ، لأنه حرمهم بامتناعه مما يقيم أودهم ، إذ كان يعول أربعين نفساً ، ولكن ذلك لم يقع عنده موقع الاهتمام ، وأصر على امتناعه ، إلى أن مات سنة ٢٢٠ هـ .

٦ — عبد الأعلى بن مسهر الغساني أبو مسهر الدمشقي ، المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، عالم الشام وعظيم القدر عند أهلها ، ولعظيم مكانته عندهم انه كان إذا خرج اصطف الناس يقبلون يده ، وهو من رجال الصحاح الستة ، ومن شيوخ أحمد بن حنبل ، وابن معين . قال أحمد : ما كان اثبته . وقال ابن معين : منذ خرجت من باب الانبار إلى أن رجعت لم أر مثل أبي مسهر . وقال أبو حاتم : ما رأيت أفصح منه وما رأيت احداً في كورة من الكور ، أعظم قدراً ولا أجل عند أهلها من أبي مسهر بدمشق ، إذا خرج اصطف الناس يقبلون يديه .

وقد ثبت عبد الأعلى ولم يجب في المحنة فحبسه المأمون ببغداد في شهر رجب لمحنة القول بخلق القرآن ، ومات في الحبس سنة ٢١٨ هـ (١) واما قول ابن سعد انه مات سنة ٢١٠ هـ فهو خطأ ، لأن المحنة ابتدأت في سنة ٢١٨ هـ .

* * *

هؤلاء الرجال هم أشهر من وقف في ذلك المعترك العقائدي ، الذي اثارته الدولة ، وحملت الناس على الخضوع لارادتها بالتهديد والتوعيد ، والضرب بالسياط ، والقتل والسجن . وان من ظلامة التاريخ أن تخص هذه المحنة بأحمد ابن حنبل فيكون فارسها المحنك ، وبطلها الأول ، وموقفه الوحيد في نصرة الإسلام منذ بزوغ شمسه في الجزيرة العربية ، ونحن لا ننكر موقفه ولا نبخس حقه ، ولكنا نقول : أن هناك زوائد يجب أن تهمل ، واطياق وأساطير لا تزيد البحث إلا تعقيداً كما نشير إليها في المناقب .

أوضاع المحنة في عصر الإمام أحمد :

ان ما يمتاز به عصر أحمد وجود معسكرين متخاصمين كل يحاول أن ينال السبق والتغلب ، ويحاول القضاء على الطرف الآخر ، وهم المعتزلة ، وأهل الحديث . ولقد بلغ الصراع اشده ، وقامت ثورة فكرية ، وعاطفية ،

---

(٢) الخلاصة للخزرجي ص ١٨٧ ، وشذرات الذهب ج ٢ ص ٤٤ .

والسياسة من وراء ذلك تلعب دورها ، وكان كل من المعسكرين ، يأمل آمالا واسعة ، فالمعتزلة كانوا يأملون ان يصبح الاعتزال مذهب الدولة الرسمي ، كما ان الإسلام دينها الرسمي ، فاذا تم ذلك ، انتشر الاعتزال تحت حماية الدولة ، وأصبح أكثر المسلمين معتزلة ، فوحدوا الله كما يوحدون ، واعتنقوا أصول الاعتزال كما يعتنقون ، وتحرر المسلمون في افكارهم ، فأصبح المشرعون لا يتقيدون بالحديث تقيد المحدثين ، وانما يستعملون العقل ، ويزنون الأمور بالمصالح العامة ، ولا يرجعون إلى نص إلا ان يكون قرآنا أو حديثاً مجمعاً عليه ، وتحرر عقول المؤرخين من المسلمين ، فيتعرضون للأحداث الإسلامية ، بعقل صريح ، ونقل حر ، فيشرحون أعمال الصحابة والتابعين ، ويضعونها في نفس الميزان الذي توزن به أعمال غيرهم من الناس (١) .

ولقد تدخلت الحكومة في مناصرة المعتزلة ، وأخذوا الناس إلى اتباع آرائهم بالقوة . ومر المعتزلة في نشاطهم أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وكان المحدثون يقفون أمام هذا الرأي بشتى الأساليب ، وظهر القول بخلق القرآن وقدمه ، فكانت هناك محنة عامة ، فأجاب من أجاب وامتنع من امتنع ، حتى جاء عهد المتوكل فأراد أن يستجلب الرأي العام، لأن المسألة بلغت إلى اقصى حد من العنف والشدة ، فأعلن ابطال ذلك في سنة ٢٣٤ هـ وهدد من أثار هذه المسألة ، وأظهر الميل للمحدثين ، ووقف بجانبهم فكانت لاصحابهم الغلبة ، وفي ذلك العهد طلع نجم أحمد بن حنبل ، وظهر اسمه لأنه بقية الرجال المبرزين الذين امتنعوا من الاجابة كما هو المشهور .

وانتصر المحدثون وشملهم المتوكل بعطفه ورعايته وأشخص منهم مائتين ، وكان فيهم مصعب الزبيري ، وإسحق بن أبي اسرائيل ، وإبراهيم بن عبد الله الهروي ، وعبد الله وعثمان ابنا أبي شيبة ، فقسمت بينهم الجوائز ، واجريت عليهم ، وأمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس ، وان يحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية ، وان يحدثوا بالأحاديث في الرؤية ، فجلس عثمان بن ابي شيبة في مدينة المنصور ، ووضع له منبر واجتمع عليه الناس ، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة ، وقام القصاصون بنشاط واسع ، ووضعت الأحاديث عن صاحب الرسالة ﷺ ونسبوا له زوراً أنه صلى الله عليه وآله قال : (ما قيل من قول حسن فانا قلته) .

---

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٩٦ .

والتف الناس حول أنصار الدولة من المحدثين ، واستمعوا إلى القصاص الآمنين من المواخذات ، لأن الدولة لهم تحرسهم والظروف تساعدهم ، وقد أنكر أحمد بن حنبل على ابن أبي شيبة ، وعلى مصعب والهروي وضعفهم ، وكان انتصار المتوكل للمحدثين حدثاً هاماً ، فقد أفل نجم المعتزلة ، وسقطت دولتهم ، وقام أهل الحديث باغتنام هذه الفرصة، فارتفع لواؤهم وتبوؤوا المكانة الرفيعة ، وانتقموا من خصومهم المعتزلة ، بل من كل من يتهم بالميل إليهم ، وحدثت حوادث انتقامية بدون تدبر وترو ، وهكذا شأن من انتصر بعد ظلم ، واعتز بعد ذلة ، فأوقع الحنابل نقمتهم على كثير ممن لم يشارك المعتزلة في سلطانهم .

أما الإمام أحمد فقد علت منزلته عند المتوكل وقربه إليه وطلب منه ان يتولى تعليم ولي العهد ، كما كان يتعاهده بالاكرام ويشيد بذكره ويتشوق لرؤيته ، وطلب أن يزوره في عاصمة ملكه ليراه ويتبرك بقربه .

وعندما لمس الناس هذا العطف من المتوكل الذي عرف بقساوة القلب ، والظلم والإستبداد وسفك الدماء ، والانهماك في الشهوات ، انهال الناس على أحمد من مناصريه وغيرهم ، وازدحموا على بابه ، وتهافت رجال الدولة وأعيانها عليه ، فكان الطريق إلى بيته مزدحماً بالناس ، وإذا سار في الطريق احتشدوا خلفه ، وتحدثوا في الأندية والمجتمعات عن عظمته وعلو مكانته ، ويأتون إليه بالمنامات المبشرة والحوادث الدالة على عظمته ، فهذا يقول : إن أمي كانت مقعدة فأقسمت على الله باسم أحمد بن حنبل فعوفيت .

وهذا يقول : إن الجندي المسلم في غزو الروم أيام أحمد إذا رمى وذكر اسم أحمد أصاب ، وان الفارس الرومي المتحصن بدرعه وترسه وخوذته لا يصيبه السهم الا إذا ذكر اسم أحمد .

ومن الغرائب : أنه زار تلميذه (بقي بن مخلد) في خان بأطراف بغداد ، فازدحم الناس عليه ، وبعد أن رجع أحمد تهافت الناس على ذلك الخان للتبرك بالمكان الذي جلس فيه ، والمكان الذي وقف فيه ، فربح صاحب الخان لكثرة الوفود وكتب الواحاً وعلقها وفيها: هنا جلس أحمد، وهنا تكلم ، وهنا وقف (١) إلى غير ذلك من الأمور التي شاعت في بغداد .

---

(١) الدولة العباسية لحسن خليفة ص ١٤٧ .



الإمام أحمد بن حنبل
حياته العلمية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناقبه :

تقدم الكلام حول المناقب، المؤلفين فيها ، وانهم جاءوا بأشياء لا واقع لها ، وانها من نسيج الوهم وتصوير الخيال ، وأن أكثرهم اندفع وراء العاطفة العمياء ، فحال بينهم وبين التفكير الحر والوصول إلى الواقع ، حتى جعلوا من لا شيء شيئاً ، ووضعوا أحاديث تدل بمنطوقها على عظمة الشخصية التي يحاولون ابرازها في إطار العظمة التي خرجت بهم عن نطاق البشرية ، وارتفعت بها إلى أسمى رتبة من الكمال النفساني .

وقد تعرضنا في الأجزاء السابقة إلى ذكر بعض المناقب لرؤساء المذاهب الثلاثة بصورة إجمالية ، وانهم أوردوا أحاديث مبشرات عن النبي ﷺ ، كل ذلك نتيجة التطاحن الطائفي والصراع العقائدي .

أما الحنابلة فلم يأتوا بشيء من تلك المبشرات تصريحاً ، لتكون في قائمة المرجحات للاتباع ، ولكنهم استندوا إلى البعض منها تلميحاً ، او على وجه العموم دون تخصيص ، ولكنهم امتازوا بوضع المنامات ، وكثرة الاطياف ، ولعل الكثير منهم جعلها هي المرجحة لاتباع احمد واعتناق مذهبه ، ويشهد لذلك قول أبي الخطاب المتوفى سنة ٤٧٦ هـ :

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل ... به اقتدي مادمت حياً امتع
وذاك لاني في المنام رأيته ... يروح ويغدو في الجنان ويرتع (١)

ويقول بعضهم : رأيت أبا الخطاب في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فأنشد :

أتيت ربي بمثل هذا ... فقال ذا المذهب السديد
محفوظ ثم في الجنان حتى ... ينقلك السائق الشهيد

ومحفوظ هو اسمه وهو من كلواذ ، وكان من شيوخ الحنابلة واعيانهم، لما مات دفن إلى جنب قبر أحمد .

وكثرت المنامات التي تعطي بمؤداها صورة عن عظمة شخصية أحمد ، وتعلق العامة به .

---

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٤٧ .

نقل ابن الجوزي عن علي بن اسماعيل انه قال : رأيت ان القيامة قد قامت وكأن الناس قد جاءوا إلى موضع عند قنطرة ، لا يترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم ، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم ، فمن جاء بخاتم جاز ، فقلت : من هذا الذي يعطي الخواتيم ؟ فقالوا : هذا احمد بن حنبل (١) .

وقد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة في الاختراع ، فقد ذكر المكي في المناقب أن أبا حنيفة رؤي على سرير في بستان ، ومعه رق يكتب جوائز قوم ، فسئل عن ذلك فقال : ان الله قبل عملي ومذهبي وشفعني في أمتي ، وانا اكتب جوائزهم. فقيل له : إلى أي غاية يكون علمه حتى تكتب جائزته ؟

فقال ابو حنيفة : إذا علم أن التيمم لا يجوز بالرماد(٢). وناهيك ما لهذه الأمور من أثر في توجيه شعور العامة . وتعلق قلوبهم بمن يكون اتباعه نجاة من عذاب يوم القيامة ، وما اكثر هذه الترغيبات في كتب المناقب ، والتساهل في نقلها ، كما أن المالكية يدعون أن مالكاً يمنع منكراً ونكيراً عن مساءلة أصحابه في القبر . ونحن لا نطيل الحديث عن هذه الأمور ، ولكنا نشير للبعض منها مما جعل كالبشارة بأحمد وترجيح اتباعه .

ويقول الاسود بن سالم : أتاني آت وقال لي يا أسود الله يقرأ عليك السلام ويقول لك هذا أحمد بن حنبل يرد الأمة عن الضلالة فما أنت فاعل ؟ والا هلكت .

ويقول الحسن الصواف : رأيت رب العزة في المنام فقال لي يا حسن من خالف احمد بن حنبل عذب .

ويقول ابو عبد الله السجستاني : رأيت رسول الله في المنام ، فقلت : يا رسول الله من تركت لنا في عصرنا هذا من امتك نقتدي به في ديننا ؟ قال : عليك بأحمد بن حنبل .

إلى غير ذلك من المنامات والأطياف التي وضعها انصار المذهب الحنبلي ، ليوجهوا الناس إليه في عصر طغى فيه تيار التعصب وجعلت الطائفية أداة لاغراض الولاة ، وستاراً تعمل من ورائه الايدي العابثة التي تحمل معول الهدم وأداة التخريب .

وقد استخدموا القصاصين في استخدام هذه الوسائل تحقيقاً للهدف ، ونيلا للغرض الذي يحصل من وراء ذلك . فتراهم يقومون في الاندية ، والمساجد

---

(١) ابن الجوزي ص ٤٤٦ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ج ٢ ص ٢٠٧ .

والطرقات ، يحدثون بما يعضد المذهب وانتشاره ، فهذا يقص عمن لا يعرفه : بأنه رأى في المنام بعض الصالحين في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي .

قيل : من وجدت أكثر أهل الجنة ؟ قال : أصحاب الشافعي : فقال له : فأين أصحاب أحمد بن حنبل ؛ فأجابه : انك سألتني عن أكثر أهل الجنة ، وما سألتني عن أعلا عليين ، أصحاب أحمد في أعلى أهل الجنة ، وأصحاب الشافعي أكثر أهل الجنة .

ويقول الحسين بن أحمد الحربي : رأيت في المنام كأني في جماعة ، وكأنا قد اعتقلنا ، وكأني مكروب من الاعتقال ، فإذا بقائل يقول : أي شيء أنتم ؟ فقلت: حنابلة. فقال : قوموا فان الحنابلة لا يعتقلون ، وكأن قائلا يقول : ما من أحد اشتمل على هذا المذهب فحوسب .

وعن يحيى الحماني قال: رأيت في المنام كأني في صفة لي إذ جاء النبي ﷺ فأخذ بعضادتي الباب ، ثم أذن وأقام ، وقال : نجا الناجون وهلك الهالكون . فقلت : من الناجون ؟

قال : أحمد بن حنبل وأصحابه . (١)

وبهذا النشاط استغل كثير من الكذابين وضع منامات لجلب قلوب العامة ، كما ترى من رواية الحماني ، وهو المعروف بالوضع ، والمشهور بالكذب ، كما نص الحفاظ على ذلك .

وعلى وجه الإجمال فقد كثرت المنامات في شخصية أحمد مرة ، وفي مذهبه أخرى ، وفي قبره وفضل زيارته ثالثة . وبذلك انتشر لأحمد ذكر ورفعوه عن مستوى البشر .

قال أحمد بن حسين : سمعت رجلا من خراسان يقول : عندنا أحمد بن حنبل يرونه أنه لا يشبه البشر ، يظنون انه من الملائكة. وقال رجل: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة .

وقال بعضهم : ما كنت أحب ان اقتل في سبيل الله ولم أصل على الامام أحمد (١) . وآخر يقول يوم دفنه : دفن اليوم سادس خمسة وهم : أبو بكر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل .

إلى كثير من الأقوال التي صدرت عن أناس تأثروا بدعايات دعاة المذهب عندما سنحت الفرصة ، ورجحت الكفة وانتصر أهل السنة على خصومهم ،

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص ٥٠٤ .

وفسح الطريق أمامهم لمناصرة السلطة لهم بكل شيء .

يحدثنا ابن الجوزي : انه ذكر عند المتوكل بعد موت أحمد أن أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع (وهم غيرهم من الطوائف) الشر ، فقال لصاحب الخبر : لا ترفع إليّ من أخبارهم ، وشد على ايديهم ، فانهم وصاحبهم من سادة أمة محمد .

وكذلك كان لا يصغي لقول أي أحد في أحمد عندما رفع منزلته وقربه ، يحدثنا إبن كثير ان بعض الأمراء أخبر المتوكل أن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولا يشرب لك شراباً ، ولا يجلس لك على فراش ، ويحرم ما تشربه .

فقال المتوكل : والله لو نشر المعتصم ، وكلمني في أحمد ما قبلت منه .

وكتب رجل للمتوكل : إن أحمد يشتم آبائك ويرميهم بالزندقة ، فكتب المتوكل جواباً يتضمن عدم الاعتناء ، وأمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط ، فأخذه عبد الله بن إسحاق فضربه خمسمائة سوط فقال له المتوكل : لم ضربته خمسمائة سوط ؟

فقال : مائتين لطاعتك وثلثمائة لكونه قذف هذا الشيخ الصالح أحمد ابن حنبل (١) .

وكما ذكرنا أن المتوكل أمر القصاصين وبعض الفقهاء بالحديث عن الرؤية وما يتعلق بذم المعتزلة والجهمية ، فلا غرابة أن يتقولوا على الشافعي انه قال : من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر ، فقيل له تطلق عليه اسم الكفر ؟ فقال : نعم من أبغض أحمد بن حنبل عاند السنة ، ومن عاند السنة ، قصد الصحابة ، ومن قصد الصحابة . أبغض النبي ، ومن أبغض النبي ﷺ كفر بالله العظيم (٢) .

فيكون الناتج : من أبغض أحمد كفر بالله العظيم .

ولسنا نريد هنا استقصاء ما وضع في تلك الفترة حول شخصيته ، ولا نطيل الحديث في ذلك بعد أن أظهر لنا التحقيق مدى ذلك النشاط الذي سار عليه كثير من رواة المناقب ، فهي لا تعطي لنا صورة واقعية .

اننا نريد التعرف على تلك الشخصيات من طريق الواقع ، وستقف على أقوال العلماء في الإمام أحمد كما وقفت على اقوالهم في غيره .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٤٠ .

(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣ .

شيوخه :

ابتدأ أحمد في طلب العلم في سنة ١٧٩ هـ أي بعد مضي خمس عشرة سنة ، وأول شيخ تلقى عليه العلم هو هشيم بن بشير السلمي المتوفى سنة ١٨٣ هـ أبو معاوية الواسطي نزل بغداد وكان مدلساً .

استغرقت دراسة أحمد على هشيم ثلاث سنوات أو أكثر ، وقد كتب من املاء هشيم كتاب الحج نحو ألف حديث ، وجانباً من التفسير والقضاء وكتباً صغاراً .

وقد رحل أحمد في طلب الحديث إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق ، وممن تلقى عليهم : سفيان بن عيينة . وإبراهيم بن سعيد ، ويحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨ هـ . ووكيع المتوفى سنة ١٩٦ هـ وابن علية المتوفى سنة ١٩٣ هـ . وابن مهدي المتوفى سنة ١٩٨ هـ . وعبد الرزاق ابن همام المتوفى سنة ٢١١ هـ . وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، وعلى بن هشام بن البريد . ومعمر بن سليمان المتوفى سنة ١٨٧ هـ ، ويحيى بن ابي زائدة . وابو يوسف القاضي المتوفى سنة ١٨٢ هـ . وابن نمير المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . والحسن بن موسى الأشيب المتوفى سنة ٢٠٩ هـ . واسحق بن راهوية المتوفى سنة ٢٣٨ هـ . وعلي بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ . ويحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ .

واجتمع أحمد بالشافعي وأخذ عنه الفقه وأصوله . وبدأت علاقته بالشافعي في سنة ١٩٥ هـ ، حين قدم الشافعي بغداد . ودام هذا الاتصال إلى سنة ١٩٧هـ ، وهي السنة التي توجه فيها الشافعي إلى مكة .

ولما كان أكثر هؤلاء المشايخ قد تعرضنا لترجمتهم في أبحاثنا المتقدمة في الاجزاء السابقة ، فقد رأينا ان لا نتعرض لترجمتهم هنا .

أما الشخصية الأولى التي استقبلته ووجهته ونمت نزوعه . وجعلت منه طالب سنة ، دؤوباً في طلبها ، يجوب الاقطار . وهي شخصية هشيم بن بشير بن حازم المتولد سنة ١٠٤ هـ والمتوفى سنة ١٨٣ هـ .

كان هشيم بخاري الأصل . وقد أقام أبوه في واسط . وكان طباخاً للحجاج ابن يوسف ، ولما انتقلت اسرته إلى بغداد كان يصطنع هذه الصناعة ، وقد اشتهر باعداد بعض انواع السمك واجادته . فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مألوفاً في اسرته . وقد تلقى هشيم على بعض التابعين كعمر بن دينار ،

والزهري ، ومغيرة بن مقسم ، وغيرهم .

وروى عنه شعبة وأحمد وعلي بن المثنى الموصلي وابن معين وخلق . وقد اختص به أحمد ، مدة طويلة قبل ان يتصل بالشافعي ، وبعد وفاة هشيم اتصل بالشافعي عندما التقى به في مكة ، واثار اعجابه به ، فهو يعد الموجه الثاني لأحمد بن حنبل ، وكانت بينهما صلة ومودة .

وقد ذكرنا ان أول شخصية تلقى أحمد عنه العلم . هو ابو يوسف القاضي ، ولكن لم تطل ملازمته له كما لازم هشيم والشافعي فهما في طليعة شيوخه والموجهين له .

ولكن الغريب من الحنابلة هو جعل المشايخ تلاميذ ، فقد ذكروا ان الشافعي وعبد الرزاق بن همام وابن مهدي ، ويزيد بن هرون ، والحسن بن موسى الاشيب ، وهم من شيوخ أحمد ، كانوا من تلامذته .

وقد ذكروا أن البخاري من تلامذة أحمد ، وانه روى عنه الحديث ، مع أن البخاري لم يرو له إلا حديثاً واحداً في آخر كتاب الصدقات تعليقاً ، وروى له مسلم وأبو داود في صحيحيهما والباقون لم يخرجوا حديثه .

تلامذته :

كان لأحمد بن حنبل أصحاب كثيرون : منهم من روى الحديث عنه ، ومنهم من روى الحديث والفقه ، ومنهم من اشتهر برواية الفقه ، وقد أحصاهم صاحب « المنهج الأحمد » في عدد كبير ، ولعل الحنابلة يبالغون العدد ، وانه إذا ذهب قدر المبالغة يبقى بعد كثيراً ولا يكون قليلا (١) .

ويجب أن نلحظ هنا أمراً هاماً وهو :

انه لا خلاف بين العلماء في عد الإمام أحمد من المحدثين ، لكن الخلاف في عده من الفقهاء ، فان أكثرهم لم يذكره في عداد الفقهاء ، فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء ، وكان يقول : انما هو رجل حديث لا رجل فقه ، وثارت عليه الحنابلة من أجل ذلك ، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه المعارف من الفقهاء ، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء ، واقتصر ابن عبد البر في كتاب الانتقاء على الأئمة الثلاثة : أبي حنيفة ومالك والشافعي .

---

(١) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ١٧٦ .

ومن هذا يتبين ان مدرسته الفقهية لم تكن ذات أثر في عصره ، فمن الصعب تحديد نشاطها ، واعطاء صورة عن رجالها في عصره ، وانما اتسعت بعد مدة من وفاته .

وعلى أي حال : فان أشهر أصحاب أحمد ورواة حديثه هم :

أحمد بن محمد بن هاني المعروف بالاثرم ، المتوفى سنة ٢٦١ — ٢٦٢ هـ الاسكافي ، كان جليل القدر عظيماً عند الحنابلة ، قال سعد بن عتاب : سمعت يحيى بن معين يقول : كان أحد أبوي الاثرم جنياً (١) .

وقال ابراهيم بن الاصبهاني : احفظ من أبي زرعة واتقن .

وقد نقل الاثرم عن أحمد بن حنبل مسائل كثيرة ، كجواز المسح على العمامة ، واغنائه عن المسح على الرأس ، وان قراءة القرآن بالالحان بدعة لا تستحسن ، وان المضمضة والاستنشاق ركنان من اركان الوضوء ، وغير ذلك من المسائل كما ذكر ابن أبي يعلى .

أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز المروزي المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وكان أخص أصحاب احمد به واقربهم إليه ، وأدناهم منه ، وهو الذي تولى غسله لما مات ، وكان عنده أثيراً ، وهو الذي روى كتاب الورع عن احمد ، ولقد نقل الخطيب البغدادي تكذيب رواية كتاب الورع عن غيره

وكان أحمد يثق بورعه وعقله ، حتى أنه كان يقول : كل ما قلت على لساني فأنا قلته .

قال المروزي : قلت لابي عبد الله احمد بن حنبل : أترى أن يكتب الرجل كتب الشافعي ؟ قال : لا . قلت : أترى أن يكتب الرسالة ؟ — أي رسالة الشافعي — قال : لا تسألني عن شيء محدث ، قلت : كتبتها ؟ قال : معاذ الله .

وقال ايضاً : قال أحمد : لا تكتب كلام مالك ، ولا سفيان ، ولا الشافعي ولا اسحق بن راهويه ، ولا أبي عبيد .

توفي المروزي في جمادى أولى سنة ٢٧٥ . هـ

إبراهيم بن اسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ كان من أعيان تلامذة أحمد والمختص به ، وقد لازمه مدة عشرين سنة ، وأخذ عنه الحديث والفقه وصنف كتباً كثيرة منها : غريب الحديث ، ودلائل النبوة وكتاب الحمام ، وسجود القرآن ، وذم الغيبة ، والنهي عن الكذب وغير ذلك .

---

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٧٣ .

صالح بن أحمد بن حنبل : وهو أكبر أولاده وقد تلقى الفقه والحديث عن أبيه ، وعن غيره من معاصريه ، ونقل إلى الناس كثيراً من مسائل الفقه التي أفتى فيها أبوه ، وكان الناس يكتبون إليه من خراسان ليسأل أباه عن مسائل ، فكان يرسل اليهم الأجوبة التي يتلقاها عنه ، وكان قد تولى القضاء باصبهان وطرسوس ومات باصبهان سنة ٢٦٦ هـ .

عبد الله بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٩٠ هـ روى الحديث عن أبيه وعن كثيرين غيره ، كعبد الاعلى بن حماد وكامل بن طلحة ، ويحيى بن معين ، وأبي الربيع وغيرهم .

وهو الذي روى المسند وتممه كما سيأتي بيانه ، وقد روى عن أبيه مسائل كثيرة ، ومن غريب ما رواه عنه انه قال : قبور أهل السنة من أهل الكبائر روضة ، وقبور أهل البدعة من الزهاد حفرة ، فساق أهل السنة أولياء الله ، وزهاد أهل البدعة أعداء الله (١) .

وهذا القول لا يمكن أن يصدر من رجل كأحمد بن حنبل واتصافه بالورع والتقوى ، فان مؤدى هذا القول ابطال العمل ، وترك الواجبات ، والتحلل من كل شيء ، فإذا كان مرتكب الكبيرة هو ولي الله لأنه من أهل السنة ، فما معنى السنة هنا وكيف يصح ذلك ؟ والعهدة على الرواة .

ولنكتفي بذكر هؤلاء من أصحاب أحمد الذين نقلوا فقهه كانموذج. وستعرض لذكر آخرين عند حديثنا عن رجال المذهب والمؤلفين فيه .

كتبه وآثاره :

لم يصنف أحمد بن حنبل كتاباً في الفقه يعد أصلا يؤخذ من مذهبه ويعد مرجعه ، ولم يكتب إلا الحديث ، وقد ذكر العلماء أن له بعض كتابات في موضوعات فقهية منها المناسك الكبير ، والمناسك الصغير ورسالة صغيرة في الصلاة قصيرة ، ظهرت في عدة طبعات في القاهرة .

وهذه الكتابة هي أبواب قد توافر فيها الأثر ، وليس فيها رأي أو قياس أو استنباط فقهي ، بل اتباع لعمل ، وفهم للنصوص .

فرسالته في الصلاة ، والمناسك الصغير والكبير وهي كتب حديث ، وإن

---

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٨٤ .

كانت في موضوعات مما تناولها بالبسط والشرح (١) .

وعلى الجملة فان المشهور عن أحمد انه كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي . فقد قال يوماً لعثمان بن سعيد : لا تنظر إلى ما في كتب أبي عبيد ولا فيما وضع اسحاق ، ولا في ما وضع سفيان ولا الشافعي ولا مالك وعليك بالاصل .

قال ابن بدران الدمشقي : وحيث ان الإمام أحمد كان يحب توفر الالتفات إلى النقل ، ويختار التواضع ، استغل أوقاته في جمع السنة والاثر وتفسير كتاب الله ، ولم يؤلف كتاباً في الفقه ، غاية ما كتب فيه رسالة في الصلاة ، كتبها إلى امام صلى وراءه فأساء في صلاته ، وهي رسالة قد طبعت ونشرت في أيامنا هذه ، فعلم الله من حسن نيته وقصده فكتب عنه أصحابه من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً انتشرت كلها في الآفاق .

ثم جاء أحمد بن هرون الخلال المتوفى سنة ٣١١ ﻫ فصرف عنايته إلى جمع علوم أحمد وإلى كتابة ما روي عنه ، وطاف لاجل ذلك البلاد ، وسافر للاجتماع بأصحاب أحمد ، وكتب ما روي عنه بالاسناد وصنف كتباً في ذلك (٢) .

والغرض أن أحمد كان ينهى عن التدوين لاقواله وآرائه ، وقد صرح بذلك مراراً .

روى ابن أبي يعلى : أن رجلا قال لأبي عبد الله : أريد أن أكتب هذه المسائل . فقال له أحمد : لا تكتب شيئاً فاني أكره أن أكتب رأيي . وأحس مرة بإنسان يكتب ومعه الواح في كمه . فقال أحمد : لا تكتب رأيي ، لعلي أقول الساعة بمسألة ثم أرجع غداً عنها (٣) . هذا ما علل به من كراهيته ، ومرة أخرى أنه كان يرى أن كتابة الرأي محدثة أو بدعة .

مسند الإمام أحمد :

والمسند هو مجموعة كبيرة من جملة أصول السنة يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف ، ومنها ثلثمائة حديث ثلاثية الاسناد (أي بين رواتها والرسول ثلاثة رواة) .

---

(١) أحمد بن حنبل ص ١٦٨ .
(٢) المدخل إلى مذهب الإمام احمد بن حنبل ص ٤٦ — ٤٧ .
(١) الطبقات لابن أبي يعلى ص ٣٩ .

وقد سئل أحمد عن حديث فقال : انظروه فان كان في المسند وإلا فليس بحجة .

وقد كان أحمد قد شرع في جمع المسند فكتبه في أوراق منفردة ، وفرقه في أجزاء متفرقة ، فمات قبل تنقيحه وتهذيبه ، فبقي على حاله ثم أن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله ، وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله .

وقد كثر الخلاف حول المسند واحاديثه ، وجمعه وترتيبه ، ورتبته من كتب الاسانيد .

وقد حكم ابن الجوزي على عدة أحاديث بالوضع وقال الذهبي في سيرة النبلاء : فيه — أي مسند أحمد — جملة من الاحاديث الضعيفة مما لا يسوغ نقلها ولا يجب الاحتجاج بها ، وفيه احاديث معدودة شبيهة بالموضوعة ، لكنها قطرة في بحر .

واعتذر ابن تيمية : بأن عبد الله بن أحمد قد زاد على مسند أحمد زيادات ، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات ، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة ، فظن الجهال انه من رواية أحمد ، رواها في المسند وهذا خطأ قبيح .

وخالفه العراقي وادعى أن في مسند أحمد موضوعات وصنف جزءاً مستقلا .

وقد صنف الحافظ ابن حجر كتاب : القول المسدد في الذب عن مسند أحمد ، نقل فيه جزء شيخه العراقي حرفاً حرفاً ، وأجاب عنه حديثاً حديثاً .

ورتبة مسند أحمد في الطبقة الثانية من كتب الأسانيد ، ولا يلحق بالصحيحين وموطأ مالك ، وقيل بعد الصحاح الخمسة ، وبعد موطأ مالك ، وصرح الخطيب وغيره بأن الموطأ مقدم على كل كتاب من الجوامع والمسانيد .

وقال ابن حزم : اولى الكتب الصحيحان ثم صحيح سعيد بن السكن ، والمنتقى لابن الجارود ، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود ، وكتاب النسائي ومصنف الطحاوي ، ومسانيد أحمد والبزار (١) .

ونرى من المناسب نقل بعض ما ذكره الأستاذ محمود أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) بعد ذكره لرتبة بقية المسانيد : أما مسند أحمد خاصة فاننا ننقل بعض كلام أئمة المحدثين فيه مبتدئين بقول شيخ الإسلام وإمام الحنابلة بعد أحمد، ابن تيمية، وليس علينا بعد أن ننقل ما ننقل أن يغضب

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي ص ٢٣٧ .

أحد ممن يدعون في عصرنا انهم من رجال الحديث ، لأن الحق أحق أن يتبع ، وما سوينا هذا الكتاب الا لنرضي الحق وحده ، فإذا ما غضب غاضب فليكن غضبه من الحق لا منّا (١) .

قال ابن تيمية رحمه الله من كلام له عن أبي نعيم : انه روى (أي أبو نعيم) كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة ، بل موضوعة باتفاق العلماء المحدثين امثاله ، يروون جميع ما في الباب لاجل المعرفة بذلك ، وان كان لا يحتج من ذلك الا ببعضه ، والناس في مصنفاتهم ، منهم من لا يروي عمن يعلم انه يكذب ، مثل مالك وشعبة وأحمد بن حنبل ، فان هؤلاء لا يروون عن شخص ليس بثقة عندهم ، ولا يروون حديثاً يعلمون انه عن كذاب ، من الذين يعرفون بتعمد الكذب ، لكن قد يتفق فيما يرونه ما يكون صاحبه أخطأ فيه ، وقد يروي الإمام أحمد وإسحق وغيرهما أحاديث تكون ضعيفة عندهم لاتهام رواتها بسوء الحفظ ونحو ذلك ليعتبر بها ويستشهد بها ، فانه قد يكون لذلك الحديث ما يشهد له انه محفوظ ، وقد يكون له ما يشهد بأنه خطأ ، وقد يكون صاحبه كذاباً في الباطن ، ليس مشهوراً بالكذب ، بل يروي كثيراً من الصدق فيروى حديثه ، وكثيراً من المصنفين يعز عليه ذلك على وجهه ، بل يعجز عن ذلك . فيروي ما سمعه كما سمعه ، والدرك على غيره لا عليه (٢) وقال رحمه الله : وليس كل ما رواه أحمد في المسند وغيره يكون حجة عنده ، بل يروي ما رواه أهل العلم ، وشرطه في المسند أن لا يروي عن (المعروفين بالكذب عنده) وإن كان في ذلك ما هو ضعيف . . . واما كتب الفضائل فانه لم يقصد أن لا يروي في ذلك الا ما ثبت عنده . ثم زاد ابن احمد زيادات ، وزاد أبو بكر القطيعي زيادات ، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة (٣) .

ويقول رحمه الله ، أي ابن تيمية ، يرد على من استشهد بحديث رواه أحمد وهو كذب : وبتقدير ان يكون أحمد روى الحديث ، فمجرد رواية أحمد لا توجب ان يكون صحيحاً يجب العمل به ، بل الإمام أحمد روى أحاديث كثيرة لتعرف ويبين للناس ضعفها . . . وهذا الكتاب (مسند أحمد) زاد فيه ابنه عبد الله زيادات ، ثم أن القطيعي الذي روى عن ابنه عبد الله (أي ابن أحمد) زاد عن شيوخه زيادات فيها أحاديث موضوعة باتفاق أهل المعرفة(٤).

---

(١) أضواء على السنة المحمدية ص ٢٩٣ .
(٢) منهاج السنة ج ١ ص ١٥ .
(٣) منهاج السنة ج ٤ ص ٢٧ .
(٤) نفس المصدر ص ٦١ .

ثم ذكر بقية كلام ابن تيمية في كتاب التوسل والوسيلة ، وذكر قول ابن كثير في كتاب اختصار علوم الحديث ثم قال :

واما قول الحافظ بن موسى محمد بن أبي بكر المديني في مسند أحمد أنه صحيح فقول ضعيف ، فان فيه أحاديث ضعيفة بل موضوعة كاحاديث فضائل مزو ، وعسقلان ، والبرث الاحمر عند حمص ، وغير ذلك ، كما نبه عليه طائفة من الحفاظ ، ثم ان الإمام أحمد قد فاته في كتابه أحاديث كثيرة جداً ، بل قد قيل انه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين في الصحيحين الا قريباً من مئتين .

ثم قال : وقال بعض الناظرين في مسند أحمد : الحق ان في المسند أحاديث كثيرة ضعيفة وقد بلغ بعضها في الضعف إلى أن ادخلت في الموضوعات .

ولما قال الإمام أحمد : هذا الكتاب جمعته وانتقيته من ٧٥٠ ألف حديث ، فما اختلف المسلمون من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فان وجدتموه وإلا فليس بحجة . قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي : هذا القول منه على غالب الأمر ، والا قلنا احاديث قوية في الصحيحين والسنن والاجزاء ما هي في المسند ! وقدر الله تعالى أن الإمام قطع الرواية قبل تهذيب المسند ، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة ، فنجد في الكتاب اشياء مكررة ودخول مسند في مسند ، وسند في سند وهو نادر (١) .

وللحافظ ابن الجوزي كلمة في كتابه صيد الخاطر بشأن المسند ننقلها بحروفها عن مقدمة الجزء الأول من المسند طبع دار المعارف . قال :

فصل : كان قد سألني بعض أصحاب الحديث هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح ؟ فقلت : نعم . فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب ، فحملت أمرهم على انهم عوام ! وأهملت فكر ذلك ، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى ، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان منهم أبو العلاء الهمداني ، يعظمون هذا القول ويردونه ويقبحون قول من قاله ! فبقيت دهشاً متعجباً . وقلت في نفسي : واعجباً صار المتنسبون إلى العلم عامة أيضاً ! وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه ، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد وليس كذلك ؛ فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والرديء ، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ولم يقل به ، ولم يجعله مذهباً له . أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ : مجهول ! ومن نظر في كتاب العلل

---

(١) ص ٣٠ و ٣١ مقدمة مسند أحمد .

الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلها في المسند ، وقد طعن فيها أحمد .

قال القاضي : وقد أخبر عن نفسه كيف طريقه في المسند ، فمن جعله أصلا للصحة فقد خالفه وترك مقصده .

قلت : (القول لابن الجوزي) قد غمني في هذا الزمان (١) ان العلماء لتقصدهم في العلم صاروا كالعامة ، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا : قد روي ، (٢) والبكاء ينبغي ان يكون على خساسة الهمم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

هذا ما رأينا نقله مما قال الأئمة الكبار في مسند أحمد ، وهو كاف في التعريف به وبيان قيمته في نفسه لا فيما هو مشهور عنه ، وانه من المصادر التي لا يعول عليها او يحتج بها شأنه شأن سائر المسانيد (٣) .

وأحاديث المسند تنقسم إلى ستة أقسام :

١ ـ قسم رواه عبد الله عن أبيه سماعاً وهو المسمى بمسند الإمام أحمد .

٢ ـ وقسم سمعه عبد الله من أبيه ومن غيره .

٣ ـ وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله وهو كثير بالنسبة للاقسام كلها عدا القسم الأول .

٤ ـ وقسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه منه وهو قليل .

٥ ـ وقسم لم يقرأه ولم يسمعه ، ولكنه وجده في كتاب أبيه بخطه .

٦ ـ وقسم رواه أبو بكر القطيعي من غير عبد الله وأبيه ، وكل هذه الأقسام من المسند الا الثالث والسادس فانهما من زوائد عبد الله والقطيعي .

وقد تولى شرحه واختصاره جماعة من العلماء : منهم أبو الحسن بن عبد الهادي السندي ، المتوفى سنة ١١٢٩ هـ نزيل المدينة المنورة .

واختصره زين الدين عمر بن أحمد السماع الحلبي وسمى مختصره «در المنتقد من مسند أحمد» ، ولذلك اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٥ هـ .

---

(١) ولد ابن الجوزي سنة ٥١٠ هـ ومات سنة ٥٩٧ هـ .

(٢) مقدمة المسند ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣) أضواء على السنة المحمدية للأستاذ محمود أبو ريه ص ٢٩٣ ـ ٢٩٨ .



الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

عصره وحوادثه



عصره :

يمتد عصر الإمام أحمد من عهد المهدي العباسي إلى عهد المتوكل ، أي من سنة ١٦٤ هـ إلى سنة ٢٤١ هـ .

وكان عصره عصر ازدهار ، فقد أخذت الدولة العباسية مكانتها في المجتمع ، وثبتت قواعدها على عهد الرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، فعظم شأنها وامتد سلطانها .

وفي عهده كانت حادثة الخلاف بين الامين والمأمون سنة ١٩٥ هـ وقيام حرب طاحنة بينهما على الملك ، فسالت الدماء في العراق وخراسان ، واستقر الأمر للمأمون بعد ذلك ، وفي أيامه ابتدأت محنة القول في خلق القرآن سنة ٢١٨ هـ ، التي كانت من أعظم عوامل شهرة أحمد، كما قلنا أنه لم يكن لأحمد نشاط يذكر في أيامه الأولى ، أو اشتهر ذكره ونشر اسمه وإنما شهرته كانت في أيام المحنة بعد عهد المأمون .

وقد كان عصره أزهر العصور لقوة الدولة ، وامتداد سلطانها ، وقد فاضت الثروة ، وامتلأت خزائن الدولة ، وزاد العمران ، وامتدت الحضارة ، وتنعم أرباب المناصب والمقربون للسلطان بمباهج الحياة ، ونعموا بخيرات البلاد وكانت لهم الثروات الطائلة ، وعمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مدارس يغشاها أرباب الفكر وحملة الآثار والأشعار ، وقادة الفكر ، وأمراء البلاغة والبيان ، كما وقد تفنن أرباب النعيم وذوي الثراء في اتخاذ مجالس اللهو ، وتباروا في اقتناء المغنيات ، وتنافسوا في شرائها بأغلا الأثمان ، كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب ، يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء ، وفي اتحافهم بكل صوت .

وقد احتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم ، فهم يتذوقون الغناء ويطربون عليه ، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات ، وكان معظمهم يحسن الغناء ويعرف أصوله ، ويصنع أصواتاً يغنيها هو او يلقيها على جواريه أو على المغنين ليغنوها ، كما كان هرون الرشيد والواثق أكثر ما كان في حاشيتهما من المغنين .

وكان إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد قد بلغ منزلة في الغناء وعرف بشيخ

المغنين ، وكانت علية بنت المهدي تغني أحسن غناء ، وكان أخوها يعقوب يزمر لها على الغناء (١) وكان الرشيد يعلم ذلك وقد غنت جارية ذات يوم :

يا موري الزند قد أعيت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني واسمجهم إذا نظرت فلم ابصرك في الناس

فأراد الرشيد أن يعرف لمن الصوت فأسرت إليه الجارية انه لعلية اخته .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن زيد قال حدثني أبي قال : كنا عند المنتصر فغناه منان لحناً من الرمل الثاني :

يا ربة المنزل بالبرك وربة السلطان والملك
تحرجي بالله من قتلنا لسنا من الديلم والترك

فضحكت ، فقال لي : مم ضحكت ؟ قلت : من شرف قائل هذا الشعر ، وشرف من عمل اللحن فيه وشرف مستمعه .

قال : وما ذاك ؟ قلت : الشعر فيه للرشيد ، والغناء لعلية بنت المهدي، وأمير المؤمنين ميتمعه (٢) .

وكان اهتمام الرشيد بالغناء والمغنين عظيماً ، فقد قرب منهم عدداً وافراً ، وأجزل العطاء عليهم ، وكان يجمعهم في مجلس واحد ويقترح عليهم في الاصوات ليطرب ، فمن أطربه نال أسنى الجوائز وأعظم الصلات (٣) وقد اختار له اسحق الموصلي من الغناء مائة صوت ، وقد عرفت بالأصوات المائة المختارة ، التي وضع أبو الفرج الاصبهاني فيها كتاب الأغاني (٤) .

كما كانت في بغداد نواد للغناء واللهو ، فيها القيان التي تحسن الغناء ، ويقصدها الفتيان الظرفاء يتغازلون ويشربون ويلهون .

وكان الأمين شديد الطرب إلى الغناء واسع العطاء إذا طرب ، وقد وصفه إسحق الموصلي فقال : ما كان (أي الأمين) يبالي أين قعد ومع من قعد ، ولو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرقها كلها ، والقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة ، واوهبهم للأموال إذا طرب او لها ، وقد رأيته أمر لبعض أهل بيته بحمل زورق ذهباً ، وأمر لي ذات ليلة باربعين ألف دينار .

وحتى في أعسر ساعات حياته عند ما أحيط به كان يستمع إلى الغناء .

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ٨٤ .
(٢) الأغاني ج ٩ ص ٨١ .
(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٨ .
(٤) الأغاني ج ١ ص ١ وما بعدها .

فبينما كانت حجارة المنجنيق تصل بساطه كانت إحدى الجواري تغنيه (١) .

وقد كان البذخ والإسراف وتبذير الأموال في وجوه الملذات أمر يبعث على الدهشة والاستغراب ، وبلغ الترف إلى أقصى حد . ولم يكن هذا الترف والبذخ يعم طبقات الناس ، بل كان هناك ملايين من أبناء الأمة يعانون الحرمان ، ويقاسون ألم الفاقة ، ومنهم المظلومون الذين جار عليهم جباة الأموال فسلبوهم ما يسدون به الحاجة ، ومنهم من غصبهم السلطان واعوانه أموالهم وضياعهم ، ولا يجدون من يسمع أصواتهم إذا رفعوها بالتظلم ، كما ليس لهم طمع في رد ظلامتهم .

وسار العمال في إرهاق الرعية على الوجه الذي يخالف نظام الإسلام ، فأصبحت الأموال تجبى بأقسى وسائل الظلم ، وتصرف في ضروب من الإسراف وأنواع من الترف .

أحداث عصره :

وظهرت في عصر أحمد العصبية العنصرية ، فاشتد النزاع بين العرب والفرس والترك (وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاع مع الفرس فجاءت قوة الترك ضغثا على إبالة) .

واستولى الأتراك على الأمور عندما كثر جمعهم وعظمت شوكتهم ، وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد في عهد المعتصم ، وشكى إليه الناس من جورهم وسوء تصرفهم ، وقد هجاه دعبل الخزاعي بقوله :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف واشناس وقد عظم الخطب
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس قد يغص بها الشرب
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

واشتدت محنة أهل بغداد من عبث الأتراك وتعسفهم ، وكانوا لا يستطيعون مقابلتهم ، لأن السلطان قد لحظهم بالعناية وجعلهم محل ثقته ، حتى بلغ الأمر بالمعتصم أنه كتب إلى واليه على مصر ، وهو كيدر- واسمه نصر بن عبد الله، يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع اعطياتهم .

وعلى أي حال : فقد أصبحت الأمور في يد الأتراك ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون العرب ، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم

(١) التاج ص ٤٢ - ٤٣ .

مع بعض ، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ، وبهذا أصبحت دار السلام وما حولها ليست دار سلام ، إذ غلبت على ذوي السلطة شهواتهم الآثمة ، فلا تطرق سمعهم صرخات المفجوعين ولا استغاثة المتظلمين ، ولا ينفذ بصرهم إلى ما يعانيه ذلك المجتمع المنكوب الذي دب في جسمه داء الجهل والفوضى وحب الشهوات ، وهم ساهون يعدون أنفسهم سعداء في شقاء الأمة وأغنياء بافتقارها .

وقد ثارت في عصر الإمام أحمد عاصفة العداء بين الطوائف ، واشتدت الخصومة بينها . مما ادت إلى حلول الكراهية ووقوع الشر بين أفراد وطبقات المجتمع آنذاك .

وكان المحدثون يغذون روح الكراهية تجاه اعدائهم وخصومهم ، فذهبوا إلى تكفير المعتزلة ، وتكفير كل من يقول بخلق القرآن . إذ يقول ابو عبد الله الدهلي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ : من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر وبانت منه امرأته ، فان تاب وإلا ضربت عنقه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ومن وقف وقال : لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر ، ومن زعم ان لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يدفن في مقابر المسلمين .

وعلى أي حال : فقد قويت روح الكراهية بين أفراد المجتمع فاشتدت المنازعات وكثرت الخصومة ، وتطور الأمر وازدادت الحوادث ، وسارت العامة من أبناء الأمة على هذا النهج ، حتى ان امرأة تقدمت إلى قاضي الشرقية عبد الله بن محمد الحنفي فقالت : ان زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين ففرق بيني وبينه (١) .

ومن تلك الحوادث : أن الواثق لما استفك من الروم أربعة آلاف من الاسارى اشترط فيهم ان من قال : القرآن مخلوق يخلص من الأسر ، ويعطى دينارين ، ومن امتنع عن ذلك فيترك في الاسر ولا يفك (٢) .

وهذا محمد بن الليث قاضي مصر كان حنفياً ، فانتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب الإمام مالك والشافعي ، ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد ، وقال شاعر مصر الحسين بن عبد السلام الجمل يخاطبه :

وليت حكم المسلمين فلم تكن ... برم اللقاء ولا بفظ أزور
ولقد بجست العلم في طلابه ... وفجرت منه ينابعاً لم تفجر

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص [illegible]
(٢) طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٢ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٤ .

فحميت قول أبي حنيفة بالهدى ... ومحمـد واليـوسفي الاذكـبر
وحطمت قول الشافعي وصحبه ... ومقالـة ابن عليـة لم تضجر
والمالكيـة بعـد ذكـر شائـع ... اخملتها فكأنها لم تذكر (١)

* * *

ومما تقدم يتبين ان هذه المشكلة كانت من أخطر المشاكل التي مر بها المجتمع الإسلامي ، ومن جراء هذه الحوادث التي صاحبت هذه المحنة العامة والمشكلة الاجتماعية فتح باب التدخل من قبل أعداء الإسلام ، وكانت الخصومة والتفرقة التي مني بها المسلمون آنذاك ، هي الدافع الرئيسي الذي نشط القوى المعادية للإسلام ، فقد عملوا على توسيع رقعة الخلاف بين أفراد المجتمع وطبقاته ، لايقاع الفتنة تحقيقاً لأهدافهم .

وقد نجحت أساليبهم التي اتبعوها ، والوسائل التي اتخذوها ، فقد كانت تحمل طابع الحرص على الإسلام ، لتجتذب إلى صفوفهم أناس دفعتهم سلامة ضمائرهم إلى الدفاع عن الإسلام ، ولم تقتصر فئاتهم على هذه الطائفة فقط ، بل انضم في سلكهم انتهازيون وجدوا بذلك خير فرصة لتحقيق اغراضهم ، ونيل مآربهم للوقيعة بخصومهم ، إذ خرجت المنازعات عن حدودها ، فتجنى كل فريق على الآخر ، وأخذ كل أحد يرمي الآخر بالكفر .

وفي وسط ذلك التيار الجارف من الخصومة والعداء ، استطاعت الأغراض والأهواء أن تنفذ إلى الأحاديث النبوية ، وهي احدى الدعائم التي يقوم عليها الدستور الإسلامي ، ليتم لهم آنذاك التلاعب بمقدرات الإسلام وتوجيهها صوب تحقيق أغراضهم وأهدافهم .

فلقد وضع الوضاعون أحاديث تتفق مع هذه النزعة ، ونسبوها لرسول الله ﷺ وهم يدعون ان ذلك نصرة للدين ، وتقوية للمسلمين .

وناهيك بما قام به الدعاة على المنابر ، لتوجيه الرأي العام نحو جهة معينة ، وحصر الإسلام عليها ، وتخصيصها به ، فلم يكن فيه نصيب لغيرهم ، ولا في الجنة مكان لسواهم ، وقد غرق الناس في تلك المنازعات الدينية منها والسياسية مدة طويلة ، حتى امتدت جذور تلك الفتنة إلى عصور متأخرة عن عصر الإمام أحمد فاشتد الموقف حراجة ، ووقف كل يتربص بالآخر ، مما أدى إلى نشوب حروب دموية ووقوع الخراب في كثير من البلاد الإسلامية ، فأحرقت جوامع ،

---

(١) القضاة للكندي ص ٣٧١ .

وهدمت مساجد ، ونهبت أموال ، وأريقت دماء . إلى غير ذلك من الأمور التي خلفت أوضاعاً سيئة ، ومع كل هذا والمجال يتسع أمام المتدخلين في صفوف المسلمين للعمل على تمزيق وحدة الصف واتساع دائرة الخلاف .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (١) .

وبقي شيء يتعلق بعصر أحمد ، وهو ترجمة الملوك الذين جرت المحنة على أيديهم ، فلا بأس أن نلم بذلك إلماما وإن كان خارجاً عما رسمناه .

المأمون :

هو عبد الله بن هرون الرشيد ، كنيته أبو جعفر أو أبو العباس ، وأمه أم ولد ، يقال لها مراجل الباذغيسية ، ولد في ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ ، وتوفي سنة ٢١٨ هـ وكان أديباً شجاعاً ، له ولع ومشاركة في كثير من العلوم ، متعطشاً للآداب ، محباً للنقاش والجدل ، وقد كان المعتزلة معروفون بالفلسفة والأدب ، مما أدى إلى قربهم ، وارتاح بمحادثتهم .

وكان يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء من سائر أهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم انزعوا أخفافكم ثم أحضرت الموائد (٢) .

وكان المأمون يتهم في التشيع مرة ، وفي الاعتزال أخرى ، وسيرته تدل على ذلك .

اما تشيعه فقد كان يحب علياً ويفضله على جميع الصحابة ، وقد أمر مناديه أن ينادي بأن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، وأن لا يذكر معاوية بخير .

وروى ابن عساكر عن النظر بن شميل قال : دخلت على المأمون فقال : كيف أصبحت يانظر ؟

فقلت : بخير يا أمير المؤمنين .

---

(١) سورة الصف آية ٨ و ٩ .
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٣ .

فقال : ما الارجاء ؟ فقلت : دين يوافق الملوك ، يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم .

قال : صدقت . ثم قال : يا نظر أتدري ما قلت في صبيحة هذا اليوم ؟ قلت : إني من علم الغيب لبعيد .

فقال : قلت أبياتاً وهي :

أصبح ديني الذي أدين به ... ولست منه الغداة معتذراً
حب علي بعد النبي ولا أشـ ... ـتم صدّيقاً ولا عمرا
ثم ابن عفان في الجنان مع الا ... برار ذاك القتيل مصطبرا
ألا ولا أشتم الزبير ولا ... طلحة إن قال قائل غدرا
وعائش الأم لست أشتمها ... من يفتريها فنحن منه برا

قال ابن كثير في تاريخه : وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة وفيه تفضيل علي على الصحابة ، وقال بشر المريسي يمدح المأمون بما أظهره من تفضيل علي عليه السلام :

قد قال مأموننا وسيدنا ... قولا له في الكتب تصديق
أن علياً أعني أبا حسن ... أفضل من قد أقلت النوق
بعد نبي الهدى وإن لنا ... أعمالنا والقرآن مخلوق (١)

وفي سنة ٢٠١ هـ بايع بولاية العهد من بعده للإمام علي الرضا الإمام الثامن من الأئمة الإثنى عشر ، ابن الإمام موسى الكاظم عليهما السلام ، وأمر بخلع السواد الذي كان شعار الدولة العباسية ، وامر بلبس الخضرة .

ولقد أقدم المأمون على هذا العمل مع شدة امتناع الإمام الرضا عليه السلام عن ذلك . ولكنه ألزمه بالقبول ، فشرط الإمام شروطاً على ذلك .

ولا ندري ما هي الأسباب التي حملت المأمون على القيام بهذا العمل ، الذي يعد من أعظم الأعمال التي قام بها . فهل أن حبه لأهل البيت دفعه إلى ذلك لأنه يعتقد انهم أولى بهذا الأمر ؟ او انه فكر في أمر الأمة — وهو المعروف بقوة الفكر وحريته — وأراد ان يجعلها تحت رعاية رجل يصلح لذلك ولم ير أفضل من الإمام الرضا عليه السلام ؟ أم أنها فكرة سياسية أراد بها جلب قلوب ملايين من الناس يدينون بالاعتراف للإمام الرضا عليه السلام بالولاية ؟ وهم أولو قوة وبأس ، رغم الدعايات الكاذبة ضدهم ، واتخاذ شتى الوسائل في القضاء عليهم ،

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢ — ٢٧٩ .

وبهذا يحاول أن يكسر شوكة بني العباس ، وينتقم منهم في نقل الملك من بيتهم إلى البيت العلوي ، وهم خصوم لا هوادة بينهم ، وبذلك يستطيع أن يضرب المأمون ضربته ، ويحقق سياسته في تحقيق الغرض الذي من أجله قام بهذا الأمر ، وبالفعل تحققت اهدافه — ان كان يقصد ذلك — فقد خضع له كثير من الناس وأحبوه لهذا العمل . كما اعلن العباسيون وأنصارهم غضبهم عليه . ونقضوا بيعته ، وبايعوا شيخ المغنين إبراهيم بن المهدي ، وقامت بعد ذلك حرب قضى المأمون عليها بالقوة ، لضعف خصومه وكثرة أنصاره .

والذي يظهر أنه أراد جلب الرأي العام ضد بني العباس ، فان أهل البيت لهم مكانة وهم المعنيون باسناد الخلافة اليهم عندما قامت الثورة ضد الامويين ، وقد نص كثير من المؤرخين على تشيع المأمون وميله إلى آل علي عليه السلام .

وقد أجاب المأمون عن أسباب بيعته للإمام الرضا عليه السلام وذلك أنه عندما دخل بغداد ظافراً ، اجتمعت به زينب بنت سليمان ، وكانت من طبقة المنصور ، وكان بنو العباس يعظمونها ، فقالت : يا امير المؤمنين ما الذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت علي ؟

قال : يا عمة اني رأيت علياً حين ولي الخلافة أحسن إلى بني العباس ، فولى عبد الله البصرة ، وعبيد الله اليمن ، وقثم سمرقند ، وما رأيت أحداً من أهل بيتي حين أفضى اليهم كافوه على فعله في ولده ، فاحببت أن أكافيه إحسانه.

فقالت : يا أمير المؤمنين انك على بر بني علي والأمر فيك أقدر منه على برهم والأمر فيهم .

وأنت ترى أن هذا الجواب لا يتمشى مع الواقع ، لعلم المأمون بأن علياً لم يكن من أولئك الحكام الذين يولون أمر الأمة اناساً لا أهلية لهم ، إلا لأنهم اقرباء وذوو رحم ، بل كان ينظر للكفاءة والمقدرة ، والناس عنده سواء .

وعلى أي حال : فقد أظهر المأمون إحسانه إلى آل علي وقد ثار في ايامه محمد ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فأرسل المأمون إليه جيشاً ، فكانت الغلبة للمأمون فظفر به وعفى عنه .

قال أبو العباس أحمد بن عمار : كان المأمون شديد الميل إلى العلويين والإحسان إليهم ، وخبره مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً ، فمن ذلك أنه توفي يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي ، فحضر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا ، ثم ان ولداً لزينب بنت سليمان وهي عمة المنصور توفي بعده فارسل له المأمون كفناً ، وسير

آخاه صالحاً ليصلي عليه ويعزي أمه ، فانها كانت عند بني العباس بمنزلة عظيمة ، فأتاها وعزاها عنه ، واعتذر عن تخلفه (أي المأمون) عن الصلاة عليه فظهر غضبها وقالت لابن ابنها تقدم فصلي على ابيك وتمثلت :

سكبنـاه ونحسبه لجينـاً فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح : قل له يا ابن مراجل اما لو كان يحيى بن الحسين لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته (١) .

وفي سنة ٢١٠ هـ أمر المأمون برد فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام ، وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتاباً يقول فيه :

أما بعد فان أمير المؤمنين بمكانته من دين الله وخلافة رسول الله ، والقرابة به أولى من استن ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة ؛ منحته وصدقته بالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته واليه في العمل بما يقربه إليه رغبته ، وقد كان رسول الله ﷺ أعطى فاطمة بنت رسول الله فدكاً وتصدق بها عليها ، وكان ذلك امراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله ﷺ ولم تدعي منه ما هو أولى به من صدق عليه فرأى أمير المؤمنين ان يردها إلى ورثتها ، ويسلمها إليهم تقرباً إلى الله باقامة حقه وعدله ، وإلى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته ، فأمر باثبات ذلك في دواوينه والكتاب به إلى عماله ، فلئن كان ينادي في كل موسم بعد أن قبض الله نبيه ان يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة او عدة فيقبل قوله وتنفذ عدته .

إن فاطمة لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها ، وقد كتب أمير المؤمنين (أي المأمون) إلى المبارك الطبري مولاه برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها من الرقيق والغلاة . . . الخ (٢) .

وفي سنة ٢٠١ هـ أحصى المأمون جميع العباسيين ، فبلغوا ثلاثة وثلاثين إلفاً بين ذكور واناث .

وكان المأمون يتحرى العدل ، ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل . جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فاجلسه معها بين يديه ، فادعت بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة ، فجعل صوتها يعلو على صوته ، فزجرها بعض الحاضرين

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٧٩ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٦ .

فقال المأمون : اسكت فان الحق انطقها والباطل أسكته ، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم (١) .

واشتهر عنه انه كان يقول : لو يعلم الناس ما أجد في العفو من لذة لتقربوا إليّ بالذنوب . وحدث المرزباني : أن دعبل الخزاعي هجا المأمون بقوله :

أيسومني المأمون خطة عاجزٍ ... او ما رأى بالأمس رأس محمد
إني من القوم الذين هم هم ... قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد

فطلبه المأمون فاستتر منه ، إلى أن بلغه أنه هجا إبراهيم بن المهدي بقوله :

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق

فضحك المأمون وقال : قد وهبته ذنبه فليظهر ، فسار إليه ، فكان أول داخل عليه .

ولما قدم على المأمون وأمنه استنشده القصيدة الكبيرة ، وهي الرائية وعدد أبياتها ٢٤ بيتاً ومطلعها :

تأسفت جارتي لما رأت زوري ... وعدّت الحلم ذنباً غير مغتفر

فأنكرها ، فقال المأمون : لك الأمان أيضاً على انشادها فانشدها ، حتى إذا بلغ إلى قوله :

يا أمة السوء ما جازيت أحمد عن ... حسن البلاء على التنزيل والسور
خلفتموه على الأبناء حين مضى ... خلافة الذئب في ابقار ذي بقر
قتل واسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذر
قوم قتلتم على الإسلام أولهم ... حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفر
قبران في طوس خير الناس كلهم ... وقبر شرهم هذا من العبر
ماينفع الرجس من قبر الزكي ولا ... على الزكي بقبر الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... يداه فخذ ما شئت أو فذر

قال : فضرب المأمون بعمامته إلى الأرض وقال : صدقت يا دعبل .

ولما انشد قصيدته التائية الشهيرة أمام الإمام الرضا عليه السلام والمأمون حاضر يسمع استحسنها ، فأمر له الإمام الرضا بخمسين ألف درهم وأمر له المأمون بمثلها (٢) .

---

(١) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٧٧ .
(٢) المرزباني شعراء الشيعة ص ٩٣ — ١٠٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعتصم :

هو ابو اسحق محمد المعتصم بن هرون الرشيد بن المهدي بن المنصور ، المتوفى سنة ٢٢٧ هـ ، كان موصوفاً بالشجاعة وقوة البدن ، وسداد الرأي ، وكان إذا غضب لا يبالي من قتل ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب .

ذكر الخطيب ان ملك الروم كتب إلى المعتصم كتاباً يهدده فيه فقال للكاتب أكتب : قد قرأت كتابك وفهمت خطابك ، والجواب ما ترى لا ما تسمع وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار . وغزا بلاد الروم في سنة ٢٢٣ هـ فأنكى نكاية عظيمة في العدو ، وهو الذي فتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفاً وسبى منهم ، وكان في سبيه ستون بطريقاً ، قال الخطيب : وجاء بباب عمورية وهو منصوب حتّى الآن على أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر .

وكان له من المماليك الترك ٥٠ ألف ، وهو الذي بنى سامراء ، وسبب ذلك أنه لما كثرت عساكره من الترك في بغداد وزاحموا أهلها،وعاثوا فيها فساداً، فكان في كل يوم ربما قتلوا جماعة ، فركب المعتصم يوماً فلقيه رجل شيخ فقال للمعتصم : يا أبا إسحق ، فأراد الجند ضربه فمنعهم المعتصم وقال له : مالك يا شيخ ؟ قال : لا جزاك الله خيراً عن الجوار جاورتنا مدة فرأيناك شر جار ، جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فاسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت نسائنا ، والله لنقابلنك بسهام السحر (الدعاء) . هذا والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم ير راكباً في يوم مثل ذلك اليوم ، ثم ركب وصلى بالناس العيد ، وسار إلى موضع سامراء فبناها وكان في سنة ٢٢١ هـ .

ولم يكن المعتصم كأخيه المأمون . أو كولده الواثق في العطف على العلويين ، ولم يكن كالرشيد في تشدده ، بل كان معتدلا وسطاً .

والذي يظهر ان اعتداله كان بوصيته من المأمون ، فقد جاء فيها :

وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأحسن صحبهم وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغلها في كل سنة ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتّى (١) .

وحدث أحمد بن سليمان بن أبي شبح قال : قدم الزبير بن بكار العراق هارباً من العلويين لأنه كان ينال منهم فهددوه فهرب منهم ، وقدم على عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير ، وشكى إليه حاله وخوفه من العلويين ، وسأله

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٥ .

إنهاء حاله إلى المعتصم ، فلم يجد عنده (أي عند عمه) وأنكر عليه حاله ولامه .

قال أحمد : فشكى ذلك إليّ وسألني مخاطبة عمه في أمره ، فقلت له في ذلك ، وأنكرت عليه إعراضه فقال لي : إن الزبير فيه جهل وتسرع فأشر عليه ان يستعطف العلويين ، ويزيل ما في نفوسهم منه ، أما رأيت المأمون ورفقه بهم ، وعفوه عنهم ، وميله إليهم. قلت: بلى ، قال : فهذا أمير المؤمنين (أي المعتصم) مثل ذلك أو فوقه ، ولا أقدر ان أذكرهم عنده بقبيح ، فقل له ذلك حتى ينتهي عن الذي هو عليه في ذمهم (١) .

ولما حضرت المعتصم الوفاة جعل يردد هذه الآية: « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » .

وقال : لو علمت أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت . وقال : ذهبت الحيل فلا حيلة . وقال : اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي ، وقال : إني أخذت من بين هذا الخلق (٢) .

ومن أغرب الأمور في سيرة المعتصم أنه قد فوض أمر الدولة إلى أخوين مسيحيين وهما : سلمويه وإبراهيم . وكان سلمويه يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزارة في العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكة لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها ، وقد عهد المعتصم إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الاموال في البلاد ، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الاشراف عليها إلى رجل من المسلمين ، وقد بلغ من ميل الخليفة إلى سلمويه أن عاده في مرضه فغمره الحزن عند وفاته ، حيث أقيمت الطقوس المسيحية في خشوع مهيب (٣) .

الواثق :

ابو جعفر هرون بن المعتصم بن الرشيد المتوفى سنة ٢٣٢ هـ كان شاعراً فطناً يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته ، وكان حسن السيرة مع ابناء عمه آل أبي طالب . قال يحيى بن اكثم : ما أحد أحسن من خلفاء بني العباس إلى آل أبي

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٧ .
(٢) الطبري ج ١١ ص ٧ .
(٣) الدعوة إلى الاسلام ص ٨١ وابن اصيبعة ج ٢ ص ١٦٤ .

طالب ما أحسن اليهم الواثق ، ما مات وفيهم فقير (١) .
وكان شديد القول بخلق القرآن ، حتى بلغ الأمر به أنه لما وقع الفداء بين المسلمين والروم في الاسرى أمر الواثق أن يمتحنوا اسرى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة ، فودي به وأعطي دينارين ، ومن لم ينل ذلك ترك في أيدي الروم .
ولما حضرته الوفاة أمر بالبسط فطويت ، وألصق خده على الأرض ، وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه إرحم من زال ملكه ، وكان يردد هذين البيتين :

المـوت فيه جميع الخلق مشترك ... لا سوقة منهم يبقى ولا ملك
ما ضر أهل قليل في تفارقهم ... وليس يغني عن الملاك ما ملكوا(٢)

قال أحمد بن محمد الواثقي ، وكان فيمن يمرض الواثق : فتقدمت إليه فلما صرت عند رأسه فتح عينيه ، فكدت أموت من خوفي ، فرجعت إلى خلف ، فتعلقت قائمة سيفي بشيء فكدت أهلك ، فما كان عن قريب حتى مات ، وأغلق عليه الباب ، وبقي وحده ، فسمعت حركة من داخل البيت ، فدخلت فإذا جرذ قد أكل عينيه ــ التي لحظ إليّ بها ــ وما كان حولها من الخدين (٣) .

المتوكل :

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي ، المتوفى سنة ٢٤٧ هـ وأمه أم ولد يقال لها شجاع ، وكانت ولادته بفم الصلح سنة ٢٠٧ هـ وبويع بالخلافة بعد أخيه الواثق ، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة ، وكان مولعاً بالشراب وباقتناء الجواري ، وكان بمكانة من الترف والبذخ ربما يمتاز بكثير عن جده الرشيد .

عرف المتوكل ببغضه لأهل البيت ومطاردته لمحبيهم ، وقتل زعمائهم ، وكان لا تأخذه في ذلك رحمة ، ولا يمنعه خوف من الله ، ومن يتهم بميله للعلويين فان مصيره القتل او السجن المؤبد ، حتى ظهر النصب في عصره ، وانتشر بغض أهل البيت في ايامه ، وتقرب الكثير إليه بذم أهل البيت أو محبيهم ، طلباً لرفده وطمعاً في صلته .

(١) ابن كثير ج ١٠ ص ٣١٠ .
(٢) تاريخ ابن الساعي ص ٦٠ .
(٣) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٢ .

مدحه أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بأبيات يذم فيها العلويين منها :

يرجـو التّراث بنو البنـا ت ومـا لهم فيها قلامة
مـا للذين تنحلـوا ميرا ثكـم إلا النـــدامـة

فخلع عليه المتوكل أربع حلل ، وأمر له بثلاثة آلاف دينار فنثرت على رأسه ، وعقد له على البحرين واليمامة .

وتقدم إليه هذا الشاعر مرة أخرى بشعر يذم فيه آل محمد وشيعتهم فنثر عليه عشرة آلاف درهم (١) .

وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم . حتّى عم الاستياء ، وواجه الناس موجة تعصب فاحش ، وعذب الموالون لأهل البيت أشد العذاب ، ومنع الناس من زيارة قبر الحسين ، كما أمر بهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يبذر ويسقى موضع قبره ، ونادى في الناس : من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاث حبسناه في المطبق (٢) حتّى هجاه الشعراء ، ومما قيل فيه :

تالله إن كانت أمية قد أتت قتـل ابن بنت نبيهـا مظلـوماً
فلقـد أتاه بنـو أبيـه بمثله هـذا لعمـرك قـبره مهـــدوماً
أسفوا على ان لا يكونوا شاركوا في قتـــله فتتبعوه رميماً

ويقول ابن الوردي :

وكم قد محي خير بشر كما انمحت ببغض علي سيرة المتوكل
تعمق في عدل ولما جنى على مقام علي «حطه السيل من عل»

وكان واليه على مصر يزيد بن عبد الله التركي يتتبع الموالين لأهل البيت بكل أذى ، كما حمل جماعة منهم إلى العراق .

قال الكندي في كتاب الولاة والقضاة : ان يزيد التركي أمر بضرب جندي — في شيء وجب عليه — عشرة درر ، فتوسل الجندي إلى يزيد بحق الحسن والحسين ان يعفو عنه فزاده ثلاثين درة ، ورفع أمره إلى المتوكل في العراق ، فورد أمر المتوكل بضرب الجندي مائة سوط وحمله إلى العراق ، وذلك في سنة ٢٤٣ هـ وفي سنة ٢٤٨ هـ. أخرج جماعة من العلويين من مصر إلى العراق.

وكان أخص الناس به وأقربهم عنده من اشتهر بالنصب ، وعرف بالعداء لأهل البيت أمثال علي بن الجهم الشاعر الشامي (من بني شامه بن لوى)

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٨ .
(٢) نفس المصدر ج ٧ ص ٢٤ .

وعمر بن فرخ الرحجي ، وأبو السمط من ولد مروان بن ابي حفص من موالي بني أمية ، وغيرهم وسيأتي ذكرهم في القائمة السوداء التي ستتضمن أسماء من عرفوا بالنصب لأهل البيت عليهم السلام .

قال المسعودي : ولم يكن المتوكل من يوصف في عطائه وبذله في الجود ، ولا بتركه وإمساكه بالبخل ، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ، ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ، مما استفاض في الناس تركه إلا المتوكل ، فانه السابق إلى ذلك والمحدث له ، وأحدث أشياء من خواصه ، فلم يكن من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا إفضال ، أو يتعالى عن مجون وطرب (١) وكان منهمكاً في اللذات والشراب انهماكاً كبيراً (٢) وكان بنان وزنان لا يفارقانه ، هذا يضرب وذاك يزمر (٣). ولم يفارق لذاته وشرابه حتّى في آخر لحظة من حياته ، فقد قتل بين الناي والعود .

ولقي الناس في عهده أنواع البلاء والامتحان ، وزلزلت الأرض وتناثرت الكواكب كالجراد ، وكان أمراً مزعجاً ، واهتزت الأرض بتونس وأعمالها ، والري وخراسان ونيسابور واصبهان ، وشققت الأرض بقدر ما يدخل الرجل في الشق ، وضربت المدن والقلاع والقناطر ، وسقط من انطاكية جبل في البحر ، ورجمت قرية بناحية مصر بحجارة من السماء وزن الواحدة منها عشرة أرطال ، وهبت ريح بالعراق شديدة السموم لم يعهد مثلها أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد ، وقتلت المسافرين ، ودامت خمسين يوماً ، ومنعت الناس من طلب االمعاش في الاسواق ، والمشي في الطرقات ، وزلزلت دمشق ، والجزيرة والموصل وقوس ونيسابور وغيرها (٤) في جميع انحاء المملكة الإسلامية حتّى ذهب ضحية ذلك خلق كثير ، والخليفة المتوكل يتنعم في بذخه ، ويمرح في انسه ، بين رقص جواريه وغلمانه ، ونغم عيدانه ومجونه بل جنونه ، ومجلسه عامر بالهزل والطرب ، وقد نشط الروم في عهده فهجموا على دمياط ، ونهبوا وأحرقوا وسبوا ستمائة امرأة .

وكان يبذل الأموال الطائلة على القصور والعمارات ، وقد أنفق ألف ألف وسبعمائة ألف دينار على بناء قصر البرج وحده .

---

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٤٧ .

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ١٣٧ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص ١٣٤ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٨ ، والشذرات لابن العماد ج ٢ ص ٩٦ ، وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٢١٥ ، والطبري في حوادث سنة ٢٤١ و ٢٤٢ وغيرها .

ولما عزم على المسير إلى دمشق أمر باتخاذ القصور ، واعداد المنازل ، واصلاح الطريق ، وإقامة المرافد (١) .

ومع هذا فقد وصفوه بالصلاح ونصرة الدين ، وإحياء السنة ، وإماتة البدعة وقد مدحه ابن الخبازة بقوله :

أطال لنا رب العباد بقاءه سليماً من الأهوال غير مبدل
وجامع شمل الدين بعد تشتت وفاري رؤوس المارقين بمنصل

ولما مات وضعت المنامات والأطياف في عظمته ، وعلو درجته في الجنة ، وقام القصاصون والوعاظ بذلك يقصون أحلامهم لتحقيق أحلامهم .

ومما لا ريب فيه فان الفرق بين المتوكل ومن سبقه من الخلفاء بيّن : فالمأمون لم يكن بالخليفة المستضعف ، والمعتصم كان على جانب عظيم من القوة وحسن التدبير ، وكرم الخلق ، وكذلك ابنه الواثق ، فقد كان يجالس العلويين ويحسن إليهم وإلى أهل الحرمين ، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة .

وفي أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شيء من جسم الدولة العباسية ، ولم يظهر بها أي ضعف ، ولكنّ عهد المتوكل فتح باب الفرقة وتقلصت أيام العز في بني العباس .

الدولة العباسية وبداية الضعف :

وعلى كل حال فقد بدأ الضعف في جسم الدولة العباسية في أيام المتوكل ، لضعفه في التدبير والسياسة ، واساءته لكثير من طبقات المجتمع ، وبالأخص العلويين ، ومن عرف بموالاتهم ، فكانت الرقابة عليهم شديدة ، والحساب عسيراً ، فالشيعي في نظر الخليفة وأعوانه مصدر خطر دائم ، وتهديد للدولة لا ينقطع .

وقام أنصاره وأعوانه بدور البطولة في القضاء على المذهب الشيعي ، وبذلوا كل جهد ، واستعملوا كل وسيلة لحصول ذلك الغرض ، فراحوا يهولون في انحراف المذهب عن الحق ليغضوا من قيمته ، ويشوهوا من جماله ، ويستنزلوه من مستواه الرفيع ، وليس من الميسور عليهم حصول ذلك إلا بعد بذل جهود ومواصلة دعاية التهويل ، ليقربوا ذلك إلى العقول ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوي الفضل فضلهم ومن أجلها جردهم أرباب اللؤم عن

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ٢١٥ .

محامدهم ، وقد استطاع المذهب الشيعي أن يتغلب بقوته الروحية على تلك المقاومات العنيفة ، وجاهد جهاداً متصلا ، فتخطى الحواجز واجتاز العقبات بتلك القوة ، فلا سلطان يعضده ، ولا سيف ينشره ، وفشل المتوكل واعوانه ، فكان ضحية نصبه وتعصبه ، حتى قتل بيد ولده وقواده ، وهو أول خليفة قتل جهرة من بني العباس ، وكثر بعد ذلك القتل في المستخلفين من بعده .

وكان المتوكل لشدة نصبه وعدائه لعلي عليه السلام أن ندماءه في مجلسه يفيضون في ثلب علي عليه السلام فينكر ولده المنتصر ذلك — وكان ولي عهده — ويتهددهم ويقول للمتوكل : إن علياً هو كبير بيتنا ، وشيخ بني هاشم ، فان كنت لا بد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولا تجعل لهؤلاء سبيلا إلى ذلك . فيستخف المتوكل به ويشتمه ويأمر وزيره عبيد الله بصفعه ، ويتهدده بالقتل ويصرح بخلعه عن ولاية العهد ، فأعدّ المنتصر جماعة من الأتراك وبعث معهم ولده صالح وأحمد وعبد الله ونصر ، فدخلوا على المتوكل وهو بين ندمانه وكؤوس شربه ، فاخرجوا الندمان حتى لم يبق مع المتوكل إلا اربعة من الخاصة وأغلقوا الابواب إلا باب دجلة وقتلوا المتوكل والقى الفتح بن خاقان نفسه عليه ليقيه فقتلوه (١) .

ورثاه البحتري في قصيدة يقول فيها :

هكذا فلتكن منايا الكرام   بين ناي ومزهر ومدام
بين كأسين أورثاه جميعاً   كاس لذاته وكاس الحمام
لم يذل نفسه رسول المنايا   بصنوف الأوجاع والأسقام
هابه معلناً فدب إليه   في كسور الدجى بحد الحسام (٢)

وعلى أي حال : فقد كان المتوكل في جانب المحدثين ، واصبحت لهم الصولة والنفوذ ، واستغل العوام هذه الفرصة فأوقعوا برجال الفكر ، ونشروا الخرافات ، أما اصحاب أحمد بصورة خاصة ، فلهم المنزلة السامية ، والمقام الرفيع لأنه رفع منزلة الإمام أحمد وقرب أصحابه ، واتسع المجال أمامهم في الانتقام من خصومهم والانتصار لمبادئهم ، وكما رأينا كيف كان المتوكل يعظم أحمد ويجله ، ويشيد بذكره ويصله بهداياه ، حتى بلغ به الأمر أنه كان يستشيره في تعيين القضاة ، وقد بعث إليه مرة يسأله في تولية ابن الثلجي القضاء . فقال أحمد : لا ولا على حارس لأن أحمد كان يرى أن ابن الثلجي — وهو من كبار أصحاب ابي حنيفة — مبتدع صاحب هوى (٣) .

---

(١) العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٥٩٢ .
(٢) ابن الساعي في تاريخه ص ٦٤ .
(٣) المنتظم لابن الجوزي ج ٥ ص ٥٧ .

اتهام أحمد بالميل للعلويين :

ومع اتصاف المتوكل بالتودد لأحمد بن حنبل ، واظهار فضله ، وعدم سماع أي وشاية عليه ، فان أحمد لم يسلم من الاتهام بالميل للعلويين ، فقد ارتأى خصومه أن يسلكوا طريقاً يمكنهم ان يغيروا قلب المتوكل بتهمة لا يغفرها المتوكل ، ولا يقف دون عقابه لمن اتهم بها أي حاجز ، وهي الاتهام بالتشيع أو الميل للعلويين ، فاخترعوا من عند أنفسهم أن أحمد يبايع لعلوي ، أو أنه أخفى علوياً في بيته ، لينالوا منه ويحولوا قلب المتوكل منه ، فأخذ المتوكل بالتحري على أحمد بشدة ، وطوقت المحلة التي كان يسكنها ، وأحاط الجند بداره ودخلوها . فقال أحمد : ما أعرف من هذا شيئاً ، وإني لأرى طاعته في العسر واليسر ، والمنشط ، والمكره ، والاثرة ، وإني أتأسف على تخلفي عن الصلاة في جماعة ، وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين .

فقال له ابن الكلبي : قد أمرني أمير المؤمنين (أي المتوكل) أن احلفك أن ما عندك طلبته فتحلف ؟

قال : ان استحلفتموني حلفت . فأحلفه بالله وبالطلاق أن ما عنده طلبة أمير المؤمنين . ثم قال له : أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك ، فقام ابن مظفر وابن الكلبي وامرأتان معهما فدخلا ، ففتشا البيت ثم فتش الامرأتان النساء ، ثم دخلوا منزل ولده صالح ففتشوه ، ودلوا شمعة في البئر ونظروا ووجهوا النسوة ، ففتشوا الحرم ثم خرجوا (١) .

وإن الناظر في سيرة أحمد يجد أنه لا يستبعد اتهامه بما يسوء العباسيين عامة والمتوكل خاصة ، فقد كان جَريئاً في رواية مناقب أهل البيت ، وقد روى في مسنده ما لم يروه كثير من أهل المسانيد والصحاح ، كما كان يظهر فضائل علي ويحدث بها .

قال عبد الله بن أحمد سمعت أبي يقول : ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالاسانيد الصحاح مثل ما لعلي رضي الله عنه .

وقال عبد الله : قلت لأبي (أحمد بن حنبل) ما تقول في التفضيل ؟ قال : في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان .

فقلت : فعلي ؟

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٣٦٠ — ٣٦٢ .

قال : يا بني علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد (١) .

وقال محمد بن منصور : كنا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل : يا أبا عبد الله ما تقول في هذا الحديث الذي يروى : أن علياً قال : (انا قسيم النار) ؟

فقال أحمد : وما تنكرون من ذا ؟ أليس روينا ان النبي ﷺ قال لعلي: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) ؟ قلنا : بلى . قال :

فأين المؤمن ؟ قلنا في الجنة . قال وأين المنافق ؟ قلنا : في النار . قال أحمد : فعلي قسيم النار . (٢)

وقال عبد الله بن أحمد : كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم فجاءت طائفة من الكرخية . فذكروا خلافة أبي بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وخلافة علي بن أبي طالب ، فزادوا وأطالوا ، فرفع أبي رأسه إليهم فقال : يا هؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة ، إن الخلافة لم تزين علياً بل علي زينها (٣) .

قال ابن ابي الحديد : وهذا الكلام دال بفحواه ومفهومه على أن غيره ازدان بالخلافة ، وتممت نقيصته ، وإن علياً لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمم بالخلافة ، والخلافة ذات نقص في نفسها ، فتمم نقصها في ولايته إياها .

ولما سأله اسحق بن إبراهيم — عن القرآن وانه ليس بمخلوق — عمن تحكي انه ليس بمخلوق ؟ فقال جعفر بن محمد الصادق قال : ليس بخالق ولا مخلوق . فسكت اسحق (٥) .

شيوخ الإمام أحمد من الشيعة :

كما أن لأحمد صلة برجال الشيعة ، وقد أخذ العلم عن كثير منهم ، فكانوا في عداد شيوخه واساتذته ، وكذلك أخذ عن عدد وافر من العلماء الذين انتموا إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام .

وربما لامه بعض من تأثر بدعاية خصوم الشيعة على اتصاله بمن عرف بالتشيع .

---

(١) المناقب ص ١٦٣ ، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج ٢ ص ١٢٠ .
(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣٢٠ .
(٣) مناقب احمد ص ١٦٣ .
(٤) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٧ .
(٥) مناقب أحمد ص ٣٥٩ .

يحدثنا الخطيب البغدادي : أن عبد الرحمن بن صالح الشيعي (١) كان يغشى أحمـــد بن حنبل ، فيقربه أحمد ويدنيه ، فقيل له : يـــا أبا عبد الله عبد الرحمن رافضي . فقال : سبحان الله ؟ ! رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله نقول له لا تحبهم:هو ثقة (٢) .

اما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد : فقد ذكر علماء الرجال كثيراً من الشيعة أنهم كانوا من شيوخ أحمد ، وكذلك ذكرهم ابن الجوزي في مناقب أحمد منهم :

١ — إسماعيل بن ابان الأزدي أبو إسحاق الكوفي ، المتوفى سنة ٢١٦ هـ وهو من شيوخ البخاري وابن معين أيضاً .

٢ — إسحاق بن منصور السلوي ابو عبد الرحمن الكوفي ، المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وقد خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة .

٣ — تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي ، المتوفى سنة ١٩٠ هـ روى له الترمذي في صحيحه وقال فيه أحمد : إن مذهبه التشيع ولم أر به بأساً .

٤ — الحسين بن الحسن الفزاري أبو عبد الله الأشقر الكوفي ، المتوفى سنة ٢٠٨ هـ خرج حديثه النسائي .

٥ — خالد بن مخلد القطواني أبو الهيثم ، المتوفى سنة ٢١٣ هـ كان من كبار شيوخ البخاري وخرّج حديثه في صحيحه ، ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده .

٦ — سعيد بن خيثم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ خرّج حديثه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

٧ — عبد الله بن داود ابو عبد الرحمن الهمداني ، المتوفى سنة ٢١٢ هـ خرّج حديثه البخاري وأبو داود والترمذي وقال فيه احمد : هو اثبت من شريك وقال ابن سعد : كان ثقة يرحل إليه .

٨ — عبيد الله بن موسى العبسي أبو محمد الكوفي ، المتوفى سنة ٢١٣ هـ صاحب المسند . خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة .

---

(١) هو عبد الرحمن بن صالح أبو محمد الأزدي ، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ كان من أهل العلم سكن بغداد ، وكتب عنه أهلها . قال محمد بن موسى : رأيت يحيى بن معين جالساً في دهليز عبد الرحمن غير مرة ، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه . وقال فيه يحيى : عبد الرحمن بن صالح ثقة صدوق شيعي ، لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢٦١ .

٩ — عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ ﻫ من كبار شيوخ أحمد والبخاري . خرّج حديثه أصحاب الصحاح .

١٠ — عباد بن العوام بن عمر بن عبد الله بن المنذر الواسطي ، المتوفى سنة ١٨٥ ﻫ قال ابن سعد : كان يتشيع وكان من نبلاء الرجال .

وقد حبسه الرشيد زماناً ثم خلى عنه ، وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون وهو من رجال الصحاح الستة .

١١ — محمد بن فضيل بن غزوان الضبي ، أبو عبد الرحمن الكوفي ، المتوفى سنة ١٩٥ ﻫ ، وهو مصنف كتاب الزهد والدعاء ، قال أحمد بن حنبل : محمد بن فضيل حسن الحديث شيعي. وخرّج حديثه أصحاب الصحاح.

١٢ — عائذ بن حبيب الملاح الكوفي ، المتوفى سنة ١٩٠ ﻫ ، بياع الأقمشة الهروي خرّج له النسائي وابن ماجة .

١٣ — علي بن غراب الفزاري أبو الحسن الكوفي ، المتوفى سنة ١٨٤ ﻫ سئل عنه أحمد بن حنبل فقال : حديثه حديث أهل الصدق . وخرّج حديثه النسائي وابن ماجة .

١٤ — علي بن هاشم بن البريد العابدي مولاهم أبو الحسن الكوفي ، المتوفى سنة ١٨٠ ﻫ خرّج حديثه البخاري في الأدب المفرد . ومسلم في صحيحه ، والترمذي والنسائي ، وابن ماجة ، وابو داود .

١٥ — علي بن الجعد أبو الحسن الهاشمي مولاهم البغدادي الجوهري ، المتوفى سنة ٢٣٠ ﻫ روى له البخاري وغيره .

١٦ — الفضل بن دكين المعروف بابي نعيم ، المتوفى سنة ٢١٩ ﻫ من رجال الصحاح الستة ، وهو شيخ البخاري وأحمد وابن معين وإسحاق قال فيه أحمد : الفضل ثقة يقظان عارف بالحديث .

١٧ — محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر أبو أحمد الاسدي الزبيري مولاهم المكي ، المتوفى سنة ٢٠٢ ﻫ .

وقد نص ابن قتيبة في معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال : يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨ ﻫ ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ ﻫ وحميد بن عبد الرحمن الرواسي المتوفى سنة ١٩٠ ﻫ ، وهشيم بن بشير الواسطي المتوفى سنة ١٨٣ ﻫ (١) وغيرهم .

---

(١) معارف لابن قتيبة ص ٣٢٥ :

كما أن الإمام أحمد أخذ العلم عن جماعة من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام. والمنتمين لمدرسته ، أمثال : إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وإبراهيم بن زياد المتوفى سنة ٢٢٨ هـ ، وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، ومكي بن إبراهيم المتوفى سنة ٢١٥ هـ ، والضحاك بن مخلد الشيباني أبو عاصم النبيل المتوفى سنة ١٣١ هـ وغير هؤلاء عدد كبير من الذين عرفوا بالتشيع وانتسبوا لمدرسة أهل البيت . والغرض ان الإمام أحمد لم يسلم من التصاق التهمة به بالميل للعلويين ، والجنوح للشيعة وهم خصوم الدولة ، واعداء ذلك المجتمع الذي سادت به موجة من الفوضى والارهاب . لأنه أظهر ما يدل على اتهامه من تفضيله للإمام علي ورواية مناقبه ، واتصاله برجال الشيعة وأخذه عنهم ، كما أنه وضع كتاباً خاصاً في فضائل علي ومناقبه ، خرج أحاديثه بالطرق الصحاح ، وروى عنه جمع غفير .

أقوال العلماء :

رأينا كيف امتاز أحمد من بين أقرانه ، فهل كان هو المنفرد بمنزلة لا يدانيه فيها أحد ؟ أم أن الظروف رفعته دونهم وقدمته على من هو أعلم منه ، ولعل فيما نقدمه من أقوال معاصريه جواباً عن ذلك :

قيل لأبي داود : أحمد أعلم أم علي بن المديني ؟ قال : علي أعلم باختلاف الحديث من أحمد .

وقال أحمد بن حامد : سمعت رجاء بن جابر المرجي يقول : رأيت ابن حنبل وإسحق ، وابن المديني والشاذكوني ، فما رأيت أحفظ من عبد الله ، يعني عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي المتوفى سنة ٢٥٠ هـ والذي كان يسميه أحمد بالسيد وقال فيه ابن أبي حاتم انه إمام أهل زمانه (١) .

وقال أحمد : يحيى بن معين أعلمنا بالرجال . وقال ابن المديني : لا نعلم أحداً كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين (٢) .

وقال ابن سلام : انتهى الحديث إلى أربعة : إلى أبي بكر بن شيبة ، وأحمد ابن حنبل ، ويحيى بن معين ، وعلي بن المديني .

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٣١ .
(٢) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٧ .

وقال الدارقطني في إبراهيم الحربي : إنه ثقة يقاس بأحمد في زهده وعلمه وورعه ، وهو إمام مصنف عالم بكل شيء بارع بكل علم صدوق (١) .

وقال أبو زرعة : ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن شيبة . فقال له ابن خداش : يا أبا زرعة فاصحابنا البغداديون ؟ قال : دع أصحابك إنهم اصحاب مخاريق ما رأيت أحفظ من أبي بكر (٢) .

وفي ترجمة عبد الله بن أحمد بن حنبل ان بعضهم قدمه على أبيه في الحفظ والسماع وعلل الحديث (٣) .

وقال ابن المديني غير مرة : والله لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله اني لم أر أحداً قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن (٤) .

وقال ابن المديني : أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة الزهري ثم بعده مالك ثم بعده ابن مهدي (٥) .

وقال أحمد في أبي الوليد الطيالسي : أبو الوليد اليوم شيخ الإسلام ما أقدّم عليه من المحدثين أحداً .

وقال أبو عمران الطرسوسي في أبي مسعود الرازي : ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود (٦) .

وقال أبو الحصيب في البخاري : أنه أفقه وأبصر من ابن حنبل ، وقال أبو عمر الخفاق : هو (أي البخاري) أعلم بالحديث من إسحق وأحمد وغيرهما بعشرين درجة (٧) .

وقال صالح بن محمد : أعلم من أدركت بالحديث وعلله علي بن المديني ، واعلمهم بتصحيف المشايخ يحيي بن معين ، وأحفظهم عند المذاكرة أبو بكر ابن شيبة (٨) .

وقال اسحاق بن إبراهيم: ان الله لا يستحي من الحق؛ ابو عبيد أعلم مني ، ومن أحمد والشافعي !

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٢٥ .
(٢) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٩ .
(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٢٥ .
(٤) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٩ .
(٥) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠٣ .
(٦) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٥٣ .
(٧) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٦٧ .
(٨) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٠ .

وأبو عبيد هذا من طبقة أحمد وأقرانه ، فان وفاته سنة ٢٢٤ هـ ، وأما إسحاق فهو المعروف بابن راهويه المتولد سنة ١٦٤ هـ والمتوفى سنة ٢٣٨ هـ وهو في سن أحمد ومن اقرانه ، وسئل أحمد عنه فقال : من مثل اسحاق . وقال النسائي : ابن راهويه أحد الأئمة . وقال ابن خزيمة : لو أن إسحاق بن إبراهيم كان في التابعين لاقروا له بحفظه وعلمه وفقهه . وقال محمد بن يحيى الذهلي ؛ ان اسحق اجتمع بالرصافة مع أعلام الحديث منهم أحمد بن حنبل ، ويحيى ابن معين ، وغيرهما فكان صدر المجلس لاسحاق (١) .

وقال ابراهيم بن أبي طالب سألت أبا قدامة عن الشافعي وأحمد واسحاق وأبي عبيد فقال : الشافعي أفهمهم الا أنه قليل الحديث ، وأحمد أورعهم وإسحاق أحفظهم ، وابو عبيد أعلمهم بلغات العرب (٢) .

وقال محمد بن أسلم الطوسي لما بلغه موت إسحاق بن راهويه : ما أعلم أحداً كان أخشى لله من إسحاق يقول الله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكان أعلم الناس ، ولو كان الحمادان والثوري في ا لحياة لاحتاجوا إليه .

وقال أحمد بن حنبل : لا أعلم لاسحاق بالعراق نظيراً (٣) .

مذهبه وانتشاره :

لم ينل المذهب الحنبلي شهرة كغيره من المذاهب ، وكانت خطى انتشاره قصيرة جداً ، أما في بغداد فلم تكن له شهرة إلا بين طبقة عرفوا بالعنف والشدة في سيرتهم ، وتحاملهم على غيرهم من المذاهب ، أما خارج بغداد فهو غير معروف ولا منتشر ، وكان يعتنقه في مصر أفراد معدوده ن ، وذلك في القرن السابع ولما ولي القضاء موفق الدين عبد الله بن محمد بن عبد الملك الحجازي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ انتشر مذهب احمد بواسطته ، وقرب فقهاء الحنابلة وأصبح لهم شأن يذكر .

وفي سائر الأقطار الإسلامية كانت الغلبة للمذهب الحنفي والشافعي ، وفي المغرب ساد مذهب مالك ، وكان في الري عدد قليل من الحنابلة ، وكذلك في الشام .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٥٣ .
(٢) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣١٦ .
(٣) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٢٠ .

وقد علل ابن خلدون أسباب قلة اتباع أحمد بقوله :

أما أحمد فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد ، وإصالته في معاضدة الرواية ، وللأخبار بعضها ببعض ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها (١) .

ويذهب غيره إلى أن السبب يعود لعدم تقلد الحنابلة للقضاء ، لان ذلك هو سبب انتشار مذهب أبي حنيفة ومالك .

ومهما تكن الأسباب فان المذهب الحنبلي انتشر في بغداد ، وكانت الغلبة فيها للمذهب الشيعي (٢) وقد قام الحنابلة بدور صراع عنيف مع الشيعة ولكن لم يستطيعوا التغلب عليه .

وفي سنة ٣٢٣ هـ عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، وان وجدوا نبيذاً أراقوه ، وان وجدوا مغنية ضربوها فارهجوا بغداد ، واقلقوا بال الحكومة ، كما استظهروا بالعميان الذين يأوون إلى المساجد ، فإذا مر بهم شافعي ضربوه بعصيهم حتى يموت (٣) .

فخرج توقيع الخليفة الراضي ينكر على الحنابلة فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره ، فمنه: «تارة انكم تزعمون صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئتكم الرذيلة على هيئته ، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين . . . والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا: تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، ثم طعنكم على خيار الأمة ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال ، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة ، والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن ، وانكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع ، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله وتأمرون بزيارته ، وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء ، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما اغواه .

« وأمير المؤمنين (أي الراضي) يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ، ومعوج طريقتكم ، ليوسعنكم ضرباً وتشريداً ، وقتلا وتبديداً ، وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم» .

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) انظر احسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن احمد المعروف بالشاري .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١١٧

ومن هذا نستظهر أن أفكار المجسمة والحشوية كان انتشارها في الحنابلة مشهوراً ، وهذا مما يؤدي إلى نفرة كثير من النفوس على ما في الحنابلة من شدة في الدعاية لنشر مذهبهم واثارة الفتن ، وغلظة المعاملة والعنف .

كما أن وقوع الفتن بين الحنابلة والشافعية أدت إلى تقلصه ، ووقفت دون انتشاره ، وخصوصاً ان العامة من الحنابلة قد اشتهروا في الأمر الذي يعتقدونه ، واتخذوا العنف ذريعة لاظهار ذلك التشدد ، وان مقابلتهم للشيعة ونسبتهم لهم إلى أمور لا تليق بهم قد اثر اثره في انتكاس الحنابلة ، وعدم انتشار مذهبهم ، لأن أغلبية بغداد هم شيعة والحنابلة قلّة اتخذوا العنف وسيلة لانتصار مذهبهم.

ولما قامت الدولة الأيوبية ، كان ملوكها شديدي التعصب للمذهب الشافعي ، فحاربوا غيره من المذاهب ، ولم يسمحوا لغيره من المذاهب إلا ما كان له من العامة كالمذهب المالكي .

وعندما أخذ نفوذ الدولة الأيوبية يضعف ، أخذ ذلك المذهب ينتشر في مصر ، ولقد جاء في الخطط للمقريزي انه لم يكن له وللمذهب الحنفي كبير ذكر بمصر في الدولة الأيوبية ولم يشتهر الا في آخرها .

ولما امتد سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية (لأن العثمانيين كانوا حنفية) وأخذ ذلك يتضاءل شيئاً فشيئاً . أما في مصر فلم يكن له أي شهرة هناك ، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الازهر ٣١٢ شيخاً من جميع المذاهب ، وعدد طلابه ٩٠٦٩ ، وكان من بينهم ٢٨ طالباً من الحنابلة و ٣ شيوخ منهم فقط ، ولكنه ظهر في القرن الثامن عشر ميلادية بصورة قوية جديدة ، بظهور الوهابيين الذي يتبين في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية ، وقد تطرفوا في ذلك إلى حد بعيد .

الفقه الحنبلي :

قلنا سابقاً إن الإمام أحمد لم يدون كتاباً فقهياً يأخذ اتباعه عنه مذهبه ، وهو محدث أكثر منه فقيه ، وكان ينهى عن تدوين أقواله وآرائه ، ولكن أصحابه أخذوا آراءه الفقهية من أقواله وافعاله وأجوبته ورواياته ، فكانوا إذا وجدوا عنه في مسألة قولين عدلوا أولا إلى الجمع بينهما بطريقة من طرق الأصول ، إما بحمل خاص على عام ، أو مطلق على مقيد ، فإذا أمكن ذلك كان القولان مذهبه ، وإن تعذر الجمع بينهما وعلم التاريخ فقد اختلف أصحابه

في ذلك ، فقال قوم : الثاني مذهبه . وقال آخرون : الثاني والأول . وقالت طائفة : الاول وإن رجع عنه .

ومن أجل هذا كانت المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد اختلفت فيها الأقوال والروايات عن أحمد بكثرة عظيمة ، فانهم قد يستنبطون من فعل أحمد أو أجوبته قولا لا يدل عليه الجواب او الفعل ، وقد يحكي آخر خلافه ، لأنه سمع من أحمد ما يناقض استنباطه الأول ، وهكذا تكثر الروايات وتختلف الأقوال المنسوبة إلى أحمد .

وكذلك اختلفوا في تعبير عبارات جاءت على لسان أحمد في اجابته عن مسائل سئل عنها ، فكانت عباراته ليست صريحة في اثبات الحرمة ، أوفي بيان أن الحكم هو الطلب على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب ، فمثلا كلمة « لا ينبغي » في كثير من إجاباته، فقد ذكروا انه يستحب فراق غير العفيفة واحتجوا بقول أحمد : لا ينبغي ان يمسكها ، فحملوا ذلك على الكراهة .

وسأله أبو طالب : عن الرجل يصلي إلى القبر والحمام والحش . قال أحمد: لا ينبغي . قال أبو طالب : فان كان ؟ قال : يجزيه .

وسأله أبو طالب فيمن يقرأ في الأربع كلها بالحمد وسورة ؟ قال : لا ينبغي أن يفعل فحملوا هذا على الكراهة ، وكذلك قوله: اكره ، أو لا يعجبني ، أو لا أحبه ، أو استحسنه ، حملوا ذلك كله على الكراهة .

ومنهم من يحمله على الحرمة ، وقد نقل ابن القيم الجوزية روايات كثيرة عن أحمد جاءت بلفظ الكراهة ، والمقصود التحريم .

وإذا جاءت رواية عن أحمد بلفظ أحب ، ويعجبني ، أو أعجب إليّ ، فعند الاكثر من الحنابلة يكون ذلك محمولا على الندب ، وقيل يحمل على الوجوب ، وكذا إذا قال : هذا حسن او أحسن ، اما إذا قال أحمد : أخشى أو أخاف او يكون او لا يجوز ، او أجبن عنه فقيل : يحمل على التوقف لتعارض الادلة ، وقيل : هو على ظاهره .

وإن أجاب عن شيء ثم قال عن غيره أهون ، أو أشد ، أو أشنع فقيل هما سواء ، إلى آخر ما لديهم من الاصطلاحات في تفسير أقوال أحمد إذ هي عمدة المذهب ، وعليها ابتني التخريج والعمل ، فهي بمثابة ما يروى عن النبي ﷺ .

قال ابن ابي يعلى : وليست جوابات إمامنا في الأزمنة والأعصار إلا بمثابة ما يروى عن النبي ﷺ من الآثار ، لا يسقط نهايتها موجبات بدايتها إلا بأمر صريح بالنسخ أو التخيف ، فإذا عدم ذلك كان على موجبات رعايته ،

فكذلك في جواباته إذ العلماء انكروا على اصحاب الشافعي من حيث الجديد والعتيق ، وانه إذا ثبت القول فلا يرد إلا باليقين ، فكذلك في جوابات إمامنا (١) .
وعلى أي حال فقد وردت في أجوبة أحمد الفاظ حملها بعضهم على الكراهة ، وبعضهم على الحرمة ، فمثلا أنه قال : أكره لحم الحية والعقرب ، لان الحية لها ناب والعقرب لها حمة . فحملوا ذلك على الحرمة .
وقوله : ويكره أن يتوضأ الرجل في آنية الذهب والفضة ، وقوله في الجمع بين الاختين بملك اليمين : أكرهه ولا أقول هو حرام . قالوا : إن مذهبه الحرمة .
ومثل لفظ أكره قوله : لا يعجبني ، وقد ساق ابن القيم الجوزية أمثلة كثيرة لحمل ذلك على الحرمة ، ومن ذلك : أنه سئل عن رجل أكثر ماله حرام أيؤكل ماله ويغصب منه ؟ فقال : إذا كان أكثر مال الرجل حراماً فلا يعجبني أن يؤكل ماله .
وسئل عن الخمر يتخذ ليكون خلا فقال : لا يعجبني ، إلى آخر ما ورد من تعبير هذه الألفاظ وحملها على أحد الوجهين ، استناداً للقرائن .
وقد ثبت عن أحمد انه كان يجيب عن بعض المسائل بلا أدري ، نقل أبو داود أنه سئل عن المرأة تعدم الماء ويكون مجتمع الفساق فتخاف أن تخرج أتتيمم ؟ قال : لا أدري (٢) .

كتب الفقه الحنبلي :

وقد ألف رجال المذهب الحنبلي كتباً في تدوين أقوال أحمد والروايات عنه ، والتخريج عليها ، ومن مجموع ذلك تكونت مجموعة فقهية نسبت إليه شأنه شأن غيره من المذاهب كما تقدم .
ومن أشهر الكتب التي تعد أصلا من أصول الفقه الحنبلي : هو مختصر الخرقي ، وهو عبد الله بن أبي بكر بن البدر الخرقي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ ، وقال فيه : أنه لم يخدم كتاب في المذهب مثل ما خدم هذا المختصر ، وقد توافر عليه علماء الحنابلة بالشرح والتعليق ، وأعظم شروحه المغني لموفق الدين المقدسي ، قال الشيخ عبد القادر الدمشقي المعروف بابن بدران : وقد اطلعنا

(١) طبقات الحنابلة ج ٢ ص ١٧٦ .
(١) الطبقات ج ١ ض ٨٣ .

له (أي للمختصر) ما يقرب من عشرين شرحاً ، وسمعت من شيوخنا وغيرهم أن من قرأه حصل له ثلاث خصال : اما أن يملك مائة دينار ، أو يلي القضاء ، أو يصير صالحاً .

ومنها المستوعب ، تأليف محمد بن عبد الله بن الحسين السامري المتوفى سنة ٦١٠ هـ . والكافي للشيخ موفق الدين المقدسي صاحب المغني . والعمدة له أيضاً ، والهداية لأبي الخطاب الكوذاني ، وقد تقدمت ترجمته ، والمحرر لابن تيمية ، والمقنع لموفق الدين المقدسي ، وغيرها من كتب المذهب .

أصول الفقه الحنبلي :

وقد ذكر ابن القيم الجوزية : أن الأصول التي بنى عليها الإمام أحمد فتاويه خمسة :

أحدها : النصوص ، فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ما خلفه ولذلك قدم النص على فتاوى الصحابة .

الثاني : ما أفتى به الصحابة ، ولا يعلم مخالفاً فيه ، فإذا وجد لبعضهم فتوى ، ولم يعرف مخالفاً لها لم يعدها إلى غيرها ، ولم يقل إن ذلك إجماع ، بل يقول من ورعه في التعبير : لا أعلم شيئاً يدفعه .

الثالث : أنه إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم أقربها إلى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم ، فان لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف ولم يجزم بقول .

الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه ، وهو الذي رجحه على القياس .

الأصل الخامس : إذا لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص ، ولا قول الصحابة أو واحد منهم ، ولا أثر مرسل أو ضعيف ، ذهب إلى القياس فاستعمله للضرورة ، وقد نقل الخلال عن أحمد أنه قال : سألت الشافعي عن القياس فقال : انما يصار إليه عند الضرورة (١) .

ولكن كتب الأصول عند الحنابلة قد زادت على هذه الأصول ، فذكروا الإستصحاب والمصالح والذرائع ، وربما ذكروا الاجماع ، وقبل الختام نعود إلى ايضاح الموقف بين المعسكرين ، المعتزلة والمحدثين .

---

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ص ٢٢ — ٢٦ .

بين معسكرين :

كان النزاع بين المحدثين والمعتزلة شديداً ، وقد استطاع المعتزلة أن يتغلبوا على خصومهم ، وأصبحت أمور الدولة بأيديهم : فمنهم الأمراء والقضاة وهم أهل الحل والعقد ، عندما وقع المأمون تحت سيطرتهم . وخضع لنفوذهم ، وارتاح لأحاديثهم ، لأنه كان متعطشاً إلى العلم والفلسفة وحرية العقل ومشغوفاً بالمناقشة والجدال ، والمعتزلة في وقته هم أقطاب الأدب . وأرباب الجدل ، وطلاب العلم والفلسفة .

قال الدميري : كان المأمون نجماً لبني العباس في العلم . والحكمة ، وقد أخذ من العلوم بقسط وافر ، وضرب فيها بسهم . وهو الذي استخرج كتاب أقليدس ، وأمر بترجمته وتفصيله ، وعقد في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات ، وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف (١) .

وكان لأحمد بن أبي دواد أكبر الأثر في تحقيق مآرب المعتزلة وأهدافهم ، فهو قاضي الدولة ، وصاحب السلطة التشريعية : وله عند المأمون مكانة لا يزاحمه بها غيره ، فاستطاع بلباقته وغزارة علمه . وذلاقة لسانه ، أن يحمل المأمون على القول بخلق القرآن . وإظهار ما يذهب إليه المعتزلة من آراء .

وكان المعتزلة يرون أن القول بقدم القرآن فكرة مسيحية ، دست بين الجماهير الإسلامية ، فيما كان يدس فيهم من أفكار : وقد تلقاها الجمهور بالقبول لما فيها من تقديس للقرآن الكريم ، كما جاء في رسالة النصارى للجاحظ المعتزلي : إن الكائدين للإسلام يرتضون ويرحبون بمقالة الفقهاء والمحدثين الذين يروجونها عند العامة ، لأنهم يتخذون من الحكم بأن كل كلام الله قديم ، سبيلا لأن يقيموا الحجة على أن المسيح قديم . وتكون تلك الحجة من الكتاب الكريم ، إذ فيه أن المسيح كلمة الله ، وكل كلام الله قديم ، وكلمة الله قديمة فالمسيح قديم .

وإن الأخبار الصادقة تثبت أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ، يؤلمهم أن يدخل المسيحيون في دين الله افواجاً : وكانوا يثيرون أفكاراً بين المسلمين ، ويتخذون من هذه الأفكار حججاً لهم يجادلون بها عن دينهم .

وقد جاء في كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقي الذين كان في خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك : انه كان يلقن بعض المسيحيين

---

(١) حياة الحيوان ج ١ ص ٧٢ .

ما يجادلون به المسلمين فيقول : (إذا سألك العربي : ما تقول في المسيح ؟ فقل انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم : بم سمي المسيح في القرآن ؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، فانه سيضطر إلى أن يقول انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاذا أجاب بذلك ، فاسأله عن كلمة الله وروحه ، أو مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة ، فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن كلمة ولا روح ، فان قلت ذلك فسيفحم العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين) .

فالمعتزلة يرون أن من يقول إن القرآن قديم يمد النصارى بحجة يجادلون بها ، وان من الواجب الا يقال ذلك ، لانه يعطي للخصوم حجة على الإسلام ، ويفتح الثغرة لمن ينالون منه ، وليس هو الحق ، ومن قاله فقد ضاهى قول النصارى في المسيح ، وحكم بتعدد القدماء ، وجعل القرآن الذي ينطق به الناس قديماً كشأن الله سبحانه وتعالى (١) .

وكان المحدثون يرون ألا يخوضوا في شيء لم يخض فيه السلف ، كما أنهم يمنعون عن الفلسفة والكلام ، لأنهم يرون أن العامة إذا تفلسفوا ألحدوا . وإذا قيل لهم إن القرآن مخلوق فذلك يساوي أنه يصح الرد عليه ، يجوز الاتيان بمثله ؛ أو أنه يؤدي إلى الاستهانة به ، إلى غير ذلك مما توحيه إليه عواطفهم وما يرونه لازماً عليهم .

وهذه المسألة في الواقع مسألة علمية يجب أن تبحث وتناقش نقاشاً منطقياً ، ليظهر للملأ أحقية أي الحزبين .

وكذلك الخلاف في رؤية الله سبحانه وتعالى وصفاته ، فكل ذلك يرجع إلى الميزان العلمي حتى يتضح الحق .

وقد سلك المعتزلة في تأييد مذاهبهم طريق القوة ، واستعملوا الشدة وأخذوا الناس بالمحنة ، وجاؤوا بالعلماء من أطراف البلاد ، ليحاكموهم ، ويمتحنوهم في عقائدهم ، ويتحكمون في ضمائرهم .

فأصبح الناس لا يرون أن ذلك يرجع إلى قواعد علمية ، أو أنها مسألة تنزيه الله سبحانه وتعالى ، أو مغالبة رأي برأي ، بل جعلوا ذلك محنة نزلت في الإسلام والمسلمين ، فهم يرون السجون قد ملئت برجال المحدثين ، والولاة في كل مكان يمتحنون الناس بقوة السلطان ، فالجنود يسوقون الناس بسياطهم وسيوفهم إلى مجالس الامتحان ، بل إلى محاكمات المعتزلة ، وبهذا فقد

---

(١) ابن حنبل لمحمد أبو زهرة ص ٦٤ .

كره الناس الاعتزال لأن الحكومة احتضنته ، وأرادت فرضه بالقوة ، والعقائد لا ينشرها التعذيب والإرهاب ، وإنما ينشرها الإقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

وبهذا استغل المشنعون على المعتزلة الفرصة ، فأساؤوا سمعتهم ، وشوهوا دعوتهم ، وأدخلوا على أذهان العامة من الباب التي يتفق وعقليتهم .

كما أنهم التفوا حول المعارضين لهذه الدعوة ، والثابتين في المحنة ، وكلما ازدادت المحنة ازدادت العامة ايماناً بعقيدتهم ، وتأييداً للرجال الذين لم يجيبوا إلى ما طلب منهم .

وكان امتحان أحمد بن حنبل لم يصل إلى حد السيف كغيره من العلماء الذين كانت نهايتهم القتل ، والتأبيد في السجن ، فقد نجا من ذلك وكان هو بقية الفئة التي ثبتت من المحدثين على الامتناع – بأي صورة كان – فكانت العامة تنظر إليه كبطل قارع خصمه وثبت على إيمانه .

فأصبح بعد رفع المحنة شخصية لها أثرها ، لاسيما وأن السلطة قد لحظته بالعناية أيام المتوكل ، عندما رفع المحنة ، فكان محل ثقة الجماهير ، واحترام العلماء من المحدثين ، حتى أصبح حبه علامة الإيمان ، وبغضه علامة الكفر وان من وثقه ابن حنبل وثق ، ومن ضعفه ضعف . وانتصرت العامة أيام المتوكل في انتصار المحدثين .

انتصار المحدثين :

إنتصر المحدثون بعد أن أفل نجم المعتزلة بانحراف المتوكل عنهم ، وبذلك انفجر بركان غيظهم وظهر حقدهم الدفين ، وانطلقت حركة الانتقام جامحة ، فجاهروا بلعن المعتزلة ووصفوهم بكل قبيح ، بل تجاوزوا الحد إلى سواهم ممن لم يكونوا على رأي أصحاب ابن حنبل .

واتخذوا تشييع الجنائز كمظاهرات لإظهار الشعور ، والتظاهر بالسب لمن خالفهم ، كما صنعوا في تشييع جنازة أحمد بن نصر التي مشى فيها جماهير لعامة في بغداد ، وصاروا يتمسحون بالنعش حتى أن المتوكل تخوف من اجتماع العامة وتجمهرهم على ذلك النحو ، فكتب إلى عامله يأمره بمنعهم من الاجتماع والحركة في مثل هذا وشبهه .

وكذلك فعلوا في جنازة ابن حنبل ، فانه يقال ان خلقاً كثيراً مشوا فيها

وحدث أحد الذين شهدوها قال : انه مكث طوال الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكن إلا بشق النفس لكثرة ازدحام الناس عليه .

وهكذا تحولت تلك الجنازة إلى مظاهرة عظيمة ، اظهر القوم فيها التفجع على الإمام الراحل ، وطعنوا في أهل البدع (كما يرون) ولعنوهم (كما يشاؤون) ولزم بعضهم القبر وباتوا عنده ، وجعل النساء يأتين إليه ، فاضطرت السلطة إلى أن أرسلت حامية إلى ذلك الموضع منعاً لوقوع الفتنة (١) .

وعلى أي حال : فقد كان المحدثون يصبون جام غضبهم على أعدائهم لعنا وقتلا وتكفيراً ، وتمادوا في مهاجمة المعتزلة حتى قالوا : إن المعتزلي لا تجوز الصلاة عليه ، وإن دماءهم وأموالهم حلال للمسلمين ، وفيه الخمس ، وليس على قاتل الواحد منهم قود ولا دية ولا كفارة ، بل لقاتله عند الله القربة والزلفى(٢).

وقد وضع بعضهم من الأحاديث ما شاؤوا ، ومن المنامات ما ارادوا ، وقام القصاصون في نشرها على ذلك المجتمع الذي سادت فيه روح النقمة بعد نشوة الانتصار .

كما حكموا على من لم يقل بمقالتهم في خلق القرآن بالكفر والخروج عن الدين ، وكان أحمد نفسه يرى ذلك ، فقد حكم على جماعة ممن أجاب في المحنة بالكفر .

وكان لا يرى إجزاء تحرير رقبة عبد يقول بخلق القرآن .

روى عبد الله بن أحمد قال : سئل أبي عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة فكان عنده مملوك لقنه أن يقول بخلق القرآن .

فقال احمد : لا يجزى عنه عتقه ، لأن الله تبارك وتعالى أمره بتحرير رقبة مؤمنة وليس هذا بمؤمن ، هذا كافر (٣) .

وسئل عمن قال لفظي بالقرآن مخلوق ، فقال : هذا لا يكلم ،ولا يصلى خلفه ، وان صلى أعاد .

وبلغ أحمد أن القواريري سلم على ابن رياح ، فلما أراد القواريري ان يزور ابن حنبل قال له : ألم يكفِ ما كان من الإجابة حتى سلمت على ابن رياح ورد الباب في جهه ، ونهى الشهود عن أن يشهدوا أمام قاض جهمي (يريد معتزلياً) ولو استعدى عليه .

---

(١) المعتزلة ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(٢) الفرق بين الفرق ص ١٥١ .
(٣) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٣١ .

وكان أحمد لا يشيع جنازة من يقول بخلق القرآن ، ولا يصلي عليه ، ويرتب عليه احكام الكفار .

كما أن أنصاره حكموا على من بغض أحمد بالكفر والبدعة. يقول قتيبة بن سعيد : أحمد بن حنبل إمامنا من لم يرض به فهو مبتدع (١) .

وراحوا يرفعون من شأن المتوكل على ما فيه من مخالفة الدين ، وبالغوا في الثناء عليه حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم ، والمتوكل في إحياء السنة (٢) .

ومدحوه باشعار كثيرة واغتفروا له سوء فعله ، لرفعه المحنة ، ورأى كثير من المحدثين رؤى في المنام تذكر أن الله غفر له .

وكذا نشط الحنابلة نشاطاً عظيماً في نظم الشعر الذي يرفع من شأن إمامهم ويقوي دعائم مذهبهم ، ويحط من شأن أعدائهم ، يقول مزاحم الخاقاني في مدح أحمد :

لقد صار في الآفاق أحمد محنة ... وأمر الورى فيها فليس بمشكل
ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضاً ... وتعرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

ويقول ابن أعين :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة ... وبحب أحمد يعرف المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقصاً ... فاعلم بأن ستوره ستهتك (٣)

وقال محمد بن أحمد بن الحسين الموصلي قصيدة طويلة منها :

وانظر بعين الاعتبار ولا تكن ... ذا غفلة عن طاعة الديان
واقصد لمذهب أحمد بن محمد ... أعني بن حنبل الفتى الشيباني
فهو الإمام مقيم دين المصطفى ... من بعد درس معالم الإيمان

إلى أن يقول :

فعلى ابن حنبل السلام وصحبه ... ما ناحت الورقاء بالأغصان
إني لأرجو أن أفوز بحبه ... وأنال في بعثي رضى الرحمن (٤)

ويقول عبد الله بن محمد الأنصاري في قصيدة يرثي أحمد :

---

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ١٥ .
(٢) المناقب ص ٣٥٦ .
(٣) جلاء العينين للالوسي ص ١١٥ .
(٤) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٥٧ .

وإمامي القوام لله الـذي   دفنوا حميد الشأن في بغدان
أنا حنبلي مـا حييت وإن أمت   فـوصيتي ذاكم إلى اخـواني

ويقول جعفر بن أحمد السراج :

لله رب الناس مذهب أحمـد   فإن عليه ما حييت معولي (١)

ويقول أبو علي بن المتوكل على الله :

ياذا الذي أضحى يصول ببدعة   وتشيع وتمشعر وتمعزل
لا تنكـرن تحنبلي وتسنني   فعليهمـا يوم المعاد معولي
إن كان ذنبي حب مذهب أحمد   فليشهد الثقلان أني حنبلي (٢)

وهكذا يستمر الحنابلة في نصرة المذهب بالأقوال والأفعال ، فهم يبثون فضل أحمد ومزاياه ، ووجوب تفضيل مذهبه على غيره ، بشتى الوسائل والطرق .

ولما قويت شوكة المحدثين وعلى رأسهم الحنابلة ، وتعالت سلطتهم حتى كانوا حكومة داخل حكومة ، أخذوا ينشرون المذهب بكل نشاط وقوة ، ويوقعون الشر بمن يخالفهم بالرأي حتى ذكروا : أن محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ ألف كتاباً في اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فسئل عن ذلك فقال : لم يكن أحمد فقيهاً إنما كان محدثاً ، وما رأيت له أصحاباً يعول عليهم ، فأساء ذلك الحنابلة ، وقالوا : إنه رافضي ، وسألوه عن حديث الجلوس على العرش فقال : إنه محال وأنشد :

سبحان من ليس له أنيس   ولا لـه في عرشة جليس

فمنعوا الناس من الجلوس إليه ، ومن الدخول عليه ، ورموه بمحابرهم . فلما لزم داره ، رموه بالحجارة حتى تكدست ، وحتى ركب صاحب الشرطة ، ومعه ألوف من الجند لمنع العامة عنه ، ورفع الحجارة .

وهذا مما يدل على تعصب الحنابلة وشذوذهم في نشر مذهبهم ، وما أكثر الحوادث التاريخية التي دلت على أن حركتهم في غالب الأحوال حركة جماهيرية وهي لا شعورية . وكانت نشوة الانتصار على خصومهم قد جعلتهم يتشددون ويتعصبون ، وقد استمسكوا بألفاظ لا يفهمون معانيها . وكان موضوع مناقشتهم مسألة خلق القرآن ، فخاضوا في هذه المسألة على غير علم ، ولقد كان

---

(١) المناقب لابن الجوزي ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .
(٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٣٥ .

يكفي أن يقول الرجل القرآن غير مخلوق حتى يستجاز قوله ، وإن تردد ولو للتروي والتفكير نبذ ورد (١) .

ولقد استنكر المفكرون من الأمة تلك الحال ، حتى لقد ألف ابن قتيبة الذي كان يعيش في ذلك العصر رسالة وصف فيها كيف كانت الاختلافات تجري بحدة وعنف ، بين الذين لا يعلمون في هذه المسألة ، ويتكلمون من غير بينة ، وكيف كان المحدثون وعلى رأسهم الحنابلة يكفرون أو يحكمون من غير بينة على كل من لم ينطق بكلمة قديم ، مضافة إلى أي شيء يتصل بالقرآن .

وقال في وصف المحدثين ، ثم الحنابلة :

كان آخر ما وقع من الاختلاق أمر أخص بأصحاب الحديث ، الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين ، وبالاتباع قاهرين ، يداجون بكل بلد ولا يداجون ، ويستتر منهم بالنحل ولا يستترون ، ويصدعون بحقهم الناس ولا يستغشون لا يرتفع بالعلم إلا من رفعوا ، ولا يتضع فيه إلا من وضعوا ، ولا تسير الركبان إلا بذكر من ذكروا ، إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلاً في الدين ، ولا فرعاً في جهلها سعة ، وفي العلم بها فضيلة ، فنما شرها ، وعظم شأنها . حتى فرقت جماعتهم ، وشتت كلمتهم ، ووهنت أمورهم ، واشمتت حاسديهم .

وهذه المسألة التي كانت بهذه الشدة واللجاجة في الخصومة والعداوة ، فإنها كانت محنة لأحمد في حياته من الأمراء والخلفاء ، ثم كانت محنة الفكر من بعده ، فالعامة لا يقبلون قولا من أحد إلا إذا قدمه بوصف القدم لما يتصل بكتاب الله تعالى .

ويقول ابن قتيبة : ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث ، فيبدؤونه قبل الكتابة بالمحنة ، فالويل له إن تلعثم أو تمكث ، أو سعل أو تنحنح قبل أن يعطيهم ما يريدون ، فيحمله الخوف من قدحهم فيه ، وإسقاطهم له ، على أن يعطيهم الرضا ، فيتكلم بغير علم ، ويقول بغير فهم ، فيتباعد من الله في المجلس الذي أمل أن يتقرب فيه ، وإن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار ما يحبون ليكتبوا عنه .

وإن رأوا حدثاً مسترشداً ، أو كهلا متعلماً سألوه ، فإن قال : أنا أطلب حقيقة هذا الأمر ، وأسأل عنه ، ولم يصح لي شيء بعد ، وإنما صدقهم عن

---

(١) ابن حنبل لمحمد ابو زهرة ص ٣٩٤ .

نفسه ، واعتذر بعذره والله يعلم صدقه ، كذبوه وآذوه ، وقالوا خبيث فاهجروه (١) .

ومن هذا يظهر أن للعوام سلطة لا يمكن لأحد من ذوي الفهم أن يقف أمامها ، وليس للعلماء رأي في ذلك الصراع : ومما يؤيد ذلك :

إن شيخ الحنابلة أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى : توفي وأراد العوام أن ينبشوا قبر أحمد ويدفنوه معه ، ولم يستطع أحد أن يقول للعوام لا تنبشوا قبر أحمد وادفنوه بجنبه ، فقال أبو محمد التميمي من بين الجماعة : كيف تدفنونه في قبر الإمام أحمد وبنت أحمد مدفونة معه !! فإن جاز دفنه مع الإمام فلا يجوز دفنه مع بنته ، فقال بعض العوام : اسكت فقد زوجنا بنت أحمد من الشريف (أي أبو جعفر) فسكت التميمي (٢) ودفنوه مع أحمد في قبره !

وهكذا تسير الأمور على غير ترو وتدبر ويبتلى المسلمون بهذا البلاء ، وتقع تلك الحوادث المؤلمة التي صدعت وحدة الصف ، وفرقت الكلمة ، وفسحت المجال لخصوم الإسلام للتدخل في ذلك المعترك ، لبث أفكارهم المسمومة ونشر آرائهم الفاسدة .

لقد كان هذان المعسكران في صراع فكري ونزاع عقائدي ، وكان الأولى الا يتعدى ذلك حدود المنطق والنقاش العلمي ، وأن يقتصر ذلك على العلماء المفكرين ، ومن الخطأ أن يفرض تقبل الآراء الفلسفية على العوام ويراد منهم أن يعرفوا الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والمحدود واللامحدود ، والمكان والجهة ..

فالمعتزلة وهم قادة تلك الحملة كانوا الداعين إلى حرية الفكر ، والقائلين بسلطة العقل ، قد خالفوا دعوتهم فعاملوا الناس بالشدة ، وقوة السلطة ، والتعذيب والتنكيل والإهانة ، مما حمل العامة على التذمر والالتفاف حول من يعهد به مقاومة تلك الشدة ، ومخالفة السلطة حتى كان ما كان من تعلق الجماهير بشخصية أحمد وجعلها في هالة القداسة والعظمة . وازداد نشاطهم في المنامات كثرة هائلة ، حتى توصلوا إلى تأييد قولهم في خلق القرآن إلى إيجاد منام أشبه بمحاكمة ، وتكون النتيجة أن الله سبحانه وتعالى يصدق قول أحمد ، ويصوب رأيه .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٣ ص ٣٣٧ .

وجعلوا جنة عدن وقفاً على الحنابلة لا يدخلها إلا من أحب أحمد (١) إلى غير ذلك مما نشط فيه العوام ، وتلقوه من القصاصين في لزوم التمسك بمذهب أحمد ، واعتبار غيرهم مبتدعة كفرة ، وبهذا الاندفاع فقد تغيرت الأحوال ، وانعكست المفاهيم ، وحدث من وراء ذلك ما لا تحمد عقباه .

فعمل المعتزلة وتشددهم يعد في الواقع هو السبب في إثارة تلك الأعاصير ، وهم مسؤولون عن انتكاسهم بعد ذلك النشاط ، وهزيمتهم أمام قوة المحدثين ، ورجوع الأكثرية إلى الجمود ، والتسليم خضوعاً للعاطفة ، وامتثالا لأمر السلطة ، يقول المسعودي : لما أفضت الخلافة للمتوكل أمر بترك النظر ، والمباحثة في الجدال ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة .

وقال الدكتور أحمد امين : ولما ذهب ضوء المعتزلة وقع الناس تحت سلطان المحدثين وأمثالهم من الفقهاء ، وظلوا تحت هذا السلطان من عهد المتوكل إلى ما قبل اليوم بقليل ، فكانت النتيجة جموداً بحتاً ، وعلم العالم ان يحفظ الأحاديث ويرويها كما سمعها ويفسرها تفسيراً لغوياً ، ويشرح رجال السند كما شرحه الأقدمون ، هذا ثقة ، وهذا ضعيف من غير نقد عقلي ؛ وفقه الفقيه أن يروي أقوال الأئمة قبله ، فإذا عرضت مسألة جديدة لم تكن فقصارى جهد المجتهد أن يخرجها على أصول امامه ، فهذه طبائع العلماء من عهد المتوكل ، تسليم بالقضاء والقدر ، وتسليم بما كان ويكون ، وتقليد للسابقين ، وتقليد في الفتاوى والآراء ، ومن ثمة تكاد تكون الكتب المؤلفة في الحديث والفقه والتفسير ، بل والنحو واللغة من عهد المتوكل صورة واحدة ، وإن اختلفت في شيء فاختلاف في الإطناب والايجاز ، والبسط والاختصار ، أما الترتيب فواحد وأما الأمثلة فواحدة ، وأما العبارة الغامضة في الكتاب الأول فغامضة في الكتاب الأخير ، كلها خضعت لأمر المتوكل بالتسليم والتقليد ، وانعدمت فيها كلها الشخصية . لأن الشخصية عدوة التسليم والتقليد ، ولو بقي الاعتزال لتلون المسلمون بلون آخر أجمل من لونهم الذي تلونوا به (٢) .

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ٤٤٧ – ٤٤٨ – ٤٤٩ .
(٢) ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين ج ٣ ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

ملاحظات حول انتصار الحنابلة :

وعلى ضوء ما تقدم يجب أن نلحظ الأمور التالية :

١ ــ ان ذلك الضغط الذي فرضه المعتزلة كان سبباً في زيادة النتائج السيئة التي أدت إلى أفول نجمهم وهدم كيانهم . كما وان المحدثين قد نفعهم ذلك بالتفاف الجماهير حولهم ، حتى اكتسبوا النصر ورجحت كفتهم، فقابلوا المعتزلة بالمثل ، بل زادوا على ما فعل اولئك من الانتقام من خصومهم ، وازدياد نشاطهم إلى إيجاد أمور لا تتمشى مع روح الإسلام ، من التهجم على من لم يوافقهم في الرأي ، وطعنوا بكثير من الشخصيات وكفروا من شاؤوا تكفيره ، بدون ميزان شرعي .

ولو سار المعتزلة في غير طريق الشدة ، ولم يجعلوا للقوة دخلا في نشر مبادئهم في دعوة الناس إلى حرية الفكر ، وإعمال العقل ، لكان اولى وأجدر ، ولم يحدث ما حدث من تلك الانتكاسة الفظيعة ، وكان من ورائها انطلاق الاحقاد من عقالها ، وانفجار الضغائن الكامنة .

وكذلك المحدثون بعد انتصارهم لو أنهم نهجوا نهجهم الذي كانوا يسيرون عليه من المحافظة على العادات والتقاليد الموروثة ، وعدم الخوض في شيء لم يخض فيه السلف ، لكان ذلك أجدر وأنفع ، وبهذا يكون كل معسكر قد أدى واجبه وحقق أهدافه على ضوء المنطق .

ولكن ذلك الصراع الذي أوجد تلك الثورة العقائدية ، وانتصار طائفة على طائفة ، واستعمال القوة في تطبيق المبادىء ، كل ذلك أوجد تلك العوامل التي حلت بالمجتمع الإسلامي مما أدى إلى العداء والاتهام بالباطل ، والخروج عن الموازين العلمية ، والحدود الشرعية .

٢ ــ لم يكن المذهب الحنبلي من المذاهب المنتشرة وذات أهمية ، وكاد يُمحى أسوة بغيره من المذاهب ، ولولا قيام ابن تيمية وانتصاره لمذهب أحمد ، وربطه بعقائد السلف الذين لا يرون تأويل ما ورد في الصفات ، وبالغ في النكير على الأشاعرة ، فافترق الناس فيه إلى فرقتين ، فريق يقتدي به ، ويقول باقواله، ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الإسلام ، وأجل حفاظ الأمة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضلله ، ويزري عليه باثبات الصفات ، وينتقد عليه مسائل ماله فيها سلف .

وفي القرن الثاني عشر ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) المتولد سنة ١١١٥ هـ والمتوفى سنة ١٢٠٦ هـ فأنكر على الناس استغاثتهم بالنبي ﷺ عند قبره واظهر أنه يأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان قد درس الفقه على أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان على المذهب الحنبلي ، فأهل نجد حنابلة لأنهم وهابية . قد اعتنقوا في العقائد مذهب ابن عبد الوهاب ، وهو يعتنق فيه مذهب ابن تيمية في العقائد والفقه ، وابن تيمية لم يكن مقلدا بل كانت له مسائل ينفرد بها ، ويفتي على رأيه ، ولكنه معدود من الحنابلة ، مع أن له أقوالا وفتاوى يخالف بها المذاهب الأربعة ، أو يخالف المشهور منها فمن ذلك :

القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً طويلا كان أو قصيراً ، كما هو مذهب الظاهرية .

القول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء كما يشترط للصلاة .

وان من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل فبان نهاراً لا قضاء عليه .

وجواز الوضوء بكل ما يسمى ماء مطلقاً كان أو مضافاً ، وأن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ، إلا أن يتغير قليلا كان أو كثيراً .

وكان يذهب إلى التكفير بالحلف بالطلاق وان الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحده ، وان الطلاق المحرم لا يقع (٢) .

وقد امتحن بسبب فتواه بالطلاق وسجن ، ومن هذا يظهر أن ابن تيمية لم يكن مقيداً بمذهب معين ، فقد كان يفتي في بعض الأحكام بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم أو بخلاف المشهور من مذاهبهم ، كما كان ينهى عن التقليد ، أو الالتزام بقول واحد من الأئمة (٣) فهو لم يكن حنبلياً بل كان يلتقي معهم في مسائل الصفات وعدم تأويلها .

٣ — ولا يفوتنا أن نلحظ نشاط الوضاعين للاحاديث على رسول الله ﷺ ويقصدون بذلك تأييد السنة والانتصار على المبتدعة ، وهم كل من خالفهم في

---

(١) ولد محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة بنجد سنة ١١١٥ هـ ١٧٠٣ م ودرس الفقه الحنبلي ، واقتدى بابن تيمية ورحل إلى المدينة والبصرة ، وبغداد ، وكردستان ، وهمذان ، وأصفهان وعاد إلى بلاده وأظهر طريقته وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحارب البدع واستعان بمحمد بن سعود في تأييد دعوته إلى أن توفي سنة ١٢٠٦ هـ ١٧٩١ م واعتنق آل السعود هذه الدعوة ، وحاربتهم الدولة العثمانية وهزمهم والي مصر محمد علي باشا ، ولم يتمكن من القضاء على هذه الحركة وبقيت لها السيادة في نجد وفي أصقاع المملكة العربية السعودية إلى اليوم .

(٢) العقود الدرية في مناقب ابن تيمية ص ٣٣٢ .

(٣) جلاء العينين للالوسي ص ١٠٧ .

الرأي ، فهذا أحمد بن عبد الله الانصاري يحدث عن نافع عن ابن عمر في قول الله تعالى : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) فاما الذين ابيضت وجوههم أهل السنة والجماعة وأما الذين اسودت وجوههم أهل الأهواء والبدع .

وهذا أحمد ابن حرب الملحمي كان من الكاذبين ، وقد وضع حديثاً على رأي الحنابلة بسند عن أبي هريرة مرفوعاً : « من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر » (١) .

ومثله أحمد بن عمر بن مصعب بن بشر بن فضالة المروزي فقيه كذاب . قال الدارقطني : كان حافظاً عذب اللسان في السنة والرد على المبتدعة ، لكنه يضع الحديث ، وقال ابن حيان : كان ممن يضع الحديث ويقلب الأسانيد لعله قد قلب على الثقاة أكثر من عشرة آلاف حديث (٢) .

ومن أبطال الوضاعين لنصرة المبادىء وحب الغلبة : أحمد بن عبد الله الجويباري ، ويقال : الجوباري ، وجوبار من عمل هرات ، نقل الحاكم عن الحافظ سهل بن السري : أن احمد الجويباري ، ومحمد بن عكاشة وضعوا على رسول الله ﷺ عشرة آلاف حديثاً . ومن آفاته أنه روى أن حضور مجلس عالم خير من حضور ألف جنازة ، ومن ألف ركعة ، ومن ألف حجة ، ومن ألف غزوة .

وروى أيضاً مرفوعاً : أن السنة تقضي على القرآن . قال أبو سعيد : لا نعرف أحداً أكثر وضعاً للأحاديث منه . وكان يضع الحديث لمحمد بن كرام — رئيس فرقة الكرامية من الحنابلة — على ما يريد ، فكان ابن كرام يخرجها في كتبه ويسميه أحمد بن عبد الله الشيباني (٣)

ومنهم أبو بشر الحافظ أحمد بن محمد الكندي ، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ ، وكان أحد الوضاعين ومشهوراً بالكذب ، وكان إماماً في السنة والرد على المبتدعة (٤) كما يقولون .

وغير هؤلاء ممن يضعون الأحاديث انتصاراً لمبادئهم والوقيعة في خصومهم وقد سئل بعضهم ، وهو أحمد بن محمد المعروف بغلام خليل ، فأجاب بأننا نضعها لنرقق بها قلوب العامة وقد وضع هؤلاء أكثر من أربعين ألف حديث ، أكثرها يعود لنصرة المبدأ والتغلب على الخصم .

---

(١) لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٥٩ .
(٢) انظر تذكرة الحفاظ ج ٣ — ٢٣ وتاريخ بغداد ج ٥ ص ٧٢ .
(٣) لسان الميزان ج ١ ص ٢٩٣ .
(٤) مرآة الجنان ج ٢ ص ٢٨٧ .

٤ ـ إن ذلك التهجم والاتهام بالباطل لم يقتصر على الفئتين المتخاصمتين ، بل تعداه إلى كل من لم يشاركهم في الرأي حول الرؤية وخلق القرآن من جميع الطوائف ، وكان للشيعة النصيب الأوفى من ذلك التهجم ، والرمي بالباطل ، وإلصاق التهم زيادة على ما هم عليه من معاداة السلطة لهم ، ومطاردتهم في جميع الأدوار ، لأنهم يحملون فكرة مقاطعة الدولة ، إذ لا يعترفون بشرعية سلطان يتركز على الجور ويحكم بغير ما انزل الله .

وكان دور المتوكل هو أعظم الأدوار ، لأنه كان يبغض أهل البيت ويتبع الشيعة بكل أذى ، حتى ملأ بهم السجون ، وصبغ الأرض من دمائهم . ولم يخضعوا لآرائه أو يقفوا عن مقاومته .

وقد أمر عامله على مصر ، وهو يزيد بن عبد الله ، أن يطاردهم . فكانت سيرته معهم قاسية ، فعاقبهم أشد العقاب ، وقتل أكابرهم ، وحمل منهم جماعة على أخشن مركب ، وسيرهم إلى بغداد . ولم يزدهم ذلك الا ثباتاً في العقيدة وتمسكاً في المبدأ . ومعارضة لسلطة المتوكل وإعلان الغضب عليه .

كما أنه التفت إلى العلويين فجرت عليهم منه شدائد من الضيق وأخرجهم من مصر وذلك في سنة ٢٤٢ هـ (١) .

وقد أشرنا إلى الحوادث المؤلمة بين السنة والشيعة أو بين الشيعة والحنابلة على الأخص، لأن الحنابلة هم أعداء المعتزلة بصورة عامة قد ربطوا بين الاعتزال والتشيع ، ولم يجعلوا فارقاً بينهم على ما بين المعتزلة والشيعة من خلاف ولكنه لم يتعد حدود المنطق والموازين العلمية ، وكان أبطال الشيعة يقابلونهم بحجج واضحة وبراهين قاطعة، وكان هشام بن الحكم يناظر علماءهم فيفحمهم .

وإن كان المعتزلة يلتقون مع الشيعة ويشاركونهم في كثير من المسائل ، وأهمها مسألة خلق القرآن والرؤية والتفضيل ، فجعلوا من ذلك روابط تصلح لأن يتخذ أساساً للتفاهم بين التشيع والاعتزال ، أو أنهم كانت تجمعهم المصالح المشتركة ، وبهذا نظروا إلى الشيعة والمعتزلة بمنظار واحد ، ولم يفرقوا بينهم حتى قال الذهبي : إن الرفض والاعتزال تصادقا وتواخيا .

ولما ضعف الاعتزال وزالت قوته بقي المذهب الشيعي يتمتع بقوته الروحية وصفاته المعنوية منفصلا عن السلطة ، ولم يخضع لها منذ نشأته ولم تصدع الدعايات كيانه ، ولم يهبط عن مستواه بما قوبل به من كتل معادية ، تحاول

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٨ .

نزوله عن المستوى الذي هو فيه ، وبقي يصارع الحوادث ، ويتلقى الصدمات ، من أجل الحق والحق أحق ان يتبع .

وقد اتجه الحنابلة بكل ما لديهم من قوة لمحاربة الشيعة وإلصاق التهم بهم ، ووصفهم بما لا يليق بهم ، فترى المؤرخين وعلماء الرجال منهم إذا أرادوا أن يؤرخوا رجال الشيعة من أهل العلم والأدب ، تجد هناك تقولا بالباطل ، ولعل الوقوف على ما كتبه الذهبي وابن حجر وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم شاهد على ما نقول وقد أفتى البعض منهم بكفر الشيعة ووجوب قتلهم وإبادتهم ، كابن تيمية وغيره (١) .

وقد توارثت الأجيال تلك النعرة ، وسرت تلك الفكرة في الأدمغة التي تحكم فيها الجمود ، ووجد أعداء الإسلام في ذلك أكبر عون لحلول الفرقة ، وزيادة العداء والتباعد . وبمزيد الأسف أن بعض المؤلفين في العصر الحاضر لم ينظروا لتلك الظروف التي نشأت فيها الخلافات، فتقبلوا كل ما وجدوه مكتوباً عن تاريخ الشيعة من طعون وتقولات ، ولو أنهم وقفوا وقفة مؤرخ منصف لبان لهم الحق .

٥ ـ كان بودي أن أشرح كثيراً من الأمور التي نجمت عن مشكلة خلق القرآن ، ولكني خشيت أن يطول الموضوع وتتسع أطراف البحث .

كما كنت أرغب في الحديث عن قبر أحمد وتاريخ غرقه في دجله ، والاشارة إلى تعظيمه ، ونقل رفات الموتى إليه ، ولكني ارجأت ذلك إلى الأجزاء القادمة إن شاء الله .

---

(١) الدرر البهية في مناقب ابن تيمية ص ١٨٢ – ١٩١ .



نظرة عامّة

ونعود والعود أحمد ، نعود لنلقي نظرة حول المذاهب وانتشارها ، بعد دراسة طويلة ، وبحث واسع مجهد ، وترويض للنفس على تحمل الصعوبات ، واجتياز العقبات ، التي تحول بين الباحث وبين الوصول إلى الغاية .

وإن الناظر إلى تأريخ المذاهب يلزمه أن يروض نفسه على أن يسير وفق الأمور التي يقتنع بصحتها ، فان هناك عاطفة وتعصباً ، وهناك سياسة وتدخلاً ، وهناك عداء وتحزباً ، فلا بد إذاً من الوقوف وقفة المتبصر الطالب للحقيقة ، المتجرد عن التحيز والتعصب ، ليسهل عليه أن يقتطف زهرة الحقيقة من بين تلك الأشواك ، ويعرف وجه الصواب ، وتتضح له الأغراض التي كمنت وراء ستار شفاف من المظاهر .

لذلك ينبغي أن أشير إلى الصعوبة التي يلقاها الباحث عن المذاهب لوجود عقبات التعصب ، وترسبات الطائفية ، وأن أكثر من كتب في هذا الموضوع لم يساعده التوفيق على ترويض نفسه لتحمل الصعوبات ، وقد استعرضنا في أبحاثنا هذه إلى كشف الحقيقة وإظهار الواقع ، وإن كنا قد تعمدنا ترك أشياء كثيرة ربما يكون بذكرها احتمال تحامل أو طعن ، ونحن نبرأ إلى الله من ذلك ، فلم نقصد إلا الخدمة للمصلحة العامة ، ومحاربة تلك النعرات التي من ورائها خصومات وتشاجر ، وفرقة وتباعد ، واتهام بالباطل وهضم للحقائق وظلم للتاريخ .

وقد رأينا كيف انقسم العلماء في القرن الثاني إلى قسمين ، أهل حديث وأهل رأي ، وكان أهل المدينة يمثلون القسم الأول ، وأهل العراق يمثلون القسم الثاني ، وأصبح لكل جانب أنصار ومتعصبون ، واشتهر أبو حنيفة بالقياس وقلة الحديث .

سئل رقبة بن مسقلة عن أبي حنيفة فقال : هو أعلم الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما كان ، وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث . يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى (١) .

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢١٣ .

وأصبح أهل الحديث ينقمون على أهل الرأي ، حتى خرج ذلك النزاع عن حدود المقاييس العلمية ، وبلغ إلى التهاجي والتعصب ، فكان كل فريق يحاول الانتصار على الآخر ، فهذا يهجو خصمه بشعره ، وذلك يرد عليه بالمثل ، وتحيز لكل فريق جماعة ، وتعددت عوامل الفرقة حتى أدى ذلك إلى الطعن في العقائد ، والحط من الكرامات .

وفي ذلك العصر اتسع نطاق النشاط العلمي ، فكان في كل بلد إمام له مذهب ينسب إليه ، ففي الشام مذهب الاوزاعي ، وفي مصر مذهب الليث بن سعد ، وفي الكوفة مذهب سفيان الثوري وابن عيينة ، وغيرها من المذاهب التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء .

ولكن المذهب الحنفي قد سعد دون غيره برجال دونوا فيه وألفوا ، وكانت لهم السلطة التشريعية ، فأبو يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية كان يتولى نشر المذهب بقوة سلطانه ، ونفوذ أمره .

وإذا أردنا أن نقيس شهرة أبي حنيفة في عصره ، ومنزلته في مجتمعه ، فلا يعدو أن يكون واحداً من الشخصيات التي نبغت في ذلك العصر ، بل كان الكثير منهم يفوقه بالشهرة .

ولكنه على مر الزمن أصبح أبو حنيفة يذكر اسمه بالاعجاب في العالم الإسلامي فان ذلك يجب أن يلاحظ كنتيجة للعصور المتأخرة ولتلامذة أبي حنيفة ، وعلى الأخص لمحمد بن الحسن الشيباني . فقد كتبوا كتباً ودونوا فيها كل العلوم والتجارب ، وأضافوها إلى السلف وختموا كل ذلك بخاتم راويهم الأخير وهو أبو حنيفة ، فكان من أجل ذلك عند الأجيال المتأخرة هو المبدع الوحيد ، والمؤسس لعلم الفقه وطريقته ، والفقهاء الكبار الذين عاشوا قبله والذين عاصروه لا يعرف عنهم شيء ، من أجل نقص الكتب التي تحمل اسمهم. ومن ناحية أخرى فقد كانت مساهمة تلامذة أبي حنيفة في تكوين الروايات وتكميلها غير منفصلة عن عمل استاذهم (١) .

وكان لتلامذة أبي حنيفة آراء خاصة فانك تجد في كتب الحنفية أقوال أبي يوسف ، ومحمد بن الحسن وزفر بن الهذيل ، حسب ما يظهر لهم من المعاني والآثار فوافقوا أبا حنيفة في بعضها ، وخالفوه في كثير من الآراء والأقوال ، وقد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المخالفة لأبي حنيفة أقوالا له رجع

---

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٣٥ .

عنها، أو أن أبا حنيفة جعل ما يصح من الحديث مذهباً له ، فتكون أقوال تلامذته التي اجتهدوا فيها واستخرجوها من الأحاديث هي أقوال أبي حنيفة وآراءه . وبهذا تكون المذهب ونسب المجموع إليه .

وهكذا مذهب مالك بن أنس فقد تولى نشره سلطان الأندلس ، عندما بلغه ثناء مالك عليه . وكان يحيى بن يحيى المتوفى سنة ٢٣٣ ه مكيناً عنده ، قال أحمد بن خالد : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام ، من الحظوة وعظيم القدر ، وجلالة الذكر ما اعطيه يحيى بن يحيى .

وكان السلطان لا يولي قاصياً في أقطار الاندلس الا بمشورته واعتباره ، ولا يشير إلا باصحابه ، والناس سراع إلى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون به بلوغ ما يرضيهم (١) .

كما أن مالك نفسه كان مكيناً عند العباسيين يصلونه بجوائزهم ، ويرفعون من شأنه ، حتى أن الأمراء كانوا يخشون سطوته ، والحرس يأتمرون بأمره ، بسجن من يريد سجنه ، وإطلاق من يريد إطلاقه ، وكان يحضر عند الوالي فيعرض عليه السجن فيأمره بضرب هذا مائة ، وهذا مائتين ، وقطع هذا ، وصلب ذاك (٢) .

وحاول المنصور أن يجعل مالك هو المصدر للتشريع ، فنهى غيره من العلماء عن الإفتاء ، وطلب منه أن يضع كتاباً يحمل الناس على العمل به .

وقد رأينا فيما سبق أن المنصور قد غضب عليه قبل ذلك لفتوى تخالف غرضه ، فعذب مالك وضرب خمسين سوطاً حتى انخلعت كتفه ، وهذا ما يدلنا على أن المنصور يناصر العلماء ما لم تمس تعاليم أحدهم بصالح سلطانه ، فهو يرى أن مركز الخلافة فوق كل شيء ، وقد طارد العلماء الذين انتقدوا اعماله .

أما الشافعي وهو تلميذ مالك ومن عداد أهل الحديث ، فقد انتشر مذهبه بمصر بواسطة تلامذته . ومكانتهم في مجتمعهم . وقد زاحم مذهبه مذهب مالك حتى تعصب عليه اصحاب مالك فقتلوه شهيداً (٣) وجاءت الدولة الأيوبية ، وكان ملوكها شافعية ، فناصروا مذهب الشافعي ونشروه ، وبنوا له المدارس فاقبل الناس عليه .

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١١٦ .
(٢) مالك بن أنس لامين الخولي ص ٣١٩ .
(٣) توالي التأسيس لابن حجر ص ٨٦ .

وقد أشرنا عن قريب في هذا الجزء إلى مذهب أحمد وانتشاره ، وكيف تكون ، فلا نطيل الحديث بذلك .

وصفوة القول إن المذاهب الأربعة المعمول بها كانت تنتشر تحت تأثير عوامل لو ساعدت غيرها من المذاهب السنية المعمول بها في ذلك الزمن لطال عمرها ، وامتد الزمن بها ، كمذهب الأوزاعي ، والظاهري ، وابن جرير والأعمش ، والليث بن سعد وغيرهم .

وكان من وراء تأثير الدعاية القوية للمذاهب الأربعة ومناصرة السلطات لها أن أقبل الناس عليها وهجروا ما سواها ، وقد صدر مرسوم في عهد المنتصر العباسي ، يقضي بالالتزام بقول المشايخ السابقين ، وأن لا يذكر قول مع أقوالهم ، وأفتى علماء الأمصار بوجوب اتباع المذاهب الأربعة ، وتحريم ما عداها ، وبهذا اغلق باب الاجتهاد في وجوه أتباع المذاهب الأربعة . ولا قائل من السلف بغلق باب الاجتهاد ، وبهذا سارت المذاهب الأربعة في طريق الانتشار دون غيرها من المذاهب السنية المعمول بها كما تقدم . وقد تكفلت أبحاثنا في هذا الكتاب باجزائه جميعاً ، كل ماله علاقة بتكوين المذاهب وانتشارها .

وفي الختام ابتهل إلى الله تعالى أن يتقبل اعمالنا ، ومنه وحده عز وجل أطلب المكافأة والجزاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، كما نسأله تعالى مكافأة من شجعنا من الأدباء في تقريظ هذا الكتاب نظماً ونثراً ، وسننشر ذلك في كلمة الختام مع الشكر والتقدير لهم. وإلى هنا ينتهي الجزء الرابع وإلى اللقاء في الجزء الخامس إن شاء الله .

« وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

فهرست المجلد الثاني

(الجزء الثالث والجزء الرابع)

الجزء الثالث :

عرض وتمهيد ٧
الامام الصادق : المدرسة والمذهب والشيعة ١٧
أخطاء وأكاذيب ٣٥
الامام الصادق : أصحابه وحملة فقهه ٤٧
أبان بن تغلب ٥٣
مؤمن الطاق ٦٧
هشام بن الحكم ٧٧
الفرق الإسلامية في عصر الامام الصادق ١١٢
الامام الصادق : وصاياه وحكمه ١٢٨
المذاهب الأربعة : التزام وآراء ١٤٠
آراء حول الاجتهاد والتقليد ١٥٦
الامام الشافعي ١٧٣
حياته العلمية ١٨٧
آراؤه وأقواله ٢٠٩
عصره ومذهبه وأخباره ٢٢١
تعقيب وتصويب ٢٥٥

الجزء الرابع :

من آيات الله البينات ٢٦٩
تقديم وبيان ٢٧١
الامام الصادق : لمحات من تاريخ حياته ٢٨١
الامام الصادق : قبس من سيرته وتعاليمه ٢٨٩
الامام الصادق : الدعوة الصامتة ٣١٧
الامام الصادق : انطباعات عن شخصيته ٣٢٩

الامام الصادق : فصول من حكمه ٣٤٣
مشكلة الغلاة ٣٦٧
الامام الصادق : أجوبة ومناظرات ٤٠٧
الامام أحمد بن حنبل : نسبه ونشأته ٤٣٩
الامام أحمد بن حنبل في محنته ٤٤٩
الامام أحمد بن حنبل : حياته العلمية ٤٦٧
الامام أحمد بن حنبل : عصره وحوادثه ٤٨٣
نظرة عامة ٥٢٩


ETS. ABDEL-HAFIZ BSAT
BEYROUTH
LIBAN









